يُطبع لأول مرة محققاً

إتحاف السادة المتقين

للسيد الإمام

محمد بن محمد بن محمد المرتضى الحسيني الزبيدي

بشرح

إحياء علوم الدين

لحجة الإسلام الإمام

محمد بن محمد بن محمد الطوسي الغزالي

تحقيق

أشرف محمد أحمد

راجعه ودققه

عثمان أيوب البوريني

محمد سميح الشيخ حسين

النور

2024

المجلد الثالث وفيه تتمة كتاب العلم من الباب الرابع إلى آخر الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الرابع:

في سبب إقبال الخلق على علم الخلاف، وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها

أما علم الخلاف[1] فهو علم يُعرَف به كيفية إيراد الحجج الشرعية، ودفع الشُّبَه وقوادح الأدلة الخلافية بإيراد البراهين القطعية وهو الجدل الذي هو قِسم من المنطق، إلا أنه خُصَّ بالمقاصد الدينية، وقد يُعرَّف بأنه علم يُقتدَر به علىٰ حفظ أي وضع وهدم أي وضع كان بقدر الإمكان، ولهذا قيل: الجدلي إما مجيب يحفظ وضعًا أو سائل يهدم وضعًا، وذكر ابن خلدون في مقدمة تاريخه[2] أن الفقه المستنبَط من الأدلة الشرعية كثُر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم خلافًا لا بد من وقوعه، واتسع في الملة اتساعًا عظيمًا، وكان للمقلِّدين أن يقلدوا مَن شاءوا، ثم لما انتهىٰ ذلك إلىٰ الأئمة الأربعة، وكانوا بمكان من حُسن الظن اقتصر الناس علىٰ تقليدهم، فأقيمت هذه الأربعة أصولاً للملَّة، وأُجري الخلاف بين المتمسِّكين بها مجرىٰ الخلاف في النصوص الشرعية، وجرت بينهم المناظرات في تصحيح كلٍّ منهم مذهب إمامه يجري علىٰ أصول صحيحة، ويحتجُّ بها كلٌّ علىٰ صحة مذهبه، فتارةً يكون الخلاف بين الشافعي ومالك، وأبو حنيفة يوافق أحدَهما، وتارةً بين غيرهم كذلك، وكان في هذه المناظرات بيان مآخذ هؤلاء، فتسمَّىٰ: الخلافيات، ولا بد لصاحبه من معرفة القواعد التي يُتوصَّل بها إلىٰ استنباط الأحكام كما يحتاج إليها المجتهد الأول، [إلا أن] المجتهد يحتاج

---

(١) كشف الظنون ١/ ٧٢١.

(٢) مقدمة ابن خلدون ٥/ ٢٠٩ - ٢١٠ (ط - الدار البيضاء).

إليها للاستنباط، وصاحب الخلاف يحتاج إليها لحفظ تلك المسائل من أن يهدمها المخالف بأدلته، وهو علم جليل الفائدة، وكتب الحنفية والشافعية أكثر من تآليف المالكية؛ لأن أكثرهم أهل المغرب وهو بادية، وللغزالي فيه كتاب «المأخذ»، ولأبي بكر ابن العربي كتاب «التلخيص» جاء به من المشرق، ولأبي زيد الدبُّوسي كتاب «التعليقة»، ولابن القصَّار من المالكية «عيون الأدلَّة». ا.هـ.

ومن الكتب المؤلَّفة فيه أيضًا: المنظومة النَّسَفية[١]، وخلافيات الإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، جمع فيه المسائل المختلَف فيها بين الشافعي وأبي حنيفة.

وأما علم الجدل[٢] فهو علم باحث عن الطرق التي يُقتدَر بها علىٰ إبرام ونقضٍ، وهو [من فروع علم النظر ومبنىٰ لعلم الخلاف، مأخوذ من الجدل الذي هو] أحد أجزاء علم[٣] المنطق، لكنه خُصَّ بالعلوم الدينية، ومبادئه بعضها نظرية[٤]، وبعضها خِطابية، وبعضها أمور عادية، وله استمداد من علم المناظرة المشهور بآداب البحث[٥]، ولا يبعُد أن يقال: إن علم الجدل هو علم المناظرة؛ لأن المآل منهما واحد، إلا أن الجدل أخصُّ منه، ويؤيِّده كلام ابن خلدون في مقدمة كتابه[٦]، حيث قال: الجدل هو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية

---

(١) المنظومة النسفية في الخلاف، لأبي حفص عمر بن محمد بن أحمد النسفي المتوفىٰ سنة ٥٣٧، أولها:

باسم الإله رب كل عبد   والحمد لله ولي الحمد

(٢) كشف الظنون ١/ ٥٧٩.

(٣) في الكشف: مباحث.

(٤) في الكشف: بعضها مبينة في علم النظر.

(٥) بعده في الكشف: وموضوعه تلك الطرق، والغرض منه تحصيل ملكة النقض والإبرام، وفائدته كثيرة في الأحكام العلمية والعملية من جهة الإلزام علىٰ المخالفين.

(٦) مقدمة ابن خلدون ٥/ ٢١٠ - ٢١١. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

وغيرهم؛ فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعًا[١] ومن الاستدلال ما يكون صوابًا وما يكون خطأ، فاحتاج [الأئمة] إلىٰ وضع آداب وقواعد يُعرَف منه حال المستدل والمجيب[٢]، ولذلك قيل فيه: إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يُتوصَّل بها إلىٰ حفظ رأيٍ أو هدمه، كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره، وهو طريقان: طريق البَزْدوي وهي خاصة بالأدلة الشرعية من النص والإجماع والاستدلال[٣]، وطريق ركن الدين العميدي وهي عامة في كل دليل يُستدل به من أيِّ علمٍ كان[٤]، والمغالطات فيه [في نفس الأمر] كثيرة، وإذا اعتُبر بالنظر المنطقي كان في الغالب أشبه بالقياس المغالطي والسوفسطائي، إلا أن صور الأدلة والأقيسة فيه محفوظة مراعاة تُتحرَّىٰ فيها طرق الاستدلال كما ينبغي، وهذا العميدي [هو] أول مَن كتب فيها فنُسبت الطريقة إليه، ووضع كتابه المسمَّىٰ بالإرشاد مختصرًا، وتبعه مَن بعده من المتأخرين كالنسفي وغيره[٥]، وكثرت[٦] في الطريقة التآليفُ، وهي لهذا العهد [كأنها] مهجورة؛ لنقص العلم [والتعليم] في الأمصار [الإسلامية] وهي - مع ذلك - كمالية، وليست ضرورية. ا.هـ.

وقال المولىٰ أبو الخير[٧]: وللناس فيه طرق، أحسنها طريق ركن الدين العميدي، وأول مَن صنَّف فيه من الفقهاء أبو بكر القفَّال الشاشي المتوفىٰ سنة

---

(١) بعده في المقدمة: وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب مرسل عنانه في الاحتجاج.

(٢) في المقدمة: احتاج الأئمة أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً، وكيف يكون مقطوعاً، ومحل اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال.

(٣) في المقدمة: والقياس.

(٤) بعده في المقدمة: وأكثره استدلال، وهو من المناحي الحسنة.

(٥) بعده في المقدمة: جاءوا علىٰ إثره، وسلكوا مسلكه.

(٦) في المطبوعة: وكتب. والمثبت من الكشف والمقدمة.

(٧) مفتاح السعادة ١/ ٢٨١ - ٢٨٢. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

٣٣٦. وقال بعض العلماء: إياك أن تشتغل بهذا الجدل الذي ظهر بعد انقراض الأكابر من العلماء؛ فإنه يُبعِد عن الفقه، ويضيع العمرَ، ويورِث الوحشةَ والعداوة، وهو من أشراط الساعة [وارتفاع العلم والفقه] كذا [ورد] في حديث، ولله دَرُّ القائل[1]:

أرىٰ الفقهاء في ذا العصر طَرًّا أضاعوا العلم واشتغلوا بلم لم

إذا ناظرتَهم لم تلقَ منهم سوىٰ حرفين لم لم لا نسلم

وأما علم المناظرة[2] المعروف الآن بآداب البحث فقد ذكر طاش كبري في «مفتاح السعادة»[3] والمولىٰ لطفي في موضوعاته أنه: علم يُبحَث فيه عن كيفية إيراد الكلام بين المناظرين، وموضوعه الأدلة من حيث إنها يثبت بها المُدَّعَىٰ علىٰ الغير، ومبادئه أمور بيِّنة بنفسها، والغرض منه تحصيل مَلَكة طرق المناظرة؛ لئلاَّ يقع الخبطُ في البحث فيتضح الصواب.

وفي [الفوائد] الخاقانية لابن صدر الدين: وهذا العلم كالمنطق يخدم العلوم كلَّها؛ لأن البحث والمناظرة عبارة عن النظر من الجانبين في النسبة بين الشيئين

---

(١) هو داود بن محمد بن عبد الله بن أبي شافيز البحراني، الأديب والشاعر والمناظر الشيعي الاثني عشري المتوفىٰ سنة ١٠١٢، والبيتان في كتاب أنوار البدرين لعلي البحراني ص ٨٠ (ط - مطبعة النعمان بالنجف) والرواية فيه:

أنـاس في أول قـد تصـدوا لمحـو العلـم واشتغلوا بلـم لـم

إذا جادلتهم .... الخ. وذكر البحراني أنه تصدىٰ لمباحثة الحسين بن عبد الصمد العاملي لما قدم البحرين وزاروه ثم زارهم، وجرىٰ البحث بينهما، فلما انفض المجلس ورجع الحسين العاملي إلىٰ بيته كتب داود هذين البيتين.

(٢) كشف الظنون ١/ ٣٨. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٣) مفتاح السعادة ١/ ٢٨٠.

إظهارًا للصواب، وإلزامًا للخصم، إلا أنه بشرائط معتبرة[١] وإلا كان مكابَرة غير مسموعة، فلا بد من قانون تُعرَف به مراتب البحث علىٰ وجه يتميَّز به المقبول عما هو المردود، وتلك القوانين هي [علم] آداب البحث. ا.هـ.

وفيه مؤلَّفات أكثرها مختصرات وشروح للمتأخرين، وأول مَن صنَّف فيه الشمس محمد بن أشرف الحسيني السمرقندي المتوفىٰ سنة ٦٩٠، والعلاَّمة عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي المتوفىٰ سنة ٧٥٦.

(اعلمْ أن الخلافة بعد رسول الله ﷺ تولاَّها الخلفاء الراشدون المهديُّون) وهم الخلفاء الأربعة وعمر بن عبد العزيز **(وكانوا أئمة)** علىٰ الحق **(علماء بالله تعالىٰ)** أي بذاته وصفاته **(فقهاء في أحكامه)** وأوامره **(وكانوا مشتغلين)** بأنفسهم **(بالفتاوىٰ في الأقضية)** أي الأحكام **(فكانوا لا يستعينون بالفقهاء)** من الصحابة **(إلا نادرًا في)** بعض **(وقائع)** ونوازل **(لا يُستغنَىٰ فيها عن المشاورة)** كمسألة الجد والأخوات وغيرها، كما سيأتي، فكان الذي يتولَّىٰ أمورَ الناس هو الذي يفتي في الأحكام **(فتفرَّغوا)** وفي نسخة: فتفرغ العلماء **(لعلم الآخرة)** كعلم الإيمان واليقين المستفادينِ من القرآن والحديث **(وتجرَّدوا له)** بهممهم وكليتهم **(وكانوا يتدافعون الفتاوىٰ وما يتعلق بأحكام الخَلْق من الدنيا)** قال صاحب القوت[٢]: وروينا عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ قال: أدركتُ في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ، ما منهم من أحد يُسأل عن حديث أو فُتيا إلا ودَّ أن أخاه كفاه ذلك. وفي لفظ آخَر: كانت المسألة تُعرَض علىٰ أحدهم فيردها إلىٰ الآخَر، ويردها الآخر إلىٰ الآخر حتىٰ ترجع إلىٰ الذي سُئل عنها أولَ مرة.

---

(١) في الكشف بعد قوله «للخصم»: والمسائل العلمية تتزايد يومًا فيومًا بتلاحق الأفكار والأنظار، فلتفاوت مراتب الطبائع والأذهان لا يخلو علم من العلوم عن تصادم الآراء وتباين الأفكار وإدارة الكلام من الجانبين للجرح والتعديل والرد والقبول وإلا لكان مكابرة ... الخ.

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٢٨.

وسيأتي أنهم كانوا يتدافعون أربعة أشياء: الإمامة والوديعة والوصية والفتوىٰ، وكان شغلهم في خمسة أشياء: قراءة القرآن، وعمارة المساجد، وذِكر الله تعالىٰ، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكَر (**وأقبلوا علىٰ الله تعالىٰ بكُنْه اجتهادهم**) أي خالصه وحقيقته (**كما نُقل من سِيَرهم**) وشمائلهم، ومَن طالَعَ كتاب الحلية لأبي نعيم وجد ما يشفي الغليل (**فلما أفضت الخلافةُ بعدهم إلىٰ أقوام**) تغلَّبوا عليها بالمال والجاه و(**تولَّوها بغير استحقاق**) لها، ولا أهلية للقيام بأركانها (**ولا استقلال بعلم الفتاوىٰ والأحكام**) الشرعية؛ لغلبة الجهل عليهم، أو لاشتغالهم باللذات النفسية (**اضطروا إلىٰ الاستعانة بالفقهاء**) واحتاجوا لهم (**وإلىٰ استصحابهم**) ومرافقتهم (**في جميع أحوالهم**) سفرًا وحضرًا (**لاستفتائهم في مجاري أحكامهم**) وفي القوت[1]: قال عبد الرحيم بن يحيىٰ الأسود وغيره من العلماء: إن علم الأحكام والفتاوىٰ كان الولاة والأمراء يقومون به، وترجع العامَّة إليهم فيه، ثم ضعف الأمر وعجزت الولاة عن ذلك؛ لميلهم إلىٰ الدنيا وشغلهم بالحروب عنها، فصاروا يستعينون علىٰ ذلك بعلماء الظاهر وبالمفتين في الجوامع، وكان الأمير إذا جلس للمظالم قعد عن يمينه وشِماله مفتيان يرجع إليهما في القضاء والأحكام، ويأمر الشُّرَط بمثل ذلك، فكان من الناس من يتعلم علم الفتيا والقضاء ليستعين بهم الولاة علىٰ الأحكام والقضاء، حتىٰ كثر المفتون رغبةً في الدنيا، وطلبًا للجاه والرياسة، ثم أخلق الأمر بعد ذلك حتىٰ تركت الولاةُ الاستعانةَ بالعلماء.

(**وكان قد بقي من**) طبقة (**علماء التابعين مَن هو مستمر علىٰ الطراز الأول**) أصل الطراز: عَلَمُ الثوب، ثم استُعير للنمط والطريقة، وبه فُسِّر قول حسان[2]:

بِيض الوجوه كريمةٌ أحسابُهم ... شُمُّ الأنوف من الطِّراز الأول

(١) قوت القلوب ١/ ٢٣٠.

(٢) البيت في ديوانه ص ١٨٤.

(وملازم صِغْو الدين) هو بكسر الصاد المهملة وسكون الغين المعجمة: الجانب والناحية (ومواظب على سَمْت) أي طريقة (علماء السلف) من الصحابة (فكانوا إذا طُلبوا) لتولية القضاء والفتيا في الأحكام (هربوا) من بلد إلىٰ بلد، ومنهم مَن أظهر الجنون والتحامُق (وأعرضوا) عن ذلك بالكلية، كما سيأتي تفصيله عن زيد بن أبي خِداش أن الثوري لقي شريكًا فقال: بعد الفقه والخير تلي القضاء؟! قال: يا أبا عبد الله، وهل بُدٌّ للناس من قاضٍ؟ فقال سفيان: وهل بُدٌّ للناس من شرطيٍّ؟! (فاضطر الخلفاء) والأمراء (إلىٰ الإلحاح) والحث (في طلبهم لتولية القضاء والحكومات) في أمور الخلق، فلم يمكنهم ذلك، ومنهم مَن أُدرِك وولي كرهًا (فرأىٰ أهلُ تلك الأعصار) الموجودين (عِزَّ العلماء) بالله تعالىٰ (وإقبال الأئمة والولاة عليهم) والإصغاء لقولهم (مع إعراضهم عنهم) وعدم التفاتهم إليهم، كما هو معلوم لمَن طالَعَ تراجم الإمام أبي حنيفة وسفيان الثوري ومَن في عصرهما من الأئمة (فاشرأبُّوا) أي مالت نفوسهم (لطلب العلم) أي علم الفتيا والأحكام (توصُّلاً إلىٰ نيل العز ودرك الجاه من قِبَل الولاة) والحكام (فأكبُّوا) أي واظبوا. وفي نسخة: فأقبلوا (علىٰ علم الفتيا) وما يتعلق به تحصيلاً واكتسابًا (و) حين توشَّحوا بذلك (عرضوا أنفُسهم) وفي نسخة: نفوسهم (علىٰ الولاة) ليُولُّون تلك المناصب (وتعرَّفوا إليهم) بالوسائط والشفاعات (وطلبوا الولايات) للأعمال (والصِّلات) أي العطايا (منهم، فمنهم مَن حُرِمَ) قصده، أي مُنع (ومنهم مَن أنجح) أي أُعطي له ما تمنَّاه (والمنجح) منهم (لم يَخْلُ عن ذل الطلب ومهانة الابتذال) لأنها لوازم السائل (فأصبح) السادة (الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين، وبعد أن كانوا أعزَّة بالإعراض عن) الملوك و(السلاطين) والأمراء يقربون منهم (أذلَّة بالإقبال عليهم) والاتصال بحواشيهم، وكم من فرقٍ بين المطلوب والطالب، والعزيز والذليل (إلا مَن وفَّقه الله عَزَّوَجَلَّ في كل عصر من علماء دينه) وفي نسخة: من العلماء بالله تعالىٰ. وهذا في زمانه، وأما الآن فقد أخلق الأمرُ جدًّا، وتضعضع ركنُ العلماء، فصاروا أذل من كل ذليل، وتُركت الاستعانة بهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله، والله المستعان.

(**وقد كان أكثر الإقبال في تلك الأعصار علىٰ علم الفتاوىٰ والأقضية**) دون غيره (**لشدة الحاجة**) أي حاجة الأمراء (**إليها في الولايات والحكومات**) والعامة تبعٌ لهم (**ثم ظهر بعدهم من الصدور**) أي الأكابر الذين يتصدَّرون في المجالس (**والأمراء مَن يسمع مقالات الناس**) أي أقاويلهم (**في قواعد العقائد**) الإسلامية (**ومالت نفسه إلىٰ سماع الحجج فيها**) والتطلُّع إلىٰ أقوال المخالفين، والرد علىٰ كلامهم بالبراهين (**فغلبت رغبتُه إلىٰ المناظرة**) أي ميله إلىٰ المباحثة علىٰ قواعد النظر (**والمجادلة**) علىٰ قواعد الجدل (**في الكلام، فانكبَّ الناس**) أي اجتمعوا مشتغلين (**علىٰ علم الكلام**) وتحصيله (**وأكثروا فيه التصانيف**) وفي نسخة: التعاليق (**ورتَّبوا فيه طرق المجادلات**) علىٰ طريقة ركن الدين العميدي (**واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات**) بتكثير الكلام فيها (**وزعموا**) قائلين (**إن غرضنا**) من هذا (**الذبُّ**) أي الدفع (**عن دين الله**) عَزَّوَجَلَّ، وحماية حوزته (**والنضال**) أي المدافعة (**عن السنَّة**) الشريفة (**وقمع**) الطائفة (**المبتدعة**) من المعتزلة والقَدَرية وغيرهما من الفِرَق الضالَّة (**كما زعم مَن قبلهم**) من المشتغلين (**أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوىٰ الدينُ**) حسبةً لله تعالىٰ (**وتقلُّدُ أمور المسلمين**) بحُسن التوسُّط بينهم (**إشفاقًا علىٰ خلق الله ونصيحة لهم**) وربما تعلَّقوا بحديث «النصح لكل مسلم» ونزَّلوا معناه علىٰ أفعالهم (**ثم ظهر بعد ذلك من الصدور مَن لم يستصوب الخوضَ**) أي لم يَرَ الخوض (**في الكلام وفتح باب المناظرة**) والمجادلة (**فيه**) صوابًا (**لمَّا كان قد تولَّد من فتح بابه من التعصُّبات الفاحشة**) والحَمِيَّات الشيطانية (**والخصومات الفاشية**) الظاهرة. وفي نسخة: الناشئة، بالنون (**المفضية**) أي الموصلة (**إلىٰ إهراق الدماء، وإخراب البلاد**) ومن أعظمها فتنة الوزير أبي نصر منصور بن محمد الكُنْدُري الذي كان معتزليًّا، خبيث العقيدة، متعصِّبًا للكَرَّامية والمجسِّمة في زمن السلطان طُغْرُلْبَك السلجوقي، فأدَّت إلىٰ خروج إمام الحرمين والحافظ البيهقي والإمام أبي القاسم القشيري وغيرهم من أئمة السنَّة من نيسابور، وقد طار شَرَرُ هذه الفتنة فملأ الآفاق، وطال ضررُها فشمل خراسان والشام والحجاز والعراق، وعظُم خطبُها،

ونُهبت البلاد، وأُخربت البلدان، وفي ذلك صنَّف القُشَيري رسالة إلىٰ البلاد سمَّاها «شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة»، وقد جالت هذه الرسالة في البلاد، وانزعجت نفوس أهل العلم بسببها، حسبما أوردها مع تفصيل الفتنة ابن السبكي في طبقاته[1]، فراجعْه إن شئتَ (**ومالت نفسه**) لذلك (**إلىٰ المناظرة في الفقه**) فقط بالرد والنقض علىٰ المخالفين (و) اختار من ذلك (**بيان الأولىٰ**) والأرجح (**من مذهب**) الإمام (**الشافعي و**) الإمام (**أبي حنيفة** ﷺ **علىٰ الخصوص**) لشهرتهما وكثرة مَن قلَّد مذهبهما في غالب الأقطار (**فترك الناس الكلام وفنون العلم وأقبلوا**) وفي نسخة: وانثالوا (**علىٰ المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة علىٰ الخصوص**) وقد تقدم عن ابن خلدون قال في مقدمة تاريخه: لما انتهىٰ الأمر إلىٰ الأئمة الأربعة - وكانوا بمكان من حُسن الظن - اقتصر الناس علىٰ تقليدهم، فأقيمت هذه الأربعة أصولاً للملَّة، وأُجرِيَ الخلاف بين المتمسكين بها، فجرىٰ الخلاف في النصوص الشرعية، وجرت بينهم المناظرات في تصحيح كلٍّ منهم مذهب إمامه يجري علىٰ أصول صحيحة، ويحتجُّ بها كلٌّ علىٰ صحة مذهبه (**وتساهلوا في الخلاف مع مالك**) رحمه الله؛ لأن أكثر مقلِّدي مذهبه مغاربة وهم بادية، فلذلك لم يصنفوا فيه كتبًا إلا ما كان من المتأخرين منهم (**وسفيان**) بن سعيد الثوري (**وأحمد**) بن حنبل؛ لقلة مقلِّدي مذهبهما بالنسبة إلىٰ الأولين (**وغيرهم**) من الأئمة (**وزعموا أن غرضهم**) من ذلك (**استنباط**) أي استخراج (**دقائق الشرع**) وبيان المآخذ (و) معرفة القواعد التي يُعرَف منها (**تفريغ**) وفي نسخة: تقرير (**علل المذهب، وتمهيد أصول الفتاوىٰ**) مع المحافظة عليها من هدم مخالفٍ أو نقض مصادم (**فأكثروا فيها التصانيف**) والتعاليق منظومة ومنثورة (**والاستنباطات**) الغريبة (**ورتَّبوا فيها أنواع المجادلات**) والخصومات (**والتصنيفات**) فمن ذلك تعليقة أبي زيد الدبُّوسي من الحنفية، وخلافيات الحافظ البيهقي، وغير هؤلاء (**وهم مستمرُّون عليه إلىٰ الآن**)

---

(١) طبقات الشافعية الكبرىٰ ٣/ ٣٨٩ - ٤٢٣.

أي إلىٰ زمان تأليف الكتاب وهو سنة ثمان وتسعين وأربعمائة **(ولسنا ندري ما الذي يُحدِث اللهُ فيما بعدنا من الأعصار)** قلت: ثم تعاظم الأمرُ في ذلك، وأوسعوا فيه الكلام ومالوا إليه مرة واحدة بحيث لا يُعَدُّ العالِم فيما بينهم إلا إذا استكمل الخلافَ والجدل، وحصلت المناظرات بين الحنفية والشافعية، وترتَّب علىٰ ذلك تخريب بعض البلاد، وإجلاء بعض العلماء، ومن أعظمها ما حصل بمَرْو أم مدن خراسان بسبب ابن السمعاني[1] وغيره **(فهذا)** الذي ذكرتُ **(هو الباعث)** لهم **(علىٰ الإكباب)** والإقدام **(علىٰ الخلافيات والمناظرات)** والجدل **(لا غير، ولو مالت نفوس أرباب الدنيا)** وأمرائها **(إلىٰ الخلاف مع إمام آخَر من الأئمة)** غير مَن ذُكروا **(أو إلىٰ علم آخر من العلوم لمالوا أيضًا معهم)** كما اتفق لملوك الروم[2]، وميلهم إلىٰ علوم الفلاسفة، فاشتغل الناس بتحصيلها من كل وجه، وامتلأت المدارس الشرعية بمن يحصِّلها، وأوسعوا فيها من التآليف، ووقعت الحكومات والمنافسات، وأعطوا علىٰ ذلك أموالاً، فوجب صرفُ العناية إليها، ولم تندثر تلك العلوم من بلاد الروم إلا عن قريب، وهذا كما قيل: الناس علىٰ دين ملوكهم **(ولم يسكتوا عن التعلُّل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين، وأن لا مطلب لهم)** من تحصيله

---

(١) هو أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار التميمي، وكان والده من أئمة الحنفية، ولذا كان أبو المظفر بارعـًا في المذهب الحنفي أول أمره، ولما عاد إلىٰ خراسان سنة ٤٦٨ بعد أداء الحج رجع عن مذهب أبي حنيفة وتمذهب بمذهب الشافعي، فهجره أخوه أبو القاسم عليٌّ فترة ثم قبل عذره، وحدثت فتنة كبرىٰ بين الشافعية والحنفية كادت تملأ ما بين خراسان والعراق، واضطرب أهل مرو لذلك اضطرابـًا شديدًا، وأغلق باب الجامع القديم، وترك الشافعية الجمعة، وصارت السمعانية شافعية بعد أن كانوا حنفية، ووردت الكتب من ولي البلد ملكانك يأمر بخروجه من مرو، فخرج صحبة طائفة من أصحابه، وقصد نيسابور، فاستقبله أهلها استقبالًا عظيمًا، وأكرمه نظام الملك، وحظي بالقبول عند الخاصة والعامة واستحكم أمره في مذهب الشافعي، ثم عاد إلىٰ مرو وعقد له مجلس التدريس في مدرسة أصحاب الشافعي، وعلا شأنه، واستقر أمره حتىٰ وفاته سنة ٤٨٩. طبقات السبكي ٥/ ٣٣٦ – ٣٤٥.

(٢) يعني سلاطين الدولة العثمانية.

(سوىٰ التقرب إلىٰ رب العالمين) وقد أخطأوا فيما زعموا

وكلٌّ يدَّعي وصلاً بليلىٰ وليلىٰ لا تقرُّ لهم بذاكا[١]

ثم إن الشيخ رحمه الله تعالىٰ ذكر سبب الإقبال علىٰ علم الخلاف والانكباب عليه، ولم يذكر الأسباب الموجِبة للخلاف في هذه الملّة، وهي ثمانية:

الأول: اشتراك الألفاظ والمعاني.

الثاني: الحقيقة والمجاز.

الثالث: الإفراد والتركيب.

الرابع: الخصوص والعموم.

الخامس: الرواية والنقل.

السادس: الاجتهاد فيما لا نصَّ فيه.

السابع: الناسخ والمنسوخ.

الثامن: الإباحة والتوسيع.

وتفصيل ذلك في كتاب ألَّفه أبو محمد عبد الله بن السيد البطليوسي[٢]، وهو حسنٌ في بابه، فراجعْه إن شئتَ.

* *

(١) ينسب هذا البيت إلىٰ مجنون ليلىٰ، ولم أقف عليه في ديوانه المطبوع. وبعضهم يرويه: وكلا يدعي وصلًا بسلمىٰ، وينسبه لأبي العتاهية، وليس هو في ديوانه المطبوع أيضاً. والظاهر أنه من الشعر الذي يجهل قائله.

(٢) هو كتاب: الإنصاف في التنبيه علىٰ المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم. وهو صغير مطبوع متداول.

* (**بيان التلبيس**) أي التخليط (**في تشبيه هذه المناظرات**) التي تجري بينهم (**بمشاورات الصحابة**) ﷺ (**ومفاوضات السلف**) الصالحين.

(**اعلمْ أن هؤلاء قد يستدرجون الناس إلىٰ ذلك**) أي يأخذونهم علىٰ طريق الاستدراج (**بأن غرضنا من المناظرات المباحثةُ عن الحق**) والتفحُّص عنه لنتَّبعه (**ليتَّضح**) وضوحًا كليًّا (**فإن الحق مطلوب**) لا محالة (**والتعاون علىٰ النظر**) أي طلب المعنىٰ بالقلب من جهة الفكر كما يُطلَب إدراك المحسوس بالعين (**في العلم، وتوارُد الخواطر**) بعضها علىٰ بعض (**مفيد ومؤثِّر**) تأثيرًا بليغًا، ويزعمون أنه (**هكذا كانت عادة الصحابة**) الكرام (ﷺ **في مشاوراتهم**) مع بعضهم في مسائل إذا اختُلف فيها (**كتشاورهم**) أي كما تشاوروا (**في مسألة الجد والأخوة**) فأفتىٰ فيها أبو بكر الصِّدِّيق بمشاورة الصحابة بأن أنزله أبًا، وبه أفتىٰ ابن الزبير لأهل الكوفة، كما في البخاري في مناقب الصدِّيق[1]، وبه أخذ الإمام أبو حنيفة. وأفتىٰ زيد بن ثابت بأن له مع الإخوة خير الأمرين من المقاسمة وأخذ ثلث المال، وبه أخذ الشافعي وباقي الأئمة (**وحد شرب الخمر**) فقيل: أربعين، كما في صحيح مسلم، وقيل: ثمانين، كما في البخاري[2]، وفي مسلم[3] أن عبد الله بن جعفر جلد الوليد ابن عُقْبة بين يدي

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ٨ ولفظه: عن عبد الله بن أبي مليكة قال: كتب أهل الكوفة إلىٰ ابن الزبير في الجد، فقال: أما الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «لو كنت متخذًا من هذه الأمة خليلًا لاتخذته» أنزله أبا. يعني أبا بكر.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ٢٤٦ ولفظه: عن السائب بن يزيد قال: كنا نؤتىٰ بالشارب علىٰ عهد رسول الله ﷺ وإمرة أبي بكر فصدرًا من خلافة عمر فنقوم إليه بأيدينا ونعالنا وأرديتنا، حتىٰ كان آخر إمرة عمر فجلد أربعين، حتىٰ إذا عتوا وفسقوا جلد ثمانين.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ٨١٥ ولفظه: عن أبي ساسان قال: شهدت عثمان بن عفان وأتي بالوليد قد صلىٰ الصبح ركعتين، ثم قال: أزيدكم؟ فشهد عليه رجلان أحدهما حمران أنه شرب الخمر، وشهد آخر أنه رآه يتقيأ، فقال عثمان: إنه لم يتقيأ حتىٰ شربها، ثم قال: يا علي، قم فاجلده. فقال علي: يا حسن، قم فاجلده. فقال الحسن: ولي حارها من تولىٰ قارها. فكأنه وجد عليه فقال: يا عبد الله بن جعفر، قم فاجلده. فجلده، وعلي يعد، فلما بلغ أربعين قال: أمسك. ثم قال: جلد النبي ﷺ أربعين، وجلد أبو بكر أربعين، وعمر ثمانين، وكلٌّ سنة، وهذا أحب إلي.

عثمان، وكان أخاه لأمه، وعليٌّ يعُدُّه، حتىٰ بلغ أربعين، فقال: أمسِكْ، ثم قال: جلد النبي ﷺ أربعين، وأبو بكر أربعين، وعمر ثمانين، وكلٌّ سنَّةٌ، وهذا أحب إليَّ (**ووجوب الغرم علىٰ الإمام إذا أخطأ**) في اجتهاده (**كما نُقل من إجهاض**) أي إلقاء (**امرأة جنينها**) من بطنها لغير تمام (**خوفًا من عمر** رضي الله عنه) فوداه من عنده (**وكما نُقل من مسائل الفرائض**) وهي كثيرة (**وغيرها**) مما تشاور فيه الصحابة رضي الله عنهم (**وما نُقل عن الشافعي ومحمد بن الحسن**) الشيباني (**ومالك**) بن أنس (**وأبي حنيفة**) النعمان (**وأبي يوسف**) يعقوب (**وغيرهم من العلماء رحمهم الله تعالىٰ**) كأحمد وإسحاق بن راهويه وأبي ثور في مناظراتهم مع بعضهم، وبعضُ ذلك مذكور في الطبقات الكبرىٰ لابن السبكي، فهذا هو الذي أوقع الناسَ في التلبيس (**ويطلعك علىٰ هذا التلبيس ما أذكره**) لك مفصَّلاً (**وهو أن التعاون علىٰ طلب الحق من الدين**) وقد ورد في الحديث: «طلبُ الحق غربة»[1] (**ولكن له شروط وعلامات ثمان**) بها ينتظم أمره، وبها يظهر حقُّه من باطله:

(**الأول**) من الشروط: (**أن لا يشتغل به وهو من فروض الكفايات**) كما تقدم (**من لم يتفرغ من**) تحصيل (**فروض الأعيان**) الواجبة عليه (ومَن) كان (**عليه فرض عين**) فتركه (**واشتغل بفرض كفاية وزعم أن مقصوده**) طلبُ (**الحق فهو كذاب**) وفي نسخة: كاذب (**ومثاله**) مثال (**من يترك الصلاة**) المفروضة عليه (**في نفسه ويتجرأ**) وفي نسخة: ويتجرَّد (**في تحصيل الثياب ونسجها**) وخياطتها (**ويقول: غرضي به ستر عورة من يصلي عريانًا ولا يجد ثوبًا**) يستتر به (**فإن ذلك ربما يتفق، ووقوعه ممكن**) في الخارج (**كما يزعم الفقيه أن وقوع النوادر التي عنها البحث في الخلاف**

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٥/ ٢٣، والرافعي في التدوين ٤/ ١٤٧، والهروي في منازل السائرين ص ٩، والديلمي في فردوس الأخبار ٣/ ١٨ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وهو حديث موضوع مسلسل بالصوفية.

انظر: المقاصد الحسنة للسخاوي ص ٢٧٤. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني ٢/ ٢٤٩ (ط - دار المعارف بالرياض). ميزان الاعتدال للذهبي ٣/ ١٠٧.

ممكن) الوقوع (والمشغولون في المناظرة مهملون) وفي بعض النسخ: والمستغرق بالمناظرة مهمل (لأمور) أي تارك لها (هنَّ) وفي نسخة: هي، أي تلك الأمور (فرض عين) عليه (بالاتفاق، ومَن توجَّه عليه ردُّ وديعة في الحال) وترك ذلك (فقام يُحرِم بالصلاة) وفي نسخة: فقام وتحَرَّم بالصلاة (التي هي أقرب القربات إلىٰ الله تعالىٰ) مع بقاء وقتها (عصىٰ) الله (بذلك، فلا يكفي في كون الشخص مطيعًا) لله تعالىٰ (كون فعله من جنس الطاعات ما لم يراعِ فيه الوقت) الذي يؤدَّىٰ فيه (والشروط) التي تتم بها (والترتيب) الذي به يُقبَل.

(الثاني) من الشروط: (أن لا يرىٰ فرض كفاية) من فروض الكفايات التي ذُكرت (أهم من المناظرة) وأكثر اعتناءً منها (فإن رأىٰ ما هو أهم وفعل غيره عصىٰ بفعله) هذا (وكان مثاله مثال مَن رأىٰ جماعة من العِطاش) جمع عطشان، قد (أشرفوا علىٰ الهلاك) لعدم الماء (وقد أهملهم الناس) أي تركوهم (وهو قادر علىٰ إحيائهم بأن يسقيهم الماء) وترك ذلك (واشتغل بتعلُّم الحجامة) مثلاً (وزعم أنه من فروض الكفايات) وأنه مما ينبغي الاعتناء به (و) أنه (لو خلا البلد عنها لهلك الناس، وإذا قيل له: في البلد جماعة من الحَجَّامين) قد قاموا بهذا العلم (وفيهم غُنْية) وكفاية (فيقول) مناظرًا: (هذا لا يُخرِج هذا الفعلَ عن كونه فرض كفاية. فحال من يفعل هذا ويهمل) أي يترك (الاشتغال بالواقعة الملمَّة) أي الحادثة النازلة (بجماعة العِطاش من المسلمين) وقد أشرفوا علىٰ الهلاك (كحال المشتغل بالمناظرة وفي البلد) جملة من (فروض كفايات مهملة): متروكة (لا قائم بها) ولا سائل عنها (فأما الفتوىٰ فقد قام بها جماعة) من العلماء (ولا يخلو بلد) من البلاد (عن جملة من الفروض المهمَلة) قد تركوها (ولا يلتفت الفقهاء إليها) أصلاً (وأقربها) وفي نسخة: وأكبرها (الطب) فقد ضيَّعوه رأسًا (إذ لا يوجد في أكثر البلاد طبيب مسلم) عارف ماهر (يجوز اعتماد شهادته فيما) يصف من الأودية و(يعوَّل فيه علىٰ قول الطبيب فيه شرعًا) كما هو مشاهَد في هذه الأزمان والبلاد (ولا يرغب أحد من

العلماء في الاشتغال به) لِما تقدم أنه لا تحصل به المشيخة والرياسة ولا الوصايا وحيازة الأموال.

قال(١) صالح جزرة عن الربيع: قال الشافعي: لا أعلم [علمًا] بعد الحلال والحرام أنبل من الطب، إلا أن أهل الكتاب قد غلبونا عليه.

وقال(٢) حرملة: كان الشافعي يتلهَّف علىٰ ما ضيَّع المسلمون من الطب، ويقول: ضيَّعوا ثلث العلم ووكَّلوه إلىٰ اليهود والنصارىٰ.

(وكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من فروض الكفايات) كما تقدم **(وربما يكون المُناظِر في مجلس مناظرته مشاهدًا للحرير ملبوسًا ومفروشًا)** وهو من جملة المنكَرات الشرعية، ولكن في المفروش خلاف لأبي حنيفة، كما سيأتي بيانه فيما بعدُ **(وهو ساكت)** لا ينهىٰ عن ذلك، وروىٰ(٣) أبو محمد البُسْتي السختياني نزيل مكة، حدثني الحارث بن سُرَيج قال: دخلت مع الشافعي علىٰ خادم الرشيد وهو في بيت قد فُرش بالديباج، فلما وضع الشافعي رِجله علىٰ العتبة أبصره(٤)، فرجع ولم يدخل، فقال له الخادم: ادخل. فقال: لا يحل افتراش هذا. فقام الخادم متمشِّيًا حتىٰ دخل بيتًا له فُرش بالأرمني(٥)، فدخل الشافعي، ثم أقبل عليه فقال: هذا حلال، وذاك حرام، وهذا أحسن من ذاك وأكثر ثمنًا منه. فتبسم الخادم وسكت **(و)** الحال أنه **(يناظر في مسألة)** نادرة **(لا يتفق وقوعها قطُّ، وإن وقعت قام بها جماعة من الفقهاء)** وكَفَوْه مؤنتها **(ثم يزعم)** في معتقده **(أنه يريد أن يتقرَّب إلىٰ الله تعالىٰ بفرض الكفاية)** وأخرج الخطيب في كتاب الاقتضاء(٦)

(١) تاريخ الذهبي ١٤/ ٣٣٣. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ١١٦.

(٣) معرفة السنن والآثار للبيهقي ٥/ ٣٨. حلية الأولياء ٩/ ١٢٦. تاريخ دمشق ٥١/ ٣٩٥.

(٤) أي الديباج.

(٥) في المعرفة: بالأدم.

(٦) اقتضاء العلم العمل ص ٩٤. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

قال: أخبرنا أبو نصر أحمد بن علي بن عبدوس الأهوازي إجازةً قال: سمعت محمد بن إبراهيم الأصبهاني يقول: سمعت عبد الله بن الحسين الملطي يقول: سمعت محمد بن هارون يقول: سمعت ابن أبي أُوَيس يقول: حضر رجل من الأشراف عليه ثوب حرير. قال: فتكلم مالكٌ بكلام لَحَنَ فيه. قال: فقال الشريف: ما كان لأبوي هذا درهمان [ينفقان عليه و] يعلِّمانه النحو؟ قال: فسمع مالك كلام الشريف، فقال: لأنْ تعرف ما يحل لُبسُه مما يحرُم عليك خير لك من «ضرب عبد الله زيدًا» و«ضرب زيد عبد الله».

(**وقد روىٰ أنس** رضي الله عنه **أنه قيل: يا رسول الله، متىٰ يُترَك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر؟ فقال: إذا ظهرت المداهَنةُ**) وفي رواية: إذا ظهر الادهان، أي الملاينة وترك المجادلة. وأصل ذلك من الدُّهن الذي يُمسَح به الرأس، ثم جُعل عبارةً عما ذكرنا (**في خياركم، والفاحشة في شِراركم، وتحوَّل المُلْك في صغاركم، والفقه في أرذالكم**) وفي نسخة: في رُذَّالكم، وفي أخرىٰ: في أراذلكم. قال العراقي[1]: أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن.

وقال في التخريج الكبير: رواه أحمد[2] وابن ماجه[3] وابن عبد البر في بيان آداب العلم[4] واللفظ له بإسناد حسن من رواية أبي معبد حفص بن غيلان عن مكحول عن أنس بزيادة في أوله، وقال ابن ماجه: «إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم». قالوا: يا رسول الله، وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: «المُلْك في صغاركم، والفاحشة في كباركم، والعلم في رذالتكم». قال زيد بن يحيىٰ أحد رواة الحديث: معنىٰ «والعلم في رذالتكم»: إذا كان العلم في الفُسَّاق.

(١) المغني ١/ ٣٢.
(٢) مسند أحمد ٢٠/ ٢٧٣.
(٣) سنن ابن ماجه ٥/ ٤٨٨.
(٤) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٦١٠.

قلت: ويُروَىٰ هذا الحديث عن عائشة، وجدته في الأول من مشيخة أبي يوسف يعقوب بن سفيان الفَسَوي[1] قال: حدثنا الخليل بن يزيد المكي، حدثنا الزبير بن عيسىٰ، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: [قلت]: يا رسول الله، متىٰ لا نأمر بالمعروف و[لا] ننهىٰ عن المنكَر؟ قال: «إذا كان البخل في خياركم، وإذا كان العلم في رُذَّالكم، وإذا كان الادهان في كباركم، وإذا كان المُلْك في صغاركم».

ومن شواهد هذا ما أخرجه البخاري في أول صحيحه[2] من حديث أبي هريرة رفعه: «إذا وُسِّدَ الأمر إلىٰ غير أهله فانتظِر الساعة». وفي الرِّقاق منه[3]: إذا أُسنِد.

قال الحافظ[4]: فيه إشارة إلىٰ أن إسناد الأمر إلىٰ غير أهله إنما يكون عند غلبة الجهل ورفع العلم، وذلك من جملة الأشراط، ومقتضاه أن العلم ما دام قائمًا ففي الأمر فسحة، وكأنه[5] أشار إلىٰ أن العلم إنما يؤخَذ عن الأكابر تلميحًا لما رُوي عن أبي أمية الجُمَحي رفعه قال: «من أشراط الساعة أن يُلتمَس العلم عند الأصاغر».

قلت[6]: هكذا أورده ابن عبد البر[7] من طريق ابن لهيعة عن بكر بن سوادة

(١) وأخرجه أيضًا: العقيلي في الضعفاء ٢/ ٤٤٨. وابن أبي الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص ٧١ (ط - مكتبة الغرباء الأثرية بالمدينة المنورة).

(٢) صحيح البخاري ١/ ٣٧.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٩٠.

(٤) فتح الباري للحافظ ابن حجر ١/ ١٧٣.

(٥) أي الإمام البخاري.

(٦) من هنا إلىٰ قوله «نظر» ورد في المطبوعة بعد قوله السابق (يتقرب إلىٰ الله تعالىٰ بفرض الكفاية) وهنا موضعه الصحيح، ولم يتنبه مصحح المطبوعة لذلك فقال: إنها زيادة لا معنىٰ وأن الصواب إسقاطها كما في بعض النسخ.

(٧) جامع بيان العلم ١/ ٦١٢.

عن أبي أمية، وأورد أبا أمية في الصحابة[١]، وذكر هذا الحديث له، وقال: لا أعرفه بغير هذا، وقال: ذكره بعضهم في الصحابة، وفيه نظر.

(**الثالث: أن يكون المُناظِر**) في مباحثته (**مجتهدًا**) الاجتهاد عرفًا: استفراغ الفقيه وسعه لتحصيل ظنٍّ بحكم شرعيٍّ[٢] (**يفتي برأيه لا بمذهب الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما**) من الأئمة (**حتىٰ إذا ظهر له الحق**) في مِثله بعد ارتياض الفكر فيه (**من مذهب أبي حنيفة**) مثلاً (**ترك ما يوافق رأي**): مذهب إمامه (**الشافعي**) مثلاً (**وأفتىٰ بما ظهر له**) من استنباطه (**كما كان يفعله الصحابة** ﷺ) لتلقِّيهم من أنوار النبوة (**والأئمة**) المتقدمون (**فأما من ليس له رتبة الاجتهاد**) وهو الاستقلال في الاجتهاد، وهو شيء قد عدم منذ أعصار، تلك أمَّة قد خلت (**وهو حكم أهل هذا العصر**) أي عصر المصنِّف (**وإنما يفتي فيما يُسئل عنه ناقلاً**) بطريق التقليد (**عن مذهب صاحبه**) وإمامه الذي قلده (**فلو ظهر له**) فيما تأمَّله (**ضعفُ مذهبه لم يجُز له أن**) ينسب الضعف إليه، ولا أن (**يتركه**) والعمل به والإفتاء للناس (**فأيُّ فائدة له في المناظرة**) مع خصمه (**ومذهبه معلوم**) مدوَّن (**وليس له الفتوىٰ بغيره**) لتقيُّده به (**وما يشكل عليه**) من المسألة ويتوقف فيه (**يلزمه أن يقول**): لم يظهر لي الآن وجه الصواب في هذه المسألة، و(**لعل عند صاحب مذهبي**) أي إمامي الذي أقلده (**جوابًا**) واضحًا (**عن هذا؛ فإني لست مستقلاً بالاجتهاد**) أي لست مجتهدًا مستقلاً (**في أصل الشرع**) وقواعده، فيتعلَّل بذلك، وقوله هذا صحيح، واعتذاره ظاهر (**ولو كانت مباحثته**) في مناظراته (**عن المسائل التي فيها وجهان أو قولان لصاحبه**) كما هو مشاهَد في كثير من المسائل في مذهبَي أبي حنيفة والشافعي (**لكان أشبه**) بالصواب (**فإنه ربما يفتي بأحدهما فيستفيد من البحث**) مع صاحبه (**ميلاً إلىٰ أحد الجانبين**) وركونًا إلىٰ أحد القولين، واستنادًا إلىٰ أحد الوجهين (و) أنت (**لا**

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٢/ ٣٦٧.

(٢) التعريفات للجرجاني ص ٨.

ترىٰ المناظرات) والمباحثات الآن (**جارية فيها قطُّ**) لأن مثل تلك المسائل عندهم كأنها لا طائلَ تحتها (**بل ربما ترك المسألة التي فيها وجهان أو قولان**) والوجه في المسألة أن تكون المسألة غير مصرَّح بها في نصوص، إلا أنها مُقاسة علىٰ أصول قواعد المذهب، وأما القول فما كان مصرَّحًا به من الإمام. فهذا الفرق بين الوجه والقول (**وطلب مسألة يكون الخلاف فيها مثبوتًا**) لكثرة الكلام وصحبة المجادلة مع المخالفين، وسيأتي بيان ذلك قريبًا بعد هذا، وبيان هذا المحل يستدعي إلىٰ بسطٍ في العبارة؛ ليكون المُناظِر عند معرفتها علىٰ بصيرة، فنقول:

ذكر العماد أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد العليِّ السكَّري مدرِّس منازل العز[1] في كتابه «الإرشاد إلىٰ طريق الاجتهاد» ما نصه: إن رعاع الفقهاء وضعفة الطلبة يخيَّل إليهم أن النظر في مسائل الشرع قد انسدَّت طرقه، وعميت مسائله[2]، وأن الغاية القصوىٰ عندهم أن يُسئل واحد منهم عن مسألة فيقول: فيها وجهان أو قولان، وقال الشافعي في القديم كذا وفي الجديد كذا، وقال أبو حنيفة كذا، و[قال] مالك كذا، ويرىٰ أنه علمٌ قد أبرزه، وتراهم أبدًا يقدحون في المجتهدين، ويجادلون الطالبين، ويحثُّون علىٰ تحصيل «الأم» للشافعي أو لُباب المحاملي أو غير ذلك من الكتب المبسوطة، حتىٰ إذا وقعت واقعة كشف الكتاب، فإن رأىٰ المسألة مسطورة حكم بها، وإن رأىٰ مسألة أخرىٰ فزعم أنها تشابهها حكم بحكم تلك المسألة، فهم حشوية الفروع، كما أن المشبِّهة حشوية الأصول، والعجب أنهم لا يقنعون بقصورهم حتىٰ يضيفوا القصور إلىٰ مَن سبق من الأئمة، ويقول بعضهم: ما بقي بعد الشافعي مجتهدٌ، ويقول [آخَر]: ما بقي بعد ابن سُرَيج مجتهد.

---

(١) منازل العز: مجموعة مبان أنشأتها تغريد أم الخليفة العزيز بالله نزار الفاطمي علىٰ نهر النيل، ولما تولي صلاح الدين الأيوبي حكم مصر قام ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي بوقفها علىٰ الفقهاء الشافعية بعد أن تولىٰ نيابة مدينة حماة، وموضعها اليوم بمنطقة مصر القديمة بالقاهرة.

(٢) كذا في المطبوعة، ولعل الصواب: مسالكه.

فانظروا إلىٰ قدح هؤلاء في الأئمة المبرزين وأنهم كانوا يُقدِمون علىٰ ما لا يعلمون؛ فإن الأئمة ما زالوا في جميع الأقطار يراجعون في الفتاوىٰ ويفتون باجتهادهم، مع اختلاف أصنافهم، كالمعروفين بنشر مذهب الشافعي كأبي إسحاق صاحب «المهذَّب» وأشياخه من أئمة العراق كلهم مبرزون مفتون، وكذلك أئمة خراسان كإمام الحرمين وأشياخه وتلاميذه كأبي حامد الغزالي وإلكيا والخوافي، وكذلك أتباعهم كمحمد بن يحيىٰ ومَن كان في درجته من أصحاب الغزالي، وكلُّهم قد طبقت فتاويهم وجهَ الأرض مع صريحٍ من فقه الشافعي، ومَن تأمَّل فتاويهم رأىٰ ما ذكرناه، وكذلك الأئمة المشهورون في مذهب مالك وأبي حنيفة لم يزالوا يفتون ويجتهدون في جميع الأقطار، والمناكرة في ذلك مكابرة.

ثم قال: واعلم أنه لا يجوز الكلام في أحكام الله تعالىٰ بمحض الشهوة والرأي، بل لا بد من طريق نصبها الشارعُ، وللشارع طريقان نصبهما: طريق في حق المجتهد، وطريق في حق العامِّي المقلِّد. وطريق المجتهدِ النظرُ في الأدلة الشرعية المنصوصة من قِبَل الشارع والتوصُّل بها إلىٰ أحكام الله تعالىٰ كما كان دأب الصحابة والتابعين، وطريق في حق العوامِّ هو تقليد أرباب الاجتهاد كما كان في زمن الصحابة والتابعين، وهذان متَّفقان علىٰ نصبهما.

ثم أطال العبارة وذكر مسائل مهمة لا بد من معرفتها:

الأولىٰ: إذا نُقلت لكم أقوال الشافعي في الواقعة الواحدة أتعملون بكل قول أمْ بالبعض دون البعض؟ فإن قالوا: نعمل بكل قول، سقطت مقالتُهم؛ فإن الفعل الواحد كيف يكون حلالاً حرامًا في وقت واحد من وجه واحد بالنسبة إلىٰ شخص واحد؟! فهذا مما لا يمكن أن يقال به. فإن قالوا: نعمل بالمتأخر دون المتقدِّم، فنقول: ما بالكم تنقلون المتقدم وتقولون في أكثر محاوراتكم: يصح علىٰ قولٍ، وبيع الغائب صحيح علىٰ قول الشافعي، وتعتمدون عليه، وهذا لا يجوز أن يُفعَل علىٰ هذا الوجه، بل ينبغي إذا نقلتموه لمن سأَلَكم أن تقولوا: هو قول مرجوع

عنه، لا يجوز الاعتماد عليه، وإنما ذكرناه لفقهه لا لحكمه، فيكونون متلبِّسين بهذا الإطلاق، مع أني رأيت بعضهم إذا أُنكر عليه أمر فعله اعتذر بأنه قول الشافعي.

الثانية: العمل بالأرجح فالأرجح من الأقوال، فيقول: الترجيح طرف من أطراف الاجتهاد، فلا حظَّ لك فيه؛ لأنك اعترفتَ أنك من جملة العوامِّ المقلِّدين، وترجيح أحد القولين علىٰ الآخَر إن كنت تنقله عن الشافعي أو من عندك، ولا يمكنك نقل الترجيح إلىٰ الشافعي، فلزم الثاني، فأنت إذًا تعمل باجتهادك لا باجتهاد الشافعي، ولعل الإمام ترجَّح عنه القول الآخَر بترجيحٍ آخَر لم تطَّلع عليه أنت، ولعله لا يدري ما ذكرتَه مرجَّحًا، فقد تعذَّر عليهم تقليد الشافعي في مثل هذه المسائل، ووجب عليهم الكفُّ عن الحكم فيها؛ فإنهم ليسوا مجتهدين، وقد تعذر عليهم التقليد، وكذلك الكلام في المسائل ذوات الوجوه المنقولة عن الأصحاب، وعند ذلك يجب عليهم الكف عن الكلام في معظم مسائل المذهب.

ثم إن قولهم ترجيح أحد القولين علىٰ الآخر علىٰ الإطلاق خطأ؛ فإن الترجيح لا يُتصوَّر في المذاهب بوجه من الوجوه؛ فإنَّ كون هذا حرامًا أو مباحًا فما في التحريم نقصان، ولا في الإباحة زيادة، ولا تُتصوَّر الزيادة والنقصان في الأحكام بوجه من الوجوه، وإنما يكون الترجيح بزيادة في أحد الأمرين لم توجد في الثاني، وهذا إنما يُتصوَّر في الأدلة بأن يختص أحدهما بزيادة تؤكد الظن الحاصل فيه ولم توجد في الآخَر، فإن أرادوا هذا المعنىٰ فقد أصابوا في المراد وأخطأوا في الإطلاق، وإذا آل الأمرُ إلىٰ الترجيح في الأدلة فلا بد للمرجِّح من معرفة الدليل وشروطه وأوصافه، وبعد هذا يتحقق عنده مقابل الأدلة، وإلا كيف يُتصوَّر ممن لا يعرف الأدلة وشروطها أن يكون بحكم مقابلها ثم يخوض بعد ذلك في ترجيح بعضها علىٰ بعض، وأنتم قد حكمتم علىٰ أنفسكم بالعجز عن استخراج الأدلة، وإذا فُقدت معرفة الأدلة التي هي شرط معرفة الترجيح لزمت ضرورةُ انتفاء الشرط وهي معرفة الترجيح.

ثم إن المسألة إذا كان فيها قولان مختلفان يحرُم على العامِّي العملُ بها إذا لم يعرف المتقدم من المتأخر، وتصير في حقه كأنْ لم يكن للمنقول فيها عنه قول أصلاً، وتعيَّن عليه أن يراجع المنقول عنه إن أمكن أو تقليد غيره ممن يجوز الاعتماد عليه، والمسائل التي قد نُقل فيها قولان عن أبي حنيفة والشافعي كثيرة، وربما يكون معظم المذهب، وكان يجب عليكم الكف عن الكلام فيها، ولو فعلتم ذلك لذهبت شهامتكم، واختلَّت مناصبكم، ونُسبتم إلىٰ قلة العلم.

فإن قيل: كيف يجوز لكم الفتوىٰ فيما لم يُنقل عن مقلَّدكم فيه حكم وأنتم لستم بأهل الاجتهاد باعترافكم؟ قالوا: نقيسها علىٰ مسألة مسطورة، وربما تحدث فيحدث ويقول: أصول الشافعي تقتضي كذا في هذه المسألة، فيقال لهم: أتردُّون الحكم إلىٰ اجتهادكم أو إلىٰ اجتهاد الشافعي؟ الأول لا تُعرَفون به، وأما الثاني فيقال عليه: قد افتريم علىٰ الشافعي؛ فإنه لم يتكلم في هذه المسألة، فكيف يحل لكم أن تنسبوا إليه ما لم يقُل؟! فإن قالوا: نعني بكونها منسوبة إليه أنها مقاسة علىٰ ما نص عليه، فاعلم أن في هذا الإطلاق تدليسًا؛ فإنه يُفهَم منه حكم الشافعي، وقد علمتم أن سائلكم إنما سأل عما ذكره الإمام الشافعي، فيحق لكم أن لا تطلقوا النسبة إليه. وأيضًا، قولكم هذا إن كان عن اجتهاد فلا يمكنكم، أو عن تقليد فلا يمكن أيضًا؛ لأنه انطوىٰ بساط الاجتهاد بالشافعي أو بابن سُرَيج كما زعمتم، فمَن بعدهما لا يجوز الاعتماد علىٰ اجتهاده.

ثم قال: اعلم أن الاجتهاد جنس تندرج تحته أنواع متعددة؛ فإن الاجتهاد في المسائل القياسية غير الاجتهاد في المسائل التي مستندها ألفاظ الشارع، وغير الاجتهاد في المسائل التي مستندها أفعال النبي ﷺ، وكل نوع من هذه الأنواع يمكن العلم به مع عدم العلم بغيره، فيمكن أن يكون الواحد ماهرًا في القياس وشروطه ومراتبه وموارده ولا يكون عالمًا بتفاصيل الأخبار، ولا مطلعًا علىٰ صحيحها وفاسدها، وبالعكس، وهذا بالنظر إلىٰ جملة الأنواع، وكل نوع مشتمل علىٰ صور

أيضًا؛ فإن القياس يُستعمل في مسائل متعددة في البيوع والنكاح والقصاص، فيمكن أن يكون الواحد منَّا مطلعًا علىٰ مسائل النكاح، عالمًا بأقيستها، معتنيًا بها، ولا يكون مطلعًا علىٰ مسائل البيع، فليس الاجتهاد خطة واحدة لا تتعدد أنواعه ولا تتكثَّر مسائله، فعند هذا يمكن أن يكون الواحد مجتهدًا في بعض المسائل، مجيبًا عن البعض، ولا يكون عالمًا بالبعض، فليس من شرط المجتهد أن يكون مجيبًا عن كل ما يُسئل عنه، ولذلك توقَّف كثير من الأئمة في الجواب عن بعض المسائل، فلا يجوز لأحد أن يفتي في مسألة من المسائل إلا إذا كان محيطًا بأدلَّتها، وما لا فيمسك عن الفتيا فيها، ولا يبقىٰ بعد هذه الحالة إلا تحصيل الأدلة الجزئية في آحاد المسائل من نصوص أو أقيسة، فإذا اطلع علىٰ دليل مسألة كان من أهل الفتيا في تلك المسألة، ولا يضره كونُه غير مطَّلع علىٰ دليل المسألة الأخرىٰ.

ثم قال: واعلم أن الاجتهاد عبارة عن بذل الجهد في طلب حكم من الأحكام الشرعية ممن هو عارف بسلوك طرقها، وله شروط، وهي قسمان: قسم في المنظور فيه، وقسم في الناظر؛ أما المنظور فيه فيُشترط فيه أن لا يكون في محل القطع؛ فإن مَحالَّ القطع لا مجال للاجتهاد فيها كأصل وجوب الصلاة والزكاة والحج وغير ذلك مما يُحكَم فيه بأدلة قطعية لا يسوغ خلافها، وأما الناظر فيُشترط فيه أمران:

أحدهما: أن يكون عارفًا بقوانين الأدلة وشروطها وكيفية استخراجها.

والثاني: أن يكون متمكِّنًا من استخراج الدليل خاصةً في المسألة التي يجتهد فيها.

ثم أطال الكلام في ذلك، ونحن قد اختصرنا لك ما ناسب في هذا المقام، وعلىٰ نمطه أَلَّف السيوطي كتاب «الإصعاد إلىٰ رتبة الاجتهاد»[1].

(١) الذي ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ١/ ٨٥ أن كتاب (الإسعاد بالإصعاد إلىٰ درجة الاجتهاد) لمجد الدين الفيروزآبادي صاحب القاموس، وأنه ألفه للأشرف إسماعيل صاحب اليمن.

وذكر الشهاب أحمد بن محمد ابن الهائم المصري نزيل بيت المقدس في كتابه «نزهة النفوس» ما نصه[١]: **فائدة**: قال أبو عمرو ابن الصلاح[٢]: المفتون قسمان: مستقل وغيره، ثم بيَّن المستقل فقال: وهو شيء قد عدم من أعصار، والقسم الثاني [المفتي] الذي ليس بمستقل، وهذا أيضًا قد عدم من دهر طويل، وصارت الفتوىٰ إلىٰ المنتسبين إلىٰ [أئمة] المذاهب المتبوعة، وللمفتي المنتسب أربعة أحوال:

أحدها: أن لا يكون مقلدًا لإمامه لا في المذهب ولا في دليله؛ لاتصافه بصفة المستقل، وإنما يُنسَب إليه لسلوكه طريقته في الاجتهاد. ثم حكىٰ من قال ذلك من أئمة أصحابنا، ثم قال: ودعوىٰ انتفاء التقليد عنهم مطلقًا لا تستقيم، ولا يلائم المعلومَ من حالهم أو حال أكثرهم. قال: ثم فتوىٰ المفتي في هذه الحالة كفتوىٰ المستقل في العمل بها [والاعتداد بها] في الإجماع والخلاف. قال الأَذْرَعي[٣]: وهذا شيء قد انطوىٰ أيضًا.

الحالة الثانية: أن يكون مجتهدًا مقيَّدًا في مذهب إمامه، مشتغلاً بتقرير أصوله بالدليل، غير أنه لا يتجاوز في أدلته أصول إمامه وقواعده، وشرطه كونه عالمًا بالفقه وأصوله وأدلة الأحكام تفصيلاً، بصيرًا بمسالك الأقيسة والمعاني، تام الارتياض في التخريج والاستنباط، قيِّمًا بإلحاق ما ليس منصوصًا لإمامه بأصوله، ولا يعرىٰ عن شوب تقليد له؛ لإخلاله ببعض أدوات المستقل ... إلىٰ أن قال: وهذه صفة أصحاب الوجوه [وعليها كان أئمة أصحابنا أو أكثرهم.

الحالة الثالثة: أن لا يبلغ رتبة أصحاب الوجوه] لكنه فقيه النفس، حافظ

---

(١) نزهة النفوس في بيان حكم التعامل بالفلوس لابن الهائم (ضمن مجموعة كتب) ص ١٧٤ - ١٧٦ (ط - دار الكتب العلمية). والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٢) فتاوىٰ ابن الصلاح ١/ ٢١ - ٣٧.

(٣) في النزهة: الأوزاعي.

مذهب إمامه، عارف بأدلته، قائم بتقريرها، يصور ويحرر ويقرر ويهمل ويزيِّف ويرجِّح، لكنه قصر عن أولئك؛ لقصوره عنهم في حفظ المذهب أو الارتياض في الاستنباط أو معرفة الأصول أو نحوها من أدواتهم، وهذه صفة كثير من المتأخرين إلىٰ أواخر المائة الرابعة الذين رتَّبوا المذهب وحرروه وصنفوا فيه تصانيف فيها معظم اشتغال الناس اليومَ، ولم يلحقوا الذين قبلهم في التخريج.

الحالة الرابعة: أن يقوم بحفظ المذهب[1] ونقله وفهمه في الواضحات والمشكلات ولكن عنده ضعف في تقرير أدلته وتحرير أقيسته، فهذا يُعتمَد نقله وفتواه فيما يحكيه من مسطورات مذهبه ونصوص إمامه وتفريع المجتهدين فيه، وما لا يجده منقولاً إن وُجد في المنقول معناه بحيث يُدرَك بغير كبير فكرٍ أنه لا فرق بينهما جاز إلحاقه به والفتوىٰ به، وهكذا ما يعلم اندراجه تحت ضابط ممهد في المذهب، وما ليس كذلك يجب إمساكه عن الفتوىٰ فيه[2]. قال النووي[3]: فهذه أصناف المفتين، وكل صنف منها يُشترَط فيه حفظ المذهب وفقه النفس، فمن تصدَّىٰ للفتيا وليس بهذه الصفة باءَ بأمر عظيم.

قال ابن الهائم بعد نقله هذا الكلام: وليت ابن الصلاح أثبت حالة خامسة[4] علىٰ طريق الرخصة بحسب هِمَم أهل هذا العصر وقصور قواهم عن بلوغ هذه

---

(١) في المطبوعة: أن يقدم المذهب. والمثبت من النزهة والفتاوىٰ.

(٢) بعده في النزهة: «وشرطه كونه فقيه النفس، ذا حظ وافر من الفقه. قال ابن الصلاح: وينبغي أن يكتفي في حفظ المذهب في هذه الحالة والتي قبلها بكون المعظم علىٰ ذهنه ويتمكن لدربته من الوقوف علىٰ الباقي علىٰ قرب».

(٣) هذا الكلام الذي نسبه الشارح للنووي هو كلام ابن الصلاح في فتاويه، وقد نقل النووي كلام ابن الصلاح بطوله في المجموع شرح المهذب ١/ ٤٢ وما بعدها.

(٤) نص النزهة: «قلت: ولعمري إن الحالة الرابعة التي هي أدنىٰ المراتب قل من تحلىٰ بها في عصرنا ممن تصدىٰ للإفتاء. وكتب ابن الصلاح: ووافقت حالة خامسة علىٰ طريق ...» الخ. ولم أقف علىٰ العبارة الأخيرة في الفتاوىٰ، فالظاهر أن ما في مطبوع النزهة محرف.

المرتبة الرابعة [وإلا] فلا تكاد تجد مفتيًا بالشرط الذي اعتبره في المرتبة الرابعة.

(**الرابع: أن لا يناظر إلا في مسألة واقعة**) أو نازلة مهمة احتاج الأمرُ إلىٰ الكشف عن حقيقتها ومعانيها اضطرارًا (**أو**) في مسألة (**قريبة الوقوع غالبًا**) بحيث يخاف أنها تقع فيحتاج إلىٰ التنبيه لوقوعها، وهذا هو الشرط الأكمل لمن يناظر بالإخلاص وحُسن النية (**فإن الصحابة رضوان الله عليهم ما تشاوروا**) مع بعضهم بردِّ الفتوىٰ إليهم (**إلا فيما تجدَّد من الوقائع**) والنوازل (**أو ما يغلب وقوعه كالفرائض**) وقد تقدمت الإشارة إليه، وأما في غير ذلك فإنهم كانوا يفتون بما اقتبسوه من مشكاة النبوة، ولا يمتنع أحد منهم من إباحة العلم؛ أشار لذلك العماد السكَّري في الإرشاد (و) أنت الآن (**لا ترىٰ المناظرين يهتمون**) ويفتون (**بانتقاد المسائل التي تعم البلوىٰ بالفتوىٰ فيها**) ولا يحومون حولها (**بل يطلبون**) المسائل (**الطبوليات**) التي يُدَقُّ لها بالطبل، وهي كناية عن الاشتهار والاجتماع لها، وهي (**التي تُسمَع فيتَّسع مجال الجدل**) ومثار نقع الخلاف (**فيها كيفما كان الأمر**) لأجل الشهرة فقط، وأن يقال: فلان مُناظِر جَدَلي عالِم كبير، فيرتفع قَدْره عند عوامِّ الناس لأجل تكالُبه علىٰ حُطام الدنيا (**وربما يتركون**) البحث في (**ما يكثر وقوعه**) في الزمان (**ويقولون: هذه مسألة خَبَرية**) قد أخبر بها فلان من الشيوخ، ونص عليها فلان في الكتاب الفلاني (**أو هي من**) مسائل (**الزوايا**) التي من شأنها أن لا يُحدَّث بها إلا في الخلوة، وما دروا كم في الزوايا من خَبايا (**و**) يقولون إنها (**ليست من**) مسائل (**الطبوليات**) التي يُضرَب لها بالطبل (**فمن العجائب أن يكون المطلب**) والمقصد بذلك البحثِ (هو) تحقيق (**الحق**) في نفس الأمر (**ثم تُترَك المسألة لأنها خبرية و**) الحال أن (**مَدْرَك الحق**) ومقطعه (**فيها هو الإخبار**) عما جاء عن السلف الصالحين (**أو**) تُترَك (**لأنها**) من مسائل الزوايا و(**ليست من الطبول فلا نطول فيها الكلام**) مع الخصم؛ لوقوف كلٍّ منهما عند النصوص، وليس من شرط المُناظِر المجتهد المناقشةُ في مجال القطع؛ إذ لا مجال للاجتهاد فيها، كما تقدم (و) الحال

أن (**المقصود في**) إظهار (**الحق**) والصواب عند العارفين (**أن يقصر الكلامَ**) ويُقِل الجدال (**ويبلغ**) مع ذلك (**الغايةَ**) التي يريدها من تلك المسألة بالوقوف علىٰ ما هو الحق فيها، سواء وافق مقلَّدَه أو لم يوافق (**علىٰ القُرْب لا أن يطول**) وبالميدان يجول؛ لأنه قلما مناظر طال كلامه في بحثه إلا وخرج عن حد الاعتدال، واحتاج إلىٰ إيراد الغَثِّ والسمين، ومن كان بهذه الأوصاف بعيد عن إخلاص النية وحسن الطوية، أجارنا الله من ذلك بمَنِّه وكرمه .. آمين.

(**الخامس: أن تكون المناظرة في الخلوة**) عن الناس (**أحب إليه**) حبًّا لازمًا (**وأهم من**) المناظرة في (**المحافل**) جمع مَحْفَل وهو مَجْمَع الناس (**و**) من (**بين أظهُر الأكابر**) من الأمراء (**والسلاطين**) والملوك، أي في حضورهم وبين أيديهم (**فإن الخلوة أجمع للفهم**) وفي نسخة: للهمِّ، أي تجمع هم المرء ولا تشتته (**وأحرىٰ**) أي أليق (**بصفاء التفكر**) لجلاء الذهن فيها (**و**) أقرب إلىٰ (**درك الحق**) وقد أشار إلىٰ ذلك التقي السبكي في كتاب إلىٰ ولده التاج يحرِّضه بذلك، ويشير إلىٰ ما في الخلوة من الفوائد، ويمنعه عن مباحثته في المحاضر؛ فإنها تشتِّت الأذهان (**وفي حضور الجمع**) الكثير والجَمَّاء الغفير (**ما يحرك دواعي الرياء**) أي ما يستدعيه إلىٰ ارتكاب المُراءاة والمباهاة (**ويوجب الحرص**) والميل (**علىٰ نصرة كل واحد نفسه**) حتىٰ لا يقال بين هؤلاء: أُفحِم فلان في مناظرته عن فلان (**محقًّا كان أو مبطلاً**) وربما إذا كان محقًّا ونوىٰ نصرة نفسه فإنه كذلك وبال عظيم (**وأنت تعلم**) الآن (**أن حرصهم**) وميلهم (**علىٰ**) حضور (**المحافل والمجامع**) والمحاضر لا يناظرون إلا فيها (**ليس لله، وأن الواحد منهم يخلو بصاحبه مدة طويلة فلا يكلمه**) ولا يعتني به (**وربما يقترح عليه**) مسألة (**فلا يجيب**) ولا يبدئ فيها ولا يعيد (**وإذا ظهر مَقْدم**) مصدر ميميٌّ، أي قدوم أحد من الرؤساء فاجتمعوا لملاقاة القادم (**أو انتظم مَجْمَع**) الناس كالولائم والدعوات وحضور الجنائز والموالد (**لم يغادر**) أي لم يترك (**في قوس الاحتيال**) أي الحيلة (**منزعًا**) إلا نزعه (**حتىٰ يكون هو**

المتخصص بالكلام) من غير أن يلقي له أو يقترح عليه، يقال: نَزَع في القوس ينزِعها نزعًا ومنزعًا: إذا مدَّها بالوتر، أو جذب الوتر بالسهم(١).

(السادس: أن يكون) المناظر **(في طلب الحق)** وإنشاده حيث كان **(كمنشد ضالَّة)** أي كطالبها، والضالة: كل متاع ضلَّ للإنسان، أي غاب، بعيرًا أو غيره، والجمع: ضَوالٌّ **(لا يفرِّق)** بحسن إخلاصه **(بين أن تظهر)** تلك **(الضالة علىٰ يده)** فيبيِّنها **(أو علىٰ يد من يعاونه)** علىٰ وجدانها **(ويرىٰ رفيقه)** الذي يناظره **(معينًا)** له في الحقيقة علىٰ طلب الحق **(لا خصمًا)** يجادله **(ويشكره إذا عرَّفه)** في تقريره **(الخطأ)** من الصواب أو الغفلة **(وأظهر له الحق)** فقد ورد: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»(٢). وتعريفه الخطأ لصاحبه نعمة جليلة، حيث نبَّهه عليه وأرشده، فلذا ألزمه الشكر، وهو ظاهر. ثم أوضح ذلك بمثال فقال: **(كما لو أخذ)** أحدكم **(طريقًا)** وسار **(في طلب ضالَّته)** مع كمال حيرته **(فنبَّهه صاحبه)** الناصح **(علىٰ ضالته)** المطلوبة **(في موضع آخَر فإنه)** لا محالة **(كان يشكره)** علىٰ هذه النعمة **(ولا يذمُّه)** وهذا أقل الدرجات **(ويفرح به ولا يكرهه)** وهذا أقل الدرجات **(فهكذا كانت مشاورات الصحابة ﷺ)** ومفاوضاتهم **(حتىٰ ردَّت امرأة)** من قريش **(علىٰ)** أمير المؤمنين **(عمر)** بن الخطاب (رضي الله عنه) في مسألة صداق النساء **(ونبَّهته علىٰ الحق)** فيها **(وهو)** علىٰ المنبر **(في خطبته علىٰ ملإ من الناس فقال)** منصفًا ولم يتوقف: **(أصابت امرأة وأخطأ رجل)** قال السخاوي في المقاصد(٣): رواه الزبير بن بكَّار(٤) عن عمه مصعب بن عبد الله عن

---

(١) تاج العروس ٢٢/ ٢٤٠.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ٥/ ٢٨٠، والترمذي في سننه ٣/ ٥٠٥ وصححه من حديث أبي هريرة.

(٣) المقاصد الحسنة ص ٣٢٠ - ٣٢١. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٤) الأخبار الموفقيات للزبير بن بكار ص ٥٠٧ (ط - عالم الكتب ببيروت) ونصه: «قال عمر بن الخطاب يوما علىٰ المنبر: ألا لا تزيدوا في مهور النساء علىٰ أربعين أوقية ولو كانت بنت ذي الغصة - يعني يزيد بن الحصين الحارثي - فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال. فقامت امرأة من صف النساء طويلة فقالت: ليس ذلك لك. قال: ولم؟ قالت: لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔا﴾ فقال عمر: امرأة أصابت ورجل أخطأ».

جده قال: قال عمر: لا تزيدوا في مهور النساء، فمَن زادَ ألقيتُ الزيادة في بيت المال. ثم ذكر رد امرأة عليه، وفيه: فقال عمر: امرأة أصابت، ورجل أخطأ.

قلت: وليس فيه ذِكر المنبر والخطبة.

وقرأت في مناقب عمر للحافظ الذهبي ما نصه: مجالد عن الشعبي عن مسروق قال: خطب عمر فقال[١]: ما إكثاركم في صدقات النساء، فقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصدقات فيما بين أربعمائة درهم فما دونها[٢]، فلأعرفنَّ ما زاد رجل في صداق علىٰ ذلك[٣]. فنزل، فاعترضته امرأةٌ من قريش فقالت: أنهيتَ الناس أن يزيدوا النساء في صداقهن علىٰ أربعمائة؟ أوَ ما سمعتَ ما أنزل الله في القرآن؟ قال: وأين ذلك؟ قالت: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٢٠] فقال: اللهم غفرًا، كل إنسان أفقه من عمر. ثم رجع فركب المنبر وقال: أيها الناس، إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن علىٰ أربعمائة، فمن شاء أن يعطي [من ماله] ما أحب فليفعلْ.

وقال السخاوي في مقاصده: رواه أبو يعلىٰ في مسنده الكبير[٤] من طريق مجالد، وفي آخره قال أبو يعلىٰ: وأظنه قال: فمَن طابت نفسه فليفعلْ. وسنده جيد [قوي] وهو في سنن البيهقي[٥] من هذا الوجه بدون مسروق، ولذا قال عقبه: إنه منقطع، ولفظه قريب من الأول، وأخرجه عبد الرزاق من جهة أبي العجفاء السلمي قال: خطبنا عمرُ ... فذكر نحوه، فقامت امرأة فقالت له: ليس ذلك لك يا عمر، إن الله يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ الآية، فقال: إن امرأة خاصمت عمر

---

(١) في المقاصد: ركب عمر منبر النبي ﷺ ثم قال: أيها الناس، ما إكثاركم ... الخ.

(٢) بعده في المقاصد: ولو كان الإكثار في ذلك تقوىٰ عند الله أو مكرمة لم تسبقوهم إليها.

(٣) في المقاصد: في صداق امرأة علىٰ أربعمائة.

(٤) انظر: إتحاف الخيرة المهرة للبوصيري ٥/ ٥٥.

(٥) سنن البيهقي ٧/ ٣٨٠.

فخصمته[١]. ورواه ابن المنذر من طريق عبد الرزاق أيضًا بزيادة: قنطارًا من ذهب. قال: وكذلك [هي] في قراءة ابن مسعود. ا.هـ.

ويقرب من ذلك ما ذكره السمين في «عمدة الحفاظ»[٢]: ويُحكَىٰ أن عمر سمع رجلاً يقول في دعائه: اللهم اجعلني من عبادك القليل. فقال: يا أخي، ما هذا الدعاء؟ فقال: يا أمير المؤمنين، سمعت الله يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣] فأنا أطلب أن أكون من أولئك القليل. فقال: كل الناس أعلم من عمر.

(و) من ذلك: (**سأل رجل عليًّا**) عن مسألة (**فأجابه**) بما ظهر له (**فقال: ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كذا وكذا. فقال: أصبتَ**) أنت في فهمك (**وأخطأت**) أنا في جوابي (**وفوق كل ذي علم عليم**[٣]).

واستدرك) عبد الله (**ابن مسعود**) الهُذَلي (**علىٰ أبي موسىٰ الأشعري** ﷺ) وأبو موسىٰ علىٰ الكوفة (**فقال أبو موسىٰ: لا تسألوني عن شيء وهذا الحبر بين أظهُركم. وذلك لمَّا سُئل أبو موسىٰ عن رجل قاتَلَ في سبيل الله فقُتل**) ونص

(١) كذا هنا وفي المقاصد، وهو وهم، فهما روايتان مستقلتان في مصنف عبد الرزاق ٦/ ١٧٥، ١٨٠، وليس في واحدة منهما عبارة «خطبنا عمر»، الأولىٰ رواية أبي العجفاء السلمي أن عمر بن الخطاب قال: لا تغالوا في صدق النساء؛ فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا وتقوىٰ عند الله كان أولاكم بها النبي ﷺ، ما أصدقت امرأة من نسائه ولا من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية؛ فإن الرجل يغلي بالمرأة في صداقها فيكون حسرة في صدره فيقول: كلفت إليك علق القربة. والثانية رواية أبي عبد الرحمن السلمي قال: قال عمر بن الخطاب: لا تغالوا في مهور النساء، فقالت امرأة: ليس ذلك لك يا عمر، إن الله يقول: (وإن آتيتم إحداهن قنطارا من ذهب - قال: وكذلك هي في قراءة ابن مسعود - فلا يحل لكم أن تأخذوا منه شيئا) فقال عمر: إن امرأة خاصمت عمر فخصمته. ويبدو أن منشأ هذا الوهم هو التشابه في الاسم بين أبي العجفاء السلمي وأبي عبد الرحمن السلمي.

(٢) عمدة الحفاظ ٢/ ٢٨٤.

(٣) جامع بيان العلم لابن عبد البر ١/ ٥٣١. تفسير الطبري ١٣/ ٢٦٩. وفيه أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن وهو ضعيف، وفيه أيضـًا انقطاع بين محمد بن كعب القرظي وعلي رضي الله عنه.

القوت[1]: عن رجل قُتل في سبيل الله مقبلاً غير مدبِر أين هو؟ **(فقال: هو في الجنة)** ونص القوت: قال: في الجنة **(وكان)** أبو موسىٰ **(أمير الكوفة)** أي متولِّيًا عليها بالإمارة **(فقام ابن مسعود فقال)** للسائل: **(أعِدْ علىٰ الأمير)** فتياك **(فلعله لم يفهم. فأعاد عليه)** السائل وقال: أيها الأمير، ما قولك في رجل قاتل في سبيل الله فقُتل مقبلاً غير مدبر أين هو؟ **(فأعاد)** أبو موسىٰ **(الجواب)** وقال: هو في الجنة. فقال ابن مسعود: أعِدْ علىٰ الأمير، فلعله لم يفهم. فأعاد عليه ثلاثًا، كلّ ذلك يقول أبو موسىٰ: في الجنة. ثم قال: ما عندي غير هذا، فما تقول أنت؟ **(فقال ابن مسعود)**: لكني لا أقول هكذا. قال: فما قولك؟ قال: **(أنا أقول: إن قُتل)** في سبيل الله **(فأصاب الحقَّ فهو في الجنة. فقال أبو موسىٰ: هو ما قال)** وفي القوت: صدق، لا تسألوني عن شيء ما دام هذا الحبر بين أظهركم. هكذا ذكره صاحب القوت بتمامه.

قلت: وفي الحلية[2] من طريق مجالد عن عامر: قال أبو موسىٰ: لا تسألوني عن شيء ما دام هذا الحبر فيكم. يعني ابن مسعود.

ونظير هذه القصة ما قال أبو داود في سننه[3]: حدثنا عبد السلام بن مطهَّر أن سليمان بن المغيرة حدَّثهم عن أبي موسىٰ عن أبيه عن ابنٍ لعبد الله بن مسعود عن ابن مسعود قال: لا رضاع إلا ما شد العظمَ وأنبت اللحم. فقال أبو موسىٰ: لا تسألونا وهذا الحبر فيكم.

قال صاحب القوت[4]: فهؤلاء أصحاب النبي ﷺ يردُّون الأمور في الفتيا وفي علم اللسان إلىٰ مَن هو دونهم في القَدْر والمنزلة وهو في علم التوحيد والمعرفة والإيمان فوقهم درجات [ولا يرجعون إليهم في الشبهات، ولا يردون إليهم في علم

(١) قوت القلوب ١/ ٢٥٥.

(٢) حلية الأولياء ١/ ١٢٩.

(٣) سنن أبي داود ٣/ ١٠.

(٤) قوت القلوب ١/ ٢٥٥. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

المعرفة واليقين] فهذا كما قيل: [إنما] العلم نور يقذفه الله تعالىٰ في قلوب أوليائه، فقد يكون ذلك تفضيلاً للنظراء بعضهم علىٰ بعض، وقد يكون تخصيصًا للشباب علىٰ الشيوخ ولمن جاء بعد السلف من التابعين، وربما كان تكرمة للخاملين المتواضعين لينبِّه عليهم [ويعرفون شأنهم؛ ليعظَّموا و] يُرفعوا.

(**فهكذا يكون إنصاف صاحب الحق**) يردُّ العلم إلىٰ أهله ولا يستأنف (**ولو ذُكر مثل هذا الآن لأقل فقيه**) له دراية في العلم (**لأنكر**) ذلك (**واستبعده**) وانتصب للخصام (**وقال: لا يحتاج**) الأمر (**إلىٰ أن يقال: أصاب الحقَّ**) أي لا حاجة إلىٰ ذِكر هذا القيد (**فإن ذلك معلوم**) بديهةً (**لكل أحد**) ثم إن هذا القيد الذي أتىٰ به ابن مسعود هو المفهوم من قوله ﷺ - علىٰ ما أخرجه البخاري -: «مَن قاتَلَ لتكون كلمة الله هي العليا فهو في الجنة»[1]. وقد فهم أبو موسىٰ ذلك فرجع عن إطلاق القول بأن القتل قد يكون رياء وقد يكون سمعة وقد يكون لغير ذلك، وهذا القيد هو مَناط الفائدة والجواب الذي يصح عليه السكوت، فمن قال باستبعاده وكونه معلومًا مجادلة، فتأمَّلْ (**فانظر**) الآن (**إلىٰ مناظري زمانك اليوم**) إذا اجتمعوا في محفل وتكلم بعضهم مع بعض (**كيف يسودُّ وجهُ أحدهم**) من تغيُّر طبعه (**إذا اتضح الحق علىٰ لسان خصمه**) وعلم الحاضرون ذلك (**وكيف يخجل به**) باحمرار لونه عندهم (**وكيف يجتهد**) علىٰ الإمكان (**في مجاحدته**) ومناكرته علىٰ طريق المكابرة (**بأقصىٰ قدرته**) أي نهاية ما يقدر عليه (**وكيف يذم**) لسانًا وقلمًا (**من أفحمه**) في المجلس وأسكته (**طول عمره**) ويعاديه، ويقع في مَقاتله (**ثم لا يستحي**) هذا (**من تشبيه نفسه**) الخسيسة (**بالصحابة**) والسلف الصالحين (**في تعاونهم علىٰ النظر في الحق**) وتفاوضهم فيما بينهم، هيهات! كيف تقاس الملائكة بالحدَّادين؟!

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ في صحيح البخاري، وإنما الرواية فيه ١/ ٦١: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». وقد رواه باللفظ الذي ذكره الشارح ابن أبي عاصم في كتاب الزهد ص ١٢٦ (ط - الدار السلفية بالهند) من حديث أبي موسىٰ الأشعري.

(السابع: **أن لا يمنع مُعينه في النظر**) وهو الذي يبحث معه، وهو المعين له في صورة الخصم (**من الانتقال من دليل إلىٰ دليل**) آخَر، والدليل عند الأصوليين: ما يمكن التوصُّل بصحيح النظر فيه إلىٰ مطلوب خبريٍّ[١]. أي فإذا أورد دليلاً علىٰ إقامة مسألة فوجده منقوضًا فانتقل إلىٰ دليل آخَر ليس لخصمه أن يمنعه من ذلك (و) كذا ليس له أن يمنعه من الانتقال (**من إشكال إلىٰ إشكال**) آخَر؛ إذ المراد طلبُ الضالة، فبأيِّ وجه طلب لا يُمنع فيه (**فهكذا كانت مناظرات السلف**) الصالحين، فمن ذلك مناظرة إسحاق بن راهويه مع الشافعي، وأحمد ابن حنبل حاضر. قرأت في كتاب «الناسخ والمنسوخ» للحافظ أبي الحسن بدل ابن أبي المعمر التِّبْريزي الشافعي ما نصه[٢]: أخبرني أبو بكر محمد بن إبراهيم بن علي الخطيب، أخبرنا يحيىٰ بن عبد الوهاب العبدي، أخبرنا محمد بن أحمد الكاتب، أخبرنا أبو الشيخ الحافظ قال: حُكي أن إسحاق بن راهويه ناظر الشافعي - وأحمد بن حنبل حاضر - في جلود الميتة إذا دُبغت، فقال الشافعي: دباغها طهورها. فقال له إسحاق: ما الدليل؟ فقال: حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن ميمونة أن النبي ﷺ قال: «هلاَّ انتفعتم بإهابها»؟ فقال له إسحاق: حديث ابن عكيم: كتب إلينا النبي ﷺ قبل موته بشهر أن «لا تنتفعوا من الميتة لا بإهاب ولا عصب» فهذا يشبه أن يكون ناسخًا لحديث ميمونة؛ لأنه قبل موته بشهر. فقال الشافعي: هذا كتاب، وذاك سماع. فقال إسحاق: إن النبي ﷺ كتب إلىٰ كسرىٰ وقيصر، فكانت حُجَّة بينهم عند الله. فسكت الشافعي. فلما سمع بذلك أحمد ذهب إلىٰ حديث ابن عكيم وأفتىٰ به، ورجع إسحاق إلىٰ حديث الشافعي.

قلت[٣]: وقد حكىٰ الخلاَّل في كتابه أن أحمد توقَّف في حديث ابن عكيم لما

---

(١) هذا هو تعريف ابن الحاجب، كما في بيان المختصر للأصفهاني ١/ ٣٤.

(٢) الاعتبار في بيان الناسخ والمنسوخ للحازمي ص ٥٧.

(٣) القائل هو الحازمي.

رأىٰ تزلزُل الرواة فيه، وقال بعضهم: رجع عنه، وطريق الإنصاف فيه أن يقال: إن حديث ابن عكيم ظاهر الدلالة في النسخ لو صحَّ، ولكنه كثير الاضطراب، ثم لا يقاوَم بحديث ميمونة في الصحة. وقال أبو عبد الرحمن النسائي[١]: أصح ما في هذا الباب حديث ميمونة. وروينا عن عباس [الدوري] أنه قيل ليحيىٰ بن معين: أيُّما أعجب إليك من هذين الحديثين؟ فأشار إلىٰ حديث ميمونة[٢]. ا.هـ.

وهذه المناظرة قد أوردها التاج السبكي في طبقاته كما سقناه، وقال في آخر ذلك[٣]: فانظر إلىٰ سكوت الشافعي ومحبَّته لظهور الحق، وربما يظن فيه قاصر الفهم أن الشافعي انقطع فيها مع إسحاق، ولو تأمَّل رجوع إسحاق إليه لظهر له الحق[٤]، وتحقيقُ هذا أن اعتراض إسحاق فاسد الوضع لا يقابَل بغير السكوت، بيانه أن كتاب عبد الله بن عكيم كتاب عارضه سماعٌ، ولم يتيقَّن أنه مسبوق بالسماع، وإنما ظن ذلك ظنًّا لقرب التاريخ، ومجرَّد هذا الأمر لا ينهض بالنسخ، وأما كتب رسول الله ﷺ إلىٰ كسرىٰ وقيصر فلم يعارضها شيء [بل] عضدتها القرائنُ، وساعدها التواتر الدال علىٰ أن هذا النبي ﷺ جاء بالدعوة إلىٰ ما في هذا الكتاب، فلاحَ بهذا أن السكوت من الشافعي تسجيل علىٰ إسحاق بأن اعتراضه فاسد الوضع فلم يستحق عنده جوابًا، وهذا شأن الخارج عن البحث عند

---

(١) سنن النسائي ص ٦٥٥.

(٢) بعده في الاعتبار: «وإذا تعذر ذلك فالمصير إلىٰ حديث ابن عباس أولىٰ لوجوه من الترجيحات، ويحمل حديث ابن عكيم علىٰ منع الانتفاع به قبل الدباغ، وحينئذ يسمىٰ إهابًا، وبعد الدباغ يسمىٰ جلدا، ولا يسمىٰ إهابًا، وهذا معروف عند أهل اللغة؛ ليكون جمعًا بين الحكمين، وهذا هو الطريق في نفي التضاد عن الأخبار».

(٣) طبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/ ٩٢، وليس فيه عبارة «فانظر إلىٰ سكوت الشافعي ومحبته ظهور الحق».

(٤) عبارة السبكي: «وقد يظن قاصر الفهم أن الشافعي انقطع فيها مع إسحاق، وليس الأمر كذلك، ويكفيه مع قصور فهمه أن يتأمل رجوع إسحاق إلىٰ قول الشافعي، فلو كانت حجته قد نهضت علىٰ الشافعي لما رجع إليه».

الجدليين؛ فإنه لا يقابَل بغير السكوت، ورُبَّ سكوت أبلغ من نطق، ومن ثَم رجع إليه إسحاق[١]، فافهم.

(ويُخرِج من كلامه) الذي يقرره (جميعَ دقائق الجدل المبتدَعة) علىٰ طريقة العميدي أو البزدوي (فيما له وعليه، كقوله) فيما بعدُ: (هذا) القول (لا يلزمني ذِكرُه) في هذا البحث (وهذا) إن تأملتَ (يناقض كلامَك الأول، فلا يُقبَل منك) والانتقال من دليل إلىٰ دليل قد يوجد فيه ذلك (فإن الرجوع إلىٰ الحق) أبدًا يكون (مناقضًا للباطل، ويجب قبوله) ولا عبرة بمناقضة الكلام الثاني، والجدلي لا يسلِّم ذلك (وأنت ترىٰ أن جميع المجالس) في زمانك (تنقضي) علىٰ غير طائل (في المدافعات والمجادلات) مع الخصوم؛ لألفتهم في العناد وضراوة الاعتياد علىٰ داعية المخالفة (حتىٰ يقيس المستدلُّ علىٰ أصل) من الأصول (بعلة) موجِبة له (يظنها، فيقال له: ما الدليل علىٰ أن الحكم في الأصل معلَّل بهذه العلة) قال المناوي[٢]: العلة عند الأصوليين: المعرِّف[٣] للحكم، وقيل: المؤثِّر بذاته بإذن الله تعالىٰ، وقيل: الباعث عليه، والعلة القاصرة عندهم هي التي لا تتعدىٰ محلَّ النص. ا.هـ.

وقد أورد ما يتعلق بالعلة ومسائلها المصنِّفُ في كتاب مستقل سماه «شفاء الغليل في بيان مسائل التعليل»، وذكر فيه أن العلة القاصرة صحيحة عند الشافعي، باطلة عند أبي حنيفة.

(فيقول: هذا ما ظهر لي) في هذا الحكم (فإن ظهر لك) فيه (ما هو أوضح منه وأَولىٰ فاذكره) لي (حتىٰ أنظر فيه) فإن كان حقًّا تبعتُه (فيصر) أي يبقىٰ مصرًّا

---

(١) بعده في طبقات السبكي: «ولو كان السكوت لقيام الحجة لأكد ذلك ما عند إسحاق، فافهم ما يلقىٰ إليك».

(٢) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف ص ٢٤٥.

(٣) في المطبوعة: المؤثر. والمثبت من التوقيف.

(للتعرُّض) أي على التعرض، وفي نسخة: فيصر المعترضُ (ويقول: فيه معانٍ) أخرى (سوى ما ذكرتُه، وقد عرفتُها، ولا أذكرها) لك، أو يقول: (ولا يلزمني ذِكرُها) لك (ويقول المستدل: عليك إبراز): إظهار (ما تدَّعيه) وفي نسخة: ادعيتَه (وراء هذا، ويصرُّ المعترض على أنه لا يلزمه) إبرازُه (ويترجَّىٰ) وفي نسخة: ويتوخَّىٰ، وفي أخرىٰ: فتنقضي (مجالس المناظرة بهذا الجنس من السؤال وأمثاله) ويتبجَّح بذلك بين أقرانه المناضلين (ولا يعرف هذا المسكين) في عقله وفهمه (أن قوله: إني أعرفه ولا أذكره أو لا يلزمني) ذِكرُه (كذبٌ) محض (على الشرع؛ فإنه إن كان لا يعرف معناه) حقيقةً (وإنما يدَّعيه) ادِّعاءً (ليُعجِز خصمَه) ويُسكِتَه (فهو) حينئذٍ (فاسق) في فعله (كذاب، عصى الله تعالىٰ وتعرَّض لسخطه) ومقته (بدعواه معرفة) معنىٰ (هو خالٍ) منها وعارٍ (عنها، وإن كان صادقًا) فيما يقول (فقد فسق بإخفائه ما عرفه من أمر الشرع) فكيف يكتم علمًا (وقد سأله أخوه المسلم) استشفاءً لغليله (ليفهمه وينظر فيه) نظر تدبُّرٍ (فإن كان قويًّا) راجحًا (رجع إليه، وإن كان ضعيفًا) مرجوحًا (أظهر له ضعفه) وبيَّن له مرجوحيته (وأخرجه عن ظلمة الجهل) والحيرة (إلىٰ) مقام (نور العلم) فكان مرشدًا له لا محالة (ولا خلاف أن إظهار ما علم من علم الدين) وتعليمه (بعد السؤال) والبحث (عنه واجب لازم) وقد ورد في كتمان العلم للسائلين وذمِّه أحاديث تقدم ذِكرُها في أول الكتاب (فمعنىٰ قوله: لا يلزمني، أي في شرع الجدل الذي أبدعناه) وجعلنا له أركانًا وقواعد (بحكم التشهِّي) النفساني (والرغبة) المُردية إلىٰ مهاوي الضلال (في طريق الاحتيال) والمكر (والمصارعة بالكلام) أي المواثبة به (لا يلزمني) ذِكرُه (وإلا فهو لازم في الشرع) المحمديِّ (فإنه بامتناعه عن الذِّكر إما كاذب) في قوله (وإما فاسق) بفعله (فتفحَّصْ) رحمك الله (عن مشاورات الصحابة ومفاوضات السلف) رحمهم الله تعالىٰ (هل سمعتَ فيها ما يضاهي) أي يشبه (هذا الجنسَ) من المجادلات؟ (وهل مُنع أحد من الانتقال من دليل إلىٰ دليل) آخَر (ومن قياس) عقلي (إلىٰ أثر) نبويٍّ (ومن خبر إلىٰ آية) كلا واللهِ (بل جميع مناظراتهم من هذا الجنس؛ إذ كانوا يذكرون) ما عندهم (كلَّ

ما يخطر لهم) في أفهامهم **(كما يخطر، وكانوا ينظرون فيه)** نظرَ تدبُّرٍ، فإن رأوا حقًّا رجعوا إليه، وانظر رجوع إسحاق بن راهويه إلىٰ قول الشافعي بعد مناظرته في إهاب الميتة المدبوغة، واستدلاله بحديث ابن عكيم - كما تقدم - لمَّا ظهر له الحق فيه، وتصمم أحمد فلم يرجع، ثم لما ظهر له ترجيح حديث ميمونة رجع إليه، كما نُقل عنه.

(الثامن: أن يناظر) مع **(من يتوقع)** أي يرجو **(الاستفادة منه ممن هو مشتغل بالعلم)** كامل الأحوال، عارف بالأصول الدينية، متمحِّض في خدمة العلم، غير راكن إلىٰ الدنيا وأربابها **(والغالب)** علىٰ مناظري الزمان **(أنهم يحترزون)** ويتجنَّبون **(من مناظرة الفحول)** من العلماء **(والأكابر)** من الفضلاء **(خوفًا من ظهور الحق علىٰ ألسنتهم)** فلا محالة من اتِّباعه وترك مذهب مقلَّده، أو خوفًا من تبكيته والتسجيل عليه بكونه صار مغلوبًا **(فيرغبون فيمن دونهم)** من أوساط الطلبة وصغارهم **(طمعًا في ترويج الباطل عليهم)** وهم لقصور أفهامهم لا يطيقون علىٰ ردِّ ذلك الباطل فيدخلون عليهم بهذه التمويهات المزخرفة فيتحيَّرون، ويروج عليهم ذلك الكلامُ.

فهذه شروط في المناظرة ثمانية **(ووراء هذه شروط)** أُخَر **(دقيقة كثيرة)** يطول الكلام في بيانها **(ولكن في هذه الشروط الثمانية)** المذكورة **(ما يهديك)** ويرشدك **(إلىٰ)** الفرق بين **(من يناظر لله)** تعالىٰ وقصدُه ظهور الحق واتِّباعه **(و)** بين **(من يناظر لعلة)** دنيوية وأغراض فاسدة.

ثم لما فرغ من بيان الشروط الثمانية شرع في ذِكر الآفات التي تحدث في المناظرة بمناسبة لطيفة ودخول غريب فقال: **(واعلمْ بالجملة)** فإن التفصيل مما يُمَلُّ منه **(أن من لا يناظر الشيطان وهو مستولٍ علىٰ قلبه)** بوساوسه وشَرَكه **(وهو أعدىٰ أعدائه)** وأكبر خُصَمائه. اعلم[1] أن جهاد أعداء الله في الخارج فرع علىٰ

---

(١) زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٥.

جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال ﷺ: «المجاهد مَن جاهد نفسَه في ذات الله، والمهاجر مَن هجر ما نهىٰ اللهُ عنه». ولذلك كان جهاد النفس مقدَّمًا علىٰ جهاد العدو في الخارج وأصلاً له؛ فإنه ما لم يجاهد أولاً نفسه ويناظرها لتفعل ما أُمرت به وتترك ما نُهيتْ عنه ويحاربها في الله لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج، وكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه وعدوُّه الذي بين جنبَيْه قاهر له، متسلِّط عليه **(ولا يزال يدعوه)** ويحمله **(إلىٰ هلاكه)** ملاحظٌ له في حركاته وسكناته، لا ينفكُّ عنه ولا يفتر إما بسلب إيمانه إن إمكنه، وإلا بإلقائه في المعاصي التي هي بريد الكفر، ثم يثبِّطه عن التوبة، فمن لم يناظره في الله لم يمكنه مناظرة عدوه في الخارج، فهذان عدوانِ قد امتُحن العبد بجهادهما ومناظرتهما، وبينهما عدوٌّ ثالث لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يخذِّل العبدَ عن جهادهما، ولا يزال يخيِّل له الخداع والمكر، ويحسِّن له اللذات والشهوات[1]، فكان جهاده ومناظرته هو الأصل لجهادهما، وهو الشيطان، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ [فاطر: ٦] والأمر باتخاذه عدوًّا تنبيه علىٰ استفراغ الوسع في مجاهدته؛ فإنه عدو لا يفتُر ولا يقصِّر عن محاربة العبد علىٰ عدد الأنفاس. فمَن ترك الجهاد والمناظرة مع هذا العدو الخبيث **(ثم يشتغل بمناظرة غيره في مسائل)** معلومة **(التي المجتهد فيها مصيب)** الأجر **(أو مساهم)** أي مشارك في السهم **(للمصيب في الأجر فهو ضُحْكة الشياطين)** أي يضحكون عليه، ويستهزئون به. والضُّحْكة بضم فسكون: مَن يُضحَك عليه، وأما الضُّحَكة بضم ففتح هو مَن يضحك علىٰ الناس كثيرًا[2] **(وعبرة للمخلصين)** يعتبرون بأحواله **(ولذلك شمت)** أي فرح **(الشيطان به بما غمسه فيه)** وأغرقه **(في)** بحار **(ظلمات الآفات)** العشرة **(التي نعدِّدها ونذكر تفاصيلها)** إن شاء الله تعالىٰ **(فنسأل الله حُسن العون والتوفيق.**

(١) عبارة الزاد: «ولا يزال يخيل له ما في جهادهما من المشاق وترك الحظوظ وفوت اللذات والمشتهيات، ولا يمكنه أن يجاهد ذينك العدوين إلا بجهاده».

(٢) المفردات للراغب ص ٢٩٢.

* **بيان آفات المناظرة وما يتولَّد منها)** في الجانبين **(من مهلكات الأخلاق)** وقواتلها

(اعلمْ) أيها الإنسان **(وتحقَّقْ)** في نفسك **(أن المناظرة الموضوعة)** التي ابتدعوها الآن **(لقصد الغلبة)** على الخصم **(والإفحام)** أي الإسكات **(وإظهار الفضل)** والمزية **(والتشرُّف)** وفي نسخة: والشرف **(والتشدُّق عند الناس)** في المحافل **(وقصد المباهاة)** أي المفاخرة **(والمُماراة)** أي المخاصمة **(واستمالة)** أي طلب ميل وصرفِ **(وجوه الناس)** بالالتفات **(هي منبع جميع الأخلاق المذمومة)** المعكوسة **(عند الله)** تعالىٰ **(المحمودة عند عدو الله إبليس)** لعنه الله، والشيء قد يكون محمودًا ومذمومًا باختلاف النِّسَب والإضافات **(ونسبتها)** أي المناظرة **(إلىٰ الفواحش الباطنة)** المعقولة **(من)** نحو **(الكِبْر، والعُجْب، والحسد، والمنافسة، وتزكية النفس، وحب الجاه، وغيرها)** علىٰ ما سيأتي بيانها في المهلكات **(كنسبة شرب الخمر إلىٰ الفواحش الظاهرة)** المحسوسة **(من)** نحو **(الزنا، والقذف، والقتل، والسرقة)** وغيرها **(وكما أن الذي خُيِّر بين الشرب)** أي بين أن يشرب الخمر **(و)** بين ارتكاب **(سائر الفواحش)** كقتل وزنا وغير ذلك **(استصغر الشرب)** أي عدَّه صغيرًا **(فأقدم عليه)** فشربه **(فدعاه ذلك)** وحمله **(إلىٰ ارتكاب بقية الفواحش في سُكْره)** فزنىٰ وقتل وفعل ما فعل، وذلك لكونه جُمَّاع الإثم ومُفسد العقل ومفسد الدنيا والدين، وقد ورد في شربه أحاديث يأتي بيانها في مواضعها **(فكذلك مَن غلب عليه حبُّ الإفحام والغلبة في المناظرة وطلب الجاه)** عند ذويه **(والمباهاة)** به **(دعاه ذلك)** وجرَّه **(إلىٰ إضمار الخبائث كلها في النفس وهيَّج فيه)** أي في الإنسان **(جميع الأخلاق)** الرذيلة **(المذمومة)** المعكوسة **(وهذه الأخلاق)** بتمامها **(سيأتي)** بيانها، وتأتي **(أدلة مَذمَّتها)** المستنبَطة **(من الأخبار)** الواردة **(والآيات في ربع المهلكات)** إن شاء الله تعالىٰ **(ولكنا نشير الآن)** بحسب المقام **(إلىٰ مجامع ما تهيِّجه المناظرة)** وتبعثه عليها **(فمنها الحسد)** وهو[1] تسخُّط

---

(١) فيض القدير ٣/ ٤١٣. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

قضاء الله والاعتراض عليه، وهو مذموم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: ٥] (**وقد قال رسول الله ﷺ: الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النارُ الحطبَ**) لأنه اعتراض علىٰ الله فيما لا عذر للعبد فيه؛ لأنه لا تضرُّه نعمة الله علىٰ عبده، فالله لا يعبث، ولا يضع الشيء في غير محله، فكأنه نسب ربه للجهل والسفه، و[من] لم يرضَ بقضائه [فليطلب ربًّا سواه] والحاسد معاقَب بالغيظ الدائم في الدنيا، وفي الآخرة بإحباط الحسنات.

قال العراقي[١]: أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة، وقال البخاري: لا يصح، وهو عند ابن ماجه من حديث أنس بإسناد ضعيف، وفي تاريخ بغداد بإسناد حسن.

قلت: أما أبو داود فأخرجه[٢] من رواية إبراهيم بن أبي أسيد عن جدِّه عن أبي هريرة بلفظ: «إياكم والحسد؛ فإن الحسد ...» فذكره، وجده قال الذهبي[٣]: لعله سالم البَرَّاد، ثقة. وقول البخاري «لا يصح» هو في تاريخه الكبير[٤].

وأما حديث أنس الذي أخرجه ابن ماجه[٥] فمن رواية عيسىٰ الحَنَّاط عن أبي الزناد عنه، وعيسىٰ الحنَّاط ضعيف، وفي ترجمته رواه ابن عدي في الكامل[٦] وقال:

---

(١) المغني ١/ ٣٢.

(٢) سنن أبي داود ٥/ ٣١٥.

(٣) الكاشف للذهبي ٢/ ٤٩٧، وليس فيه (ثقة). وفي تقريب التهذيب لابن حجر ص ٣٦١: «سالم البراد، أبو عبد الله الكوفي، ثقة، من الثانية».

(٤) التاريخ الكبير ١/ ٢٧٢ ونصه: «إبراهيم بن أبي أَسيد المدني البراد عن جده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إياكم والحسد ... الخ. روىٰ عنه سليمان بن بلال وأبو ضمرة. ويقال: ابن أبي أُسيد، ولا يصح». فظاهر من عبارة البخاري أن نفي الصحة متجه إلىٰ ضبط أول (أسيد) بالضم وأنه بالفتح لا غير، وليس إلىٰ عدم صحة الحديث.

(٥) سنن ابن ماجه ٥/ ٦١٧.

(٦) الكامل في الضعفاء ٥/ ١٨٨٧.

هو متروك الحديث. وفي هذا الحديث زيادة في آخره: «والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، والصلاة نور المؤمن، والإيمان[١] جُنَّة من النار». وقال ابن عديٍّ في الكامل[٢]: ورواه واقد بن سلامة - وقيل: سَلَمة - عن يزيد الرقاشي عن أنس هكذا، ورواه الليث بن سعد عن محمد بن عجلان عنه عن يزيد، ورواه ابن لهيعة عن محمد بن [عجلان عن] واقد عن أنس، ولا يصح، قال أبو بكر بن أبي داود: والصواب عن يزيد عن أنس. وفيه زيادات ذِكر الصلاة والصيام والصدقة. ا.هـ.

ورواه الخطيب في تاريخ بغداد[٣]، وليس فيه عيسىٰ الحناط.

وفي الباب عن ابن عمر ومعاوية بن حيدة، فحديث ابن عمر رواه الدارقطني في «غرائب مالك» من رواية مالك والليث عن نافع عنه[٤]، وقال: باطل[٥].

ورواية معاوية أخرجها الديلمي عن معاوية بن حَيْدة: «الحسد يفسد الإيمانَ كما يفسد الصَّبِرُ العسلَ»[٦].

وفي الباب أيضًا حديث الزبير أخرجه ابن عبد البر في كتاب العلم[٧] بلفظ: «دبَّ إليكم داءُ الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء».

(**ولا ينفكُّ المناظر عن الحسد؛ فإنه**) أي المناظر (**تارةً يَغلب**) علىٰ خصمه

---

(١) في الكامل: والصيام.

(٢) الكامل ٧/ ٢٥٥٤ بلفظ قريب.

(٣) تاريخ بغداد ٣/ ١٣.

(٤) ورواه أيضاً القضاعي في مسند الشهاب ٢/ ١٣٦.

(٥) وقال الذهبي في ميزان الاعتدال ٣/ ٢٢٢: «عمر بن محمد بن حفصة الخطيب، له في مسند الشهاب: حدثنا محمد بن معاذ دران، حدثنا القعنبي، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر مرفوعا: الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. فهذا بهذا الإسناد باطل».

(٦) انظر: المقاصد الحسنة للسخاوي ص ١٨٨.

(٧) جامع بيان العلم ٢/ ١٠٨٧، ١٠٩٠.

(وتارةً يُغلب) منه (وتارةً يُحمَد كلامه، وأخرىٰ) وفي نسخة: وتارةً (يُحمَد كلام غيره) بحسب المقامات (فما دام يبقىٰ في الدنيا) أي في الحياة (واحد يذكِّره بقوة العلم و) حدة (النظر) وحُسن الفهم (أو يظن أنه أحسن منه كلامًا) وسياقًا وسردًا (وأقوىٰ نظرًا) في المسائل (فلا بد أن يحسده) ويتسخَّط عليه باطنًا (ويحب زوال النعم عنه وانصراف القلوب والوجوه عنه إليه) بل يحب هلاكه كيف أمكن؛ ليخلو له الميدان، وهذا محسوس مشاهَد (والحسد) في الحقيقة (نار محرقة) وإليه يشير قول الشاعر[١]:

اصبرْ علىٰ غصص الحسو ... دِ فإن صبرك قاتلُه
فالنار تأكل نفسها ... إن لم تجد ما تأكله

(فمَن بُلي به فهو في العذاب) الدائم (في الدنيا) معاقَب بغيظه، لا ينفكُّ عنه (ولَعذابُ الآخرة أشد وأعظم) بإحباط الحسنات، ومن ثَم كان من الكبائر، وقال بعضهم[٢]: ينشأ من الحسد: إفساد الطاعات، وفعلُ المعاصي والشرور، والتعب والهم بلا فائدة، وعمىٰ القلب حتىٰ لا يكاد يفهم حكمًا من أحكام الله تعالىٰ، والحرمان والخذلان، فلا يكاد يظفر بمراد (ولذلك قال ابن عباس ﷺ) فيما رُوي من قوله: (خذوا العلم حيث وجدتموه، ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم في بعض؛ فإنهم يتغايرون كما تتغاير التيوس في الزريبة) رواه ابن عبد البر في كتاب العلم[٣] بلفظ: استمِعوا قول القرَّاء، ولا تصدِّقوا بعضهم علىٰ بعض، فوالذي نفسي بيده لهم أشد تغايُرًا من التيوس في زروبها.

---

(١) هو عبد الله بن المعتز العباسي، والبيتان في ديوانه ص ٣٨٩ (ط - دار صادر). وفيه: اصبر علىٰ حسد الحسود. وفيه أيضا: فالنار تأكل بعضها.

(٢) أورده المناوي في فيض القدير ٣/ ٤١٤، ونسبه للغزالي.

(٣) جامع بيان العلم ٢/ ١٠٩١ من طريق داود بن أبي هند عن سعيد بن جبير عنه بلفظ: استمعوا علم العلماء، ولا تصدقوا ... الخ. ورواه أيضاً باللفظ الذي ذكره الغزالي من طريق مقاتل بن حيان وعطاء الخراساني عن سعيد بن المسيب عنه.

قال: وعن مالك بن دينار: يؤخذ بقول العلماء والقرَّاء في كل شيء إلا قول بعضهم في بعض[١].

وقال ابن السبكي[٢]: رأيت في كتاب «مُعين الحكَّام» لابن عبد الرفيع[٣] المالكي: وقع في المبسوطة من قول عبد الله بن وهب أنه لا تجوز شهادة القارئ على القارئ، يعني العلماء؛ لأنهم أشد الناس تحاسدًا وتباغضًا، وقاله سفيان ومالك بن دينار.

قال ابن السبكي: وليس هذا على الإطلاق، ولكن من ثبتت عدالته[٤] لا يُلتفَت فيه إلى قول مَن تشهد القرائن بأنه متحامل عليه إما لتعصُّب مذهبيٍّ أو غيره. ا.هـ.

والجملة الأولى من قول ابن عباس لها شاهد قوي من قوله فيما رواه سليمان بن معاذ [عن سماك] عن عكرمة عنه: خذوا الحكمة ممن سمعتموها[٥].

---

(١) جامع بيان العلم ٢/ ١٠٩٢ ونصه: «حدثني أحمد بن قاسم، ثنا محمد بن عيسى، ثنا علي بن عبد العزيز. ونا سعيد بن عثمان، ثنا أحمد بن دحيم، ثنا أبو عيسى أحمد بن محمود، ثنا أحمد بن علي الوراق قالا: نا مسلم بن إبراهيم قال: نا الحسن بن أبي جعفر قال: سمعت مالك بن دينار يقول: يؤخذ بقول العلماء والقراء في كل شيء إلا قول بعضهم في بعض، فلهم أشد تحاسدًا من التيوس، تنصب لهم الشاة الضارب فينبيها هذا من ههنا وهذا من ههنا. وقال سعيد في حديثه: فإني وجدتهم أشد تحاسدًا من التيوس بعضها على بعض».

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٢/ ٩.

(٣) في المطبوعة: لابن عبد البر. والتصويب من طبقات السبكي.

(٤) عبارة السبكي: ولعل ابن عبد البر يرى هذا، ولا بأس به، غير أنا لا نأخذ به على إطلاقه، ولكن نرى أن الضابط ما نقوله من أن ثابت العدالة لا يلتفت ... الخ.

(٥) رواه من هذا الطريق العسكري في الأمثال، كما في المقاصد الحسنة للسخاوي ص ١٩٢، وزاد: فإنه قد يقول الحكمة غير الحكيم، وتكون الرمية من غير رام.

وفي المدخل للبيهقي[1] من رواية الحسن بن صالح [عن سماك] عن عكرمة عنه: خذِ الحكمة ممَّن سمعتَ.

وأما قول مالك بن دينار فأورده أبو نعيم في الحلية[2] بسنده إليه، قال: تجوز شهادة القرَّاء في كل شيء إلا شهادة بعضهم علىٰ بعض؛ فإنهم أشد تحاسدًا من التيوس في الزُّرَب.

وأخرج[3] في ترجمة كعب الأحبار من قوله: يوشك أن تروا جُهَّال الناس يتباهون بالعلم ويتغايرون عليه كما تتغاير النساءُ علىٰ الرجال، فذلك حظُّهم من العلم.

والتغايُر تفاعُلٌ من الغيرة، والزَّرِيبة: حظيرة للغنم تُتخذ من خشب، كالزَّرْب، والجمع: الزَّرائب، وجمع الزَّرْب: الزُّرُوب.

(**ومنها: التكبُّر**): أن[4] يرىٰ نفسه أكبر من غيره. وفي نسخة: ومنها الكِبْر (و) في معناه (**الترفُّع علىٰ الناس**) وأعظم التكبرِ التكبرُ علىٰ الله تعالىٰ بالامتناع من قبول الحق والإذعان [له بالعبادة] وأصل التكبر يقال علىٰ وجهين:

أحدهما: أن تكون الأفعال الحسنة كثيرة في الحقيقة وزائدة علىٰ محاسن غيره، وعليه وصف الله بالمتكبِّر.

الثاني: أن يكون متكلِّفًا لذلك متشبِّعًا، وذلك وصف عامَّة الناس.

---

(١) المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ ٢/ ٢٩٢ ولفظه: خذ الحكمة ممن سمعت، فإن الرجل يتكلم بالحكمة وليس بحكيم، فتكون كالرمية خرجت من غير رام.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٣٧٨.

(٣) حلية الأولياء ٥/ ٣٧٦.

(٤) المفردات للراغب ص ٤٢١ - ٤٢٢. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

ومَن وُصف بالتكبُّر علىٰ الوجه الأول فمحمود، وعلىٰ الثاني فمذموم.

(**فقد قال ﷺ: مَن تكبَّر وضعه الله، ومَن تواضَع رفعه الله**) قال العراقي[١]: أخرجه الخطيب من حديث عمر بإسناد صحيح وقال: غريب من حديث الثوري. ولابن ماجه نحوه من حديث أبي سعيد بسند حسن.

قلت[٢]: هو في تاريخ الخطيب[٣] بلفظ: خفضه الله، مكان: وضعه، وفي الأوسط للطبراني[٤]: قصمه الله، مكان: وضعه، أخرجاه هكذا من رواية عابس بن ربيعة قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: أيها الناس، تواضعوا؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول ... فذكراه، وقال الخطيب: غريب. ولفظ ابن ماجه[٥] من رواية ابن لهيعة عن أبي الهيثم عن أبي سعيد: «مَن تواضع لله رفعه الله، ومَن تكبَّر وضعه الله». وهكذا أورده أيضًا أحمد[٦] وأبو يعلىٰ[٧] في مسنديهما.

وقال ابن حجر في الفتح[٨]: أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد رفعه بلفظ: «مَن تواضع لله رفعه الله حتىٰ يجعله في أعلىٰ عِلِّيين. قال: وصحَّحه ابن حبان[٩]، بل

---

(١) المغني ١/ ٣٢.

(٢) اضطرب الشارح رحمه الله في تخريج هذا الحديث، فهو ينسب روايات إلىٰ مخرجيها، وبعد رجوعي إلىٰ مصادر تلك الروايات لا أعثر عليها، كما سترىٰ.

(٣) تاريخ بغداد ٢/ ٤٧١.

(٤) المعجم الأوسط ٨/ ١٧٢.

(٥) سنن ابن ماجه ٥/ ٥٩٦ من طريق عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد بلفظ: من يتواضع لله سبحانه درجة يرفعه الله به درجة حتىٰ يجعله في أعلىٰ عليين، ومن يتكبر علىٰ الله درجة يضعه الله به درجة حتىٰ يجعله في أسفل السافلين». وليس فيه ابن لهيعة.

(٦) مسند أحمد ١٨/ ٢٥٠.

(٧) مسند أبي يعلىٰ ٢/ ٣٥٩.

(٨) فتح الباري ١١/ ٣٥٥.

(٩) صحيح ابن حبان ١٢/ ٤٩١.

أخرجه مسلم في الصحيح[(١)] والترمذي في الجامع[(٢)] بلفظ: «ما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله». هكذا أخرجاه معًا عن أبي هريرة مرفوعًا.

ورواه أحمد[(٣)] والبزار[(٤)] عن عمر بلفظ: «من تواضع لله رفعه الله وقال: انتعش نعشك الله، فهو في أعيُن الناس عظيم، وعند الله كبير». وفي الأوسط للطبراني[(٥)] من رواية أبي معشر عن المقبري عن أبي هريرة: «مَن تواضع لأخيه المسلم رفعه الله، ومن ارتفع عليه وضعه الله». وأخرجه أبو نعيم[(٦)] وكذا القضاعي[(٧)] كلاهما عن أبي هريرة مرفوعًا، وزاد أبو نعيم في الحلية في روايةٍ: «ومَن تكبَّر علىٰ الله وضعه الله حتىٰ يجعله في أسفل سافلين». ووجدت أيضًا في الحلية[(٨)] في ترجمة سَلْمان من طريق الأعمش عن أبي ظبيان عن جرير قال: قال سلمان: يا جرير، تواضعْ لله؛ فإنه مَن تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة.

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ١٢٠٢.

(٢) سنن الترمذي ٣/ ٥٥٢.

(٣) مسند أحمد ١/ ٣٩٩ بلفظ: «يقول الله تعالىٰ: من تواضع لي هكذا - وجعل يزيد باطن كفه إلىٰ الأرض وأدناها إلىٰ الأرض - رفعته هكذا. وجعل باطن كفه إلىٰ السماء ورفعها نحو السماء.

(٤) مسند البزار ١/ ٢٧٨ بسياق مسند أحمد، وليس فيهما عبارة «انتعش نعشك الله ...» الخ، وهي في المعجم الأوسط بلفظ: «من تواضع لله رفعه الله وقال: انتعش نعشك الله، فهو في نفسه صغير، وفي أعين الناس عظيم، ومن تكبر قصمه الله وقال: اخسأ، فهو في أعين الناس صغير، وفي نفسه كبير».
وهو في تاريخ بغداد بنحوه وزاد في آخره: حتىٰ يكون أهون عليهم من كلب.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٥٧: ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح.

(٥) المعجم الأوسط ٧/ ٣٥٤.
قال الهيثمي في المجمع ٨/ ١٥٨: فيه عبد العظيم بن حبيب، وهو ضعيف.

(٦) حلية الأولياء ٨/ ٤٦ بلفظ: «من تواضع لله رفعه الله». وليس فيه الزيادة التي ذكرها الشارح.

(٧) مسند الشهاب ١/ ٢١٩، ولم يورده حديثا، بل ترجمة أورد تحتها حديث عمر بن الخطاب بنحو رواية الخطيب في تاريخه. وليس فيه عبارة «حتىٰ يجعله في أسفل سافلين». وقد وردت هذه العبارة في رواية ابن ماجه، كما مر آنفا.

(٨) حلية الأولياء ١/ ٢٠٢.

وفي الباب عن: طلحة، وابن عباس، ومعاذ بن جبل، وأوس بن خولي.

ثم معنى[1] قوله «تواضع لله» أي لأجل عظمة الله تواضعًا حقيقيًّا، وهو كما قال ابن عطاء الله: ما كان ناشئًا عن شهود عظمة الحق وتجلِّي صفته، فالتواضع للناس مع اعتقاد عظمة في النفس واقتدار ليس بتواضع حقيقي، بل هو بالتكبُّر أشبهُ. وقيل: التواضع لله أن يضع نفسه حيث وضعها الله من العجز وذل العبودية تحت أوامره سبحانه بالامتثال، وزواجره بالانزجار، وأحكامه بالتسليم للأقدار؛ ليكون عبدًا في كل حال، فيرفعه بين الخلائق، وإن تعدَّىٰ طَوْرَه وتجاوز حده وتكبَّر وضعَه بين الخلائق.

(وقال ﷺ حكايةً عن الله ﷻ: العَظَمة إزاري، والكبرياء رِدائي، فمَن نازعني فيهما قصمته) هكذا في النسخ، وفي بعضها بتقديم الكبرياء علىٰ العظمة، وهي نسخة العراقي.

قال العراقي[2]: أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة، وهو عند مسلم بلفظ «الكبرياء رداؤه» من حديث أبي هريرة وأبي سعيد. ا.هـ.

وفي المقاصد[3]: أخرجه مسلم[4] وابن حبان[5] وأبو داود[6] وابن ماجه[7]، كلهم عن أبي هريرة مرفوعًا: «يقول الله: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمَن نازعني فيهما ألقيته في النار». ولفظ ابن ماجه: في جهنم. وعند أبي داود: قذفتُه

---

(١) فيض القدير للمناوي ٦/ ١٠٨ - ١٠٩.

(٢) المغني ١/ ٣٢.

(٣) المقاصد الحسنة ص ٣١٣.

(٤) صحيح مسلم ٢/ ١٢١٣ بلفظ: العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته.

(٥) صحيح ابن حبان ٢/ ٣٥، ١٢/ ٤٨٦.

(٦) سنن أبي داود ٤/ ٤١٧.

(٧) سنن ابن ماجه ٥/ ٥٩٦.

في النار. وعند مسلم: عذَّبتُه، وقال: رداؤه وإزاره، بالغيبة، وزاد مع أبي هريرة أبا سعيد. ورواه الحاكم في مستدركه[١] من وجه آخَر بلفظ: قصمته، وبدون ذكر العظمة، وقال: صحيح على شرط مسلم. وممن أخرجه بلفظ الترجمة القضاعي في مسنده[٢] من حديث عطاء بن السائب عن أبيه عن أبي هريرة بزيادة: يقول الله. وللحكيم الترمذي[٣] عن أنس رفعه: «يقول الله عَزَّوَجَلَّ: لي العظمة والكبرياء والفخر، والقَدَر سرِّي، فمَن نازعني واحدةً منهنَّ كببتُه في النار».

قلت: أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه من رواية الأغَرِّ أبي مسلم عن أبي هريرة، إلا أن لفظهما: فمَن نازعني واحدًا منهما. وقد رواه أحمد[٤] من رواية الثوري عن عطاء بن السائب عن الأغر[٥] بلفظ: ألقيته في النار. والحاكم رواه من رواية ابن المسيَّب عن أبي هريرة.

وفي الباب عن: ابن عباس، وعبد الله بن عمرو، وعلي بن أبي طالب.

(**ولا تنفكُّ المناظرة**) والمباحثة (**عن**) لحوق وصف (**التكبُّر على الأقران**) من مناظريه (**والأمثال**) منهم (**والترفُّع**) في حالاته (**إلى فوق قَدْره**) فيقع في التجاوز عن الحدود (**حتى إنهم**) أي أولئك المناظرين (**لَيتقاتلون**) ويتدافعون بمناكبهم (**على مجلس من المجالس**) وتراهم (**يتنافسون فيه**) ويتفاخرون (**في الارتفاع**) في جلوسهم (**والانخفاض**) عن مرتبتهم (**و**) يتباهون في (**القُرْب من وسادة الصدور**) والأكابر، وهو الموضع الذي يتوسَّد فيه الصدور ويتكئ عليه، والمراد به صدر المجلس (**و**) يتنزَّهون عن (**البعد منها**) ويرون ذلك ازدراء لشأنهم، واحتقارًا

---

(١) المستدرك على الصحيحين ١/ ١١٨.

(٢) مسند الشهاب ٢/ ٣٣١.

(٣) نوادر الأصول للحكيم الترمذي ١/ ٣١.

(٤) مسند أحمد ١٢/ ٣٣٧.

(٥) في المطبوعة: عن أبيه. والمثبت من مسند أحمد.

لهم (و) تراهم يؤثِرون (**التقدُّم في الدخول**) في المجالس (**عند مضايق الطرق**) ومصاعبها، فيختارون أن لا يتقدم عليهم أحدٌ في حالة مشيهم (**وربما يتعلَّل**) وفي نسخة: يتغابَىٰ (**الغبيُّ**) الذي أُشرِبَ قلبه هوىٰ الجاه والرفعة (**أو المُكاثِر الخَدَّاع منهم**) الذي كثر كلامه وإرهاصاته وخدع الناس بظاهر حاله. وفي نسخة: والمكَّار الخدَّاع، وهو قريب في المعنىٰ. ويحتجُّ في فعلِه هذا (**بأنه يبغي**) أي يطلب (**صيانةَ العلم**) وحفظ حوزته وحمايته. وفي نسخة: صيانة عزِّ العلم (**وأن المؤمن منهيٌّ عن إذلال نفسه**) ورد ذلك من حديث حُذَيفة وعليٍّ وأبي بكرة وابن عمر؛ أما حديث حذيفة فرواه الترمذي[١] وابن ماجه[٢] من رواية علي بن زيد عن الحسن عن جُنْدُب عنه رفعه: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسَه». قال الترمذي: حسن صحيح غريب؛ قاله العراقي.

قلت: وكذلك رواه الإمام أحمد[٣]، وزاد أبو يعلىٰ في مسنده والضياء في المختارة: قيل: كيف يذل نفسه؟ قال: «يتعرَّض من البلاء لِما لا يطيق»[٤]. وفي بعض رواياتهم: «لا ينبغي للمسلم». وأخرجه ابن عدي في الكامل[٥] فقال: حدثنا محمد بن عبد السلام البصري السلمي عن هُدْبة بن خالد عن حماد بن سَلَمة [عن علي بن زيد بن جدعان] عن الحسن عن جندب عن حذيفة ... فذكره، قال: وهذا ليس عند هدبة، إنما يُعرَف هذا لعمرو بن عاصم عن حماد، وقد ادَّعاه عمر بن موسىٰ الحادي عم الكديمي، وهو ضعيف، وابن عبد السلام أبطل روايته هذا الحديث عن هدبة عن حماد.

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ١٠٥.

(٢) سنن ابن ماجه ٥/ ٤٨٩.

(٣) مسند أحمد ٣٨/ ٤٣٥.

(٤) وهذه الزيادة في سنن الترمذي وسنن ابن ماجه ومسند أحمد أيضا.

(٥) الكامل في الضعفاء ٦/ ٢٣٠٧. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

وأما حديث عليٍّ فرواه الطبراني في الأوسط[1] من رواية عاصم بن ضمرة عن عليٍّ رفعه: «ليس للمسلم أن يذل نفسه». قالوا: يا رسول الله، وكيف يذل نفسه؟ قال: «يتعرَّض من البلاء لما لا يطيق». وقال: لا يُروَىٰ عن عليٍّ إلا بهذا الإسناد، تفرَّد به الجارود.

وأما حديث أبي بكرة فرواه الحارث بن أبي أسامة[2] عن الخليل بن زكريا عن حبيب بن الشهيد عن الحسن عنه رفعه: «ليس للمؤمن أن يذل نفسه». والخليل بن زكريا البصري ضعيف.

وأما حديث ابن عمر فرواه ابن عدي في الكامل في ترجمة أبي حفص عمر ابن موسىٰ بن سليمان الحادي عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عنه[3] رفعه: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه» وقال: ضعيف يسرق الحديث. قال: وهذا [الحديث] يُعرَف بعمرو بن عاصم عن حماد، فسرقه منه عمر هذا.

قال العراقي: وله طريق آخر رواه البزار[4] والطبراني في الكبير والأوسط من

---

(١) المعجم الأوسط ٨/ ٤١.

(٢) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ٢/ ٧٧٣ وأوله: قام رجل إلىٰ الحسن فقال: يا أبا سعيد، الحجاج قد أخر الصلاة يوم الجمعة حتىٰ كان قريبا من العصر، فتقوم إليه تأمره بتقوىٰ الله. فقال الحسن: إنهم إذا يقتلوني. فقال الرجل: أليس قال الله تعالىٰ: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝﴾؟ فقال الحسن: حدثني أبو بكرة أن رسول الله ﷺ قال ... فذكره.

(٣) هذا وهم من الشارح ﷺ، فهذا الحديث في الكامل ٥/ ١٧١٠ من حديث حذيفة بالسند السابق إليه، وليس من حديث ابن عمر. أما حديث ابن عمر فقد رواه الطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٤٠٩ من طريق ورقاء بن عمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عنه. ورواه الطبراني في المعجم الأوسط ٥/ ٢٩٤، وأبو الشيخ في الأمثال ص ١١٠ من طريق ورقاء عن عبد الكريم عن مجاهد عنه، وزادا في أوله: قال ابن عمر: سمعت الحجاج يخطب، فذكر كلامًا أنكرته، فأردت أن أغيره فذكرت قول رسول الله ﷺ ... فذكره.

(٤) انظر: كشف الأستار عن زوائد البزار للهيثمي ٤/ ١١٢ (ط - مؤسسة الرسالة).

رواية مجاهد عن ابن عمر مثله وزاد فيه: قلت: يا رسول الله، كيف يذل نفسه؟ ... الحديث، وإسناده جيد.

قلت: وقد رُوي أيضًا من حديث أبي سعيد الخدري، رواه أبو يعلىٰ في مسنده[1]، أشار له الجلال في جامعه الكبير.

وقرأت في الحلية لأبي نعيم[2] في ترجمة الفُضَيل بن عياض: قال له الفضل ابن الربيع وهو مع هارون الخليفة ودقَّ عليه الباب فلم يفتح: أليس قد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس للمؤمن أن يذل نفسه»؟ فنزل ففتح الباب.

(**فيعبِّر عن التواضع الذي أثنىٰ الله عليه**) في مواضع من كتابه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣] (**وسائرُ أنبيائه**) عليهم الصلاة والسلام، كما هو مشهور في أقوالهم وكلماتهم (**بالذل**) علىٰ حسب زعمه (**و**) يعبِّر (**عن التكبُّر**) الواردِ في ذمِّه أحاديثُ (**الممقوتِ**) أي المبغوض (**عند الله**) أشد البغض (**بعز الدين**) وهذا من فساد معقوله (**تحريفًا للاسم**) وتغييرًا لمعانيه، ووضعه إياه في غير مواضعه (**وإضلالاً للخلق به**) وإهلاكًا لهم بهذا الوصف الذميم (**كما فُعل في اسم الحكمة والعلم وغيرهما**) كالوعظ والتذكير والفقه، علىٰ ما عُرف في أول الكتاب.

(**ومنها**) أي ومن آفات المناظرة: (**الحقد**) وهو الانطواء علىٰ العداوة والبغضاء[3] (**فلا يكاد المناظر**) وفي نسخة: ولا تكاد المناظرة (**يخلو عنه، وقد قال** ﷺ: **المؤمن ليس بحقود**) قال العراقي[4]: لم أقف له علىٰ أصل.

---

(١) مسند أبي يعلىٰ ٢/ ٥٣٧ في أثناء حديث طويل.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ١٠٥ في أثناء قصة طويلة، وقد اقتصر الشارح علىٰ المقصود منها.

(٣) المصباح المنير ص ٥٥.

(٤) المغني ١/ ٣٣.

وتبعه علىٰ ذلك الحافظ السخاوي في مقاصده[١].

(و) قد (ورد في ذم الحقد) من الأحاديث (ما لا يخفىٰ) علىٰ المتبصِّر، وسيأتي ذِكرُ شيء من ذلك في الربع الثالث (و) أنت (لا ترىٰ مناظرًا) في مجلس من المجالس (يقدر علىٰ أن لا يضمر) أي يكتم في نفسه (حقدًا علىٰ من يحرك رأسه) ويشير به (من كلام خصمه) الذي يناظره (ويتوقف في كلامه) ولو كان صريحًا (فلا يقابله) وفي نسخة: ولا يقابله (بحسن الإصغاء) والاستماع لِما يورده (بل يضطر إذا شاهد ذلك) منه ولم يجد محيصًا (إلىٰ إضمار الحقد وتربيته في النفس) أي تسكينه فيها. وفي نسخة: وتزيينه، من الزينة (وغاية تماسكه) عن إظهار ما في نفسه (الإخفاءُ بالنفاق) المذموم المنهيّ عنه (ويترشَّح منه) أي من هذا الحال من باطنه (إلىٰ الظاهر لا محالة في غالب الأمر) من كلامه وحركاته وسَكَناته، فمن أسرَّ سريرة ألبسه الله رداءها (وكيف ينفكُّ) المناظر (عن هذا) الوصف (ولا يتصوَّر اتفاق جميع المستمعين) حوله (علىٰ ترجيح كلامه) علىٰ المخالف (واستحسان جميع أحواله في) حالتَي (إيراده وإصداره) لا بد من نقصٍ في ذلك إلا مَن عصمه الله (بل لو صدر من خصمه) في حالة مناظرته (أدنىٰ تشبُّث) كذا في النسخ، وفي أخرىٰ: أدنى تشتيت، من الشَّتِّ وهو الخلاف والتباعُد، وفي أخرىٰ: أدنىٰ سبب (فيه قلة مبالاة) وفي نسخة: واعتناء (بكلامه انغرس في صدره) وثبت، وفي نسخة: في قلبه (حقدٌ لا تقطعه يد الدهر) أبدًا (إلىٰ آخر العمر) نسأل الله السلامة من ذلك بمَنِّه وكرمه.

(ومنها) أي ومن آفات المناظرة: (الغِيبة): أن تذكر أخاك بما يكرهه، أو ذِكرُ العيب بظهر الغيب (وقد شبَّهها الله) تعالىٰ في كتابه العزيز (بأكل المَيْتة) فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢] وقال تعالىٰ: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝﴾ [القلم: ١١] وسيأتي ما يتعلق بذلك في الربع الثالث (ولا يزال المناظر) في المجالس (مثابرًا) أي مجتهدًا صابرًا (علىٰ) هذا الوصف الذميم

---

(١) المقاصد الحسنة ص ٤٣٩.

الذي هو (**أكل الميتة**) واستذواق الجيفة (**فإنه لا ينفكُّ عن حكاية كلام خصمه**) وإيراده إياه في المجلس (**ومَذَمَّته**) إياه (**وغاية تحفُّظه**) وتماسكه (**أن يصدق**) عليه (**فيما**) ينقله عنه و(**يحكيه عليه ولا يكذب في الحقيقة عنه، فيحكي عنه لا محالة ما يدل علىٰ قصور**) فهمه وفتور (**كلامه، وعجزه**) في تقريره (**ونقصان فضله، و**) هذا (**هو الغيبة**) التي مر تعريفُها (**فأما الكذب فبهتان**) أي إن كان فيه ذلك الوصف الذي ذكره فقد اغتابه، وإلا فقد بهته، أي قال عليه ما لم يفعله (**وكذلك لا يقدر**) المناظر (**علىٰ أن يحفظ لسانه عن التعرُّض لعِرْض مَن يُعرِض عن كلامه**) ولا يميل إليه (**ويصغي إلىٰ خصمه، ويُقبِل عليه**) بأنواع الوقيعة بلسانه والمَذامِّ (**حتىٰ ينسبه إلىٰ الجهل والحماقة**) أي فساد العقل (**وقلة الفهم والبلادة**) ولو كان هو علىٰ صريح الحق، نعوذ بالله من الخذلان.

(**ومنها**) أي ومن آفات المناظرة: (**تزكية النفس**) وهو نماؤها بمدحها (**قال الله سبحانه وتعالىٰ**) في كتابه العزيز: (﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ [النجم: ٣٢]) أي لا تنسبوها إلىٰ التطهير المقتضي لأنْ تكونوا عدولاً أتقياء، ولذلك قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٩] أي ينسب من يشاء من عباده إلىٰ ذلك، ومن هذا قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقال: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فهذه واللهِ التزكيةُ؛ قاله السمين[(١)].

(**وقيل لحكيم**) من الحكماء: (**ما الصدق القبيح**)؟ مع أن الصدق لا يوصَف بالقبح، ولكن قد يكون ذلك (**فقال: ثناء المرء علىٰ نفسه**) فإنه في الجملة صدق مطابق لِما هو الواقع، إلا أنه لنفسه قبيح.

وفي الذريعة[(٢)]: وأما ثناء المرء علىٰ نفسه فشناعة وفظاعة، فقد قيل لحكيم:

---

(١) عمدة الحفاظ ٢/ ١٤٣.

(٢) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة للراغب ص ١٧٩.

ما الذي لا يحسُن وإن كان حقًّا؟ فقال: مدحُ الرجل نفسه. وقال معاوية رضي الله عنه لرجل: مَن سيد قومك؟ قال: أنا. قال: لو كنتَه لَما قلتَه[١]. ولقد أحسن ابن الرومي حيث اعتذر عن مدح نفسه قصدًا إلىٰ الدلالة علىٰ مكانه فقال[٢]:

وعزيز عليَّ مدحي لنفسي ... غيـر أني جَشَّـمتُه للدلالـه
وهو عيب يكاد يسقط فيه ... كلُّ حـر يريـد إظهـار آلـه

(**ولا يخلو المناظر من الثناء علىٰ نفسه**) بحسن أوصافه وكثرة كمالاته (**بالقوة**) في العلم (**والغلبة**) علىٰ الخصم (**والتقدُّم علىٰ الأقران**) والأمثال أبدًا بالفضل (**ولا ينفك في أثناء المناظرة عن قوله**) إذا قال له خصمه قولاً ينبِّهه عليه، أو دليلاً لم يخطر بباله: (**لستُ ممَّن يخفَىٰ عليه أمثالُ هذه الأمور**) ينسب بذلك إلىٰ نفسه الكمالَ والإجلال (**ويقول**) في أثناء كلامه: (**أنا المتفنِّن في العلوم**) العقلية والنقلية (**و**) أنا (**المستقل بالأصول**) الدينية، أي حامل أعبائها علىٰ وجه الاستقلال (**و**) أنا المتوحِّد في (**حفظ الأحاديث**) النبوية (**وغير ذلك مما يتمدَّح به، تارةً علىٰ سبيل الصَّلَف**) والتكبُّر (**وتارةً للحاجة**) الداعية (**إلىٰ ترويج**) أي تزيين (**كلامه، ومعلوم أن**) كلاًّ من (**الصَّلَف والتمدُّح**) وفي نسخة: البذخ (**مذمومان شرعًا وعقلاً**) فينبغي التجنُّب عن ذلك، نسأل الله الإعانة والتوفيق.

(**ومنها**) أي ومن آفات المناظرة: (**التجسس**) وهو[٣] التنقير عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشر، ولذلك يقال: الجاسوس، لصاحب سرِّ الشر (**و**) قيل: التجسُّس هو (**تتبُّع عورات الناس**) ومساوئهم (**وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾** [الحجرات: ١٢]) أي: لا تتبِعوا عورات الناس، ولا تطَّلعوا علىٰ سرائرهم.

---

(١) بعده في الذريعة: وإنما لم يُستقبح من يوسف عليه الصلاة والسلام قوله: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝﴾ لأنه قصد بذلك التنبيه علىٰ استقلاله بما سأل أن يفوض إليه.

(٢) البيتان في ديوانه ٣/ ١٤١ من قصيدة يمدح بها ابن مارمة.

(٣) عمدة الحفاظ للسمين ١/ ٣٢٦.

وقال مجاهد في تفسيره: خذوا ما ظهر [لكم] ودعوا ما ستر الله[١]. وورد في الحديث: لا تجسَّسوا، ولا تحسَّسوا، بالجيم والحاء (**والمناظر**) في أغلب حالاته (**لا ينفك عن طلب عثرات أقرانه**) والعَثْرة: ما يُسقِط الإنسان في عِثار؛ قال الشاعر:

يموت الفتىٰ من عثرة لسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرِّجل[٢]

(**وتتبُّع عورات خصومه**) والعورة هو ما يلحق الإنسانَ العارُ عند ظهورها[٣] (**حتىٰ إنه لَيخبرُ**) أي يعطي خبرًا (**بورود مناظر إلىٰ بلده**) قادمًا (**فيطلب**) من الناس (**من يخبر**) ه (**بواطن أحواله**) من حال نشأته (**ويستخرج بالسؤال**) والبحث (**مقابحه**) ومَذامَّه (**حتىٰ يعدَّها ذخيرة لنفسه**) يدَّخرها عنده إلىٰ حين حضوره في مجلس المناظرة (**في إفضاحه**) علىٰ رؤوس الأشهاد (**وتخجيله**) وتبكيته (**إذا مسَّت إليه حاجتُه**) ودعتْ ضرورته (**حتىٰ إنه ليستكشف**) ويبحث (**عن أحوال صباه**) ونشأته (**وعن عيوب**) في (**بدنه، فعساه**) ولعله (**يعثر**) أي يطَّلع (**علىٰ هفوة**) نادرة (**أو علىٰ عيب به**) في بدنه (**من قَرَع**) وهو بالتحريك: سقوط شعر الرأس، وهو عن علَّة (**أو غيره**) كبَرَصٍ وما أشبهه من الأمراض الخفية تحت الثياب (**ثم إذا أحس**) وعلم (**بأدنىٰ غلبة من جهته عرَّضَ به**) أي حكاه من باب التعريض (**إن كان متماسكًا**) في نفسه (**ويستحسن ذلك منه**) عند مَن حضر (**ويعدُّه من لطائف التسبب**) وفي نسخة: التشذيب. بل يعده بعض العوام إلهامًا وكرامة (**ولا يمتنع عن الإفضاح**) تصريحًا. وفي نسخة: عن الإفصاح، بالمهملة (**إن كان متبجِّحًا**) مفتخرًا (**بالسفاهة**) وطول اللسان (**والاستهزاء**) والاحتقار (**كما يُحكَىٰ عن جماعة من**

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٣٧٥. الدر المنثور للسيوطي ١٣/ ٥٦٨. والزيادة التي بين حاصرتين منهما.

(٢) البيت منسوب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو في ديوانه ص ١٦٠ (ط - دار الكتب العلمية). ونسبه ابن عبد ربه في العقد الفريد ٢/ ٣٠٣ (ط - دار الكتب العلمية) إلىٰ جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بجعفر الصادق.

(٣) مفردات الراغب ص ٣٥٢. عمدة الحفاظ ٣/ ١٤٠.

أكابر المناظرين المعدودين من فحولهم) الأجِلَّة؛ فإنه نُقلت عنهم في مناظراتهم الطامَّات من التسافُه والتفاحُش، فاللائق بعلماء الآخرة الإعراضُ عن ذلك، نسأل الله الهداية والتوفيق.

(**ومنها**) أي آفات المناظرة: (**الفرح بمساءة الناس**) أي بما يسوءهم (و) حصول (**الغم**) والكآبة[(١)] (**مما يسرُّهم**) وذلك لأن خصمه إن بُهت في مناظرته وأُسكت فخصمُه يفرح لذلك، وإن أُسكتَ هو فذلك مما يسرُّ خصمه، فيضيق صدره لذلك، وليس ذلك من صفات المؤمنين (**ومن لا يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه**) من الخير (**فهو بعيد من أخلاق المؤمن**) الكامل، وفي نسخة: المؤمنين؛ لِما ورد في الصحيحين[(٢)]: «من الإيمان أن تحب لأخيك كلَّ ما تحب لنفسك» (**فكل مَن يطلب المباهاة**) والمفاخرة (**بإظهار الفضل**) والكمال (**يسرُّه لا محالة ما يسوء أقرانه وأشكاله الذين يُسامُونَه في الفضل**) وهذه حال المناظرين في الأغلب (**ويكون التباغض بينهم**) جاريًا (**كما بين الضَّرَّات**) جمع ضَرَّة، وتُجمَع أيضًا علىٰ: الضرائر (**فكما أن إحدىٰ الضرائر إذا رأت صاحبتها**) مقبلةً (**من بعيد ارتعدت**): اضطربت (**فرائصها**) جمع فريصة، وهي اللحمة المتدلية علىٰ القلب[(٣)]، وتسمَّىٰ: البوادر، أيضًا (**واصفرَّ لونها**) وتغير حالها (**فكذا ترىٰ المناظر إذا رأىٰ مناظرًا**) من بعيد (**يربد**) أي يتغير (**لونه، ويضطرب عليه فكرُه**) لِما داخَلَه منه خوفَ المغلوبية (**وكأنه يشاهد**) في صورته هذه (**شيطانًا ماردًا أو سبعًا ضاريًا**) أي لَهِجًا بأخذ الصيد (**فأين الاستئناس**) مع الإخوان علىٰ صراط الحب المستقيم (**والاسترواح الذي كان يجري بين علماء الدين**) في الخلوة

---

(١) في المطبوعة: والكذب. ولا يناسب السياق، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٢١، صحيح مسلم ١/ ٤٠ من حديث أنس بن مالك، ولفظه: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

(٣) في المعجم الوسيط (مادة - فرص): «الفريصة: لحمة بين الكتف والصدر ترتعد عند الفزع، وهما فريصتان. وفي علم التشريح: العضلات الصدرية».

والمحافل (**عند اللقاء**) مع بعضهم، فكانوا يرتاحون بمذاكرة العلم، ويستأنسون بها معهم، ويحب أحدهم [أن] لا يفارق صاحبه مدىٰ الدهر (**وما نُقل عنهم**) في سِيَرهم (**من المؤاخاة**) والمؤازرة والتعاون (**والتناصر والتساهُم**) أي التقاسم (**في**) حالتَي (**السراء والضراء**) والمَنشَط والمَكْرَه (**حتىٰ قال**) الإمام (**الشافعي**) رحمه الله تعالىٰ: (**العلم بين أهل الفضل والعقل رحمٌ متصل**) والرحم في الأصل: ما يشتمل علىٰ الولد من أعضاء التناسل(١)، ومنه استُعير للرحم بمعنىٰ القرابة؛ لخروجهم من رحم واحد، فمعنىٰ قول الإمام أن العلم هو سبب القرابة والمؤانسة بينهم، فصاروا في الاتصال كأنهم خرجوا من رحم واحد (**ولا أدري كيف يدَّعي**) بزعمهم (**الاقتداءَ**) أي الاتباع (**بمذهبه جماعةٌ صار العلم بينهم**) بتباغضهم (**عداوةً قاطعة**) ومجافاة مانعة (**فهل يُتصوَّر أن يستتبَّ**) أي يستتمَّ (**الأُنسُ**) والحب (**بينهم مع طلب**) العلوِّ و(**الغلبة والمباهاة**) والترفُّع (**هيهات هيهات**)! بعيد منهم ذلك (**وناهيك**) أي كافيك (**بالشيء شرًّا**) وبُعدًا ومقتًا (**أن يلزمك**) ويورثك (**أخلاق المنافقين**) والكاذبين (**ويبرِّئك**) أي يبعدك (**عن أخلاق المؤمنين والمتقين**) من أهل اليقين.

(**ومنها**) أي ومن آفات المناظرة: (**النفاق**) وهو إبطان غير الظاهر، وقيل: هو الدخول في الشرع من باب والخروج من باب آخر، وفي تسمية المنافق منافقًا وجوه ثلاثة ذكرها أئمة اللغة(٢) (**ولا يحتاج إلىٰ ذِكر الشواهد**) المتعلقة به وما ورد (**في ذمِّه**)

---

(١) قاله الحرالي، كما في فيض القدير للمناوي ٢/ ٢٦٨، ونظم الدرر للبقاعي ٣/ ٢٩٨.

(٢) قال الزبيدي في تاج العروس ٢٦/ ٤٣١: نقل الصاغاني عن ابن الأنباري في الاعتلال لتسمية المنافق منافقًا ثلاثة أقوال: أحدها: أنه سمي به لأنه يستر كفره ويغيبه، فشبه بالذي يدخل النفق وهو السرب يستتر به. الثاني: أنه نافق كاليربوع، فشبه به؛ لأنه يخرج من الإيمان من غير الوجه الذي دخل فيه. الثالث: أنه سمي به لإظهاره غير ما يضمر، تشبيهًا باليربوع، فكذلك المنافق ظاهره إيمان وباطنه كفر. قلت: وعلىٰ هذا يحمل حديث: أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها. أراد بالنفاق هنا الرياء؛ لأن كلاهما إظهار غير ما في الباطن».

فإنه كثير، والكتب محشوَّة بذكره (**وهم**) أي المناظرون (**مضطرون**) أي محتاجون (**إليه**) ضرورةً (**فإنهم يَلْقَون الخصوم ومحبِّيهم**) ومَن تودَّد إليهم (**وأشياعهم**) أي أتباعهم الملازمينَ لهم بوجه طَلْق (**ولا يجدون بُدًّا من التودُّد إليهم باللسان**) واللين في الكلام وأنواع المؤانسات (**وإظهار الشوق**) في أثناء المحاورات (**والاعتداد**) أي الاعتبار (**بمكانهم**) وشأنهم (**و**) سائر (**أحوالهم**) بغاية التفحُّص والاعتناء (**ويعلم ذلك المخاطَب**) بفتح الطاء (**والمخاطِب**) بكسرها (**وكل من يسمع منهم**) أي من المتخاطبينَ وأشياعهم (**أن ذلك**) أي إظهار التودُّد والبشاشة (**كذبٌ**) منهم، غير مطابق لسانهم بما في قلوبهم (**وزور**) محض (**ونفاق**) خالص (**وفجور**) هو شقُّ ستر الديانة؛ قاله الراغب[1] (**فإنهم متوادون بالألسنة**) في الظواهر (**متباغضون بالقلوب**) في البواطن (**نعوذ بالله العظيم منه**) فإنه وصف قبيح لا يتحلَّىٰ به مؤمن يخشىٰ الله تعالىٰ، كيف و(**قد قال ﷺ: إذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل، وتحابُّوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب، وتقاطعوا في الأرحام، لعنهم الله عند ذلك فأصمَّهم وأعمىٰ أبصارهم**) فهذا حال النفاق وتركِ العمل بما علم، وإظهار ما يخالف باطنه من الحب والبغض ومقاطعة الأرحام التي أُمروا بوصلها وهي أرحام العلم، فالمتَّصف به يستحق الطرد والبعد من رحمة الله. وقوله «فأصمَّهم» أي عن استماع الحق «وأعمىٰ أبصارهم» أي عن رؤية الحق (**رواه الحسن**) أي البصري؛ فإنه هو المراد عند إطلاقه عند المحدِّثين، فالحديث مرسَل، وقال العراقي[2]: أخرجه الطبراني من حديث سلمان بإسناد ضعيف نحوه.

وقال في التخريج الكبير: وقد ورد متصلاً من حديث سلمان وابن عمر؛ أما حديث سلمان فأخرجه الطبراني في معجمه الكبير والأوسط[3] من رواية الحجاج

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص ٣٧٣.

(٢) المغني ١/ ٣٣.

(٣) المعجم الكبير ٦/ ٢٦٣. المعجم الأوسط ٢/ ١٦١.

ابن فَرافِصة عن أبي عُمَير عن سلمان رفعه: «إذا ظهر القول وخزن العمل، وائتلفت الألسن وتباغضت القلوب، وقطع كلُّ ذي رحمٍ رحمَه، فعند ذلك لعنهم الله فأصمَّهم الله وأعمىٰ أبصارهم». وإسناده حسن، وقد رويناه في الجزء الثالث من حديث أبي عمرو بن حَمْدان من وجه آخَر، وفي إسناده محمد بن عبدالله ابن علاثة، مختلَفٌ فيه، ورواه البيهقي في المدخل[1] موقوفًا علىٰ سلمان، ورجاله ثقات، إلا أن فيه انقطاعًا[2].

وأما حديث ابن عمر فرويناه في الجزء الثالث المذكور من رواية أبي عمرو عنه بلفظ: «يوشك أن يظهر العلم ويخزن العمل، ويتواصل الناس بألسنتهم ويتباعدون بقلوبهم، فإذا فعلوا ذلك طبع الله علىٰ قلوبهم وسمعهم وأبصارهم». وفي سنده بِشْر بن إبراهيم المفلوج، ضعيف جدًّا، وفي ترجمته رواه ابن عدي في الكامل[3].

قلت: وهكذا أخرجه الديلمي أيضًا في مسند الفردوس عن ابن عمر[4].

(**وقد صح ذلك**) أي ما ذكرناه (**بمشاهدة**) فلا مجال للإنكار فيه. وفي نسخة: بمشاهدة الحال.

(**ومنها**) أي ومن آفات المناظرة: (**الاستكبار عن**) قبول (**الحق**) والامتناع منه (**وكراهته**) له (**والحرص علىٰ المعاداة**) أي المخاصمة (**فيه، حتىٰ إن أبغض شيء**) يكون (**إلىٰ المناظر أن يظهر علىٰ لسان خصمه الحق**) الصريح، ويأبىٰ ذلك (**ومهما ظهر**) الحق علىٰ لسان خصمه (**تشمَّر**) أي تهيأ (**لجحده وإنكاره**) ومنعِه (**بأقصىٰ**) أي نهاية (**جهده**) وطاقته (**وبذَلَ**) أي صرف (**غاية إمكانه في المخادعة**)

(١) المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ ٢/ ٧٩.

(٢) بين العلاء بن المسيب الكوفي وسلمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) الكامل في الضعفاء ٢/ ٤٤٧.

(٤) انظر: كنز العمال ١٠/ ٢١٠.

والمراوغة (و) أنواع (**المكر، و**) نصب (**الحيلة لدفعه**) وإزالته، ويستمر علىٰ ذلك زمانًا (**حتىٰ تصير المماراة**) والمجادلة (**فيه**) بهذا الوجه (**عادة**) مستمرة له (**طبيعية**) غريزية جِبِلِّية (**فلا يسمع كلامًا**) من الخصم فيما يورده (**إلا وينبعث**) أي يعتور ويتحرَّىٰ (**من طبعه داعية الاعتراض عليه**) من كل الجهات (**حتىٰ يغلب ذلك علىٰ قلبه**) ويستمر عليه، فينشأ من ذلك الخوضُ والممارة (**في أدلة القرآن**) الظاهرة (**وألفاظ الشرع**) الباهرة التي هي مقاطع الحق (**فيضرب البعض منها بالبعض**) ويركض علىٰ هذا المنوال أيَّ ركضٍ (**والمراء في مقابلة الباطل محذور**) وغوائله كثيرة (**إذ ندب رسولُ الله ﷺ**) وحثَّ أمته (**إلىٰ ترك المراء بالحق علىٰ الباطل**) فكيف في المراء في مقابلة الباطل (**فقال ﷺ: مَن ترك المراء وهو مبطِل بنىٰ الله له بيتًا في رَبَض الجنة، ومن ترك المراء وهو محق بنىٰ الله له بيتًا في أعلىٰ الجنة**) الرَّبَض محرَّكة: الساحة. قال العراقي[١]: أخرجه الترمذي[٢] وابن ماجه[٣] من حديث أنس مع اختلاف، قال الترمذي: حسن.

قلت: هكذا أخرجاه من رواية سلمة بن وَرْدان عن أنس بلفظ: «مَن ترك الكذب وهو باطل بُني له بيت في رَبَض الجنة، ومَن ترك المِراء وهو محقٌّ بُني له بيت في وسطها، ومَن حسَّن خُلُقَه بُني له في أعلاها». وحسَّنه الترمذي وقال: لا نعرفه إلا من حديث سلمة بن وردان عن أنس. وضعَّفه ابن عدي في الكامل[٤]، وأخرجه ابن منده[٥] عن مالك بن أوس بن الحدثان عن أبيه، وأخرجه أبو داود[٦]

---

(١) المغني ١/ ٣٣.

(٢) سنن الترمذي ٣/ ٥٣٠.

(٣) سنن ابن ماجه ١/ ٧٩.

(٤) الكامل في الضعفاء ٣/ ١١٨١. ونقل عن يحيىٰ بن معين قوله: سلمة بن وردان: ضعيف. وفي رواية: ليس بشيء. وقال أحمد بن حنبل: منكر الحديث.

(٥) وكذلك ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت وآداب اللسان ص ١٠٥ (ط - دار الكتاب العربي ببيروت).

(٦) سنن أبي داود ٥/ ٢٧٦.

بسند جيد من حديث أبي أمامة رفعه: «أنا زعيم ببيت في رَبَض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا، وببيت في وسطها لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلىٰ الجنة لمَن حسَّنَ خلقه».

وأخرج الطبراني في الكبير[1] من حديث ابن عباس رفعه: «أنا الزعيم ببيت في ربض الجنة وببيت في أعلاها وببيت في أسفلها لمن ترك الجدال وهو محقٌّ، وترك الكذب وهو لاعب، وحسَّن خلقه [للناس]».

وأخرج الطبراني في الكبير[2] من رواية عبد الله بن يزيد الدمشقي قال: حدثني أبو الدرداء وأبو أمامة وواثلة بن الأسقع وأنس بن مالك قالوا: خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا ونحن نتمارىٰ ... فذكر حديثًا فيه: «ذَرُوا المِراء، فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة في رباضها ووسطها وأعلاها لمَن ترك المِراء وهو صادق ...» الحديث.

(**وقد سوَّىٰ الله تعالىٰ**) في كتابه العزيز (**بين من افترىٰ علىٰ الله كذبًا**) بأن نسب إليه ما لا يليق بجلاله وعظمته (**وبين من كذَّب بالحق**) المنزَّل (**فقال تعالىٰ**: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٦٨﴾ [العنكبوت: ٦٨] **وقال تعالىٰ**) في موضع آخر من كتابه العزيز: (﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزمر: ٣٢].

ومنها) أي ومن آفات المناظرة: (**الرياء و**) هو الفعل المقصود به (**ملاحظة الخلق**) ورؤيتهم غفلةً عن الخالق وعمايةً عنه[3] (و) في معنىٰ ذلك: بذلُ (**الجهد في استمالة**) أي طلب ميل (**قلوبهم وصرف وجوههم**) إليه (**والرياء**) علىٰ ما سيأتي في الربع الثالث (**هو الداء العُضال**) أي الشديد، من أعضل الأمرُ: إذا اشتدَّ (**الذي**

---

(١) المعجم الكبير ١١/ ١٣٩. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٢) المعجم الكبير ٨/ ١٧٨.

(٣) قاله الحرالي، كما في التوقيف للمناوي ص ١٨٤.

يدعو) متلبِّسه (إلىٰ أكبر الكبائر) والفواحش (كما سيأتي) تفصيله (في كتاب الرياء) من المهلكات (والمناظر) غالبًا (لا يقصد إلا الظهور) والشهرة (عند الخلق) بتبجُّحاته وتُرَّهاته (وانطلاق ألسنتهم بالثناء عليه) بأنه أعلم العلماء وسيد المناظرين والمناضلين.

(فهذه) التي ذُكرت (عشر خِصال من أمهات الفواحش الباطنة) وأصولها، وهي مخفية عن عيون الناس، راسخة في الطبائع (سوىٰ ما يتفق) غيرها (لغير المتماسكين منهم) والمستقلين بأعباء العلوم، الراسخين فيها (من) خلالٍ ذميمة كذلك، نحو (الخصام المؤدِّي) أي الموصِّل (إلىٰ الضرب) بآلات الحرب (واللكم) باليد، والفرق بينه (و) بين (اللطم) أن اللطم ما كان بالكف مبسوطةً، وقد يطلق أحدهما علىٰ الآخر توسُّعًا (وتخريق الثياب) وتمزيقها بالتجاذُب (والأخذ باللحَىٰ) جمع لحية، معروفة (وسب الوالدين) بما لا يليق بهما (وشتم الأستاذينَ) أي المشايخ، و«الأستاذ» لفظة أعجمية[1] (والقذف الصريح) وأصل القذف: الرمي البعيد، ثم استُعير للشتم والعيب (فإن أولئك) أي المتَّصفين بهذه الأوصاف (ليسوا معدودين): محسوبين (في زمرة) أي جماعة (الناس المعتبَرين) من العلماء والأشياخ (وإنما الأكابر) جمع كبير علىٰ غير قياس، أو جمع أكبر (والعقلاء) ذوو الفطانة (منهم هم الذين لا ينفكُّون) أي لا يفارقون (عن هذه الخصال العشر) المذكورة. فإن قال قائل: هذا الذي ذكره علىٰ إطلاقه غير متجه؛ فإنَّا نرىٰ بعضًا منهم لا يظهر عليه عند المناظرة أثرٌ من هذه الخِلال، فأجاب بقوله: (نعم، قد يَسْلَم بعضُهم من بعضها) أي بعض تلك الخلال، لكن (مع من هو ظاهر الانحطاط) أي النزول (عنه) في المرتبة (أو ظاهر الارتفاع عليه) في المنزلة (أو) مع من (هو بعيد عن بلده) في المسافة (أو) بعيد عن (أسباب معيشته) فإن غالب التقاطُع لا يكون

---

(١) وفي المعجم الوسيط: «الأستاذ: المعلم، والماهر في الصناعة يعلمها غيره، ولقب علمي عالٍ في الجامعة. والجمع: أساتذة، وأساتيذ».

إلا عن حسد في المعايش من جهة القلة والكثرة (**ولا ينفكُّ أحد منهم عنه**) أي عن ذلك الخصام (**مع أشكاله**) وأشباهه (**المقارنين له**) المحاذين (**في الدرجة**) والمنزلة، كالمدرسين مع المدرس، والمفتين مع المفتي، وشيخ مدرسة مع شيخ مدرسة أخرىٰ (**ثم يتشعَّب**) أي يتفرَّع، وفي نسخة: ينشعب، وفي أخرىٰ: ينبعث (**من كل واحدة من هذه الخصال العشر**) المذكورة (**عشرٌ أخرىٰ من الرذائل**) المستقبَحة (**لم نطوِّل بذكرها وتفصيل آحادها**) وإنما نلمُّ علىٰ تعديدها علىٰ سبيل الإجمال، وهي (**مثل الأَنَفة**) محرَّكة، هي الحَمِيَّة (**والغضب**) نُسبا إلىٰ الأنف وهي الجارحة، حتىٰ قالوا: شمخ فلانٌ بأنفه، للمتكبِّر[١] (**والبغضاء**) هو نفور النفس عن الشيء الذي يُرغَب عنه[٢] (**والطمع**) وهو نزوع النفس إلىٰ الشيء شهوةً له[٣] (**وحب طلب المال والجاه**) عند الرؤساء (**والتمكُّن من الغلبة**) علىٰ الأخصام (**والمباهاة**) أي المفاخرة (**والأَشَر**) وهو كفر النعمة (**والبطر**) ويقال[٤]: الأَشَر: شدة البَطَر، والبطر أبلغ من الفرح؛ إذ الفرح وإن كان مذمومًا غالبًا فقد يُحمَد [تارةً إذا كان] علىٰ قَدْر ما يجب وفي الموضع الذي يجب ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨] وذلك لأن الفرح قد يكون من سرور بحسب قضية العقل، والأشر لا يكون إلا فرحًا بحسب قضية الهوىٰ (**وتعظيم الأغنياء**) من ذوي الأموال نظرًا لِما بيدهم (**و**) تعظيم (**السلاطين**) ومَن في حكمهم من النواب والوزراء نظرًا إلىٰ جاههم وشوكتهم (**والتردُّد إليهم**) لحصول ذلك (**والأخذ من خزائنهم**) من الأموال وأنواع البر والصلة (**والتجمُّل**) أي التزيُّن (**بالخيول**) المسوَّمة (**والمراكب**) الفارهة، وفي حكمها البغال المثمَّنة (**والثياب المخطورة**) أي ذوات الخطر، وهي المثمَّنة، وفي حكمها الفَراوي والتشاريف السلطانية (**واستحقار الناس**) واستصغارهم (**بالفخر**

(١) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف ص ٦٥.

(٢) التوقيف ص ٨١.

(٣) المفردات للراغب ص ٣٠٧.

(٤) المفردات ص ١٨. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

والخُيَلاء) أي التكبر (**والخوض**) أي الدخول (**فيما لا يعني**) من الكلام (**وكثرة الكلام**) من غير داعٍ ولا موجِب (**وخروج الرحمة**) أي رقة القلب (**والخشية**) أي الخوف من الله تعالىٰ (**من القلب، واستيلاء الغفلة**) وتحكُّمها (**عليه**) أي علىٰ القلب (**حتىٰ لا يدري المصلي منهم**) إذا دخل (**في صلاته**) مفروضةً كانت أو نافلةً كم صلىٰ و(**ما صلىٰ، وما الذي يقرؤه**) في صلاته (**ومن الذي يناجيه**) في توجُّهه ويخاطبه (**ولا يحس**) أي لا يدرك (**بالخشوع**) الذي هو روح العبادة (**من قلبه**) فإذا كان هذا حاله في الصلاة يمضي غافلاً فهو في غيرها أشغل من ذات النِّحْيين[(١)] (**مع استغراق العمر**) واستيفائه (**في**) تحصيل (**العلوم**) العقلية النظرية (**التي تعين**) وتساعد (**في المناظرة**) مع الخصم، فيتقنون النحو والمنطق والكلام والجدل والفرائض والحساب؛ لأنها هي التي تفتق ألسنتَهم في المحافل، ويُلقون العلوم الشرعية سواها وراء ظهورهم (**مع أنها**) أي تلك العلوم التي يحصِّلونها (**لا تنفع في الآخرة**) أصلاً، وإنما هي وبالٌ علىٰ صاحبها، وقد مضت حكاية نصر بن علي الجهضمي حين رأىٰ الخليل بن أحمد في المنام وجوابه، وكذلك حكاية بعض المحدِّثين حين رأىٰ بعضَ فقهاء الكوفة في منامه وجوابه له (**من تحسين العبارة**) وتلخيصها إذا كان بتكلُّف وإعمال نظرٍ (**وتسجيع اللفظ**) حتىٰ في الدعاء، كما مرت إليه الإشارة، وما ورد فيه من النهي الصريح؛ فإن كل ذلك مما يُمنع منه (**وحفظ النوادر**) والحكايات الغريبة مما يوجد في المجالس بقصد الاستغراب، منثورة أو منظومة (**إلىٰ غير ذلك من أمور لا تُحصَىٰ**) يدركها المتأمِّل الحاذق (**والمناظرون يتفاوتون فيها علىٰ حسب درجاتهم**) ورُتَبهم (**ولهم درجات شتىٰ**) عالية ونازلة (**ولا ينفك أعظمهم دينًا**) أي معرفة فيه (**وأكثرهم عقلاً**) وذكاءً (**عن**) تحمُّل (**جُمَل**) كثيرة (**من مواد هذه الأخلاق**) المذكورة (**وإنما غايته**) التي ينتهي إليها (**إخفاؤها**) في النفس (**ومجاهدة النفس فيها**) فإن غلب عليها نجا من تلك الرذائل، وإن غلبت عليه أخلدته إلىٰ الهون والمَقاتِل، نسأل الله سبحانه الإعانة

---

(١) هذا أحد أمثال العرب، والنحي هو الزق الذي يوضع فيه السمن خاصة.

عليها، والتوفيق لِما يرضاه.

(**واعلمْ**) أيها السالك (**أن هذه الرذائل**) التي ذُكرت ليست خاصة في حق المناظرين فقط، بل (**لازمة للمشتغل بالتذكير والوعظ**) علىٰ الكراسي علىٰ ملإ من الناس (**أيضًا إذا كان قصدُه طلب القبول**) والشهرة عند الناس (**وإقامة**) ركن (**الجاه**) والحشمة (**ونيل الثروة**) أي الغنىٰ (**والعز**) من ذوي الأموال (**وهي لازمة أيضًا للمشتغل بعلم**) فقه (**المذهب و**) كتابة (**الفتاوىٰ إذا كان قصده**) بذلك (**طلب**) منصب (**القضاء**) والفتاوىٰ (**وولاية الأوقاف**) السلطانية، وفي حكم ذلك مشيخة المدارس والزوايا (**والتقدم علىٰ الأقران**) والنظراء، ولا يخفَىٰ أن الذي يشتغل بعلم المذهب الآن فإنه لا يُتصوَّر منه الانفكاك عن هذه النيات (**وبالجملة، هي لازمة لكل من يطلب بالعلم**) أي بتحصيله (**غير ثواب الله تعالىٰ في الآخرة**) الموعود به آجلاً (**فالعلم**) من حيث هو هو من خواصِّه أنه (**لا يهمل**) أي لا يترك (**العالِمَ**) أي حامله المتلبِّس به (**بل**) إما أن (**يهلكه هلاك الأبد**) إذا لم يعمل بما علم (**أو يحييه حياة الأبد**) إذا عمل بما علم (**ولذلك قال ﷺ: أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالِمٌ لا ينفعه الله بعلمه**) قد تقدم هذا الحديث في المقدمة، وأنه أخرجه الطبراني في الصغير والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة بإسناد ضعيف، ولفظهم: لم ينفعه الله بعلمه. وأخرجه ابن عديٍّ أيضًا، ولفظه: لم ينفعه علمه. وقال الحافظ ابن حجر: غريب الإسناد والمتن. وأورده الذهبي في الميزان[1] في ترجمة عثمان بن مقسم، وهو ضعيف، قال ابن عدي[2]: حديثه لا يتابَع عليه إسنادًا ومتنًا. ولكن للحديث أصلٌ أصيل، فقد روىٰ الحاكم في مستدركه[3] من حديث ابن عباس مرفوعًا: «إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة مَن قتل نبيًّا أو قتله نبيٌّ، والمصوِّرون، وعالِم لا ينتفع بعلمه».

(١) ميزان الاعتدال ٣/ ٥٨.

(٢) الكامل في الضعفاء ٥/ ١٨٠٧.

(٣) لم أقف عليه في المستدرك، وقد رواه البيهقي في شعب الإيمان ١٠/ ٢٨٨ عن الحاكم، وزاد بعد قوله «نبي»: أو قتل أحد والديه.

قال المناوي: لأن عصيانه عن علم، ولذا كان المنافقون في الدرك الأسفل؛ لكونهم جحدوا بعد العلم، وكان اليهود شرًّا من النصارىٰ؛ لكونهم أنكروا بعد المعرفة. قال عبد الحق: ومفهوم الحديث أن أعظمهم ثوابًا عالِمٌ ينفعه علمه.

(**فلقد ضرَّه**) علمه كثيرًا، حيث كان أشد الناس عذابًا (**مع أنه لم ينفعه**) لعدم انفتاح عين بصيرته مع عذاب الحجاب عن مشاهدة الحق تعالىٰ، فعذاب الحجاب إنما يحصل للعلماء الذين تنبَّهوا للذة لقاء الله في الجملة ولم يتوجَّهوا إلىٰ تحصيل ذلك واتبعوا الشهوات الحسِّية المانعة لذلك[1] (**وليته نجا منه رأسًا برأس**) لا عليه ولا له (**وهيهات هيهات**) ذلك! (**فخطر العلم عظيم**) ووبالُه جسيم، وإليه الإشارة بقولهم: العلم حجاب الله الأكبر، أي للذي لم ينتفع به؛ فإنه مانع له عن مشاهدته، وعذابه أعظم من عذاب الجحيم (**وطالبه طالب آلة المُلْك المؤبَّد والنعيم السرمد**) أي الدائم (**فلا ينفكُّ عن المُلْك أو الهُلْك**) وفي بعض النسخ: وطالبه طالب المُلْك المؤبَّد أو العذاب السرمد، لا ينفكُّ عن المُلْك أو الهُلْك (**وهو يطلب**) وفي بعض النسخ: وهو كطلب (**المُلْك في الدنيا، فإن لم تتفق له الإصابةُ في الأموال لم يطمع في سلامة الأرذال**) أي الذين يعيشون سالمين من الأكدار؛ لعدم توجُّه الأعيُن إليهم (**بل لا بد من فضوح الأحوال**) في ذلك اليوم الشديد الأهوال. وفي نسخة: بل لا بد من لزوم أفضح الأحوال، فنسأل الله السلامة.

(**فإن قلتَ**): قد بالغتَ في النكير علىٰ المناظرة والمناظرين ومن يختار هذه الطريقة، مع أن (**في الرخصة في المناظرة فائدة**) ظاهرة (**وهي ترغيب الناس**) وتنشيطهم (**في طلب العلم**) وتحصيله، وكثرة الطلبة، وإظهار كلمة الحق (**إذ لولا حب الرياسة**) في مناصب العلوم (**لاندرست العلوم**) وانطمست آثارُها. قلتُ: (**فقد صدقتَ فيما ذكرتَه**) وأوردتَه (**من وجه**) أي من هذا الوجه فقط (**ولكنه غير مفيد**) ولا محمود (**إذ لولا الوعد**) أي وعد الآباء أو المعلِّمين للصبيان (**بالكرة**

---

(١) فيض القدير للمناوي ١/ ٥١٨ نقلا عن بعض الصوفية.

والصولجان) الكرة هي العصا يُضرَب بها الصولجان، وهو يُكبَّب من غزل أو خِرَق أو غير ذلك، يلعب بها الصبيان، وكانت هذه من ملاعب الجاهلية، وبقيت رسومُها في بلاد العجم **(واللعب بالعصافير)** والحمام **(ما رغب الصبيان في)** دخولهم **(المكتب)** وهو محل قراءتهم، ويقال له أيضًا: الكُتَّاب **(وذلك لا يدل علىٰ أن الرغبة فيه محمودة)** لكونه باعثًا لتعليم الأطفال، بل هو مذموم من وجوه كثيرة، ومع النظر إلىٰ هذه الوجوه الكثيرة الدالَّة علىٰ ذمِّه لا يُنظَر إلىٰ هذا الوجه الواحد لقلَّته وندرته (و) قولك: **(لولا حب الرياسة لاندرس العلمُ)** صحيحٌ (و) لكنه **(لا يدل ذلك)** وفي نسخة: وليس فيه دليل **(علىٰ أن طالب الرياسة ناجٍ)** خالص من عذاب الله، كلاَّ واللهِ **(بل هو من الذين قال)** في حقِّهم رسولُ الله (ﷺ: **إن الله ليؤيِّد هذا الدين بأقوام لا خَلاقَ لهم)** يؤيد[1]: أي يقوِّي وينصر، من الأيد وهو القوة، كأنه يأخذ معه بيده في الشيء الذي يقويه فيه، وذكر اليد مبالغة في تحقُّق الوقوع. و«هذا الدين» أي الدين المحمَّدي.

والخَلاق في الأصل: ما اكتسبه الإنسان بخُلُقه من الفضيلة، واستُعير لمطلق الحظ والنصيب، وقيَّده بعضهم بالنصيب الوافر [من الخير]؛ قاله السمين[2].

وهذا الحديث لم يذكره العراقي في تخريجه[3]، وهو موجود في سائر النسخ الموجودة من الإحياء، وقد أخرجه ابن عدي في الكامل[4] من طريق جعفر بن

---

(١) فيض القدير ٢/ ٢٥٩.

(٢) عمدة الحفاظ ١/ ٥٢٥. والزيادة التي بين حاصرتين منه. وانظر: مفردات الراغب ص ١٥٨.

(٣) هذا سهو من الشارح رحمه الله، فالحديث مخرج في المغني ١/ ٣٣ ونصه: «أخرجه النسائي من حديث أنس بإسناد صحيح». وهو في السنن الكبرىٰ للنسائي ٨/ ١٤٧ من رواية أيوب السختياني عن أبي قلابة عن أنس.

(٤) الكامل في الضعفاء ٢/ ٥٧٣. وقال: «ولجعفر بن جسر أحاديث مناكير، ولم أر للمتكلمين في الرجال فيه قولاً، ولا أدري كيف غفلوا عنه؛ لأن عامة ما يرويه منكر، وقد ذكرته لما أنكرت من الأسانيد والمتون التي يرويها، ولعل ذاك إنما هو من قبل أبيه؛ فإن أباه قد تكلم فيه من تقدم ممن يتكلمون في الضعفاء؛ لأني لم أر يروي جعفر عن غير أبيه».

جسر بن فرقد عن أبيه عن الحسن عن أبي بكرة. قال: وجعفر هذا يروي المناكير، وأبوه ضعيفٌ.

وأخرج أبو نعيم في الحلية[١] في ترجمة مالك بن دينار عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «ليؤيدنَّ الله هذا الدين بقوم لا خَلاق لهم». قلت: يا أبا سعيد، عمَّنْ؟ قال: عن أنس عن رسول الله ﷺ.

وله شاهد قوي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، أخرجه الطبراني في الكبير[٢]، ولفظه: «إن الله تعالىٰ لَيؤيِّدُ الإسلام برجال ما هم من أهله».

(وقال ﷺ: إن الله) تعالىٰ **(لَيؤيدُ هذا الدين بالرجل الفاجر)** وهو الشاقُّ ستر الديانة.

أخرجه الطبراني في الكبير[٣] عن عمرو بن النعمان بن مقرن المُزَني، قال ابن عبد البر[٤]: له صحبة، وأبوه من أجلَّة الصحابة. قُتل النعمان شهيدًا بوقعة نهاوند سنة إحدىٰ وعشرين، ولما جاء نعيُه خرج عمر فنعاه علىٰ المنبر وبكىٰ؛ هكذا هو في الجامع الصغير للسيوطي. قال المناوي في شرحه[٥]: وظاهر صنيعه أن هذا لا يوجد مخرَّجًا في الصحيحين ولا أحدهما، وهو ذهول شنيع وسهو عجيب، فقد قال الحافظ العراقي[٦]: إنه متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ: «إن الله تعالىٰ يؤيد هذا الدينَ بالرجل الفاجر». رواه البخاري[٧] في القَدَر وفي غزوة خيبر، ورواه

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٣٨٧.
(٢) المعجم الكبير ١٤/ ٤٩.
(٣) المعجم الكبير ١٧/ ٣٩.
(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٢/ ١١٠، ٣٠٠.
(٥) فيض القدير ٢/ ٢٥٩.
(٦) المغني ١/ ٣٣.
(٧) صحيح البخاري ٢/ ٣٧٦، ٣/ ١٣٦، ٤/ ٢١٠.

مسلم[١] مطولاً، وممَّن رواه: الترمذي في العلل[٢] عن أنس مرفوعًا، ثم ذكر أنه سأل عنه البخاري فقال: حديث حسن، حدثناه محمد بن المثنىٰ. فعزوُ المصنف الحديثَ للطبراني وحده لا يرتضيه المحدِّثون فضلاً عمَّن يدَّعي الاجتهادَ. ا.هـ.

وقد رد عليه شيخُ مشايخ شيوخنا الحافظُ شهاب الدين العجمي فقال: هو غير متَّجه من وجوه، **أولاً**: فإنه لم يقُل: ما رواه إلا الطبراني، بصيغة الحصر، ولم يلتزم في كل حديث أن يذكر جميع مَن رواه، وثانيًا: أن ما نقله عن العراقي أنه متفق عليه إنما هو من حديث أبي هريرة فهو في الصحيحين لا من حديث عمرو بن النعمان، وثالثًا: أن المصنف نفسه قد نسبه في «درر البحار» للصحيحين من حديث أبي هريرة، وللطبراني من حديث عمرو المذكور ومن حديث ابن مسعود[٣]، فأفاد فيه أن الحديث رواه ثلاثة من الصحابة، وبذلك تضمحلّ جميع هذه الخرافات، والله أعلم بالنيات. قال: ثم رأيت في المشارق للصاغاني[٤]: هذا الحديث من رواية البخاري عن أبي هريرة والنعمان بن مُقرِن. وقال شارحه ابن المَلَك: انفرد البخاري برواية هذا الحديث عن النعمان بن مقرن. ا.هـ. قلت: حديث أبي هريرة اتفقا عليه، فأخرجه البخاري في الجهاد وغزوة خيبر والقَدَر، ومسلم في الإيمان، وأما حديث النعمان بن مقرن فليحرَّر أين أخرجه البخاري؛ فإنه ليس في الأطراف ولا في جمعِ عبد الحق ومختصره.

قلت: أخرجه البخاري ومسلم من رواية الزهري عن سعيد بن المسيَّب عن أبي هريرة في أثناء حديث الرجل الذي قال فيه: إنه من أهل النار، فتلخَّص من

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٦٢.

(٢) العلل الكبير للترمذي ص ٣٨٢.

(٣) المعجم الكبير ٩/ ٢٠٧، ٢٥٦ موقوفا.

(٤) مبارق الأزهار في شرح مشارق الأنوار لعبد اللطيف ابن الملك ١/ ٢٥٢ (ط - دار الجيل) ونصه: «قيل: ما رواه النعمان عن النبي ﷺ ستة أحاديث، انفرد منها مسلم بواحد، والبخاري بهذا الحديث».

مجموع ذلك أن هذا الحديث رُوي من طرق خمسة من الصحابة: أبي هريرة، وابن مسعود، وأنس، وعمرو بن النعمان، وأبيه النعمان بن مقرن. هكذا وقع: عمرو بن النعمان، والنعمان هو ابن مقرن، وقيل: النعمان بن عمرو بن مقرن، كما وقع عند الطبراني هنا في الإسناد، وسمَّاه في الترجمة: عمرو بن النعمان ابن مقرن، وهو وهمٌ نبَّه عليه العراقيُّ، وقد ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمة عمرو بن النعمان من الإصابة[١] أن روايته عن النبي ﷺ مرسَلة؛ قاله أبو حاتم الرازي[٢]، وطريق ابن مسعود ظفرت به في الكامل لابن عدي[٣]، رواه حميد بن الربيع عن أبي داود الحَفْري عن الثوري عن عاصم عن زر عن عبد الله. قال ابن عدي: وهذا بهذا الإسناد غير محفوظ، لا يرويه غير حميد بن الربيع، وهو كذاب. وقد رواه الطبراني أيضًا في الكبير[٤]، وفي إسناده ضعفٌ.

وورد هذا الحديث أيضًا عن كعب بن مالك، وهو أيضًا في المعجم الكبير للطبراني[٥].

(**فطالبُ الرياسة**) الدنيوية (**في نفسه هالكٌ**) بمرَّة (**وقد يصلح بسببه**) وعلىٰ يده. وفي نسخة: بسعيه (**غيرُه**) وهو لا يخلو عن حالتين: (**فإن كان**) بعلمه (**يدعو**) غيره ويرغِّبه (**إلىٰ ترك الدنيا**) ودواعيها (**وذلك فيمن حالُه**) ودَيْدَنه (**في ظاهر الأمر ظاهر حال علماء السلف**) الماضينَ؛ فإنهم كانوا كذلك في أحوالهم (**ولكنه يضمر**) في نفسه (**قصد الجاه**) وطلب الرياسة (**فمثاله مثال الشمع الذي يحترق في نفسه ويستضيء به غيرُه**) وقد أخرج الطبراني في الكبير[٦] من طريقين والضياء

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٧/ ١٤٨.

(٢) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٦/ ٢٦٥.

(٣) الكامل في الضعفاء ٢/ ٦٩٦.

(٤) تقدم أنه موقوف عليه.

(٥) المعجم الكبير ١٩/ ٨٣.

(٦) المعجم الكبير ٢/ ١٦٦، ١٦٧.

المقدسي في المختارة عن جندب رضي الله عنه رفعه: «مَثَلُ العالِم الذي يعلِّم الناس الخير وينسىٰ نفسه كمَثَل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه». أي يضيء للناس في الدنيا ويحرق نفسه في الآخرة.

(**فصلاح غيره في هلاكه**) هذا إذا لم يَدْعُ إلىٰ طلب الدنيا (**فأما إذا كان يدعو إلىٰ طلب الدنيا**) والرياسة (**فمثاله مثال النار المحرقة التي تأكل نفسها وغيرها، فالعالِم**) وفي نسخة: فالعلماء (**ثلاثة: إما مهلك نفسه وغيره. وهم المصرِّحون بطلب الدنيا**) الداعون إليها (**والمقبلون عليها**) سعيًا واهتمامًا في تحصيلها (**وإما منقذ**) أي مخلِّص (**نفسه وغيره، وهم الراغبون إلىٰ الله تعالىٰ**) بحسن إخلاصهم في أعمالهم (**المُعرِضون عن الدنيا**) ودواعيها (**ظاهرًا وباطنًا**) سرًّا وجهرًا (**وإما مهلك نفسه**) بميله إليها باطنًا (**منقذ غيره**) بتعليمه الأحكامَ (**وهو الذي يدعو إلىٰ الآخرة**) ويشوِّق إليها (**وقد رفض الدنيا**) وتركها (**في ظاهره و**) لم يعمل بعلمه إنما (**قصدُه في الباطن**) حصول (**قبول**) له من (**الخلق، وإقامة**) ركن (**الجاه**) واستمالة وجوه الناس إليه، وهذا وعيدٌ لمَن كان له قلب أو ألقىٰ السمعَ وهو شهيد، وكان علماء الصحب علىٰ غاية من الخوف والوجل، ولذلك قالت عائشة[1] لفتىٰ اختلف إليها يسألها وتحدِّثه، فجاءها ذات يوم فقالت: أيَّ شيء عملتَ بعدما سمعتَ؟ قال: مه! قالت: فما تستكثر من حِجَج الله علينا وعليك.

(**فانظر من أيِّ الأقسام أنت**) وإلىٰ أيِّ طائفة مِلْتَ (**ومَن الذي اشتغلتَ بالاعتذار له**) وهو عالِم سرِّك ونجواك (**ولا تظننَّ أن الله تعالىٰ يقبل غير الخالص لوجهه**) الكريم (**من العلم والعمل**) إنما لكل امرئ ما نوىٰ (**وسيأتيك في كتاب**

---

(١) رواه الخطيب في اقتضاء العلم العمل ص ٦٠ ولفظه: كان فتىٰ يختلف إلىٰ أم المؤمنين عائشة، فيسألها وتحدثه، فجاءها ذات يوم يسألها، فقالت: يا بني، هل عملت بعدما سمعت مني؟ فقال: لا والله يا أمَّه. فقالت: يا بني، فبما تستكثر من حجج الله علينا وعليك. وانظر: فيض القدير للمناوي ٥/٥٠٨.

الرياء) خاصةً **(بل في جميع ربع المهلكات)** من الأقوال الصريحة **(ما ينفي)** ويزيل **(عنك الريبةَ)** والشك **(فيه إن شاء الله تعالىٰ)** وحده جلَّ جلاله، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وسلِّم.

الباب الخامس:

في آداب المعلِّم والمتعلِّم

من هذا الكتاب (في) بيان (آداب المتعلِّم والمعلِّم) مما ينبغي لهما أن يستعملاه.

(أما المتعلم) وتقديمُه باعتبار الأوَّلية والسابقية؛ لأنه مبدأ حال المعلم، وكل معلم فقد كان متعلمًا **(فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة)** اختُصَّت بالتأليف **(ولكن ينظم تفاريعَها)** أي أقسامها المفرَّعة منها **(تسعُ جُمَل)** وما عداها يرجع إليها:

(الوظيفة الأولىٰ) وأصل الوظيفة: ما يوظِّفه الإنسان - أي يقدِّره لآخَر - في زمان معيَّن من طعام أو رزق أو علف للدابة؛ ذكره شُرَّاح الشفاء[(١)]. قال شيخنا[(٢)]: ويبقىٰ النظر هل هو عربي أو مولَّد؟ والأظهر الثاني، والجمع: وظائف **(تقديم طهارة النفس)** وتنظيفها **(عن رذائل الأخلاق)** المعنوية **(ومذموم الأوصاف)** من نحو شهوة وكِبْر وحسد وميل إلىٰ الدنيا وبغض وحقد وغل وغش ... وغير ذلك مما تقدم ذِكرُ بعضها، ويأتي ذكر بقيَّتها **(إذ العلم)** من حيث هو هو **(عبادة القلب)** وعمارته **(وصلاة السر، وقُرْبة الباطن)** الذي لا يصل **(إلىٰ الله تعالىٰ)** إلا به **(وكما لا تصح الصلاة)** المعروفة **(التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة)** نظرًا إلىٰ القيام والقعود والقراءة **(إلا بتطهير الظاهر)** من بدن المصلِّي **(عن الأحداث والأخباث)** وسيأتي

---

(١) في كتاب نسيم الرياض شرح شفاء القاضي عياض للشهاب الخفاجي ٢/ ٨٦ ما نصه: «الوظيفة بالظاء المشالة والفاء، بزنة سفينة، هي المعين في كل يوم أو في زمان معين من الطعام وغيره من الرزق، ويطلق علىٰ العهد والشرط، وجمعه: وظائف، ووُظف بضمتين كسفن».

(٢) تاج العروس ٢٤/ ٤٦٤. وشيخه هو محمد بن الطيب الفاسي.

الفرق بينهما في كتاب أسرار الطهارة (**فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف**) وهذا ظاهر (**قال ﷺ: بُني الدينُ علىٰ النظافة**) قال العراقي[1]: لم أجده هكذا، وفي الضعفاء لابن حبَّان[2] من حديث عائشة: «تنظَّفوا؛ فإن الإسلام نظيف». وللطبراني في الأوسط[3] بسند ضعيف جدًّا من حديث ابن مسعود: «تخلَّلوا؛ فإنه نظافة، والنظافة تدعو إلىٰ الإيمان».

قلت: وأورد الجلال في جامعه ورمز للخطيب[4] عن عائشة: «إن الإسلام نظيف، فتنظَّفوا؛ فإنه لا يدخل الجنة إلا نظيف».

والمعنىٰ: الإسلام نقيٌّ من الدَّنَس، فنقُّوا ظواهركم من دنس نحو مطعم وملبس حرام وملابسة قذرٍ، وبواطنكم بإخلاص العقيدة ونفي الشرك ومجانبة الأهواء، وقلوبكم من [نحو] غل وحقد وحسد؛ فإنه لا يدخل الجنة إلا طاهر الظاهر والباطن، ومَن لم يكن كذلك طهَّرته [النارُ] ثم لا بد من حشرِ عصاة الموحِّدين مع الأبرار في دار القرار، فالمنفِيُّ الدخولُ الأوَّليُّ؛ قاله المناوي[5]، وأشار إلىٰ ضعفِ الحديث.

قال السخاوي[6]: وعند الطبراني في الأوسط والدارقطني في الأفراد[7] من

---

(١) المغني ١/ ٣٤.

(٢) المجروحين لابن حبان ٢/ ٤٠١ وزاد: ولا يدخل الجنة إلا نظيف.

وفيه نعيم بن مورع العنبري، قال فيه ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به بحال.

(٣) المعجم الأوسط ٧/ ٢١٥. وزاد في آخره: والإيمان مع صاحبه في الجنة.

(٤) الذي في كنز العمال ٩/ ٢٧٧ (طس) أي الطبراني في الأوسط.

والحديث في تاريخ بغداد ٦/ ٣٥١، والمعجم الأوسط ٥/ ١٣٩.

(٥) فيض القدير ٢/ ٣٢٢. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٦) المقاصد الحسنة ص ١٤٦.

(٧) أطراف الغرائب والأفراد لابن القيسراني ٢/ ٤٦٦.

حديث نعيم بن مورع عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعًا بلفظ: «الإسلام نظيف». ثم ساق كما عند الخطيب، ونعيم ضعيف. وأخرج الترمذي[1] وغيره من حديث مهاجر بن مسمار عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه مرفوعًا: «إن الله طيِّب يحب الطيِّب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الجود» وقال: غريب. وللدارقطني[2] من حديث عبد الله بن إبراهيم الغفاري عن المنكدِر بن محمد عن أبيه، ومن حديث عبد الله بن أبي بكر بن المنكدر عن عمِّه محمد عن جابر مرفوعًا: «إن الله يحب الناسك النظيف». ولأبي نعيم[3] من حديث الأوزاعي عن حسان بن عطية عن محمد بن المنكدر عن جابر أن النبي ﷺ رأىٰ رجلاً وسخة ثيابه، فقال: «أمَا وجد هذا شيئًا ينقِّي به ثيابه»؟ ورأىٰ رجلاً شعث الرأس، فقال: «أمَا وجد هذا شيئًا يسكِّن به شعره»؟ وفي لفظ: رأسه.

وفي هذا المعنىٰ أحاديث كثيرة شواهد لِما ذكره المصنف.

(**وهو كذلك ظاهرًا**) من الأحداث والأخباث (**وباطنًا**) من تطهير الأخلاق (**قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾** [التوبة:٢٨]) أي ذوو نجسٍ، وقيل: جعلهم نجسًا مبالغة، والنجس: كل مستقذَر[4] (**تنبيهًا للعقول**) السليمة (**علىٰ أن الطهارة والنجاسة غير مقصورة علىٰ الظواهر المدرَكة بالحسِّ**) ولذا قال بعضهم[5]: النجاسة ضربان: ضرب يُدرَك بالحاسَّة، وضرب يُدرَك بالبصيرة، وعلىٰ الثاني وصف الله المشركين بالنجاسة (**فالمشرك قد يكون نظيف الثوب، مغسول البدن**) في الظاهر (**ولكنه نجس الجوهر، أي باطنه متلطِّخ بالخبائث**) من

(١) سنن الترمذي ٤/ ٤٩٥. ولفظه: إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم، ولا تشبهوا باليهود.

(٢) أطراف الغرائب والأفراد ١/ ٣٢٠.

(٣) حلية الأولياء ٣/ ١٥٦.

(٤) عمدة الحفاظ للسمين ٤/ ١٤٣.

(٥) هو الراغب الأصفهاني، وكلامه هذا في المفردات ص ٤٨٣.

الشرك بالله وفساد العقيدة (**والنجاسة عبارة عما يُجتنَب ويُطلَب البعد منه**) نظرًا إلىٰ أصل المعنىٰ، ثم أُطلق علىٰ القذارة؛ لكونها مما يُطلَب البعد منها (**وخبائث صفات الباطن**) من نحو غل وحسد وكِبْر وكفر (**أهم بالاجتناب**) والردع عنها (**فإنها مع خبثها في الحال**) الراهن (**مهلكات في المآل**) في آخر الأمر (**ولذلك قال ﷺ: لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلبٌ**) ونص الذريعة[١]: حق المترشِّح لتعليم الحقائق أن يراعي ثلاثة أمور، الأول: أن يطهِّر نفسه من رديء الأخلاق تطهُّر الأرض للبذر من خبائث النبات، وقد تقدم أن الطاهر لا يسكن إلا بيتًا طاهرًا، وأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب. ا.هـ.

فانظر إلىٰ هذا الكلام المختصر المفيد، وقد زاد عليه المصنف في تقريره وبسطه كما ترىٰ.

قال العراقي[٢]: متفق عليه[٣] من حديث أبي طلحة الأنصاري.

قلت: وبقية الحديث: «ولا صورة». وهكذا أخرجه أيضًا الإمام أحمد[٤] والترمذي والنسائي[٥] وابن ماجه[٦]، كلهم من طريق أبي طلحة، وأخرجه الطبراني في الكبير[٧] والضياء في المختارة عن أبي أيوب رفعه مثله، وعند أبي داود[٨] والنسائي[٩]

---

(١) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة للراغب ص ١٤٩.

(٢) المغني ١/ ٣٤.

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٤٢٨، ٤٤٨، ٣/ ٩٢، ٤/ ٨١، ٨٢. صحيح مسلم ٢/ ١٠١١.

(٤) مسند أحمد ٢٦/ ٢٦٤، ٢٧٤.

(٥) سنن النسائي ص ٦٥٩، ٨٠٤.

(٦) سنن ابن ماجه ٥/ ٢٤٣.

(٧) المعجم الكبير ٤/ ١٢٢.

(٨) سنن أبي داود ١/ ٢٥٩، ٤/ ٤٣٩.

(٩) سنن النسائي ص ٤٩، ٦٥٩.

والحاكم[١] عن عليٍّ مرفوعًا: «لا تدخل الملائكة بيتًا فيه صورة ولا كلب ولا جُنُب».
وعند الإمام أحمد[٢] والبخاري[٣] ومسلم والترمذي[٤] والنسائي[٥] وابن ماجه عن ابن عباس عن أبي طلحة: «لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة تماثيل».

وفي الباب عن: ابن عمر، وعائشة، وميمونة، وابن عباس، وأسامة، وبريدة، وابن عمرو، وأبي أمامة، وأبي رافع.

قال المناوي[٦]: المراد بالملائكة: ملائكة الرحمة والبركة، أو الطائفون على العباد للزيارة واستماع الذِّكر لا الكَتَبة؛ فإنهم لا يفارقون المكلَّف، فهو عامٌّ أُريدَ به الخصوص، والمراد بالكلب ولو لنحو زرع أو حرث، كما رجَّحه النووي[٧]، خلافًا لِما جزم به القاضي[٨] تمسكًا بأن[٩] «كلب» و«صورة» نكرتان في سياق النفي.

---

(١) المستدرك على الصحيحين ١/ ٢٦٥.

(٢) مسند أحمد ٢٦/ ٢٦٧.

(٣) صحيح البخاري ٣/ ٤٢٧.

(٤) سنن الترمذي ٤/ ٤٩٨.

(٥) سنن النسائي ص ٨٠٤.

(٦) فيض القدير ٦/ ٣٩٣.

(٧) النووي رحمه الله رجح عموم الحديث، وإنما نقل التخصيص عن الخطابي وتعقبه، ففي شرح صحيح مسلم ١٤/ ١١٨ ما نصه: «قال الخطابي: وإنما لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو صورة مما يحرم اقتناؤه من الكلاب والصور، فأما ما ليس بحرام من كلب الصيد والزرع والماشية والصورة التي تمتهن في البساط والوسادة وغيرهما فلا يمتنع دخول الملائكة بسببه، وأشار القاضي إلى نحو ما قاله الخطابي. والأظهر أنه عام في كل كلب وكل صورة، وأنهم يمتنعون من الجميع لإطلاق الأحاديث».

(٨) إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض ٦/ ٦٣٠ ونصه: «فيه حجة في منع اتخاذ الكلاب في الدور والقرى والبيوت وحراسة السراق وغير ذلك، بخلاف ما رخص فيه من كلب الصيد والزرع والماشية، وأن الملائكة إنما لا تدخل البيت الذي فيه الكلب المنهي عن اتخاذه».

(٩) في المطبوعة: القاضي لأن. والمثبت من الفيض.

وقد أورد المصنف هذا الحديث في كتابه الذي سماه «الإملاء على الإحياء»؛ إذ كتب على أسئلة وردت عليه في مواضع معيَّنة من مشكلاته، وانجرَّ إلى هذا البحث استطرادًا في الجواب عن أول الأسئلة، ونحن نورده لك ممزوجًا بكلامه هنا حسب المناسبة.

قال(١): فإن قلتَ: فما الذي صدَّ هؤلاء الأصناف الثلاثة من أهل النطق عن النظر والبحث حتى يعلموا أو عن الاعتقاد حتى يخلصوا من عذاب الله، وهم في الظاهر قادرون على ذلك؟ وما المانع الخفيُّ الذي [منعهم و] أبعدهم عنه وهم يعلمون أن ما عليهم في ذلك كبير مؤنة ولا عظيم مشقَّة؟ فاعلمْ أن هذا السؤال يفتح بابًا عظيمًا ويجرُّ قاعدة كبرى يخاف من التوغُّل فيها أن نخرج عن المقصود، ولكن لا بدَّ إذ وقع في الأسماع ووعته قلوبُ الطالبين، واشرأبَّت إلى سماع الجواب عنه أن نورِد في ذلك قَدْر ما تقع به الكفاية وتقنع به النفوس بحول الله عَزَّوَجَلَّ [وقوته]. نعم، ما سبق في العلم القديم لا تجري المقادير بخلافه في الحديث، منعهم من ذلك إرادة الله عَزَّوَجَلَّ، واختصاص قلوبهم بالأخلاق الكِلابية والشِّيَم الذِّئابية والطباع السبعية وغلبتها عليهم، والملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب **(والقلب بيت)** تولَّى الله بناءه بيده، و**(هو منزل الملائكة)** الكرام **(ومهبط أثرهم، ومحل استقرارهم)** أعدَّه لأنْ يكون خزانة علمه، ومسرب مكنوناته، ومغشى أنواره، ومهبَّ نفحاته، ومحل مكاشفاته، ومجرَى رحمته، وهيَّأه لتحصيل المعرفة [به] **(والصفات الرديئة)** والأخلاق المذمومة **(مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكِبْر والعُجْب)** والغلِّ والغش **(وأخواتها كلاب نابحة)** وذئاب عادية، وسِباع ضارية **(فأنَّى)** وفي نسخة: فلا **(تدخله الملائكة وهو مشحون)** أي مملوء **(بالكلاب)** أي بصفاتها، أي متى كان فيه شيء من تلك الأخلاق لم تدخله الملائكة، ولم ينزل عليه شيء من

---

(١) الإملاء على إشكالات الإحياء ص ٢٣ - ٢٥ (ملحق بالإحياء). والزيادات التي بين حاصرتين منه.

الخير من قِبَله (ونور العلم لا يقذفه الله تعالىٰ في القلب إلا بواسطة الملائكة) إذ هي الوسائط بين الله تعالىٰ وبين خلقه، وهم الوفود منه بالخيرات، والواصلون إليه وعنه بالباقيات الصالحات، قال الله عَزَّوَجَلَّ: (﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورىٰ:٥١]) أي ما يَرِد عن الله عَزَّوَجَلَّ إما بواسطة مَلَك أو إلقاء في رُوع أو مكاشفة بحقيقة أو ضربٍ لمَثَل مع العلم بتأويله (فهكذا) وفي نسخة: وهكذا في جميع (ما يرسل من رحمة العلوم) المُفاضة (إلىٰ القلوب إنما تتولأها الملائكة الموكَّلون بها، وهم المقدَّسون) من الأدناس (المطهَّرون المبرَّءون عن الصفات المذمومات، فلا يلاحظون) بوارداتهم (إلا طيِّبًا) من الأصل (ولا يعمُرون بما عندهم من خزائن رحمة الله إلا طيِّبًا طاهرًا) في الباطن والظاهر. قال: ولولا تلك الأخلاق المذمومة التي حلَّت فيهم - وهي التي ذُمَّ الكلب لأجلها - لَما احترمت الملائكة بإذن الله عَزَّوَجَلَّ عن حلولها فيها، وهي لا تخلو من خير تنزل به ويكون معها، فحيثما حلَّت حلَّ الخيرُ في ذلك القلب بحلولها، وإنما هي مرتصدة لها، فحيثما وجدتْ قلبًا خاليًا ولو حينًا من الدهر وزمنًا نزلت عليه ودخلتْه، وثبت ما عندها من الخير حوله، فإن لم يطرأ علىٰ الملائكة ما يزعجها عنه من تلك الأخلاق [المذمومة] بواسطة الشياطين الذين هم في مقابلة الملائكة ثبتت عنده، وسكنت فيه، ولم تبرح عنه، وعمرته بقَدْر سعة البيت وانشراحه من الخير، فإن كان البيت كثير الاتساع أكثرت فيه من متاعها، واستعانت بغيرها، حتىٰ يمتلئ البيت[1] من متاعها وجهازها وهو الإيمان [بالله] والصلاح وضروب المعارف النافعة عند الله تعالىٰ، فإذا طرق ذلك البيتَ المعمور طارقُ شيطانٍ ليسرق من ذلك الخير الذي هو متاع المَلَك وينكت فيه خلقًا مذمومًا لا يوجد إلا في الكلب وهو متاع الشيطان قابله[2] المَلَك وطرده عن ذلك المحلِّ،

---

(١) في المطبوعة: القلب. والمثبت من الإملاء.

(٢) في الإملاء: قاتله.

فإن جاء للشيطان مددٌ من الهوىٰ من قِبَل النفس ولم يجد الملك نصرة من عزم اليقين من قِبَل الروح انهزم الملك وأخلىٰ البيتَ، ونُهب المتاع وخرب [البيت] بعد عمارته، وأظلم بعد إنارته، وضاق بعد انشراحه، وهكذا حال مَن آمن وكفر، وأطاع وعصىٰ، واهتدىٰ وضلَّ[١].

قال: فإن قلتَ: فكيف آمَن مَن كفر وأطاع مَن عصىٰ واهتدىٰ مَن ضلَّ إذا كانت الشياطين لا تفارق قلب الكافر والعاصي والضالِّ بما يبثُّون فيه من الأخلاق المذمومة[٢]، وأصناف الخير إنما تَرِد من الله عَزَّوَجَلَّ بواسطة الملائكة، وهي لا تدخل موضعًا يحل فيه شيء مما ذكرنا، وإذا لم تدخل لم يصل إلىٰ الخير الذي يكون معها ولم تصل إليه، فعلىٰ هذا يجب أن يبقىٰ كل كافر علىٰ حاله، ومَن لم يُخلَق مؤمنًا معصومًا فلا سبيل له إلىٰ الإيمان علىٰ هذا المفهوم[٣]؟

فالجواب: أن للشياطين غفلات، وللأخلاق المذمومة عدمات، كما أن للملائكة [عن القلوب] غيبات، ولتواتُر الخير عليها فترات، فإذا وجد المَلَك

(١) بعده في الإملاء: فإن قلت: فميز لي أصناف هذه الأخلاق المذمومة التي صدت هؤلاء الأصناف الثلاثة المذكورين عن اعتقاد الإيمان ونفرت الملائكة عن النزول إلىٰ قلوبهم لكشف معاني التوحيد ومنعهم من الحلول فيها حتىٰ لم ينالوا شيئًا من الخيرات الكائنة معها. فاعلم أن الأخلاق التي لا تجتمع معها الملائكة في قلب واحد كثيرة، والتي في قلوب هؤلاء منها معظمها وهي الطمع في غير خطير، والحرص علىٰ فانٍ حقير، أما الصنف الأول فإنهم رجعوا وخافوا أن تبدو لهم صحة ما يشغلهم عن لذَّاتهم ويُنغِّصُ عليهم ما رغبوا فيه من راحاتهم وتكدر لديهم منال شهواتهم، فأبقوا أمرهم علىٰ ما هم عليه. وأما الصنف الثاني والثالث فصدهم أيضًا خوف وجزع وحرص علىٰ ما ألفوه من تبجيل أحدهم أن يزول ومؤانسة أشياعهم أن تتغير وتذهب ومواساة إيلافهم أن تنقطع، واستثقالاً لما يشاهدونه من أهل الإيمان أن يلتزموه، وفرارًا من شرائطه وما يصحبه من الأعمال والوظائف إذ يمتثلوه، والكلب ما ذم لصورته، وإنما ذم بهذه الأخلاق التي هي الطمع في الخسائس والجزع من الصبر علىٰ ما يعده من الفضائل حتىٰ احترمت الملائكة أن تدخل بيتا فيه كلب.

(٢) بعده في الإملاء: التي هي كلاب نابحة وذئاب عادية وسباع ضارية.

(٣) بعده في الإملاء: فاعلم أن هذا يستدعي أصنافًا من علم القلوب، ولا سبيل إلىٰ ذلك في مثل هذا المقام المعلوم، والقول والمعنىٰ في جواب ما سألت عنه أن للشيطان غفلات ... الخ.

قلبًا خاليًا ولو زمنًا فردًا حلَّ فيه، وأراه ما عنده من الخير، فإن صادف منه قبولاً ولِما عرض عليه [من الخير] تشوُّقًا ونزوعًا أورد عليه ما يملؤه ويستغرق لُبَّه، وإن صادف منه ضجرًا وسمع منه لجنود الشياطين استغاثة وبالأخلاق الكِلابية استعانة رحل عنه وتركه[1].

(**ولست أقول: المراد بلفظ البيت**) في الحديث (**هو القلب، وبالكلب هو الغضب، و**) بقية (**الصفات المذمومة، ولكني أقول: هو**) أي ما ذُكر من التأويل (**تنبيهٌ عليه**) لأهل الباطن (**وفرقٌ بين تغيير الظواهر إلىٰ البواطن وبين التنبيه للبواطن من ذِكر الظواهر مع تقرير الظواهر**) علىٰ ما هي عليه، وعلىٰ هذا (**يفارق الباطنية**) وهم طائفة من الملاحدة (**بهذه الدقيقة**) وقد ذُكر شيء مما يتعلق بتأويلاتهم في أول الكتاب (**فإن هذا طريق الاعتبار، وهو مسلك**) السادة من (**العلماء والأبرار**) ومَن نحا منهجهم من أهل الأسرار (**إذ معنىٰ الاعتبار أن يعبُر**) أي يتجاوز (**ما ذُكر إلىٰ غيره ولا يقتصر عليه**) هذا هو الأصل نظرًا إلىٰ أنه افتعال من العبور (**كما يرىٰ العاقل مصيبةً**) نزلت (**بغيره فيكون له فيها عبرة بأن يعبر منها إلىٰ**) حال (**التنبُّه**) من الغفلة (**لكونه أيضًا عُرْضة**) أي معروضًا (**للمصائب**) والنوازل (**وكون الدنيا بصدد الانقلاب**) والزوال، ولقد أجاد مَن قال: مَن حُلقت لحية جاره فليسكب الماء علىٰ لحيته (**فعبوره من غيره إلىٰ نفسه ومن نفسه إلىٰ أصل الدنيا عبرة محمودة**) عند أهل الحق (**فاعبر أنت أيضًا من**) لفظ (**البيت الذي هو بناء الخلق**) من اللَّبِن والطين (**إلىٰ القلب الذي هو بيت من بناء الله سبحانه**) ومهبط أنواره وملائكته (**و**) اعبر أيضًا (**من**) لفظ (**الكلب الذي هو ذمٌّ لصفته لا لصورته**) الظاهرة (**وهو ما فيه من سبعية ونجاسة إلىٰ روح الكلبية وهي السبعية**) وقد أورد الشيخ المصنِّف رحمه الله هذا البحث في إملائه الذي تقدم ذِكرُه فقال: فإن قلتَ: فأيُّ بيت فُهم عن النبي ﷺ في الخطاب؟ وأيُّ كلب أراد هل بيت القلب وكلب الخَلْق أو بيت اللَّبِن وكلب الحيوان؟ فاعلم

---

(١) بعده في الإملاء: ولهذا قيل: ما خلا لبٌّ عن لمَّةِ ملك أو نزغةِ شيطان.

أن الحديث خارج علىٰ سبب، ومعناه وجملته أن المقصود بالأخبار [هو] بيت اللَّبِن وكلب الحيوان المعلوم، ولا شكَّ في ذلك، ولكن يُستقرأ منه ما قلناه لك، ويُستنبَط من مفهومه ما نبَّهناك عليه، ويُتخطَّىٰ منه إلىٰ ما أشرنا لك نحوه، ولا نكير في ذلك إذا دل عليه العلم وجملة الاستنباط، ولم تمجُّه القلوب المستضاءة[1]، ولم يُصادَم به شيءٌ من أركان الشريعة، فلا تكن جامدًا[2]، ولا تجزع من تشنيع جاهل، ولا من نفور مقلِّد، فكثيرًا ما ورد شرعٌ مقرون بسبب فرأىٰ أهل الاعتبار وجه تعدِّيه عن سببه إلىٰ ما هو في معناه ومشابه له من الجهة التي يصلح أن يتعدىٰ بها إليها[3]، ولولا ذلك ما قال عليه الصلاة والسلام: «رُبَّ مبلِّغ أوعىٰ من سامع، ورُبَّ حامل فقه إلىٰ مَن هو أفقه منه».

ثم قال: فإن قلت: قد عُلم السبب الذي جاء هذا الحديث عليه وفيه، فهل يُعدَّىٰ عن سببه ويترقَّىٰ منه إلىٰ مثل ما ترقَّىٰ من الحديث الآخَر؟ فالجواب: نعم، يترقَّىٰ منه إلىٰ قريب من ذلك وشبهه، ويكون هذا الحديث منبِّهًا عليه، وهو أن الصورة المنحوتة قد اتُّخذت آلهةً، وعُبدت من دون الله ﷻ، وقد نبَّه الله تعالىٰ قلوب المؤمنين علىٰ عيب فعلِ مَن رضي بذلك، ونقصِ إدراك مَن دان به، قال تعالىٰ مخبرًا عن إبراهيم ﷺ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات ٩٥ - ٩٦] فكأنَّ امتناع الملائكة من دخول بيت فيه صورة لأجل أن فيه ما عُبد من دون الله تعالىٰ، أو ما يكون[4] به ما هو علىٰ مثاله، ويترقَّىٰ من ذلك المعتبَر[5] إلىٰ أن القلب الذي هو بيت بناه الله تعالىٰ ليكون مهبطًا للملائكة ومحلاً

---

(١) في المطبوعة: المستفتاة. والمثبت من الإملاء.

(٢) في الإملاء: جاحدًا.

(٣) في الإملاء: من الجهة التي تصلح أن يعديها إليه.

(٤) في الإملاء: أو ما حكي.

(٥) في الإملاء: المعنىٰ.

لِذكره ومعرفته وعبادته وحده دون غيره، فإذا أُدخل[١] فيه معبود غير الله تعالىٰ - وهو الهوىٰ - لم تقربه الملائكة أيضًا.

فإن قيل: فظاهر الحديث يقتضي منافرة الملائكة لكل صورة عمومًا، وما ذكرتَه الآن تعليلاً ينبغي أن لا يقتضي إلا منافرة ما عُبد وما نُحت علىٰ مثاله. قلت: تشابهت[٢] الصور المنحوتة كلُّها في المعنىٰ الذي قُصد بها التصوير[٣] من أجله وهو مضارعة ذوات الأرواح، وما نُحت للعبادة إنما قُصد به تشبيه ذي روح، فلما كان هذا المعنىٰ هو الجامع لها وجب تحريم كل صورة منافِرة للملائكة[٤].

فإن قيل: فما وجه الترخيص فيما هو رقم في ثوب؟ قلت: إن ذلك لأجل أنها ليست مقصودة في نفسها، وإنما المقصود الثوب الذي رُقمت فيه.

هذا آخر ما أورد المصنف في إملائه، فتأمَّلْ.

(**واعلمْ أن القلب المشحون**) أي المعلَّق[٥] (**بالغضب والتشرُّف**) أي التطلُّع. وفي نسخة: والشَّرَه (**إلىٰ الدنيا والتكالُب عليها**) أي علىٰ تحصيلها (**والحرص علىٰ التمزيق**) أي التشقيق (**لأعراض الناس كلب في المعنىٰ**) لاشتماله علىٰ هذه الصفات الثلاثة المذمومة فهو إياه نظرًا إلىٰ ذلك (**وقلب في الصورة**) الظاهرة (**فنور البصيرة**) الذي قُذف فيه (**يلاحظ المعاني**) المعقولة (**دون الصور**) المحسوسة (**والصور في هذا العالَم**) بفتح اللام (**غالبة علىٰ المعاني**) لظهورها (**والمعاني باطنة فيها**) بطونَ الماء في العود (**وفي**) عالَم (**الآخرة**) تُكشَف الحُجُب و(**تتَّبع الصورُ**

(١) في الإملاء: حل.

(٢) في المطبوعة: إن مشابهة. والمثبت من الإملاء.

(٣) في المطبوعة: القصور. والتصويب من الإملاء.

(٤) في المطبوعة: ومنافرة الملائكة لها. والتصويب من الإملاء.

(٥) كذا في المطبوعة: ولعلها: المملوء.

المعاني، وتغلب **المعاني**) عليها (**فلذلك يُحشَر كل شخص علىٰ صورته المعنوية**) التي مات عليها (**فيُحشَر الممزِّق لأعراض الناس**) في الدنيا (**كلبًا ضاريًا**) أي علىٰ صورته (و) يُحشَر (**الشَّرِه**) النَّهِم (**إلىٰ أموالهم**) أخذًا واختلاسًا. وفي نسخة: وآخذ أموالهم (**ذئبًا عاديًا**، و) يُحشَر (**المتكبِّر عليهم في صورة نمر**، و) يُحشَر (**طالب الرياسة**) فيهم (**في صورة أسد**) واختص كل حيوان بهذه الأوصاف، فمن وُجدت فيه صفة وفارقَ الدنيا عليها ولم ينفصل عنها حُشر علىٰ صورته، ويشير إلىٰ ذلك ما رواه ابن ماجه[1] عن جابر رفعه: «يُحشَر الناس علىٰ نيَّاتهم» (**وقد وردت بذلك الأخبار**) والآثار (**وشهد به الاعتبارُ عند ذوي البصائر والأبصار**) قال العراقي[2]: أما حديث حشر الممزِّق لأعراض الناس كلبًا ضاريًا فقد أخرجه الثعلبي في التفسير من حديث البراء بسند ضعيف.

وقال في تخريجه الكبير: لم أجد لذلك أصلاً إلا ما رواه الثعلبي في التفسير بإسناد ضعيف من حديث البراء بن عازب بنحو من ذلك.

قلت: وقد وجدت في حشر المتكبِّر حديثًا، إلا أنه ليس كما أورده المصنف أنه في صورة نمر، وذلك فيما رواه الإمام أحمد[3] والترمذي[4] وحسَّنه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رفعه: «يُحشَر المتكبِّرون يوم القيامة أمثال الذَّرِّ في صور الرجال، يغشاهم الذلُّ من كل مكان، يُساقون إلىٰ سجن في جهنم يسمىٰ: بُولَس، تعلوهم نارُ الأنيار، يُسقَون من عُصارة أهل النار طينة الخَبال»[5].

---

(١) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٢٨.

(٢) المغني ١/ ٣٤.

(٣) مسند أحمد ١١/ ٢٦٠.

(٤) سنن الترمذي ٤/ ٢٦٨.

(٥) هذا هو لفظ الترمذي، أما لفظ أحمد فهو: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار حتىٰ يدخلوا سجنًا في جهنم يقال له بولس ...» الخ.

وأخرجه أبو نعيم في الحلية[1] في ترجمة كعب الأحبار من ثلاثة طرق، إحداهن عن مسعر عن أبي مصعب عن أبيه عن كعب بنحو هذا السياق، والثانية والثالثة من رواية موسىٰ بن عقبة عن عطاء بن أبي مروان عن أبيه عن كعب: والذي فلق البحر لموسىٰ إن فيما أنزل الله في التوراة أنه يُحشَر المتكبِّرون يوم القيامة ... فساق نحوه.

(**فإن قلتَ: كم من طالب رديء الأخلاق**) ذميم الأوصاف اجتهد في هذا الطريق و(**حصَّل العلوم**) وفي نسخة: العلم. وسُمِّي عالمًا، واقتدىٰ به الناس (**فهيهات ما أبعده عن**) معرفة (**العلم الحقيقي النافع في الآخرة، الجالب للسعادة**) الكبرىٰ (**فإن من أوائل ذلك العلم**) وعلاماته الصادقة (**أن يظهر له**) بتوفيق من الله تعالىٰ (**أن المعاصي**) في أعسالها (**سموم مهلكة**) قتَّالة لا تقبل البُرْء (**وهل رأيتَ**) في العقلاء (**من يتناول سمًّا**) باختياره (**مع علمه بكونه سمًّا قاتلاً**) فهذا الذي حصَّله من العلوم مما بعثه علىٰ تحصيل الحطام الفاني لا مما قرَّبه وأدناه إلىٰ الحبيب الداني، وقد أورد هذا الحديثَ ابنُ القيم في كتابه «مفتاح دار السعادة» بأبسط من هذا فقال[2]: فضيلة الشيء تُعرَف بضده، ولا ريب أن الجهل أصل كل فساد، وكل ضرر يلحق [العبدَ في دنياه وأخراه] فهو نتيجة الجهل، وإلا فمع العلم التام بأن هذا الطعام مثلاً مسموم مَن أكله قطَّع أمعاءه في وقت معيَّن لا يُقدِم علىٰ أكله، وإن قُدِّر أنه أقدم عليه لغَلَبة جوع أو استعجال وفاة فهو لعلمه بموافقة آكله لمقصوده الذي هو أحبُّ إليه من العذاب بالجوع أو بغيره.

ثم ذكر الاختلاف في مسألة هل العلم يستلزم الاهتداءَ أمْ لا؟ اختلف المتكلِّمون وأرباب السلوك، واحتجَّت كل فِرقة بدليل من الآيات والأحاديث، ثم قال: المقتضي قسمان: قسم لا يتخلَّف عنه موجِبُه ومقتضاه لقصوره في نفسه

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٣٦٩.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ٣١٥ وما بعدها. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

بل يستلزمه استلزامَ العلة التامة لمعلولها، ومقتضٍ غير تام [بل قد] يتخلَّف عنه مقتضاه لقصوره في نفسه عن التمام أو لفوات شرط اقتضائه أو قيام مانع منع تأثيره، فإن أُريدَ بكون العلم مقتضيًا للاهتداء والاقتضاء التام الذي لا يتخلف عنه أثرُه بل يلزمه الاهتداءُ بالفعل فالصواب قول الطائفة الثانية، وأنه لا يلزم من العلمِ [حصول] الاهتداء المطلوب، وإن أُريدَ بكونه موجِبًا أنه صالح للاهتداء مقتضٍ [له] وقد يتخلَّف عنه مقتضاه لِما ذُكر[١]، فالصواب قول الطائفة الأولىٰ.

ثم ذكر أسباب التخلُّف[٢]، وهو نفيس، فراجعْه.

(**وإنما الذي تسمعه من المترسِّمين**) الآخذين برسوم العلم الظاهرية. وفي نسخة: المتوسِّمين (**حديث تلقَّفوه**)[٣] أي أخذوه بأفواههم، ولقف الفم: شدته. وفي نسخة: بألسنتهم وبقلوبهم، بصيغة الجمع فيهما (**وليس ذلك من العلم**) النافع الموصِّل (**في شيء**) أصلاً (**قال**) الإمام الجليل عبد الله (**ابن مسعود** رضي الله عنه: **ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم نور يُقذَف في القلب. وقال بعضهم: إنما العلم الخشية؛ إذ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾** [فاطر:٢٨]) قلت: الذي في الحلية[٤] لأبي نعيم في ترجمة عبد الله بن مسعود ما نصه: حدثنا أبو أحمد الغِطْريفي، حدثنا أبو خليفة، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا قُرَّة بن خالد، عن عون بن عبد الله قال: قال عبد الله: ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية.

---

(١) في المفتاح: لقصوره أو فوات شرط أو قيام مانع.

(٢) وهي عشرة: ضعف المعرفة، عدم الأهلية، قيام مانع من حسد أو كبر، الرياسة والملك، الشهوة والمال، محبة الأهل والأقارب والعشيرة، محبة الدار والوطن، تخيل أن في الإسلام ومتابعة الرسول إزراءً وطعنًا علىٰ آبائه وأجداده وذما لهم، متابعة من يعاديه من الناس للرسول، الإلف والعادة والمنشأ.

(٣) نص الإحياء: حديث يلفقونه بألسنتهم مرة، ويرددونه بقلوبهم أخرىٰ.

(٤) حلية الأولياء ١/ ١٣١.

فعُلم من سياقه أن الجملتين من كلام ابن مسعود، فيكون المراد من قوله «بعضهم» هو هو، وقوله: إذ قال تعالىٰ .. الخ، هذه الزيادة ليست عند أبي نعيم، وقوله: إنما العلم نور .. الخ، قد أورده صاحب القوت في سياق كلامه في أحوال السلف ما نصه[1]: فهذا كما قيل: [إنما] العلم نور يقذفه الله تعالىٰ في قلوب أوليائه. كما تقدم ذلك في سادس شروط المناظرة. أي فليس كل قلب يُقذَف فيه النور.

(وكأنه) أي صاحب هذا القول (**أشار**) بذلك (**إلىٰ أخص ثمرات العلم**) وأعلاها وأنماها، كما دل علىٰ ذلك الحصرُ بـ «إنما»، وقد تقدم البحث في معنىٰ الآية والخشية في أول الكتاب (**ولذلك قال بعض المحقِّقين**) من السلف: إن (**معنىٰ قولهم: تعلَّمنا العلمَ لغير الله فأبىٰ العلمُ أن يكون إلا لله**) وطالما كنت أسمع الشيوخ يعزون هذه المقالة إلىٰ المصنف، وأنه أبو عُذْرتها، وكنت أفهم من تقاريرهم في معناها أن تعلُّمنا في المبادئ لم يكن يخلو من عدم الإمحاض في تحصيله، فأبىٰ إلا أن يجرَّنا إلىٰ طريق السلوك والهداية إلىٰ الله تعالىٰ. وتقدم في أثناء ترجمة المصنف حين أمره وأخاه وصيُّهما أن ينزلا مدرسة من المدارس ليتقوَّتا فيها ويحصِّلان العلم، وكان ما كان، فقال المصنف هذا الكلام إذ ذاك، والآن قد ظهر من سياق المصنف أن المقالة المذكورة لأحدٍ من المتقدمين، ليست له، وإنما هو ناقل، بل هو مقلِّد لصاحب القوت؛ فإنه هو الذي نقلها هكذا وفسَّرها بما يأتي، وأن تفسيرها: (**أن العلم أبىٰ وامتنع علينا**) بحسب قصورنا في الاجتهاد، وعجزِنا عن كثير من الشروط (**فلم تنكشف لنا حقيقته**) من حيث هو هو (**وإنما حصل لنا حديثه**) الظاهر (**وألفاظه**) ومُثُله ورسومه فقط. فهذا تأويل آخَر لتلك المقالة غير ما كنا نسمعه من الشيوخ ونفهمه.

(**فإن قلت**): إني (**أرىٰ جماعة**) كثيرة (**من العلماء والفقهاء المحقِّقين**) المدقِّقين (**برزوا في الفروع والأصول**) أي ظهروا علىٰ الناس في معرفتها واستنباط

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٥٥. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

الأحكام الشرعية منها (**وعُدُّوا**) بذلك (**من جملة الفحول**، و) مع ذلك (**أخلاقهم**) التي جُبلوا عليها (**ذميمة**) رديئة (**لم يتطهَّروا منها**) ولم يتخلصوا من أدناسها (**فيقال**) في الجواب عن ذلك: (**إذا عرفتَ مراتب العلوم**) النافعة (**وعرفت مقاديرها**) بميزان الإخلاص (**بحكم الآخرة**) لا بحكم الدنيا (**استبان**) أي ظهر (**لك أن ما اشتغلوا به**) وتعبوا عليه كثير العناء (**قليل الغَناء**) أي الجدوىٰ (**من حيث كونه علمًا، وإنما غناؤه**) وفائدته (**من حيث كونه عملاً لله تعالىٰ**) موصلاً إليه (**إذا قُصد به التقرُّب إلىٰ الله تعالىٰ**) لا ما إذا قُصد به غير الله من نحو تحصيل جاه أو حطام دنيوي أو مباهاة أو غير ذلك (**وقد سبقت إلىٰ هذا إشارةٌ**) في عدة مواضع (**وسيأتيك فيه مزيد بيان وإيضاح إن شاء الله تعالىٰ**) في ذكر العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة وفي مواضع أُخَر غيرها. والله أعلم.

(**الوظيفة الثانية: أن يفرغ**) المتعلم بعد تقديم طهارة النفس (**علائقه**) جمع عِلاقة، بكسر العين. وفي بعض النسخ: أن يقلِّل علائقه (**من أشغال الدنيا**) جمع شُغُل بالضم وهو ما يشغله. وفي بعض النسخ: من اشتغالٍ بالدنيا، أي من الاشتغال، وهو صرفُ نفائس الأوقات في أمورها. وعلىٰ النسخة الأولىٰ أمر بتفريغه للعلائق الدنيوية بحيث لا يشغله منها شيءٌ، وهذا أوفق للمتجرِّد. وعلىٰ النسخة الثانية أمر بقطع الأطماع في أمورها، فيقلِّل منها علىٰ التدريج، وهذا أوفق للمتزوِّج (و) علىٰ كل حال لا يتمكَّن من ذلك كلٌّ منهما حتىٰ (**يبعد عن الأهل**) والأقارب (**والوطن**) والدار والرباع ويهاجر عنهم وعنها حتىٰ يثبت له أجرُ المهاجَرة، وفي ذلك قال بعض المقادسة[1]:

---

(١) هو أبو الفرج علي بن الحسين بن هندو، وبعده بيت آخر وهو:

فالشمس تجتاب السماء وحيدة ... وأبو بنات النعش فيها راكد

انظر: الفقيه والمتفقه للخطيب ٢/ ١٨٥. الوافي بالوفيات للصفدي ٢١/ ١١. عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص ٤٣٠. ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ٣/ ٣٥٤.

ما للمَعِيل وللمَعالي إنما يسعىٰ إليهنَّ الوحيد[١] الفارد

(فإن العلائق) وهي علىٰ قسمين: ظاهرية وباطنية، وهي بأنواعها **(شاغلة وصارفة)** عن تحصيل المطلوب (و) قد قال الله تعالىٰ في كتابه العزيز في سورة الأحزاب: (﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب:٤]) أصل الجوف: الخلاء، ثم استُعير لِما يقبل الشغل والفراغ، فقيل: جوف الدار، لداخلها وباطنها، وجوف الإنسان: بطنه[٢].

واختُلف في سبب نزول هذه الآية، فقال الحافظ السيوطي في «الدر المنثور»[٣]: أخرج أحمد[٤] والترمذي[٥] وحسَّنه وابن جرير[٦] وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم[٧] وصحَّحه وابن مردويه والضياء في المختارة[٨] عن ابن عباس قال: قام النبي ﷺ يومًا يصلي، فخَطَر خَطْرةً، فقال المنافقون الذين يصلُّون معه: ألا ترىٰ أن له قلبين قلبًا معكم وقلبًا معهم؟ فأنزل الله هذه الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق خُصَيف عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة قالوا: كان رجل يُدَعىٰ ذا القلبين، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية.

وأخرج ابن جرير[٩] وابن مردويه عن ابن عباس قال: كان رجل من قريش

---

(١) في المطبوعة: الفريد. والمثبت من المصادر السابقة.

(٢) المصباح المنير ص ٤٥. الصحاح للجوهري ٤/ ١٣٣٩.

(٣) الدر المنثور ١١/ ٧١٨ - ٧٢٠. وانظر: تفسير ابن كثير ٦/ ٣٧٦ - ٣٧٧.

(٤) مسند أحمد ٤/ ٢٣٣.

(٥) سنن الترمذي ٥/ ٢٥٨.

(٦) تفسير الطبري ١٩/ ٧.

(٧) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٤٨٨. وتعقبه الذهبي وقال: فيه قابوس بن أبي ظبيان، وهو ضعيف.

(٨) الأحاديث المختارة ٩/ ٥٤٠، ٥٤١.

(٩) تفسير الطبري ١٩/ ٧.

يسمَّىٰ من دهائه ذا القلبين، فأنزل الله هذا في شأنه.

وأخرج ابن جرير[١] وابن أبي حاتم عن الحسن قال: كان رجل علىٰ عهد رسول الله ﷺ يسمىٰ ذا القلبين، كان يقول: نفسي تأمرني ونفسي تنهاني[٢]، فأنزل الله فيه [ما تسمعون][٣].

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير[٤] وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: إن رجلاً من بني فِهْر قال: إن في جوفي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد ﷺ. فنزلت.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السُّدِّي أنها نزلت في رجل من قريش من بني جُمَح يقال له جميل بن مَعْمَر.

وأخرج ابن مردويه[٥] عن ابن عباس قال: صلىٰ رسول الله ﷺ صلاة فنسي[٦] فيها، فخطرت منه كلمة، فسمعها المنافقون فأكثروا وقالوا: إن له قلبين، ألم تسمعوا إلىٰ قوله وكلامه في الصلاة؟ إن له قلبًا معكم وقلبًا مع أصحابه. فنزلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾.

وأخرج عبد الرزاق[٧] وابن جرير[٨] عن الزهري قال: بلغنا أن ذلك كان في

(١) السابق ١٩/ ٨.

(٢) في الدر وتفسير الطبري: لي نفس تأمرني ونفس تنهاني.

(٣) زيادة من الدر وتفسير الطبري.

(٤) تفسير الطبري ١٩/ ٨.

(٥) وكذلك ابن خزيمة في صحيحه ٢/ ٣٩. وزاد أن الصلاة كانت بمنىٰ.

(٦) في الدر: فسها.

(٧) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١١١ (ط - مكتبة الرشد بالرياض).

(٨) تفسير الطبري ١٩/ ٩. ونقل القرطبي في تفسيره ١٧/ ٥٤ عن أبي جعفر النحاس قوله: وهذا قول ضعيف لا يصح في اللغة، وهو من منقطعات الزهري، رواه معمر عنه.

[شأن][1] زيد بن حارثة، ضرب [الله][2] له مثلاً، يقول: [ليس][3] ابن رجل آخَر ابنك.

ونص الذريعة[4]: الثاني: أن يقلِّل من الأشغال الدنيوية؛ ليتوفَّر فراغه على العلوم الحقيقية، وقد قال الشاعر[5]:

فما صاحب التطواف يعمر منهلاً ... وربعًا إذا لم يُخلِ ربعًا ومنهلا

وقد قال الله تعالىٰ: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ ﴾ الآية.

(**ومهما توزَّعت**) أي تقسَّمت (**الفكرة**) المستجمَعة في نفسها وهي القوة المطرقة للعلم[6] (**قصرت عن درك الحقائق**) العلمية وفهمها، واشتغال البال بالعلائق من أعظم الموانع لطلب العلم (**ولذلك قيل**) فيما مضىٰ: (**العلم لا يعطيك بعضه**) أي بعضًا من حقائقه وثمراته (**حتىٰ تعطيه كُلَّك**) أي تتوجه إلىٰ تحصيله بكلِّيتك، غير ناظر إلىٰ أهل ووطن ولا مال وجاه مع جوع وعري وغربة (**فإذا أعطيتَه كلَّك**) أي صرفتَ إليه همَّتك الكلية (**فأنت من إعطائه إياك بعضه علىٰ خطر**) إما أن تحصِّله، فإذا لم تعطه كُلَّك لم تظفر منه بشيء أبدًا؛ أورده صاحب

(١) زيادة من تفسير عبد الرزاق.

(٢) زيادة من تفسير الطبري.

(٣) زيادة من الدر وتفسير عبد الرزاق وتفسير الطبري.

(٤) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ص ١٤٩.

(٥) هو أبو تمام الطائي، والبيت في ديوانه ص ٢٥٥ من قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق العباسيين.

(٦) قال الراغب في المفردات ص ٣٨٤: «الفكرة: قوة مطرقة للعلم إلىٰ المعلوم، والتفكر: جولان تلك القوة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب، ولهذا روي: تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله».

الذريعة هكذا. قال: وكأنما [إياه][(١)] عني مَن قال[(٢)]:

خدم العلىٰ فخدمنه وهي التي لا تخدم الأقوامَ ما لم تُخدَمِ

(والفكرة المتوزِّعة) أي المنقسمة (علىٰ أمور متفرقة) إنما مَثَلُها عند الاعتبار (كجدول) وهو نهر صغير يسقي الحائط (تفرَّق ماؤه) في أماكن شتىٰ وليس بمجتمع في موضع واحد (فنشَّفت الأرضُ بعضه) لقِلَّته (واختطف الهواء) من الجو (بعضَه، فلا يبقىٰ منه ما يجتمع) مع بعضه (ويبلغ المزارعَ) المطلوب سقيها. ونص الذريعة: والفكرة متىٰ توزَّعت تكون كجدول تفرَّق ماؤه فينشِّفه الحر[(٣)]، وتتشرَّبه الأرض، فلا يقع به نفعٌ، وإن جُمع بلغ المزروعَ فانتفع به. ا.هـ.

ولذا كرهوا للمتعلم الاشتغالَ في درسين في علمين مستقلَّين؛ لئلاَّ تتوزَّع الفكرة، ومن الانتقال من فن إلىٰ فن آخَر قبل استكمال الأول، كما يأتي بيانه.

(الوظيفة الثالثة: أن لا يتكبَّر) المتعلم (علىٰ العلم) نفسِه بأن يراه بعين الازدراء، ولا تقع مهابته وشرفه وكرامته عنده موقعًا (ولا يتأمَّر) أي لا يصير أميرًا (علىٰ المعلم) فإنه ثمرة عدم معرفة حقِّه (بل يُلقِي إليه زمام أمره بالكلية) وأصل الزمام: ما يُزَمُّ به البعير بحبل فيقاد[(٤)]، والمراد هنا تدبير أموره (في كل تفصيل وإجمال (ويذعن) أي ينقاد (لنصحه) وما يبديه من إشاراته (إذعانَ المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق) في صنعته، وإنما قيَّد المريض بالجاهل؛ لأن العارف من المرضىٰ ربما خالف طبيبه في دواء من الأدوية، فلم يتلقَّ منه بالقبول، فلا ينجع فيه ذلك الدواء، وقيَّد الطبيب بوصفين: الإشفاق والحِذْق، ولعَمْري هما وصفان

---

(١) زيادة من الذريعة.

(٢) هو أبو تمام الطائي، والبيت في ديوانه ص ٣١٣ من قصيدة يمدح بها محمد بن الهيثم بن شبابة الخراساني.

(٣) في الذريعة: الجو.

(٤) انظر تاج العروس ٣٢/٣٢٨.

جليلان لا يوجدان في أكثر الأطباء، وإنما ضرب المَثَل في ذلك لأن المعلم يشفيه من أمراضه الباطنة التي أعظمها الجهل، كما أن الطبيب يداويه لإذهاب الأمراض العارضة في الظاهر، وإذا وُجد في المعلم الكمال في نفسه وتهذَّبَ لتكميل الغير مع الإشفاق والفطانة وجب علىٰ المتعلم أن يكون بين يديه مثل ذلك المريض الجاهل، بل كالميت بين يدي الغاسل أو القَشَّة في جرية الماء.

(**وينبغي أن يتواضع**) بعين قلبه (**لمعلمه**) ومرشده (**ويطلب الثواب**) والأجر (**والشرف**) الأكبر والسعادة العظمىٰ (**بخدمته**) والملازمة لسُدَّته (**قال**) الإمام المتفَق علىٰ ورعه وجلالة قَدْره أبو عمرو عامر بن شَراحيل (**الشعبي**) من شَعْب هَمْدان. قال مكحول: ما رأيتُ أفقه منه. مات بعد المائة وله نحو من ثمانين. أخرج حديثَه الجماعةُ[(١)] (**صلىٰ زيد بن ثابت**) بن الضحَّاك بن لَوْذان الأنصاري النَّجَّاري، أبو سعيد وأبو خارجة، صحابي مشهور، كتب الوحي. قال مسروق: كان من الراسخين في العلم. مات سنة ثمان أو خمس وأربعين، وقيل: بعد الخمسين[(٢)] (**علىٰ جنازة**) هي جنازة أمه، كما وقع التصريح بذلك في الرواية الآتية (**فقُرِّبت إليه بغلته ليركبها، فجاء ابن عباس**) ﷺ (**فأخذ بركابه**) تبرُّكًا وتشرُّفًا (**فقال زيد: خَلِّ عنه**) وفي رواية: ذَرْ (**يا ابن عم رسول الله ﷺ. فقال ابن عباس: هكذا أُمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء**) أي ذوي الأسنان والشيوخ (**فقبَّل زيد بن ثابت يده وقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ**) قال العراقي في التخريج الصغير[(٣)]: أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي في المدخل، إلا أنهم قالوا: هكذا نفعل. قال الحاكم: صحيح الإسناد علىٰ شرط مسلم.

---

(١) انظر ترجمته في تهذيب الكمال ١٤/ ٢٨ - ٤٠.

(٢) انظر ترجمته في الاستيعاب ١/ ٣٢١ - ٣٢٣.

(٣) المغني ١/ ٣٤.

وقال في التخريج الكبير: رواه الطبراني في الكبير[١] وابن السني وأبو نعيم في كتابيهما «رياضة المتعلمين» والبيهقي في المدخل[٢] من رواية رَزِين الرمَّاني عن الشعبي أن زيد بن ثابت كبَّر علىٰ أمه أربعًا وناشدها خيرًا[٣]، ثم أُتي بدابته، فأخذ ابن عباس بالرِّكاب، فقال زيد بن ثابت: دعه أو ذَرْه. فقال ابن عباس: هكذا نفعل بالعلماء الكُبَراء. لفظ الطبراني، وإسناده صحيح، ورواه الحاكم في المستدرك[٤] من رواية أبي سلمة عن ابن عباس أنه أخذ بركاب زيد بن ثابت، فقال له: تَنَحَّ [يا] ابن عم رسول الله ﷺ. فقال: إنَّا هكذا نفعل بكبرائنا وعلمائنا. وقال: صحيح الإسناد علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه.

وقد تقدم الكلام علىٰ هذا في أول الكتاب، ورزين الرمَّاني هو رزين بن حبيب الجُهَني الكوفي، بيَّاع الأنماط، أخرج له الترمذي، ووثَّقه أحمد وابن معين[٥].

(**وقال ﷺ: ليس من أخلاق المؤمن التملُّق إلا في طلب العلم**) قال العراقي[٦]: أخرجه ابن عدي[٧] من حديث معاذ وأبي أُمامة بإسنادين ضعيفين.

وقال ابن القيم[٨]: قال ابن قُتَيبة: جاء في الحديث: «ليس المَلَق من أخلاق المؤمن إلا في طلب العلم». ثم قال: وهذا أثرٌ عن بعض السلف.

---

(١) المعجم الكبير ٥/ ١٠٧.

(٢) المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ ١/ ٩٦.

(٣) في المعجم الكبير: وما حسبتها حدا.

(٤) المستدرك علىٰ الصحيحين ٣/ ٥١٩.

(٥) تهذيب الكمال للمزي ٩/ ١٨٦ - ١٨٧. وذكر أن الترمذي أخرج له حديثًا واحدًا في قتل الحسين رضي الله عنه.

(٦) المغني ١/ ٣٥.

(٧) الكامل في الضعفاء ٢/ ٧١٢، ٥/ ١٦٧٠.

(٨) مفتاح دار السعادة ١/ ٥٠٩.

قلت: قال ابن الجوزي في الموضوعات[١]: فيه عن معاذ وأبي أمامة وأبي هريرة؛ فأما حديث معاذ فأخرجه ابن عدي من طريق الحسن بن واصل عن الخصيب بن جحدر عن النعمان بن نُعَيم عن عبد الرحمن بن غُنْم عن معاذ رفعه بالسياق السابق.

قلت: هكذا هو بزيادة عبد الرحمن بن غنم بين النعمان ومعاذ في نسخ الموضوعات، وفي بعضها بإسقاطه، وهو الأشبه، وهكذا رواه بإثباته أبو بكر ابن السني من رواية بقية بن الوليد عن إسماعيل بن عياش عن الحسن بن دينار، وهو الحسن بن واصل الذي في نص ابن الجوزي، ودينار زوج أمه فنُسب إليه، واسم أبيه واصل. قال ابن الصلاح[٢]: وكأنَّ هذا خفيَ علىٰ ابن أبي حاتم، حيث قال[٣]: الحسن بن دينار بن واصل[٤].

قال العراقي: وعكس ذلك أبو العرب في كتاب الضعفاء، فروىٰ عن يحيىٰ بن محمد بن يحيىٰ بن سلام عن أبيه قال: الحسن بن واصل بن دينار، ودينار جده. وهذا وهمٌ.

ورواه الديلمي[٥] من طريق أبي نعيم من رواية عمر بن إبراهيم الكردي عن الحسن بن صالح عن النعمان بن نعيم.

ورواه القُضاعي في مسند الشهاب[٦] من رواية عبد العزيز بن أبان عن

(١) الموضوعات ١/ ٢١٩.

(٢) مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث ص ٣٧٣.

(٣) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣/ ١١ ونصه: «الحسن بن دينار، وهو الحسن بن دينار بن واصل، ويقال إن أبا داود الطيالسي نسبه إلىٰ جده لكي لا يفطن له».

(٤) بعده في المقدمة: فجعل واصلاً جده.

(٥) فردوس الأخبار ٣/ ٤٢٦.

(٦) مسند الشهاب ٢/ ٢٠٤.

الحسن بن دينار عن النعمان بن نعيم.

ثم قال ابن الجوزي: وأما حديث أبي أمامة فأخرجه ابن عدي أيضًا من طريق عمر بن موسىٰ الوجيهي عن القاسم عن أبي أمامة رفعه مثله. وأما حديث أبي هريرة فأخرجه ابن عدي[١] أيضًا من طريق ابن علاثة عن الأوزاعي عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعًا: «لا حسد ولا ملق إلا في طلب العلم». قال: ليس شيء من هذه الأحاديث يصح، أما الأول فمَداره علىٰ الخصيب، وقد كذَّبه شعبة والقطَّان وابن معين، وقال ابن حبان[٢]: يروي الموضوعات عن الثقات. قلت: وأيضًا الحسن بن واصل ضعيف جدًّا، منسوب إلىٰ الكذب. وأما الثاني فإن عمر بن موسىٰ الوجيهي، قال النسائي[٣] والدارقطني: متروك. وأما الثالث فإن ابن علاثة اسمه محمد بن عبد الله بن علاثة [قال الرازي][٤]: لا يُحتجُّ به، قال ابن حبان[٥]: يروي الموضوعات عن الثقات.

قال الحافظ السيوطي في كتابه «اللآلئ المصنوعة»[٦] بعد نقله لِما تقدَّم: ابن علاثة روىٰ له أبو داود والنسائي وابن ماجه، ووثَّقه ابن معين، وقال ابن سعيد: ثقة إن شاء الله تعالىٰ، وقال أبو زُرعة: صالح، وقال أبو حاتم: يُكتَب حديثه ولا يُحتجُّ به.

---

(١) الكامل في الضعفاء ٦/ ٢٢٢٧.

(٢) المجروحين لابن حبان ١/ ٣٤٩ ونصه: «الخصيب بن جحدر، شيخ من أهل البصرة، يروي عن الشاميين الثقات الأحاديث الموضوعات، كان عنده ثلاثة عشر حديثًا فقط، فلما احتيج إليه أخرجت له الأرض أفلاذ كبدها، استعدىٰ عليه شعبة وقال: هذا يكذب، وتركه يحيىٰ القطان وأحمد ابن حنبل، وقال يحيىٰ بن معين: كان الخصيب كذابًا».

(٣) الضعفاء والمتروكون للنسائي ص ١٨٩.

(٤) زيادة من الموضوعات. وانظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٧/ ٣٠٢.

(٥) المجروحون ٢/ ٢٩١ ونصه: «كان ممن يروي الموضوعات عن الثقات، ويأتي بالمعضلات عن الأثبات، لا يحل ذكره في الكتب إلا علىٰ جهة القدح فيه، ولا كتابة حديثه إلا علىٰ جهة التعجب».

(٦) اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ١/ ١٩٧.

وقال الذهبي[١]: هذا الحديث لعل آفته من عمرو؛ فإنه متروك. قال: وقد أورد [ابن عدي][٢] لابن علاثة أحاديث حسنة وقال: أرجو أنه لا بأس به. وقال الأزدي: حديثه يدل علىٰ كذبه.

قال الخطيب[٣]: أفرط الأزدي، وأحسبه وقعت إليه روايات عمرو بن الحُصَين عنه فكذَّبه لأجلها، وإنما الآفة من ابن الحصين؛ فإنه كذَّاب، وأما ابن علاثة فقد وصفه يحيىٰ بن معين بالثقة. قال: ولم أحفظ لأحد من الأئمة [فيه][٤] خلاف ما وصفه به يحيىٰ. ا.هـ.

وهذا الحديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان[٥] وقال: هذا الإسناد ضعيف، وكذا حديث معاذ وقال: ضعيف. قال: وقد رُوي من أوجُه كلها ضعيفة.

وورد هذا الحديث أيضًا عن ابن عمر، قال العراقي: رُوي من طريق هشيم بن بشير وأزهر بن سعد السَّمَّان عن عبد الله بن عون عن محمد بن سيرين عن ابن عمر. قال ابن طاهر في «الكشف عن أخبار الشهاب»: وهو منكَر من حديث ابن عون. قال: والحمل فيه علىٰ مَن قبل هشيم؛ فإنهم إلىٰ الجهالة أقرب.

وقال السيوطي: قد أورد الديلمي في مسند الفردوس[٦] من طريق ابن السني: حدثنا الحسين بن عبد الله القَطَّان، عن عامر بن سَيَّار، عن أبي الصباح، عن عبد

---

(١) ميزان الاعتدال ٣/ ٥٩٤.

(٢) زيادة من اللآلئ والميزان.

(٣) تاريخ بغداد ٣/ ٣٨١.

(٤) زيادة من تاريخ بغداد.

(٥) شعب الإيمان ٦/ ٤٩٦ من حديث معاذ وقال: الحسن بن دينار ضعيف بمرة، وكذلك الخصيب ابن جحدر، وقد روي من وجه آخر ضعيف، ثم رواه من حديث أبي هريرة، ونقل عن الحليمي قوله: والملق من أفعال أهل الذلة والصنعة، ومما يزري بفاعله ويدل علىٰ سقاطته وقلة مقدار نفسه عنده، وليس لأحد أن يهين نفسه، كما ليس لغيره أن يهينه.

(٦) فردوس الأخبار ٤/ ١٨١.

العزيز بن سعيد، عن أبيه[١]، عن النبي ﷺ: «مَن غضَّ صوته عند العلماء كان يوم القيامة مع الذين امتحن الله قلوبهم للتقوىٰ من أصحابي، ولا خير في التملق والتواضع إلا ما كان في الله أو في طلب العلم».

وإذا عرفتَ ذلك (**فلا ينبغي لطالب العلم**) في طريق الحق (**أن يتكبَّر علىٰ المعلم**) بوجه من الوجوه، بل يتملَّق له ويتواضع بمخالفته للنفس والهوىٰ في ذلك (ومن) جملة (**تكبُّره علىٰ المعلم أن يستنكف**) أي يتكبَّر ويأنَف (**عن الاستفادة**) والأخذ (**إلا عن المرموقين**) أي المنظور إليهم من (**المشهورين**) من أهل التدريس والجاه (**وهو عين الحماقة**) أي كساد العقل؛ نقله الأزهري[٢] (**فإن العلم**) من حيث هو هو (**سبب النجاة**) من عذاب الجهل والضلال (و) سبب (**السعادة**) الكبرىٰ في الدنيا والأخرىٰ (**ومن يطلب مهربًا**) أي هروبًا (**من سبع ضارٍ**) رامَ أن (**يفترسه**) وينشب فيه مخالبَه (**لم يفرِّق بين أن يرشده إلىٰ الهرب**) والخلاص منه (**مشهور أو خامل**) الذِّكر، وذلك معلوم بالضرورة لكل أحد (**وضراوة سباع النار**) أي ولعُهم ولهجهم (**بالجُهَّال بالله عَزَّوَجَلَّ أشد**) وأقوىٰ (**من ضراوة كل سبع**) في كل وقت (**فالحكمة ضالَّة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها**) والجملة الأولىٰ وقعت في حديث رواه الترمذي في أواخر باب العلم من جامعه[٣] من طريق إبراهيم بن الفضل عن سعيد المَقْبُري عن أبي هريرة رفعه: «الكلمة الحكمة ضالَّة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحقُّ بها». وقال: إنه غريب، وإبراهيم يُضعَّف.

---

(١) سعيد الشامي، وهو تابعي يروي عن ثوبان، فالحديث مرسل.

(٢) تهذيب اللغة ٤/ ٨٥. وفي المطبوعة: فساد العقل، بالفاء، وأثبتنا ما في التهذيب، حيث نقل عن ثعلب قوله: الأحمق مأخوذ عن انحماق السوق: إذا كسدت، فكأنه فسد عقله حتىٰ كسد.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٤١٧ وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل المخزومي يضعف في الحديث من قبل حفظه.

وعند البيهقي في المدخل[١] من حديث سعيد بن أبي بُرْدة قال: كان يقال: الحكمة ضالة المؤمن، يأخذها حيث وجدها.

وقد تقدم شيء من ذلك في أول الكتاب.

وفي شرح المناوي على الجامع الصغير[٢]: قال النووي[٣] رحمه الله تعالى: في الحكمة أقوال كثيرة مضطربة، اقتصر كلٌّ من قائليها على بعض صفاتها، وقد صفا لنا منها أنها عبارة عن العلم المتصف بالأحكام، المشتمل على المعرفة بالله، المصحوب بنفاذ البصيرة وتهذيب النفس والأخلاق وتحقيق الحق والعمل به، والصد عن اتِّباع الهوى والباطل، والحكيم مَن له ذلك.

(ويتقلَّد المنَّة) أي الشكر **(لمَن ساقها إليه)** أي أوصلها له **(كائنًا مَن كان)** وقد روى العسكري من حديث عنبسة بن عبد الرحمن عن شبيب بن بشير عن أنس رفعه: «العلم ضالة المؤمن، حيث وجدها أخذها».

وعند القضاعي[٤] في آخر هذا الحديث: «حيثما وجد المؤمن ضالته فليجمعْها إليه».

ويُروَى عن ابن عمر رفعه: «خذ الحكمة، ولا يضرك من أيِّ وعاء خرجت»[٥].

ونحو هذا يُروَى من قول عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

---

(١) المدخل إلى السنن الكبرى ٢/ ٢٩٣.

(٢) فيض القدير ٣/ ٤١٧.

(٣) شرح صحيح مسلم ٢/ ٤٤ نقلا عن كتاب صيانة صحيح مسلم لأبي عمرو ابن الصلاح ص ٢١٤ (ط - دار الغرب الإسلامي).

(٤) مسند الشهاب ١/ ١١٩ من حديث زيد بن أسلم مرسلا.

(٥) أخرجه الديلمي في فردوس الأخبار ٢/ ٢٦٨.

قال العسكري: أراد ﷺ أن الحكيم يطلب الحكمة أبدًا وينشدها، فهو بمنزلة المضلِّ ناقته يطلبها.

ثم أسند عن مبارك بن فضالة قال: خطب الحجَّاج فقال: إن الله أمرنا بطلب الآخرة، وكفانا مؤنة الدنيا، فليته كفانا مؤنة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا. فقال الحسن: ضالة مؤمن عند فاسق فليأخذها.

وعن يوسف بن أسباط قال: كنت مع سفيان الثوري وخازم بن خزيمة يخطب، فقال في خطبته: إن يومًا أسكر الكبار وشيَّب الصغار لَيومٌ عسير، شرُّه مستطير. فقال سفيان: حكمة من جوف خَرِبٍ. ثم أخرج شريحة - يعني لوحًا - فكتبها؛ نقله السخاوي في المقاصد[1].

ومن كلام عليٍّ رضي الله عنه: انظر إلىٰ ما قال، ولا تنظر إلىٰ مَن قال.

ومن أمثالهم المشهورة: العق العسل ولا تَسَلْ.

(**ولذلك قيل**) فيما مضىٰ:

العلم حرب للفتىٰ المتعالي ... كالسيل حربٌ للمكان العالي[2]

أي إن العلم عدو المتكبِّر، حرب عليه، لا يجتمعان معًا، والمتعالي هو المفتخر المتكبِّر بما عنده، كما أن السيل عدو المكان المرتفع المحدوب؛ فإنه لم يزل بأمواجه وهيجانه حتىٰ يوطئه، وذلك مشاهَد (**فلا يُنال العلم**) يا أخي (**إلا بالتواضع**) والتملق والانقياد للمعلم (**وإلقاء السمع**) وهذا شرط ثانٍ بعد التواضع؛ فإنه إذا انقاد وتملَّق له ولكنه لم يُلْقِ سمعه لِما يقوله لم يستفِدْ شيئًا (**قال الله تعالىٰ**) في كتابه العزيز: (﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ

(١) المقاصد الحسنة ص ١٩١ - ١٩٢.

(٢) لم أقف علىٰ قائله.

شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق:٣٧]) قال الراغب[(١)] والسمين[(٢)] في تفسير قوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي عقل وفهمٌ، وقد يعبَّر بالقلب عن المعاني التي تختص به من العلم، وعليه خرجت الآيةُ، وإلقاء السمع هو الإصغاء بأذن قلبه، وهو شهيد، أي يشهد ما يسمعه بقلبه علىٰ ضد[(٣)] مَن قيل فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت:٤٤].

وقال ابن القيم[(٤)]: تأمَّلْ ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم، وكيف تفتح مراعاتُها للعبد أبوابَ العلم والهدىٰ، وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها؛ فإنه سبحانه ذكر أن آياته [المتلوة] المسموعة والمرئية المشهودة إنما تكون تذكرة لمَن كان له قلب؛ فإنَّ مَن عَدِمَ القلبَ الواعي عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه ولو مرت به كلُّ آية[(٥)]، فإذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات فهو يراها، ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين:

أحدهما: أن يُحضِره ويُشهِده لِما يلقَىٰ إليه، فإذا كان غائبًا عنه مسافرًا في الأماني والشهوات والخيالات لا ينتفع به، فإذا أحضره وأشهده لم ينتفع إلا بأن يلقِي سمعه ويصغي بكلِّيته إلىٰ ما يوعظ به [ويرشد إليه][(٦)].

قال ابن عطية[(٧)]: القلب هنا عبارة عن العقل؛ إذ هو محلُّه. وقال بعض

---

(١) المفردات ص ٢٦٩، ٤١١، ٤٥٤.

(٢) عمدة الحفاظ ٢/ ٢٩٩، ٣/ ٣٣٠، ٤/ ٣٨.

(٣) في المطبوعة والعمدة: حد. والمثبت من المفردات.

(٤) مفتاح دار السعادة ١/ ٥١٢ - ٥١٦ باختصار. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٥) بعده في المفتاح: ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم ومرورها علىٰ من لا بصر له.

(٦) بعده في المفتاح: وههنا ثلاثة أمور، أحدها: سلامة القلب وصحة قبوله. الثاني: إحضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق. الثالث: إلقاء السمع وإصغاؤه والإقبال علىٰ الذكر. فذكر الله تعالىٰ الأمور الثلاثة في هذه الآية.

(٧) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ص ١٧٥٧ (ط - دار ابن حزم).

المتأوِّلين في معنىٰ «وهو شهيد»: أي شاهد، مُقبِل علىٰ الأمر، غير مُعرِض عنه. وقال قتادة: هي إشارة إلىٰ أهل الكتاب، كأنه قال: لمَن سمعها من أهل الكتاب فشهد بصحتها؛ لعلمه بها، فـ«شهيد» علىٰ الأول من المشاهدة، وعلىٰ الثاني من الشهادة. وهذا القول عن قتادة نقله ابن عطية، وأشار له الزجاج[1] والزمخشري[2]، فلم يختلفوا في أن المراد بالقلب: القلب الواعي، وأن المراد بإلقاء السمع: إصغاؤه وإقباله علىٰ الذِّكر [وتفريغ سمعه له] وإنما اختلفوا في الشهيد علىٰ أربعة أقوال:

أحدها: أنه من المشاهَدة، وهي الحضور، وهذا أصح الأقوال، ولا يليق بالآية غيرُه.

والثاني: أنه من الشهادة. وفيه علىٰ هذا ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه شاهدٌ علىٰ صحته بما معه من الإيمان.

الثاني: أنه شاهدٌ من الشهداء علىٰ الناس يوم القيامة.

الثالث: أنه شهادة من الله عنده علىٰ صحة نبوة رسول الله ﷺ بما علمه من الكتب المنزَّلة.

والصواب القول الأول؛ فإنه قوله: «وهو شهيد» جملة حاليَّة، والواو فيها واو الحال، أي: ألقىٰ السمعَ في هذه الحال، وهذا يقتضي أن يكون حال إلقائه السمع شهيدًا، وهذا من المشاهدة والحضور، ولو كان المراد به الشهادة في الآخرة أو في الدنيا لَما كان لتقييدها بإلقاء السمع معنىٰ؛ إذ يصير الكلام: إن في ذلك لآيةٌ لمَن كان له قلب أو ألقىٰ السمع حالَ كونه شاهدًا بما معه في التوراة أو حال كونه شاهدًا يوم القيامة. ولا ريب أن هذا ليس هو المراد بالآية. وأيضًا، فالآية عامة في

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/ ٤٨.

(٢) الكشاف ٥/ ٦٠٤، وقد نقل ابن القيم نصوص ابن عطية والزجاج والزمخشري بتمامها في المفتاح، غير أن الشارح اختصر نص ابن عطية، واكتفىٰ بالإشارة إلىٰ كلام الزجاج والزمخشري.

كل من له قلب وألقىٰ السمع، فكيف يُدَّعَىٰ تخصيصها بمؤمني أهل الكتاب الذين عندهم شهادة في كتبهم علىٰ صفة النبي ﷺ؟! وأيضًا، فالسورة مكية، والخطاب فيها لا يجوز أن يختص بأهل الكتاب ولا سيَّما مثل هذا الخطاب الذي عُلِّق فيه حصول مضمون الآية ومقصودها بالقلب الواعي وإلقاء السمع، فكيف يقال: هي في أهل الكتاب؟!

فإن قيل: المختص بهم قولُه: «وهو شهيد»، فهذا أفسدُ وأفسدُ؛ لأن قوله «وهو شهيد» يرجع الضمير فيه إلىٰ جملة مَن تقدم وهو «من له قلب أو ألقىٰ [السمع]»، فكيف يُدَّعَىٰ عَوْدُه إلىٰ شيء غايته أن يكون بعض المذكور أولاً ولا دلالة في اللفظ عليه، فهذا في غاية الفساد. وأيضًا، فإن المشهود به محذوف، ولا دلالة في اللفظ عليه، فلو كان المراد: وهو شاهد بكذا، لذكر المشهود به؛ إذ ليس في اللفظ ما يدل عليه، وهذا بخلاف ما إذا جُعل من الشهود وهو الحضور؛ فإنه لا يقتضي مفعولاً مشهودًا به فيتم الكلامُ بذكره وحده. وأيضًا، فإن الآية تضمنت تقسيمًا وترديدًا بين قسمين، أحدهما: مَن كان له قلب، والثاني: مَن ألقىٰ السمع وحضر بقلبه ولم يغِب، فهو حاضر القلب، شاهده لا غائبه، وهذا -والله أعلم- سرُّ الإتيان بـ «أو» دون الواو.

وإلىٰ هذا أشار المصنف، حيث قال: (**ومعنىٰ كونه ذا قلب: أن يكون قابلاً للعلم**) باستعداده الأزلي ومحلاً له (**فَهِمًا**) بحسن إدراكه وتصوُّره، قادرًا عليه (**ثم لا تغنيه القدرة علىٰ الفهم**) أي لا يكفيه مجرَّد استعداده وإدراكه لِما يُلقَىٰ إليه (**حتىٰ يُلقِي السمعَ**) بحسن إصغائه مع التدبُّر (**وهو شهيد**) أي (**حاضر القلب**) غير غائبه (**ليستقبل**) بثواقب أذهانه الصافية (**كلَّ ما أُلقِيَ إليه**) من المعلم (**بحسن الإصغاء**) أي الاستماع (**والضراعة**) أي التواضع (**والشكر**) في مقابلة هذه النعمة بل النعم؛ فإن الطالب إذا تفكَّر في نفسه بأن الله تعالىٰ أراد به خيرًا حيث وفَّقه من الأزل لطلب ما ينجيه من عذابه ويوصله إليه ثم يتفكر بأنه أنعم عليه بالعقل والفهم وتوجُّه

القلب إلىٰ تعلُّم ذلك فيجدها كلها نعمًا جليلة مطوية في مضمرها نعمٌ أخرىٰ (و) إذا انصبغ بهذا المعنىٰ ظهرت عليه أمارات (الفرح) والسرور اللذينِ هما صقيلا الفهم؛ فإن الطالب إذا فهم بين يدي معلمه ما يقوله ظهر السرور في وجهه، وهذه علامة وقوعه علىٰ القلب وقبوله له من حيث الفهم، ويُحكَىٰ أن جالينوس كان يقرِّر يومًا في مسألة مشكلة، والطلبة به محدقون، فقال لهم: فهمتم؟ قالوا: نعم. قال: لا، لو فهمتم لظهر السرور علىٰ وجوهكم (**وقبول المنَّة**) من المعلم باب كبير للمتعلم، وهو في معنىٰ الضراعة للمعلم؛ فإنه إن لم يقبل منة أستاذه بقي علىٰ جهله (**فليكن المتعلم لمعلمه**) أي بين يديه كالريشة الملقاة في الفَلاة تقلِّبها الرياح كيف شاءت، أو الحشيشة اليابسة في الماء الجاري تجري بها الأمواج حيث أرادت، أو الميت بين يدي الغاسل يحركه كيف شاء، أو (**كأرض ميتة**) أي جدبة (**نالت مطرًا غزيرًا فتشرَّبته جميعُ أجزائها**) وعروقها (**وأذعنت**) أي انقادت (**بالكلية لقبوله**) وهذا يستدعي إلىٰ فراغ ذهنه عما يخالفه علىٰ حد قولهم:

فصادف قلبًا خاليًا فتمكَّنا[(١)]

حتىٰ يتم التشبيهُ بما ذكره الشيخ. ونص الذريعة[(٢)]: الثالث: أن لا يتكبَّر علىٰ معلمه، ولا علىٰ العلم

فالعلم حرب للمتعالي كالسيل حرب للمكان العالي

ولهذا قيل: العلم لا يعطيك بعضه ... الخ. وهذه الجملة بتمامها قد ذكرها المصنف في التي قبلها، ثم قال الراغب: ومتىٰ لم يكن المتعلم من معلمه كأرض دمثة نالت مطرًا غزيرًا فتتلَّقاه بالقبول لم ينتفع به، فحقُّه أن يضرع[(٣)] له، كما قال

---

(١) تقدم في الباب الثاني.

(٢) الذريعة ص ١٤٩ - ١٥٠.

(٣) في المطبوعة: يتفرغ. والمثبت من الذريعة.

تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق:٣٧] أي لِمَن له بنفسه علمٌ يستغني به أو تذلُّل لاستماع الحق واقتباسه من عند المعلم[1]. وقال بعض العلماء في قوله ﷺ: «اليد العليا خيرٌ من اليد السفلىٰ»: إشارة إلىٰ فضل المعلم علىٰ المتعلم، وفي تبيين فضل المعلم حثٌّ المتعلم علىٰ الانقياد له.

(ومهما **أشار عليه المعلم**) وفي معناه المرشد في المواضع كلها (**بطريق**) من الطرق (**في التعلُّم**) خاص به أو عام (**فليقلِّده**) وليهتدِ به (**وليَدَعْ**) أي يترك (**رأيه**) وإن كان صوابًا (**فإنَّ خطأ مرشده**) علىٰ الفرض والتقدير (**أنفع له من صوابه في نفسه**) بحسب الظاهر (**إذ التجربة**) في الأشياء كلها (**تُطلِع**) الإنسان (**علىٰ دقائق**) ونِكات (**يُستغرَب سماعها**) ولذلك قيل: مَن جرَّب المجرَّب حلَّت به الندامة[2]. وقال آخَر: سَلِ المجرِّب ولا تسأل طبيبًا. وقالوا: أكبر منك بشهر أعقل منك بسنة (**مع أنه يعظُم نفعُها**) في الحقيقة (**فكم من مريض محرور**) المزاج إذا أصابه المرض (**يعالجه الطبيب**) الحاذق (**في بعض أوقاته بالحرارة**) أي بالأدوية الحارة (**ليزيد في قوَّته إلىٰ**) أن يصل إلىٰ (**حدٍّ يحتمل صدمة العلاج**) فيعالجه بما يزيل الحرارة ويقطعها عنه استئصالاً، وذلك لأن الأدوية المبرِّدة إذا وردت علىٰ حرارة ضعيفة صدمتها فجأةً ولم تحتملها، فربما أورث ذلك إلىٰ أمراض أُخَر عَسِرة البُرْء (**فيتعجب منه مَن لا خبرة له به**) ولا علم في دقائق الطب والأطباء. ونص الذريعة: وكما أن من حق المريض أن يَكِل إلىٰ الطبيب الناصح الذي وقف علىٰ دائه ليطلب الطبيب دواءه وغذاءه[3] فإنه إن يشته لم يشته إلا ما فيه دواؤه، ولم يختر إلا ما فيه شفاؤه، كذلك [من] حق المتعلم إذا وجد معلمًا ناصحًا أن يأتمر له، ولا يتأمَّر

---

(١) في الذريعة: ممن عنده العلم.

(٢) ذكره الميداني في مجمع الأمثال ٢/ ٣٢٩ في قسم أمثال المولدين.

(٣) في المطبوعة: وعزله. والمثبت من الذريعة.

عليه، ولا يُرادّه فيما ليس بصدد تعلُّمه (وقد نبَّه الله تعالىٰ) في كتابه العزيز علىٰ الحرص علىٰ لقاء العالِم وعلىٰ التعلم منه ثم علىٰ آدابه التي يستعملها عند لقائه (بقصة الخَضِر وموسىٰ عليهما السلام) ونص الذريعة: وكفىٰ علىٰ ذلك تنبيهًا ما حكىٰ الله تعالىٰ عن العبد الصالح أنه قال لموسىٰ ... الخ. ا.هـ. وذلك فيما رُوي[١] أن موسىٰ عليه السلام خطب الناس بعد هلاك القبط ودخول مصر خطبة بليغة، فأُعجب بها، فقيل له: هل تعلم أحدًا أعلم منك؟ فقال: لا. فأوحىٰ الله إليه: بل [أعلم منك] عبدنا الخضر، وهو بمجمع البحرين. وكان الخضر في أيام أفريدون، وكان علىٰ مقدمة ذي القرنين الأكبر، وبقي إلىٰ أيام موسىٰ. وقيل: إن موسىٰ سأل ربه: أيُّ عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: فأيُّ عبادك أقضَىٰ؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتَّبع الهوىٰ. قال: فأيُّ عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلىٰ علمه عسىٰ أن يصيب كلمة تدلُّه علىٰ هدًىٰ أو تردُّه عن رَدىٰ. فقال: إن كان في عبادك أعلم مني فدلَّني عليه. قال: أعلم منك الخضر. قال: أين أطلبه؟ قال: علىٰ الساحل عند الصخرة. قال: كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتًا في مكتل، فحين فقدتَه فهو هناك (حيث قال الخضر) عليه السلام حين[٢] رحل إليه سيدنا موسىٰ عليه السلام ليزداد علمًا إلىٰ علمه وقال لفتاه: لا أبرح حتىٰ أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حُقُبًا. حرصًا منه علىٰ لقائه والتعلُّم منه، فلما لقيه سلك [معه] مسلك المتعلم مع معلمه، فبدأه بعد السلام بالاستئذان علىٰ متابعته، وأنه لا يتَّبعه إلا بإذنه، وقال له: هل أَتَّبعك علىٰ أن تعلمني مما عُلِّمتَ رشدًا. فلم يجئ ممتحنًا ولا متعنِّتًا، وإنما جاء متعلمًا مستزيدًا علمًا إلىٰ علمه. فلما لقيه وعرَّفه بنفسه، قال له الخضر: (إنك لن تستطيع معي صبرًا) نفىٰ[٣] عنه استطاعة الصبر معه علىٰ وجوه من التأكيد كأنها

---

(١) تفسير البيضاوي ٣/ ٢٨٦. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

وانظر: تفسير أبي السعود ٣/ ٥٣٥ - ٥٤٢. تفسير روح البيان لإسماعيل حقي ٥/ ٢٦٢ - ٢٨٣.

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/ ٢٣٦.

(٣) تفسير البيضاوي ٣/ ٢٨٨.

مما لا يصح ولا يستقيم، وعلَّل ذلك واعتذر عنه بقوله: **(وكيف تصبر علىٰ ما لم تُحِط به خُبْرًا)** أي: وكيف تصبر وأنت نبي علىٰ ما أتولَّىٰ من أمور ظواهرها مناكير وبواطنها لم يُحِط بها خُبْرُك، وحينئذٍ قال في الجواب: ستجدني إن شاء الله صابرًا، أي معك غير منكِر عليك، ولا أعصي لك أمرًا. فعلَّق وعده بالمشيئة إما للتيمُّن أو لعلمه بصعوبة الأمر؛ فإن مشاهدة المَفاسد والصبر علىٰ خلاف المعتاد شديدٌ فلا خلاف فيه **(ثم شرط عليه السكوت والتسليم)** والإذعان، كما هو عادة المعلِّم مع متعلمه **(فقال: فإن اتبعتَني)** كما أمرتُك **(فلا تسألني)** أي لا تفاتحني بالسؤال **(عن شيء)** أنكرتَه مني ولم تعلم وجه صحته **(حتىٰ أُحدِث لك منه ذِكرًا)** أي حتىٰ أبتدئك ببيانه **(ثم)** لما انطلقا إلىٰ الساحل يطلبان السفينة، فلما ركباها أخذ الخضر فأسًا فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها **(لم يصبر)** علىٰ ذلك حتىٰ سأله، فاعتذر له وقال: لا تؤاخذني بما نسيتُ، أي لا تعترض عليَّ بنسياني إياها[(١)]، وهو اعتذار بالنسيان أخرجه في معرض النهي عن المؤاخذة مع قيام المانع لها. وقيل: أراد بالنسيان: الترك، أي لا تؤاخذني بما تركتُ من وصيَّتك أولَ مرة. وقيل: هو من معاريض الكلام، والمراد شيء آخر نسيه **(ولم يزل في مُرادَدته)** ثانيًا وثالثًا بقتل الغلام وإقامة الجدار بغير أجرة وإنكاره عليه فيهما، ثم طلب العذر من قِبَله لمَّا خالفه ثلاث مرات بعدم مصاحبته له **(إلىٰ أن كان ذلك سبب فراق ما بينهما)** وهو المفهوم من قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨] الإشارة إلىٰ الفراق الموعود بقوله: فلا تصاحبني، أو إلىٰ الاعتراض الثالث أو الوقت[(٢)]، وإضافة الفراق إلىٰ البَيْن إضافة المصدر إلىٰ الظرف علىٰ الاتساع.

ويُروَىٰ عن النبي ﷺ قال: «رحم الله أخي موسىٰ استحيا فقال ذلك، ولو

---

(١) عبارة البيضاوي: «بما نسيت: بالذي نسيته أو بشيء نسيته، يعني وصيته بأن لا يعترض عليه أو بنسياني ...» الخ.

(٢) بعده في تفسير البيضاوي: أي هذا الاعتراض سبب فراقنا، أو هذا الوقت وقته.

لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب»[١].

قال ابن القيم[٢]: وكفىٰ بهذا شرفًا وفضلاً للعلم؛ فإن نبي الله وكليمه سافر ورحل حتىٰ لقي النَّصَب في سفره في تعلُّم ثلاث مسائل من رجل عالِم، ولمَّا سمع به لم يَقَرَّ له قرارٌ حتىٰ لقيه وطلب منه متابعته وتعليمه، وفي قصتهما عِبَر وآيات وحِكَم ليس هذا موضع ذِكرها.

(**وبالجملة**) أي حاصل الكلام أن (**كل متعلم**) في أيِّ علم كان إن (**استبقىٰ لنفسه رأيًا واختيارًا**) يراه به ويختاره (**دون اختيار المعلم فاحكم عليه**) قطعًا (**بالإخفاق**) أي الخيبة والحرمان (**والخسران**) نعوذ بالله من الخذلان.

(**فإن قلت**) إن المتبادر إلىٰ الأذهان في قصة الخضر وموسىٰ عليهما السلام عدم السؤال، حيث شرط الخضر علىٰ موسىٰ السكوت والتسليم، وقوله: فلا تسألني عن شيء، حيث دل علىٰ عدم المفاتحة بالسؤال، وهذا علىٰ ظاهره غير متَّجه (**فقد قال الله تعالىٰ**) في موضع آخَر من كتابه العزيز: (﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾) أي أهل العلم (﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧] **فالسؤال مأمور به**) بمقتضىٰ هذه الآية، وكذلك الخبر الذي من طريق أهل البيت: العلم خزائن، ومفتاحها السؤال. والخبر الآخَر: لا ينبغي للجاهل أن يستقر علىٰ جهله، ولا للعالِم أن يسكت علىٰ علمه. وقال ذو النون المصري[٣]: حُسنُ سؤال الصادقين مفتاح قلوب العارفين

---

(١) أخرجه بهذا السياق: أبو داود في سننه ٤/ ٣٧٢ والنسائي في السنن الكبرىٰ ١٠/ ١٦٥ وابن حبان في صحيحه ٢/ ٢٦٨ من حديث أبي بن كعب، ولفظه: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر أحدًا من الأنبياء فدعا له بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: «رحمة الله علينا وعلىٰ موسىٰ، لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب العجاب، ولكنه قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدنىٰ عذرًا». وهو في البخاري ومسلم بنحوه.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٣٦.

(٣) قوت القلوب ١/ ٢٦٥.

(فاعلم) أيها السالك **(أنه كذلك)** أي ما ذكرتَه صحيح، وأن السؤال مطلوب؛ لِما ورد: «شفاء العِيِّ السؤالُ»[١] **(ولكن)** ليس في كل حال **(فيما يأذن)** به **(المعلم في السؤال عنه)** ويرىٰ شفاء جهله به **(فإن السؤال إلىٰ ما لم تبلغ)** عدَّاه بـ«إلىٰ» لتضمُّن السؤال معنىٰ الاحتياج، أي عما لا تصل **(مرتبتُك)** ومقامك **(إلىٰ فهمه)** وإدراكه **(مذموم)** كالعويصات والغوامض التي لا يدركها إلا العارفون الكاملون، وليس للمبتدئ الخوض في مسالكها **(ولذلك)** أي لهذا السر **(منع الخضر موسىٰ عليهما السلام من السؤال)** أي عن مفاتحه؛ فإن إفشاء سر الربوبية صعب **(أي دَعِ السؤال قبل أوانه)** فمَن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه، ولذلك قيل: لو صبر موسىٰ عليه السلام لأبصر أعجب العجائب، كما ورد **(فالمعلم أعلمُ بما أنت أهله)** لتلقِّيه **(وبأوان الكشف)** عن مَضاربه **(وما لم يدخل أوانُ الكشف)** عن الأسرار **(في كل درجة من مَراقي الدرجات)** في الحضرات الإلهية **(لا يدخل أوانُ السؤال عنه)** فلا يؤذَن للمعلم بالكشف عن تلك الأحوال.

ونص الذريعة[٢]: وقول الله تعالىٰ: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠﴾ [الكهف: ٧٠] نهي عن المراجعة، وليس ذلك نهيًا عن الذي حثَّ تعالىٰ عليه بقوله: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ وذلك [لأن] النهي إنما هو نهي عن نوع من العلم الذي لم يبلغ منزلته بعدُ، والحث إنما هو عن سؤال تفاصيل ما خفي عليه من النوع الذي هو بصدد تعلُّمه، وحق مَن هو بصدد

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ١/ ٣١٦ من حديث جابر بن عبد الله، ولفظه: خرجنا في سفر، فأصاب رجلًا معنا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر علىٰ الماء. فاغتسل فمات، فلما قدمنا علىٰ النبي ﷺ أخبر بذلك، فقال: «قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر علىٰ جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده».

ورواه ابن ماجه في سننه ١/ ٤٥٨ من حديث ابن عباس بنحوه.

(٢) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ص ١٥٠. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

تعلُّم علم من العلوم أن لا يصغي إلىٰ الاختلافات المشكِّكة [والشُّبَه الملتبسة] ما لم يتهذَّب في قوانين ما هو بصدده؛ لئلا تتولَّد له شبهة تصرفه عن التوجُّه فيه فيؤدي [ذلك به] إلىٰ الارتداد.

كيف (**وقد قال**[1] **علي**) بن أبي طالب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وكرَّم وجهه فيما رُوي عنه فيما يجب علىٰ المتعلم لمعلمه: (**إن من حق العالِم**) الكامل المرشد إلىٰ الله تعالىٰ بأنوار علومه (**أن لا تُكثِر عليه في السؤال**) لأن كثرة السؤال تُسقِط حرمتَه عنده، بل تكون سببًا لغرور النفس ولا سيَّما إذا كان علىٰ الملأ (**ولا تُعنِته في الجواب**) أي لا تشدِّد عليه فيه وتُلزِمه بما يصعب عليه؛ هذا معنىٰ التعنُّت في الأصل، كما قاله ابن الأنباري[2] (**ولا تلحَّ عليه**) من الإلحاح (**إذا كسل**) وفتر عن أداء الجواب لعذرٍ ما. أو هو بالجيم من اللجاج، والمعنىٰ صحيح (**ولا تأخذ بثوبه**) أي طرف ردائه وما أشبه ذلك (**إذا نهض**) إلىٰ القيام؛ فإنه يؤدي إلىٰ الضجر والتبرُّم (**ولا تُفْشِ له سرًّا**) عمن لا يحبه، ولذلك قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما حين سأله أن يتزوج ابنته حفصة حين تأيَّمت من خُنَيس بن حُذافة السهمي فصمت ولم يُجِب، وفي آخره: لم أكن

---

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ٥١٩ بسند ضعيف.

(٢) الزاهر في معاني كلام الناس لأبي بكر ابن الأنباري ١/ ٤٣٦ (ط - دار الشئون الثقافية العامة ببغداد) ونصه: «قولهم: قد تعنت فلان فلانا، وقد أعنته. قال أبو عبيدة: معنىٰ أعنته: أهلكه. وقال في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾: معناه: لأهلككم. وقال في موضع آخر: أعنتكم معناه: أضر بكم. وقال: العنت: الضرر، واحتج بقول الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾. وقال أبو جعفر أحمد ابن عبيد: معنىٰ أعنت فلان فلانا: شدد عليه، والعنت: التشديد. وأنشد الفراء:

ألـم تسـأل الأنفـيَّ يـوم يقـودني ويزعـم أني مبطـل القـول كاذبـه

أحـاول إعنـاتي بمـا قـال أم رجـا ليضحك مني أم ليضحك صاحبه

فمعناه: أحاول التشديد علي وما يؤدي إلىٰ هلاكي. وقال بعض أهل اللغة: معنىٰ أعنت فلان فلانـًا: كلفه ما يشتد عليه فيعنت. قال: وهو مأخوذ من قولهم: قد عنت البعير يعنَت عنتًا: إذا حدث في رجله كسر بعد جبر فلم يمكنه معه تصريفها. ويقال: أكمةٌ عنوتٌ: إذا كانت لا تجاز إلا بمشقة. والأنفي في البيت الذي أنشده الفراء منسوب إلىٰ بني أنف الناقة».

لأفشي سر رسول الله ﷺ. أي لأنه سمعه يذكرها، وقد أخرجه البخاري في النكاح وفي غزوة بدر[١].

وأخرج أبو نعيم في الحلية[٢] من رواية الشعبي عن ابن عباس قال: قال لي أبي: أيْ بني [إني] أرىٰ أمير المؤمنين يقرِّبك ويدعوك ويستشيرك مع أصحاب رسول الله ﷺ، فاحفظ عني ثلاث خِصال: اتقِ [الله] لا يجرِّبَن عليك كذبًا، ولا تفشينَّ له سرًّا، ولا تغتابنَّ عنده أحدًا. قال الشعبي: فقلت [لابن عباس]: كل واحدة خير من ألف. فقال: كل واحدة خير من عشرة آلاف.

(**ولا تغتابنَّ عنده**) أي في مجلسه، سواء كان الخطاب له أو لغيره ممَّن في مجلسه (**أحدًا**) من المسلمين، لا تصريحًا ولا تعريضًا (**ولا تطلبنَّ عثرته**) أي سقوطه، أي لا تكن رقيبًا تعدُّ عثراته في سائر أحواله (**وإن زلَّ**) عن إصابة الحق (**قَبِلتَ معذرته**) وحملتَه علىٰ العادة البشرية (**وعليك أن توقِّره**) وتبجِّله (**وتعظِّمه لله تعالىٰ**) لا لعلة أخرىٰ (**ما دام يحفظ أمر الله تعالىٰ**) متأدِّبًا بآداب الشريعة (**ولا تجلس**) في حضرته (**أمامه**) إلا عند التلقِّي، ولا فوقه إلا لعذر (**وإن كانت له حاجة**) عرضت من المهمات الدينية أو الدنيوية (**سبقتَ القوم إلىٰ خدمته**) وقضاء حاجته.

فهذه اثنا عشر جملة تضمنت الآداب، وكشفت عن وجه الحق النقابَ، والمقصود من إيراد هذا الكلام هو الجملة الأولىٰ المشتملة علىٰ النهي عن كثرة السؤال عليه، ومفهومها أن كثرة السؤال ليس بممنوع، وإنما الممنوع منه الكثرة الموجِبة لملل المعلم ولحدوث الغرور في نفس المتعلم، والمفهوم من سياق المصنف عدم المفاتحة بالسؤال عليه مطلقًا فيما لم يَأْنِ أوانُه، ولعله فهم من قول سيدنا عليٍّ في النهي عن كثرة السؤال في مثل هذا وأضرابه، فتأمَّلْ. وأما بقية الجُمَل فإنها دلت كذلك علىٰ جملة من الآداب، ساقها بتمامها؛ لِما فيها من الحِكَم

(١) صحيح البخاري ٣/ ٩٣، ٣٦٨.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٣١٨. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

والنصائح، وقد اندرج بيانها في أثناء هذه الوظائف التسعة، وقد اقتصر صاحب الذريعة علىٰ هذه الوظائف الثلاث، وزاد المصنف عليه ما سيأتي ذِكرُه.

(**الوظيفة الرابعة**) من الوظائف التسعة: (**أن يحترز الخائض في العلم**) أي الواغل في تحصيله، وقد تقدم مرارًا أن أصل الخوض هو الدخول في الماء، ثم استُعير لغيره (**في مبدأ الأمر**) أي في أوله (**عن الإصغاء**) أي الاستماع والميل (**إلىٰ اختلافات الناس**) وتشعُّب آرائهم (**سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا**) كهذه العلوم التي ولع المتأخرون بتحصيلها وسموها بزعمهم أسبابًا موصلة إلىٰ علوم الآخرة (**أو من علوم الآخرة**) كعلم معرفة القلب وما يَرِد عليه وعلم محاسبة النفس والدقائق وغير ذلك (**فإن ذلك**) أي النظر إلىٰ اختلاف الناس فيه (**يُذهِل**) وفي نسخة: يُذهِب (**عقله**) بتشتُّته (**ويحيِّر ذهنه**) بالوساوس (**ويفتر رأيَه**) عن الإقبال إلىٰ الحق (**ويؤيِّسه عن الإدراك**) الحقيقي (**والاطِّلاع**) لِما هو بصدده، وكلٌّ من الذهول والتحيُّر وفتور الرأي واليأس من أسباب الحرمان للطالب (**بل ينبغي أن يتقن أولاً الطريقة الحميدة الواحدة**) أي يُحكِمها في عقله بقوة همَّته وصرفِ جهده إلىٰ تحصيلها، وهي (**المَرْضية عند أستاذه**) المقبولة لديه (**ثم بعد ذلك**) أي بعد إتقانها وحلولها في القلب قبل كل شيء كالأساس المحكَم، علىٰ حد قولهم:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوىٰ فصادف قلبًا خاليًا فتمكَّنا

(**يصغي إلىٰ**) معرفة اختلافات (**المذاهب**) وكيفية حججها ودلائلها (**والشُّبَه**) وتقريرها وكيف ردُّها (**وإن لم يكن أستاذه**) أي معلمه (**مستقلاً باختيار رأي واحد**) ولا متضلِّعًا في تلك الطريقة التي يتعلمها منه (**وإنما عادته**) وطريقته (**نقلُ المذاهب**) إلىٰ أقوالها (**وما قيل فيها**) من الحجج والبراهين (**فليحذرْ منه**) الطالب ولا يصاحبه (**فإن إضلاله أكثر من إرشاده**) فإن كل متعلم يحذو حذو معلمه، فإذا كان المعلم بذلك الوصف فهو كالمتحير الذي لا يبصر الطريق، فمتىٰ حذاه المتعلمُ وصار ينقل طريقته فهو في الحيرة أكثر، فاستمر الإضلالُ إلىٰ ما

شاء الله تعالىٰ، ولذا مُنع فيما سبق من الزمان من تدريس العلوم من لم يتدرب بين يدي الرجال ولم يتقنه الأبطال خوفًا بأن يضر العوامَّ ويهلك بجهله الطغامُ **(فلا يصلح الأعمىٰ لقود العميان وإرشادهم)** أي لا يصلح الجاهلُ لإرشاد الجُهَّال، ولذلك قيل:

ومن عجب الدنيا طبيب مصفر وأعمش كحَّال وأعمىٰ منجِّم[1]

(ومَن هذا حاله) فهو **(يُعَدُّ في عمىٰ الحيرة وتيه الجهل)** فلا يصلُح منه الإرشاد والتسليك بحال من الأحوال، ولهذا فسد الأوانْ وعمَّ الطغيان، وقد ورد في الحديث: «إذا وُسِّد الأمر إلىٰ غير أهله فانتظروا الساعة»[2] **(ومنعُ المبتدئ)** في العلوم **(عن الشُّبَه)** والغوامض **(يضاهي)** أي يشبه **(منع الحديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار)** ومجالستهم كي لا يسري إليه بعضُ تهويلاتهم فيتمكَّن في قلبه لضعفه **(وندب القوي)** في العلم، أي حثَّه وحمله **(إلىٰ النظر في الاختلافات)** مع كثرتها **(يضاهي حث القوي)** الكامل أداة سلاحه **(علىٰ مخالطة الكفار)** إذ قد تمكَّن فيه العلم بالله تعالىٰ، فلا تزلزله عقائد الكفار، فلو خالطهم لم يضرُّوه بتمويهاتهم وتهويلاتهم **(ولذلك يُمنع العاجز)** وهو عادم القوة الجبان **(عن التقحُّم)** أي الدخول. وفي نسخة: عن التهجُّم **(علىٰ صف الكفار)** وهم أقوياء **(ويُندَب الشجاع له)** أي للتقحُّم لشجاعته وقوته. وهذا السياق في كتاب الذريعة، ونصه[3]: وحق مَن هو بصدد تعلُّم علم من العلوم أن لا يصغي إلىٰ الاختلافات المشكِّكة والشُّبَه الملتبسة ما لم يتهذَّب في قوانين ما هو بصدده؛ لئلاَّ تتولَّد له شبهةٌ تصرفه عن التوجُّه فيه، فيؤدي ذلك [به] إلىٰ الارتداد، ولذلك نهىٰ الله سبحانه من لم

---

(١) لم أقف علىٰ قائله، وهو متداول في كتب الشيعة خاصة، وبعده بيت آخر وهو:

وقارئنا تركي وهندي خطيبنا تعالوا علىٰ الإسلام نبكي ونلطم

(٢) تقدم هذا الحديث في الباب الرابع.

(٣) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ص ١٥١. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

يكن بقوي في الإسلام عن مخالطة الكفار، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: ١٨١] وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٧٧﴾ [المائدة: ٧٧] ومن أجل ذلك كُره للعامَّة أن يجالسوا أهل الأهواء [والبدع] لئلا يغووهم، والعامِّي إذا خلا بذوي البدع فكالشاة إذا خلت بالسبع. وقال بعض الحكماء: إنما حرَّم الله تعالىٰ في الابتداء لحم الخنزير؛ لأنه تعالىٰ أراد أن يقطع العصمة بين العرب وبين الذين كانوا يشككونهم باجتماعهم معهم من اليهود والنصارىٰ، فحرَّم علىٰ المسلمين ذلك؛ إذ هو معظم مأكولاتهم، وعظَّم الأمرَ في تناوله ومسِّه؛ لينتهي[1] المسلمون عن الاجتماع [معهم] في المؤاكلة والأنس، وقال ﷺ في المؤمن والكافر: «لا تتراءىٰ ناراهما» لذلك، وأما الحكيم فإنه لا بأس بمجالسته إياهم؛ فإنه جارٍ مجرىٰ سلطان ذي عدَّة وأجناد وعتاد لا يُخاف عليه العدو حيثما توجَّه [ولهذا جوز] له الاستماع إلىٰ الشُّبَه، بل أوجب عليه أن يتتبَّع بقَدْر جهده كلامَهم ويسمع شُبَهَهم؛ ليجاهدهم [ويجادلهم] ويدافعهم، فالعالِم أفضل المجاهدين الذابِّين عن الدين، فالجهاد جهادان: جهاد باللسان[2] وجهاد بالبنان، ولِما تقدم سمىٰ اللهُ تعالىٰ الحُجَّة سلطانًا في غير موضع من كتابه [العزيز] كقوله تعالىٰ حكايةً عن موسىٰ ﷺ: ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٩﴾ [الدخان: ١٩].

(ومن الغفلة) الظاهرة (عن هذه الدقيقة) الفاخرة (**ظن بعض الضعفاء**) أي ضعفاء العقول (**أن الاقتداء**) أي الاتِّباع (**بالأقوياء**) أي أصحاب القوىٰ الراسخة (**فيما يُنقَل عنهم**) ويُروَىٰ (**من المساهلات**) في الأعمال والأقوال (**جائز، ولم يَدْرِ**) وفي نسخة: ولم يدرك (**أن وظائف الأقوياء تخالف وظائف الضعفاء**) وذلك بحسب اختلاف مقاماتهم وقُرْبهم من الحضرة وبُعْدِهم، فكما لا يُقاس أحدهما

---

(١) في الذريعة: ليتنزه.

(٢) في الذريعة: بالبيان.

بالآخَر فكذلك لا تُقاس وظائفهما (**ولذلك قال بعضهم**) أي من العارفين: (**مَن رآني**) أي أبصرني بعين اعتباره مع الاتِّباع لطريقتي (**في البداية**) أي في أول السلوك (**صار صِدِّيقًا**) أي بلغ هذه المرتبة العلية وهي مرتبة التكاليف الشاقة (**ومن رآني في النهاية**) أي في منتهىٰ سلوكي (**صار زنديقًا**) ثم علَّله بقوله: (**إذ النهاية تردُّ الأعمال إلىٰ الباطن**) فتكون العبادة كلها تفكُّرًا.

ونقل السراج البُلْقيني في شرحه علىٰ البخاري[1] قولاً لبعضٍ في أن عبادته ﷺ كانت الفكر، وقال غيره: معنىٰ قولهم «إن النهاية تردُّ الأعمال إلىٰ الباطن» أي يشتغل السالك حينئذٍ بالأذكار القلبية والأفكار في الصفات الإلهية والمصنوعات الآفاقية والأنفُسية، والتهذيب بالأخلاق السَّنية والشمائل البهية من الرحمة والتحمُّل والصبر والشكر والرضا والتفويض والتوكُّل والتحقُّق بحال الفناء ومقام البقاء، وهذا مقام كُمَّل الأصفياء.

(**وتُقبَض الجوارح**) وفي نسخة: وتسكن عن سائر الأعمال الشاقة (**إلا عن رواتب الفرائض**) وقد قيل: بداية الأنبياء نهاية الأولياء؛ هذا هو المعروف عند السادة الصوفية، وأما ما نُقل عن بعضهم من أن بداية الوليِّ نهاية النبي فإنما هو

---

(١) قال ملا علي القاري في كتاب جمع الوسائل في شرح الشمائل ٢/ ٦٥ (ط - البابي الحلبي): «قال السراج البلقيني في شرح البخاري: ولم يجئ في الأحاديث التي وقفنا عليها كيفية تعبده، لكن روىٰ ابن إسحاق وغيره أنه ﷺ كان يخرج إلىٰ حراء كل عام شهرًا يتنسك فيه، وكان من نسك قريش في الجاهلية أن يطعم الرجل من جاءه من المساكين، حتىٰ إذا انصرف من مجاورته لم يدخل بيته حتىٰ يطوف بالكعبة. وقيل: كانت عبادته التفكر. أقول: الظاهر - والله أعلم - أنه ﷺ كان متعبدا بالعبادات الباطنية من الأذكار القلبية والأفكار في الصفات الإلهية والمصنوعات الآفاقية والأنفسية والأخلاق السنية والشمائل البهية من الرحمة علىٰ الضعفاء، والشفقة علىٰ الفقراء، والتحمل من الأعداء، والصبر علىٰ البلاء، والشكر علىٰ النعماء، والرضا بالقضاء، والتسليم والتفويض والتوكل علىٰ رب الأرض والسماء، والتحقق بحال الفناء ومقام البقاء علىٰ منتهىٰ حال كمل الأولياء والأصفياء».

باعتبار التكاليف الشرعية من الأوامر الفَرْضية والزواجر المنهية، فما لم يتَّصف السالك بما انتهىٰ [إليه][١] أمر دينه ﷺ لم يدخل في باب الولاية، ولا يكون له حظ من حسن الرعاية وحفظ الحماية.

وهو تأويل حسنٌ إن صح هذا القول عنهم، ويشير إليه قول الجُنَيد رحمه الله تعالىٰ كما سبق: طريقتنا هذه مربوطة بالكتاب والسنَّة. ومن هنا قال بعض السادة: بدايتنا نهاية غيرنا (**فيتراءىٰ للناظر**) في أول وهلته (**أنها**) أي تلك الحالة (**بطالة وكسل**) وفتور عن الأعمال المأمور بها (**وإهمال**) لأصل العبادات (**وهيهات! فذلك**) الذي هو عليه هو بعينه (**مرابَطة للقلب**) الصنوبري عن حضور ما سوىٰ الله تعالىٰ (**في عين الشهود**) الإلهي (**والحضور**) القُرْبيّ، فهو قائم مع الحقيقة، ومَلْحَظه الفضل والتزام الحرمة، كما هو شأن أهل النهاية، كما أن شأن أهل البداية القيام مع الشريعة، ومَبنىٰ أمرهم علىٰ المجاهدة والخدمة، وشتَّان بين مقامَي المجاهَدة والمنَّة، فصاحب المجاهدة غارق في الفَرْق، وهو بمعاملته محجوب، وصاحب المنة غارق في الفضل، وهو في سائر حركاته وسكناته محبوب، إن نطق فبالله، وإن عمل فلله، وإن رجع فمن الله، وإن ذهب فإلىٰ الله، فهو بالله ولله ومن الله وإلىٰ الله، لا يعرف إلا الله، ولا يشهد إلا الله، كما قيل: مَن عرف الله شهده في كل شيء، فيستوحش من كل شيء، ويأنس به كل شيء، صار مشهودًا له معنىٰ ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] سجية وحقيقة ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] منطوية في قلبه (**وملازمة التذكُّر**) والتفكُّر (**الذي هو أفضل الأعمال**) للعبد (**علىٰ الدوام**) لِما ورد من طرق ضعيفة: «تفكُّر ساعة خير من عبادة الثَّقَلين»[٢]. وهذه هي العبادة الباطنية التي كانت عليها كُمَّل الأصفياء ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ

---

(١) زيادة من جمع الوسائل.

(٢) سيأتي هذا الحديث بألفاظ أخر في كتاب التفكر، ولم أقف عليه بهذا السياق في كتب الحديث، ولكن ذكره بهذا اللفظ إسماعيل حقي في تفسير روح البيان ٩/ ١٣٧.

مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النمل: ٨٨] ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتفكرون ويتذكرون، وقد روىٰ الأصبهاني في ترغيبه[١] وأبو نعيم في الحلية[٢] من طريق شهر بن حوشب عن ابن عباس أنه ﷺ خرج علىٰ أصحابه فقال: «ما جمعكم»؟ فقالوا: اجتمعنا نذكر ربنا ونتفكر في عظمته. فقال: «تفكَّروا في خلق الله، ولا تتفكروا في الله؛ فإنكم لن تقدروه قَدْره»

(وتشبُّه الضعيف بالقوي فيما يرىٰ من ظاهره أنه هفوة) ونقص مقام (يضاهي) أي يشابه (اعتذارَ مَن يلقِي نجاسة يسيرة) أي قليلة (في كوز ماء) مثلاً (ويتعلَّل بأن أضعاف هذه النجاسات) علىٰ كثرتها (قد يُلقَىٰ في البحر) ويُرمَىٰ فيه فلا يكدِّره (و) لا شك أن (البحر أعظم من الكوز) جِرْمًا وأكثر ماءً (فما جاز للبحر) من عدم حمله للنجاسة (فهو للكوز أَجْوَزُ) أي أكثر جوازًا، ولعَمْري هذا قياس لكنه باطل (ولا يدري المسكين أن البحر بقوَّته) وسعته (يحيل النجاسةَ ماءً) بتلاشي أجزائها (فتنقلب عين النجاسة باستيلائه) أي غلبته وقوته، يعني البحر (إلىٰ صفته) أي البحر

---

(١) الترغيب والترهيب للأصبهاني ١/ ٣٨٩ - ٣٩٠ من حديث عبد الله بن سلام ومن حديث عبد الله ابن عباس، أما حديث ابن سلام فرواه من طريق شهر بن حوشب عنه، ولفظه: خرج رسول الله ﷺ علىٰ أناس من أصحابه وهم يتفكرون في خلق الله، فقال: «فيم تتفكرون»؟ قالوا: نتفكر في خلق الله. قال: «فلا تفكروا في الله، ولكن تفكروا فيما خلق الله؛ فإنه خلق خلقًا قدماه في الأرض السابعة السفلىٰ، ورأسه قد جاوز السماء العليا، ما بين كتفيه إلىٰ إخمص قدميه مسيرة ثلاثمائة عام، فالخالق أعظم من المخلوق». وأما حديث ابن عباس فرواه من طريق عمرو بن مرة عنه، ولفظه: أبصر النبي ﷺ قوما، فقال: «ما لكم»؟ قالوا: نتفكر في الخالق. فقال لهم: «تفكروا في خلقه، ولا تفكروا في الخالق، لا تقدرون قدره».

(٢) حلية الأولياء ٦/ ٦٥. وليس فيه: تفكروا في خلق الله ... الخ، بل لفظه: «ألا أخبركم ببعض عظمته»؟ قلنا: بلىٰ يا رسول الله. قال: «إن مَلَكًا من حملة العرش يقال له إسرافيل زاوية من زوايا العرش علىٰ كاهله قد مرقت قدماه في الأرض السفلىٰ، ومرق رأسه من السماء السابعة العليا في مثله من خليقة ربكم». ثم قال أبو نعيم: تفرد به إسماعيل بن عياش عن الأحوص عن شهر بن حوشب عن ابن عباس، ورواه عبد الجليل بن عطية عن شهر عن عبد الله بن سلام.

التي هي الطهورية في نفسه، والتطهير لغيره **(والقليل من النجاسة يغلب)** الماءَ الذي في **(الكوز)** لضعفه **(ويحيله إلىٰ صفته)** التي هي التنجُّس في نفسه، فقد بان بذلك بطلان قياس القائس **(ولمثل هذا جُوِّز للنبي ﷺ)** خاصةً مما يتعلق به **(ما لم يُجوَّز لغيره)** من سائر أمَّته **(حتىٰ أبيحَ له)** الجمع بين **(تسع نسوة)** بنكاح صحيح، وهو معروف. قال العراقي: وفي الصحيحين[1] من حديث ابن عباس: كان عند النبي ﷺ تسع نسوة، كان يقسم لثمانٍ، ولا يقسم لواحدة. ورواه النسائي[2] كذلك، كلُّهم من رواية ابن جُرَيج عن عطاء عن ابن عباس. قال: وأخرج البخاري[3] والنسائي[4] من رواية سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس أن النبي ﷺ كان يطوف علىٰ نسائه في ليلة واحدة، وله تسع نسوة. وفي رواية لهما[5] من رواية هشام الدستوائي عن قتادة: كان يدور علىٰ نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهنَّ إحدىٰ عشرة. قلتُ لأنس: أكان يطيقه؟ قال: كنا نتحدَّث أنه أُعطي قوة ثلاثين.

(إذ كان له) ﷺ **(من القوة)** التي أُعطيها **(ما يتعدَّىٰ)** أي يتجاوز **(منه صفة العدل)** الذي هو أحسن الصفات، وهو الأمر المتوسط بين الإفراط والتفريط **(إلىٰ نسائه وإن كثرنَ)** وأما ما اشتهر عند العامَّة من أنه ﷺ شكا إلىٰ جبريل من ضعف الباه فأنزل له من السماء الكَفِيت، وهي قِدْر فيها هريسة، فأكل منها، فعادت قوَّته، فهذا شيء لا أصل له، ولا يُعتمَد عليه، وأما القوة المطلقة من غير أن تتعدَّىٰ صفة العدل فقد أُعطيها جماعة من آحاد أمته، كما بلغنا عن شيخ من السادة النقشبندية – وهو حيٌّ الآن – أنه غاب عن زوجته أيامًا، فلما رجع طالبته بحقِّها في الجماع، فقال لها: كم نقص لك من العدد؟ قالت: أربعين. فجامعها أربعين مرة علىٰ

(١) صحيح البخاري ٣/ ٣٥٥. صحيح مسلم ١/ ٦٧٠.

(٢) سنن النسائي الكبرىٰ ٨/ ١٦٥.

(٣) صحيح البخاري ٣/ ٣٥٥.

(٤) سنن النسائي ص ٤٩٥.

(٥) صحيح البخاري ١/ ١٥٥. السنن الكبرىٰ للنسائي ٨/ ٢٠٧.

التوالي من غير نقص ولا فتور (**وأما غيره فلا يقدر علىٰ بعض العدل**) والمساواة (**بل يتعدَّىٰ ما بينهن من الضِّرار**) أي المَضارَّة (**إليه حتىٰ ينجرَّ**) الحال منه (**إلىٰ**) ارتكاب (**معصية الله تعالىٰ في طلبه رضاهنَّ**) وهذا مشاهَد، وروىٰ أصحاب السنن الأربعة[1] وابن حبان في صحيحه[2] من رواية عبد الله بن يزيد عن عائشة أن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: «اللهم هذه قسمتي فيما أملك، فلا تَلُمْني فيما تملك ولا أملك». لفظ الترمذي، وقال: ومعنىٰ قوله «فيما تملك ولا أملك» إنما يعني به الحب والمودَّة.

(**فما أفلح مَن قاس الملائكة بالحدَّادين**) شتَّانَ بينهما. ووجدت في هامش النسخة بخط الشمس الحريري ما نصه: المراد بالحدَّادين: المشاعلي الذي يقيم الحدَّ، أو السَّجَّان، أو علىٰ ظاهره، أقوال.

(**الوظيفة الخامسة: أن لا يدع**) أي لا يترك (**طالب العلم فنًّا من**) فنون (**العلوم المحمودة**) التي تقدم ذكرها (**ولا نوعًا من أنواعه**) والفن في الأصل: اسم للغصن من الشجرة، ويطلق ويُراد به النوع، فهما مترادفان (**إلا وينظر فيه**) بتدبُّر وتأمُّل (**نظرًا يطَّلع به علىٰ مقصده**) الذي اشتمل ذلك الفنُّ عليه (**وغايته**) التي ينتهي إليها، وإنما اقتصر عليهما لأنه بهما يُدرَك شرف الفن، فتارةً بالمقصد، وتارةً بالغاية، فلا بد من الاطِّلاع عليهما (**ثم إن ساعده العمرُ**) بأن طال، والوقتُ بأن صفا (**طلب التبحُّر**) أي التوسُّع (**فيه**) ولا بأس بذلك (**وإلا**) أي إن لم يرَ مساعدة العمر والوقت بأن خاف علىٰ نفسه الموت العاجل أو ابتُلي بالمحن والأكدار (**اشتغل بالأهم**) فالأهم (**منه واستوفاه**) فهمًا وحفظًا ومدارسة (**وتطرَّف من البقية**) أي أخذ منها الطُّرَف والنوادر المحتاج إليها في حال طلبه (**فإن العلوم**) وإن تفاوتت (**متعاونةٌ**) يعين بعضها بعضًا (**وبعضها مرتبط ببعض**) ارتباطًا كليًّا تارةً، وجزئيًّا أخرىٰ

(١) سنن أبي داود ٣/ ٤٢. سنن الترمذي ٢/ ٤٣٣. سنن النسائي ص ٦٠٩. سنن ابن ماجه ٣/ ٣٩٢.

(٢) صحيح ابن حبان ١٠/ ٥.

(ويستفيد من ذلك في الحال) أي عند معرفته ولو علىٰ المشاركة **(الانفكاكَ)** أي الانفصال **(عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله)** وهذا أقل المراتب فيه **(فإن الناس أعداء ما جهلوا)** يُروَىٰ ذلك من قول سيدنا عليٍّ رضي الله عنه **(قال)** الله **(تعالىٰ:** ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف:١١]**)** المراد بهم قريش، وقيل: بنو عامر وغَطَفان وأسد وأشجع، وقيل: اليهود، علىٰ اختلاف في ذلك، والاهتداء هنا التوفيق، أي: إذ لم يوفَّقوا للإيمان وبما أتىٰ به محمد ﷺ فسيقولون: هذا إفك قديم. والإفك لغةً: صرفُ الشيء عما يحقُّ أن يكون عليه، والمراد هنا أشد الكذب، والقديم: السابق، وهو مثل قولهم: أساطير الأوَّلين.

وفي كتاب الذريعة(١) للراغب: حق الإنسان أن لا يترك شيئًا من العلوم أمكنه النظر فيه واتسع العمر له [إلا] ويخبر بشمه عَرْفه وبذوقه طِيبه، ثم إن ساعده القَدَر علىٰ التغذِّي به والتروي(٢) منه فبها ونعمت، وإلا لم يَصِر لجهله بمحله وغباوته عن منفعته إلا معاديًا له بطبعه، كما قال القائل – وأنشد البيت الآتي ثم قال: ومَن جهل شيئًا عاداه، والناس أعداء ما جهلوا، بل قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ وحُكي عن بعض فضلاء القضاة أنه رُؤي بعدما طعن في السن وهو يتعلم أشكال الهندسة، فقيل له في ذلك، فقال: وجدتُه علمًا نافعًا فكرهت أن أكون لجهلي [به] معاديًا له. ولا ينبغي للعاقل أن يستهين بشيء من العلوم، بل يجب أن يجعل لكل واحد حظَّه الذي يستحقه، ومنزله الذي يستوجبه، ويشكر مَن هداه لفهمه وصار سببًا لعلمه، فقد حُكي عن بعض الحكماء أنه قال: يجب أن نشكر أيادي(٣) الذين ولَّدوا لنا الشكوك امتنانًا لمَن حرَّك(٤) خواطرنا بالنظر في العلم(٥) [فضلاً] عن

---

(١) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ص ١٤٣ - ١٤٤. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٢) في الذريعة: التزود.

(٣) في الذريعة: آباءنا.

(٤) في الذريعة: إذ كانوا سببا لما حرك.

(٥) في الذريعة: لطلب العلم.

شكر مَن أفادنا طرفًا من العلم، ولولا مكان فكر مَّن تقدَّمنا لأصبح المتأخرون حيارىٰ قاصرين عن معرفة[1] مصالح دنياهم فضلاً عن مصالح أُخراهم، فمَن تأمَّل حكمة الله تعالىٰ في أقل آلة يستعملها الناس - كالمِقْراض [حيث] جمع بين سكِّينين رُكِّبا علىٰ وجه يتوافَىٰ حدَّاهما علىٰ نمط واحد للقرض - أكثر تعظيمَ الله وشكره وقال: سبحان الذي سخَّر لنا هذا وما كنا له مُقرنينَ.

(**وقال الشاعر**) وهو أبو الطيِّب أحمد بن الحسين المتنبِّي الكوفي في قصيدة له لامية خمسون بيتًا يمدح الأمير بدر بن عمَّار بن إسماعيل الأسدي، وقبل هذا البيت:

أرىٰ المتشاعرينَ غَرُوا بذمِّي ... ومَـن ذا يَحْمَـدُ الـداء العُضـالا

(**ومَن يَكُ ذا فم مرٍّ مريضٍ ... يجـدْ مـرًّا بـه المـاء الـزلالا**)[2]

أي لا يعادي الإنسان شيئًا إلا بعلة ناشئة منه هي المانعة له عن محبته إياه، ألا ترىٰ إلىٰ الماء الزُّلال - وهو البارد العذب الصافي - إذا شربه مَن به غلبة الصفراء[3] أو مرض آخَر يغيِّر لذة الفم فإنه يجده مرًّا علىٰ غير صفته، فهذا الوجدان راجع إلىٰ الشارب، والمشروب علىٰ صفته لم يتغير.

وقال شارح الديوان[4]: هذا مَثَلٌ ضربه، يقول: مَثَلهم معي كمثل المريض مع الماء الزلال يجده مرًّا لمرارة فمه، كذلك هؤلاء يذمُّونني لنقصانهم وجهلهم بفضلي[5]، فالنقص فيهم لا فيَّ، ولو صحَّت حواسُّهم لعرفوا فضلي.

(**فالعلوم**) كلها (**علىٰ**) تفاوُت (**درجاتها**) علىٰ أقسام: (**إما سالكة بالعبد**

---

(١) في الذريعة: عن فهم.

(٢) البيتان في ديوانه ص ١٤١.

(٣) الصفراء أو اليرقان: علامة أو عرض سريري، وليس مرضا بحد ذاته.

(٤) شرح ديوان المتنبي لأبي الحسن الواحدي ص ٢٢٠ (ط - برلين).

(٥) في شرح الديوان: لنقصانهم وقلة معرفتهم بفضلي وشعري.

إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ) سلوكًا حقيقيًّا، كعلم معرفة الله سبحانه وما يتعلق به **(أو مُعينة)** له **(علىٰ السلوك)** إلىٰ الله تعالىٰ كلَّ الإعانة، أو **(نوعًا من الإعانة)** فالأول كمعرفة الخواطر وما يَرِد عليها من الهواجس المَلَكية والشيطانية؛ إذ بتفريغ باطنه عن الهواجس تكون فيه القابلية لمعرفة الله تعالىٰ، والثاني كعلم الإعراب **(ولها منازل)** ودرجات **(مرتَّبة)** ترتيبًا غريبًا **(في القرب والبعد من المقصود)** الأعظم، فمنها ما يقرِّب من المقصود قربًا كليًّا؛ لشدة الارتباط بينهما، ومنها ما يقرِّب قربًا جزئيًّا، وكذلك في البعد، ولكل من هذه المراتب مراتب **(والقُوَّام بها)** أي القائمون بخدمتها وتحصيلها **(حَفَظة)** لحوزتها، يمنعون عن تطرُّق الخلل والفساد إليها، فهم قائمون بإزائها، واقفون علىٰ حدودها **(كحَفَظة الرباطات والثغور)** وهي المواضع التي يرابط فيها المجاهدون حفظًا لحوزة الإسلام كيلا يهجم عليها العدوُّ غرةً **(ولكل واحد)** من هؤلاء الطلبة **(رتبة)** معلومة **(وله بحسب درجته)** واجتهاده **(أجرٌ)** عند الله **(في الآخرة إذا قصد به وجه الله تعالىٰ)** فإن قصد به المباهاة أو المفاخرة أو التوثُّب في المجالس فليس له ثواب عند الله تعالىٰ، وتعبه ضائع. وهذا السياق بعينه لصاحب الذريعة، كما سيأتي نص حروفه في آخر الوظيفة التي تليها، وقد فرَّقها المصنف في الموضعين كما ترىٰ، وستقف عليه إن شاء الله تعالىٰ.

(الوظيفة السادسة) من وظائف المتعلم التسعة: **(أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعةً، بل يراعي الترتيب، ويبتدئ بالأهم؛ فإن العمر)**[1] ولو طال **(إذا كان لا يتسع لجميع العلوم)** أي لتحصيلها علىٰ طريق الحصر والاستيعاب **(غالبًا)** كما هو مشاهَد، ولو مارسه ألف سنة **(فالحزم)** كل الحزم، أي الرأي الوثيق **(أن يأخذ)** الطالب في أثناء طلبه **(من كل شيء أحسنَه)** والأخذ أعمُّ من التلقِّي والكتابة والحفظ، فيتلقَّىٰ من كل علم أحسنه، ويكتب منه أحسن ما يُكتَب مما ينتفع به هو

---

(١) من قوله (أن لا يخوض) حتىٰ قوله (ويبتدئ بالأهم) لم يذكره الشارح، بل قال: (الوظيفة السادسة من وظائف المتعلم التسعة. اعلم أن العمر ....) الخ.

وغيره، ويحفظ منه أحسن ما يُحفَظ وأنفعه، وإليه يشير قول القائل[١]:

ما حوىٰ العلمَ جميعًا أحدٌ لا ولـو مارسـه ألـف سـنه
إنما العلم كبحر زاخر[٢] فخـذوا مـن كل شـيء أحسـنه

(ويكتفي منه بشمَّة) أي بقليل مما يكون له معينًا وزادًا للآخرة.

وفي الذريعة[٣] للراغب: من كان قصده الوصول إلىٰ جوار الله تعالىٰ فليتوجَّه نحوه – كما قال تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [الذاريات: ٥٠] وكما في الحديث: «سافروا تغنموا» – فحقُّه أن يجعل أنواع العلوم كزاد موضوع في منازل السفر، فيتناول منه في كل منزل قَدْر البُلغة، فلا يعرِّج علىٰ تقصِّيه واستفراغ ما فيه، فتقصِّي الإنسان نوعًا واحدًا من العلوم علىٰ الاستقصاء يستفرغ عمرًا بل أعمارًا ثم لا يدرك قعره ولا يسبر غَوْره، وقد نبَّهنا الباري تعالىٰ علىٰ أن نفعل ذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ [الزمر: ١٨] وقال عليٌّ رضي الله عنه: العلم كثير، فخذوا من كل شيء أحسنه. وقال الشاعر[٤]:

قالوا خذ العين من كلٍّ فقلتُ لهم في العيـن فضلٌ ولكن ناظر العين

(ويصرف جِمام قوَّته) بكسر الجيم، أي كل قوته وتمامها (في الميسور من علمه) أي مما تيسَّر منه (إلىٰ) متعلق بـ «يصرف»، أي يصرف جِمام قوته إلىٰ (استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم) أي إلىٰ تحصيله بطريق الاستيعاب

---

(١) هو الإمام الشافعي، والبيتان في ديوانه ص ١٢٧ (ط - دار القلم بدمشق).

(٢) في الديوان: إنما العلم بعيد غوره.

(٣) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ص ١٤٦.

(٤) هو منصور بن إسماعيل بن عمر التميمي، المعروف بمنصور الفقيه، وبعده:

حرفـان في ألـف طومـار مسـودة وربمـا لـم تجد في الألـف حرفيـن

انظر: جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١/ ٤٣٧. ثمار القلوب للثعالبي ص ٣٢٩. ربيع الأبرار للزمخشري ٤/ ٧٠.

والتكميل **(وهو علم الآخرة)** وأشرفيَّته باعتبار ما يؤول إليه من ثمراته وغاياته، ثم فسَّره بقوله: **(أعني)** أي أقصد بذلك العلم، أي هو أشرف العلوم **(قسمَي المعاملة والمكاشفة)** ولمَّا كان شرفهما بالغايات أشار لذلك بقوله: **(فغاية المعاملة المكاشفة، وغاية المكاشفة معرفة الله تعالىٰ)** من غير افتقار إلىٰ تأمُّل البرهان **(ولست أعني به)** أي بغاية المكاشفة **(الاعتقاد الذي يتلقَّفه)** من التلقُّف، وهو الأخذ بالفم. وفي نسخة: يتلقَّنه، بالنون، وهو الأصح **(العامِّيُّ وراثةً)** من شيوخه **(أو تلقُّفًا)** من فم إلىٰ فم **(ولا)** أعني أيضًا **(طريق تحرير الكلام)** بالبراهين الدالَّة علىٰ مقصوده **(والمجادلة)** بأقيسة ظنِّية **(في تحصين ذلك)** الاعتقاد وحمايته **(من مراوغات الخصوم)** ومطاولاتهم **(كما هو غاية)** حال **(المتكلم)** عند استكماله **(بل)** أعني به **(نوع يقين)** هو رؤية العيان بقوة الإيمان لا بالحُجة والبرهان، أو مشاهدة الغيوب بصفاء القلوب، بل ملاحظة الأسرار بمحافظة الأفكار[1] **(وهو ثمرة نور)** ربَّانيٍّ **(يقذفه الله تعالىٰ)** بواسطة ملائكته **(في قلب عبد)** أحبه الله قد **(طهَّر)** ظاهره عن الأحداث المذمومة **(بالمجاهدة)** الحقيقية، والخروج عن المألوفات النفسية، ونزَّه **(باطنه)** المعمور بأسرار الله، المغمور بأنواره **(عن الخبائث)** الإبليسية والرذائل الخسيسة **(حتىٰ ينتهي)** في سيره مع الملازمة علىٰ مجاهدته **(إلىٰ رتبة إيمان)** أمير المؤمنين **(أبي بكر)** الصِّدِّيق (رضي الله عنه **الذي**) ما سبق الناس بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في صدره، وهو الذي **(لو وُزن)** إيمانه **(بإيمان العالمين)** أجمعين **(لرجح، كما شهد له به سيد البشر ﷺ)** قال العراقي[2]: «لو وُزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجح» أخرجه ابن عدي[3] من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف، ورواه البيهقي في الشعب موقوفًا علىٰ عمر بإسناد صحيح.

---

(١) التعريفات للجرجاني ص ٢٨٠.

(٢) المغني ١/ ٣٥.

(٣) الكامل في الضعفاء ٤/ ١٥١٨.

قلت: الذي رواه البيهقي في الشعب[١] من قول عمر لفظُه: لو وُزن إيمان أبي بكر بإيمان الناس لرجح إيمان أبي بكر. وهكذا هو في مسند إسحاق بن راهويه[٢].

قال الحافظ السخاوي[٣]: وراويه عن عمر هُزَيل بن شُرَحبيل. قلت: وهو الأودي الكوفي، ثقة مخضرم، من رجال البخاري والأربعة[٤]. قال: وهو عند ابن المبارك في الزهد ومعاذ بن المثنىٰ في زيادات مسند مسدَّد[٥]. ا.هـ.

ورأيت في «ذخيرة الحُفَّاظ» لابن طاهر المقدسي الذي رتَّب فيه الكامل لابن عدي - وهو بخط المصنف - ما نصه[٦]: «لو وُزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح» رواه عبد الله بن عبد العزيز بن أبي رَوَّاد عن أبيه عن نافع عن ابن عمر، وعبد الله لم يتَابع عليه.

وهذا الذي أشار له العراقي أنه بإسناد ضعيف، ولكن ليس فيه «بإيمان العالمين»، وكذا أخرجه ابن عدي[٧] في ترجمة عيسىٰ بن عبد الله بن سليمان العسقلاني عن رَوَّاد بن الجرَّاح عن عبد العزيز بن أبي رَوَّاد عن نافع، وعيسىٰ ضعيف الحديث، ولفظه: «لو وُضع إيمان أبي بكر علىٰ إيمان هذه الأمَّة لرجح بها».

قلت: وقد رواه الديلمي أيضًا في مسند الفردوس من هذه الطريق بهذا اللفظ،

---

(١) شعب الإيمان ١/ ١٤٤. ولفظه: «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم». وليس فيه اللفظ الذي ذكره الشارح.

(٢) مسند إسحاق بن راهويه ٣/ ٦٧١ (ط - مكتبة الإيمان بالمدينة المنورة).

(٣) المقاصد الحسنة ص ٣٤٩.

(٤) تهذيب الكمال للمزي ٣٠/ ١٧٢ - ١٧٣. تقريب التهذيب لابن حجر ص ١٠٢٠.

(٥) أورده البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة ٩/ ١٩٨ ولفظه: لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم، ووددت أني شعرة في صدر أبي بكر.

(٦) ذخيرة الحفاظ ٤/ ٢٠٠٤ (ط - دار السلف بالرياض).

(٧) الكامل في الضعفاء ٥/ ١٨٩٨.

وقول السخاوي «إن عيسىٰ وإن كان ضعيفًا لكنه لم ينفرد به، فقد أخرجه ابن عديٍّ من طريق آخَر» كأنه يشير إلىٰ طريق عبد الله بن عبد العزيز بن أبي رَوَّاد، فربما يُفهَم من سياق هذا أنه طريق صحيح، وليس كذلك؛ فإن عبد الله لم يتابَع عليه، كما تقدم. فعلىٰ كل حال، حديث ابن عمر من طريقيه لا يخلو من ضعف، فتأمَّلْ.

قال الحافظ السخاوي: وله شاهد في السنن[١] أيضًا عن أبي بَكْرة مرفوعًا أن رجلاً قال: يا رسول الله، رأيتُ كأنَّ ميزانًا نزل من السماء، فوُزنت أنت وأبو بكر فرجحت أنت، ثم وُزن أبو بكر بمن بقي فرجح ... الحديث.

(**فما عندي**) أي ليس عندي (**أن ما يعتقده العامِّي**) أي يجعله عقيدةً له (**ويرتِّبه المتكلم**) ترتيبًا بالبراهين والأدلَّة (**الذي لا يزيد علىٰ العامي**) في عقيدته (**إلا في صنعة الكلام**) من البحث في ذات الله وصفاته، وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد (**ولهذا سُمِّيت صناعته كلامًا**) إشارةً إلىٰ وجه تسميته، وقد تقدم ما يتعلق به في أول الكتاب (**وكان يعجز عنه عمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة رضوان الله عليهم**) أجمعين، ولكنهم لم يكونوا ملتفتين لمثل ذلك، وإنما كانوا في حضرة الشهود والكشف الأتمِّ، فلو كُلِّفوا إيراد مثل هذه الدقائق التي أبداها المتكلمون في محاوراتهم لأعجبوا، وشتَّان بين مَن توحيدُه عن كشف وعيان وبين من هو رهين أسر البراهين (**حتىٰ كان**) وفي نسخة: حين كان (**يفضلهم**) سيدنا (**أبو بكر**) رضي الله عنه (**بالسر الذي وقر في صدره**) إشارة إلىٰ ما ورد: ما فضلكم أبو بكر بفضل صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه. قال العراقي: لم أجده مرفوعًا.

وقال السخاوي[٢]: وهو عند الحكيم الترمذي في نوادره[٣] من قول بكر بن

---

(١) سنن أبي داود ٥/ ١٩٧. سنن الترمذي ٤/ ١٢٦ وقال: حسن. وفيه بعد قوله «فرجحت أنت»: ووزن أبو بكر وعمر فرجح أبو بكر، ووزن عمر وعثمان فرجح عمر، ثم رفع الميزان. فرأينا الكراهية في وجه رسول الله ﷺ.

(٢) المقاصد الحسنة ص ٣٦٩.

(٣) نوادر الأصول ١/ ٩١.

عبد الله المُزَني.

وقد سبق الإيماء إلىٰ ذلك.

(**والعجب ممَّن يسمع مثل هذه الأقوال**) مثل وزن إيمان أبي بكر وسبقِه علىٰ الناس ورجحانه بما أُعطيَه (**من صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه ثم يزدري**) أي يحتقر. وفي نسخة: ثم يردُّ (**ما يسمعه علىٰ وَفْقه**) ولا يعتبره، ولا يقيم له رأسًا (**ويزعم أنه من تُرَّهات الصوفية**) وخرافاتهم، والتُّرَّهات: الأباطيل (**وأن ذلك غير معقول**) أي غير داخل في العقل. وفي نسخة: غير مقبول (**فينبغي**) لك أيها الطالب (**أن تتَّئِد**) أي تتأنَّىٰ (**في هذا**) المقام، وألْقِ سمعك لفهمه (**فعنده ضيَّعتَ**) وفي نسخة: ضيعة (**رأس المال**) وهو مَثَلٌ ضربه؛ فإنه مَن ضيَّع رأس ماله لم يستفد شيئًا (**فكن**) أيها الطالب (**حريصًا علىٰ معرفة ذلك السر**) الذي فضل به أبو بكر علىٰ العالَمين (**الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين**) لكونه غير محتاج إلىٰ تركيب الأدلة والبراهين، وإنما هو نور يقذفه الله في قلب من شاء من عباده بعد تطهيره من الخبائث الظاهرية والمعنوية. ونقل صاحب القوت[1] عن بعض العارفين قال: مَن نظر في توحيده إلىٰ عقله لم ينجِه توحيدُه من النار، ومَن كان توحيده في الدنيا معلَّقًا بمعقوله لم يحمل توحيده معه إلىٰ اليقين (**ولا يرشدك إليه إلا حرصك في الطلب**) وهمَّتك في إنشاد هذه الضالة ممَّن درج ودبَّ (**وعلىٰ الجملة، فأشرف العلوم**) علىٰ الإطلاق (**وغايتها**) التي تنتهي إليها الهمم (**معرفة الله عَزَّوَجَلَّ**) عاريةً عن شوائب الحجج والبراهين (**وهو بحر لا يُدرَك منتهىٰ قعره**) قد تاهت فيه ألباب العارفين، وكلٌّ منهم نال فيه مقامًا بحسب همَّته وقوته وتطهيره وتقرُّبه، وليس كل معرفة معرفة، ألا ترىٰ إلىٰ الذي رأىٰ الله تعالىٰ سبعين مرة، فقيل له: لو رأيتَ أبا يزيد لأغناك عن رؤيتك الله تعالىٰ، فتعجَّب من هذا القول، فلما وقع بصرُه عليه ظهر له سرُّ المعرفة علىٰ غير الوجد الذي كان عرف، فاندهش ولم يتحمل فمات لوقته،

(١) قوت القلوب ١/ ٢١٩.

وسبب هذا صدقُه في مقام المعرفة، وسيأتي هذا للمصنف في آخر الكتاب[١]، وتقدم الإيماءُ إليه في خلال فصول المقدمة (**وأقصىٰ درجات البشر فيه رتبة الأنبياء**) صلوات الله عليهم؛ إذ هم الفائزون بالقدح المعلَّىٰ في ذلك (**ثم الأولياء**) ودخل فيهم الصِّدِّيقون (**ثم الذين يلونهم**) من العلماء علىٰ حسب درجاتهم ومقاماتهم، فأولئك الذين صُفِّي قلبهم بنور اليقين، وأُيِّد عقلهم بالتوفيق والتمكين، وتجرَّدت هِمَمُهم من التعلُّق بالخلق، وتألَّه سرُّهم بالعكوف علىٰ الخالق، وخلت نفوسُهم عن الهوىٰ، وسرت أرواحهم فجالت في الملكوت الأعلىٰ فشهدوا علىٰ الكشف أوصاف ما عرفوا، فقاموا حينئذٍ بشهادة ما عرفوا[٢].

(**وقد رُوي أنه رُؤيت صورة حكيمين من الحكماء المتقدمين**) أي فيما سبق من الزمان، وكأنهم من حكماء اليونان. وفي نسخة: المتعبدِّين (**في مسجد**) أي في معبد من معابدهم. ونص الذريعة[٣]: والنهاية من العلوم النظرية معرفة الله تعالىٰ علىٰ الحقيقة المصدوقة، والعلوم كلها خدم لها، وهي حرَّة، ورُوي أنه رُؤيت صورة حكيمين من القدماء المتألهين[٤] في بعض مساجدهم (**وفي يد أحدهما رقعة**) مكتوبة (**وفيها**) ما نص ترجمته: (**إن أحسنتَ كل شيء**) أي أتقنت في صنعته (**فلا تظننَّ أنك أحسنت شيئًا حتىٰ تعرف الله تعالىٰ**) حقَّ معرفته (**وتعلم أنه مسبِّب الأسباب وموجد الأشياء**) وهذا هو التوحيد الخالص، فكأنه يقول: منتهىٰ المعارف كلها معرفة الله بوحدانيَّته، ومن لا يصل إليه فلا يظن في نفسه أنه أحسن شيئًا (**وفي يد الآخَر**) رقعة فيها مكتوب: (**كنت قبل أن أعرف الله سبحانه أشرب وأظمأ**) فلا يحصل لي الرِّيُّ (**حتىٰ إذا عرفتُه رويت بلا شربٍ**) زاد في الذريعة بعد هذا ما نصه:

---

(١) في كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا.

(٢) قوت القلوب ١/ ١٠٤.

(٣) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ص ١٤٧.

(٤) في الذريعة: حكيمين من الحكماء.

بل قد قال الله تعالىٰ ما أشار به إلىٰ ما هو أبلغ من حكمة كل حكيم: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ [الأنعام: ٩١] أي اعرفه حقَّ المعرفة، ولم يقصد بذلك أن يقول [ذلك] قولاً باللسان اللحمي، فذلك قليل الغَناء ما لم يكن عن طوية خالصة ومعرفة حقيقية، وعلىٰ ذلك قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله مخلصًا دخل الجنة».

قلت: وقول الحكيم «رويت بلا شرب» هذا هو الشرب المعنوي الذي لا ظمأ بعده، والعارف بالله تعالىٰ ريَّان دائمًا وإن لم يشرب، ومن لم يعرفه فهو ظمآن دائمًا وإن شرب، وفي ذلك قيل:

مَن عرف الله فلم تُغْنِه ... معرفةُ الله فذاك الشقي

يزعم أن العز في ماله ... والعز كل العز للمتَّقي[1]

وفي القوت[2]: قال بعضهم: في الدنيا جنة مَن دخلها لم يشتَقْ إلىٰ شيء، ولم يستوحش. قيل: وما هي؟ قال: معرفة الله تعالىٰ.

ويُروَىٰ[3] عن علي رضي الله عنه: ما يسرُّني أن الله تعالىٰ أماتني طفلاً وأدخلني الدرجات العلىٰ من الجنة. قيل: ولِمَ؟ قال: لأنه أحياني حتىٰ عرفتُه.

وقال مالك بن دينار: خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها.

---

(١) لم أقف علىٰ قائلهما، ولكن في تفسير الثعلبي المعروف بالكشف والبيان ٩/ ٨٩: أنشدني ابن حبيب قال: أنشدنا ابن رميح قال: أنشدنا عمر ابن الفرحان:

ما يصنع العبد بعز الغنىٰ ... والعز كل العز للمتقي

من عرف الله فلم تغنه ... معرفة الله فذاك الشقي

فلعل ابن الفرحان هو صاحب البيتين. والشيعة في كتبهم ينسبونهما لعلي بن الحسين المعروف بزين العابدين، كما في كتاب الاحتجاج لأبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي ٢/ ٤٧ (ط - مؤسسة الأعلمي ببيروت).

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٦٢. وفيه أن القائل هو يحيىٰ بن معاذ الرازي.

(٣) السابق ١/ ٢٦١. وفيه أيضاً قول مالك بن دينار.

قيل: وما هو؟ قال: المعرفة. ثم أنشأ يقول:

إن عرفان ذي الجلال لَعزٌّ وضياء وبهجة وسرورُ
وعلىٰ العارفين أيضًا بهاءٌ وعليهم من المحبة نورُ
فهنيئًا لمن عرفك إلهي هو والله دهره مسرورُ

(الوظيفة السابعة[١]: أن لا يخوض في فن حتىٰ يستوفي الفنَّ الذي قبله؛ فإن العلوم مرتَّبة ترتيبًا ضروريًّا، وبعضها طريق إلىٰ بعض، والموفَّق مَن راعىٰ ذلك الترتيب والتدريج، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١] أي لا يجاوزون فنًّا حتىٰ يُحكِموه علمًا وعملاً، وليكن قصده في كل علم يتحرَّاه الترقِّي إلىٰ ما هو فوقه، فينبغي أن لا يحكم علىٰ علم بالفساد لوقوع الخُلف بين أصحابه فيه، ولا بخطأ واحد أو آحاد فيه، ولا بمخالفتهم موجِب علمهم بالعمل، فترىٰ جماعة تركوا النظر في العقليات والفقهيات متعلِّلين فيها بأنها لو كان لها أصل لأدركه أربابها، وقد مضىٰ كشفُ هذه الشُّبَه في كتاب «معيار العلم»[٢]، وترىٰ طائفة يعتقدون بطلان الطب لخطأ شاهدوه من طبيب، وطائفة اعتقدوا صحة النجوم لصواب اتفق لواحد، وطائفة اعتقدوا بطلانه لخطأ اتفق لآخَر، والكل خطأ، بل ينبغي أن يُعرَف الشيء في نفسه، فلا كل علم يستقل بالإحاطة به كلُّ شخص، ولذلك قال عليٌّ رضي الله عنه: لا تعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله.

الوظيفة الثامنة)[٣] من وظائف المتعلم التسعة: (أن يعرف السبب الذي به)

(١) لم يتعرض الزبيدي رحمة الله عليه لهذه الوظيفة برمتها، وقد ذكر آنفا أن عدد الوظائف تسعة، بينما هي في متن الإحياء عشرة. وفي هامش المطبوعة ما نصه: وجد هنا في نسخ المتن المنقول منها الهامش زيادة الوظيفة السابعة، ولعلها نسخة لم يطلع عليها الشارح، فلذا لم يكتب عليها، ونبه آخر أن المتن أسقط الوظيفة العاشرة.

(٢) معيار العلم ص ٥٩ - ٦٨ (ط - دار المعارف بالقاهرة).

(٣) وهي السابعة في نسخة الشارح.

أي بتحصيله (**يدرك شرف العلوم**) وكمالها ومزيتها (**وأن ذلك يُراد به شيئان**) **لا** غير: (**أحدهما**) وهو أفضلهما: (**شرف الثمرة**) والنتيجة (**والثاني: وثاقة الدليل**) أي متانته (**وقوته**) عطف تفسير، قال الحرالي[1]: الوثاقة: شدة الربط وقوة ما به يُربَط (**وذلك كعلم الدين**) وعلوم الدين ثلاثة: التفسير والحديث والفقه (**وعلم الطب**) بأنواعه (**فإن ثمرة أحدهما**) الوصول إلىٰ (**الحياة الأبدية**) وهو علم الدين (**وثمرة الآخَر**) الوصول إلىٰ (**الحياة**) الدنيوية المنقطعة (**الفانية**) وهو علم الطب؛ لأنه به يحصل تعديل المزاج وتقويمه؛ ليجري علىٰ مجاري الصحة، وينقطع ذلك بالموت، بخلاف علوم الدين؛ فإن ثمراتها لا تنقطع (**فيكون علم الدين أشرف**) نظرًا إلىٰ ذلك (**و**) من القسم الثاني، وهو الذي يُراد به وثاقة الدليل (**مثل علم الحساب**) بأنواعه (**وعلم النجوم**) بقسميه المأذون في الاشتغال بهما دون باقي الأقسام، علىٰ ما تقدم. وفي نسخة: وعلم النحو (**فإن علم الحساب أشرف**) نظرًا (**لوثاقة أدلته وقوتها**) وترتيبها علىٰ قواعد مضبوطة (**وإذا نُسب**) علم (**الحساب إلىٰ**) علم (**الطب كان**) علم (**الطب أشرف**) من علم الحساب (**باعتبار ثمرته**) التي هي الحياة (**و**) علم (**الحساب أشرف**) من علم الطب (**باعتبار**) وثاقة (**أدلته**) ومتانتها (**و**) لا يخفَىٰ أن (**ملاحظة الثمرة أَولىٰ**) من النظر إلىٰ وثاقة الدليل (**ولذلك كان**) علم (**الطب أشرف، وإن كان أكثره بالتخمين**) والحدس، والتجارب قد تخطئ، مع اختلاف الأمزجة والأهوية. وفي الذريعة[2]: ورُبَّ علم يوفي علىٰ غيره بأحد الوجهين، وذلك الغير يوفي عليه بالوجه الآخَر، كالطب مع الحساب، فللطب شرف الثمرة؛ إذ هو يفيد الصحة، والحساب وثاقة الدلالة؛ إذ كان العلم به ضروريًّا، غير مفتقر إلىٰ التجربة (**وبهذا تبيَّن**) واتضح (**أن أشرف العلوم**) مطلقًا علم الدين بأنواعه، وأجلُّها (**العلم بالله تعالىٰ**) أي بوحدانيته وقيُّوميته، وأنه موجِد

(١) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف للمناوي ص ٣٣٤. نظم الدرر للبقاعي ١/ ٢٠٩.
(٢) الذريعة ص ١٤٢.

الأشياء كلها، ومسبِّب الأسباب بأسرها (وملائكته) بأنهم عباد الله المعصومون، لا يتَّصفون بذكورة ولا أنوثة، وأنهم الوسائط في الإفاضات (وكُتُبه) بتصديق ما أُنزل فيها من الأحكام والقصص والأمثال (ورسله) بأنهم أُمَناء الله علىٰ خلقه في تبليغ ما أُمروا به (**والعلم بالطريق الموصل إلىٰ هذه العلوم**) فإن حكم ذلك كحكم أصله (**فإياك أن ترغب إلا فيه**) وأن تميل إلا إليه (**وأن تحرص إلا عليه**) وأن تحوم إلا حول حِماه، فهو رأس مالك، وإليه مآلُك. وقد أورد ابن القيم هذا البحث في كتابه «مفتاح دار السعادة» بأبسط من ذلك فقال[١]: شرف العلم تابع لشرف معلومه، ولا ريب أن العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله أجَلُّ العلوم وأشرفها[٢]، ونسبته إلىٰ سائر العلوم كنسبة معلومه إلىٰ سائر المعلومات، فكما أن العلم به أجَلُّ العلوم وأشرفها فهو أصلها كلها، كما أن كل موجود فهو مستند في وجوده إلىٰ الملك الحق، ومفتقر إليه في تحقُّق ذاته [وأينيَّته، وكل علم فهو تابع للعلم به مفتقر في تحقيق ذاته] إليه فالعلم به أصل كل علم، كما أنه سبحانه رب كل شيء ومليكه وموجِده، ولا ريب أن كمال العلم بالسبب التام وكونه سببًا يستلزم العلم بمسبِّبه، كما أن العلم بالعلة التامة ومعرفة كونها علة يستلزم العلم بمعلولها، وكل موجود سوىٰ الله فهو مستند في وجوده إليه استنادَ المصنوع إلىٰ صانعه، والمفعول إلىٰ فاعله، فالعلم بذاته سبحانه وصفاته وأفعاله يستلزم العلم بما سواه، فمَن عرف الله عرف ما سواه، ومَن جهل ربَّه فهو لِما سواه أجهل.

(**الوظيفة التاسعة**)[٣] من الوظائف التسعة: (**أن يكون قصدُ المتعلم في الحال**) صحيحًا بصدق نية، وخلوص عزمٍ، وبقصد (**تخلية باطنه**) من الشوائب النفسية (**وتجميله**) وفي نسخة: وتحليته (**بالفضيلة**) والأوصاف النفسية (**و**) أن

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٣١١. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٢) في المفتاح: وأفضلها.

(٣) وهي الثامنة في نسخة الشارح.

يكون قصده (**في المآل القُرْب من الله تعالىٰ**) أي بما يوصله إليه (**والترقّي إلىٰ جوار الملأ الأعلىٰ من الملائكة والمقرَّبين**) من عباده (**ولا يقصد به الرياسة**) في الدنيا (**و**) جمع (**المال**) وتحصيل (**الجاه، ومُماراة السفهاء**) ومجاراتهم في كلامهم. وفي نسخة: ومباراة (**ومباهاة الأقران**) فإن كلاً من ذلك يجرُّه إلىٰ الدنيا، ويركنه إلىٰ حبِّها والسعي في تحصيلها، فيُحرَم من الوصول إلىٰ المقصود الأعظم (**وإذا كان هذا مقصده**) يعني الوصول إلىٰ الله تعالىٰ (**طلب لا محالة**) أي البتَّة (**الأقرب إلىٰ مقصوده**) والمُعين علىٰ أصوله (**وهو علم الآخرة**) وما يتعلق به وما يوصله إليه (**ومع هذا، فلا ينبغي له أن ينظر بعين الحقارة**) والنقص (**إلىٰ سائر العلوم**) التي هي سوىٰ علم الآخرة (**أعني علم الفتاوىٰ**) والأقضية (**وعلم النحو و**)علم (**اللغة**) بأنواعهما (**المتعلقينِ بالكتاب والسنَّة**) تعلقًا شديدًا بحيث لا طريق إلىٰ وصول الفهم فيهما إلا بهما (**وغير ذلك**) من العلوم (**مما أوردناه**) وذكرناه (**في المقدمات والمتمِّمات من ضروب العلوم التي هي فرض كفاية**) وقد ذكر الشهاب السمين في مقدمة تفسيره[(١)] أن أصح[(٢)] علوم القرآن وآكَدها بعد تجويد ألفاظه بالتلاوة خمسة علوم: علم الإعراب، وعلم التصريف، وعلم اللغة، وعلم المعاني، و[علم] البيان. وهي متجاذبة، شديدة الاتصال بعضها ببعض، لا يحصُل للناظر في بعضها كبير فائدة بدون الاطِّلاع علىٰ باقيها؛ فإن مَن عرف كون هذا فاعلاً أو مفعولاً أو مبتدأ مثلاً ولم يعرف كيفية تصريفه ولا اشتقاقه ولا كيف موقعه من النظم لم يَحُلْ بطائل، وكذا لو عرف موقعه من النظم ولم يعرف باقيها.

أقول: وآكَدُ هذه الخمسة أولاً التصريف، ثم الإعراب، ثم اللغة، ثم المعاني، ثم البيان، علىٰ هذا الترتيب.

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ١/ ٤ (ط - دار القلم بدمشق). والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٢) في الدر المصون: أهم.

(ولا يفهمنَّ) فاهمٌ **(من غلوِّنا)** أي تجاوُزنا **(في الثناء علىٰ علم الآخرة)** وتحسينه بالإجمال تارةً وبالتفصيل أخرىٰ **(تهجين هذه العلوم)** التي ذكرت، أي تشيينها والحط عليها **(فالمتكفِّلون بالعلوم)** التي ذكرت، أي الحاملون لها **(كالمتكفِّلين)** أي المحافظين **(للثغور)** الإسلامية التي تحاذي الكفار **(والمرابطين بها)** ولمَّا كانت هذه العلوم صارت الآن مقصودة بالذات سمَّىٰ المغاربة طالب العلم مرابطًا نظرًا إلىٰ هذا المعنىٰ، وهو غريب **(والغُزاة)** كلهم **(المجاهدين في سبيل الله)** لإعلاء كلمة الله **(فمنهم المقاتل)** بنفسه **(ومنهم الرِّدْء)** أي العون لهم والمَدَد **(ومنهم الذي يسقيهم الماء)** ومنهم الذي يربط علىٰ جراحاتهم ويداويها **(ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعهدها)** كيلا تنفر، ومنهم الذي يحفظ أثاثهم وأمتعتهم وخيامهم كيلا يكسبها العدوُّ **(ولا ينفكُّ واحد منهم عن أجر)** وثواب من الله **(إذا كان قصده)** صحيحًا وهو **(إعلاء كلمة الله عَزَّوَجَلَّ دون حيازة الغنائم)** ودون الرياء والسمعة، ودون إظهار الشجاعة ليقال إنه شجاع، كما صرح بذلك الحديث الصحيح الذي تقدم ذِكره **(فكذلك العلماء)** بمراتبهم ودرجاتهم يتفاوتون تفاوُتَ الغزاة في سبيل الله، وبين تلك المراتب مسافات وغايات تنقطع دونها الأكبادُ

كيف الوصول إلىٰ سعاد ودونها ... قُلَل الجبال ودونهنَّ حُتُوفُ[1]

(قال الله تعالىٰ) في كتابه العزيز في سورة المجادلة: (﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]) قال ابن عباس في تفسيره فيما أخرجه[2] ابن المنذر والحاكم[3] وصحَّحه والبيهقي في المدخل[4] عنه قال: يرفع الله الذين

---

(١) البيت للإمام الشافعي، وهو في ديوانه ص ٧٨ (ط - دار القلم بدمشق) وبعده:

الرجل حافية ومالي مركب ... والكف صِفر والطريق مخوف

(٢) الدر المنثور للسيوطي ١٤/ ٣٢٣.

(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٥٦٧.

(٤) المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ ١/ ٣٠٣.

أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤتوا العلم درجات.

وعن ابن عباس[١] فيما أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال: يرفع الله الذين آمنوا منكم وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتَوا العلم درجاتٍ.

وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود أيضًا قال: ما خصَّ الله العلماء في شيء من القرآن كما خصَّهم في هذه الآية، فضَّل الله الذين آمنوا وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتَوا العلم.

(وقال تعالى) في سورة آل عمران: (﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾) [آل عمران: ١٦٢ - ١٦٣] قال البيضاوي[٢]: شُبِّهوا بالدرجات لِما بينهم من التفاوت في الثواب والعقاب، أو هم ذوو درجات. ا.هـ.

وأخرج[٣] ابن أبي حاتم عن الحسن أنه سُئل عن هذه الآية فقال: للناس درجاتٌ بأعمالهم في الخير والشر.

وأخرج ابن المنذر[٤] عن الضحَّاك: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قال: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي فوقه فضله على الذي أسفل منه، ولا يرى الذي أسفل منه أنه فُضِّل عليه أحدٌ.

(والفضيلة) بين هؤلاء (نسبية) إضافية **(واستحقارنا)** طائفة **(الصيارفة)** الذين ينقدون الدراهم والدنانير ويميِّزون بين جيِّدها ورديئها **(عند قياسهم**

(١) في المطبوعة: وعن ابن مسعود. والمثبت من الدر المنثور.

(٢) تفسير البيضاوي ٢/ ٤٦.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٠٣.

(٤) تفسير ابن المنذر ص ٤٧٦ (ط - دار المآثر بالمدينة المنورة).

بالملوك) والأمراء وأحوالهم **(لا يدل علىٰ حقارتهم)** ونقص منزلتهم **(إذا قيسوا بالكنَّاسين)** والزبالين مثلاً **(فلا تظننَّ)** في نفسك **(أن ما نزل عن الرتبة القصوىٰ)** في الدرجة **(ساقط القَدْر)** والمنزلة مطلقًا **(بل الرتبة العليا)** في معرفة الله سبحانه التي هي أشرف المعلومات **(للأنبياء)** صلوات الله عليهم **(ثم الأولياء)** العارفين **(ثم العلماء الراسخين في العلم)** [أي] في علومهم **(ثم الصالحين)** من عباده **(علىٰ تفاوُت درجاتهم)** بحسب اختلاف قُرْبهم منه سبحانه.

وهذا السياق - أعني تقديم ذِكر الأولياء علىٰ العلماء - مرَّ له في بيان القَدْر المحمود من العلوم المحمودة واستشكلوه علىٰ المصنف، وسُئل عنه العز بن عبد السلام، فأجاب بصحة العبارة بما تقدم إجماله، وهو بطوله في كتاب «تأييد الحقيقة العليَّة» للسيوطي.

(وبالجملة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝﴾**)** [الزلزلة: ٧ - ٨] الذَّرَّة: النملة الصغيرة، وقيل: الهباء. قيل: أراد بهما حسنة الكافر وسيئة المجتنِب عن الكبائر أنهما تؤثِّران في نقص الثواب والعقاب. وقيل: الآية مشروطة بعدم الإحباط والمغفرة، أو الأولىٰ مخصوصة بالسعداء والثانية بالأشقياء؛ لقوله: ﴿أَشْتَاتًا﴾ قاله البيضاوي[(١)].

وهذه الآية هي الفاذَّة الجامعة، كما ورد في الصحيحين[(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي الدر المنثور للسيوطي[(٣)]: أخرج ابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه يأكلان إذ نزلت [عليه] هذه السورة، فأمسك رسول الله ﷺ يده عن الطعام، ثم قال: «مَن عمل منكم خيرًا فجزاؤه في

---

(١) تفسير البيضاوي ٥/ ٣٣٠.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ٣٣٠، ٤/ ٣٧٣. صحيح مسلم ١/ ٤٤٠.

(٣) الدر المنثور ١٥/ ٥٨٦. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

الآخرة، ومَن عمل منكم شرًّا يره في الدنيا مصيبات وأمراضًا، ومن يكن فيه مثقال ذرَّة من خير دخل الجنة».

وأخرج[١] عبد الرزاق[٢] وعبد بن حُمَيد وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أن النبي ﷺ دفع رجلاً إلىٰ رجل يعلِّمه، فعلَّمه حتىٰ بلغ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝﴾ قال: حسبي [فقال الرجل: يا رسول الله، أرأيت الرجل الذي أمرتني أن أعلمه لما بلغ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝﴾ قال: حسبي][٣] فقال النبي ﷺ: «دَعْه، فقد وُفِّق»[٤].

(ومَن قصد الله عَزَّوَجَلَّ) أي أراد السلوك إلىٰ معرفته (بالعلم أيَّ علمٍ كان) بشرط الإخلاص فيه (نفعه) في دنياه وآخرته (ورفعه) فيهما (لا محالة) البتَّة. وهذا الفصل أيضًا بتمامه في كتاب الذريعة، ونصه[٥]: العلم طريق إلىٰ الله تعالىٰ ذو منازل، قد وكَّل الله بكل منزل منها حَفَظة كحفظة الرباطات والثغور في طريق الحج والغزو، فمن منازله: معرفة اللغة التي عليها مبنَىٰ الشرع، ثم حفظ كلام رب العزَّة، ثم سماع الحديث، ثم الفقه، ثم علم الأخلاق والورع، ثم علم المعاملات، وما بين ذلك من الوسائط من معرفة أصول البراهين والأدلة، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ وكل واحد من هؤلاء الحَفَظة إذا عرف مقدار نفسه ومنزلته ودنا ووفَّىٰ حقَّ ما هو بصدده فهو في جهاد يستوجب من الله أن يحفظ مكانه ثوابًا علىٰ قَدْر عمله، لكن قلَّما ينفكُّ كل منزل منها من شرِّير في ذاته، وشَرِهٍ في مكسبه، وطالب

(١) السابق ١٥/ ٥٩٠.

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٨٨.

(٣) زيادة من الدر، وليست في تفسير عبد الرزاق.

(٤) في الدر وتفسير عبد الرزاق: فقه.

(٥) الذريعة ص ١٤٤.

لرياسته، وجاهل معجب بنفسه، يصير لأجل تنفيق سلعته صادفًا عن المنزل الذي فوق منزلته من العلم وعائبًا له، فلهذا ترىٰ كثيرًا ممَّن حصل في منزلة من منازل العلوم دون الغاية عائبًا لِما فوقه، وصارفًا عنه مَن رامه، فإن قدر أن يصرف عنه الناس بشبهة مزخرفة فعل وإلا نفَّر الناس عنه بوجه آخر، فهو ممَّن قال الله[1] تعالىٰ فيهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ الآية [فصلت: ٢٦] وما أرىٰ مَن هذا صنيعه إلا من الذين وصفهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٣].

(**الوظيفة العاشرة**)[2] من وظائف المتعلم التسعة: (**أن يعلم نسبة العلوم**) كلِّها (**إلىٰ المقصد**) الأعظم، ويميِّز بين كلٍّ من ذلك (**كَيْما يؤثِر**) أي يختار (**الرفيعَ القريب علىٰ البعيد**) الوضيع (**والمهمَّ**) المقصود بالذات (**علىٰ غيره، ومعنىٰ المهم**) لغةً: (**ما يهمُّك**) أي يحزنك فيما نويتَه وأردتَه وعزمتَ عليه في نفسك (**ولا يهمك إلا شأنك**) الذي أنت فيه وعليه (**في الدنيا والآخرة**) أي فيما يتعلق بهما، ,لذا أجاب الشافعي حين قال[3]: ما أفلح سمين قطُّ إلا محمد بن الحسن، وسُئل ـن ذلك: أن المرء لا يخلو إما أن يكون مهتمًّا في أمور دنياه أو في أمور آخرته، ولا حير في غيرهما، وهما لا يُبقيان شحمًا. هكذا ذكره غير واحد، وأورده الخطيب في تاريخه[4]، ولذا كان أصدق الأسماء همَّام والحارث (**وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذِّ الدنيا ونعيم الآخرة**) لأن ملاذَّ الدنيا زائلة، فمَن آثَرها علىٰ نفسه حُرم نعيم الآخرة، فهما كالمتضادَّينِ لا يجتمعان بحسب الكمال، فما نقص من الملاذِّ

---

(١) في المطبوعة: بشبهة من صرفه فعل من قال الله ... الخ. والعبارة مضطربة كما ترىٰ، والمثبت أعلاه من الذريعة.

(٢) وهي التاسعة في نسخة الشارح.

(٣) تقدم ذلك في الباب الثالث.

(٤) تاريخ بغداد ٢/ ٥٦٥ ولفظه: ما رأيت سميناً أخفَّ روحاً من محمد بن الحسن، وما رأيت أفصح منه، كنت إذا رأيته يقرأ فكأن القرآن نزل بلغته.

الدنيوية زِيدَ له في النعيم الأخروي، ومَن اختار النعيم الأخروي لم ينظر إلىٰ ملاذِّ الدنيا، وهذه أغلبية، وإلا فمنهم من يجمع الله له بينهما، فهو سعيد الدنيا والآخرة، كما أن منهم من يشقىٰ فيهما جميعًا فأحرق دنياه وآخرته (**كما نطق به القرآن**) في غير ما موضع (**وشهد له**) أي لصِدقه (**من نور البصائر ما يجري مجرىٰ العيان**) والمشاهَدة (**فالأهم**) في الحقيقة (**ما يبقىٰ**) نفعُه (**أبد الآباد**) بلا نفاد (**وعند ذلك تصير الدنيا**) في التشبيه والتمثيل (**منزلاً**) نزله ليتجاوز إلىٰ غيره (**و**) هذا (**البدن**) الذي رُكِّب فيه الروح (**مركِبًا**) ركبه ليوصله إلىٰ مراده (**والأعمال**) الصادرة منه (**سعيًا**) يسعىٰ بها (**إلىٰ المقصد**) الأعظم (**ولا مقصد**) في الحقيقة (**إلا لقاء الله تعالىٰ**) والفناء فيه، دونه تُقطَع الأعناق، ويضيق عن وصفه النطاقُ (**ففيه النعيم كلُّه**) وما عداه زائل لا يُعتدُّ به (**وإن كان لا يعرف في هذا العلم**) كما ينبغي. وفي نسخة: في هذا العالم (**قَدْره إلا الأقلُّون**) وقليلٌ ما هم (**والعلوم بالإضافة**) والنسبة (**إلىٰ سعادة لقاء الله عَزَّوَجَلَّ**) في دار كرامته ورضوانه (**والنظر إلىٰ وجهه الكريم**) من غير حجاب (**أعني**) أي أريدُ بالنظر: (**النظر الذي طلبه الأنبياء**) صلوات الله عليهم بما يليق بمقاماتهم العليَّة (**وفهموه**) إرشادًا من الله الكريم، وهي المعرفة الخاصة بعد الفحص (**دون ما سبق إلىٰ فهم العوام والمتكلمين**) قال بعضهم[1]: استعمال النظر في البصر - وهو تقليب الحَدَقة وتوجيهها إلىٰ المنظور إليه - أكثر عند العامة، وفي البصيرة أكثر عند الخاصة، فنظرُ الخواصِّ غير نظر العوام (**علىٰ ثلاث مراتب تفهمها بالموازنة بمثال**) أي بضرب مثال يوازنها؛ ليكون أدخل في الأذهان، وأسرع إلىٰ معرفتها (**وهو أن العبد**) مثلاً (**الذي عُلِّق عتقه**) من الرقبة[2] (**وتمكينه من المُلْك**) بضم الميم (**بالحج**) متعلق بقوله: عُلِّق (**و**) قد فسَّر ذلك بقوله: (**قيل له**) أي لذلك العبد: (**إن حججتَ**) بيت الله الحرام (**وأتممت**) المناسك كلها أداءً

(١) انظر: المفردات للراغب ص ٤٩٧. عمدة الحفاظ للسمين ٤/ ١٩٣.

(٢) كذا في المطبوعة، ولعل الصواب: الرق.

(**وصلتَ إلىٰ العتق والمُلْك جميعًا**) أي إلىٰ المقصدين العظيمين (**وإن ابتدأت**): شرعت [في] السفر (**بطريق الحج والاستعداد له**) بإحضار الزاد والراحلة (**وعاقك**) أي منعك (**في الطريق مانعٌ**) وفي نسخة: عائق، وهو بمعناه (**ضروريٌّ**) اضطرك إلىٰ ذلك (**فلك العتق**) فقط (**و**) هو (**الخلاص من شقاء الرق**) وتعبه (**فقط دون سعادة المُلْك**) وبين السعادة والشقاء تضادٌّ (**فله**) أي لهذا العبد المذكور (**ثلاثة أصناف من الشغل**) الشغل (**الأول: تهيئة الأسباب**) والاستعداد لها (**بشراء الناقة**) أو ما في حكمها (**وخرز الراوية**) لحملِ الماء، أو شرائها مخروزة (**وإعداد الزاد**): ما يقوت به نفسَه في الطريق علىٰ قَدْر الحال (**والراحلة**) فمجموع ما ذُكر أول أشغاله، وتندرج في ذلك أشغالٌ أخرىٰ (**والآخَر**) أي الشغل الثاني: (**السلوك**) أي المشي (**ومفارقة الوطن**) والأهل والأصحاب (**بالتوجُّه إلىٰ**) سَمْت (**الكعبة**) المشرَّفة (**منزلاً بعد منزل**) ومنهلاً بعد منهل (**والثالث: الاشتغال بأعمال الحج**) جميعًا (**ركنًا بعد ركن**) علىٰ الترتيب المعروف (**ثم بعد النزوع**) أي الخروج والفراغ (**عن هيئة الإحرام وطواف الوداع**) وهو آخر أركان الحج، وهل هو داخل فيه أمْ لا؟ فيه خلاف يأتي بيانه في ربع العبادات (**استحق**) الخلاصَ من الرق و(**التعرُّض للمُلْك والسلطنة**) أي استحق الوصول لهذين المقصدين (**وله في كل مقام**) من هذه المقامات (**منازل**) ومراتب (**من أول إعداد الأسباب إلىٰ آخره**) وذلك أول الشغل (**ومن أول سلوك البوادي**) والقِفار (**إلىٰ آخره**) وهو الشغل الثاني (**ومن أول أركان الحج إلىٰ آخرها**) وهو الشغل الثالث (**وليس قُرْب مَن ابتدأ في أركان**) وفي نسخة: بأركان (**الحج**) وشرع في إتمام المناسك (**من السعادة**) الكبرىٰ (**كقرب مَن هو بعد في إعداد الزاد والراحلة**) وهو الشغل الأول (**ولا كقرب من ابتدأ بالسلوك**) في الفَيافي، وهو الشغل الثاني (**بل هو أقرب منه**) لأن تلك وسائل للوصول إلىٰ هذه المقاصد (**فالعلوم أيضًا ثلاثة أقسام: قسم**) أول من ذلك (**يجري مجرىٰ**) أي يقوم مقام (**إعداد الزاد والراحلة وشراء الناقة**) كذا في سائر النسخ، وكأنه عطفُ تفسير

لِما قبله (وهو علم الطب والفقه وما يتعلق بمصالح البدن في الدنيا) فإن كلاً من ذلك وسائل، فعلم الطب به صلاح البدن الذي لا تقوم العبادات إلا به، وعلم الفقه فيه صلاح الظاهر من جهة التطهير وغيره (وقسم) ثانٍ (يجري مجرىٰ سلوك البوادي) جمع بادية، وهي الصحراء (وقطعِ العقبات) وهي الثنايا بين الجبال (وهو تطهير الباطن) بالرياضات (عن كدورات الصفات) الذميمة (وطلوع تلك العقبات الشامخة) أي المرتفعة العالية (التي عجز عنها) أي عن رقِّيها (الأوَّلون والآخِرون إلا الموفَّقين) الذين وفَّقهم الله تعالىٰ لقطعِها بلطف الهداية وخفيِّ العناية في كل عصر، لا يخلو منهم وقت ولا زمان (فهذا سلوك الطريق) الباطني، والظاهر عنوان الباطن (وتحصيل علمه) أي علم تطهير الباطن (كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله) وشِعابه ومناهله وأوديته، وما يوصل السالكَ وما يضلُّه (وكما لا يغني علم المنازل) والمجاهل (و) علم (طرق البوادي) المضِلَّة (دون سلوكها) وقطع رسومها (فكذلك لا يغني علمُ تهذيب الأخلاق) وتصفيتها من الرذائل (دون مباشرة التهذيب) بتدريب من المرشد الناصح اللبيب (ولكن المباشرة) في أمر (دون العلم) به أولاً (غير ممكن) ولذلك أُجريَ علم الطب والفقه مجرىٰ إعداد الزاد والراحلة (وقسم ثالث يجري مجرىٰ نفس الحج وأركانه) الذي هو المقصود لذاته من إعداد الزاد وقطعِ البوادي (وهو العلم بالله تعالىٰ وصفاته وملائكته وأفعاله) وما في ذلك من الأسرار الغريبة والمشاهد العجيبة، بل (وجميع ما ذكرناه في تراجم) علم (المكاشفة، وههنا) أيها السالك (نجاة) من الهلاك (وفوز بالسعادة) الأبدية، والتنكير فيها إشارة للتقليل (والنجاة حاصلة لكل سالك) في هذا (الطريق) بعد المباشرة (إذا كان غرضه المقصد الحق وهو السلامة) من الهلاك الأبديِّ (وأما الفوز بالسعادة) الكبرىٰ (فـ) ـإنه (لا يناله إلا العارفون بالله تعالىٰ) المتمكِّنون في معرفتهم باعتبار المقامات وبحسب الدرجات (فهم المقرَّبون) في حضرة الله جلَّ جلاله، وهم السابقون المشار إليهم بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [الواقعة: ١٠ - ١٢] (المنعَّمون في جوار الله

تعالىٰ) وكَنَفه **(بالروح)**[١]: الاستراحة، وقُرئ بالضم[٢]، وفُسِّر بالرحمة؛ لأنها كالسبب لحياة المرحوم، وفُسِّر أيضًا بالحياة الدائمة، وبالفرج من الغم والتعب **(والرَّيحان)**: الرزق الطيِّب، وقيل: ريحان الجنة **(وجنة النعيم، وأما الممنوعون دون ذروة الكمال)** أي لم ينتهضوا إلىٰ تحصيله بالكلية فمُنعوا من الوصول **(فلهم النجاة والسلامة)** من العذاب والمَقْت **(كما قال الله تعالىٰ:** ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ﴾) ذات (﴿نَعِيمٍ﴾) [الواقعة: ٨٨ - ٨٩] ثم[٣] إن المراد بالسابقين الذين ثبت لهم التقريب هم الذين سبقوا إلىٰ الإيمان والطاعة بعد ظهور الحق من غير تلعثُم وتَوانٍ، أو سبقوا في حيازة الفضائل والكمالات، أو هم الأنبياء صلوات الله عليهم؛ فإنهم متقدِّمو أهل الأديان (﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾﴾) أصحاب المنزلة السنيَّة، أو الذين يؤتَون صُحُفهم بأيمانهم (﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾) يا صاحب اليمين، أي نجاة لك (﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾) [الواقعة: ٩٠ - ٩١] من إخوانك. وأصحاب اليمين هم الذين أخبر الله عنهم ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الواقعة: ٢٨ - ٣٤] وأخرج[٤] ابن جرير[٥] وابن المنذر عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: تأتيه الملائكة من قِبَل الله تعالىٰ [بالسلام][٦] وتسلِّم عليه وتخبره أنه من أصحاب اليمين.

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي ٥/ ١٨٣ - ١٨٤. تفسير أبي السعود ٥/ ٢٦٩. الدر المنثور للسيوطي ١٤/ ٢٤٠ - ٢٤٣.

(٢) هي قراءة رويس والحسن البصري وقتادة وعاصم الجحدري ونصر بن عاصم وزيد عن يعقوب الحضرمي، ورويت عن ابن عباس. انظر: تفسير القرطبي ٢٠/ ٢٣١.

(٣) تفسير البيضاوي ٥/ ١٧٨، ١٨٤.

(٤) الدر المنثور ١٤/ ٢٤٤.

(٥) تفسير الطبري ١٤/ ٢١٣.

(٦) زيادة من الدر وتفسير الطبري.

وأخرج عبد بن حُمَيد وابن جرير[١] وابن المنذر عن قتادة بن النعمان[٢] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سلامٌ من عذاب الله، وتسلِّم[٣] عليه ملائكة الله.

(**وكل مَن لم يتوجَّه إلىٰ المقصد**) نوع توجُّهٍ (**ولم ينتهض له**) بكلِّيته ووسع رحمانيَّته (**أو انتهض إلىٰ جهته**) بكلِّيته لكن (**لا علىٰ قصد الامتثال والعبودية**) وهو الانقياد والتذلُّل لأوامر الله تعالىٰ (**بل لغرض عاجل**) وعلة دنيوية (**فهو من أصحاب الشِّمال**) الذين هم مشائيم علىٰ أنفسهم بمعصيتهم ومنزلتهم خسيسة، بل (**ومن**) المكذِّبين (**الضالِّين**) الذين ضلَّ سعيُهم (**فله نُزُلٌ**) وهو ما يقدَّم بين يدي الضيف (**من حميم**): ماء حارٌّ يكلَّف شربه، لا يقدر علىٰ إساغته (**وتصلية جحيم**) أي إدخال في جحيم النار.

وأخرج[٤] أحمد[٥] والبخاري[٦] ومسلم[٧] والترمذي[٨] والنسائي[٩] عن عُبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أحبَّ لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». فقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إنَّا لَنكرهُ الموت. فقال: «ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، وأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حُضِرَ بُشِّر بعذاب الله

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٨٠.
(٢) كذا قال الشارح، وهو سهو، فالقائل هو قتادة بن دعامة السدوسي التابعي، وهو المراد بقتادة في كتب التفسير عند الإطلاق، أما قتادة بن النعمان الصحابي المشهور فلا يُعرَف بالتفسير.
(٣) في الدر وتفسير الطبري: وسلمت.
(٤) الدر المنثور ١٤/ ٢٤٥ - ٢٤٦. واللفظ المذكور هو لفظ البخاري، أما الباقون فاقتصروا علىٰ الجزء الأول من الحديث دون قول عائشة وجواب النبي ﷺ لها.
(٥) مسند أحمد ٣٧/ ٣٧٠، ٤٠٨.
(٦) صحيح البخاري ٤/ ١٩٣.
(٧) صحيح مسلم ٢/ ١٢٣٦.
(٨) سنن الترمذي ٢/ ٣٦٦، ٤/ ١٤٣.
(٩) سنن النسائي ص ٢٩٦.

وعقوبته، فليس شيء أكره إليه ممَّا أمامه، وكره لقاء الله، وكره الله لقاءه».

وأخرج ابن مردويه والديلمي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ميت يموت إلا وهو يعرف غاسله، ويناشد حامله، إن كان بخير فروح وريحان وجنة نعيم أن يعجِّله، وإن كان بشرٍّ فنُزُلٌ من حميم وتصلية جحيم أن يحبسه».

(**واعلمْ أن هذا**) قد بيَّن المشارَ إليه فيما بعد قوله: أعني .. الخ (**هو حق اليقين عند العلماء الراسخين**) وهو مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥﴾ [الواقعة: ٩٥] أي المذكور في السورة لهو حق الخبر اليقين. وعن ابن عباس[١]: إن هذا، أي ما قصصناه عليك في هذه السورة، لَحقُّ اليقين (**أعني أنهم أدركوه بمشاهدة**) ومطالعة (**من**) أنوار (**الباطن**) بعد تصفيته (**وهو أقوىٰ وأجلَىٰ**) أي أكثر جلاءً عند أهل الاعتبار (**من مشاهدة الأبصار**) ومطالعتها (**وترقَّوا فيه**) علىٰ قَدْر هِمَمهم علىٰ مراتب عليا ووسطىٰ (**عن حد التقليد**) المحض (**بمجرد السماع**) من غير تلعثُم ولا تَوانٍ، وهذا من إفاضة الحق سبحانه عليهم، حيث أهَّلَهم لوصول هذا المقام (**وحالهم**) عند التحقيق (**حال مَن أُخبر**) عن الشيء مثلاً (**فصدَّق**) أولاً (**ثم شاهد**) بعين بصيرته (**فتحقق**) بفحواه، وانصبغ بمعناه، وكم بين التخلُّق التقليدي والتحقُّق الشهودي، وإليه أشار بقوله: (**وحال غيرهم**) من السالكين (**حال من قَبِلَ**) الحكم مثلاً (**بحسن التصديق والإيمان**) كأنه أراد بذلك الإذعان لِما صدَّقه إشارةً إلىٰ ما ذكره السعد في شرح العقائد[٢] أنه ليس حقيقة التصديق تصديق حكم الخبر أو المخبِر بل الإذعان لذلك، كما سيأتي البحث في ذلك عند ذكر الإيمان والإسلام (**ولم يَحْظَ بالمشاهدة والعيان**) أي لم يحظَ بهذا المقام بتخصيص من الله المنَّان؛ إذ الله يختص برحمته من يشاء (**فالسعادة**) الكبرىٰ والنيل بها (**وراء علم المكاشفة**) وتحصيله (**وعلم المكاشفة**) عند أهل السلوك (**وراء علم المعاملة التي هي سلوك**

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ١٤/ ٢٤٦ وعزاه لابن أبي حاتم في تفسيره.

(٢) شرح العقائد النسفية لسعد الدين التفتازاني ص ٧٨ (ط - مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة).

طريق الآخرة) قيَّده بذلك لئلاً يُتوهَّم من المعاملة ما هو المشهور بين الناس من سلوك الطرق التي عليها مَدار أمور الدنيا **(وقطع عقبات الصفات)** بمراتبها **(وسلوك طريق محق)** وفي نسخة: محو **(الصفات المذمومة وراء)** تحصيل **(علم الصفات وعلم طريق المعالجة)** لإزاحة تلك الصفات المذمومة **(وكيفية السلوك)** والتحلِّي به بعد ذلك التخلِّي **(وذلك)** أي معرفة ما ذُكر **(وراء علم)** أي معرفة ما به **(سلامة البدن، ومساعدة أسباب)** تحصل بها **(الصحةُ)** للمزاج **(وسلامة البدن)** من الآفات المانعة على أنواعها **(بالاجتماع والتظاهر والتعاون الذي يتوصَّل به إلىٰ)** تحصيل **(الملبس والمطعم والمسكن)** وقدَّم الملبس الذي به ستر العورات علىٰ المطعم لشدة الاحتياج إليه في حال الاجتماع، وما بعده علىٰ المسكن؛ لأنه به قوام البدن، والمشرب داخل فيه؛ لكونه من لوازمه غالبًا **(وهو منوط بالسلطان)** الأعظم أو من ينوب مَنابَه **(وقانونه)** الشرعي والعرفي **(في ضبط)** أحوال **(الناس)** علىٰ اختلافها **(علىٰ منهج العدل)** والاستقامة **(والسياسة)** الشرعية التي بها يحصل انتظامُ أمر المُلْك والرعية **(في ناحية الفقيه)** فإنه الذي يعرِّفهم بقوانينها **(وأما أسباب الصحة ففي ناحية الطبيب)** فهو الذي يعرِّفهم بقوانين ذلك من تشخيص الأمراض ومعرفة العلل وإزالتها بالأدوية **(ومن قال)** في تفسير القول المشهور الدائر علىٰ الألسنة: **(العلم علمانِ: علم الأبدان وعلم الأديان)** والمشهور أنه حديث، إلا أنه موضوع، كما في الخلاصة؛ نقله مُلاَّ علي في موضوعاته(١)، والصحيح أنه من قول الإمام الشافعي؛ نقله غير واحد(٢) **(وأشار)** بالجملة الأخيرة **(إلىٰ)** علم **(الفقه)** إنما **(أراد به العلوم الظاهرة الشائعة)** في المدارس، المبوَّبة في المصنَّفات من السَّلَم والظِّهار والإجارة والكفَّارات وغيرها **(لا العلوم العزيزة الباطنة)** مما يؤول نفعُها في تصفية القلب وسلوك طريق الآخرة.

---

(١) الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة لملا علي ص ٢٤٧ (ط - دار الأمانة).

(٢) تقدم في الباب الأول أن داود الأنطاكي نقله في تذكرته عن الإمام الشافعي.

(**فإن قلتَ: لِمَ شبَّهتَ علم الطب والفقه بإعداد الزاد والراحلة**) تحرير السؤال: حيث ذكرتَ أن العلم بأنواعه منحصر في الاثنين، فدلَّ مقتضاه على أنهما أشرف العلوم وأساسها، فما السر في تشبيههما في أول كلامك بإعداد الزاد والراحلة؟ فإن ما كان مشبَّهًا به جدير أن يكون خير مقصود للذات (**فاعلم أن الساعي**) في سلوكه باجتهاده (**إلى**) الوصول لمعرفة (**الله جل وعز لينال**) بذلك (**قُرْبه هو القلب**) خاصةً (**دون البدن**) كما يُرَى في الظاهر (**ولست أعني بالقلب**) الساعي (**اللحمَ**) الصنوبري (**المحسوس**) المشاهَد (**بل هو**) سر (**من أسرار الله تعالى**) غامض (**لا يدركه الحسُّ**) لقصوره عن إدراكه (**ولطيفة من لطائفه**) المعنوية، لا تعتورها الأفهامُ إلا بعد التوقيف من مرشد كامل (**تارةً يعبَّر عنه بالروح**) الإنساني، وبه فُسِّر قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ۝﴾ [الحج: ٤٦] وهذا هو الظاهر في تفسيره، وقيل: العقل، وأنكره الراغب[١]. وتحقيق المقام: أن القلب لغةً: التصريف، سُمِّي به لكثرة تقلُّبه، ويعبَّر به عن المعاني التي تختص به من الروح والعلم والشجاعة، فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] ومن الثاني قوله تعالى: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] أي علم وفهمٌ، ومن الثالث قوله تعالى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠] أي تثبت به شجاعتكم (**وتارةً أخرى يعبَّر** (**بالنفس المطمئنَّة**) أي الساكنة لِما علمتْ من رضا ربها بامتثال أمره واجتناب نهيه. والأنفُس ثلاثة: أمَّارة ولوَّامة ومطمئنة، وأعلاها الثالثة، وأدناها الأولى. وسيأتي التفصيل في ذلك عند ذكر النفوس (**والشرع يعبِّر عنه بالقلب**) لنكتة خاصة وهي (**لأنه المطيَّة الأولى لذلك السر**) الذي لا يدركه الحس (**وبواسطته صار جميع البدن مطية**) لسريان سرِّه فيه (**وآلة لتلك اللطيفة**) يتوصل إلى معرفتها بسببه (**وكشفُ الغطاء**) باللسان (**عن ذلك السر**) الغامض (**من**) جملة (**علم المكاشفة،**

---

(١) المفردات ص ٤١٢ ونصه: «أما العقل فلا يصح عليه ذلك، ومجازه مجاز قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ والأنهار لا تجري، وإنما تجري المياه التي فيها».
وانظر: عمدة الحفاظ للسمين ٣/ ٣٣٠.

وهو مضنون به) أي مبخول به في الذِّكر **(بل لا رخصة في ذكره)** وقد رُوي[1] عن الحسن عن حذيفة: سألت النبي ﷺ عن علم الباطن ما هو؟ فقال: «سألت جبريل عنه، فقال عن الله: هو سرٌّ بيني وبين أحبَّائي وأوليائي وأصفيائي، أُودِعه في قلوبهم، لا يطَّلع عليه مَلَك مقرَّب، ولا نبي مرسَل». وقد تُكُلِّم في سماع الحسن عن حُذَيفة، وحُكم على هذا الحديث بالوضع[2] **(وغاية المأذون فيه أن يقال: هو جوهر نفيس ودُرٌّ عزيز)** أراد بالجوهر: المعنى اللغوي؛ لمناسبة ما بعده، لا المعنى الذي ذكره الحكماء هو أنه ماهية إذا كانت في الأعيان كانت لا في موضع، وحصروه في خمسة: هَيُولي، وصورة، وجسم، ونفْس، وعقل[3] **(أشرف من هذه الأجرام المرئية)** أي المشاهَدة، والأجرام: الأجسام، وقد يطلق الجِرْم على اللون أيضًا، كقولهم: نجاسة لا جرم لها[4] **(وإنما هو أمرٌ إلهيٌّ، كما قال تعالى)** في سورة بني إسرائيل: (﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾) [الإسراء: ٨٥] قال البيضاوي[5]: أي الروح الذي يحيا به بدن الإنسان ويدبِّره (﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾) من الإبداعيات الكائنة بـ «كنْ» من غير مادة وتولُّد من أصل كأعضاء جسده، أو وُجد بأمره وحدث بتكوينه، على أن السؤال عن قِدَمه وحدوثه، وقيل: مما استأثر الله بعلمه؛ لِما رُوي أن اليهود قالوا لقريش: سَلُوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي. فبيَّن

---

(١) رواه الديلمي في فردوس الأخبار ٢/ ٤٤٢.

(٢) وذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة المرفوعة ١/ ٢٨٠ بلفظ: قال الحسن: سألت حذيفة عن علم الباطن ما هو؟ فقال: سألت النبي ﷺ عن علم الباطن ما هو؟ فقال: سألت جبريل عن علم الباطن ما هو؟ فقال: سألت الله عَزَّوَجَلَّ عن علم الباطن ما هو؟ فقال: يا جبريل، هو سر ... الخ. وعزاه للديلمي من طريق عبد الواحد بن زيد وعنه أحمد بن غسان، ثم قال: «قال الحافظ ابن حجر في زهر الفردوس: هذا موضوع، والحسن ما لقي حذيفة أصلًا».

(٣) التعريفات للجرجاني ص ٨٣.

(٤) المصباح المنير للفيومي ص ٣٨.

(٥) تفسير البيضاوي ٣/ ٢٦٥.

لهم القصتينِ، وأبهم أمر الروح، وهو مبهم في التوراة. وقيل: الروح: جبريل. وقيل: خَلْقٌ أعظم من المَلَك. وقيل: القرآن، و«من أمر ربِّي» معناه: من وحيه. ا.هـ.

وقال ابن الكمال[١]: الروح الإنساني [هو] اللطيفة العالمة المدرِكة من الإنسان، الراكبة علىٰ الروح الحيواني، نازل من عالَم الأمر، تعجز العقول عن إدراك كُنْهه، وتلك الروح قد تكون مجرَّدة، وقد تكون منطبعة علىٰ البدن، وأما الروح الحيواني فجسم لطيف، منبعه تجويف القلب الجسماني، وينتشر بواسطة العروق الضوارب إلىٰ سائر أجساد البدن، والروح الأعظم الذي هو الروح الإنساني مظهر الذات الإلهية من حيث ربوبيَّتها، ولذلك لا يمكن أن يحوم حولها حائمٌ، ولا يروم وَصْلها رائمٌ، لا يعلم كُنْهها إلا الله، ولا ينال هذه البُغْية سواه، وهو العقل الأول، والحقيقة المحمدية، والنفس الواحدة، والحقيقة الأسمائية، وهو أول موجود خلقه الله تعالىٰ علىٰ صورته، وهو الخليفة الأكبر، وهو الجوهر[٢] النوراني، جوهريته مظهر الذات النورانية[٣]، ويسمَّىٰ باعتبار الجوهرية نفسًا واحدة، وباعتبار النورانية عقلاً أولاً، وكما أن له [في العالَم الكبير] مظاهر وأسماء من العقل الأول والعلم[٤] الأعلىٰ والنور والنفس الكلية واللوح المحفوظ وغير ذلك، له في العالَم الصغير الإنساني مظاهر [وأسماء] بحسب ظهوراته ومراتبه في اصطلاح أهل الله [وغيرهم] وهي: السر الخفي، والروح، والقلب، والكلمة، [والرُّوع] والفؤاد، والصدر، والعقل، والنفْس، فتأمَّل ذلك ترشد.

(و)إن قال قائل: (كل المخلوقات منسوبة إلىٰ الله تعالىٰ) فما وجه تخصيصه بالإضافة إليه؟ فأجاب بقوله: (**ولكن نسبته أشرف من نسبة سائر أعضاء البدن**)

---

(١) التعريفات للجرجاني ص ١١٧. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٢) في المطبوعة: الجرم. والمثبت من التعريفات.

(٣) في التعريفات: جوهريته مظهر الذات، ونورانيته مظهر علمها.

(٤) في التعريفات: والقلم.

فالإضافة هنا تشريفية، كما يقال: بيت الله، وناقة الله (**فلله**) عز وجل (**الخَلْق والأمر جميعًا**) لا يشاركه أحدٌ فيهما، سبحانه وتعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤] أي[١]: فإنه الموجِد والمتصرِّف، خلق العالَم علىٰ ترتيب قويم وتدبير حكيم، فأبدع الأفلاك، ثم زيَّنها بالكواكب، وعمد إلىٰ إيجاد الأجرام السفلية، فخلق جسمًا قابلاً للصور المتبدِّلة والهيئات المختلفة، ثم قسَّمها لصور نوعية متضادَّة الآثار والأفعال، ثم أنشأ [أنواع] المواليد الثلاثة بتركيب موادِّها أولاً، وتصويرها ثانيًا، ثم لمَّا تم له عالَم المُلْك عمد إلىٰ تدبيره[٢] فدبَّر الأمر من السماء إلىٰ الأرض بتحريك الأفلاك، وتسيير الكواكب، وتكوير الليالي والأيام، ثم صرَّح بما هو فذلكة التقدير ونتيجته فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾.

(**والأمر أعلىٰ من الخلق**) نظرًا إلىٰ ما ذكرنا (**وهذه الجوهرة النفيسة الحاملة لأمانة الله تعالىٰ**) قيل: هي كلمة التوحيد، وقيل: العقل، وقيل: الطاعة؛ قاله الحسن، وقيل: العبادة، وقيل: حروف التهجِّي، وقيل غير ذلك[٣] (**المتقدمة بهذه الرتبة علىٰ السموات والأرضين والجبال؛ إذ أبينَ**) أي امتنعنَ (**أن يحملنها**) لثقلها (**وأشفقن منها**) أي خفنَ بمهابة (**من عالَم الأمر**) ولذا أُضيفَ إلىٰ الله تعالىٰ (**ولا يُفهَم من هذا**) الذي أوردناه (**أنه تعريض**) وتلويح (**بقِدَمها**) أي الروح نظرًا إلىٰ كونها من أمر الرب (**فإن القائل بقِدَم الأرواح**) كالفلاسفة ومَن علىٰ قدمهم (**مغرورٌ**) في زعمه (**جاهل**) فيما يبديه (**لا يدري ما يقول**) ولا يميِّز خطأه من صوابه.

ولما أطال في بحث هذه المسألة أدَّاه تحقيقُه لها إلىٰ الخروج عن أصل كلامه الذي أبداه فأشار لذلك وقال: (**ولنقبضْ عنان البيان**) أي نمسك (**عن**) التوغُّل في (**هذا الفن**) الذي هو الكلام (**فهو وراء ما نحن بصدده**) أي طلبه وبيانه (**والمقصودُ**)

---

(١) تفسير البيضاوي ٣/ ١٦. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٢) بعده في تفسير البيضاوي: كالملك الجالس علىٰ عرشه لتدبير المملكة.

(٣) عمدة الحفاظ للسمين ١/ ١٢٠.

من ذلك كله (**أن هذه اللطيفة**) الحاملة لأمانة ربها (**هي الساعية إلىٰ قُرْب الرب**) عَزَّوَجَلَّ (**لأنها من أمر الرب**) تعالىٰ (**فمنه مصدرها، وإليه مرجعها**) ومآلها (**وأما البدن فمطيَّتها التي تركبها**) في قطع بوادي السلوك (**وتسعىٰ بواسطتها**) إلىٰ ملك الملوك (**فالبدن لها**) أي للروح (**في**) سلوك (**طريق الله** عَزَّوَجَلَّ **كالناقة**) مثلاً (**للبدن في طريق الحج، أو كالراوية الحاوية**) أي الحاملة. وفي نسخة: الخازنة (**للماء الذي يفتقر**) أي يحتاج (**إليه البدن**) في حفظ صحته (**فكل علم مقصده**) الأعظم (**صحة**) وفي نسخة: مصلحة (**البدن فهو من جملة مصالح**) تلك (**المطية**) المذكورة (**ولا يخفىٰ أن**) علم (**الطب كذلك؛ فإنه قد يحتاج إليه**) أحيانًا (**في حفظ الصحة علىٰ البدن**) إذا خالف المزاج (**ولو كان الإنسان وحده لاحتاج إليه**) في حفظ الصحة (**و**) علم (**الفقه يفارقه في أنه لو كان الإنسان وحده**) مثلاً (**ربما كان يستغني عنه**) ولا يحتاج إليه (**ولكنه**) أي الإنسان (**خُلِقَ**) مدني الطبع (**علىٰ وجهٍ لا يمكنه أن يعيش وحده**) لا بد من افتقاره إلىٰ الغير (**إذ**) من المعلوم البيِّن أنه (**لا يستقل**) أي لا ينفرد بنفسه (**بالسعي**) والاهتمام (**وحده في تحصيل طعامه**) الذي يتناوله (**بالحراثة والزرع والخَبْز والطبخ**) فافتقر إلىٰ أكَّار وزَرَّاع وخباز وطباخ، وكأنه أراد بالحراثة حفر الأرض وتهيئتها للزرع، فلذلك قلنا: إلىٰ أكَّار، وإلا فهي والزرع من وادٍ واحد (**وفي تحصيل الملبس والمسكن**) الذي يأوي إليه (**وفي**) تحصيل (**إعداد آلات ذلك كله**) فلحفرِ الأرض آلات من حديد فاحتاج إلىٰ الحدَّاد، ومن خشب كالجبان ونحوه فاحتاج إلىٰ نجار، وللطبخ آلات متعددة أعظمها الأواني، إن كانت من طين فإلىٰ فَخَّار، أو من نُحاس فإلىٰ نَحَّاس، وآلات الملبس والمسكن كثيرة، ويندرج بعضها في بعض (**فاضطر**) قطعًا (**إلىٰ المخالطة**) مع الناس (**والاستعانة**) في أموره بهم. وهذا البحث قد أورده صاحب الذريعة في الفصل السادس منه فقال[1]: لمَّا صعب علىٰ كل أحد أن يحصِّل لنفسه أدنىٰ ما يحتاج إليه إلا بمعاونة غيره

---

(١) الذريعة ص ٢٦٢.

له، فلقمة طعام لو عددنا تعب تحصيلها من الزرع والطحن والخَبْز وصُنَّاع آلاتها لصعب حصره، فلذلك احتاج الناس أن يجتمعوا [فرقة] فرقة متظاهرينَ، ولأجل ذلك قيل: الإنسان مدني بالطبع [أي] لا يمكنه التفرُّد عن الجماعة بعيشه، بل يفتقر بعضهم إلىٰ بعض في مصالح الدين والدنيا، وعلىٰ ذلك نبّه ﷺ بقوله: «المؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضًا». وقوله: «مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتعاطفهم وتراحُمهم مثل الجسد [الواحد] إذا تألَّم بعضُه تداعَىٰ سائرُه». وقيل: الناس كجسد واحد، متىٰ عاون بعضه بعضًا استقلَّ، ومتىٰ خذل بعضه بعضًا اختلَّ.

(**ومهما اختلط الناس**) بعضهم ببعض علىٰ اختلاف مراتبهم (**وثارت**) أي هاجت (**شهواتهم**) التي جُبِلوا عليها (**تجاذبوا أسبابَ الشهوات**) وتعاوروها بمقتضىٰ بشريَّتهم من ترفُّع وتكبُّر وتحاسُد (**وتنازعوا**) لذلك وتخاصموا، بل (**وتقاتلوا**) بالأسلحة (**وحصل من قتالهم**) مع بعضهم (**هلاكهم**) بإزهاق الأرواح من الأجساد (**بسبب التنافس من خارج، كما يحصل هلاكهم بسبب تضادِّ الأخلاط**) الأربعة (**من داخل**) أي من داخل البدن (**وبالطب**) أي بمعرفته (**يُحفَظ الاعتدال في الأخلاط المتنازعة من داخل**) البدن (**وبالسياسة والعدل**) أي بمعرفتهما (**يُحفَظ الاعتدال في التنافس من خارج، وعلم طريق اعتدال الأخلاط**) وجريها علىٰ نهج الصحة (**طبٌّ**) اصطلاحًا (**وعلم طريق اعتدال أحوال الناس**) بتبايُنها (**في المعاملات**) الدنيوية (**والأفعال**) الصادرة منهم (**فقهٌ**) إذ به حراستهم عن الوقوع فيما لا ينبغي (**وكل ذلك لحفظ البدن**) إما من داخل أو من خارج (**الذي هو مطيَّة**) للوصول في السير (**فالمتجرِّد**) بهمته (**لعلم الفقه أو الطب إذا لم يجاهد نفسه**) بالرياضات الشاقَّة (**ولم يُصلِح قلبَه**) بإخلائه عما سوىٰ الله تعالىٰ (**كالمتجرِّد لشراء الناقة وعلفها**) وما تحتاج إليه (**وشراء الراوية وخرزها**) ودهنها (**إذا لم يسلك باديةَ الحج**) بنفسه (**و**) مثل (**المستغرِق عمره**) الباذل جهده (**في**) تحصيل (**دقائق الكلمات**) ونِكاتها ومشكلاتها (**التي تجري في مجادلات الفقه**)

ومباحثاته (كالمستغرق عمره في دقائق الأسباب التي بها تستحكم الخيوط) والسيور (التي تُخرَز) أي تُخاط (بها الراوية للحج، ونسبة هؤلاء) أي المشتغلين بالفقه (من السالكين لطريق إصلاح القلب) بالرياضات الشرعية (والواصلين إلىٰ علم المكاشفة) في منتهىٰ سيرهم (كنسبة أولئك) أي المشتغلين بشراء الناقة والراوية (إلىٰ سالكي طريق الحج أو ملابسي أركانه) الأول بالنسبة إلىٰ إصلاح القلب، والثاني بالنسبة إلىٰ علم المكاشفة (فتأمَّل) بفكرك الصحيح (هذا أولاً) مع قطع النظر عن الحال التي درج عليها مشايخُك، ولا تقل: إنَّا وجدنا آباءنا هكذا وإنَّا علىٰ آثارهم مقتدون (واقبَلِ النصيحة) الخالصة (مجانًا) بلا عِوَض (ممَّن) أي من مرشد مخلص مجرِّب (قام عليه) أي علىٰ وجدانه. وفي نسخة: قامت عليه (ذلك غالبًا) علىٰ نفسه (ولم يصل إليه إلا بعد جهد شديد) ومعاناة الأمور (وجراءة تامة) أي إقدام كامل (علىٰ مباينة الخَلْق) من (العامة والخاصة في النزوع) أي الإقلاع (من تقليدهم) المحض (بمجرد الشهوة) النفسية، وهذا في زمانه والشريعة رَطْبة غَضَّة، والدين غاضٌّ بأركانه وأعلامه، فما بالك في زماننا الآن، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم.

(فهذا القَدْر) الذي حرَّرناه (كافٍ في وظائف المتعلم) لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد، وقد ترك المصنِّف وظيفة عاشرة من وظائف المتعلم[(١)] ذكرها صاحب الذريعة، وهي[(٢)]: أنه يجب أن لا يخوض في فن حتىٰ يتناول من الفن الذي قبله علىٰ الترتيب بلغته، ويقضي منه حاجته، فازدحام العلم في السمع مَضَلَّة للفهم، وعلىٰ هذا قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١] أي لا يتجاوزون فنًّا حتىٰ يُحكِموه علمًا وعملاً، فيجب أن يقدِّم

(١) تقدم الكلام علىٰ ذلك عند ذكر الوظيفة السابعة.

(٢) الذريعة ص ١٤٦.

الأهم فالأهم من غير إخلال في الترتيب، وكثير من الناس مُنعوا[1] الوصول لتركهم الأصول، وحقُّه أن يكون قصده من كل علم يتحرَّاه التبلُّغ به إلىٰ ما فوقه حتىٰ يبلغ النهاية.

ثم شرع في بيان وظائف المعلم فقال:

(١) في الذريعة: ثكلوا.

بيان وظائف المعلم المرشد

وفي بعض النسخ بتقديم المرشد على المعلم، وفي أخرى «و» بواو العطف.

وإنما وصفه بالمرشد لأن القصد من التعليم في الحقيقة هو الإرشاد إلى سبيل الله، ومتى فارقه لم ينفعه، وذهب نَصَبُه مجانًا، وقد يكون المراد بالمعلم لطريق الظاهر، وبالمرشد لطريق الباطن، وجمع بينهما ليعم جميعَ أنواع التعليم.

(**اعلم أن للإنسان في علمه**) إذا أراد تحصيله. ونص الذريعة[1]: في استفادة العلم وإفادته (**أربعة أحوال**) لا يخلو منها (**كما أن له في اقتناء الأموال**) وتحصيلها أربعة أحوال أيضًا (**إذ لصاحب المال حالة استفادة**) من أيِّ وجه كان (**فيكون**) بها (**مكتسِبًا، و**) له أيضًا (**حال ادِّخار**) وجمع (**لِما اكتسبه**) وحصَّله (**فيكون به غنيًّا عن السؤال**) أي يحصل له بذلك حالة عفَّته عن التطلُّع إلى الغير (**وحال إنفاق على نفسه**) بصرفه فيما يحتاج إليه من مطعم ومشرب وملبس ومنكوح ومسكن ومركوب (**فيكون به منتفعًا**) قاصرًا ذلك على نفسه، وفي معناه إذا أنفق على عياله فيما يحتاجون إليه؛ لأنهم في الحقيقة بمنزلة نفس الإنسان (**وحال بذل لغيره**) من المستحقِّين وذوي الحاجات. ونص الذريعة: وحال إفادته غيره (**فيكون به سخيًّا متفضلاً**) والسخاء: إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي، وتحته أنواع[2]، والتفضُّل هو التطوُّع. زاد المصنف: (**وهو أشرف أحواله**) وأكملها وأجَلُّها؛ لتعدِّي نفعه إلى الغير؛ قاله صاحب الذريعة (**فكذلك العلم يُقتنَى**) ويُجمَع (**كما يُقتنَى المال، فله**) أي للعلم أربعة أحوال أيضًا (**حال طلب واكتساب**) من هنا ومن هنا (**وحال تحصيل**) وادِّخار (**يغني عن السؤال**) والالتفات إلى الغير (**وحال استبصار**) واستنارة (**وهو التفكُّر**) والتدبُّر (**في المحصَّل**) أي فيما حصَّله (**والتمتع**) أي

---

(١) الذريعة ص ١٤٨.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف ص ١٩٢ وذكر له تعريفا آخر وهو: بذل المال قبل إلحاف السائل.

الانتفاع (به، وحال تبصير) لغيره وهو التعليم، وهو بمنزلة إنفاق المال للغير (وهو **أشرف الأحوال**) وأكملها؛ لتعدّي نفعه؛ أما شرف العلم فظاهر بما سبق، وأما[1] شرف العمل فإن العلم يُراد له؛ فإنه بمنزلة الدليل للسائر، فإذا لم يَسِر خلف الدليل لم ينتفع بدلالته، فنزل منزلة مَن لم يعلم شيئًا[2]، كما أن مَن ملك ذهبًا وفضة وجاع وعَرِيَ ولم يشترِ منهما ما يأكل ويلبس فهو بمنزلة الفقير العادم، كما قيل:

ومَن ترك الإنفاق عند احتياجه   مخافة فقرٍ فالذي فعل الفقرُ[3]

فإذا ثبت للمرء العلم والعمل وهما شريفان فالعلم أشرف كما قال، وقد أشار إلىٰ مقام التحصيل والتمتع والتبصير بقوله: (**فمَن عَلِمَ**) أي حصَّل العلم باكتسابه (**وعمل**) أي انتفع به بعد تحصيله (**وعلَّم**) أي أنفقه علىٰ غيره (**فهو الذي يُدعَىٰ عظيمًا في ملكوت السماء**) وهذا قد تقدم للمصنف في باب فضيلة التعليم، وعزاه إلىٰ سيدنا عيسىٰ عليه السلام، وذكرنا هنالك أن العراقي لم يخرِّجه ولم يُشِر إليه، وقد أخرجه أبو خيثمة زهير بن حرب في كتاب العلم من طريق عبد العزيز بن ظبيان قال: قال المسيح عيسىٰ ابن مريم: مَن تعلَّم وعلَّم وعمل فذاك يُدعَىٰ عظيمًا في ملكوت السماء (**فإنه كالشمس**) المنيرة (**تضيء لغيرها**) بأنوارها (**وهي مضيئة في نفسها**) وقد كثر تشبيهُ العلماء العاملين المفيدين بالشمس وبالقمر في كلامهم وسياقاتهم نظمًا ونثرًا (**وكالمسك**) أيضًا، وهو طِيب معروف، وقد ورد: «أطيب الطِّيب المسك»[4] (**الذي يطيِّب غيرَه**) بمجرد المجاورة ولو لم يلامسه (**وهو**

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/ ٣٤٤.

(٢) بعده في المفتاح: لأن من علم ولم يعمل بمنزلة الجاهل الذي لا يعلم.

(٣) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ص ١٨٩، ولكن الرواية فيه:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله   مخافة فقر فالذي فعل الفقر

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ٢/ ١٠٧١ من حديث أبي سعيد الخدري، ولفظه: «كانت امرأة من بني إسرائيل قصيرة تمشي مع امرأتين طويلتين، فاتخذت رجلين من خشب وخاتمًا من ذهب مغلق مطبق، ثم حشته مسكًا وهو أطيب الطيب، فمرت بين المرأتين فلم يعرفوها، فقالت بيدها هكذا». ونفض شعبة يده.

طيِّب) في نفسه. واقتصر في تشبيهه لهم بالشمس والمسك؛ لكون كلٍّ منهما أشرف في جنسه وأعم نفعًا، فالشمس أشرف الأجرام العلوية، ونفعها بيِّنٌ، والمسك أشرف الروائح الطيِّبة، ومنافعه مشهورة، وأما تضرُّر بعضهم منه فلضعف المزاج.

ونص الذريعة: ومَن أصاب مالاً فانتفع به ونفع مستحقِّيه كان كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة، والمسك الذي يطيِّب [الناس][1] وهو طيِّب، وهذا أشرف المنازل، ثم بعده مَن استفاد علمًا فاستبصر به.

(والذي يعلم) أي يحصِّل العلمَ **(ولا يعمل به)** فإنه **(كالدفتر)** كجعفر، وحُكي كسر الدال عن الفَرَّاء، وحكاه[2] كُراع عن اللِّحْياني، وهو عربي صحيح، كما في المصباح[3]، فيُلحَق بنظائر «درهم»، وهو جماعة الصحف المضمومة. وقال الجوهري[4]: واحد الدفاتر وهي الكراريس. وفي القاموس: جماعة الصحف المضمومة. وقال ابن دريد: ولا يُعرَف له اشتقاق، وبعض العرب يقول: تفتر، بالتاء على البدل، وقيل: هو جريدة الحساب. ونص الذريعة: فأما مَن أفاد غيره علمه ولم ينتفع هو به فكالدفتر **(الذي يفيد غيرَه)** بالمطالعة فيه والاستفادة منه **(وهو خالٍ عن العلم)** بنفسه. ونص الذريعة: يفيد غيره الحكمة وهو عادمها. ثم قال: **(و)** هو أيضًا **(كالمِسَنِّ)** بكسر الميم، حجر معروف يُسَنُّ عليه الحديد، جمعه: مَسَانُّ **(الذي يشحذ)** أي يسنُّ **(غيرَه)** من الحديد **(ولا يقطع)** بنفسه، ولذلك قيل[5]:

فما أنت إلا كشِبْه المِسَنِّ يسنُّ الحديد ولا يقطع

(و) هو أيضًا مثل **(الإبرة)** وهي المخيط **(التي تكسو غيرها)** بعملها **(وهي**

---

(١) زيادة من الذريعة.

(٢) تاج العروس ١١/ ٣٠٤.

(٣) المصباح المنير ص ٧٥.

(٤) الصحاح للجوهري ٢/ ٦٥٩.

(٥) تقدم هذا البيت في الفصل الرابع من ترجمة الغزالي أول الكتاب، ولكن برواية أخرى.

عارية) دائمًا. ونص الذريعة: وكالمغزل يكسو ولا يكتسي. ثم قال: **(و)** هو أيضًا مثل **(ذُبالة المصباح)** بالضم، أي فتيلته، وفي معناه ذُبالة الشمع **(تضيء لغيرها)** بأنوارها **(وهي تحترق)** بنفسها من غير فائدة لها **(كما قيل)** في معناه:

(ما هو إلا ذُبالة وُقِّدتْ)

وفي مختصر الأصل للمراغي:

صرتُ كأنّي ذُبالة نُصبتْ **(تضيء للناس وهي تحترق)**[1]

وقد أخرج الطبراني في الكبير وابن ماجه والضياء المقدسي في المختارة من حديث جندب رضي الله عنه رفعه: «مَثَلُ العالم الذي يعلِّم الناس الخير وينسىٰ نفسه كمَثَل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه»[2].

وأخرج الطبراني أيضًا والبزار[3] عن أبي برزة الأسلمي بسند فيه ضعفٌ: «مَثَلُ الذي يعلِّم الناس الخير وينسىٰ نفسه مثل الفتيلة التي تضيء للناس وتحرق نفسها».

وقد ترك المصنف قسمًا ثالثًا ذكره صاحب الذريعة وهو: مَن استفاد علمًا ولم ينتفع به هو ولا [نفع] غيره فإنه

كالنخل يشرع شوكًا لا يذود به عن حمله كفَّ جانٍ ولا منتهب[4]

(ومهما اشتغل بالتعليم) بعد تهذيب نفسه بالعلم **(فقد تقلَّد أمرًا عظيمًا)** أي

---

(١) البيت للعباس بن الأحنف، وهو في ديوانه ص ١٩٧ (ط - دار الكتب المصرية) كالرواية التي عزاها الشارح لمختصر المراغي.

(٢) تقدم هذا الحديث في الباب الرابع، وليس هو في سنن ابن ماجه.

(٣) وأخرجه أيضًا الخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل ص ٥٠.

(٤) البيت لابن الرومي، وهو في ديوانه ١/ ١٦٣، وقبله:

رأيتكم تستعدون السلاح ولا تقاتلون ولا يحمىٰ لكم سلب

تحمَّل أمرًا يعظُم وَقْعُه في النفوس (**وخطرًا جسيمًا**) الخَطَر بالتحريك في الأصل: السبق يُتراهَن عليه، ثم استُعير للشرف والمَزِية وقَدْر الرجل، ويقال: هو على خطر عظيم، أي إشراف على الهلاك، والجمع: الأخطار (**فليحفظ آدابه**) اللازمة له (**و**) يستعمل (**وظائفه**) التي تُذكَر هنا.

(**الوظيفة الأولى**) من الوظائف السبعة[1]: (**الشفقة على المتعلمين**) بصرف الهمَّة إلى إزالة المكروه عنهم (**وأن يُجريهم مجرى بنيه**) في تلك الشفقة (**قال رسول الله ﷺ: إنما أنا لكم مثل الوالد**) قال العراقي[2]: أخرجه أبو داود[3] والنسائي[4] وابن ماجه[5] وابن حبان[6] من حديث أبي هريرة.

قلت: ونص أبي داود في سننه في باب كراهة استقبال القِبلة عند الحاجة: حدثنا عبد الله بن محمد النُّفَيلي، حدثنا ابن المبارك، عن محمد بن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلِّمكم، فإذا أتى أحدُكم الغائطَ فلا يستقبل القبلة، ولا يستدبرها، ولا يستطيب بيمينه». وكان يأمر بثلاثة أحجار، وينهى عن الرَّوْث والرِّمَّة.

قال الحافظ المنذري في مختصره: وأخرجه أيضًا مسلم مختصرًا[7]، والنسائي وابن ماجه تامًّا.

---

(١) كذا هنا وفي غير موضع، والمذكور ثمان وظائف وليس سبعة.

(٢) المغني ١/ ٣٥.

(٣) سنن أبي داود ١/ ١٥٣.

(٤) سنن النسائي ص ١٥.

(٥) سنن ابن ماجه ١/ ٢٧٩.

(٦) صحيح ابن حبان ٤/ ٢٨٨.

(٧) صحيح مسلم ١/ ١٣٦. ولفظه: «إذا جلس أحدكم على حاجته فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها». وليس فيه: إنما أنا لكم ... الخ.

قلت: قال السيوطي في جامعه[١]: أخرجه الإمام أحمد[٢] وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان. أي كلهم في الطهارة عن أبي هريرة.

قال المناوي: وفيه محمد بن عجلان، وفيه كلام.

قلت: وفي ترتيب الكامل لابن عدي للحافظ ابن طاهر المقدسي[٣]: رواه معدان بن عيسىٰ عن محمد بن عجلان عن القعقاع عن أبي صالح عن أبي هريرة، ومعدان هذا قال ابن عدي[٤]: لا أعرفه، حدَّث عن محمد بن عجلان بأحاديث الكبار، حدثنا عنه أبو عيسىٰ الدارمي خالد بن غسان بن مالك[٥]، ولا أعلم حدَّث عنه غيرُه، وهذه أحاديث صفوان بن عيسىٰ عن محمد، فحدثنا بها أبو عيسىٰ قال: حدثنا معدان، ولم يتهيَّأ له أن يذكر صفوان بن عيسىٰ؛ لأنه لم يلحق أيامه فقال: معدان بن عيسىٰ.

قال المناوي في شرح هذا الحديث: «إنما أنا لكم» أي لأجلكم بمنزلة الوالد في الشفقة والحنو، لا في الرتبة والعلو، وفي تعليم ما لا بدَّ منه، فكما يعلِّم [الأب][٦] ولده الأدب فأنا أعلِّمكم ما لكم وما عليكم، وقدَّم هذا أمام المقصود إعلامًا بأنه يجب عليه تعليمهم أمر دينهم كما يلزم الوالدَ، وإيناسًا للمخاطَبين؛ لئلا يحتشموا عن السؤال عمَّا يعرِض لهم ممَّا يُستحيا منه. ا.هـ.

وقوله: **(لولده)** ليس في سياق النسائي وابن حبان؛ كذا قاله العراقي. قلت: وكذا ليس في سياق أبي داود.

---

(١) فيض القدير ٢/ ٥٧١.

(٢) مسند أحمد ١٢/ ٣٢٦، ٣٧٢.

(٣) ذخيرة الحفاظ ٢/ ٩٩٢.

(٤) الكامل في الضعفاء ٦/ ٢٤٥٦.

(٥) في المطبوعة: محمد بن غسان بن خالد. والتصويب من الكامل والذخيرة.

(٦) زيادة من الفيض.

(بأن يقصد إنقاذهم) أي تخليصهم **(من)** عذاب **(نار الآخرة، وهو أهم من إنقاذ الأبوين ولدهما من نار الدنيا)** أي من مشاقِّها **(ولذلك صار حق المعلم)** لطريق الخير **(أعظم من حق الوالدين)** إذا تعارضا **(فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية)** وهما يضمحلاَّن **(والمعلم سبب الحياة الباقية)** الأبدية **(ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب)** وفي نسخة: من جهة الوالدين **(إلىٰ الهلاك الدائم، وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة)** والسبب الأكبر للإنعام عليه بتلك الحياة والخلود في دار النعيم، فأبو الإفادة أقوىٰ من أبي الولادة، وهو الذي أنقذه الله به من ظُلمة الجهل إلىٰ نور الإيمان.

وقال ابن الحاج في المدخل(١): أمَّة النبي ﷺ في الحقيقة أولاده؛ لأنه السبب للإنعام عليهم بالنعمة(٢) السرمدية [والخلود في دار النعيم](٣) فحقُّه أعظم من حقوق الوالدين، قال عليه الصلاة والسلام: «ابدأ بنفسك [ثم بمن تعول](٤)»، فقدَّم نفسه علىٰ غيره، والله قدَّمه في كتابه علىٰ نفس كل مؤمن، ومعناه: إذا تعارض [له](٥) حقَّانِ حق لنفسه وحق لنبيِّه ﷺ فآكدهما [عليه](٦) وأوجبهما حق النبي ﷺ، ثم يجعل حق نفسه تبعًا للحق الأول(٧)، وإذا تأمَّلتَ الأمر في الشاهد وجدت نفع المصطفىٰ ﷺ أعظم من نفع الآباء والأمهات وجميع الخَلْق؛ فإنه أنقذك وأنقذ

(١) المدخل ٢/ ٤٣.

(٢) في الفيض والمدخل: بالحياة.

(٣) زيادة من الفيض. وفي المدخل: والخلود في جنات النعيم، وسلامتهم مما كانوا فيه من الخطر العظيم.

(٤) زيادة من المدخل.

(٥) زيادة من الفيض والمدخل.

(٦) زيادة من المدخل.

(٧) بعده في المدخل: ثم كذلك في تتبع الحركات والسكنات.

آباءك من النار[1]، وغاية أمر أبويك أنهما أوجداك في الحس، فكانا سببًا لإخراجك إلىٰ دار التكليف و[محل][2] البلاء والمحن. ا.هـ.

ويلحق به ﷺ كلَّ معلم لطريقته علىٰ وجه الإرشاد والإصلاح والهداية، وبهذا التقرير يظهر لك سرُّ كلام المصنف وبدؤه بحديث أبي هريرة، فتأملْ ذلك ترشد.

وعبارة الذريعة[3]: حق المعلم أن يُجرِي متعلِّميه [منه] مجرىٰ بنيه؛ فإنه في الحقيقة لهم أشرف [من] الأبوين، كما قال الإسكندر وقد سُئل عن ذلك: أمعلمك أكرم عليك أمْ أبوك؟ فقال: [بل] معلمي؛ لأنه سبب حياتي الباقية، ووالدي سبب حياتي الفانية. وقد نبَّه النبي ﷺ علىٰ ذلك بقوله: «إنما أنا لكم مثل الوالد [أعلمكم]». فحقُّ معلم الفضيلة أن يقتدي بالنبي ﷺ؛ إذ هو في إرشاد الناس خليفته، فيشفق عليهم إشفاقه، ويتحنَّن عليهم تحنُّنه، كما قال الله تعالىٰ في وصفه عليه السلام: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

(أعني) بذلك (**معلِّم علوم الآخرة**) علىٰ وجه الإرشاد والتربية والتسليك علىٰ طريقته ﷺ؛ إذ العلماء وَرَثة الأنبياء، فهم في مقام إرشاد الأمَّة (**أو**) معلم (**علوم الدنيا علىٰ قصد**) الوصول إلىٰ ما ينفع في (**الآخرة لا علىٰ قصد**) الوصول إلىٰ حصول أمور (**الدنيا، فأما التعليم**) والتعلُّم (**علىٰ قصد**) تحصيل حُطام (**الدنيا**) والتمكُّن في زينتها، والتفاخر بها في الملابس والمآكل والمراكب (**فهو هلاك**) في نفسه (**وإهلاك**) لغيره (**نعوذ بالله منه**) آمين (**وكما أن حق أبناء الرجل الواحد**) من الأب والأم (**أن يتحابُّوا**) بالألفة المعنوية (**ويتعاونوا علىٰ المقاصد**

---

(١) عبارة المدخل: إذ أن حقيقة أمره عليه الصلاة والسلام أنه وجدك غريقاً في بحار الذنوب والخطايا الموجبة لغضب المولىٰ ﷻ فأنقذك وأنقذ آباءك وأبناءك ومن مشىٰ علىٰ مشيك، وغاية ... الخ.

(٢) زيادة من المدخل.

(٣) الذريعة ص ١٥٢. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

كلها) غير متحاسدين **(فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد)** جمع تلميذ وهو المتعلِّم **(التَّحابُّ)** مع البعض **(والتوادُد، ولا يكون)** الحال **(إلا كذلك إن كان مقصودهم)** من اجتماعهم على الشيخ الاستفادة والاهتداء إلى طريق **(الآخرة، ولا يكون إلا التحاسُد والتباغُض)** وقطع الأعراض والأغراض مع المفاخرة **(إن كان مقصدهم)** طلب **(الدنيا؛ فإن العلماء)** بالله تعالى **(وأبناء الآخرة مسافرون)** على مطايا هِمَمهم **(إلى الله تعالى، وسالكون إليه الطريق)** على تباين مراتبهم في سلوكهم قوةً وضعفًا **(من الدنيا وسُنُوها)** جمع سَنَةٍ **(وشهورها)** وجُمُعِها **(منازل الطريق)** بمثابة منازل الحج المعلومة **(والترافق في الطريق)** بمقتضى «الرفيق قبل الطريق» **(بين المسافرين)** سفرًا ظاهريًا **(إلى الأمصار)** والقرى لأغراض معلومة **(سبب التوادِّ والتَّحابِّ)** لأنه الذي يجمع كلمتهم ويضم شملهم، هذا حال السفر في منازل الدنيا **(فكيف)** حال **(السفر)** المعنوي الذي يحتاج إلى اهتمام زائد إلى عالم البرزخ أولاً ثم إلى الجنة ثم **(إلى الفردوس الأعلى)** الذي هو أعلى منازلها، وقد ورد: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس الأعلى» (و) انظر كيف يكون **(الترافُق في طريقه)** والتعاون على الوصول إليه **(ولا ضِيقَ في سعادات الآخرة)** لكونها إفاضات، والمَهْيَع واسع **(فلذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع)** ولا تنافس، وكلٌّ وارد على ذلك المَهْيَع على قَدْر اجتهاده **(ولا سعة في سعادات الدنيا)** لكونها مَشُوبة بالأكدار، ممزوجة بركوب الأخطار **(فلذلك لا ينفك)** أبدًا **(عن ضيق التزاحم)** والتنافس، والتوثُّب على البعض بموجِب الشهوات النفسية على قلة وكثرة واختلاف مراتب حسب الدواعي **(والعادلون)** أي المائلون **(إلى طلب الرياسة)** والوجاهة ومتاع الدنيا الزائلة **(بالعلوم)** أي بتحصيلها **(خارجون عن موجِب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾)** [الحجرات: ١٠] قال السمين[١]: وفي الآية إشارة إلى [اجتماعهم على] الحق وتشاركُهم في الصفة

---

(١) عمدة الحفاظ ١/ ٧١ - ٧٢.

المقتضية لذلك، وقال ابن عرفة: الأخوَّة إذا كانت في غير الولادة كانت للمشاركة والاجتماع في الفعل (وداخلون في مقتضَى قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾) [الزخرف: ٦٧] والموجِب والمقتضِي واحد؛ إذ أن[1] مقتضى النص: ما لا يدل اللفظ عليه ولا يكون ملفوظًا ولكن يكون من ضرورة اللفظ أعم من أن يكون شرعيًّا أو عقليًّا. ونص الذريعة[2]: كما أن من حق أولاد الأب الواحد أن يتحابُّوا ويتعاضدوا ولا يتباغضوا، كذلك [من] حق بني المعلم [الواحد] بل بني الدين الواحد أن يكونوا كذلك، فأخوَّة الفضيلة فوق أخوَّة الولادة، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

(**الوظيفة الثانية**) من الوظائف السبعة: (**أن يقتدي**) المعلم (**بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه**) في تبليغه وإفادته (**فلا يطلب على إفادة العلم أجرًا**) أي عوضًا؛ لِما ورد في النهي عن أخذ الأجرة على التعليم أحاديث، منها ما أخرجه الحسين بن محمد التفليسي في كتاب «الأعداد» بسند فيه مجاهيل عن أنس رفعه: «ألا أحدِّثكم عن أجر ثلاثة»؟ فقيل: مَن هم يا رسول الله؟ قال: «أجر المعلمين والمؤذِّنين والأئمة حرام». وقد ذكره ابن الجوزي في الموضوعات[3]، وسكت عليه الحافظ السيوطي[4].

(**ولا يقصد به جزاءً**) يصل إليه من قِبَل المتعلم، وهذا أعمُّ مما قبله (**ولا شكرًا**) أي ثناء بلسانه في مقابلة تلك النعمة التي هي الإفادة. وقال الراغب[5]:

---

(١) التعريفات للجرجاني ص ٢٤٤.

(٢) الذريعة ص ١٥٣. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٣) الموضوعات ١/ ٢٢٩.

(٤) اللآلئ المصنوعة ١/ ٢٠٦.

(٥) المفردات في غريب القرآن ص ٩٣.

الجزاء: ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. وفيه إشارة إلىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝﴾ [الإنسان: ٩] **(بل يعلِّم)** وقصدُه في تعليمه **(لوجه الله تعالىٰ)** أي لذاته **(وطلبًا)** لمرضاته وحُسن مثوبته و**(للتقرب إليه)** بهذه الوسيلة العظيمة **(ولا يرىٰ لنفسه)** في نفسه **(منَّة عليهم)** يمتنُّ بها **(وإن كانت المنة لازمة عليهم)** لزومَ الأطواق علىٰ الأعناق؛ لأنه السبب الأكبر لهدايتهم إلىٰ الحق **(بل يرىٰ الفضل)** والمنة **(لهم؛ إذ هدفوا)** أي رموا **(قلوبهم)** إليه بكمال الانقياد **(لأنْ تتقرب إلىٰ الله تعالىٰ بزراعة العلوم فيها)** أي في تلك القلوب المشبَّهة بالأراضي، وأراد بزراعة العلوم: وضعها فيها كما توضَع الحبة في الأرض **(كالذي يعيرك الأرض)** أي يعطيكها علىٰ سبيل العارية **(لتزرع فيها لنفسك)** والأرضُ له **(زراعة)** تنتفع بها، ولا ريب أن **(منفعتك بها)** أي بالقلوب بوضع العلم فيها **(تزيد علىٰ منفعة صاحب الأرض)** التي أعارها لغيره، وشتَّان بينهما **(فكيف تقلِّده به)** أي بالتعليم **(منة)** تمتنُّ بها **(وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالىٰ)** لِما ورد في ذلك أحاديث تقوِّي بعضها **(ولولا المتعلم)** وجلوسه بين يديك **(ما نلتَ هذا الثواب)** الموعود به. وفي الذريعة[1]: وأيُّ عالِم لم يكن له مَن يفيده العلم صار كعقيم لا نسل له، فيموت ذِكرُه بموته، ومتىٰ استُفيد علمُه كان في الدنيا موجودًا وإن فُقد شخصه، كما قال عليٌّ: العلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وآثارهم في القلوب موجودة. وقال بعض الحكماء في قوله تعالىٰ: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٥ - ٦] أنه سأل نسلاً يرث علمه لا من يرث ماله، فأعراض الدنيا أهون عند الأنبياء [من] أن يشفقوا عليها، وكذا قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾ أي خفت أن لا يراعوا العلم، وعلىٰ هذا قال ﷺ: «العلماء وَرَثة الأنبياء».

(فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالىٰ) فإنه الذي وعدك به، وهو الذي يثيبك

(١) الذريعة ص ١٥٢.

عليه (**كما قال تعالىٰ**) في كتابه العزيز: (﴿قُلْ﴾) يا محمد (﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾) أي علىٰ تبليغ الرسالة وأداء الأمانة (﴿أَجْرًا﴾)(١) [الأنعام: ٩٠، الشورى: ٢٣] أي عوضًا. وفي الذريعة(٢): ومن حق المعلم مع من يفيده العلم أن يقتدي بالنبي ﷺ فيما علَّمه الله تعالىٰ، حيث قال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ فلا يطمع في فائدة من جهة من يفيده علمًا ثوابًا لما يوليه.

(**فإن المال**) بأجناسه وأنواعه بل (**وما في الدنيا خادم البدن**) وتابِعُه في مصالحه (**و**) قد تقدم أن (**البدن مركَب النفْس**) الروحاني (**ومطيَّته**) التي بها يبلغ إلىٰ الوصول (**والمخدوم هو العلم؛ إذ به شرف النفس**) وكماله، وقد ثبتت مخدوميةُ العلم علىٰ المال وما في الدنيا بمرتبتين؛ لأنه مخدوم النفس، والنفس مخدوم البدن، والبدن مخدوم المال (**فمَن طلب بالعلم المالَ**) فقد قلب الموضوع و(**كان كمَن مسح أسفل مَداسه ونعله**) عطفُ مرادف، واختُلف في ميم «المَداس»، فقيل: زائدة، وهو الأشبه، وقيل: أصلية (**بمحاسنه**) هكذا في سائر النسخ، وفي بعضها: بوجهه، وإليه يعود معنىٰ المحاسن (**لينظِّفه**) عما تكوَّن به (**فجعل المخدوم**) الذي هو الوجه (**خادمًا، والخادم**) الذي هو النعل (**مخدومًا**) وفي الذريعة: وليعلمْ أن مَن باع علمًا بعَرَض دنيوي فقد صادَمَ اللهَ تعالىٰ في ذلك(٣)، فإن الله تعالىٰ جعل المال خادمًا للمطاعم والملابس، وجعل المطاعم والملابس خادمًا للبدن، وجعل البدن خادمًا للنفس، وجعل النفس خادمة للعلم، فالعلم مخدوم غير خادم، والمال خادم غير مخدوم، فمَن جعل العلم ذريعة إلىٰ اكتساب المال فقد جعل ما هو مخدوم غير خادم، خادمًا لِما هو خادم غير مخدوم (**وذلك**) إذا تأملتَ (**هو الانتكاس**) أي

---

(١) كذا في نسخة الشارح، وفي متن الإحياء آية أخرىٰ بدل هذه الآية وهي قوله تعالىٰ في سورة هود: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾.

(٢) الذريعة ص ١٥٤.

(٣) في الذريعة: فقد ضاد الله تعالىٰ في حكمه.

السقوط منكوسًا (على أم الرأس) أي الدماغ (ومثله) أي الذي يفعل ذلك (هو الذي يقوم) يوم الحشر (في العرض الأكبر مع المجرمين) أي المذنبين حالةَ كونهم (ناكسي رؤوسهم) وهو إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢] قال السمين[1]: أي مُميلوها مطرقينَ بها ذلاً وخجلاً، وأصل النَّكْس: القلب وهو أن [يُجعل أعلاه أسفله بأن] تُجعل أعلىٰ رِجلا الإنسان إلىٰ فوق، ورأسه إلىٰ تحت، فبولِغَ في وصف المجرمين بذلك. ويجوز أن يكونوا كذلك حقيقةً.

(وعلىٰ الجملة) مع قطع النظر عن التفصيل (فالفضل) الأوفىٰ (والمنَّة) الكبرىٰ (للمعلم، وانظر كيف انتهىٰ أمر الدين إلىٰ قوم يزعمون) في أنفسهم (أن مقصودهم التقرب إلىٰ الله تعالىٰ) ورفعُ الدرجات (بما هم فيه من علم الفقه والكلام) بالإكباب علىٰ كل منهما باختلاف أنظارهم (والتدريس فيهما وفي غيرهما) كالمنطق والمعاني والبيان، وربما تجد اشتغالهم بالكلام في بعض البلاد كالمغرب ومصر أكثر من اشتغالهم بالفقه وغيره (فإنهم يبذلون) أي يصرفون (المال) بأنواعه (والجاه، ويتحمَّلون أصناف الذل) والترمِّي علىٰ الأبواب (في خدمة السلاطين) وفي معنىٰ ذلك الأمراء ومَن دونهم من ذوي الجاه (لاستطلاق الجرايات) لخلوصها علىٰ اسمه مطلقًا من غير مشاركة. والجِراية بالكسر: ما يجري من الرواتب المعلومة علىٰ الإنسان من نقد وغلَّة وغير ذلك (ولو تركوا ذلك) أي الدخول إلىٰ بيوت الأمراء (لتُركوا) أي تركهم الناسُ (ولم يُختلَف إليهم) كما هو مشاهَد (ثم) من البلايا الموقِعة في الهلاك أن (يتوقع المعلم) أي يرجو الوقوع (من المتعلم أن يقوم له) ومعه (في كل نائبة) أي واقعة شديدة وقعت له دنيوية (وينصر) فيها (وليَّه) الذي يواليه ولو علىٰ غير الحق (ويعادي) فيها (عدوَّه) ولو علىٰ الحق (و) يطلب منه في حالاته كلِّها أن (ينتهض) أي يقوم (حمارًا له) أي

---

(١) عمدة الحفاظ ٤/ ٢٢٠. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

بمنزلة الحمار (في) التردُّد إلىٰ (حاجاته) الواقعة (ومسخَّرًا) أي مذلَّلاً (بين يديه في أوطاره) وسائر شئونه (فإن قصر منه) وفي بعض النسخ: فيه ولو في حاجة واحدة (ثار عليه) أي قام عليه منكِرًا ومشدِّدًا ومفشيًا عيوبه في المجالس (وصار) بذلك (من أعدىٰ أعدائه) أي أكبر مبغضيه (فأخسسْ بعالِم يرضىٰ لنفسه بهذه المنزلة) الخسيسة ويطمئن إليها (ثم يفرح بها) مفتخرًا علىٰ أقرانه (ثم لا يستحي) من الله ورسوله (من أن يقول) مصرِّحًا: إنما (غرضي من التدريس) والتعليم (نشرُ العلم) وإفادته (تقربًا إلىٰ الله تعالىٰ، ونصرةً لدينه) وطلبًا لمرضاته (فانظر) أيها المتأمل (إلىٰ الأمارات) الدالة علىٰ قبح سيرتهم وفساد النيات (حتىٰ ترىٰ) فيها (صنوف الاغترارات) الشيطانية المهلكات، أعاذنا الله منها.

(الوظيفة الثالثة: أن لا يدَّخر) أي لا يُبقِي المعلم (من نصح المتعلم شيئًا) ما، والتنكير للتقليل (وذلك بأن يمنعه من التصدِّي) أي التعرُّض (لرتبةٍ قبل استحقاقها) أي قبل الاستئهال لها كالتدريس مثلاً؛ لِما في الحديث: «إذا وُسِّد الأمر إلىٰ غير أهله فانتظر الساعة» (والتشاغُل بعلم) من العلوم (خفيٍّ) المَدْرَك، بعيد الغَوْر (قبل الفراغ من) العلم (الجليِّ) وتحصيله، وذلك [إذا] كان يتشاغل بمعرفة دقائق أسرار الشريعة قبل تكميل ظواهرها، وكذلك التعرُّض لأسرار الحقيقة لمن لم يتهذَّب في ظاهر العلوم، وهذا ضرر كبير فسد به جملةٌ من الطالبين، ومُنعوا عن الوصول إلىٰ المطلوب، وهذا الذي يقال فيه: ظفر ظفرة النظام، وتزبَّب قبل أن يتحصرم (ثم) علىٰ المعلم أن (ينبِّهه) مرة بعد مرة (علىٰ أن الغرض من طلب العلوم) والمقصد من تحصيلها إنما هو (القرب من الله تعالىٰ) والوصول إليه (دون الرياسة) الظاهرية (والمباهاة) والمفاخرة (والمنافسة) مع الأقران في مجالس الأمراء والكبار ليقال: إنه عالِم، وإنه مبرز، وإنه فارس الميدان (ويقدِّم تقبيحَ ذلك في نفسه) أي المتعلم (بأقصىٰ ما يمكن) ونهاية ما يستطيع بلطف تدبير وحُسن احتيال في إيصال ذلك إلىٰ ذهنه؛ إذ النفوس بجِبِلَّتها مائلة إلىٰ الرياسة،

ومشغوفة بتحصيل الشهرة، فلا يمكن إخراج ذلك منها إلا بما ذكرنا، وهذا هو عين الإرشاد (**فليس ما يصلحه العالِم الفاجر**) وهو الشاقُّ سِتْر الديانة[١]، أو الذي يباشر الأمور علىٰ خلاف الشرع والمروءة[٢] (**بأكثر مما يفسده**) لأن طلب الرياسة هلاك في نفسه، وصاحبها إذا صلح علىٰ يده غيرُه فهو نادر بالنسبة إلىٰ ما يترتب علىٰ فساده وإفساده من التداعي إلىٰ الدنيا والجاه ظاهرًا أو إلىٰ تركها ظاهرًا وحبها باطنًا، وكلاهما مهلكان، وقد تقدم شيء من ذلك في كلام المصنف في أثناء آفات المناظرة. وأخرج أبو نعيم في الحلية[٣] في ترجمة وُهَيب بن الورد المكي بسنده إليه قال: بلغنا أن العلماء ثلاثة[٤]: فعالم يتعلمه ليتغنىٰ به عند الفجَّار[٥]، وعالم يتعلمه لنفسه، لا يريد به إلا أنه خاف أن يعمل بغير علم، فيكون ما يفسد أكثر ممَّا يُصلِح (**فإن علم**) المعلم (**من باطنه**) أي المتعلم (**أنه لا يطلب العلم**) ويشتغل به عليه (**إلا للدنيا**) أي تحصيلها، وفي معناه طلب الرياسة والجاه؛ فإن عليهما مَدار حصول الدنيا (**نظر**) المعلمُ (**إلىٰ العلم الذي يطلبه**) ويشتغل به (**فإن كان هو علم الخلاف في الفقه**) أي علم خلاف فقهاء الأمصار أو فقهاء المذهب خاصةً وهو علم الفروع (**و**) علم (**الجدل في الكلام**) الذي يتوصل بمعرفته إلىٰ معرفة مذاهب الموافق والمخالف، والردود علىٰ الفِرَق الضالة التي أُفسدت عقائدها

---

(١) المفردات للراغب ص ٣٧٣.

(٢) التعريفات للجرجاني ص ١٧١.

(٣) حلية الأولياء ٨/ ١٥٦.

(٤) كذا هنا، وكذا هو في مطبوع الحلية، ولم يذكر الثالث من العلماء. وفي هامش المطبوعة: قوله (ثلاثة) هكذا في النسخ بإسقاط الثاني، ولينظر ما هو. ا.هـ. وقد ذكر الحافظ السيوطي هذا الأثر تامـًا في كتابه: ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلىٰ السلاطين ص ٤٨ (ط - دار الصحابة بطنطا) فقال ما نصه: «وأخرج أبو نعيم في الحلية عن وهيب بن الورد قال: بلغنا أن العلماء ثلاثة، فعالم يتعلمه للسلاطين، وعالم يتعلمه ليتغنىٰ به عند الفجار، وعالم يتعلمه لنفسه لا يريد به إلا أنه يخاف أن يعمل بغير علم فيكون ما أفسده أكثر مما يصلح».

(٥) في المطبوعة: لنفد به عند التجار. والمثبت من كتاب ما رواه الأساطين.

(و) علم (**الفتاوىٰ في الخصومات**) الحاصلة بين الناس (و) معرفة (**الأحكام**) المتعلقة بذلك (**فيمنعه من ذلك**) باللطف والتدريج (**فإن هذه العلوم**) التي ذُكرت (**ليست من علوم الآخرة، ولا من العلوم التي قيل فيها**) فيما سلف: (**تعلَّمنا العلمَ لغير الله، فأبىٰ العلمُ أن يكون إلا لله**) وقد تقدم هذا القول في كلام المصنف، وذكرنا ما يتعلق به (**وإنما ذلك**) العلم (**علم التفسير وعلم الحديث**) ومتعلقاتهما (**وما كان الأوَّلون**) من السلف (**يشتغلون به**) من العلوم النافعة (**من علم**) معرفة (**الآخرة**) وأحكامها (و) علم (**معرفة أخلاق النفس**) ممدوحها ومذمومها (**وكيفية تهذيبها**) بالرياضات الشرعية (**فإذا تعلمه الطالب**) واشتغل به (و) لكن (**قصد به**) حصول متاع (**الدنيا فلا بأس أن يتركه**) وفي نسخة: أن يترك. أي علىٰ قصده (**فإنه يتشمَّر له**) أي يتهيَّأ لتحصيله (**طمعًا في الوعظ**) أي يكون واعظًا (**والاستتباع**) أي طلب تبع الناس له (**ولكن قد يتنبَّه**) من غير قصد منه (**في أثناء الأمر**) وتضاعيفه (**أو آخره**) علىٰ اختلاف نيَّته (**إذ فيه العلوم المخوفة**) أي في مجموع ما ذُكر علومٌ تورِث الخوف والخشية (**من الله تعالىٰ، المحقِّرة للدنيا**) ومتاعها (**المعظِّمة للآخرة**) وما أعدَّ الله فيها (**وذلك يوشِك**) بكسر الشين، وفتحُها لغة ضعيفة، أي يقرُب (**أن يردَّ**) وفي نسخة: يؤدي (**إلىٰ الصواب في الآخرة**) وفي نسخة: بالآخرة (**حتىٰ يتَّعظ**) بنفسه (**بما يعظ به غيره**) عملاً بما يعلم غيره (**ويجري**) بذلك (**حبُّ القبول**) في الخَلْق (**والجاه**) عندهم (**مجرىٰ الحب الذي يُنثَر**) ويُرمَىٰ (**حوالي الفخِّ**) الذي يُنصَب (**ليُقتنَص به الطير**) أي يُصطاد (**وقد فعل الله**) عَزَّوَجَلَّ (**ذلك بعباده**) حكمة بالغة (**إذ خلق الشهوة**) في أصل التركيب وأودعها فيه (**ليصل الخلق بها**) وفي نسخة: به، وهو خلاف الظاهر (**إلىٰ بقاء**) نظام العالَم بوجود (**النسل**) والذرية (**وخلق أيضًا حب الجاه**) والقبول وركزه في بعض النفوس (**ليكون سببًا لإحياء العلوم**) ولولا ذلك لاندرست. وهذه العبارة منتزَعة من سياق القوت، ولفظه[1]:

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٣١.

وقال الحسن رحمه الله: يتعلم هذا العلم قومٌ لا نصيب لهم منه في الآخرة، يحفظ الله بهم العلم على الأمَّة لئلاً يضيع. وقال المأمون: لولا ثلاث لخربت الدنيا: لولا الشهوة لانقطع النسل، ولولا حب الجمع لبطلت المعايش، ولولا طلب الرياسة لذهب العلم (**وهذا متوقَّع**) ومرجوٌّ (**في هذه العلوم**) التي ذُكرت (**فأما**) معرفة (**الخلاف المحض ومجادلات الكلام ومعرفة التفريعات الغريبة**) من المسائل الفقهية الفرعية (**فلا يزيد التجرُّد لها**) والاهتمام بها (**مع الإعراض**) الكلي (**عن غيرها إلا قسوة في القلب**) وظُلمة (**وغفلة عن الله تعالىٰ**) لأن هذه العلوم لا يكاد أن يوجد فيها ذِكرُ الله ورسوله ﷺ ما عدا الخُطَب (**وتماديًا في الضلال، وطلبًا للجاه**) وتطاولاً فيهما (**إلا مَن تداركه الله تعالىٰ برحمته**) فعصمه من الغفلة والقسوة (**أو مزج به غيرَه من العلوم الدينية**) غير متفرد عليه (**ولا برهان علىٰ هذا**) أي الذي ذكرتُ (**كالتجربة**) في نفسه (**والمشاهدة**) في علماء عصره وأقرانه (**فانظر**) يا أخي (**واعتبرْ**) بفكرك (**واستبصر**) بعين قلبك (**لتشاهد تحقيق ذلك في العباد والبلاد**) مع اختلافهم وتبايُنها (**والله المستعان**) وعليه التكلان.

(**وقد رُؤي**) الإمام الزاهد الوَرِع (**سفيان**) بن سعيد بن مسروق (**الثوري رحمه الله تعالىٰ حزينًا**) أي مغمومًا (**فقيل**) أي قال (**له**) بعض أصحابه: (**ما لك**)؟ أي لأيِّ شيء أراك محزونًا؟ (**فقال: صِرْنا متجرًا لأبناء الدنيا، يَلْزُمنا أحدُهم**) في طلب علم الحديث (**حتىٰ إذا تعلَّم**) رغب إلىٰ الدنيا ورغب إليه الناس، فإما (**جُعل قاضيًا**) يقضي بالأحكام (**أو عاملاً**) علىٰ الخَراج السلطاني (**أو قهرمانًا**) يلي أمورَ السلطان. أخرجه الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي في مناقب سفيان بالسند، وهو في حلية الأولياء لأبي نعيم الحافظ في ترجمته[١]، وأوردها كذلك صاحب القوت، وعنه أخذ المصنف، ولفظه[٢]: قال بعض أصحاب الحديث: رأيتُ سفيان الثوري

(١) لم أقف عليه في الحلية، ولا في مختصر المناقب.
(٢) قوت القلوب ١/ ٢٣١.

حزينًا، فسألته، فقال وهو متبرم: ما صِرْنا إلا متجرًا لأبناء الدنيا. فقلت: وكيف؟ قال: يلزمنا أحدُهم، حتىٰ إذا عرف بنا وحمل عنا جُعل عاملاً أو جابيًا أو قهرمانًا.

(الوظيفة الرابعة) من وظائف المعلم **(وهي من دقائق صناعة التعليم)** تستدعي المحافظة عليها، وهي **(أن يزجر المتعلمَ)** وينهاه **(عن)** ارتكاب **(سوء الأخلاق)** لكن **(بطريق التعريض ما أمكن)** بأن يُفهِّمه مراده بكناية **(ولا يصرِّح، و)** يورد زجره **(بطريق الرحمة)** والشفقة عليه **(لا بطريق التوبيخ)** وهو اللوم والتقريع الشديد العنيف **(فإن التصريح)** باللوم **(يهتك حجاب الهيبة)** خصوصًا إذا كان علىٰ ملإ من الناس **(و)** ربما **(يورث الجرأة)** والإقدام **(علىٰ الهجوم بالخلاف)** علىٰ مقتضىٰ الجِبِلَّة البشرية المنطوية علىٰ الكِبْر **(و)** ذلك **(يهيِّج الحرص)** ويثيره **(علىٰ الإصرار)** والبقاء علىٰ ما لِيمَ عليه. ونص الذريعة[1]: وحق المعلم أن يصرف مَن يريد إرشاده من الرذيلة إلىٰ الفضيلة بلطف في المقال، وتعريض في الخطاب، فالتعريض أبلغ من التصريح؛ لوجوه:

أحدها: أن النفس الفاضلة لميلها إلىٰ استنباط المعاني تميل إلىٰ التعريض شغفًا باستخراج معناه بالفكر، ولذلك قيل: رُبَّ تعريض أبلغ من تصريح.

الثاني: أن التعريض لا تُنتهَك به سُجُف الهيبة، ولا يرتفع [به] ستر الحشمة.

الثالث: أنه ليس للتصريح إلا وجه واحد، وللتعريض وجوه، فمن هذا الوجه يكون أبلغ.

الرابع: للتعريض عبارات مختلفة، فيمكن إيراده علىٰ وجوه مختلفة، ولا يمكن إيراد التصريح إلا علىٰ وجه واحد؛ إذ ليس له إلا عبارة واحدة.

---

(١) الذريعة ص ١٥٣ - ١٥٤.

الخامس: أن صريح النهي داعٍ إلىٰ الإغراء[١]، ولذلك [قيل]: اللوم إغراء، قال الشاعر:

دعِ اللوم إن اللوم يغري وإنما أراد صلاحًا من يلوم فأفسدا[٢]

(**إذ قال رسول الله ﷺ وهو مرشد لكل معلم**) إذ به عُرف طريق التعليم والإرشاد بنصحه لأمَّته وشفقته عليهم: (**لو مُنع الناس عن فَتِّ البعر لفتُّوه وقالوا: ما نُهينا عنه إلا وفيه شيء**) ونص الذريعة: لو نُهي الناسُ. والباقي سواء. قال العراقي: لم أجده إلا من حديث الحسن مرسَلاً، وهو ضعيف، رواه ابن شاهين.

قلت: ووجدت بخط الداودي ما نصه: ولفظ ابن شاهين: «لو مُنع الناس فَتَّ الشوك لقالوا: فيه النَّد». وفي المعنىٰ حديث أبي جُحَيفة: «لو نُهيتم أن تأتوا الحَجُون لأتيتموها ...» الحديث.

قلت: للسيوطي في الجامع الكبير[٣]: «لو نهيتُ رجالاً أن يأتوا الحجون لأتوها وما لهم بها حاجة». أخرجه أبو نعيم[٤] عن عبدة بن حَزْن.

قلت: رواه الطبراني[٥] من رواية أبي إسحاق عن أبي جحيفة قال: كان رسول الله ﷺ قاعدًا ذات يوم، وقُدَّامه قوم يصنعون شيئًا يكرهونه من كلامهم ولغطًا، فقيل: يا رسول الله، ألا تنهاهم؟ فقال: «لو نهيتهم عن الحجون لأوشك أحدهم أن يأتيه وليست له حاجة». قال العراقي: ورجاله ثقات، إلا أنه اختُلف فيه علىٰ الأعمش، فقيل: عنه عن أبي إسحاق هكذا، وقيل: عن أبي إسحاق.

---

(١) في المطبوعة: الاعتداء. والمثبت من الذريعة.

(٢) لم أقف علىٰ قائله.

(٣) كنز العمال ١٦/ ١٢٣.

(٤) معرفة الصحابة لأبي نعيم ٣/ ١٩١٨.

(٥) المعجم الكبير ٢٢/ ١٢٤.

وعن عبدة السوائي، ورواه الطبراني[1] أيضًا، وعبدة السوائي مختلَف في صحبته[2].

(**وينبِّهك علىٰ هذا قصةُ آدم وحواء عليهما السلام وما نُهيا عنه**) بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥، الأعراف: ١٩] وقول الشيطان: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝﴾ [الأعراف: ٢٠] ومن هذه القصة يؤخذ معنىٰ حديث الحسن. ونص الذريعة: وكفىٰ بذلك شهادة ما كان من أمر آدم وحواء في نهي الله تعالىٰ إياهما عن أكل الشجرة (**فما ذُكرت القصة معك لتكون سمرًا**) أي يُحكَىٰ بها في المسامَرة (**بل لتتنبَّه بها علىٰ سبيل العبرة**) أي الاعتبار. وفي الذريعة[3]: سُئل بعض الحكماء عن الفكرة والعبرة فقال: الفكرة أن تجعل الغائب حاضرًا، والعبرة أن تجعل الحاضر غائبًا (**ولأن التعريض**) أي إفهام المراد بالكناية (**أيضًا يُميل النفوسَ الفاضلة**) هي المهذَّبة بالآداب الشرعية، المجمَّلة بالإفاضات الرحمانية (**والأذهان الذكية**) هي المصقَلة بالأنوار، المحفوفة بالأسرار (**إلىٰ استنباط**) أي استخراج (**معانيه**) واستكشاف غوامضها المبهمة (**فيفيد فرح التفطُّن لمعناه**) والسرور بذلك أبدًا (**رغبةً في العمل به**) أي بمقتضاه (**ليعلم أن ذلك مما لا يعزُب**) أي لا يغيب (**عن فطنته**) الوَقَّادة وقريحته المستجادة. وهذا الذي ذكره المصنف أحدُ وجوه أَبْلغيَّة التعريض علىٰ التصريح، كما تقدم نقلاً عن الذريعة، وهذا كما قاله المصنف: من دقائق هذه الصناعة. والله الموفِّق للصواب.

---

(١) المعجم الكبير ١٨/ ٨٧ ولفظه: لغط قوم قرب النبي ﷺ، فقال بعض أصحابه: يا رسول الله، لو بعثت إلىٰ هؤلاء بعض من ينهاهم عن هذا. فقال: «لو بعثت إليهم فنهيتهم أن يأتوا الحجون لأتاه بعضهم وإن لم يكن له به حاجة».

(٢) انظر قول الحافظ ابن حجر في الإصابة ٦/ ٣٤٣.

(٣) الذريعة ص ١١٣.

(**الوظيفة الخامسة**) من وظائف المعلم: (**أن يعلِّم**) المعلمَ (**أن المتكفِّل**) أي الحامل والمشتغل (**ببعض العلوم**) أي بتحصيلها وإحاطتها بالمعرفة الصحيحة (**لا ينبغي أن يقبح في نفس المتعلم**) أي يرىٰ قبيحًا مذمومًا (**العلوم التي وراءه**) أي ما عداه (**كمعلم**) علم (**اللغة**) والمشتغل به (**إذ عادته تقبيح علم الفقه**) والازدراء بحال مشتغله (**ومعلِّم**) علم (**الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير**) مع أنهما مأخذاه (**و**) يقول في أثناء ذلك: (**أن ذلك نقلٌ محضٌ**) قال مالك، قال الشافعي، قال أبو حنيفة (**وسماع**) فلان عن فلان (**وهو شأن العجائز**) أي النسوة العاجزات عن كثير من الأمور (**و**) أن (**لا نظر**) ولا مجال (**للعقل فيه**) فالمشتغل بهما معقول بعِقال النقل لا يتجاوزه (**ومعلم**) علم (**الكلام**) والجدل (**ينفِّر عن**) الاشتغال في (**الفقه**) وينهاه (**ويقول: ذلك فرع**) والكلام أصل، والاشتغال بالأصل أَولىٰ من الفرع (**و**) يقول أيضًا: هو مع كونه فرعًا (**هو كلام في حيض النسوان، فأين ذلك من الكلام في صفة الرحمن**) جلَّ جلاله، وما يجب في حقه وما يستحيل. ثم إن تقبيح تلك الطوائف بعضها بعضًا إنما يخرج مَخرج الغالب، وقد يوفِّق اللهُ من يتكفَّل ببعض العلوم ثم يُعلِي شأن علوم أخرىٰ ليس له بها اشتغال ولا مَيل (**فهذه أخلاق مذمومة للمعلِّمين**) لا يكون المتَّصف بها مرشدًا في الحقيقة (**ينبغي أن تُجتنَب**) تلك الأخلاق حتىٰ يكون تعليمه علىٰ الحق الرضي والنهج العدل السوي (**بل المتكفِّل بعلم واحد**) أي علم كان (**ينبغي أن يوسِّع علىٰ المتعلم طريق التعليم في غيره**) بأن يُرِيَه من يتعلم عليه (**وإن كان**) بنفسه (**متكفِّلاً بعلوم**) كثيرة (**فينبغي أن يراعي التدريج**) والترتيب (**في ترقية المتعلم**) وتكميله (**من رتبة إلىٰ رتبة**) فازدحام العلم في السمع مَضَلَّة الفهم.

ووُجد هنا في بعض النسخ زيادة قوله: (**والله أعلم**) أتىٰ به للتبرُّك.

(**الوظيفة السادسة**) من وظائف المعلم: (**أن يقتصر**) المعلم (**بالمتعلم علىٰ قَدْر فهمه**) وذلك هو الجليُّ اللائق بحاله من تقريراته (**فلا يُلقِي عليه ما لا يبلغه**

عقلُه) ولا ينتهي إليه ولا يسعه لصعوبته ودقّته **(فينفِّره)** فيكون ذلك سببًا لقطعِه عن طريق العلم **(أو يخبط عليه عقلَه)** فيقع في مقام الحيرة والذهول **(اقتداءً في ذلك)** واتِّباعًا **(بسيد البشر ﷺ، حيث قال: نحن معاشر الأنبياء أُمرنا أن نُنزِل الناسَ منازلَهم، ونكلمهم علىٰ قَدْر عقولهم)** قال العراقي[١]: رويناه في جزء من حديث أبي بكر ابن الشخير من حديث ابن عمر أخصر منه، وعند أبي داود[٢] من حديث عائشة: «أنزِلوا الناسَ منازلَهم». ا.هـ.

فهما حديثان مستقلان أوردهما المصنف في سياق واحد، وربما يوهم أنهما حديث واحد.

قال الحافظ السخاوي في كتابه «الجواهر والدرر» في مناقب شيخه الحافظ ابن حجر بعد أن ساق لفظ المصنف ما لفظه[٣]: ما وقفتُ عليه بهذا اللفظ في حديث واحد، بل الشق الأول في حديث عائشة، كما سيأتي بيانه، والثاني رويناه في الجزء الثاني من حديث ابن الشخِّير من حديث ابن عمر مرفوعًا: «أُمرنا معاشر الأنبياء أن نكلِّم الناس علىٰ قَدْر عقولهم». ا.هـ.

أما حديث عائشة ففي الحلية[٤] لأبي نعيم من طريق أبي هشام الرفاعي، وفي جزء لأبي سعد الكَنْجَرُوذي[٥] من طريق إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، قالا - واللفظ لابن الشهيد - نا يحيىٰ بن يَمان، عن الثوري، عن حبيب ابن أبي

---

(١) المغني ١/ ٣٥.

(٢) سنن أبي داود ٥/ ٢٩٠.

(٣) الجواهر والدرر ١/ ٥٩.

(٤) لم أقف عليه في الحلية بهذا اللفظ، وإنما بلفظ آخر يأتي إن شاء الله تعالىٰ.

(٥) قال السمعاني في الأنساب ٥/ ١٠١: «الكنجروذي: نسبة إلىٰ كنجروذ، وهي قرية علىٰ باب نيسابور في ربضها، وتعرب فيقال لها: جنزروذ، والمشهور بهذه النسبة أبو سعد محمد بن عبد الرحمن الأديب الكنجروذي المتوفىٰ سنة ٤٥٣».

ثابت، عن ميمون بن أبي شبيب قال: جاء سائل إلىٰ عائشة ﵂، فأمرت له بكسرة، وجاء رجل ذو هيئة فأقعدتْه معها، فقيل لها: لِمَ فعلتِ ذلك؟ قالت: أمرنا رسول الله ﷺ أن نُنزِل الناس منازلهم.

قال الحافظ السخاوي[١]: هذا حديث حسنٌ، أورده مسلم في مقدمة صحيحه[٢] بلا إسناد، حيث قال: ويُذكَر عن عائشة ... الخ، فقال النووي[٣] نقلاً عن ابن الصلاح[٤] ما معناه: إن ذلك لا يقتضي الحكم له بالصحة نظرًا لعدم الجزم في إيراده، ويقتضيه نظرًا لاحتجاجه بروايته لإيراده إيراد الأصول لا الشواهد.

قال السخاوي: لكن قد جزم الحاكم بتصحيحه في النوع السادس عشر من «معرفة علوم الحديث»[٥] له فقال: صحَّت الرواية عن عائشة ... وساقها بلا إسناد، وكذا صحَّحه ابن خزيمة، حيث أخرجه في كتاب السياسة من صحيحه، وكذا أخرجه البزار في مسنده، كلاهما عن إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، وأخرجه أبو داود في الأدب من سننه عن يحيىٰ بن إسماعيل وابن أبي خَلَف، ثلاثتهم عن ابن يمان به، ثم قال أبو داود: وميمون لم يدرك عائشة. وأخرجه أبو أحمد العسكري في كتاب الأمثال له عن عبد الوهاب بن عيسىٰ وصالح بن أحمد فرَّقهما، كلاهما عن محمد بن يزيد الرفاعي هو أبو هشام، ورواه أبو يعلىٰ في مسنده[٦] عن أبي هشام، ورواه البيهقي في الآداب[٧] من طريق أبي هريرة محمد بن أيوب الحُبُلِّيِّ عن يحيىٰ بن يمان بالمتن فقط.

---

(١) الجواهر والدرر ١/ ٥٦.

(٢) صحيح مسلم ١/ ٣.

(٣) شرح صحيح مسلم ١/ ٣٩.

(٤) صيانة صحيح مسلم لابن الصلاح ص ٨٤.

(٥) معرفة علوم الحديث ص ٢١٧.

(٦) مسند أبي يعلىٰ ٨/ ٢٤٦.

(٧) الآداب للبيهقي ص ٩٩ (ط - مؤسسة الكتب الثقافية ببيروت).

قلت: ومن طريق أبي هريرة هذا أخرجه أبو نعيم في الحلية بسياق يأتي للمصنف نظيرُه في أثناء الكتاب[١] يُذكَر هناك إن شاء الله تعالىٰ.

وقال البزار عقب تخريجه لهذا الحديث: ويُروَىٰ عن عائشة من غير هذا الوجه موقوفًا.

قال السخاوي: يشير إلىٰ ما رواه أبو أسامة عن أسامة بن زيد عن عمر بن مِخْراق عن عائشة، لكن قد أخرجه الخطيب في «المتفق والمفترق»[٢] والجامع[٣] كلاهما له، والبيهقي في الشعب[٤] والطبراني، كلهم من طريق أحمد بن أسد البجلي الكوفي، والبيهقي والطبراني أيضًا من طريق محمد بن عمَّار الموصلي، والبيهقي وحده من طريق مسروق بن المَرْزُبان، ثلاثتهم عن يحيىٰ بن يمان عن الثوري عن أسامة به مرفوعًا. وقال الإمام أحمد: إن رواية عمر عن عائشة مرسَلة، وكذا قال البيهقي في الشعب. وقال البخاري[٥]: عمر بن مِخْراق عن رجل عن عائشة مرسَل، روىٰ عنه أسامة.

وقال البيهقي في الآداب: وكأنَّ يحيىٰ رواه علىٰ الوجهين جميعًا.

قال السخاوي: وفي الباب عن معاذ وجابر ﷺ، فأما الأول فرواه الخرائطي في «مكارم الأخلاق»[٦] له من رواية عبد الرحمن بن غُنْم عن معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رفعه: «أنزِل الناسَ منازلَهم من الخير والشر، وأحسِنْ أدبهم علىٰ الأخلاق الصالحة».

---

(١) أي في كتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق.

(٢) المتفق والمفترق ١/ ١٦٣.

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ٥٤٩.

(٤) شعب الإيمان ١٣/ ٣٦٨.

(٥) التاريخ الكبير للبخاري ٦/ ١٩٥.

(٦) مكارم الأخلاق لأبي بكر الخرائطي ص ١٨٢ (ط - مكتبة الرشد بالرياض).

ولا يصحُّ إسناده. وأما الثاني فرويناه في جزء الغسولي[١] بسند ضعيف، ولفظه: «جالِسوا الناس علىٰ قَدْر أحسابهم، وخالِطوا الناس علىٰ قَدْر أديانهم، وأنزِلوا الناس علىٰ قَدْر منازلهم، وداروا الناس بعقولكم». وفي مسند الفردوس[٢] من حديث جابر: «أنزِلوا الناس علىٰ قَدْر مروءاتهم».

(فليبث) أي يُظهِر (إليه) أي المتعلم (**الحقيقة إذا علم أنه يستقل فهمُّه لها**) أي يتحمَّله فهمُه لمعرفتها (**قال ﷺ: ما أحد يحدِّث قومًا بحديث لا تبلغه عقولُهم إلا كان فتنة علىٰ بعضهم**) قد تقدَّم هذا الحديث عند ذِكر الصنف الثاني من الشطح، وقال العراقي هناك ما لفظه: أخرجه العقيلي في الضعفاء وابن السنِّي وأبو نعيم في «رياضة المتعلمين» من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف، ولمسلم في مقدمة صحيحه موقوفًا علىٰ ابن مسعود نحوه.

قلت: لفظ الحديث الذي تقدَّم في الباب الثالث: «ما حدَّث أحدُكم قومًا بحديث لا يفهمونه إلا كان فتنة عليهم». ولفظ حديث ابن عباس: «ما أنت محدِّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولُهم إلا كان علىٰ بعضهم فتنة».

(**وقال عليٌّ كرَّم الله وجهه**) في حديث طويل يأتي ذِكرُه قريبًا: ثم تنفَّس الصعداء (**وأشار إلىٰ صدره**) الشريف وقال: هاه (**إن ههنا علومًا جَمَّة**) أي كثيرة. ونص القوت[٣]: علمًا جمًّا (**لو وجدتُ لها حَمَلةً**) ونص القوت: لو أجد لها حملة. أي مَن يحملها ويفهمها ويعمل بها. وهذا في زمانه مع كثرة العارفين ووفرة أنوارهم وإخلاصهم. ثم قال ﷺ: بل أجد لقنًا غير مأمون، يستعمل آلة الدين في طلب الدنيا، ويستطيل بنِعَم الله تعالىٰ علىٰ أوليائه، ويستظهر بحججه علىٰ خلقه، أو منقادًا لأهل الحق، ينزرع الشك في قلبه بأول عارض من شبهة لا بصيرة له وليسا

(١) في المطبوعة: الفسوي. والمثبت من الجواهر والدرر.

(٢) فردوس الأخبار ١/ ٧٨.

(٣) قوت القلوب ١/ ٢٣٢.

من وعاة الدين في شيء لا ذا ولا ذاك ... إلىٰ آخر ما قال (**وصدق** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ) في قوله هذا (**فقلوب الأبرار قبور الأسرار**) وهذه الجملة رُويت كذلك من جملة كلماته البديعة، أي إن الأسرار المكتومة التي أفاض الله بها علىٰ قلوب عبيده الأبرار والمتقين الأخيار قد قُبرت ودُفنت في تلك الصدور؛ لعدم حامليها، فدثرت لذلك من غير إفشائها (**فلا ينبغي أن يفشي**) أي يُظهِر (**العالِم كل ما يعلمه**) من معلوماته (**إلىٰ كل أحد. هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلاً للانتفاع به فكيف فيما لا يفهمه**) هكذا في النسخ، وفي بعضها: هذا إذا كان من يفهمه من المستقلين ولم يكن أهلاً للانتفاع به. والباقي سواء، وهو قريب من الأول. وهذا الذي أورده المصنف منتزَع من سياق عبارة القوت؛ فإنه قال[1] بعدما أورد من انقباض شيخه أبي الحسن ابن سالم من الاجتماع ما لفظه: وقد كان أبو الحسن رحمه الله تعالىٰ يخرج إلىٰ إخوانه ممَّن يراه أهلاً لمكان علمه فيجلس إليهم ويذاكرهم، وربما أدخلهم إليه نهارًا أو ليلاً، ولعَمْري إن المذاكرة تكون بين النظراء، والمحادثة مع الإخوان، والجلوس للعلم يكون للأصحاب، والجواب عن المسائل نصيب العموم. وكان عند أهل هذا العلم أن علمهم مخصوص لا يصلح إلا للخصوص، والخصوص قليل، فلم يكونوا ينطقون به إلا عند أهله، ويرون أن ذلك من حقِّه، وأنه واجب عليهم، كما وصفهم عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في قوله: حتىٰ يودِعوه أمثالهم، ويزرعوه في قلوب أشكالهم. وكذلك جاءت الآثار بذلك عن نبيِّنا ﷺ.

(**وقال عيسىٰ**) ونص القوت: وفي حديث عيسىٰ (عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: **لا تعلِّقوا الجواهر**) ونص القوت: الجوهر (**في أعناق الخنازير؛ فإن الحكمة خيرٌ من الجوهر، ومَن كرهها فهو شرٌّ من الخنازير**) ونص القوت: من الخنزير، وهكذا هو في نسخة أيضًا.

وأخرج الخطيب[2] عن كعب قال: اطلبوا العلم لله، وتواضعوا له [فإن

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٦٧. وقد تقدم ذلك في الباب الثالث.

(٢) تاريخ بغداد ٨/ ٢٢٨. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

الملائكة تتواضع لأهله] ثم ضعوه في أهله؛ فإنه قال بعض الأنبياء: لا تُلقُوا دُرَّكم في أفواه الخنازير. يعني بالدر: العلم.

كذا في «اللآلئ المصنوعة»[١] للسيوطي، وأورد صاحب القوت هنا قولاً آخر لسيدنا عيسىٰ عليه السلام وهو: لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ... الخ، وقد تقدم ذِكرُه للمصنف عند الصنف الثاني من الشطح مع ذكر أحاديث أُخَر مناسبه للمقام.

وذكر صاحب القوت[٢] عن أبي عمران المكي أنه رأىٰ النبي ﷺ في المنام، فسمعه يقول: إن لكل شيء عند الله حرمة، ومن أعظم الأشياء حرمة الحكمة، فمَن وضعها في غير أهلها طالبه اللهُ بحقها، ومَن طالبه خَصِمَه.

وقد سبق شيء من ذلك.

وذكر أيضًا بعد نقله قول سيدنا عيسىٰ المتقدم ذكره ما لفظه: وكان بعض هذه الطائفة يقول: نصف هذا العلم سكوت، ونصفه تدري أين تضعه. وقد قال بعض العارفين: مَن كلَّم الناس بمبلغ علمه وبمقدار عقله ولم يخاطبهم بمقدار حدودهم فقد بخسهم حقَّهم، ولم يقُم بحق الله تعالىٰ فيهم.

ثم إن المراد بالجوهر في قول سيدنا عيسىٰ عليه السلام: علم الباطن، وقد أخرج الخطيب في تاريخه[٣] من طريق يحيىٰ بن عُقْبة بن أبي العَيْزار عن محمد بن جُحادة عن أنس رفعه: «لا تعلِّقوا الدُّرَّ في أعناق الخنازير». وفي لفظ: «لا تطرحوا الدر في أفواه الكلاب» يعني العلم. ويحيىٰ ضعيف، وله متابع عند الخليلي في «الإرشاد»[٤]

(١) اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ١/ ٢٠٩.

(٢) تقدمت هذه الحكاية مبسوطة في الباب الثالث.

(٣) تاريخ بغداد ١٠/ ٤٧٩، ١٣/ ٢٠٣.

(٤) الإرشاد للخليلي ٢/ ٤٩٢ وقال: هذا أنكروه من حديث شعبة، لا يعرف أنه رُوي عنه إلا هذا الذي رواه عن إبراهيم بن سعيد، وإبراهيم صالح، لكن الحمل علىٰ من بعده، وكان الحفاظ يقصدون شيخنا محمد بن سليمان لهذا الحديث، ولا يعرف من حديث شعبة إلا من هذا الوجه، وإنما يعرف هذا من حديث يحيىٰ بن عقبة عن محمد بن جحادة، ويحيىٰ ضعيف.

من طريق شعبة العياب عن محمد بن جُحادة عن أنس، ولفظه: «لا تطرحوا الدُّر في أفواه الخنازير». يعني العلم. وعند ابن ماجه[١]: «وواضع العلم عند غير أهله كمقلِّد الخنازير الجوهر والدر[٢] والذهب».

(**ولهذا قيل**) ونص القوت[٣]: وكان يحيىٰ بن معاذ يقول: اغرف لكل واحد من نهره، واسْقِه بكأسه. ونحن نقول بمعناه: (**كِلْ لكل عبد بمعيار عقله، وزِنْ له بميزان علمه**) وفي بعض النسخ: بميزان فهمه (**حتىٰ تَسْلَم منه وينتفع بك، وإلا وقع الإنكار لتفاوُت المعيار**) هذا كله نص القوت، وعُلم بذلك أن المراد بهذا القائل هو صاحب القوت؛ لأنه قال: ونحن نقول بمعناه. أي معنىٰ قول يحيىٰ بن معاذ الرازي، أحد العارفين الأكابر، وإليه يشير قول الحريري صاحب المقامات[٤]:

وكِلْتُ للخِلِّ كما كالَ لي ... علىٰ وفاء الكيل أو بَخْسِه
ولم أخسِّره وشرُّ الوَرَىٰ ... مَن يومُه أخسرُ من أمسِه

وفي القوت: (**وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يُجِب**) عنه (**فقال السائل: أما سمعتَ رسول الله ﷺ قال**) أي: أما بلغك قوله: (**مَن كتم علمًا نافعًا جاء يوم القيامة ملجمًا بلجام من نار؟ فقال**) في جوابه: (**اترك اللجام واذهب، فإن جاء مَن يفقه**) وفي نسخة: يفهمه، ثم سألني (**وكتمتُه فليلجمني**) فإن إيداع الأسرار لا يكون إلا لمن تلقَّن بفهم ثم انتفع به (**فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ**) في كتابه العزيز: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ [النساء: ٥] والسفيه: مَن لا يُعرَف رشده، فلا يمكَّن بالأموال؛ فإنه يتصرف فيها بالتبذير وسوء التدبير، فإذا كانت الأموال وهي عوارض ظاهرة مُنعت عن تمكُّن السفهاء فيها فالعلوم الإلهية التي من عمل الباطن بطريق

(١) سنن ابن ماجه ١/ ٢١٥.

(٢) في سنن ابن ماجه: واللؤلؤ، بدل: والدر.

(٣) قوت القلوب ١/ ٢٦٧.

(٤) شرح المقامات الحريرية للشريشي ١/ ١٦٨ (المقامة الدمياطية).

الأَولىٰ، ومن هنا ظهر أن السائل إنما سأله عن دقيقة من دقائق الحقيقة، ولمَّا لم يجده أهلاً لتحمُّلها قال ما قال. ثم رأيت هذا الفصل برمَّته في كتاب «الذريعة» للراغب الأصفهاني، وفيه فوائد زوائد، والمصنف إنما انتزعه من كتاب القوت، ولا بأس أن نلمَّ بكلام الذريعة؛ فإن سياقه أتم من سياق القوت، قال[١]: واجب علىٰ الحكيم والعالِم النِّحْرير أن يقتدي بالنبي ﷺ فيما قال: «إنَّا معاشر الأنبياء ...» فذكر الحديث، وأن يتصوَّر ما قاله عليٌّ لكميل بن زياد وأومأ بيده إلىٰ صدره ... فذكره، وروىٰ هو عن النبي ﷺ: «كَلِّموا الناس بما يعرفون، ودَعُوا ما ينكرون ...» إلىٰ آخر الحديث، وقال ﷺ: «ما أحدٌ يحدِّث قومًا ...» الخ، وقال عيسىٰ عليه السلام: لا تضعوا الحكمة ... الخ، وقيل: تصفَّحْ طلاَّب علمك[٢] كما تتصفَّح طلاب[٣] حرمك، وبهذا ألمَّ أبو تمام[٤]:

وما أنا بالغَيْران من دون جارتي[٥] إذا أنا لم أصبح غيورًا علىٰ العلم

وقيل لبعض الحكماء: ما بالك لا تُطلِع كل أحد[٦] علىٰ حكمة يطلبها منك؟ فقال: اقتداءً بالباري عزَّ وجلَّ، حيث قال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٢٣] فبيَّن أنه [إنما] منعهم لمَّا لم يكن فيهم خير، وبيَّن أن في إسماعهم ذلك مَفسدة لهم. وسأل جاهل حكيمًا [عن] مسألة من الحقائق، فأعرض عنه ولم يُجِبْه، فقال [له]: أما سمعتَ قول النبي ﷺ: «مَن كتم علمًا ...» الخ؟ فقال: نعم، سمعتُه، اترك اللجام هنا واذهب، فإذا جاء مَن ينفعه ذلك وكتمتْه فليلجمني به. وقال بعض الحكماء في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ الآية: أنه نبَّه به علىٰ هذا المعنىٰ،

(١) الذريعة ص ١٥٤ - ١٥٦. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٢) في الذريعة: حكمك.

(٣) في الذريعة: خطاب.

(٤) البيت في ديوانه ص ٤١١ من قصيدة يعاتب بها أبا القاسم بن الحسن بن سهل.

(٥) في الديوان: جاره. وفي الذريعة: جيرتي.

(٦) في الذريعة: لا تطلع أحدا.

وذلك أنه لمَّا منعنا عن تمكين السفيه من المال الذي هو عَرَضٌ حاضر يأكل منه البَرُّ والفاجر تفاديًا أنه ربما يؤدِّيه إلىٰ الهلاك الدنيوي، فلأنْ يُمنَع من تمكينه من حقائق العلوم الذي إذا تناوله السفيه أدَّاه إلىٰ ضلال وإضلال وهلاك وإهلاك [أحق و] أولىٰ فإنه

إذا ما اقتنىٰ العلمَ ذو شَرَه   تضاعف ما ذُمَّ من مَخْبَره
وصادف من علمه قوةً   يصول بها الشر من جوهره

وكما أنه واجب علىٰ الحكام إذا وجدوا من السفهاء رشدًا أن [يرفعوا عنهم الحَجْر و] يدفعوا إليهم أموالهم، فواجب علىٰ الحكماء إذا وجدوا من المسترشدين قبولاً أن يدفعوا إليهم العلوم بقَدْر استحقاقهم، فالعلم قنية يُتوصَّل بها إلىٰ الحياة الأخروية، كما أن المال قنية [يُتوصَّل بها] في المعاونة علىٰ الحياة الدنيوية. ا.هـ.

والحديث(١)، قال العراقي: أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد، ولفظه عند السيوطي في الجامع الكبير(٢): «مَن كتم علمًا ممَّا ينفع الله به الناسَ في أمر الدين ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار». وأما حديث أبي هريرة الذي تقدم فلفظُه: «مَن علم علمًا فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار». أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحَّحه، وقال الترمذي: حديث حسن. وتقدم الكلام عليه في أول الكتاب، وقد أخرجه أيضًا ابن النجار في تاريخه عن عبد الله بن عمرو بهذا اللفظ، والإسناد مصريون. وفي الباب عن جابر وابن مسعود وابن عباس وأنس، وتقدم بيان ألفاظهم في أول الكتاب عند ذكر حديث أبي هريرة، فليراجَعْ. وفي لفظ ابن مسعود: «مَن كتم علمًا عن أهله». وتنكير(٣) «علم» في حيِّز الشرط يوهم شمول العموم لكل علم حتىٰ غير الشرعي، وفي رواية ابن ماجه تقييده بـ

---

(١) تقدم تخريج هذا الحديث في الباب الأول.
(٢) كنز العمال ١٠/ ١٩٦.
(٣) فيض القدير ٦/ ٢١٢.

«نافع»، وخصَّه بعضهم بالشرعي[١]، والمراد به ما أُخذ من الشرع أو توقَّف هو عليه توقُّفَ وجود أو كمال[٢]، والحديث نصٌّ في تحريم الكَتْم، وخصَّه آخرون بما يلزمه تعليمه وتعيَّن عليه.

(فنبَّه علىٰ أن حفظ العلم) وصيانته (ممَّن يفسده) أي يفسِد حالَه (ويضرُّه) لعدم استئهاله له (أَولىٰ) بل واجب، دلَّ علىٰ ذلك قولُه في بعض الروايات المتقدمة: عن أهله (وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأَولىٰ) وفي بعض النسخ: بأقل (من الظلم في منع المستحق) ولله دَرُّ القائل[٣]:

(أأنثر دُرًّا بين سارحة النعم ... فأصبح مخزونًا لراعية الغنم[٤]

لأنهم أمسوا بجهل لقَدْره ... فلا أنا أضحِّي أن أطوِّقه البُهُم[٥]

فإن لطف اللهُ اللطيفُ[٦] بلطفه ... وصادفتُ أهلاً للعلوم وللحِكَم

نشرت[٧] مفيدًا واستفدتُ مودة[٨] ... وإلا فمخزون لديَّ ومكتتَم

---

(١) في الفيض: وخصه كثير كالحليمي بالشرعي.

(٢) في الفيض: توقف وجود كعلم الكلام، أو كمال كالنحو والمنطق.

(٣) هو الإمام الشافعي، والأبيات في ديوانه ص ٩٢ (ط - دار الكتاب العربي ببيروت). وفيه أنه لما دخل الشافعي مصر أتاه جلة أصحاب مالك وأقبلوا عليه، فابتدأ يخالف أصحاب مالك في مسائل، فتنكروا له وحصروه، فأنشد هذه الأبيات.

(٤) في الديوان: وأنظم منثورا لراعية الغنم.

(٥) بدل هذا البيت في الديوان:

لعمري لئن ضيعت في شر بلدة ... فلست مضيعا بينهم غرر الكلم

سأكتم علمي عن ذوي الجهل طاقتي ... ولا أنثر الدر النفيس على الغنم

(٦) في الديوان: لئن سهل الله العزيز.

(٧) في الديوان: بثثت.

(٨) في الديوان: ودادهم.

فمَن منح الجُهَّال علمًا أضاعَه ومَن منع المستوجبينَ فقد ظلم)[١]

قال المناوي: وجعل بعضهم حبس كتب العلم من صور الكتم سيَّما إن عَزَّت نسخها.

وأخرج البيهقي[٢] عن الزهري: إياكَ وغلول الكتب. قيل[٣]: وما غلولها؟ قال: حبسُها.

وأخرج أبو نعيم في الحلية[٤] من رواية حمَّاد بن عبد الله قال: سمعت الشعبي يقول: لا تمنعوا العلم أهله فتأثموا، ولا تحدِّثوا به غير أهله فتأثموا.

(**الوظيفة السابعة**) من وظائف المعلم: (**أن المتعلم القاصر**) فهمه (**ينبغي**) للمعلم (**أن يُلقِي إليه الجليَّ**) الواضح البيِّن (**اللائق به**) أي بحاله وحال أمثاله، ويكتفي بما ألقاه إليه (**ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقًا**) وتحقيقًا غير ما ذكره (**و**) يوهمه في مَطاوي كلامه (**أنه يدَّخره**) ويكتمه (**عنه**) لعدم تأهُّله بحمله (**فإن ذلك يفتِّر**) أي يسكِّن (**رغبته في**) ما هو (**الجلي ويشوش عليه قلبَه**) ويصرف همته (**ويوهم إليه البخل به عنه**) أي إنما ادخره عنه ضنًّا به وبخلاً عليه (**إذ يظن كلُّ أحد**) في نفسه (**أنه أهلٌ لكل علم دقيق**) ولو كان في الحقيقة قاصر الفهم (**فما من أحد إلا وهو راضٍ عن الله عَزَّوَجَلَّ في كمال عقله**) قد أقامه الله علىٰ ذلك، ولولا ذلك لفسد نظام الكون (**وأشدهم حماقة**) أي فسادًا في العقل (**وأضعفهم**) وفي نسخة: وأصغرهم (**عقلاً هو أفرحهم**): أشدهم فرحًا (**بكمال عقله**) وتصويب رأيه (**وبهذا**

---

(١) بعده في الديوان:

وكاتم علم الدين عمن يريده يبوء بأوزار وإثم إذا كتم

(٢) المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ ٢/ ١٢٠.

(٣) القائل هو يونس بن يزيد الأيلي.

(٤) حلية الأولياء ٤/ ٣٢٤.

يُعلم) هذه العبارة منتزَعة من كتاب «الذريعة» للراغب، قال[1]: وإذا ثبت ذلك وجب **(أن)** يكون **(مَن تقيَّد من العوامِّ)** ولفظ الذريعة: من العامة **(بقيد الشرع)** بحسب حاله **(ورسخ)** أي ثبت **(في نفسه)** اعتقادُ **(العقائد المأثورة)** المنقولة **(عن السلف)** الصالحين **(من غير تشبيه)** فيه بما لا يليق، ولا تعطيل **(ومن غير تأويل)** لظاهر ما ورد **(وحسنُت مع ذلك سيرتُه)** وطريقته **(ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك)** لقصوره **(فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقادَه)** فإن ذلك موجِب لحرمانه **(بل ينبغي أن يخلَّىٰ)** أي يُترك **(وحرفته)** أي صنعته التي هو فيها، وطريقته التي هو سالكها **(فإنه لو ذكر له تأويلات الظاهر)** وما اختُلف فيها بالدلائل والبراهين **(انحلَّ عنه قيدُ العوام ولم يتيسَّر قيدُه بقيد الخواصِّ)** فبقي مذبذَبًا بين هؤلاء وهؤلاء **(فيرتفع عنه السِّتْر)** وفي نسخة: السد **(الذي بينه وبين المعاصي)** فيرتكبها متهاونًا بها، فيقع في محظور **(وينقلب)** في أفعاله **(شيطانًا مَرِيدًا)** متمرِّدًا، وحينئذٍ **(يُهلِك نفسَه)** بما يصدر منه من المخالفات **(و)** يُهلِك **(غيرَه)** لأنهم يرونه فيقتدون به فيهلكون **(بل لا ينبغي أن يُخاض)** أي يفاوَض **(مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة)** مداركها، وهذا مُشاهَد في عوام الصوفية؛ إذ يسمعون من مشايخهم بعض كلمات دقيقة في علم الحقيقة فيتمشدقون بها فيَهلكون ويُهلِكون **(بل يقتصر معهم)** الخائض **(علىٰ تعليم العبادات)** الدينية كالصلاة والصوم والحج والزكاة ومتعلقات كل ذلك من غير تدقيق في مسائلها، ولا اختلاف في نقولها **(و)** بعد ذلك يفاوضهم في **(تعليم الأمانة)** خاصةً **(في الصناعات التي هم بصددها)** ليكون ذلك أوقع في قلوبهم وأنفع بحسب ما هم فيه **(و)** في أثناء ذلك **(يملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة بالجنة والنار)** أي بذكر كلٍّ منهما بما فيهما من النعيم المقيم الأبدي والعقاب الأليم السرمدي **(كما نطق به القرآن)** وصرَّحت به الأحاديث والآثار ممزوجة بأقاويل السادة الأخيار **(ولا يحرِّك عليهم شُبْهةً)** أي لا يفتح عليهم في خلال ذلك باب شبهة وردٍّ

---

(١) الذريعة ص ١٥٧ - ١٥٨. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

وإشكال (**فإنه ربما تعلقت الشبهة بقلوبهم**) لخلوِّها (**ويعسر عليه حلُّها**) والجواب عنها (**فيهلك**) أي فيكون سببًا لهلاكه (**ويشقَىٰ**) أي [فيكون][1] سببًا لشقاوته.

(**وبالجملة، لا ينبغي أن يُفتَح للعوام**) عامةً (**باب البحث**) والجدال (**فإنه يعطِّل عليهم صناعاتهم التي بها قوام الخَلْق**) ونظامهم (**و**) بها (**دوام عيش الخواصِّ**) لافتقارهم ضرورةً إلىٰ تلك الصناعات.

وعبارة الذريعة: وجب علىٰ مَن تقيَّد بقيد [الشرع من] العامة أن لا ينصرف عما هو بصدده، فيؤدي ذلك إلىٰ انحلاله عن قيده، ثم لا يمكن أن يقيَّد بقيد الخواص فيرتفع السد الذي بينه وبين الشرور، ومَن اشتغاله بعمارة الأرض من بين تجارة أو مهنة فحقُّه أن يقتصر به من العلم علىٰ مقدار ما يحتاج إليه مَن هو في مرتبته في عبادة الله العامِّية، وأن يملأ نفسه من الرهبة والرغبة الوارد بهما القرآن، ولا يولِّد له الشُّبَه والشكوك، وإن اتفق اضطراب نفس بعضهم إما بانبعاث شبهة تولَّدت [له] أو ولَّدها ذو بدعة دُفعت إليه فتاقت نفسه إلىٰ معرفة حقيقتها فحقُّه أن يُختبَر، فإن وُجد ذا طبع للعلم موافق وفهم ثاقب وتصوُّر[2] صائب خُلِّي بينه وبين التعلُّم، وسُوعِدَ عليه بما يوجد من السبيل إليه، فإن وُجد شرِّيرًا في طبعه أو ناقصًا في فهمه مُنع أشدَّ المنع، ففي اشتغاله بما لا سبيل له إلىٰ إدراكه مَفسدتان: تعطُّله عما يعود بنفع إلىٰ العباد والبلاد، واشتغاله بما يثير فيه شبهة وليس فيه نفعه، وكان بعض الأمم السالفة[3] إذا ترشَّح أحدهم[4] ليتخصَّص بمعرفة الحِكَم وحقائق العلوم والخروج من جملة العامة إلىٰ الخاصة اختُبر، فإن لم يوجد خيرًا في الخُلُق

---

(١) زيادة مني ليتضح الكلام.

(٢) في المطبوعة: وقصد. والمثبت من الذريعة.

(٣) في الذريعة: المتقدمة.

(٤) في الذريعة: بعضهم.

أو غير متهيِّئ للتعلُّم مُنع أشدَّ المنع، فإن وُجد كذلك[١] شُورِطَ [علىٰ] أن يقيَّد بقيد في دار الحكمة، ويُمنَع أن يخرج حتىٰ يحصل له العلم أو يأتي عليه الموت، ويزعمون أن مَن شرع في حقائق العلوم ثم لم يبرع فيها[٢] تولَّدت له الشُّبَه وكثرت، فيصير ضالاً مُضِلاً، فيعظُم علىٰ الناس ضررُه، وبهذا النظر[٣] [قيل]: نعوذ بالله من نصف متكلِّم.

(**الوظيفة الثامنة**) من وظائف المعلم: (**أن يكون المعلم**) بنفسه (**عاملاً بعلمه**) ظاهرًا أثر ذلك علىٰ جوارحه (**فلا يكذِّب قولَه فعلُه**) ولا يخالف باطنَه ظاهرُه (**لأن العلم**) نور إلهي (**يُدرَك بالبصائر**) وهو محجوب عن الإحساس (**والعمل**) شغلُ الجوارح وهو (**يُدرَك**) ظاهرًا (**بالأبصار، وأرباب الأبصار**) المشاهِدون بإحساساتهم (**أكثر**) من أرباب البصائر (**فإذا خالف العملُ العلمَ**) ولو في بعض الجزئيات (**منع الرشد**) في نفسه والإرشاد لغيره لا محالة. ونص الذريعة[٤]: والواعظ ما لم يكن مع مقالِه فعالُه لم يُنتفَع به، وذلك أن عمله يُدرَك بالبصر، وعلمُه يُدرَك بالبصيرة، وأكثر الناس أصحاب الأبصار دون البصائر، فيجب أن تكون عنايته بإظهار عمله الذي تدركه جماعتهم أكثر من عنايته بالعلم الذي لا يُدرَك إلا بالبصيرة (**و**) من المعلوم [أن] (**كل مَن تناول شيئًا**) وتعاطاه واختاره لنفسه (**وقال للناس: لا تتناولوه**) ولا تقربوا منه (**فإنه سم مهلك**) يضر بآخرتكم أو دنياكم (**سخر الناس به**) واستهزأوا به (**واتهموه**) في دينه وعلمه وورعه (**وزاد حرصهم عليه**) أي علىٰ تناوُل المنهيِّ عنه، وكذلك بالعكس إذا نُهي عن شيء ثم ارتكبه، وهذا أصل أصيل في إرشاد الطالبين وتسليك المبتدئين ولا سيما في الوعظ ومجالس العامة؛ فإن الائتمار بما سيأمره لهم أولاً والانصباغ به أوقعُ في قلوب السامعين، وأقرب إلىٰ أذهان

---

(١) في الذريعة: فإن وجد خيرا ومتهيأ.

(٢) في المطبوعة: ثم لم يفرغ منها. والمثبت من الذريعة.

(٣) في الذريعة: وبهذا السبب.

(٤) الذريعة ص ١٦٠ - ١٦٢. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

الراغبين، ولذلك كان بعض الوُعّاظ لا يذكر لهم في فضائل العتق حتىٰ أمكنه الله من شراء رقيق فأعتقه، فذكر لهم فضل مَن أعتق لله تعالىٰ حتىٰ يكون له تأثير في قلوبهم، ومن لم يكابد الليل وسهره وقيامه فكيف يُسمَع منه فضل مَن قامه وأحياه، ومتىٰ اختار لنفسه وصفًا ونهاهم عن ارتكابه يعجبون (**فيقولون: لولا أنه أعظم الأشياء وألذها**) عنده (**لَما كان يستأثر به**) ويختص لنفسه. ونص الذريعة: ومنزلة الواعظ من الموعوظ منزلة المداوِي من المداوَىٰ، فكما أن الطبيب إذا قال للناس: لا تأكلوا هذا فإنه سم، ثم رأوا آكلاً له عُدَّ سخرية وهزوًا، وكذلك الواعظ إذا أمر بما لا يعمله، وبهذا النظر قيل: يا طبيب طبَّ نفسَك (و) إنما (**مَثَلُ المعلم المرشد من**) المتعلم (**المسترشد مثل النقش من الطين**) الذي يُبنَىٰ به الجدار ونحوه (**و**) مثل (**العود**) أي عود الشجرة (**من الظل، وكيف ينقش الطين بما لا نقش فيه؟ ومتىٰ استوىٰ الظل والعود أعوج**)؟ فإذا اعوج العود اعوج الظل. وفي الذريعة: وأيضًا، فالواعظ من الموعوظ يجري مجرىٰ الطابع من المطبوع، فكما أنه محال أن ينطبع الطين علىٰ الطابع بما ليس منتقشًا به، كذلك محال أن يحصل في نفس الموعوظ ما ليس بموجود من الواعظ[1]، فإذا لم يكن الواعظ إلا ذا قول مجرَّد من الفعل لم يتلقَّ عنه الموعوظ إلا القول دون الفعل. وأيضًا، فإن الواعظ يجري [من الناس] مجرىٰ الظل من ذي الظل، وكما أنه محال أن يعوج ذو الظلِّ والظلُّ مستقيم، كذلك محال أن يعوج الواعظ ويستقيم الموعوظ.

وقال ابن السمعاني: قرأت في كتاب كتبه الغزالي إلىٰ أبي حامد [بن] أحمد بن سلامة بالموصل فقال في خلال فصوله: أما الوعظ فلست أرىٰ نفسي أهلاً له؛ لأن الوعظ زكاة نصابه الاتعاظ، فمن لا نصاب له كيف يُخرِج الزكاة؟ وفاقد النور كيف يستنير به غيرُه؟ ومتىٰ يستقيم الظل والعود أعوج ... إلىٰ آخر ما ذكر، وقد ذُكر في

---

(١) في الذريعة: ما ليس موجودا في نفس الواعظ.

خلال فصول المقدمة[١]، وسيأتي شيء من ذلك في الباب السادس، ولا يخفىٰ أن هذا وما في الذريعة في مورد الوعظ، وقاس المصنف عليه التعليم والإرشاد لقرب منزلتهما، وقوله: متىٰ يستقيم ... الخ مِصْراع بيت كامل جرىٰ مجرىٰ الأمثال المشهورة المفيدة[٢] **(ولذلك قيل في المعنىٰ**[٣]:

لا تَنْهَ عن خُلُق وتأتي مثلَه عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ

وقال الله تعالىٰ) في كتابه العزيز: (﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾) [البقرة: ٤٤] قال البيضاوي[٤]: تقرير مع توبيخ وتعجيب، والبر يتناول كلَّ خير (﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾) وتتركونها. قال ابن عباس: نزلت في أحبار المدينة، كانوا يأمرون سرًّا مَن نصحوه باتِّباع محمد ﷺ ولا يتَّبعونه ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تبكيت، كقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾ [البقرة: ٢٢] أي تتلون التوراة وفيها الوعيد علىٰ العناد ومخالفة القول العمل. ومثله في قوله عَزَّوَجَلَّ يذم الشعراء فقال: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ

---

(١) في الفصل التاسع تحديدا، ولفظه هناك: وفاقد الثوب كيف يستر به غيره. بدل من قوله: وفاقد النور ... الخ.

(٢) والبيت كاملا:

متي يستقيم الظل والعود أعوج وهل ذهبٌ صرفٌ يساويه بهرجُ

وهو لعبد الرحيم بن أحمد البرعي (نسبة إلىٰ برع، وهو جبل بتهامة) اليمني الصوفي في ديوانه ص ٩٥ (ط - مطبعة فتح الكريم).

(٣) البيت لأبي الأسود الدؤلي في ديوانه ص ٤٠٤.

(٤) تفسير البيضاوي ١/ ٧٧ ونصه: «﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ تقرير مع توبيخ وتعجيب، والبر: التوسع في الخير، من البر وهو الفضاء الواسع، يتناول كل خير، ولذلك قيل: البر ثلاثة: بر في عبادة الله تعالىٰ، وبر في مراعاة الأقارب، وبر في معاملة الأجانب ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ وتتركونها من البر كالمنسيات، وعن ابن عباس أنها نزلت في أحبار المدينة، كانوا يأمرون سرا من نصحوه باتباع محمد ﷺ ولا يتبعونه. وقيل: كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تبكيت كقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾ أي تتلون التوراة، وفيها الوعيد علىٰ العناد وترك البر ومخالفة القول العمل».

مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ [الشعراء: ٢٢٦] وكذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٢ - ٣] وأخرج عبد بن حميد[1] عن أبي خالد الوالبي قال: جلسنا عند خبَّاب بن الأرت فسكت، فقلنا: ألا تحدثنا؟ فإنما جلسنا إليك لذلك. فقال: أتأمروني أن أقول ما لا أفعل؟! (**ولذلك كان وِزْر العالِم**) بكسر اللام (**في معاصيه**) إذا ارتكبها (**أكثر من وزر الجاهل**) لِما سيأتي من قول أبي الدرداء ﷺ: ويل للجاهل مرة، وويل للعالِم سبع مرات (**إذ يَزِلُّ بزلَّته عالَم كثير ويقتدون به**) مقرِّين عليه، ومنه: زلة العالِم زلة العالَم، وفي «العالِم» و«العالَم» جِناس كامل (**و**) قد ورد: (**مَن سنَّ**) في الإسلام (**سنَّة سيئة فعليه وزرُها ووزر مَن عمل بها**) وهي قطعة من حديث، وتمامه: «من بعده من غير أن ينقص من أوزراهم شيء». أخرجه الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق والدارمي وأبو عَوانة وابن حبَّان، كلهم عن جرير، وأوله: «مَن سنَّ في الإسلام سنَّة حسنة فله أجرُها وأجرُ مَن عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء». وفي الباب عن حذيفة وأبي جُحَيفة وأبي هريرة وواثلة ﷺ، وقد تقدم في خطبة هذا الشرح إيماءٌ إلىٰ ذلك، فراجعْه. ولم يذكره الحافظ العراقي في تخريجه، وكأنه لعدم ذِكر المصنف في أوله: قال رسول الله ﷺ، بل ساقه مَساق كلامه، وإلا فلا يخفَىٰ مثل ذلك عليه.

وقد ساق صاحب الذريعة هذا السياق، وفيه زيادة لم يذكرها المصنف فقال: وأيضًا، فكل شيء له حالة يختص بها فإنه يجرُّ غيرَه إلىٰ نفسه بقَدْر وسعه بإرادة منه أو غير إرادة، كالماء الذي يحيل ما يتلقاه من العناصر إلىٰ نفسه بقدر وسعه، وكذلك النار والأرض والهواء، فالواعظ إذا كان غاويًا جر بغَيِّه غيرَه إلىٰ نفسه، فمَن ترشَّح للوعظ ثم فعل فعلاً قبيحًا اقتدىٰ به غيره [فيه] فقد جمع وزره ووزرهم، كما قال ﷺ: «مَن سنَّ سنَّة سيئة فعليه وزرُها ووزر مَن عمل بها إلىٰ

(١) الدر المنثور ١٤/ ٤٤٦.

يوم القيامة». وقال تعالىٰ[1]: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ الآية [العنكبوت: ١٣].

(**ولذلك قال علي** رضي الله عنه: **قصم ظهري رجلان: عالِم متهتِّك، وجاهل متنسِّك، فالجاهل يغُرُّ الناس بتنسُّكه، والعالِم يغرُّهم بتهتُّكه**) هذا الأثر لم أجده في الحلية بلفظه، وفي القوت[2]: وروينا عن عليٍّ رضي الله عنه: ما قطع ظهري في الإسلام إلا رجلان: عالِم فاجر، ومبتدع ناسك، فالعالِم الفاجر يزِّهد الناسَ في علمه؛ لِما يرون من فجوره، والمبتدع الناسك يرغِّب الناسَ في بدعته؛ لِما يرون [من] نسكه.

ونص الذريعة: حق الواعظ أن يتعظ ثم يعظ، ويبصِر ثم يبصِّر، ويهتدي ثم يهدي، ولا يكون دفترًا يفيد ولا يستفيد، ومِسَنًّا يشحذ ولا يقطع، بل يكون كالشمس التي تفيد القمر الضوء ولها أفضل مما تفيده، وكالنار التي تحمي الحديد ولها من الحمي أكثر مما تفيد، ويجب أن لا يجرح[3] مقاله بفعاله، ولا يكذِّب لسانَه بحاله فيكون ممَّن وصفهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾ الآية [البقرة: ٢٠٤] ونحو ما قال عليٌّ رضي الله عنه: قصم ظهري ... الخ فساقه، ولكن بتقديم الجاهل علىٰ العالِم، والباقي سواء (**والله أعلم**).

---

(١) في الذريعة بدل هذه الآية قوله تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ۝﴾.

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٤٣. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٣) في المطبوعة: يخدج. والمثبت من الذريعة.

الباب السادس:

في آفات العلم والعلماء، والعلامات الفارقة بين علماء الدنيا والآخرة

(**في آفات العلم**) والعلماء (**وبيان علامات**) فارقة بين (**علماء الآخرة و**) بين (**العلماء السوء**) وهم علماء الدنيا، فاعلم أنه (**قد ذكرنا**) فيما سبق بعض (**ما ورد**) في الآيات والأحاديث والآثار (**من فضائل العلم والعلماء**) بالله ما فيه مَقْنَع للطالب المُجِدِّ (**و**) الآن عنَّ لنا أن نذكر شيئًا مما يتعلق بعلماء الدنيا، فاعلم أنه (**قد ورد في**) حق (**العلماء السوء تشديدات**) وتهديدات (**عظيمة**) في الآيات والأحاديث والآثار (**دلَّت علىٰ أنهم أشد الخَلْق عذابًا يوم القيامة**) كما سيأتي بيانه (**فمن المهمَّات العظيمة: معرفة العلامات الفارقة**) المميِّزة (**بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة**) ليكون السامع لِما يُتلَىٰ عليه من ذلك علىٰ بصيرة تامة، فلا يحمل ما ورد في علماء الآخرة من الفضائل علىٰ علماء الدنيا (**ونعني بعلماء الدنيا: علماء السوء**) وصفهم بذلك لخسَّة منزلتهم عند الله تعالىٰ ودناءة همَّتهم، حيث استعملوا ما به يُمدَح فيما يُذَمُّ، وهم (**الذين قصدهم من**) تحصيل (**العلم التنعُّم بالدنيا**) والترفُّه بزخارفها بتزيين المنازل بالفُرُش الطيبة، وتعليق الستور عليها، وتزيين الملابس الفاخرة، والتجمُّل بالمراكب الفارهة (**والتوصل**) بذلك (**إلىٰ الجاه والمنزلة**) الرفيعة (**عند أهلها**) أي الدنيا (**قال ﷺ: إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالِمٌ لم ينفعه الله بعلمه**) قد تقدم في خطبة الكتاب الكلامُ علىٰ تخريج هذا الحديث، وأنه رواه أبو هريرة رضي الله عنه، وما يتعلَّق به من المعنىٰ، وهو أول حديث ذكره في الخطبة، وقد كرَّره في ثلاثة مواضع، هذا ثالثها.

(و) يُروَىٰ (عنه ﷺ أنه قال: لا يكون المرء عالمًا حتىٰ يكون بعلمه عاملاً) قال العراقي في التخريج الكبير: لم أجده مرفوعًا، ورواه ابن حبان في كتاب «روضة العقلاء»[1] والبيهقي في المدخل[2] موقوفًا علىٰ أبي الدرداء بزيادة في أوله: «إنك لن تكون عالمًا حتىٰ تكون متعلمًا، ولن تكون عالمًا حتىٰ تكون بما علمتَ عاملاً». اللفظ للبيهقي، وفيه انقطاع.

قلت: وأخرج الخطيب في كتاب الاقتضاء[3] من رواية هشام الدستوائي عن بُرْد عن سليمان قاضي عمر بن عبد العزيز قال: قال أبو الدرداء: لا تكون عالمًا حتىٰ تكون متعلمًا، ولا تكون بالعلم عالمًا حتىٰ تكون به عاملاً.

وأما ما عزاه العراقي لابن حبان والبيهقي فقد أخرجه الخطيب في الكتاب المذكور من رواية وكيع عن جعفر بن برقان عن فرات بن سلمان عن أبي الدرداء.

(وقال ﷺ: العلم علمانِ: علم علىٰ اللسان فذلك حُجَّة الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ ابن آدم، وعلم في القلب فذلك العلم النافع) أورده صاحب القوت[4] في خلال كلامه فقال: روينا عن الحسن البصري: يُروَىٰ عن رسول الله ﷺ قال: «العلم علمان: فعلم باطن في القلب فذاك هو العلم النافع، وعلم ظاهر علىٰ اللسان، فذلك حُجَّة الله علىٰ خَلْقه». وقد رواه الديلمي في مسند الفردوس[5] من طريق أبي نعيم من رواية قتادة عن أنس رفعه: «العلم علمانِ: فعلم ثابت في القلب فذلك العلم النافع، وعلم في اللسان فذلك حُجَّة الله علىٰ عباده». وفي إسناده أبو الصَّلْت الهروي، اسمه

---

(١) روضة العقلاء ص ٣٥.

(٢) المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ ٢/ ٥٦.

(٣) اقتضاء العلم العمل ص ٢٦.

(٤) قوت القلوب ١/ ٢١٠.

(٥) فردوس الأخبار ٣/ ٩٧ وفيه: فذلك حجة الله علىٰ ابن آدم.

عبد السلام بن صالح، اتَّهمه الدارقطني بالوضع[١]. وبنحو هذا أخرجه الخطيب في تاريخه[٢] بإسناد جيد من رواية الحسن عن جابر رفعه، وأعلَّه ابن الجوزي[٣] برواية يحيىٰ بن اليمان، قال أحمد: ليس بحُجَّة. ولكن قال العراقي في تخريجه: احتج به مسلم، وقال يحيىٰ بن معين: ثقة[٤]، وقال ابن المديني: صدوق.

قال العراقي: وقد جاء من حديث الحسن مرسلاً دون ذكر جابر بإسناد صحيح، رواه الحكيم الترمذي في النوادر[٥] وابن عبد البر في العلم[٦] من رواية هشام عن الحسن عن النبي ﷺ.

قلت: وكذلك ابن أبي شيبة في المصنَّف[٧].

قال: وفي الباب عن عليٍّ وعائشة ﵄.

(**وقال ﷺ: يكون في آخر الزمان عُبَّاد جُهَّال وعلماء فُسَّاق**) هكذا أخرجه أبو نعيم في الحلية[٨] من رواية يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس رفعه، ثم قال: هذا [حديث غريب من] حديث ثابت لم نكتبه إلا من حديث يوسف بن عطية عن ثابت، وهو قاضٍ بصري في حديثه نكارةٌ.

وأخرجه كذلك من طريقه الحاكمُ في الرقاق من المستدرك[٩] وابن عدي

---

(١) انظر: ميزان الاعتدال للذهبي ٢/ ٦١٦.

(٢) تاريخ بغداد ٥/ ٥٦٨.

(٣) العلل المتناهية ١/ ٨٣.

(٤) الذي في ميزان الاعتدال ٤/ ٤١٦ عن ابن معين: ليس بالقوي.

(٥) نوادر الأصول ٢/ ٧١٥.

(٦) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٦٦١.

(٧) مصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٣٥.

(٨) حلية الأولياء ٢/ ٣٣١. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٩) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٤٥٨.

في الكامل[١]، ولفظهما: وعلماء فَسَقة[٢]. وابن النجار في تاريخه، كما في الكبير للسيوطي[٣]، ولفظه: وقرَّاء فسقة. وقال الحاكم: صحيح[٤]. وشنَّع عليه الذهبي والعراقي، قال الأول: يوسف بن عطية الصَّفَّار هالك. وقال الثاني: مجمَع علىٰ ضعفه. وفي الميزان[٥] عن البخاري[٦]: منكَر الحديث. وساق له هذا الخبر. وفي الديوان[٧]: قال أبو زرعة[٨] والدارقطني[٩]: ضعيف.

ورواه البيهقي في الشعب[١٠] من هذا الوجه وقال: يوسف كثير المناكير.

ومن شواهده ما أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر[١١] من رواية أبان عن أنس رفعه: «يكون في آخر الزمان ديدان القرَّاء، فمَن أدرك ذلك الزمانَ فليتعوَّذْ بالله من الشيطان الرجيم [ومنهم] فهم الأنتنون».

وأخرجه أبو نعيم في الحلية[١٢] من طريق سليمان التيمي عن أبي عثمان

---

(١) الكامل في الضعفاء ٧/ ٢٦١٠.

(٢) الذي في المستدرك والكامل بلفظ: وقراء فسقة.

(٣) عزاه في كنز العمال ١٤/ ٢٢٢ للحاكم في المستدرك وأبي نعيم في الحلية، ولم يذكر تاريخ ابن النجار. وكذا في الجامع الصغير، كما في فيض القدير ٦/ ٤٦٤.

(٤) لم أقف علىٰ تصحيحه في المستدرك.

(٥) ميزان الاعتدال ٤/ ٤٦٩.

(٦) التاريخ الكبير للبخاري ٨/ ٣٨٧.

(٧) ديوان الضعفاء والمتروكين للذهبي ص ٤٤٨، ولم يذكر أبا زرعة.

(٨) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٩/ ٢٢٦.

(٩) الضعفاء والمتروكون للدارقطني ص ٢٥٧.

(١٠) شعب الإيمان ٩/ ٢١٤.

(١١) نوادر الأصول ٢/ ٧٤٠ وتمامه: «ثم تظهر قلانس البرود فلا يستحيا يومئذ من الرياء، والمتمسك يومئذ بدينه كالقابض علىٰ جمرة، والمتمسك يومئذ بدينه أجره كأجر خمسين. قالوا: منا أو منهم؟ قال: بل منكم».

(١٢) حلية الأولياء ٣/ ٣٥.

النهدي عن أبي أمامة رفعه، إلا أنه قال: ذئبان القرَّاء، بدل: ديدان، وقال: غريب من حديث سليمان، أفادناه الدارقطني الحافظ[١].

ونقل القرطبي[٢] عن مكحول: يأتي على الناس زمانٌ يكون عالِمُهم أنتن من جيفة حمار.

وأخرج الخطيب[٣] عن أبي هريرة: «يكون في آخر الزمان أمراء ظَلَمة، ووزراء فَسَقة، وقضاة خونة، وفقهاء كَذَبة، فمَن أدركهم فلا يكوننَّ لهم عِرِّيفًا، ولا جابيًا، ولا خازنًا، ولا شرطيًّا».

(وقال ﷺ: لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولتماروا به السفهاء، ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم، فمَن فعل ذلك فهو في النار) أخرجه ابن ماجه[٤] من رواية بشير بن ميمون عن أشعث بن سَوَّار عن ابن سيرين عن حذيفة رضي الله عنه رفعه، ولفظه: «لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء، أو لتُماروا به السفهاء، أو لتصرفوا ..» والباقي سواء.

قال العراقي: وبشير بن ميمون الخراساني متهم بالوضع؛ قاله البخاري[٥]، وأشعث بن سوار مختلَف فيه، ولكن أخرج ابن ماجه[٦] أيضًا من رواية ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر رفعه: «لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به

---

(١) عبارة الحلية: غريب من حديث سليمان، لم نكتبه بهذا الإسناد إلا عن هذا الشيخ - يعني علي بن أحمد بن علي المصيصي - أفادناه عنه أبو الحسن الدارقطني الحافظ.

(٢) التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة للقرطبي ٣/ ١٢٣٠ (ط - مكتبة دار المنهاج بالرياض).

(٣) تاريخ بغداد ١١/ ٥٧٨، ١٣/ ٥٢٩.

(٤) سنن ابن ماجه ١/ ٢٣٨.

(٥) الذي في التاريخ الكبير للبخاري ٢/ ١٠٥: منكر الحديث. والقول الذي ذكره العراقي نقله الذهبي أيضًا في ميزان الاعتدال ١/ ٣٣٠.

(٦) سنن ابن ماجه ١/ ٢٣٥.

السفهاء، ولا لتجترئوا به في المجالس[١]، فمَن فعل ذلك فالنارُ النارُ». قال العراقي: وإسناده علىٰ شرط مسلم.

قلت: وأخرجه كذلك الحاكم[٢] وابن حبان[٣] والضياء المقدسي في المختارة، وبه يتقوَّىٰ حديثُ حذيفة السابق.

قال العراقي: وفي الباب عن عبد الله بن عمر وكعب بن مالك وأبي هريرة ومعاذ وأنس وأم سلمة ﷺ، فحديث ابن عمر رواه ابن ماجه[٤] من رواية أبي كَرِب الأزدي عن نافع عنه رفعه: «مَن طلب العلم ليماري به السفهاء أو ليباهي به العلماءَ أو ليصرف وجوه الناس إليه فهو في النار». وأبو كَرِب مجهول.

وروىٰ الترمذي[٥] من حديث خالد بن دُرَيك عن ابن عمر رفعه: «مَن تعلَّم علمًا لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوَّأ مقعده من النار». وإسناده جيد[٦].

وأما حديث كعب بن مالك فرواه الترمذي[٧] من رواية إسحاق بن يحيىٰ بن طلحة بن عبيد الله قال: حدثني ابن كعب بن مالك عن أبيه رفعه: «مَن طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار». وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسحاق بن يحيىٰ [ليس بذاك القوي عندهم][٨] تُكُلِّم فيه من قِبَل حفظه.

---

(١) في سنن ابن ماجه: ولا لتخيروا به المجالس.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ١٥١.

(٣) صحيح ابن حبان ١/ ٢٧٨.

(٤) سنن ابن ماجه ١/ ٢٣٤.

(٥) سنن الترمذي ٤/ ٣٩٣.

(٦) بل ضعيف لانقطاعه؛ فإن خالد بن دريك لم يدرك ابن عمر.

(٧) سنن الترمذي ٤/ ٣٩٢.

(٨) زيادة من سنن الترمذي.

قلت: وأخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة[(١)] والطبراني[(٢)] من هذا الطريق، ولفظهما: «مَن طلب العلم لإحدىٰ ثلاث: ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو ليصرف وجوه الناس إليه أدخله الله النار».

وأما حديث أبي هريرة فرواه ابن ماجه[(٣)] أيضًا من رواية عبد الله بن سعيد المَقْبُري عن جده عنه رفعه: «مَن تعلم العلم ليباهي به العلماء ويجاري به السفهاء ويصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله جهنم». وعبد الله بن سعيد المقبري ضعيف؛ قاله العراقي.

وأما حديث معاذ فرواه الطبراني[(٤)] من رواية شهر بن حَوْشَب عن عبد الرحمن بن غُنْم عنه رفعه: «مَن طلب العلم ليباهي به العلماء ويماري به السفهاء في المجالس لم يرحْ رائحة الجنة». وشهر بن حوشب مختلَف فيه.

وأما حديث أنس فرواه أبو بكر البزار[(٥)] والطبراني في الأوسط[(٦)] من رواية سليمان بن زياد بن عبيد الله حدثنا شيبان أبو معاوية عن قتادة عن أنس رفعه: «مَن طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار». قال البزار: لا نعلمه يُروَىٰ عن أنس إلا بهذا الإسناد، تفرَّد به سليمان ولم يتابَع عليه، ورواه عنه غير واحد؛ قاله العراقي.

---

(١) ذم الغيبة والنميمة لابن أبي الدنيا ص ١٦ (ط - دار الكتب العلمية). وليس فيه: لإحدىٰ ثلاث.

(٢) المعجم الكبير ١٩/ ١٠٠. ولفظه: من طلب العلم لإحدىٰ ثلاث ليماري به السفهاء أو يباهي به العلماء أو يستجير وجوه الناس إليه. فقال فيه كلاماً شديدًا.

(٣) سنن ابن ماجه ١/ ٢٣٩.

(٤) المعجم الكبير ٢٠/ ٦٦.

(٥) مسند البزار ١٣/ ٤٨٨.

(٦) المعجم الأوسط ٦/ ٣٢.

قلت: وأخرجه أيضًا ابن عساكر في تاريخه[١] وأبو نعيم في المعرفة[٢] من هذا الطريق، إلا أنهما قالا: «ليماري به السفهاء أو يكاثر به العلماء أو يصرف به وجوه الناس إليه فليتبوَّأ مقعده من النار». وأخرجه ابن أبي عاصم في الوحدان والدارقطني في الأفراد[٣] والديلمي في مسند الفردوس من هذا الوجه، ولفظهم: «من تعلم العلم ..» والباقي سواء[٤].

وأخرج ابن عساكر[٥] أيضًا من رواية نافع بن مالك أبي سهل عم مالك بن أنس قال: قلت للزهري: أما بلغك أن رسول الله ﷺ قال: «مَن طلب شيئًا من هذا العلم الذي يُراد به وجه الله ليطلب به شيئًا من عَرَض الدنيا دخل النار»؟ فقال الزهري: لا، ما بلغني. فساقه، وفيه قصة تقدمت في خاتمة الفصول.

قال العراقي: وأما حديث أم سلمة فرواه الطبراني[٦] من رواية عبد الخالق بن زيد عن أبيه عن محمد بن عبد الملك بن مروان عن أبيه عنها رفعته: «من تعلم العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء فهو في النار». وعبد الخالق بن زيد بن واقد منكَر الحديث؛ قاله البخاري[٧]، وعبد الملك بن مروان أورده الذهبي في الميزان[٨] وقال: أنَّىٰ له العدالة وقد سفك الدماء وفعل الأفاعيل؟!

---

(١) تاريخ دمشق ٢٢/ ٣١٥ ولفظه: من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار.

(٢) معرفة الصحابة ١/ ٢٣٧ من طريق عثمان بن مطر عن أبي هاشم الرماني عن أنس.

(٣) أطراف الغرائب والأفراد لابن طاهر المقدسي ١/ ٢١٣.

(٤) انظر: كنز العمال ١٠/ ٢٠٢.

(٥) تاريخ دمشق ٥٥/ ٣٦٦، ٦١/ ٤٢١. وفي آخره: فقلت له: كل حديث رسول الله ﷺ بلغك؟ قال: لا. قلت: فنصفه؟ قال: عسىٰ. قلت: فهذا في النصف الذي لم يبلغك.

(٦) المعجم الكبير ٢٣/ ٢٨٤.

(٧) التاريخ الكبير ٦/ ١٢٥.

(٨) ميزان الاعتدال ٢/ ٦٦٤.

قلت: عبد الخالق المذكور قال الذهبي في الديوان[١]: قال النسائي[٢]: ليس بثقة.

وقوله: أنَّىٰ له العدالة ... الخ صحيح، ولكن قد يقال: يحتمل أنه تحمَّل هذا الحديث في حال استقامته قبل أن تصدر منه الأفاعيلُ.

وهكذا أخرجه تمام الرازي في فوائده[٣] أيضًا.

وأخرج ابن النجار في تاريخه عن أم سلمة: «مَن طلب علمًا ليباهي به العلماء فهو في النار». وأخرجه ابن عساكر[٤] أيضًا، ولكن عنده: «مَن طلب علمًا يباهي به الناسَ ...» والباقي سواء. وأخرجه الدارمي[٥] في مسنده من رواية مكحول عن ابن عباس رفعه: «مَن طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يريد أن يُقبِل بوجوه الناس إليه أدخله الله جهنم».

(**وقال ﷺ: مَن كتم علمًا عنده أُلجم بلجام من نار**) تقدم هذا الحديث قريبًا وفي الباب الأول من هذا الكتاب دون قوله: عنده. قال العراقي: وهذه اللفظة في بعض طرق حديث أبي هريرة رواها ابن الجوزي في «العلل المتناهية»[٦]، وأعلَّها بإسماعيل بن عمرو، وذكر قول الدارقطني[٧] فيه أنه ضعيف، إلا أن ابن حبان ذكره في الثقات[٨].

---

(١) ديوان الضعفاء والمتروكين ص ٢٣٨.

(٢) الضعفاء والمتروكون للنسائي ص ١٧٠.

(٣) فوائد تمام ١/ ١٧٢.

(٤) تاريخ دمشق ٤٥/ ٤٧٠.

(٥) سنن الدارمي ١/ ١١٦ مرسلاً ليس فيه ابن عباس.

(٦) العلل المتناهية ١/ ١٠٤، ١٠٦.

(٧) الضعفاء والمتروكون للدارقطني ص ٨٢.

(٨) الثقات لابن حبان ٨/ ١٠٠ وفيه: يغرب كثيرا.

(وقال ﷺ: **لأنا من غير الدجال أخوفُ عليكم من الدجال. فقيل: وما ذاك؟ فقال: من الأئمة المضلين**) وفي نسخة: فقال: أئمة مضلُّون. أخرجه الإمام أحمد[١] من حديث أبي تميم الجَيْشاني - واسمه عبد الله بن مالك - قال: سمعت أبا ذر يقول: كنت مُخاصِر النبي ﷺ [يومًا] إلىٰ منزله، فسمعته يقول: «غير الدجال أخوفُ علىٰ أمتي من الدخال». فلما خشيتُ أن يدخل قلت: يا رسول الله، أيُّ شيء أخوفُ علىٰ أمّتك من الدجال؟ قال: «الأئمة المضِلُّون». قال العراقي: في إسناده عبد الله بن لَهِيعة، مختلَف فيه.

ورواه أبو يعلىٰ[٢] من رواية جابر عن عبد الله بن نُجَيٍّ عن علي بن أبي طالب رفعه: «غير الدجال أخوفُ [عندي] عليكم، أئمة مضلُّون». وجابر هو ابن يزيد الجُعْفي، ضعَّفه الجمهور.

وروىٰ أحمد[٣] من طريق أبي المُخارِق زهير بن سالم عن عُمَير بن سعد الأنصاري أن عمر قال لكعب: ما أخوف شيء تتخوَّفه علىٰ أمة محمد ﷺ؟ قال: أئمة مضلون. قال عمر: صدقتَ، قد أَسَرَّ إليَّ ذلك وأعلمنيه رسولُ الله ﷺ. وأبو المُخارِق ذكره ابن حبان في الثقات[٤]، وعُمَير بن سعد معدود في الصحابة، والظاهر أنه منقطع بينه وبين أبي المُخارِق.

وأخرج مسلم[٥] وأصحاب السنن[٦] من رواية جُبَير بن نُفَير عن النوَّاس بن

---

(١) مسند أحمد ٣٥/ ٢٢٣. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٢) مسند أبي يعلىٰ ١/ ٣٥٩ وفي أوله: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ وهو نائم، فذكرنا الدجال، فاستيقظ محمرًّا وجهه فقال ... الخ.

(٣) مسند أحمد ١/ ٣٨٩.

(٤) الثقات ٦/ ٣٣٦.

(٥) صحيح مسلم ٢/ ١٣٤١.

(٦) سنن الترمذي ٤/ ٩٢. سنن ابن ماجه ٥/ ٥٢٨.

سَمْعان في حديثه الطويل في الدجال، وفيه: فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم».

وأخرج الإمام أحمد(١) والطبراني في الكبير عن أبي الدرداء رفعه: «إن أخوف ما أخاف علىٰ أمتي الأئمة المضلُّون». قال الهيثمي(٢): فيه راويان لم يُسمَّيا.

وأخرج العلائي بسنده إلىٰ ابن عمر [أنه] قيل له: ما يهدم الإسلام؟ قال: زَلَّة عالِم، وجدال منافق [بالكتاب] وحكم الأئمة المضلين(٣).

وأخرج أبو نعيم في الحلية(٤) من رواية صفوان بن عمرو عن أبي المُخارِق عن كعب عن عمر رفعه: «أخوف ما أخاف علىٰ أمتي الأئمة المضلِّين». قال كعب: فقلت: واللهِ ما أخاف علىٰ هذه الأمة غيرهم. قال الشيخ: غريب من حديث كعب، تفرَّد به صفوان، رواه عنه بقية بن الوليد والقدماء.

(**وقال ﷺ: من ازداد علمًا ولم يزدد هدًىٰ لم يزدد من الله إلا بعدًا**) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس(٥) من طريق موسىٰ بن إبراهيم عن موسىٰ بن جعفر الصادق عن آبائه عن علي رضي الله عنه رفعه، إلا أنه قال: ولم يزدد في الدنيا زهدًا، مكان: هدىٰ؛ كذا في الجامع الكبير للسيوطي(٦)، وأشار له العراقي وقال: وقد روينا من طريق إبراهيم بن عبد الله بن عبد الله بن الحسن عن أبيه عن جده رفعه: «مَن ازداد بالله علمًا ثم ازداد للدنيا حبًّا ازداد الله عليه غضبًا». قال: والمشهور أن

(١) مسند أحمد ٤٥/ ٤٧٨.

(٢) مجمع الزوائد ٥/ ٤٣٠.

(٣) ذكره المناوي في فيض القدير ٢/ ٤١٩. والزيادات التي بين حاصرتين منه. وروىٰ الدارمي في سننه ١/ ٨٢ عن زياد بن حدير قال: قال لي عمر بن الخطاب: هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا. قال: زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين.

(٤) حلية الأولياء ٦/ ٤٦.

(٥) فردوس الأخبار ٤/ ٢٥٤.

(٦) كنز العمال ١٠/ ١٩٣.

هذا الحديث من قول الحسن البصري، رواه ابن حبان في «روضة العقلاء»[(١)] وابن عبد البر في بيان العلم[(٢)] بلفظ: «مَن ازداد علمًا ثم ازداد علىٰ الدنيا حرصًا لم يزدد من الله إلا بعدًا». لفظ ابن حبان، وقال ابن عبد البر: بغضًا، بدل: بعدًا، وزاد: ولم يزدد من الدنيا إلا بعدًا. قال: وقد رُوي مثل قول الحسن هذا مرفوعًا.

وكأنه أشار إلىٰ حديث عليٍّ المتقدم. قلت: وحديث علي المتقدم سنده ضعيف؛ لأن موسىٰ بن إبراهيم قال الذهبي: قال الدارقطني: متروك؛ كذا قاله المناوي[(٣)]. وعندي في ذلك نظرٌ؛ لأن الذي قال فيه الدارقطني «متروك» هو مروزي يروي عن ابن لهيعة، كما هو نص الديوان للذهبي[(٤)]، والذي يروي عن موسىٰ بن جعفر رجل من أهل البيت، فتأمل.

والحديث الذي بعده رواه أبو الفتح الأزدي في «الضعفاء».

ومن الشواهد: ما أخرجه أبو نعيم في الحلية[(٥)]: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا الحسن بن إبراهيم بن بشار، حدثنا سليمان بن داود، حدثنا ابن عيينة قال: كان يقال: إن العاقل إذا لم ينتفع بقليل الموعظة لم يزدد علىٰ الكثير منها إلا شرًّا.

وفي معنىٰ ذلك قول مالك بن دينار: مَن لم يؤتَ من العلم ما يقمعه فما أوتيَ من العلم لا ينفعه[(٦)].

(**وقال عيسىٰ** عليه السلام) فيما أخرجه الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» له[(٧)]:

---

(١) روضة العقلاء ص ٣٥.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٦٦٨.

(٣) فيض القدير ٦/ ٥٢.

(٤) ديوان الضعفاء والمتروكين ص ٤٠٠.

(٥) حلية الأولياء ٧/ ٢٧٧.

(٦) أدب الدين والدنيا للماوردي ص ٥٣. فيض القدير للمناوي ٦/ ٥٢.

(٧) اقتضاء العلم العمل ص ٤٤.

حدثنا محمد بن أحمد بن رزقويه، حدثنا جعفر بن محمد الخلدي، حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا عباس العنبري، حدثني عبد الصمد قال: سمعت سعيد بن عُطارد – وكان بكي حتىٰ قرح – قال: قال عيسىٰ ابن مريم: (**إلىٰ متىٰ تَصِفون الطريق**) أي إلىٰ الله تعالىٰ (**للمُدْلِجينَ**) ولفظ الخطيب: إلىٰ الدالِجين. أي لهم، وهم السائرون بالليل، والمراد بهم الزهَّاد السالكون إلىٰ الله تعالىٰ (**وأنتم مقيمون**) أي بأعمالكم (**مع المتحيِّرين**) الواقفين، أي فلا يصح وصفُ الطريق إلا من المتَّصف بالسير والسلوك في طريق الحق. زاد الخطيب بعد قوله «المتحيرين»: إنما يُبتغَىٰ[١] من العلمِ القليلُ، ومن العملِ الكثيرُ.

(**فهذا**) الذي ذكرناه لك (**وغيره من الأخبار**) الكثيرة (**يدل علىٰ عظيم خطر العلم، و**) علىٰ (**أن العالِم**) من حيث هو هو (**متعرِّض**) بعلمه (**إما لهلاك الأبد**) فيكون أشقىٰ الأشقياء (**أو لسعادة الأبد**) فيكون أسعد السعداء (**وأنه بالخوض**) والاشتغال (**في العلم قد حُرم**): مُنع (**السلامة**) من الهلاك (**إن لم يدرك السعادة**) بمنَّة من الله تعالىٰ وتوفيقٍ منه، وتحقيق هذا المقام[٢]: أن أصل العلم الرغبة، وثمرته السعادة، وأصل الزهد الرهبة، وثمرته العبادة، فإن اقترن العلم والزهد فقد تمت السعادةُ، وعمَّت الفضيلةُ، وإن افترقا فيا ويح مفترقينِ ما أضر افتراقهما، وأقبح انفرادهما!

وقد فصَّل المصنف في ذلك تفصيلاً حسنًا يأتي في أثناء كتابه: الناس في طلب العلم ثلاثة: رجل طلبه ليتخذه زاده إلىٰ المعاد لم يقصد إلا وجه الله، فهذا من الفائزين، ورجل طلبه ليستعين به علىٰ حياته العاجلة وينال به الجاه والمال، ومع ذلك يعتقد خسيسة مقصده وسوء فعله، فهذا من المخاطرين، فإن عاجَلَه أجلُه قبل التوبة خِيفَ عليه سوء الخاتمة، وإن وُفِّقَ لها فهو من الفائزين، ورجل استحوذ

---

(١) في المطبوعة: ينبغي. والمثبت من الاقتضاء.

(٢) أدب الدين والدنيا للماوردي ص ٥٣ نقلا عن الحكماء.

عليه الشيطان فاتخذ علمه ذريعة إلىٰ التكاثر بالمال، والتفاخر بالجاه، والتعزُّز بكثرة الأتباع، وهو مع ذلك يضمر أنه عند الله بمكان لاتِّسامه بسِمَة العلماء، فهذا من الهالكين المغرورين؛ إذ الرجاء منقطع عن توبته؛ لظنِّه أنه من المحسنين.

(**وأما الآثار: فقد قال عمر**) بن الخطاب (رضي الله عنه): **إن أخوف ما أخاف علىٰ هذه الأمَّة المنافق العليم. قالوا: وكيف يكون منافقًا عليمًا؟ قال: عليم اللسان، جاهل القلب والعمل**) اتخذ[1] العلم حرفة يتأكَّل بها، وهيئة وأبَّهة يتعزَّز [ويتعاظم] بها، يدعو الناس إلىٰ الله ويفر هو منه، ويستقبح عيب غيره، ويفعل ما هو أقبح منه، ويُظهِر للناس التنسُّك والتعبُّد ويسارر ربه بالعظائم [إذا خلا به] ذئب من الذئاب لكن عليه ثياب، فهذا هو الذي حذَّر منه الشارع ﷺ حذرًا من أن يخطفك بحلاوة لسانه، ويحرقك بنار عصيانه، ويقتلك بنتن باطنه وجِنانه. وقال الطيِّبي: أضاف «أفعل» إلىٰ «ما» وهي نكرة موصوفة؛ ليدل علىٰ أنه إذا استقصىٰ الأشياء المخوفة لم يوجد أخوف منه.

قال العراقي: وهذا الذي ذكره أثرًا قد ذكره أحمد[2] مرفوعًا من حديث عمر بإسناد صحيح من رواية أبي عثمان النَّهْدي قال: إني لَجالسٌ تحت منبر عمر بن الخطاب وهو يخطب الناسَ، فقال في خطبته: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أخوف ما أخاف علىٰ هذه الأمة كل منافق عليم اللسان».

قلت: وهذا قد أخرجه ابن عساكر في تاريخه[3] من رواية مالك بن دينار عن ميمون الكردي عن أبي عثمان النهدي قال: خطبنا عمرُ بن الخطاب قال: حذَّرنا رسولُ الله ﷺ كلَّ منافق عليم.

---

(١) فيض القدير للمناوي ٢/ ٤١٩. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٢) مسند أحمد ١/ ٣٩٩.

(٣) تاريخ دمشق ٦١/ ٣٨٧.

ثم قال العراقي: وصح أيضًا من حديث عمران بن الحُصَين، رواه الطبراني[١] من رواية عبد الله بن بُرَيدة عنه رفعه: «إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان».

قلت: وبمثل رواية أحمد رواه أيضًا البزار[٢] وأبو يعلىٰ، قال المنذري[٣]: رواته محتجٌّ بهم في الصحيح.

وقال الهيثمي[٤]: رجاله موثَّقون.

وفي بعض نُسَخ المسند: علىٰ أمتي، بدل: هذه الأمَّة.

وفي القوت[٥]: وعن عمر وروينا مسندًا أيضًا: اتقوا كل منافق عليم اللسان، يقول ما تعرفون، ويعمل ما تنكرون.

وكأنَّ المصنف لم ينظر إلىٰ قوله «ورويناه مسندًا أيضًا» تقويةً لجانب الموقوف، وسيأتي عن الدارقطني أنه قال: الموقوف أشبه بالصواب.

(وقال) أبو سعيد **(الحسن)** بن يسار البصري: **(لا تكن ممَّن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويجري في العمل مجرىٰ السفهاء)**[٦] أي ممَّن عملُه يخالف قوله؛ فإنه عين الهلاك.

(وقال رجل لأبي هريرة رضي الله عنه: أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيِّعه. فقال:

---

(١) المعجم الكبير ١٨/ ٢٣٧.

(٢) مسند البزار ١/ ٤٣٤.

(٣) الترغيب والترهيب ١/ ١١٨.

(٤) مجمع الزوائد ١/ ٤٤٥.

(٥) قوت القلوب ١/ ٢٤٣.

(٦) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم ٢/ ٧٠٣ بلفظ: يا ابن آدم، ما يغني عنك ما جمعت من حكمة الحكماء وأنت تجري في العمل مجرىٰ السفهاء.

كفىٰ بترك العلم إضاعة له)[١] هذا موقوف علىٰ أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ويعضِّده ما يُروَىٰ عن الأعمش معضلاً: «آفة العلم النسيان، وإضاعته أن تحدِّث به غير أهله». أخرجه الدارمي في مسنده[٢] والعسكري في الأمثال وابن عدي[٣] من عدَّة طرق.

ويُروَىٰ عن عليٍّ مرفوعًا: «آفة العلم النسيان». أخرجه الدارقطني في مسنده[٤] وابن عدي في الكامل[٥].

ويُروَىٰ ذلك عن ابن مسعود أيضًا موقوفًا، أشار له البيهقي في المدخل[٦].

والنسيان: تركُ ضبطِ ما استُودع[٧].

(وقيل لإبراهيم بن عيينة) أحد الزهَّاد: **(أيُّ الناس أطول ندمًا؟ قال: أما في عاجل الدنيا فصانع المعروف إلىٰ من لا يشكره)** أي لا يجازيه علىٰ معروفه ولو بالثناء **(وأما عند الموت فعالِم مفرِّط)** أي الذي فرَّط في نفسه في عدم عمله بما علمه.

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٧/ ٣٦٨ ولفظه: عن الحسن قال: جاء رجل إلىٰ أبي الدرداء فقال: إني أريد أن أطلب العلم وأخاف إذا علمت أن أضيعه، فما ترىٰ؟ فقال: إن الله يبعث الناس علىٰ علمهم، فإن تبعث عالمًا خير لك من أن تبعث جاهلًا. ثم أتىٰ أبا ذر فقال: إني أريد أن أطلب العلم وأخاف إذا علمت أن أضيعه، فما ترىٰ؟ قال: أن تفترش العلم خير لك من أن تفترش الجهل. ثم أتىٰ أبا هريرة فقال: إني أريد أن أطلب العلم وأخاف إذا علمت أن أضيعه، فما ترىٰ لي؟ قال: كفىٰ بترك العلم إضاعة. قال الحسن: وكان أبو هريرة من أحسن القوم كلامًا.

(٢) سنن الدارمي ١/ ١٥٨.

(٣) الكامل في الضعفاء ١/ ٥٢ من قول الأعمش.

(٤) كذا في المطبوعة، وليس للدارقطني مسند، وإنما له كتاب السنن، ولم أقف فيه علىٰ هذا الحديث. وقد رواه القضاعي في مسند الشهاب ١/ ٧٨ - ٧٩. والطبراني في المعجم الكبير ٣/ ٦٨ في حديث طويل.

(٥) الكامل في الضعفاء ١/ ٥٢.

(٦) المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ ٢/ ٢٥ بلفظ: آفة الحديث النسيان.

(٧) قال الراغب في المفردات ص ٤٩١: «النسيان: ترك الإنسان ضبط ما استودع، إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، وإما عن قصد حتىٰ ينحذف عن القلب ذكره».

(وقال) إمام النحو واللغة (الخليل بن أحمد) أبو عبد الرحمن الفَراهيدي البصري، شيخ العربية والعَرُوض، أحد الأعلام، روىٰ عن أيوب وعاصم الأحول والعوَّام بن حَوْشَب وغالب القَطَّان وجماعة، وعنه سيبويه والأصمعي والنضر ابن شُمَيل وهارون بن موسىٰ ووهب بن جرير وعلي بن نصر الجهضمي، وكان رأسًا في علم اللسان، خيِّرًا، متواضعًا، ذا زهد وعفاف، وُلد سنة مائة، وتوفِّي سنة سبعين ومائة، وقيل: ستين، وقيل: خمس وسبعين، وقيل غير ذلك؛ كذا في تاريخ الذهبي[١] (الرجال[٢] أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري) المراد به العامل بعلمه؛ فإنه إذا درىٰ أنه عالِم لزمه اتباعُ علمه ضرورةً (فذلك عالم) حقًّا (فاتبِعوه) واستفيدوا منه (ورجل يدري) في نفس الأمر (ولا يدري أنه يدري) بل شُبِّه عليه (فذلك نائم) أي غافل (فأيقظوه) أي نبِّهوه (ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري) أي جاهل جهلاً بسيطًا (فذلك مسترشد) أي طالب الرشد (فعلِّموه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل) جهلاً مركَّبًا (فارفضوه) أي اتركوه. وتحقيق هذا المقام ما أورده أبو القاسم الراغب في كتاب «الذريعة» ما لفظه[٣]: وأما التقصير فأربعة أشياء:

الأول: أن يكون إنسانًا لا يعرف الحق من الباطل، و[لا] الجميل من القبيح، فيبقىٰ غفلاً، ودواؤه سهل وهو التعليم الصائب.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ١٠/ ١٦٩ - ١٧٤.

(٢) جامع بيان العلم لابن عبد البر ٢/ ٨٢٠. المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ للبيهقي ٢/ ٢٨٢.

ورواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٩٧ بزيادة في أوله، ونصه: عن النضر بن شميل قال: كنت عند الخليل بن أحمد، إذ دخل عليه شيخ من أهله، فقال له: لو اشتغلت بمعاشك كان أعود عليك من هذا. فأنشأ الخليل يقول:

لو كنت تعقل ما أقول عذرتني ... أو كنت أعقل ما تقول عذلتكا

لكن جهلتَ مقالتي فعذلتني ... وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

ثم التفت إلينا فقال: الرجال أربعة ... الخ.

(٣) الذريعة ص ٨٣. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

الثاني: أن يكون قد عرف ذلك لكن لم يتعوَّد فِعل الصالح وزُيِّن له سوء عمله فرآه حسنًا فتعاطاه، وأمره أصعب من الأول، لكن يمكن أن يُقهَر علىٰ العادة الجميلة حتىٰ يتعوَّدها، وإن كان قد قيل: تركُ العادة شديد.

الثالث: أن يعتقد في الباطل والقبيح أنه حق وجميل، فتربَّىٰ علىٰ ذلك، ومداواة ذلك أصعب جدًّا، فقد صار ممن طُبع علىٰ قلبه؛ إذ قد تنقَّش بنقش خسيس ككاغد كُتب فيه ما يؤدِّي حذفه [منه] إلىٰ خرقه وفساده.

الرابع: أن يكون مع جهله وتربيته علىٰ الفساد[١] شريرًا في نفسه يرىٰ الخلاعة وقهر النفس فضيلة، وذلك أصعب الوجوه، وإلىٰ نحوه قصد من قال: من التعذيب تأديب الذِّيب ليتهذَّب، وغسل المسح ليتبيَّض.

فالأول من هؤلاء الأربعة يقال له: جاهل، والثاني يقال له: جاهل وضالٌّ، والثالث يقال له: جاهل وضال وفاسق، والرابع يقال له: جاهل وضال وفاسق وشرِّير.

(وقال سفيان) بن سعيد **(الثوري** رحمه الله: **يهتف العلم بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل)** وعزاه صاحب القوت[٢] إلىٰ سهل التستري، وأورده الخطيب في كتاب الاقتضاء[٣] من وجهين:

الأول: من طريق الحارث بن عبيد الله قال: سمعت ابن أبي ذئب يحدِّث عن ابن المنكدر قال: العلم يهتف بالعمل ... مثل لفظ الثوري.

والثاني: من طريق أبي الفرج عبد الوهاب بن عبد العزيز التميمي عن آبائه مسلسلاً بالسماع عن علي رضي الله عنه قال: هتف العلم بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل.

---

(١) في الذريعة: علىٰ الاعتقاد الفاسد.

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٧١.

(٣) اقتضاء العلم العمل ص ٣٥ - ٣٦.

قال الخطيب: عدد الآباء تسعة.

(**وقال**) أبو عبد الرحمن عبد الله (**ابن المبارك**) بن واضح المروزي، تقدمت ترجمتُه (**لا يزال المرء عالمًا ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل**)[1] ووجهُه أنه إذا ظن في نفسه أنه صار عالمًا كسل عن طلب العلم وهو عملٌ، فانقطع عن العمل فصار علمه منفكًا عن العمل، وهذا جهلٌ.

(**وقال**) الإمام الزاهد أبو علي (**الفُضَيل بن عياض**) بن مسعود بن بِشْر التميمي المروزي المكي، روىٰ عن الأعمش وابن المعتمر، أدركا أنس بن مالك وعبد الله بن أبي أوفىٰ ﷺ، ومنهم عطاء بن السائب وحُصَين بن عبد الرحمن ومسلم الأعور وأبان بن أبي عيَّاش، وكلهم أدركوا أنس بن مالك. روىٰ عنه الأئمة: الثوري، وابن عيينة، ويحيىٰ بن سعيد القطَّان، وعبد الرحمن بن مهدي، والحسين بن علي الجُعْفي، ومؤمل بن إسماعيل، وعبد الله بن وهب المصري، وأسد بن موسىٰ، وثابت بن محمد العابد، ومسدَّد، ويحيىٰ بن يحيىٰ النيسابوري، وقتيبة بن سعيد، في أشكالهم ونظرائهم، وترجمته في الحلية[2] طويلة. وفي «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر[3]: ثقة عابد إمام، مات سنة سبع وثمانين ومائة، وقيل: قبلها، بمكة. وقبره بالمعلَّىٰ مشهور. خرَّج حديثه الجماعةُ ما عدا ابن ماجه (**إني لأرحم ثلاثةً: عزيز قوم ذلَّ، وغني قوم افتقر، وعالمًا تلعب به الدنيا**) وهذا قد رُوي مرفوعًا من حديث ابن عباس وأنس وأبي هريرة؛ أما حديث ابن عباس فأخرجه ابن عدي[4] من طريق وهب بن وهب عن ابن جُرَيج عن عطاء عنه، ولفظه: «ارحموا

---

(١) المجالسة وجواهر العلم للدينوري ٢/ ١٨٦.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٨٤ - ١٣٩.

(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر ٣/ ٣٩٩ - ٤٠٠. وانظر: تقريب التهذيب له أيضًا ص ٧٨٦. وتهذيب الكمال للمزي ٢٣/ ٢٨١ - ٣٠٠.

(٤) لم أقف عليه في الكامل، وقد رواه ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ٢٣٦ من هذا الطريق.

ثلاثة: عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر، وعالمًا يتلاعب به الصبيانُ».

وأما حديث أنس فأخرجه الخطيب[1] من طريق سمعان بن مهدي عنه، ولفظه: «ارحموا ثلاثة: غني قوم افتقر، وعزيز قوم ذل، وفقيهًا يتلاعب به الجُهَّال».

وأخرجه ابن حبان[2] من طريق عيسىٰ بن طَهْمان عنه، ولفظه مثل الأول، إلا أنه قال: وعالمًا بين جُهَّال.

وقد حكم ابن الجوزي[3] علىٰ هذه الأحاديث بالوضع فقال: وهب كذَّاب، وسمعان مجهول، وعيسىٰ ينفرد بالمناكير عن المشاهير، ولا يُحتجُّ به، وإنما يُعرَف هذا من قول الفضيل بن عياض.

وأما حديث أبي هريرة فأخرجه الديلمي[4] من طريق ابن عُلَيَّة عن أيوب عن الحسن عنه، ولفظه: «بكت السموات السبع ومن فيهن ومَن عليهن [والأرضون السبع ومن فيهن ومن عليهن][5] لعزيز ذل، وغني افتقر، وعالم تلعب به الجُهَّال». هكذا أورده السيوطي في «اللآلئ المصنوعة»، وهو شاهد قويٌّ لِما تقدم، وإسناده جيد.

---

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب ١/ ١٦٦.

(٢) المجروحون لابن حبان ٢/ ٩٨،

(٣) الموضوعات ١/ ٢٣٧ ونصه: «هذا حديث موضوع علىٰ رسول الله ﷺ، أما حديث ابن عباس ففيه وهب بن وهب، وكان أكذب الناس، وأما حديث أنس ففي الطريق الأول سمعان، وهو مجهول لا يعرف، وفي الثاني عيسىٰ بن طهمان، قال ابن حبان: ينفرد بالمناكير عن المشاهير، لا يجوز الاحتجاج به. قلت: وإنما يعرف هذا من كلام الفضيل بن عياض، أنبأنا به ابن ناصر قال: أنبأنا أحمد بن علي ابن خلف قال: أنبأنا الحاكم أبو عبد الله النيسابوري قال: سمعت إسماعيل بن محمد بن الفضل يقول: سمعت جدي يقول: سمعت سعيد بن منصور يقول: قال الفضيل بن عياض: ارحموا عزيز قوم ذل، وغنيا افتقر، وعالما بين الجهال».

(٤) فردوس الأخبار ٢/ ١٥.

(٥) ما بين المعقوفين زيادة من فردوس الأخبار واللآلئ المصنوعة للسيوطي ١/ ٢١٢.

(وقال الحسن: عقوبة العلماء موت القلب، وموت القلب طلبُ الدنيا بعمل الآخرة.

وأنشدوا) في هذا المعنىٰ لبعض الشعراء[(١)]:

(عجبتُ لمُبتاع الضلالة بالهدىٰ ... ومن يشتري دنياه بالدين أعجبُ

وأعجب من هذين من باع دينه ... بدنيا سواه فهو من ذينِ أخْيَبُ)

والابتياع هو الشراء، وأشار صاحب هذا القول إلىٰ عالِم السوء الذي يأكل دينه بدنياه.

(وقال ﷺ: إن العالِم لَيعذَّبُ عذابًا يطيف به أهل النار استعظامًا لشدة عذابه) قال العراقي[(٢)]: لم أجده بهذا اللفظ، وهو بمعنىٰ حديث أسامة بن زيد الآتي بعده.

(أراد به العالِم الفاجر) أي إن اللام في «العالم» ليست للجنس، وإنما هي للعهد.

(وقال أسامة بن زيد) بن حارثة بن شَراحيل الكلبي، الأمير، أبو محمد وأبو زيد، حِبُّ رسول الله ﷺ وابن حِبِّ رسول الله، صحابي مشهور، مات سنة أربع وخمسين وهو ابن خمس وسبعين **(سمعت رسول الله ﷺ يقول: يؤتَىٰ بالعالِم يوم القيامة، فيُلقَىٰ في النار، فتندلق أقتابه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرَّحَىٰ، فيطيف به أهل النار فيقولون: ما لك؟ فيقول: كنت آمر بالخير ولا آتيه، وأنهىٰ عن الشر**

---

(١) البيتان في وفيات الأعيان لابن خلكان ٦/ ١٧٠، وحياة الحيوان الكبرىٰ للدميري ١/ ١٨٤ دون نسبة. وفي كتاب اللطائف في دقائق المعارف لأبي موسىٰ المديني ص ١٦٣ (ط - دار الكتب العلمية) ما نصه: أخبرنا الحسن بن أحمد، أنا إسماعيل بن مسعدة، ثنا أبو الحسن محمد بن علي الطبري، حدثني أبو محمد عبد الله بن روح بن الفرج الضرير، حدثني أحمد بن محمد بن عيسىٰ القاضي، أنشدني محمد بن محمد بن إسحاق القاضي الدبوسي: عجبت لمبتاع ... الخ البيتين.

(٢) المغني ١/ ٣٨.

وآتيه) وفي بعض النسخ بعد قوله «أقتابه»: يعني أمعاءه، وهو مدرَج من الراوي.

قال العراقي: أخرجه البخاري(١) ومسلم(٢) من رواية أبي وائل شقيق بن سَلَمة عن أسامة بن زيد، واللفظ لمسلم، إلا أنه قال: يؤتَىٰ بالرجل، وقال: أقتاب بطنه، وقال: فيجتمع إليه أهل النار(٣) فيقولون: يا فلان، ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر؟! فيقول: [بلىٰ قد](٤) كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهىٰ عن المنكر وآتيه. ولفظ البخاري: «يُجاء برجل فيُطرَح في النار فيطحن فيها كما يطحن الحمار برَحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: أيْ فلان، ألست كنت تأمر بالمعروف ...» فذكره، إلا أنه قال: ولا أفعله، وقال: وأفعله. وفي رواية لأحمد في مسنده(٥): فيقولون: ما لك يا فلان؟ ما أصابك. وفي رواية له(٦): يؤتَىٰ بالرجل الذي [كان] يُطاع في معاصي الله ... الحديث، وفيه: فيقول: [إني] كنت آمركم بأمر وأخالفكم إلىٰ غيره.

قلت: وأخرج أبو نعيم في الحلية(٧) عن أسامة بن زيد: «يُجاء بالأمير يوم القيامة، فيُلقَىٰ في النار، فيطحن فيها كما يطحن الحمار بطاحونته، فيقال له: أم تكن تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر؟ قال: بلىٰ، ولكن لم أكن أفعله». كذا في الذيل للسيوطي(٨).

وأخرج أبو نعيم في ترجمة الشعبي من الحلية(٩) من طريق سفيان عن

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٤٣٦، ٤/ ٣٢١.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ١٣٦٢.

(٣) في المطبوعة: فيجتمع إليه الناس. والتصويب من صحيح مسلم.

(٤) زيادة من صحيح مسلم.

(٥) مسند أحمد ٣٦/ ١١٧.

(٦) مسند أحمد ٣٦/ ١٢٨. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٧) حلية الأولياء ٤/ ١١٢.

(٨) كنز العمال ٦/ ٤٤.

(٩) حلية الأولياء ٤/ ٣١٢.

إسماعيل ابن أبي خالد عن الشعبي قال: يشرف قوم دخلوا الجنة علىٰ قوم دخلوا النار، فيقولون: ما لكم في النار؟ وإنما كنا نعمل بما تعلِّموننا. فيقولون: إنا كنا[1] نعلِّمكم ولا نعمل به.

وأخرج[2] في ترجمة منصور بن زاذان بسنده إليه قال: نُبِّئْتُ أن بعض من يُلقَىٰ في النار يتأذَّىٰ أهل النار بريحه، فيقال له: ويلك! ما كنت تعمل، أمَا يكفينا ما نحن فيه من النتن حتىٰ ابتُلينا بك وبنتن ريحك؟ فيقول: كنت عالمًا فلم أنتفع بعلمي.

(**وإنما يضاعَف عذاب العالِم في معصيته لأنه عصىٰ عن علم، ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ**) في كتابه العزيز: (﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾) [النساء: ١٤٥] قال صاحب القاموس في البصائر[3]: الدَّرَك: اسم في مقابلة الدَّرَج، بمعنىٰ أن الدرج مراتب باعتبار الصعود، والدرك مراتب باعتبار الهبوط، ولهذا عبَّروا عن منازل الجنة بالدرجات، وعن منازل جهنم بالدركات.

وقول الله تعالىٰ السابق، قرأ الكوفيون غير الأعمش والبُرْجمي بسكون الراء، والباقون بفتحها.

(**لأنهم جحدوا**) أي أنكروا (**بعد العلم**) والمعرفة (**وجُعل اليهود شرًّا من النصارىٰ مع أنهم ما جعلوا لله سبحانه ولدًا**) أي أكثرهم، ولو أنه قال بعضهم في عُزَير: هو ابن الله، لمَّا رأوا حفظ التوراة عن ظهر قلبه (**ولا قالوا: إنه ثالث ثلاثة**) وهذا القول خاصة للنصارىٰ (**ولكن أنكروا**) النبي ﷺ (**بعد المعرفة؛ إذ قال الله**) تعالىٰ: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾) أي النبي ﷺ (﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾) [البقرة: ١٤٦، الأنعام:

---

(١) في المطبوعة: إنما نعلمكم. والمثبت من الحلية.

(٢) حلية الأولياء ٣/ ٥٩.

(٣) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي ٢/ ٥٩٤ (ط - المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية بمصر).

٢٠] أي غاية المعرفة (وقال عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾) [البقرة: ٨٩] وقد تقدم للمصنف أن من لم ينفعه علمُه لا ينجو به رأسًا برأس، هيهات! فخطره عظيم، ووبالُه جسيم (**وقال تعالىٰ في حق بَلْعام بن باعوراء**) ابن برم بن برهم بن مازر [ابن لوط] بن هاران بن تارح بن ناحور بن ساروغ بن أرغو [ابن فالغ بن عابر بن شالخ] بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، من عشيرة سيدنا لوط بن هاران عليه السلام، ونقل السهيلي عن ابن عباس ومجاهد: هو بلعم بن باعوراء، ويقال: بلعام، وأصله من بني إسرائيل.

وقال محمد بن علي الأوسي في كتابه «التكميل لتعريف السهيلي»: الأظهر أنه لم يكن من بني إسرائيل.

وحكىٰ المسعودي[١] في نسبه أنه بلعم بن باعوراء بن سموم بن فرستم بن ماب[٢] بن لوط بن هاران، وكان بقرية من قرىٰ البلقاء من بلاد الشام.

وقال الأوسي: ويقال فيه: بلعام بن عابر، ويقال: آبِر.

وسيأتي للمصنف في أثناء هذا الكتاب: وسمعت بعض العلماء يقول: إنه كان في أول أمره بحيث يكون في مجلسه اثنا عشر ألف محبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه العلم، ثم صار بحيث كان أول ما صنَّف كتابًا: أن ليس للعالَم صانع[٣]، نعوذ بالله من ذلك، وذلك بميله إلىٰ الدنيا، واتِّباعه للهوىٰ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ٢٦﴾ [النازعات: ٢٦].

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي ١/ ٥٢ (ط - دار الفكر ببيروت).

(٢) في مروج الذهب اعتمادا علىٰ إحدىٰ النسخ: سنور بن وسيم بن ناب. وأشار محققه إلىٰ أنه في نسخة أخرىٰ: سموم بن فرستم بن ماب. كما ذكره الشارح.

(٣) انظر: البحر المحيط لأبي حيان ٤/ ٤٢١.

(﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾) أي[1] على اليهود (﴿نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾) أي من الآيات بأن كفر بها وأعرض عنها (﴿ فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾) [الأعراف: ١٧٥] وهذا الذي ذهب إليه المصنف أنه في حق بلعم المذكور هو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما، ويُروَىٰ[2] عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن الآية نزلت في أمية بن أبي الصَّلْت الثقفي، وكان قد قرأ التوراة والإنجيل في الجاهلية، وكان يعلم بأمر النبي ﷺ قبل بعثته، فطمع أن يكون هو، فلما بُعث رسول الله ﷺ وصُرفت النبوة عن أمية حسد وكفر (**حتىٰ قال**) بعد قوله: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ﴾ أي صفته التي هي مَثَلٌ في الخسَّة ﴿كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ﴾ كصفته في أخسِّ أحواله ﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٧٧ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾ (**فكذلك العالِم الفاجر**) المُعرِض عن آيات الله بعد معرفته بها (**فإن بلعم**) المذكور (**أوتي كتاب الله عَزَّوَجَلَّ**) قال البيضاوي: أوتي علم بعض كتب الله.

وقال السهيلي: كان أوتي اسم الله الأعظم.

وقال محمد بن علي الأوسي: وكانت له حمارة إذا ركبها وذكر الاسم الأعظم الذي علَّمه الله سارت مسيرة خمسمائة يوم في يوم واحد، ويُروَىٰ في ساعة واحدة؛ ذكره الطبري، وكان بحيث إذا نظر يرىٰ العرش.

وقال السُّهَيلي: وكان مع الجبَّارين، فسألوه أن يدعو علىٰ موسىٰ وجيشه، فأبىٰ، وأُرِيَ في المنام أن لا يفعل، فلم يزالوا به حتىٰ فتنوه، فقُلب لسانه، فأراد

---

(١) تفسير البيضاوي ٣/ ٤٢.

(٢) حياة الحيوان الكبرىٰ للدميري ٢/ ٢٤٣ نقلا عن كتاب التعريف والإعلام للسهيلي.

الدعاء علىٰ موسىٰ فدعا علىٰ قومه، وخُلع الإيمان من قلبه، ونسي الاسم الأعظم.

(فأخلد إلىٰ الشهوات) أي مال إليها، واتَّبع هواه في إيثار الدنيا، واسترضىٰ قومه، وأعرض عن مقتضَىٰ الآيات (فشُبِّه بالكلب) الذي هو أخسُّ الحيوانات (أي سواء أوتيَ الحكمة أو لم يؤتَ فهو يلهث) وإيماء (إلىٰ الشهوات) كالكلب يلهث دائمًا، سواء حُمل عليه بالزجر والطرد أو تُرِكَ ولم يُتعرَّض له، بخلاف سائر الحيوانات؛ لضعف فؤاده، واللهث: إدلاع [اللسان] أي إخراجه من العطش.

قال البيضاوي: والشرطية في موضع الحال، والمعنىٰ: لاهثًا في الحالتين.

وقال السمين[١]: مثَّل الله تعالىٰ حال بلعام بحال كلب هذه صفته، فإذا كان لاهثًا لم يملك دفع ضرٍّ، ولا جلب نفع، فلم يكتفِ بأن جعل مَثَله مثل الكلب، بل مثَلُ كلب متَّصف بما ذُكر، فقوله: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ في محل الحال؛ لأن الكلب لا يزال كذلك دائمًا، فنبَّهك بذلك؛ لأن بعض الناس قد توهَّمَه.

(وقال عيسىٰ عليه السلام) ونص القوت[٢]: وروينا عن عيسىٰ عليه السلام: (مَثَلُ علماء السوء كمثل صخرة وقعت علىٰ فم النهر، لا هي شربت) وفي القوت: لا هي تشرب (الماء، ولا هي تترك الماء يخلص) أي يصل (إلىٰ الزرع) وكذلك علماء الدنيا، قعدوا علىٰ طريق الآخرة، فلا هم نفذوا، ولا تركوا العِباد يسلكون إلىٰ الله تعالىٰ.

وأخرج الخطيب في كتابه الاقتضاء[٣] بسنده إلىٰ محمد بن يزيد بن خُنَيس

---

(١) عمدة الحفاظ ٤/ ٤٤.

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٤٤.

(٣) اقتضاء العلم العمل ص ٦٧ وتمامه: ولو أن علماء السوء نصحوا لله في عباده فقالوا: يا عباد الله، اسمعوا ما نخبركم به عن نبيكم وصالح سلفكم فاعملوا به ولا تنظروا إلىٰ أعمالنا هذه الفشلة فإنا قوم مفتونون كان قد نصحوا لله في عباده، ولكنهم يريدون أن يدعوا عباد الله إلىٰ أعمالهم القبيحة فيدخلوا معهم فيها.

قال: سمعت وُهَيب بن الورد يقول: ضُرب مثل العالم السوء[١] فقيل: إنما مثل العالِم السوء كمثل حجر وقع في ساقية، فلا هو يشرب من الماء، ولا هو يخلي عن الماء فيحيا به الشجرُ.

قال: (ومَثَلُ علماء السوء مثل قناة الحُشِّ) أصل الحُشِّ: النخل المصطفُّ، ثم استُعيرَ لموضع قضاء حاجة الإنسان (ظاهرها جِصٌّ) أي مطليٌّ بالنَّوْرة (وباطنها نتنٌ) أي نجس قذر، ومنه قول الحريري[٢]: فما أنت في جنَّة باطنك إلا كرَوْث مفضَّض أو كَنِيف مبيَّض. قال: (و) مثل علماء السوء (مثل القبور) المَشِيدة (ظاهرها عامر) بالبناء والتراكيب والستور والقناديل (وباطنها عظام الموتىٰ) إلىٰ هنا كلام سيدنا عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، علىٰ ما أورده صاحب القوت، وأورده كذلك في مواضع أُخَر، ولفظه[٣]: وكان عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يمثِّل علماء الدنيا بالكُنُف فيقول: ويلكم علماءَ السوء، مثلكم مثل قناة حُشٍّ ظاهرها جِصٌّ وباطنها نتن، ويلكم علماءَ السوء، إنما أنتم مثل قبور مَشِيدة، ظاهرها مَشِيد، وباطنها عظام الموتىٰ، يا علماء الدنيا، إنما أنتم مثل شجرة الدِّفْلي، نَوْرها حسنٌ، وطعمها مر - أو قال: سم يقتل - يا علماء الدنيا، مثلكم مثل صخرة في فم النهر ... فذكره.

وأورد أبو نعيم في الحلية[٤] في ترجمة الفضيل بن عياض بسنده إلىٰ عبد الصمد قال: سمعت الفضيل يقول: إذا ظهرت الغيبة ارتفعت الأخوَّة في الله، إنما مثلكم في ذلك الزمان مثل شيء مطليٍّ بالذهب والفضة، داخله خبيث، وخارجه حسن.

---

(١) في المطبوعة: ضرب مثل للمعلم السوء. والمثبت من الاقتضاء.

(٢) شرح المقامات الحريرية للشريشي ٢/ ٣٠ (المقامة الساوية) ونصه: «فما مثلك في طلاوة علانيتك وخبث نيتك إلا مثل روث مفضض أو كنيف مبيض».

(٣) قوت القلوب ١/ ٤٢٤.

(٤) حلية الأولياء ٨/ ٩٧.

(فهذه الأخبار) الشريفة (والآثار) المنيفة (تبيِّن) وتصرح لك (أن العالِم الذي هو من أبناء الدنيا) وعلمه لأجل تحصيلها (أخس) الناس (حالاً) وأردؤهم (وأشد عذابًا) يوم القيامة (من الجاهل) وقال بعض السادة الصوفية[١]: وإنما كان عذابه أشد؛ لأنه مضاعَف فوق عذاب مفارقة الجسد بقطعه عن اللذات الحسية المألوفة، ولعدم وصوله إلىٰ ما هو أكمل منها؛ لعدم انفتاح [عين] بصيرته مع عذاب الحجاب[٢] عن مشاهدة الحق تعالىٰ، فعذاب الحجاب إنما يحصل للعلماء الذين تنبَّهوا للذة لقاء الله في الجملة ولم يتوجَّهوا لتحصيل ذلك، واتبَعوا الشهوات الحسية المانعة لذلك، وأما غيرهم فلا يعذَّب عذاب الحجاب الذي هو أعظم من عذاب الجحيم؛ لعدم تصوُّرهم له بالكلية، وعدم ذوقهم له رأسًا (وأن الفائزين) بمشاهدة الحق تعالىٰ (المقرَّبين) عنده (هم علماء الآخرة، ولهم علامات) تميِّزهم عن غيرهم، ذكر المصنف اثنتي عشرة علامة:

(فمنها: أن لا يطلب الدنيا بعلمه) والدنيا أعمُّ من أن تكون مالاً أو جاهًا (فإن أقل درجات العالم) المتبين في أمره (أن يدرك) بفهمه (حقارة الدنيا) عند الله عَزَّوَجَلَّ (وخسَّتها) ودناءتها (وكدورتها وانصرامها) وانصرام لذَّتها (و) أن يدرك (عِظَم) أمر (الآخرة) وما أعدَّ الله فيها (ودوامها وصفاء نعيمها) من الكدر (وجلالة مُلْكها) الأبدي (و) أن (يعلم أنهما) أي الدنيا والآخرة (متضادَّتان) يستحيل اجتماعُهما، كالخير والشر، والسواد والبياض. وشُرط في المتضادَّين أن يكونا تحت جنس واحد، وينافي كلٌّ الآخَرَ في أوصافه الخاصة. ثم بيَّن ذلك بقوله: (وأنهما كالضرَّتين) ومن شأنهما أنك (مهما أرضيت إحداهما أسخطتَ الأخرىٰ) أخرج أبو نعيم في الحلية[٣] في ترجمة وهب بن منبه بسنده إليه قال: مَثَل الدنيا والآخرة كمثل ضرَّتين، إن

(١) فيض القدير للمناوي ١/ ٥١٨. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٢) في الفيض: عذاب الجحيم.

(٣) حلية الأولياء ٤/ ٥١.

أرضيتَ إحداهما أسخطت الأخرىٰ. ثم زاد إيضاحًا فقال: (**وأنهما ككفَّتَي الميزان، مهما رجحت إحداهما خَفَّت الأخرىٰ، وأنهما كالمشرق والمغرب، مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر**) وهذه الثلاثة الأمثال في الدنيا من كلام علي رضي الله عنه، كما قاله الراغب في الذريعة[١] (**وأنهما كقدحين أحدهما مملوء**) من الماء مثلاً (**والآخر فارغ**) منه (**فبقَدْر ما تصب منه في الآخر حتىٰ يمتلئ يفرغ الآخرُ**) وهذه الجملة الأخيرة وجدتها في القوت في آخر المجلد الأول ما لفظه[٢]: وكان ابن عمر يقول إذا ذكر الدنيا والآخرة: واللهِ إنهما بمنزلة قدحين مُلئ أحدهما فما هو إلا أن تُفرِغ أحدهما في الآخر. قال صاحب القوت: يعني أنك إن امتلأت بالدنيا تفرَّغت من الآخرة، وإن امتلأت بالآخرة تفرَّغت من الدنيا، وإن كان لك ثلث قدح الآخرة أدركت ثلثَي قدح الدنيا، وإن كان لك ثلثا قدح الآخرة يكون لك ثلثه في الدنيا. وحينئذٍ قال: وهذا تمثيل حسن وتعديل صحيح[٣]. ا.هـ.

وهذه أمثلة ضربها في مباينة الدنيا مع الآخرة ومباينة سالكيها، وإن كانت الدنيا جُعلت وسيلة للآخرة فما يصح عليها وصفُ الضِّدِّية الذي هو شغلُ العبد عن مولاه، وقطعُه عن السلوك إليه، وما لا فليس بضد؛ فإن من أمورها ما يُتوصَّل به إلىٰ الله تعالىٰ، وقد تقدم تحقيقه في أثناء كلام المصنف في أوائل الكتاب.

(**فإن مَن لا يعلم حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذاتها**) الحسية (**بألمها**) الأبدي (**ثم انصرام ما يصفو منها**) سريعًا (**فهو فاسد العقل**) محتاج إلىٰ الإرشاد والتهذيب (**فإن المشاهدة**) بعين البصر (**والتجربة**) من أهلها (**ترشد إلىٰ ذلك**) ولا برهان أعظم منها (**فكيف يكون من العلماء**) أي كيف يُعَدُّ في زمرتهم (**مَن لا عقل له**) صحيح (**ومن لا يعلم عِظَم أمر الآخرة ودوامها**) وانصرام أمور الدنيا بأجمعها

---

(١) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ص ٩٦.

(٢) قوت القلوب ١/ ٤٣٥.

(٣) عبارة القوت: وهذا تمثيل حسن إلا أن فيه شدة وتدقيقا.

(**فهو**) إذًا (**كافر مسلوب الإيمان**) أي قد نُزع منه الإيمان، وانسلخ عن أموره باتِّباعه لشهوات نفسه، وإيثاره الدنيا علىٰ الآخرة (**فكيف يكون من العلماء من لا إيمان له**) وأخرج أبو نعيم في الحلية[1] في ترجمة محمد بن كعب القُرَظي بسنده إليه عن أبي هريرة رفعه: «لا إيمان لمن لا عقل له، ولا دين لمن لا عقل له» (**ومن لا يعلم مضادَّة الدنيا للآخرة و**) من لا يعلم (**أن الجمع بينهما طمعٌ في غير مَطْمَع**) أي في غير محلِّه، وفيه ردٌّ علىٰ من يزعم أنه يُجمَع بينهما مع إعطاء كلٍّ منهما حقه، كلاًّ واللهِ (**فهو جاهل بشرائع الأنبياء**) عليهم السلام (**كلهم**) أي بأسرارها، وإذ قد رُكز في قلبه ذلك فإزالته مستصعَب إلا بتوفيق من الله وعناية (**بل هو كافر بالقرآن كله من أوله إلىٰ آخره**) لأنه مصرِّح من أوله إلىٰ آخره بأحكامه وقصصه وأمثاله ومواعظه علىٰ حقارة الدنيا وعِظَم أمر الآخرة، فهو يقرؤه باللسان ولا يجاوز إلىٰ قلبه (**فكيف يُعَدُّ**) هذا الذي شأنه كذا (**من زمرة العلماء**) الأبرار؟! كلاًّ واللهِ حتىٰ يَلِجَ الجمل في سَمِّ الخِياط (**ومَن علم هذا كلَّه ثم لم يؤثِر الآخرة علىٰ الدنيا فهو أسير**) حبائل (**الشيطان**) مغرور في نفسه، قد مسخه الله تعالىٰ، لا يبالي الله به بالة بأيِّ وادٍ هلك (**قد أهلكته شهوته**) النفسانية بغَلَبتها عليه، وأوثقته معاصيه (**وغلبت عليه شِقْوَتُه**) فلا يقبل العلاج (**فكيف يُعَدُّ من أضراب العلماء مَن هذه درجته**) عند الله وهذه رتبته ومنزلته؟

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيًّا ... ولكن لا حياة لمن تنادي[2]

(**وفي أخبار**) النبي (**داود**) ابن إيشا بن عبيد بن بهيس بن قارب بن يهوذا[3] بن

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ٢٢٠.

(٢) البيت لعمرو بن معدي كرب، وهو في ديوانه ص ١١٣ (ط - مجمع اللغة العربية بدمشق). وهو من الأبيات التي تجري مجرىٰ الأمثال.

(٣) في تاريخ دمشق ٢٢/ ٢٣١ ساق نسبه هكذا نقلا عن كتاب الإكمال لابن ماكولا: داود بن إيشا بن عويد بن ناعر بن سلمون بن يحشون بن عمي بن يادب بن رام بن خضرون بن فارص بن يهوذا.

يعقوب عليه السلام (**حكايةً عن الله تعالىٰ**) وذلك فيما أورده صاحب القوت ما لفظه[١]: إن الله تعالىٰ أوحىٰ إليه: يا داود (**إن أدنىٰ ما أصنع بالعالم إذا آثَر**) أي اختار (**شهوته علىٰ محبتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي. يا داود، لا تسأل عني عالمًا**) ولفظ القوت: لا تسألنَّ عني عالمًا (**قد أسكرته الدنيا**) أي جعلته كهيئة السكران (**فيصدك**) أي يمنعك (**عن طريق محبتي، أولئك قُطَّاع الطريق علىٰ عبادي**) ولفظ القوت: قُطَّاع طريق عبادي المريدين (**يا داود، إذا رأيت لي طالبًا فكن له خادمًا. يا داود، مَن ردَّ إليَّ هاربًا كتبته**) عندي (**جِهْبذًا**) هو بالكسر: النَّقَّاد الخبير بغوامض الأمور، البارع العارف بطرق النقد، وهو معرَّب؛ صرَّح به الشهاب الخَفاجي وابن التِّلِمْساني؛ كذا في شرحي علىٰ القاموس[٢]. وفي عبارات بعضهم: هو الحاذق الكيِّس (**ومَن كتبتُه جهبذًا لم أعذِّبه أبدًا**) هذا كله نص القوت، إلا أنه بتقديم الجملة الثانية علىٰ الأولىٰ.

(**ولذلك قال الحسن** رضي الله عنه) كذا في النسخ، فالمراد به الحسن بن علي بن أبي طالب (**عقوبة العلماء موت القلب، وموت القلب طلبُ الدنيا بعمل الآخرة**)[٣] والأشبه أن يكون هذا من كلام الحسن البصري.

(**وقال يحيىٰ بن معاذ**) الرازي، الآتية ترجمتُه (**إنما يذهب بهاءُ العلم والحكمة**) أي نورهما (**إذا طُلبت بهما الدنيا**.

وقال سعيد بن المسيَّب رحمه الله: **إذا رأيتم العالِم يغشىٰ الأمراءَ فهو لص**.

وقال عمر) بن الخطاب (رضي الله عنه: **إذا رأيتم العالِم محبًّا للدنيا**) أي مائلاً إليها (**فاتَّهِموه علىٰ دينكم**) الذي تستفيدونه منه (**فإن كل محبٍّ يخوض فيما أحب**) فإن

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٤٤.

(٢) تاج العروس ٩/ ٣٩٢.

(٣) تقدم هذا الأثر قريبا.

حبك للشيء يُعمِي ويصمُّ.

(وقال مالك بن دينار) البصري، أحد الزهَّاد المشهورين، كنيته أبو يحيىٰ، أخرج له البخاري في التاريخ والأئمَّة الأربعة. قال الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب[١]: هو من موالي بني ناجية، أبوه من سبي سِجِسْتان، وقيل: من كابُل، روىٰ عن أنس بن مالك والحسن وابن سيرين وعكرمة وعطاء بن أبي رباح والقاسم بن محمد بن أبي بكر وأبي غالب صاحب أبي أمامة وغيرهم، روىٰ عنه أخوه عثمان وأبان بن يزيد العطَّار وسعيد بن أبي عَرُوبة وعبد السلام بن حرب وآخَرون. قال النسائي: ثقة. وذكره ابن حبان في الثقات[٢]. توفي سنة ١٣٠[٣]. قال أبو نعيم في الحلية[٤]: حدثنا عبد الله بن محمد[٥]، حدثنا أحمد بن الحسين، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثني محمد بن عبيد الله العبدي، حدثنا جعفر، عن مالك: (قرأت في بعض الكتب السالفة) أي التي أنزلها الله تعالىٰ علىٰ أنبيائه عليهم السلام. ونص الحلية: إن في بعض الكتب (أن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: إن أهون ما أصنع) ونص الحلية: ما أنا صانع (بالعالِم إذا أحب الدنيا أن أُخرِجَ حلاوة مناجاتي من قلبه) ونص الحلية: حلاوة ذكري. وكأنه عني به ما خاطب الله تعالىٰ به داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما تقدم قريبًا.

(وكتب رجل إلىٰ أخٍ له: إنك قد أوتيت) من الله (علمًا، فلا تطفئنَّ نور علمك بظلمة الذنوب فتبقىٰ في الظُّلمة يومَ يسعىٰ أهل العلم في نور علمهم) وهذا بعينه قد تقدم للمصنف في ترجمة الشافعي.

---

(١) تهذيب التهذيب ٤/ ١١.

(٢) الثقات ٥/ ٣٨٣.

(٣) هذا قول خليفة بن خياط، وقال السري بن يحيىٰ: مات سنة سبع وعشرين ومائة، وقيل: ثلاث وعشرين، وقيل: إحدىٰ وثلاثين. قال ابن حبان: والصحيح أنه مات قبل الطاعون، وكان الطاعون سنة إحدىٰ وثلاثين ومائة.

(٤) حلية الأولياء ٢/ ٣٦٠.

(٥) في المطبوعة: عبد الله بن جعفر. والمثبت من الحلية.

(**وكان يحيىٰ بن معاذ**) بن جعفر، أبو زكريا (**الرازي**) أوحد وقته في زمانه، أقام ببلخ مدةً، ثم عاد إلىٰ نيسابور، ومات بها سنة ٢٥٨[١]. قال صاحب القوت[٢]: وهو أول مَن جلس علىٰ كرسي للوعظ في مصر (**يقول لعلماء الدنيا**) متعجبًا من حالهم: (**يا أصحاب العلم، قصوركم قيصرية**) أي عالية تشبه قصور قيصر ملك الروم، وفيهما جناس اشتقاق (**وبيوتكم كسروية**) أي مثل بيوت كسرىٰ ملك الفُرْس في زخارفها (**وأثوابكم**) جمع ثوب (**طاهرية**) منسوبة إلىٰ عبد الله بن طاهر بن الحسين الوزير، وكان يتغالَىٰ في الثياب، أي رفيعة (**وأخفافكم جالوتية**) أي مزيَّنة كأخفاف جالوت، وكان جبارًا من الجبابرة، جاء ذِكرُه في القرآن (**ومراكبكم قارونية**) أي كمراكب قارون في التفاخر بها؛ لكونها مزيَّنة بالذهب والفضة والحرير (**وأوانيكم فرعونية**) أي فاخرة ثمينة كأواني فرعون (**ومآتمكم جاهلية**) أي من أفعال الجاهلية. وفي بعض النسخ: موائدكم (**ومذاهبكم شيطانية**) تتَّبعون النفس والهوىٰ والشيطان فتذهبون إلىٰ ما مالت به النفوس، فبإطاعة الشيطان صارت مذاهبكم منسوبة إليه (**فأين الشريعة**) والطريقة (**المحمَّدية**)؟ فإن إعلاء القصور وزخرفة المساكن والتزيُّن بالمراكب والملابس والفُرُش والأواني كلُّ ذلك من أفعال الجبابرة والمترفِّهين المؤثِرين الدنيا علىٰ الآخرة، ليس شيء من ذلك في طريقته ﷺ، يؤثِر الخمول علىٰ نفسه، ويقنع بالقليل، ويزهد في الدنيا، وجُدُر حجرته الشريفة لم تبلغ ما فوق القامة، ويركب الحمار بإكاف وغير إكاف، ويردف خلفه إنسانًا، وكان فراشه أدم حشوه ليفٌ، وكان له قدح من خشب يشرب منه ... إلىٰ غير ذلك من أحواله وأموره ﷺ يعرفها مَن مارس كتب الحديث، فمن كان مدَّعيًا اتِّباع سنَّته

---

(١) طبقات الشعراني ١/ ٦٩.

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٨٣ ونصه: «أول من قعد علىٰ كرسي من أهل هذا العلم يحيىٰ بن معاذ رحمه الله تعالىٰ بمصر، وتبعه أبو حمزة ببغداد، فعاب الأشياخ عليهما ذلك، ولم يكن ذلك من سيرة العارفين الذين يتكلمون في علم المعرفة واليقين، إنما كان يجلس متربعًا النحويون واللغويون وأبناء الدنيا من العلماء المفتين، وهي جلسة المتكبرين، ومن التواضع الاجتماع في الجلسة».

السَّنِية فعليه أن يتَّبع طريقته، ويتبع أحواله حتىٰ يكون محمَّديًّا، وفي أحواله مَرْضيًّا.

(وأنشدوا) في هذا المعنىٰ:

(وراعي الشاة يحمي الذئبَ عنها فكيف إذا الرعاةُ لها ذئابُ)[١]

أي إن العلماء هم الرعاة للناس، يُصلِحون من أمورهم ما أفسدوا، فإذا تلبَّست العلماء بأمور الدنيا وتفاخروا بها كانوا ذئابًا، وكيف تصلُح الذئاب أن تكون رعاة أصلاً؟!

(وقيل) في معنىٰ ذلك (أيضًا:

يا معشر القرَّاء يا ملح البلد ما يُصلِح الملحَ إذا الملح فسد)[٢]

المراد بالقرَّاء: العلماء، شبَّههم بالملح بجامع الإصلاح.

وأخرج أبو نعيم في الحلية[٣] فقال: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا عبد الله ابن أبي داود، حدثنا عمرو بن عثمان ومحمود بن خالد قالا: حدثنا الوليد، عن الأوزاعي، عن يحيىٰ بن أبي كثير قال: العلماء مثل الملح، هو صلاح كل شيء، فإذا فسد الملح لم يصلحه شيءٌ، وينبغي أن يوطأ بالأقدام ثم يُلقَىٰ.

وقال في ترجمة سفيان بن عيينة[٤]: حدثنا أبو بكر، حدثنا عبد الله، حدثني أبو معمر، عن سفيان قال: قال عيسىٰ عليه السلام: إنما أعلِّمكم لتعلموا ليس لتعجبوا، يا ملح الأرض لا تفسدوا؛ فإن الشيء إذا فسد إنما يصلُح بالملح، وإن الملح إذا فسد لم يصلح بشيء.

---

(١) لم أقف علىٰ قائله.

(٢) نسبه الذهبي في تاريخ الإسلام ٨/ ٣٠٦ إلىٰ مسروق بن الأجدع، أحد كبار التابعين.

(٣) حلية الأولياء ٣/ ٦٧.

(٤) حلية الأولياء ٧/ ٢٧٤. وزاد في آخره: فلا تأخذوا الأجر ممن تعلمون إلا مثل الذي أخذت منكم.

(وقيل لبعض العارفين: أترىٰ أن من تكون المعاصي قرَّة عينه لا يعرف الله تعالىٰ)؟ أي معرفةً كاملةً، أو لا يذوق لذة معرفته (قال) مجيبًا: (لا شك أن من تكون الدنيا عنده آثَر) أي أخص (من الآخرة أنه لا يعرف الله تعالىٰ، وهذا دون ذلك بكثير) أي فكيف يعرف الله تعالىٰ من كانت المعاصي قرَّة عينه؛ فإن إيثار الدنيا دون مَن أقرَّ عينه بعصيان. وأخرج أبو نعيم في الحلية[1] في ترجمة هشام الدستوائي بسنده إليه قال: قرأت في كتاب بلغني أنه من كلام عيسىٰ عليه السلام فقال: كيف يكون من أهل العلم مَن دنياه آثَر عنده من آخرته، وهو في دنياه أفضل رغبةً؟!

(ولا تظننَّ) في نفسك (أن ترك المال) صامتًا أو ناطقًا هو تركُ الدنيا وأنه (يكفي في اللحوق بعلماء الآخرة) وقد وقع في ذلك كثيرٌ من العلماء فظنُّوا أن اللحوق بأهل الآخرة يتم بالزهد عمَّا ملكت يد الإنسان والتخلِّي عنه، وركنوا إلىٰ ذلك، فأبطأوا في سيرهم، ولم يعرفوا أن هناك ما هو أضرُّ منه (فإن الجاه) عند الأمراء والملوك والأغنياء (أضرُّ من المال) يفسد الأعمالَ (ولذلك قال) الإمام أبو نصر (بِشْر) بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال المروزي، نزيل بغداد، الشهير بالحافي، الزاهد الجليل المشهور، ثقة عابد قدوة، روىٰ عن حمَّاد ابن زيد وإبراهيم بن سعد وفضيل بن عياض ومالك وأبي بكر بن عيَّاش وعبد الرحمن بن مهدي وغيرهم، وعنه أحمد بن حنبل وإبراهيم الحربي وإبراهيم بن هانئ وعباس العنبري ومحمد بن حاتم وأبو خيثمة وخلق. وقال ابن سعد[2]: طلب الحديث، وسمع سماعًا كثيرًا، ثم أقبل علىٰ العبادة واعتزل عن الناس فلم يحدِّث. وذكره ابن حبان في الثقات[3] وقال: ثوري المذهب في الفقه والورع. وقال الدارقطني: ثقة زاهد ليس يروي إلا حديثًا صحيحًا. مات سنة سبع وعشرين ومائتين وله ست

---

(١) حلية الأولياء ٢٧٩.

(٢) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد ٩/ ٣٤٤.

(٣) الثقات ٨/ ١٤٣.

وسبعون. أخرج له أبو داود في كتاب المسائل له، والنسائي في كتاب «مناقب عليٍّ» له (**حدثنا**) وأخبرنا (**باب من أبواب الدنيا**) هكذا نقله صاحب القوت[١] عنه (**و**) قال أيضًا: (**إذا سمعتَ الرجل يقول حدثنا**) وأخبرنا (**فإنما يقول: أوسِعوا لي**) نقله صاحب القوت عنه، ويُروَىٰ عن عليٍّ أو ابن مسعود أنه مرَّ علىٰ رجل يتكلم، فقال: هذا يقول: اعرفوني (**ودفن بِشْر بن الحارث**) ولفظ القوت: وحدثنا بعض أشياخنا عن بعض شيوخه قال: دفنَّا له (**بضعة عشر ما بين قِمَطْرة وقَوْصَرَّة من الكتب**) ولفظ القوت: كتبًا لم يحدِّث منها بشيء إلا ما سُمع منه نادرًا في الفرد. إلىٰ هنا نص القوت.

وقال الخطيب في تاريخه[٢]: كان كثير الحديث، إلا أنه لم ينصب نفسه للرواية، وكان يكرهها، ودفن كتبه لأجل ذلك، وكل ما سُمع منه فإنما هو علىٰ طريق المذاكرة.

والقوصرَّة بتشديد الراء وتخفَّف: وعاء للتمر من قصب، وقيل: من البواري، وقيَّد صاحب «المُغرِب»[٣] بأنها قوصرة ما دام بها التمر، ولا تسمَّىٰ زبيلاً في عُرْفهم؛ هكذا نقله شيخنا في حاشية القاموس[٤].

قلت: وهو المفهوم من كلام الجوهري[٥].

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٣٣، ٢٦٨.

(٢) تاريخ بغداد ٧/ ٥٤٥.

(٣) المغرب في ترتيب المعرب للمطرزي ٢/ ١٨١ ونصه: «القوصرة بالتشديد والتخفيف: وعاء للتمر يتخذ من قصب، وقولهم: وإنما تسمىٰ بذلك ما دام فيها التمر وإلا فهي زبيل - مبني علىٰ عرفهم».

(٤) تاج العروس ١٣/ ٤٣٢.

(٥) الصحاح ٢/ ٧٩٣ ونصه: «القوصرة بالتشديد: هذا الذي يكنز فيه التمر من البواري، قال الراجز:

أفلح من كانت له قوصرَّه ... يأكل منها كل يوم مرَّه

وقد يخفف».

والقِمَطْر[1] بكسر ففتح فسكون: شِبْهُ سَفَطٍ يسوّىٰ من قصب تصان فيه الكتب، كالقِمَطْرة، وأنشد الخليل بن أحمد:

ليس بعلم ما حواه القمطرُ إنما العلم ما حواه الصدر[2]

وبالتشديد شاذٌّ.

(وكان) بشر (**يقول: أنا أشتهي أن أحدِّث، ولو ذهبت عني شهوةُ الحديث لحدَّثتُ**) هكذا نقله عنه صاحب القوت[3]، وزاد ما نصه: وأنا أجاهد نفسي منذ أربعين سنة.

(**وقال هو وغيره**) أيضًا: (**إذا اشتهيتَ أن تحدِّث فلا تحدِّث، وإذا لم تشته**) أن تحدِّث (**فحدِّثْ**) هكذا نقله صاحب القوت.

وأخرج الخطيب في كتاب «شرف أصحاب الحديث»[4] قال: أخبرنا أبو بكر البرقاني قال: قرأت علىٰ محمد بن علي بن النضر، حدثكم أحمد بن عمرو بن عثمان، حدثنا عبد الله بن أبي سعد، حدثنا محمد بن عبد الله بن علوان قال: قلت لبشر بن الحارث: ألا تحدِّث؟ قال: أنا أشتهي أحدِّث، وإذا اشتهيتُ شيئًا تركتُه.

وزاد صاحب القوت: وقال رحمه الله مرةً: الحديث ليس من زاد الآخرة.

---

(١) تاج العروس ١٣/ ٤٧٢ ونصه: «القمطر: ما تصان فيه الكتب، وهو شبه سفط يسف من قصب، كالقمطرة، وبالتشديد شاذ. وقال ابن السكيت: لا يقال بالتشديد، وينشد:

ليس بعلم ما يعي القمطرُ ما العلم إلا ما وعاه الصدر

والجمع: قماطر».

(٢) نسبه البيهقي في المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ ٢/ ٢٢٤ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٧/ ٤٥٨ لمحمد بن يسير البصري. ونسبه ابن عبد البر في جامع بيان العلم ١/ ٢٩٣ والخطيب في الفقيه والمتفقه ٢/ ٢٦٤ للخليل بن أحمد.

(٣) قوت القلوب ١/ ٢٦٨.

(٤) شرف أصحاب الحديث ص ١٠٣.

وأخرج الخطيب في كتاب «اقتضاء العلم العمل»[1] بسنده إلىٰ عباس بن عبد العظيم العنبري قال: قال بشر بن الحارث: إن أردتَ أن تنتفع بالحديث فلا تستكثر منه، ولا تجالس أصحاب الحديث.

وأخرج أيضًا فيه بسنده إلىٰ إسحاق بن الضيف قال: قال لي بشر بن الحارث: إنك قد أكثرتَ مجالستي، ولي إليك حاجة، إنك صاحب حديث، فأخاف أن تفسد عليَّ قلبي، فأحب أن لا تعود إليَّ. فلم أعُدْ إليه.

(وهذا لأن التلذُّذ بجاه الإفادة ومنصب الإرشاد) والتعليم **(أعظم لذةً من كل نعيم في الدنيا)** فقد أخرج الخطيب في كتاب «شرف أصحاب الحديث»[2] بسنده إلىٰ القاضي يحيىٰ بن أكثم قال: قال لي الرشيد: ما أنبل المراتب؟ قلت: ما أنت فيه [يا أمير المؤمنين] قال: [فتعرف أجلَّ مني؟ قلت: لا. قال:] لكني أعرفه، رجل في حلقة يقول: حدثنا فلان عن فلان قال قال رسول الله ﷺ. قال: قلت: يا أمير المؤمنين، هذا خير منك وأنت ابن عم رسول الله ﷺ ووليُّ عهد المسلمين؟ قال: نعم، ويلك! هذا خير مني؛ لأن اسمه مقترن باسم رسول الله ﷺ، لا يموت أبدًا، نحن نموت ونفنىٰ، والعلماء باقون ما بقي الدهر.

وأخرج[3] أيضًا بسنده إلىٰ عمر بن حبيب العَدَوي القاضي قال: قال لي أمير المؤمنين المأمون: ما طلبت مني نفسي شيئًا إلا وقد نالته ما خلا هذا الحديث؛ فإني كنت أحب أن أقعد علىٰ كرسي ويقال [لي]: مَن حدَّثك؟ فأقول: حدثني فلان [عن فلان] قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، فلِمَ لا تحدِّث؟ قال: لا يصلح [الملك و] الخلافة مع الحديث للناس.

قال الحافظ أبو بكر الخطيب: كان المأمون أعظم خلفاء بني العباس عنايةً

---

(١) اقتضاء العلم العمل ص ٨٨.

(٢) شرف أصحاب الحديث ص ٩٩. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٣) شرف أصحاب الحديث ص ١٠١. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

بالحديث، كثير المذاكرة به، شديد الشهوة لروايته، مع أنه قد حدَّث أحاديث كثيرة لمن كان يأنس به من خاصَّته، وكان يحب إملاء الحديث في مجلس عام يحضر سماعه كلُّ أحد، وكان يدافع نفسه بذلك حتىٰ عزم علىٰ فعله.

وأخرج(١) أيضًا بسنده إلىٰ الحارث بن أبي أسامة قال: قال [لي] بعض أصحابنا: سمعت يحيىٰ بن أكثم القاضي يقول: وليتُ القضاء وقضاء القضاة والوزارة وكذا وكذا، ما سُررتُ بشيء كسروري بقول المستملي: مَن ذكرتَ رضي الله عنك؟

(**فمَن أجاب شهوته فيه فهو من أبناء الدنيا**) لأنه أعطىٰ النفس مشتهاها (**ولذلك قال**) سفيان (**الثوري**) رحمه الله تعالىٰ: (**فتنة الحديث أشد من فتنة الأهل والمال والولد**)(٢) وكانت رابعة العَدَوية تقول: نِعم الرجل سفيان لولا أنه يحب الحديث. وقالت مرةً: لولا أنه يحب الدنيا. تعني اجتماع الناس حوله للحديث. هذا نص القوت بتمامه.

وأخرج الخطيب في «شرف أصحاب الحديث»(٣): أخبرنا محمد بن الحسين القطَّان، حدثنا عبد الله بن جعفر بن درستويه، حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثني أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن يمان قال: سمعت سفيان يقول: فتنة الحديث أشد من فتنة الذهب والفضة.

ونُقل مثل ذلك عن بشر بن الحارث فيما أخرجه الخطيب في الاقتضاء(٤) بسنده إلىٰ حمزة بن الحسين بن عمر قال: سمعت إبراهيم بن هانئ النيسابوري يقول: سمعت بشر بن الحارث يقول: ما لي وللحديث، ما لي وللحديث، إنما هو

---

(١) شرف أصحاب الحديث ص ١٠٤.

(٢) في قوت القلوب ١/ ٢٦٨ نسبة هذا القول إلىٰ رابعة العدوية.

(٣) شرف أصحاب الحديث ص ١٢٠.

(٤) اقتضاء العلم العمل ص ٨٨.

فتنة إلا لمن أراد اللهَ به.

ومثل كلام رابعة في سفيان يُروَىٰ عن يحيىٰ بن سعيد أنه قال[١]: ما أخشىٰ علىٰ سفيان شيئًا في الآخرة إلا حبَّه للحديث.

ويُروَىٰ[٢] عن محمد بن هارون أبي نشيط الحربي قال: لقيني بشرُ بن الحارث في الطريق، فنهاني عن الحديث وأهلِه.

قال: وأقبلت إلىٰ يحيىٰ بن سعيد القطَّان، فبلغني أنه قال: أنا أحب هذا الفتىٰ وأبغضه. فقيل له: لِمَ تحبه وتبغضه؟ فقال: أحبه لمذهبه، وأبغضه لطلبه الحديث.

كلُّ ذلك في كتاب الاقتضاء للخطيب.

وفي كتاب «شرف أصحاب الحديث»[٣] له بسنده إلىٰ علي بن قادم قال: سمعت الثوري يقول: لَوددتُ أني لم أكن دخلت في شيء منه - يعني الحديث - ولوددت أني أفلتُ منه لا عليَّ ولا لي.

وقال محمد بن بِشْر: سمعت سفيان يقول: ليتني أنجو منه كفافًا. يعني الحديث.

(**وكيف لا تُخاف فتنته وقد قيل لسيد البشر ﷺ**: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾) وقرنا صدرك بنور اليقين (﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ﴾) أي تميل (﴿إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤﴾) وقد رُويت مثل مقالة سفيان وبشر أخبار عن أساطين العلماء، فربما أشكلت علىٰ سامعيها، ونحن نبيِّن لك ونجيب عنه علىٰ حسب الاختصار، فمن ذلك[٤]: يُذكَر

---

(١) السابق ص ٨٦.

(٢) السابق ص ٨٧.

(٣) شرف أصحاب الحديث ص ١١٧.

(٤) انظر هذه الآثار والجواب عنها في كتاب شرف أصحاب الحديث للخطيب ص ١١٢ وما بعدها. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

عن الفضيل قال: قال المغيرة: ما طلب أحد هذا الحديث إلا قلَّت صلاتُه.

ويُروَىٰ عن شعبة بن الحجَّاج: إن هذا الحديث يصدَّكم عن ذِكر الله وعن الصلاة، فهل أنتم منتهون؟

ويُروَىٰ عن الشعبي أنه قال: لَوددتُ أني لم أتعلَّم من هذا العلم شيئًا.

ويُروَىٰ عن الأعمش: لأنْ أتصدق بكِسرة أحب إليَّ من أن أحدِّث بسبعين حديثًا.

ويُروَىٰ عنه أيضًا: ما في الدنيا [قوم] شر من أصحاب الحديث. قال أبو بكر ابن عيَّاش الراوي عنه: فأنكرتُها عليه حتىٰ رأيتُ منهم ما أعلم.

ويُروَىٰ عن محمد بن هشام العَيْشي قال: كنا نأتي أبا بكر بن عياش، فإذا كان طيِّب النفس قال حين رآنا: خير قوم علىٰ وجه الأرض، يحيون سنَّة النبي ﷺ، فإذا أتيناه [وهو] علىٰ غير ذلك يقول: شر قوم علىٰ وجه الأرض، عقُّوا الآباء والأمهات، وتركوا الصلوات في الجماعات.

إلىٰ غير ذلك من أقوال رويناها بالأسانيد.

أما الجواب عن كلام بشر بن الحارث فقد تقدم في ترجمته أنه دفن كتبه، وترك الحديث، وأقبل علىٰ العبادة، فلكراهته ذلك قال ما قال.

وأخرج الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» بسنده إلىٰ محمد بن نُعَيم ابن الهيصم قال: رأيت بشر بن الحارث وقد جاء أصحاب الحديث، فقال لهم بشر: ما هذا الذي أرىٰ معكم قد أظهرتموه؟ قالوا: يا أبا نصر، نطلب العلم لعل الله ينفع به يومًا. قال: علمتم أنه يجب عليكم فيه زكاة كما يجب علىٰ أحدكم إذا ملك مائتي درهم خمسة دراهم، فكذلك يجب علىٰ أحدكم إذا سمع مائتي حديث فليعمل بها منها بخمسة أحاديث، وإلا فانظروا أيش يكون هذا عليكم غدًا.

وأخرج أيضًا في كتاب الاقتضاء[١] بسنده إلىٰ أبي بكر بن عبد الله بن جعفر قال: سمعت أحمد بن حنبل وسُئل عن رجل يطلب الحديث[٢] فيُكثِر، قال: ينبغي أن يُكثِر العمل به علىٰ قَدْر زيادته في الطلب. ثم قال: سبيل العلم سبيل المال، إن المال إذا زاد زادت زكاتُه.

فذمُّ بشر للحديث وطلبِه ليس لذاته، بل لِما يَعْرِض له من عدم القيام بحقوق واجباته.

وأما سفيان فإنما قال ما قال منعًا للناس عن الشهوة الخفيَّة والركون إليها، وخوفًا علىٰ نفسه أن لا يكون قام بحق الحديث والعمل به، فخشي أن يكون ذلك حُجَّة عليه كما خاف من ذلك بشر بن الحارث، وكان حب الإسناد وشهوة الرواية غلبا علىٰ قلب سفيان حتىٰ كان يحدِّث عن الضعفاء ومن لا يُحتجُّ بروايته، فخاف علىٰ نفسه من هذا [الفعل] ومن ذلك قول شعبة: نِعم الرجل سفيان لولا أنه يقمِّش. يعني يأخذ عن الناس كلِّهم، وكأنه أراد بقوله ذم من يطلب شواذَّ الحديث وغرائبه والإكثار من طلب الأسانيد الغريبة والطرق المستنكَرة، وليس يجوز الظن بالثوري أنه قصد بقوله الذي قاله صحاح الحديث ومعروف السنن، وكيف يكون ذلك وهو القائل: أكثِروا من الأحاديث؛ فإنها سلاح. وقال: ينبغي للرجل أن يُكرِه ولده علىٰ طلب الحديث؛ فإنه مسئول عنه. وقال: ما أعلم شيئًا يُطلَب به الله هو أفضل من الحديث. فقال له إنسان: فإنهم يطلبونه بغير نية. قال: طلبُهم له نيةٌ. وكان ربَّما حدَّث بعسقلان وصور فيبتدئهم ثم يقول: انفجرت العيون، انفجرت العيون. يعجب من نفسه، وربما حدَّث الرجلَ فيقول له: هذا خير لك من ولايتك عسقلان وصور.

وأما المغيرة فإنه خرج منه [هذا الكلام] علىٰ حال نفسه، ولعله كان يُكثِر

---

(١) اقتضاء العلم العمل ص ٨٩.

(٢) في الاقتضاء: يكتب الأحاديث.

صلاة النوافل، فإذا سعىٰ في طلب الحديث إلىٰ المواضع البعيدة كان ذلك قاطعًا له عن بعض نوافله، ولو أمعن المغيرة النظر لعلم أن سعيه في طلب الحديث أفضل من صلاته، كيف وقد قال ابن المبارك: لو علمتُ أن الصلاة أفضل من الحديث ما حدَّثتكم. ومرَّ عن الشافعي: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

وأما قول شعبة فقد سُئل عنه ابن حنبل فأجاب: لعل شعبة كان يصوم، فإذا طلب الحديث وسعىٰ فيه يضعف فلا يصوم(١)، فهو أخبر عن حال نفسه، وليس يجوز لأحد أن يقول إن شعبة كان يثبِّط عن طلب الحديث، وكيف يكون كذلك وقد بلغ من قَدْره أن سُمِّي أمير المؤمنين في الحديث؟ كلُّ ذلك لأجل طلبه له واشتغاله به، ولم يَزَل علىٰ ذلك حتىٰ مات علىٰ غاية الحرص في جمعه، لا يشتغل بشيء سواه، ويُروَىٰ عنه أنه قال: إني لأذاكر الحديث فيفوتني فأمرض.

وأما الأعمش فإنه مع جلالة قَدْره وصدقه وحفظه فإنه كان سيِّئ الخُلُق جدًّا، عَسِرًا علىٰ استماع الحديث، وأخباره في ذلك مشهورة، فالذي قاله تبرؤ من طلبة الحديث، فلذا كان يستقبلهم بالذم ثم يصالحهم بعد بالإسماع، كيف ويُروَىٰ عنه أنه قال: من لم يطلب الحديث أشتهي أن أصفعه بنعلي. وقال سفيان: سمعت الأعمش يقول: لولا هذه الأحاديث لكنَّا مع البَقَّالين بالسويَّة، ولو كنتُ باقِلانيًّا لاستقذرتموني.

وأما أبو بكر ابن عيَّاش فإنه كان عَسِرًا في إسماع الحديث كالأعمش، فلمَّا أضجره أصحاب الحديث قال ما قال، وقد رُوي عنه قول ظاهر بفضلهم. قال حمزة بن سعيد المروزي: سمعت أبا بكر بن عياش وضرب بيده علىٰ كتف يحيىٰ بن آدم فقال: ويلك يا يحيىٰ! في الدنيا قوم أفضل من أصحاب الحديث؟

فهذا الذي ذكرناه مختصرًا كافٍ في الجواب عما عسىٰ أن يُستشكل من

---

(١) بعده في شرف أصحاب الحديث: أو يريد شيئًا من أعمال البر فلا يقدر أن يفعله للطلب.

أقوال بعض الأئمة. وبالله التوفيق.

(وقال) الإمام أبو محمد **(سهل)** بن عبد الله بن يونس التستري، سكن البصرة، صاحب كرامات، صحب ذا النون المصري بمكة سنة خروجه للحج، توفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وقيل: ثلاث وسبعين[١] **(العلم كله دنيا إلا ما أُريدَ به الآخرة)** كذا في نسختنا، وفي بعضها: والآخرة منه العمل به. وهكذا أخرجه الخطيب في كتاب الاقتضاء فقال[٢]: أخبرنا محمد بن الحسن الأهوازي، سمعت أزديار الصوفي يقول: سمعت محمد بن المنذر يقول: سمعت سهل بن عبد الله يقول: العلم كله دنيا، والآخرة منه العملُ به.

وهكذا هو في القوت[٣] أيضًا، لكن من غير إسناد.

ويُروَىٰ عنه أيضًا فيما أخرجه الخطيب[٤] بالسند إلىٰ حسين بن بشر[٥] الصابوني قال: قال سهل: العلم أحد لذَّات الدنيا، فإذا عمل به صار للآخرة.

وزاد صاحب القوت بعد قوله السابق: **(والعمل كله هباء إلا الإخلاص)** وهذه الزيادة لم أجدها في قول سهل، وإنما هي في قوله الآتي فيما بعد، والمصنف تابَعَ في إيراده صاحبَ القوت، إلا أنه بدون لفظة «كله».

(وقال) سهل أيضًا: **(الناس كلهم موتىٰ إلا العلماء، والعلماء سكارىٰ إلا العاملين، والعاملون كلهم مغرورون إلا المخلصين، والمخلصون علىٰ وَجَل حتىٰ**

---

(١) قال السلمي في طبقات الصوفية ص ٦٦: وأظن أن ثلاثا وثمانين أصح. وفي طبقات الشعراني ١/ ٦٦: «وشاهد ذا النون المصري عند خروجه إلىٰ مكة في سنة ثلاث وسبعين ومائتين، ومات سهل سنة ثلاث وثمانين ومائتين».

(٢) اقتضاء العلم العمل ص ٢٨.

(٣) قوت القلوب ١/ ٢٧١.

(٤) اقتضاء العلم العمل ص ٢٩.

(٥) في المطبوعة: بشر بن الحسن. والتصويب من الاقتضاء.

يُعلَم بما يُختَم لهم به) هكذا أورده صاحب القوت، إلا أنه قال: والمخلص علىٰ وَجَل حتىٰ يُختَم له به.

وقال الخطيب في كتاب الاقتضاء[١]: أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد الخلاَّل، أخبرنا أبو المفضل الشيباني[٢] قال: سمعت عبد الكريم بن كامل الصوَّاف يقول: سمعت سهل بن عبد الله التستري يقول: الناس كلهم سكارَىٰ إلا العلماء، والعلماء كلهم حيارىٰ إلا مَن عمل بعلمه.

ثم قال: أخبرنا أبو علي عبد الرحمن بن محمد النيسابوري بالري، أخبرنا أبو أحمد الغِطْريفي، حدثنا أبو سعيد العبدي بالبصرة قال: قال سهل بن عبد الله: الدنيا جهلٌ وموات إلا العلم، والعلم كله حُجَّة إلا العمل به، والعمل كله هباء إلا الإخلاص[٣].

(وقال) الإمام الزاهد **(أبو سليمان)** عبد الرحمن بن أحمد بن عطية **(الداراني)** منسوب إلىٰ دارَيَّا: قرية بغوطة دمشق[٤]، من رجال الرسالة[٥]، واسطي، سكن دمشق، وروىٰ عن الربيع بن صبيح وأهل العراق، وعنه صاحبه أحمد بن أبي الحواري والقاسم الجوعي[٦]، مات سنة خمسة عشر ومائتين.

قلت: وهو غير أبي سليمان الداراني الكبير؛ فإن هذا اسمه عبد الرحمن بن

---

(١) اقتضاء العلم العمل ص ٢٨ - ٢٩.

(٢) في الاقتضاء: أخبرني أبو محمد الحسن بن محمد بن الحسن الخلال وأبو الحسن أحمد بن محمد ابن أحمد العتيقي، قال الحسن: حدثنا، وقال أحمد: أخبرنا أبو المفضل محمد بن عبد الله الشيباني.

(٣) بعده في الاقتضاء: والإخلاص علىٰ خطر عظيم حتىٰ يختم به.

(٤) معجم البلدان ٢/ ٤٣١.

(٥) الرسالة القشيرية ص ٦٧ - ٦٨.

(٦) قال ابن الأثير في اللباب ١/ ٣١١: «هذه النسبة إلىٰ الجوع، والمشهور بهذه النسبة القاسم بن عثمان الجوعي الدمشقي، ولعله قد كان يبقىٰ جائعاً كثيرًا».

سليمان بن أبي الجَوْن العَنْسي الدمشقي، له رحلة في الحديث، روىٰ عن الأعمش وليث بن أبي سُلَيم ويحيىٰ بن سعيد الأنصاري وإسماعيل بن أبي خالد، وعنه هشام بن عمار وعبد الله بن يوسف التنِّيسي وصفوان بن صالح وجماعة، وثَّقه دُحَيم. قال الذهبي[١]: بقي إلىٰ قرب التسعين ومائة (**إذا طلب الرجل الحديث أو تزوج أو سافر في طلب المعاش فقد ركن إلىٰ الدنيا**) هكذا أورده صاحب القوت[٢]، ولفظه: من تزوج أو طلب الحديث أو طلب معاشًا. وفي موضع آخَر: أو سافر، كما للمصنف، ولم يذكر «في طلب المعاش»، والباقي سواء. زاد المصنف في تفسيره: (**وإنما أراد به طلب الأسانيد العالية**) أي[٣] إنما أراد بطلبه للحديث طلب أسانيده العالية الغريبة، والاستكثار من الطرق المستنكَرة كأسانيد حديث الطائر، و[طرق] حديث المغفر، وغسل الجمعة، وقبض العلم [وإن أهل الدرجات] و«مَن كذب [عليَّ]»، و«لا نكاح إلا بوليّ» ... وغير ذلك مما يتتبَّع أصحاب الحديث طرقه ويعتنون بجمعه، والصحيح من طرقه أقلها، وأكثر مَن يجمع ذلك الأحداث منهم، فيتحفَّظون بها ويتذاكرون، ولعل أحدهم لا يعرف من الصحاح حديثًا، وتراه يذكر من الطرق الغريبة والأسانيد العجيبة التي أكثرها موضوعٌ، وجُلُّها مصنوع ما لا ينتفع به [وقد أذهب من عمره جزًا في طلبه] وهذه العلة هي التي اقتطعت أكثرَ العلماء[٤] عن التفقُّه [به] واستنباط [ما فيه من] الأحكام، كفعل مَن رغب عن سماع[٥] السنن من المحدِّثين، وشغلوا أنفسهم بتصانيف المتكلمين، فكلا

(١) تاريخ الإسلام ١٢/ ٤٩٠.

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٣٤، ٢٦٩.

(٣) هذا الكلام منقول عن كتاب شرف أصحاب الحديث للخطيب ص ١٢٩. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٤) عبارة الخطيب: أكثر من في عصرنا من طلبة الحديث.

(٥) عبارة الخطيب: وقد فعل متفقهة زماننا كفعلهم، وسلكوا في ذلك سبيلهم، ورغبوا عن سماع ... الخخ.

الطائفتين ضيَّع ما يعنيه، وأقبل علىٰ ما لا فائدة [له] فيه.

ثم إن علوَّ الإسناد عند حُذَّاق المحدِّثين إنما يُعتبَر بعدالة رجال الإسناد لا القرب مطلقًا، وإلا فقد يكون نزولاً، ففي مشيخة عبد الرحمن بن علي الثعلبي تخريج الحافظ العراقي بسنده إلىٰ ابن المبارك قال: ليست جودة الحديث [في] قرب الإسناد [ولكن] جودة الحديث [في] صحة الرجال[1].

وأنشد الحافظ أبو طاهر السِّلَفي لنفسه[2]:

ليس حُسن الحديث قرب رجالٍ ... عند أرباب علمِه النقَّادِ
بل علوُّ الحديث عند[3] أولي الحفـ ... ـظ والإتقان صحةُ الإسناد
وإذا ما تجمَّعا في حديث ... فاغتنمْه فذاك أقصىٰ المراد

(أو تطلُّب الحديث) الشاذِّ المنكَر، وإليه يشير قول عبد الله بن إدريس[4]: كنا نقول: الإكثار من الحديث جنون. قال الطنافسي الراوي عنه: صدق. وكذا تطلُّب (الذي لا يُحتاج إليه في طريق الآخرة) قال ابن وهب يذكر عن مالك قال: ما أكثر أحدٌ من الحديث فأنجح.

وقال عبد الرزاق: كنا نظن أن كثرة الحديث خير، فإذا هو شر كله.

وقال المروزي: سمعت أحمد بن حنبل يقول: تركوا الحديث وأقبلوا علىٰ الغرائب، ما أقل الفقه فيهم!

---

(١) رواه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي ٢/ ١٣٩، وأبو نعيم في تاريخ أصفهان ٢/ ٢٢٠. والزيادات التي بين حاصرتين منهما.
(٢) الأبيات في سير أعلام النبلاء للذهبي ٢١/ ٣٧، وطبقات الشافعية الكبرىٰ للسبكي ٦/ ٤٠.
(٣) في المطبوعة: بين. والمثبت من السير والطبقات.
(٤) انظر هذه الآثار في شرف أصحاب الحديث للخطيب ص ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩.

وقد سبق إنكار ابن القيم[١] قول الداراني هذا، وتقرير المصنف إياه، وسبق أيضًا الجواب عنه في خلال فصول المقدمة.

(وقال) أبو نعيم في الحلية[٢]: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن إبراهيم بن الحكم، حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقي، حدثنا سعيد بن عامر، حدثنا هشام صاحب الدستوائي قال: قرأت في كتاب بلغني أنه من كلام **(عيسىٰ)** ابن مريم (عليه السلام): تعملون للدنيا وأنتم تُرزَقون فيها بغير العمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا تُرزَقون فيها إلا بالعمل، ويلكم علماء السوء، الأجر تأخذون، والعمل تضيعون، يوشك رب العمل أن يطلب عمله **(كيف يكون من أهل العلم مَن سيرُه إلىٰ آخرته وهو مقبل علىٰ طريق دنياه)** وما يضرُّه أشهىٰ إليه – أو قال: أحب إليه – مما ينفعه.

(و) قال أبو نعيم أيضًا: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسين، حدثنا الفضل بن الصباح، حدثنا أبو عبيدة الحداد، عن هشام الدستوائي قال: كان عيسىٰ عليه السلام يقول: معشر العلماء **(كيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به)** و**(لا)** يطلبه **(ليعمل به)** والعلم فوق رؤوسكم، والعمل تحت أقدامكم، فلا أحرار كِرام، ولا عبيد أتقياء.

(وقال صالح بن حسان) أبو الحارث **(البصري)** كذا في النسخ، والصواب: النَّضَري، بفتح النون والضاد المعجمة المحرَّكة، منسوب إلىٰ بني النضير؛ قاله ابن أبي حاتم[٣]، وهو مدني، نزل البصرة، روىٰ عن أبيه وعروة ومحمد بن كعب وهشام بن عروة وغيرهم، وعنه سعيد بن محمد الورَّاق وعائذ بن حبيب

---

(١) سبق القول في الفصل التاسع عشر من مقدمة الشارح أن صاحب كتاب تلبيس إبليس الذي شُنع فيه علىٰ الصوفية هو أبو الفرج ابن الجوزي وليس ابن القيم الجوزية، وأن الشارح قد تبع الشعراني.

(٢) حلية الأولياء ٦/ ٢٧٩.

(٣) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤/ ٣٩٧.

وعبدالحميد الحِمَّاني وأبو داود الحَفَري. قال ابن عدي[١]: بعض أحاديثه فيها إنكار، وهو إلىٰ الضعف أقرب [منه إلىٰ الصدق]. وقال الحافظ ابن حجر[٢]: له ذِكرٌ في مقدمة مسلم، ونقل عن ابن حبان[٣] أنه كان صاحب قينات وسماع، وممَّن يروي الموضوعات عن الأثبات (**أدركت الشيوخ**) أي بالمدينة وغيرها (**وهم يتعوَّذون بالله من الفاجر العالِم بالسنَّة**) هكذا أورده صاحب القوت[٤]، إلا أنه قال: أدركتُ المشيخة. والفجور كما تقدم: خرقُ سِتْر الديانة، وهو مثل قول سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السابق: أخاف علىٰ هذه الأمة كلَّ منافق عليم اللسان.

(**وروىٰ أبو هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) واسمه عبد الرحمن بن صخر في أشهر الأقوال، وهو من مكثري الصحابة روايةً وزهدًا وورعًا، وترجمته واسعة (**أنه ﷺ قال: مَن طلب علمًا مما يُبتغَىٰ به وجه الله تعالىٰ ليصيب به عَرَضًا من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة**) قال العراقي: رواه أبو داود[٥] وابن ماجه[٦] من رواية سعيد بن يَسَار عن أبي هريرة بلفظ: مَن تعلَّم، وقال: لا يتعلمه إلا ليصيب. وإسناده صحيح، رجاله رجال البخاري.

---

(١) الكامل في الضعفاء ٤/ ١٣٧٠. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٢) الذي ذكره ابن حجر في تهذيب التهذيب ٢/ ١٩١ أن المذكور في مقدمة صحيح مسلم رجل آخر يسمىٰ صالح بن أبي حسان، وهو مدني أيضـًا. ونص ما في صحيح مسلم ١/ ١٩: «روىٰ الزهري وصالح بن أبي حسان عن أبي سلمة عن عائشة: كان النبي ﷺ يقبل وهو صائم».

(٣) المجروحون من المحدثين لابن حبان ١/ ٤٦٧.

(٤) قوت القلوب ١/ ٢٤٣.

(٥) سنن أبي داود ٤/ ٢٤٥.

(٦) سنن ابن ماجه ١/ ٢٣٣.

قلت: وقد رواه كذلك الإمام أحمد[١] والحاكم[٢] والبيهقي[٣].

وأخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أبي سعيد رفعه: «مَن تعلَّم الأحاديث ليحدِّث بها الناس لم يرحْ رائحة الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة خمسمائة عام»[٤].

قال العراقي: وفي الباب عن ابن عمر، رواه الترمذي[٥] وابن ماجه[٦]، وقول المنذري في مختصر السنن إن الترمذي روىٰ حديث أبي هريرة، وهو إنما روىٰ حديث ابن عمر، ولفظهما مختلف فيه.

قلت: الذي عن ابن عمر في هذا المعنىٰ: «مَن تعلَّم علمًا لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوَّأْ مقعده من النار». رواه الترمذي وقال: حسن غريب. ولعل هذا الحديث الذي أشار له العراقي.

(و) في القوت ما نصه[٧]: (**قد وصف الله**) تعالىٰ في كتابه (**علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم**) أي بأكلهم إيَّاها به، وطلبهم بتحصيله إياها (**ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد**) قال الليث[٨]: الخشوع قريب المعنىٰ من الخضوع، إلا أن الخضوع في البدن، والخشوع في القلب والبصر والصوت. ا.هـ. والزهد في الشيء: قلة الرغبة فيه، والقناعة بقليله (**فقال عَزَّوَجَلَّ في**) حق (**علماء الدنيا**: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ

---

(١) مسند أحمد ١٤/ ١٦٩.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ١٥٠.

(٣) شعب الإيمان ٣/ ٢٦٨.

(٤) كنز العمال ١٠/ ٢٠٣.

(٥) سنن الترمذي ٤/ ٣٩٣.

(٦) سنن ابن ماجه ١/ ٢٣٨.

(٧) قوت القلوب ١/ ٢٤٨.

(٨) تاج العروس ٢٠/ ٥٠٦.

ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧] فقوله: فنبذوه، أي تركوه ورموه وراء ظهورهم ولم يعملوا به، وطلبوا به متاع الدنيا الفانية، فهذا أكلُهم الدنيا بالعلم.

(وقال تعالىٰ في) وصف (علماء الآخرة: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾) أي من الأحكام وغيرها (﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ﴾) [آل عمران: ١٩٩] وأخرج أبو نعيم في الحلية[(١)] بسنده إلىٰ الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١، المائدة: ٤٤] قال: لا تأخذ علىٰ ما علَّمته أجرًا، فإنما أجر العلماء والحكماء والحلماء علىٰ الله، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم [في التوراة]: يا ابن آدم، علِّمْ مجانًا كما عُلِّمتَ مجانًا.

وقال صاحب القوت[(٢)]: ومما يدلُّك علىٰ الفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة أن كل عالم بعلم إذا رآه من لا يعرفه لم يتبيَّن عليه أثر علمه، ولا عرف أنه عالم، إلا العلماء بالله عَزَّوَجَلَّ، فإنما يُعرَفون بسيماهم للخشوع والسكينة والتواضع والذلة، فهذه صبغة الله لأوليائه، ولبسته للعلماء به، ومَن أحسن من الله صبغة، كما قيل: ما ألبس الله عَزَّوَجَلَّ [عبدًا] لبسة أحسن من خشوع في سكينة هي لبسة الأنبياء ولا سيَّما [الصديقين و] العلماء، فمَثَلُهم في ذلك كمثل الصُّنَّاع؛ إذ كل صانع لو ظهر لمن لا يعرفه لم يعرف صنعته دون سائر الصنائع، ولم يفرِّق بينه وبين الصناع إلا الصناع؛ فإنه يُعرَف بصنعته؛ لأنها ظاهرة عليه؛ إذ صارت له لبسة وصفة لالتباسها بمعاملته، فكانت سيماه.

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٢٢٠. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٤٢. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(وقال بعض السلف) أي من العلماء المتقدمين: **(العلماء يُحشَرون في زمرة الأنبياء)** أي لكونهم ورثتهم **(والقضاة يُحشَرون في زمرة السلاطين)** لكونهم حكامًا بين الناس، فسبيلهم سبيل الملوك والسلاطين. هكذا أخرج هذا القولَ صاحبُ القوت[١].

قال المصنف: **(وفي معنىٰ القضاة كل فقيه قصدُه طلب الدنيا بعلمه)** أي فيكون حشرُه مع السلاطين.

وقال صاحب القوت[٢]: ومَثَلُ العالِم مثل الحاكم، وقد قسَّم النبي ﷺ الحكام ثلاثة أقسام فقال: القضاة ثلاثة ... الحديث.

(وروىٰ أبو الدرداء) عُوَيْمِر بن عامر (رضي الله عنه) تقدمت ترجمتُه **(أنه ﷺ قال: أوحىٰ الله عز وجل إلىٰ بعض الأنبياء: قل للذين يتفقَّهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس مُسوك الكِباش)** جمع مَسْك بالفتح فالسكون، هو الجِلْد، إشارةً إلىٰ لباس الصوف **(وقلوبهم كقلوب الذئاب، ألسنتهم أحلىٰ من العسل)** أي في الفصاحة **(وقلوبهم أمَرُّ من الصَّبِر، إياي يخادعون، وبي يستهزئون، لأتيحنَّ)** أي لأقدِّرنَّ **(لهم فتنة تَذَرُ الحليمَ)** فيهم **(حيران)** قال العراقي: رواه ابن عبد البر في العلم[٣] بإسناد ضعيف فيه عثمان بن عبد الرحمن الوَقَّاصي، قال البخاري[٤]: تركوه، وقال يحيىٰ بن معين[٥]: ليس بشيء، وقال النسائي[٦] والدارقطني[٧]: متروك.

---

(١) السابق ١/ ٢٧٠.

(٢) السابق ١/ ٢٣٨.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٦٥٦.

(٤) التاريخ الكبير ٦/ ٢٣٨.

(٥) ميزان الاعتدال للذهبي ٣/ ٤٣ وزاد: وقال مرة: يكذب.

(٦) الضعفاء والمتروكون للنسائي ص ١٧٥.

(٧) الضعفاء والمتروكون للدارقطني ص ١٩٠.

قلت: هو[١] عثمان بن عبد الرحمن بن عمر بن سعد بن أبي وقَّاص، أبو عمرو المدني، ويقال له المالكي أيضًا، نسبةً إلىٰ جده الأعلىٰ أبي وَّقاص مالكٍ، مات في خلافة الرشيد، روىٰ عن عمَّة أبيه عائشة وابن أبي مُلَيكة والزهري ومحمد الباقر ومحمد بن كعب القُرَظي وغيرهم، وعنه يونس بن بُكَير الشيباني وحجاج ابن نصير والهُذَيل بن إبراهيم الجُمَّاني وإسماعيل بن أبان الورَّاق وصالح بن مالك الخوارزمي ومحمد بن يعلىٰ بن زُنْبُور وأبو عمر الدُّوري ويحيىٰ بن بشر الحريري وآخرون، روىٰ له الترمذي حديثًا واحدًا في ذكر ورقة بن نوفل. قال البخاري في التاريخ: سكتوا عنه.

وجده عمر بن سعد من رجال النسائي، نزل الكوفة، صدوق، لكن مقته الناس لكونه كان أميرًا علىٰ الجيش الذين قتلوا الحسين بن علي[٢].

قال العراقي: وفي الباب عن أبي هريرة، رواه ابن المبارك في الزهد[٣] نحوه دون ذِكر كونه وحيًا إلىٰ بعض الأنبياء. وعن أنس، رواه الطبراني في الكبير بلفظ آخَر مختصرًا، وكلاهما ضعيف.

قلت: وجدت هذا الحديث في الحلية[٤] في ترجمة وهب بن منبه، ولفظه: حدثنا عبد الله، حدثنا علي، حدثنا حسين، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا بكَّار بن عبد الله قال: سمعت وهب بن منبه يقول: قال الله عَزَّوَجَلَّ فيما يعتب به أحبار بني إسرائيل: تتفقهون لغير الدين، وتتعلمون لغير العمل، وتبتاعون الدنيا بعمل

---

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر ٣/ ٦٩.

(٢) تقريب التهذيب لابن حجر ص ٧١٩.

(٣) الزهد والرقائق ص ٦١ ولفظه: يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلىٰ من العسل، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله تعالىٰ: أفبي يغترون أم علي يجترئون، فبي حلفت لأبعثن علىٰ أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيران.

(٤) حلية الأولياء ٤/ ٣٨.

الآخرة، تلبسون جلود الضأن، وتُخفُون أنفُس الذئاب، وتنقُّون القَذَىٰ من شرابكم، وتبتلعون أمثال الجبال من الحرام، وتثقِّلون الدين علىٰ الناس أمثال الجبال ثم لا تعينونهم برفع الخناصر، تطيلون الصلاة، وتبيِّضون الثياب، تقتنصون بذلك مال اليتيم والأرملة، فبعزَّتي حلفتُ لأضربنَّكم بفتنة يضل فيها رأيُ ذوي الرأي وحكمة الحكيم.

وأخرجه الخطيب في الاقتضاء فقال[1]: أخبرنا الحسن بن علي الجوهري، حدثنا محمد بن العباس الخَزَّاز، حدثنا يحيىٰ بن محمد بن صاعد قال: حدثنا الحسين بن الحسن المروزي، أخبرنا ابن المبارك ... فذكره سواء.

(**وروىٰ الضحَّاك**) ولفظ القوت[2]: وقد روينا عن الضحاك (**عن ابن عباس** ﵄ **عن النبي** ﷺ **أنه قال: علماء هذه الأمَّة رجلان: رجل آتاه الله علمًا فبذله للناس، ولم يأخذ عليه طمعًا**) أي أجرةً (**ولم يشترِ به ثمنًا**) أي عوضًا (**فذلك**) الذي (**يصلِّي عليه طيرُ السماء وحيتان الماء ودوابُّ الأرض والكِرام الكاتبون، يقدُم علىٰ الله تعالىٰ يوم القيامة سيدًا شريفًا حتىٰ يرافق المرسلين. ورجل آتاه الله علمًا في الدنيا فضنَّ به**) أي بخل به (**علىٰ عباد الله، وأخذ عليه طمعًا، واشترىٰ به ثمنًا، فذلك**) الذي (**يأتي يوم القيامة ملجمًا بلِجام من نار، ينادي منادٍ علىٰ رؤوس الخلائق**) وفي نسخة: الأشهاد (**هذا فلان ابن فلان، آتاه الله علمًا في الدنيا فضنَّ به علىٰ عباده**) وفي نسخة: علىٰ عباد الله ﷻ (**وأخذ به طمعًا، واشترىٰ به ثمنًا، فيعذَّب حتىٰ يفرغ من حساب الناس**) وفي نسخة: الخَلْق. هكذا أورده صاحب القوت. وقال العراقي: رواه الطبراني في الأوسط[3] من رواية عبد الله بن خِراش عن العوَّام بن حوشب عن شهر بن حوشب عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ ... فذكره، إلا أنه قال:

---

(١) اقتضاء العلم العمل ص ٧٨.

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٤٨.

(٣) المعجم الأوسط ٧/ ١٧١.

فذلك يستغفر له حيتان البحر ودواب البر والطير في جو السماء. ولم يقل: والكرام الكاتبون. وقال: فبخل. وقال: فذلك يُلجَم يوم القيامة بلجام من نار. وقال: هذا الذي آتاه الله علمًا فبخل به. وقال: وكذلك حتىٰ يفرغ من الحساب. وعبد الله بن خراش بن حوشب متفَق علىٰ ضعفه، وشهر بن حوشب مختلَف فيه. وذكر المصنف أنه من رواية الضحاك عن ابن عباس، والمعروف رواية شهر بن حوشب عنه، وقال الطبراني بعد تخريجه: لم يروِ هذا الحديثَ عن العوام إلا عبد الله بن خراش، ولا يُروَىٰ عن ابن عباس إلا بهذا الإسناد.

قلت: قد علمتَ أن المصنف تبع في قوله هذا صاحبَ القوت، فلعله وقع له طريقٌ إلىٰ ابن عباس غير الذي أشار إليه الطبراني؛ لكونه ثقة، والضحاك المذكور هو[1] ابن مُزاحِم الهلالي، أبو القاسم الخُراساني، روىٰ عن ابن عمر وابن عباس وزيد بن أرقم وأنس بن مالك، وقد تُكُلِّم في سماعه من ابن عباس بل من الصحابة، وروىٰ أيضًا عن الأسود بن يزيد النخعي وعطاء وأبي الأحوص والنَّزَّال بن سَبْرة وعبد الرحمن بن عوسجة، وعنه جُوَيبِر بن سعيد وسَلَمة بن نُبَيط وعبد العزيز بن أبي رَوَّاد وإسماعيل بن أبي خالد وعُمارة بن أبي حفصة وأبو جَناب الكلبي ومقاتل بن حيَّان وجماعة، ذكره ابن حبان في الثقات[2] وقال: لقي جماعة من التابعين، ولم يشافه أحدًا من الصحابة، ومَن زعم أنه لقي ابن عباس فقد وهم. وقال ابن عدي[3]: عُرِف بالتفسير، وأما رواياته عن ابن عباس وأبي هريرة ففيه نظر. مات سنة ستٍّ ومائة.

(وأشدُّ من هذا ما رُوي) ولفظ القوت[4]: ومن أغلظ ما سمعت فيمن أكل

---

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر ٢/ ٢٢٦.

(٢) الثقات ٦/ ٤٨٠.

(٣) الكامل في الضعفاء ٤/ ١٤١٥.

(٤) قوت القلوب ١/ ٢٤٩.

الدنيا بالعلم ما حدثونا عن عتبة بن واقد عن عثمان بن أبي سليمان قال: **(إن رجلاً)** ولفظ القوت: (**كان**) رجل (**يخدم موسىٰ** عليه السلام**، فجعل يقول: حدَّثني موسىٰ نبي الله، حدثني موسىٰ كَلِيم الله**) ولفظ القوت: صَفِيُّ الله، بدل: نبي الله، وزاد: حدثني موسىٰ نَجِيُّ الله، قبل الجملة الأخيرة (**حتىٰ أثري وكثر مالُه، ففقده**) وفي القوت: وفقده (**موسىٰ** عليه السلام**، فسأل عنه، فلا يحس**) أي لم يجد (**له**) موسىٰ (**خبرًا**) ولفظ القوت: فجعل يسأل عنه فلا يحس منه أثرًا (**حتىٰ جاءه رجل ذات يوم وفي يده خنزير في عنقه حبل أسود، فقال له: يا موسىٰ**) كذا في النسخ، ولفظ القوت: فقال له موسىٰ عليه السلام: (**أتعرف فلانًا؟ قال**) الرجل: (**نعم، هو هذا الخنزير**) هكذا في القوت ونسخ الكتاب كلها: قال نعم قال هو هذا الخنزير. وهذه الحكاية إنما أخذها المصنف من الكتاب المذكور، فالعهدة في الاختلاف عليه (**فقال موسىٰ** عليه السلام: **يا رب أسألك أن تردَّه إلىٰ حاله حتىٰ أسأله بما**) وفي القوت: فيما (**أصابه هذا. فأوحىٰ الله** عز وجل **إليه**): يا موسىٰ (**لو دعوتَني بالذي دعاني به آدم فمَن دونه ما أجبتك فيه، ولكن**) وفي القوت: ولكني (**أخبركِ لِمَ صنعتُ هذا به**) وفي القوت: ولكني أخبركِ، صنعتُ هذا به (**لأنه كان يطلب الدنيا بالدين**) وفي عدم إجابة دعوة موسىٰ عليه السلام فيه تغليظٌ علىٰ حال مثله.

(**وأغلظ من هذا ما رُوي عن معاذ بن جبل** رضي الله عنه **موقوفًا**) عليه (**ومرفوعًا**) إلىٰ النبي ﷺ. ولفظ القوت: وقد روينا في مقامات علماء السوء حديثًا شديدًا، نعوذ بالله من أهله، ونسأله أن لا يبلونا بمقام منه، وقد رويناه مرةً مسنَدًا من طريق، ورويناه موقوفًا علىٰ معاذ بن جبل رضي الله عنه، وإنما أذكره موقوفًا أحب إليَ، حدثونا عن مندل بن علي عن أبي نعيم الشامي عن محمد بن زياد عن معاذ بن جبل يقول فيه: قال رسول الله ﷺ، ووقفتُه أنا علىٰ معاذ (**قال: من فتنة العالِم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع، وفي الكلام تنميق وزيادة، ولا يؤمَن علىٰ صاحبه الخطأ، وفي الصمت سلامة وعلمٌ**) كذا في النسخ، ومثله في القوت، وقد أصلح العراقي في

نسخته التي قرأها عليه ولدُه وقال: سلامة وغُنْم (**ومن العلماء مَن يخزن علمه، فلا يحب أن يوجَد عند غيره، فذلك في الدرك الأول من النار**) قد تقدم أن الدركات مثل الدرجات، إلا أن الدرجات استُعملت في الجنة، والدركات في النار (**ومن العلماء من يكون في علمه بمنزلة السلطان، فإن رُدَّ عليه شيء من علمه أو تُهوونَ بشيء من حقه غضب، فذلك في الدرك الثاني من النار، ومن العلماء من يجعل علمه وغرائب حديثه**) ولفظ القوت: من يجعل حديثه في غرائب علمه (**لأهل الشرف واليسار**) أي النعمة (**ولا يرىٰ أهل الحاجة**) أي الاحتياج والفقر (**له**) أي لاستماع حديثه ذاك (**أهلاً، فذلك في الدرك الثالث من النار، ومن العلماء من ينصب نفسه للفتوىٰ**) وفي القوت: للفتيا (**فيفتي بالخطأ، والله ﷻ يبغض المتكلِّفين، فذلك في الدرك الرابع من النار، ومن العلماء من يتكلم بكلام اليهود والنصارىٰ ليغزر به علمُه، فذلك في الدرك الخامس من النار، ومن العلماء من يتخذ علمه مروءة ونُبلاً وذِكرًا في الناس**) أي شهرةً (**فذلك في الدرك السادس من النار، ومن العلماء من يستفزُّه**) أي يحمله (**الزهو**) أي التكبُّر (**والعُجْب، فإن وعظ**) غيرَه (**عَنَّفَ**) في وعظه (**وإن وُعظ أَنِفَ**) أي استكبر عن قبول وعظه (**فذلك في الدرك السابع من النار، فعليك يا أخي بالصمت، فبه**) أي بالصمت (**تغلب الشيطان، وإياك أن تضحك من غير عجب**) وقد يُروَىٰ عن معاذ: من المقت الضحك من غير عجب (**أو تمشي في غير أرب**) أي حاجة. هكذا أورده بطوله صاحب القوت.

قال العراقي: رواه الديلمي في مسند الفردوس[1] من طريق أبي نعيم الأصفهاني قال: حدثنا أبو الهيثم أحمد بن محمد الكِنْدي، حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا جُبارة بن المغلس، حدثنا مندل بن علي، عن أبي نعيم الشامي، عن محمد بن زياد، عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من فتنة العالِم ...» فذكره، وقال: فإن رُدَّ عليه شيء من قوله. وقال: من يجعل

---

(١) فردوس الأخبار ١/ ٢٦٢ مختصرا.

حديثه وغرائب علمه. وقال: من يتعلم من اليهود والنصارىٰ. وجُبارة بن المغلس ومندل بن علي ضعيفان، وأبو نعيم الشامي مجهول، ومحمد بن زياد الحِمْصي لم يدرك معاذًا، ورواه الديلمي أيضًا فيه من رواية خالد بن يزيد أبي الهيثم المقرئ عن مندل بن علي مثله، وخالد بن يزيد ثقة احتج به البخاري، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات. وهذا الكلام معروف من قول يزيد بن أبي حبيب، رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق في الباب الثاني منه[1].

قلت: أخرجه ابن الجوزي[2] فقال: أخبرنا محمد بن ناصر الحافظ، أنبأنا الحسن بن أحمد الفقيه، أخبرنا محمد بن أحمد الحافظ، أخبرنا محمد بن عبد الله الشافعي، حدثنا جعفر الصائغ، حدثنا خالد بن يزيد أبو الهيثم، حدثنا جبارة ابن مغلس ... فذكره.

فقول العراقي: ورواه ابن الجوزي في الموضوعات، أي من رواية خالد بن يزيد عن مندل بن علي، كما يعطيه ظاهر سياقه، فيه نظرٌ، وقال ابن الجوزي: خالد كذَّاب، وجبارة ومندل ضعيفان.

وقال الذهبي في الديوان[3]: خالد بن يزيد أبو الهيثم المكي، قال أبو حاتم: كذَّاب.

---

(١) الزهد والرقائق ص ٦٠ ولفظه: إن من فتنة العالم الفقيه أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع وإن وجد من يكفيه؛ فإنه في الاستماع سلامة وزيادة في العلم، والمستمع شريك المتكلم، وفي الكلام - إلا ما عصم الله - توهق وتزين وزيادة ونقصان، ومنهم من يرىٰ أن بعض الناس لشرفه ووجهه أحق بكلامه من بعض، ويزدري المساكين، ولا يراهم لذلك موضعا، ومنهم من يخزن علمه ويرىٰ أن تعليمه ضيعة، ولا يحب أن يوجد إلا عنده، ومنهم من يأخذ في علمه بأخذ السلطان حتىٰ يغضب أن يرد عليه شيء من قوله، وأن يغفل عن شيء من حقه، ومنهم من ينصب نفسه للفتيا فلعله يؤتىٰ بالأمر لا علم له به فيستحي أن يقول: لا علم لي به، فيرجم فيُكتب من المتكلفين، ومنهم من يروي كل ما سمع حتىٰ أن يروي كلام اليهود والنصارىٰ إراد أن يعزز كلامه.

(٢) الموضوعات ١/ ٢٦٥.

(٣) ديوان الضعفاء والمتروكين ص ١١٦.

فيُنظَر هذا مع قول العراقي أنه ثقة واحتجَّ به البخاري.

وقوله أيضًا: محمد بن زياد الحِمْصي لم يدرك معاذًا، قد جاء وصفه بالسُّلَمي، وعدَّه الذهبي[١] في المجاهيل.

وقوله: وهذا الكلام معروف من قول يزيد بن أبي حبيب ... الخ، قلت: وقد رُوي من طريق يزيد بن أبي حبيب مرفوعًا وموقوفًا؛ أما مرفوعًا فقد أخرجه ابن مردويه فقال: حدثنا أحمد بن عبيد الله، حدثنا علي بن الحسن، حدثنا أبو الأزهر النيسابوري، حدثنا فِرْدَوْس الكوفي، حدثنا طلحة بن زيد الحمصي عن عمرو بن الحارث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي يوسف المعافري، عن معاذ ... فذكره بمعناه موقوفًا؛ قاله ابن الجوزي[٢]، أي موقوفًا علىٰ معاذ، ثم قال: باطل، طلحة متروك.

قلت: لم أرَ له ذكرًا في «ديوان الضعفاء» للذهبي، وشيخه عمرو بن الحارث ابن الضحاك الزُّبَيدي - بالضم - الحمصي مقبول من السابعة، أخرج له البخاري في التاريخ وأبو داود[٣]. قال الحافظ السيوطي في «اللآلئ المصنوعة»[٤]: أخرجه المُرْهِبي في «فضل العلم» قال: أخبرنا أبي قراءةً عليه حدثنا جبارة به، فزالت تهمة خالد. ثم قال: وأخرجه ابن المبارك في الزهد قال: أخبرنا رجل من أهل الشام عن يزيد بن أبي حبيب قال: إن من فتنة العالم ... فذكره موقوفًا علىٰ يزيد. وأخرجه ابن عبد البر في العلم[٥] من طريق ابن المبارك، ثم قال: رُوي مثل قول يزيد بن أبي حبيب هذا كله من أوله إلىٰ آخره عن معاذ بن جبل من وجوه منقطعة.

---

(١) ميزان الاعتدال ٣/ ٥٥٤.

(٢) الموضوعات ١/ ٢٦٥.

(٣) تقريب التهذيب لابن حجر ص ٧٣٢.

(٤) اللآلئ المصنوعة ١/ ٢٢٣.

(٥) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٥٤٨ - ٥٤٩.

(وفي خبر آخَر: إن العبد ليُنشَر له من الثناء ما يملأ ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة) هكذا أورده صاحب القوت[1]، وقال العراقي: لم أجد له أصلاً بهذا اللفظ، وفي الصحيحين[2] من رواية أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رفعه: «إنه لَيأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة».

قلت: قد تقدم في أول الكتاب عند ذِكره حديث «إن من العلم كهيئة المكنون» ما ذكره الشيخ صفي الدين ابن أبي المنصور في ترجمة شيخه عتيق نقلاً عن قضيب البان الموصلي أنه قال: من الرجال مَن يُرفَع صيته ما بين المشرق والمغرب ولا يسوىٰ عند الله جناح بعوضة.

(ورُوي أن) ونص القوت[3]: وروينا عن **(الحسن)** هو البصري أنه **(انصرف)** يومًا **(من مجلسه)** الذي كان يذكِّر فيه فـ **(حمل إليه رجل من خراسان)** ونص القوت: فاستأذن عليه رجل من أهل خراسان فوضع بين يديه **(كيسًا فيه خمسة آلاف درهم، و)** أخرج من حقيبته رزمة فيها **(عشرة أثواب من رقيق البَزِّ)** أي بز خراسان، فقال الحسن: ما هذا؟ **(فقال: يا أبا سعيد، هذه نفقة)** وأشار إلىٰ الدراهم **(وهذه كسوة)** وأشار إلىٰ الرزمة **(فقال)** له **(الحسن: عافاك الله، ضُمَّ إليك كسوتك ونفقتك)** وفي القوت بتقديم: نفقتك **(فلا حاجة لنا بذلك)** وفي القوت: لا حاجة، بلا فاء **(إنه مَن جلس مثل مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة)** وفي القوت: يوم يلقاه **(ولا خَلاق له)** أي لا حظَّ، ولا نصيب له.

(و) رُوي **(عن جابر)** بن عبد الله الأنصاري (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **موقوفًا)** عليه **(ومرفوعًا**

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٤٩.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ٢٥٧. صحيح مسلم ٢/ ١٢٨٤.

(٣) قوت القلوب ١/ ٢٤٩.

إلىٰ رسول الله ﷺ) ونص القوت[1]: وروينا عن شقيق بن إبراهيم عن عَبَّاد بن كثير عن أبي الزبير عن جابر ذكره عن رسول الله ﷺ، ووقفته أنا علىٰ جابر (**أنه قال: لا تجلسوا عند كل عالِم إلا عالمًا يدعوكم من خمس**) خصال (**إلىٰ خمس**) خصال، يدعوكم (**من الشك إلىٰ اليقين، ومن الرياء إلىٰ الإخلاص، ومن الرغبة إلىٰ الزهد، ومن الكِبْر إلىٰ التواضع، ومن العداوة إلىٰ النصيحة**) قال العراقي: رواه أبو نعيم في الحلية[2] من رواية شقيق عن عَبَّاد عن أبي الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: لا تجلسوا مع كل عالِم ... فذكره، وقدَّم العداوة ثم الكِبْر علىٰ الرياء، وآخرها: من الرغبة إلىٰ الرهبة. وعَبَّاد بن كثير البصري نزيل مكة كان رجلاً صالحًا، ولكنه متروك؛ قاله النسائي[3] وغيره. وشقيق أحد الزهَّاد العُبَّاد، من أهل المجاهدة والجهاد، قال صاحب الميزان[4]: منكَر الحديث. ثم قال: لا يُتصوَّر أن يُحكَم عليه بالضعف؛ لأن النكارة من جهة الرواة عنه.

قلت: نص أبي نعيم في الحلية: أسند شقيق عن جماعة، فممَّا يُعرَف بمفاريده ما حدثنا أبو القاسم زيد بن علي بن أبي بلال، حدثنا علي بن مهرويه، حدثنا يوسف بن حَمْدان، حدثنا أبو سعيد البلخي، حدثنا شقيق بن إبراهيم الزاهد، حدثنا عَبَّاد بن كثير، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ ... فذكره. ثم [قال:] أبو سعيد اسمه محمد بن عمرو بن حجر. ورواه أيضًا أحمد بن عبد الله عن شقيق، حدثنا أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد الإدريسي، حدثنا أحمد ابن نصر الأعمش البخاري، حدثنا سعيد بن محمود، حدثنا عبد الله بن محمد الأنصاري، حدثنا أحمد بن عبد الله، حدثنا شقيق بن إبراهيم الزاهد، عن عَبَّاد ابن كثير مثله،

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٥٠.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٧٢.

(٣) الضعفاء والمتروكون للنسائي ص ١٧٢.

(٤) ميزان الاعتدال للذهبي ٢/ ٢٧٩.

رواه يحيىٰ بن خالد المهلَّبي عن شقيق، فخالفهما، حدثناه أبو سعد الإدريسي، حدثنا محمد بن الفضل القاضي بسمرقند، حدثنا محمد بن زكريا الفارسي ببلخ، حدثنا محمد بن خالد، حدثنا شقيق، حدثنا عَبَّاد، عن أبان، عن أنس، عن النبي ﷺ مثله. وهذا الحديث كلام كان شقيق كثيرًا ما يعظ به أصحابه والناس، فوهم فيه الرواة فرفعوه وأسندوه. ا.هـ. كلام أبي نعيم.

قلت: قال الحافظ السيوطي(١) نقلاً عن اللسان(٢): أحمد بن عبد الله هو الجويباري، أحد الكذَّابين.

ثم قال العراقي: ورواه ابن الجوزي في الموضوعات(٣) ثم قال: ليس هذا من كلام رسول الله ﷺ. ثم ذكر كلام أبي نعيم المذكور.

قلت: وقد وجدتُ لهذا الحديث طريقًا آخَر، قال السيوطي(٤): قال ابن النجار في تاريخه: أخبرنا أبو القاسم الأزجي، عن أبي الرجاء أحمد بن محمد الكسائي قال: كتب إليَّ أبو نصر عبد الكريم بن محمد الشيرازي، حدثني أبو القاسم عمر ابن محمد بن خزيم الخُوَيي، حدثنا أبو بكر عمر بن يمن بن عيسىٰ الخويي، حدثنا أبو عبد الله الحسين بن هلال الخويي، حدثنا أبو يوسف يعقوب بن نُعَيم البغدادي، حدثنا يحيىٰ بن محمد بن أعيُن المروزي، حدثنا شقيق بن إبراهيم البلخي، أخبرنا عَبَّاد بن كثير، عن أبي الزبير، عن جابر مرفوعًا: «لا تقعدوا مع كل ذي علم، إلا عالم يدعوكم من الخمس إلىٰ الخمس: من الرغبة إلىٰ الزهد، ومن الكِبْر إلىٰ التواضع، ومن العداوة إلىٰ المحبة، ومن الجهل إلىٰ العلم، ومن الغنىٰ إلىٰ التقلُّل».

---

(١) اللآلئ المصنوعة ١/ ٢١٢.

(٢) لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ١/ ٤٩٥.

(٣) الموضوعات ١/ ٢٥٨.

(٤) اللآلئ المصنوعة ١/ ٢١٣.

ووجدت له طريقًا آخَر من طريق أهل البيت، قال السيوطي: وقال العسكري في المواعظ: حدثنا الحسن بن علي بن عاصم، حدثنا الهيثم بن عبد الله، حدثنا علي بن موسىٰ الرضا، حدثنا أبي، عن أبيه جعفر، عن أبيه محمد، عن أبيه علي ابن الحسين، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقعد إلا إلىٰ عالِم يدعوك من الخمس إلىٰ الخمس: من الرغبة إلىٰ الزهد، ومن الرياء إلىٰ الإخلاص، ومن الكِبْر إلىٰ التواضع، ومن المداهنة إلىٰ المناصحة، ومن الجهل إلىٰ العلم».

فبهذه الطرق يتقوَّىٰ جانب الرفع في حديث شقيق.

(**وقال**) الله (**تعالىٰ**) في كتابه العزيز في قصة قارون: (﴿ فَخَرَجَ ﴾) أي قارون (﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾) وهو[1] علم القلوب والمشاهدات الذي هو نتيجة التقوىٰ، وعلم المعرفة واليقين الذي هو من مزيد الإيمان وثمرة الهدىٰ (﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾) ثم قال: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٧٩-٨٠] أي: لا يلقَّىٰ هذه الحكمة إلا الصابرون عن زينة الدنيا التي خرج فيها قارون (**فعرَّف**) الله عَزَّوَجَلَّ (**أهلَ العلم**) المشار إليهم (**بإيثار الآخرة علىٰ الدنيا**) والزهد فيها، والاستصغار لها، ووصفهم بعمل الصالحات للإيمان بها، كما وصف أهل الدنيا بالرغبة فيها والاستعظام لها.

(**ومنها**) أي ومن علامات علماء الآخرة: (**أن لا يخالف فعلُه قولَه**) لأن مخالفة الفعل القول من جملة موانع الإرشاد (**بل لا يأمر بالشيء ما لم يكن هو أول عامل به**) ليكون قوله أوقع في قلوب السامعين (**قال الله تعالىٰ**) في كتابه العزيز: (﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾) [البقرة: ٤٤] أي تتركونها فتخالفون

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٥٠.

بأقوالكم أعمالَكم، وقد تقدم في آخر الباب الخامس أن الآية نزلت في أحبار المدينة؛ قاله ابن عباس.

(**وقال** عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾) [الصف: ٢ - ٣] قال السيوطي في «الدر المنثور»[١]: أخرج عبد بن حُمَيد وابن المنذر عن ميمون بن مِهْران[٢] قيل له: أرأيتَ قول الله تعالىٰ هذا أهو الرجل يقرِّظ نفسه فيقول: فعلتُ كذا وكذا من الخير، أمْ هو الرجل يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر وإن كان فيه تقصير؟ فقال: كلاهما ممقوت.

وأخرج عبد بن حميد عن أبي خالد الوالبي قال: جلسنا عند خَبَّاب بن الأرت فسكت، فقلنا: ألا تحدِّثنا؛ فإنما جلسنا إليك لذلك؟ فقال: أتأمروني أن أقول ما لا أفعل.

(**وقال تعالىٰ في قصة**) سيدنا (**شعيب**) بن نُوَيب عليه السلام: (﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾) [هود: ٨٨] أي أمنعكم عنه.

(**وقال تعالىٰ**: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾) [البقرة: ٢٨٢] هما جملتان مستقلَّتان: طلبية وهي الأمر بالتقوىٰ، وخبرية، أي: والله يعلمكم ما تتَّقون، وليست جوابًا للأمر [بالتقوىٰ] ولو أريدَ الجزاء لأتىٰ بها مجزومةً مجرَّدةً عن الواو[٣].

(**وقال تعالىٰ**: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ [البقرة: ١٩٤] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ﴾) [المائدة: ١٠٨] ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلًا سَدِيدًا ۝٧٠﴾ [الأحزاب: ٧٠] فجعل مفتاح القول السديد والعلم الرشيد والسمع المكين التقوىٰ، وهي وصية الله عز وجل مَن قبلنا وإيانا؛

---

(١) الدر المنثور ١٤/ ٤٤٦.

(٢) في الدر: عن ميمون بن مهران قال: إن القاص ينتظر المقت، فقيل له ... الخ.

(٣) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/ ٥٢٠. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

إذ يقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ ﴾ [النساء: ١٣١] وهذه الآية قطب القرآن، ومَداره عليها كمدار الرحىٰ علىٰ الخشبان[١].

(وقال) الله (عَزَّوَجَلَّ لعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **يا ابن مريم، عِظْ نفسك**) أي أولاً (**فإن اتَّعظتْ**) هي (**فعِظِ الناس وإلا فاستحي مني**) قال ابن السمعاني[٢]: قرأت في كتاب كتبه الغزالي إلىٰ أبي حامد أحمد بن سلامة بالموصل فقال في خلال فصوله: أما الوعظ فلست أرىٰ نفسيٰ أهلاً له؛ لأن الوعظ زكاةٌ نصابُه الاتِّعاظ، فمَن لا نِصاب له كيف يُخرِج الزكاةَ؟ وفاقد النور كيف يستنير به غيرُه؟ ومتىٰ يستقيم الظل والعود أعوج؟ وقد أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ ... فذكره.

(**وقال رسول الله ﷺ: مررت ليلة أُسريَ بي بقوم تُقرَض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: مَن أنتم؟ فقالوا: إنَّا كنا نأمر بالخير ولا نفعله، وننهىٰ عن الشر ونأتيه**) قال العراقي: أخرجه ابن حبان في صحيحه[٣] من رواية مالك بن دينار عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ ليلة أُسريَ بي رجالاً تُقرَض شِفاههم بمقاريض من نار، فقلت: مَن هؤلاء يا جبريل؟ فقال: الخطباء من أمَّتك، يأمرون الناس بالخير وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون»؟ قال ابن حبان: رواه أبو عَتَّاب الدلاَّل عن هشام عن المغيرة عن مالك بن دينار عن ثُمامة عن أنس، قال: ووهم فيه؛ لأن يزيد بن زُرَيع أتقن من مائتين من مثل أبي عَتَّاب وذويه. قال العراقي: قلت: طريق أبي عتاب هذه رواها أبو نعيم في الحلية، وأبو عتَّاب احتجَّ به مسلم، ووثَّقه أحمد وأبو زُرعة وأبو حاتم، واسمه سهل بن حمَّاد.

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٣٩.

(٢) تقدم كلام ابن السمعاني هذا غير مرة.

(٣) صحيح ابن حبان ١/ ٢٤٩.

قلت: نص أبي نعيم في الحلية[1]: حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن، حدثنا إبراهيم بن هاشم، حدثنا محمد بن المِنْهال [حدثنا يزيد بن زُرَيع] حدثنا هشام الدستوائي، عن المغيرة بن حبيب، عن مالك بن دينار، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتيت ليلة أُسريَ بي إلىٰ السماء، فإذا أنا برجال تُقرَض ألسنتهم وشِفاههم بمقاريض، فقلت: مَن هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الخطباء من أمَّتك». تفرَّد به يزيد بن زُرَيع عن هشام، ورواه أبو عَتَّاب سهل بن حماد عن هشام عن المغيرة عن مالك عن ثُمامة عن أنس بن مالك، كذلك رواه صدقة عن مالك، حدثنا محمد بن أحمد بن علي بن مخلد، حدثنا أحمد بن الهيثم الوَزَّان، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا صدقة بن موسىٰ، عن مالك بن دينار، عن ثُمامة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أتيت ليلة أُسريَ بي علىٰ قوم تُقرَض شفاههم بمقاريض من نار، كلما قُرضت وفت، قلت: مَن هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمَّتك الذين يقولون ولا يفعلون، ويقرأون كتاب الله ولا يعملون».

قلت: وأخرجه الخطيب[2] من طريق مسلم بن إبراهيم عن صدقة والحسن ابن أبي جعفر قالا: حدثنا مالك بن دينار، عن ثُمامة ... فذكره.

وأخرج في ترجمة إبراهيم بن أدهم الزاهد قال[3]: حدثنا أبو نصر [الحنبلي] النيسابوري، حدثنا [عبد الله بن] إبراهيم أبو الحسن، حدثنا محمد بن سهل العطَّار، حدثنا أحمد بن سفيان النسائي، حدثنا ابن مصفًّىٰ [حدثنا بقية] حدثنا إبراهيم بن أدهم، حدثنا مالك بن دينار، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ ... فساقه بمثل سياق ابن حبان وقال: مشهور من حديث مالك عن أنس، غريب من حديث إبراهيم عنه.

ثم قال العراقي: وللحديث طرق أخرىٰ، أحدها من رواية حماد بن سلمة

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٣٨٦. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٢) اقتضاء العلم العمل ص ٧٣.

(٣) حلية الأولياء ٨/ ٤٤. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

عن علي بن زيد عن أنس، رواه أحمد[١] والبزار، والثاني من رواية عيسىٰ بن يونس عن سليمان التيمي عن أنس، رواه الطبراني في الأوسط[٢] بإسناد صحيح، والثالث من رواية عمر بن نَبْهان عن قتادة عن أنس، رواه البزار[٣].

قلت: ورواه أيضًا الإمام أحمد وعبد بن حُمَيد[٤] في مسنديهما وأبو داود الطيالسي وسعيد بن منصور وأبو يعلىٰ[٥]، وألفاظهم كلها متقاربة، ففي بعضها: مررتُ ليلة أُسريَ بي علىٰ قوم. وفيها قال: خطباء من أهل الدنيا. و: يأمرون الناس بالبر، بدل: الخير. والباقي سواء.

(وقال ﷺ: هلاك أمتي عالِم فاجر وعابد جاهل، وشر الشرار شِرار العلماء، وخير الخيار خيار العلماء) قال العراقي: أما أول الحديث فلم أجد له أصلاً، وأما آخره فرواه الدارمي في مسنده[٦] من رواية بقية عن الأحوص بن حكيم عن أبيه قال: سأل رجل النبي ﷺ عن الشر، فقال: «لا تسألوني عن الشر، وسَلُوني عن الخير» يقولها ثلاثًا، ثم قال: «ألا إن شر الشر شرار العلماء، وخير الخير خيار العلماء». وهذا مرسَل ضعيف، فبقية مدلِّس وقد رواه بالعنعنة، والأحوص ضعَّفه ابن معين والنسائي[٧]، وأبوه تابعي لا بأس به.

قلت: ومن الشواهد للجملة الأولىٰ ما أورده صاحب القوت[٨]: وروينا عن عمر وغيره: كم من عالِم فاجر وعابد جاهل، فاتَّقوا الفاجر من العلماء، والجاهل

---

(١) مسند أحمد ١٩/ ٢٤٤.

(٢) المعجم الأوسط ١/ ٢٥٩.

(٣) مسند البزار ١٣/ ٤٥٦.

(٤) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٢/ ٢٤٤.

(٥) مسند أبي يعلىٰ ٧/ ٦٩، ٧٢، ١٨٠.

(٦) سنن الدارمي ١/ ١١٦. وقد تقدم في الباب الثالث.

(٧) الضعفاء والمتروكون للنسائي ص ٥٧.

(٨) قوت القلوب ١/ ٢٤٣.

من المتعبِّدين.

وأخرج[١] أبو نعيم في ترجمة معاذ من رواية ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان عن مالك بن يخامر عن معاذ قال: تصدَّيت لرسول الله ﷺ وهو يطوف، فقلت: يا رسول الله، أرِنا شر الناس. فقال: «سلوا عن الخير، ولا تسألوا عن الشر، شرار الناس شرار العلماء في الناس».

ويُروَىٰ معضلاً[٢] من طريق سفيان عن مالك بن مغول قال: قيل: يا رسول الله، فأيُّ الناس شر؟ قال: «اللهم غفرًا». قالوا: أخبِرْنا يا رسول الله. قال: «العلماء إذا فسدوا».

(وقال) أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن أبي عمرو **(الأوزاعي)** الفقيه الثقة الجليل، مات سنة سبع وخمسين ومائة **(شكت النواويسُ)** جمعُ ناووس، هي القبور **(ما تجد من نتن جِيَف الكفار)** من الأذىٰ **(فأوحىٰ الله تعالىٰ إليها: بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه)**[٣] فلما سمعت ذلك سكتت.

(وقال) أبو علي **(الفضيل بن عياض رحمه الله تعالىٰ: بلغني أن الفسقة من العلماء يُبدأ بهم يوم القيامة قبل عَبَدة الأوثان)** قلت: هذا قد جاء مرفوعًا، قال الطبراني: حدثنا موسىٰ بن محمد بن كثير، حدثنا عبد الملك بن إبراهيم الجُدِّي،

---

(١) تقدم هذا الحديث في الباب الثالث.

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٤٦ ونصه: «وقد روينا حديثا مقطوعا عن سفيان عن مالك بن مغول قال: قيل: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: اجتناب المحارم، ولايزال فوك رطبا من ذكر الله تعالىٰ. قيل: يا رسول الله، فأي الأصحاب خير؟ قال: صاحب إن ذكرت أعانك، وإن نسيت ذكرك. قيل: فأي الأصحاب شر؟ قال: صاحب إن سكت لم يذكرك، وإن ذكرت لم يعنك. قيل: فأي الناس أعلم؟ قال: أشدهم لله تعالىٰ خشية. قيل: فاخبرنا بخيارنا نجالسهم. قال: الذين إذا رأوا ذكر الله تعالىٰ. قالوا: فأي الناس شر يا رسول الله؟ قال: اللهم اغفرا. قالوا: أخبرنا يا رسول الله. قال: العلماء إذا فسدوا».

(٣) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ٦٦٧.

حدثنا عبد الله بن عبد العزيز العُمَري، عن أبي طوالة، عن أنس مرفوعًا: «للزبانيةُ أسرع إلىٰ فسقة حملة القرآن منهم إلىٰ عَبَدة الأوثان، فيقولون: يُبدأ بنا قبل عَبَدة الأوثان؟! فيقال لهم: ليس مَن يعلم كمن لا يعلم».

وأخرج الجوزقاني[١] من طريق قتيبة بن سعيد، حدثنا جابر بن مرزوق الجُدِّي – شيخ من أهل جُدَّة – حدثنا عبد الله بن عبد العزيز العُمَري الزاهد، عن أبي طوالة، عن أنس مرفوعًا: «إذا كان يوم القيامة يُدعَىٰ بفسقة العلماء فيؤمَر بهم إلىٰ النار قبل عَبَدة الأوثان، ثم ينادي منادٍ: ليس مَن علم كمن لا يعلم».

قال ابن الجوزي[٢]: موضوع، جابر ليس بشيء، ولعل عبد الملك أخذه منه.

قال السيوطي[٣]: وكذا قال ابن حبان[٤]: إنه باطل، وجابر متَّهم، حدَّث بما لا يشبه حديث الأثبات[٥]، ولم أرَ لعبد الملك ذكرًا في الميزان، ولا في اللسان، وقد أخرجه أبو نعيم في الحلية[٦] عن الطبراني وقال: غريب من حديث أبي طوالة عن أنس، تفرَّد به العُمَري.

قلت: وهذا غريب من الحافظ السيوطي، عبد الملك الجُدِّي ثقة من رجال البخاري وأبي داود والترمذي والنسائي، فالصواب الحكم علىٰ حديث الطبراني بعدم البطلان؛ لأن رجاله ثقات غير شيخ الطبراني موسىٰ بن محمد بن كثير، فقد ذكره الذهبي في الميزان[٧]، وأورد له هذا الحديث وقال: منكَر، وله شاهد صحيح

---

(١) الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير للجوزقاني ١/ ٨٨ (ط - الجامعة السلفية بالهند).

(٢) الموضوعات ١/ ٢٦٦.

(٣) اللآلئ المصنوعة ١/ ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٤) المجروحون لابن حبان ١/ ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٥) عبارة ابن حبان: يأتي بما لا يشبه حديث الثقات عن الأثبات.

(٦) حلية الأولياء ٨/ ٢٨٦.

(٧) ميزان الاعتدال ٤/ ٢٢١.

رواه الترمذي[١] وحسَّنه وابن خزيمة[٢] وابن حبان[٣] عن أبي هريرة.

قلت: ومسلم[٤] أيضًا نحوه، وأشار له الحافظ المنذري[٥].

ثم قال السيوطي: وأخرج المرهبي في «فضل العلم» من رواية عمرو بن جميع عن جعفر عن أبيه عن علي بن الحسين رفعه: «للزبانيةُ إلىٰ فسقة حَمَلة القرآن أسرع ...» فساقه كسياق حديث الطبراني، إلا أن فيه: «يا رب، بُدئ بنا، يا رب، سُورِعَ إلينا». وأخرجه الديلمي في مسند الفردوس من رواية عمرو بن الحارث حدثنا عكرمة بن عمَّار عن طاووس عن ابن عباس رفعه: «يدخل فسقة حَمَلة القرآن [النار][٦] قبل عَبَدة الأوثان بألفَي عام».

وأخرج الخطيب في الاقتضاء[٧] من طريق زكريا بن يحيىٰ المروزي، حدثنا معروف الكرخي قال: قال بكر بن خُنَيس: إن في جهنم واديًا ... ثم ساق حديثًا طويلاً، وفي آخره: يُبدأ بفسقة حَمَلة القرآن، فيقولون: أيْ رب، بُدئ بنا قبل عبدة الأوثان. قيل [لهم]: ليس مَن يعلم كمَن لا يعلم.

(وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: ويلٌ لمن لا يعلم مرةً، وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات)** قال الخطيب في كتاب الاقتضاء[٨]: حدثنا محمد بن أحمد [بن رزق]

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ١٩٠.

(٢) صحيح ابن خزيمة ٤/ ١١٥.

(٣) صحيح ابن حبان ٢/ ١٣٦.

(٤) صحيح مسلم ٢/ ٩١٩.

(٥) الترغيب والترهيب للمنذري ١/ ٦٩، ٥٥٧.

(٦) زيادة من اللآلئ المصنوعة.

(٧) اقتضاء العلم العمل ص ٧٤ ونصه: إن في جهنم لواديًا تتعوذ جهنم من ذلك الوادي كل يوم سبع مرات، وإن في الوادي لجبًّا يتعوذ الوادي وجهنم من ذلك الجب كل يوم سبع مرات، وإن في الجب لحية يتعوذ الجب والوادي وجهنم من تلك الحية كل يوم سبع مرات، يبدأ ... الخ.

(٨) اقتضاء العلم العمل ص ٤٧ - ٤٨. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

أخبرنا عثمان بن أحمد الدَّقَّاق، حدثنا حسين بن أبي معشر، أخبرنا وكيع، عن جعفر بن برقان، عن ميمون بن مهران [قال]: قال أبو الدرداء ... فذكره، إلا أنه قال: ويلٌ للذي، بدل: لمَن، في الموضعين.

وأخرج من طريق عبد الله بن داود الخِرِّيبي قال: حدثنا جعفر بن برقان، عن ميمون بن مهران قال: قال أبو الدرداء: ويل لمن لا يعلم ولا يعمل مرة، وويل لمن علم ولم يعمل سبع مرات.

وقد يُروَىٰ ذلك أيضًا عن عبد الله بن مسعود موقوفًا عليه، أخرج أبو نعيم(١) في ترجمته من طريق معاوية بن صالح عن عدي بن عدي قال: قال ابن مسعود: ويل لمن لا يعلم ولو شاء الله لعلَّمه، وويل لمن يعلم ثم لا يعمل سبع مرات.

وقد يُروَىٰ هذا القول مرفوعًا إلىٰ رسول الله ﷺ رفعه حذيفة بن اليمان فيما أخرجه الخطيب في كتابه المذكور(٢) من طريق أبي أحمد الزُّبَيري قال: حدثنا قيس بن الربيع عن الأعمش عن أبي وائل عن حذيفة بن اليمان - فيما أعلم - قال: قال رسول الله ﷺ: «ويلٌ لمن لا يعلم، وويلٌ لمن يعلم ثم لا يعمل» ثلاثًا.

وكذا رفعه سليمان بن الربيع مولىٰ العباس، روىٰ الخطيب بسنده إلىٰ إسماعيل بن عمرو البَجَلي قال: حدثنا فرج بن فضالة، عن سليمان بن الربيع مولىٰ العباس، عن رسول الله ﷺ قال: «ويل لمن لا يعلم ولو شاء الله لعلَّمه، وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات».

وأخرج أبو نعيم في الحلية(٣) من طريق سفيان بن عيينة قال: سمعت الفضيل ابن عياض يقول: يُغفَر للجاهل سبعون ذنبًا ما لم يُغفَر للعالِم ذنب واحد.

---

(١) حلية الأولياء ١/ ١٣١.

(٢) اقتضاء العلم العمل ص ٤٦ - ٤٧.

(٣) حلية الأولياء ٨/ ١٠٠.

(وقال) أبو عمرو عامر بن شُراحيل **(الشعبي)** الفقيه الفاضل المشهور، قال مكحول: ما رأيتُ أفقه منه. مات بعد المائة وله نحو من ثمانين **(يطَّلع يومَ القيامة قومٌ من أهل الجنة علىٰ قوم من أهل النار فيقولون لهم: ما أدخلكم النار؟ وإنما أدخلنا الله الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم. فيقولون: إنَّا كنا نأمر بالخير ولا نفعله، وننهىٰ عن الشر ونفعله)** أورد المصنف هذا القول موقوفًا علىٰ الشعبي، وهكذا أورده صاحب الحلية[1] في ترجمته من طريق ابن حنبل قال: حدثنا علي بن حفص، حدثنا سفيان، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي قال: يشرف قوم دخلوا الجنة علىٰ قوم دخلوا النار، فيقولون: ما لكم في النار وإنما كنا نعمل بما تعلِّموننا؟ فيقولون: إنَّا كنا نعلِّمكم ولا نعمل به.

وقد جاء مرفوعًا إلىٰ رسول الله ﷺ من طريقه، قال الخطيب في كتاب الاقتضاء[2]: حدثنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الأصفهاني قال: حدثنا أبو القاسم الطبراني، حدثنا أحمد بن يحيىٰ بن خالد بن حيان[3] الرقي، حدثنا زهير ابن عَبَّاد، حدثنا أبو بكر الداهري، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن الوليد بن عُقْبة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أناسًا من أهل الجنة يتطلَّعون إلىٰ أناس من أهل النار فيقولون: لِمَ دخلتم النار؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلَّمنا منكم. فيقولون: إنَّا كنا نقول ولا نفعل». قال الطبراني: لم يروِه عن ابن أبي خالد إلا الداهري، تفرَّد به زهير.

قلت: والوليد بن عُقْبة هو ابن أبي مُعَيط القرشي، أخو عثمان لأمِّه، له صحبة، وعاش إلىٰ خلافة معاوية[4].

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ٣١٢.

(٢) اقتضاء العلم العمل ص ٥١.

(٣) في المطبوعة: أحمد بن يحيىٰ بن جبلة. والمثبت من الاقتضاء.

(٤) انظر ترجمته في الاستيعاب لابن عبد البر ٢/ ٣٣٢ - ٣٣٦.

وأخرج[١] من طريق أبي العيناء قال: حدثنا أبو عاصم عن ابن جُرَيج عن أبي الزبير عن جابر رفعه: «اطَّلع قومٌ من أهل الجنة علىٰ قوم من أهل النار، فقالوا: بِمَ دخلتم النار وإنما دخلنا الجنة بتعليمكم؟ قالوا: إنَّا كنا نأمركم ولا نفعل».

قلت: وأخرجه أبو علي ابن شاذان[٢] من هذا الطريق وقال فيه: غريب، تفرَّد به أبو العيناء عن أبي عاصم. والحديث في أول المشيخة الصغرىٰ له، وهذا السياق أقرب إلىٰ سياق المصنف الذي عزاه للشعبي.

(وقال) أبو عبد الرحمن **(حاتم)** بن علوان، ويقال: ابن يوسف **(الأصم)** قال القُشَيري في رسالته[٣]: من أكابر مشايخ خراسان، كان تلميذًا لشقيق، وأستاذ أحمد ابن خضرويه. قيل: لم يكن أصم، إنما تصامم مرةً فسُمِّي به. وقال أبو نعيم في الحلية[٤]: هو مولىٰ للمثنَّىٰ بن يحيىٰ المحاربي، قليل الحديث **(ليس في القيامة أشد حسرةً من رجل علَّم الناس علمًا فعملوا به ولم يعمل هو به، ففازوا بسببه وهلك هو)** ويشهد له ما أخرجه ابن عساكر في تاريخه[٥] عن أنس رفعه: «أشد الناس حسرةً يوم القيامة رجل أمكنه طلبُ العلم في الدنيا فلم يطلبه، ورجل علم علمًا فانتفع به مَن سمعه منه دونه».

(وقال مالك بن دينار) فيما أخرجه الخطيب في كتاب الاقتضاء[٦]: أخبرنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الله المحاملي، حدثنا عبد الرحمن بن العباس البزاز من لفظه وأصله، حدثنا محمد بن إبراهيم الخَزَّاز، حدثنا عبد الله - يعني ابن أبي زياد

---

(١) اقتضاء العلم العمل ص ٥٠.

(٢) المشيخة الصغرىٰ لابن شاذان ص ٢٢ (ط - دار الغرباء الأثرية بالمدينة المنورة).

(٣) الرسالة القشيرية ص ٦٨.

(٤) حلية الأولياء ٨/ ٨٣.

(٥) تاريخ دمشق ٥١/ ١٣٧ - ١٣٨ من حديث ابن عباس، وليس أنس.

(٦) اقتضاء العلم العمل ص ٦٢. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

- حدثنا سَيَّار، عن جعفر، عن مالك قال: قرأت في التوراة **(إن العالِم إذا لم يعمل بعلمه زَلَّت موعظتُه عن القلوب كما يَزِلُّ القَطْر عن الصفا)** ثم قال: وأخبرنا أبو سعيد الحسن بن محمد الأصبهاني، حدثنا أحمد بن جعفر السمسار، حدثنا أبو بكر بن النعمان، حدثنا زيد بن عوف، حدثنا جعفر بن سليمان، عن مالك بن دينار قال: العالِم الذي لا يعمل [بعلمه] بمنزلة الصفا إذا وقع عليه القَطْر زلَّ عنه.

(ولذلك قيل[1]:

يا واعظ الناس قد أصبحتَ متَّهَمًا إذ عِبْتَ منهم أمورًا أنت تأتيها)

أي أصبحت متهمًا في دينك؛ إذ نهيتَ الناس بما أتيتَ به، فخالف قولَك العملُ.

(أصبحتَ تنصحهم بالوعظ مجتهدًا فالموبِقات لعَمْري أنت جانيها

تعيب دنيا وناسًا راغبين لها وأنت أكثر منهم رغبةً فيها

وقال آخر:

لا تنهَ عن خُلُق وتأتي مثلَه عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ)

وقد تقدم للمصنف إنشاد هذا البيت في الباب الذي قبله، أعاده هنا لشدة المناسبة، ولا ضرر فيه إذا كان المقصود الإفادة.

---

(١) البيت الأول لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص ٤٦٩، وبعده:

كالملبس الثوب من عري وخزيته للناس بادية ما إن يواريها

وأعظم الإثم بعد الكفر نعمله في كل نفس عماها عن مساويها

عرفانها بعيوب الناس تبصرها منهم ولا تبصر العيب الذي فيها

أما البيتان الآخران فلم أقف علىٰ قائلهما، ولم يذكرهما الزبيدي في شرحه.

وقال[١] محمد بن العباس اليزيدي: أنشدنا أبو الفضل الرياشي:

ما مَن روَىٰ علمًا ولم يعمل به فكيف عن وَتَغ الهوىٰ بأريب
حتىٰ يكون بما تعلَّم عاملاً من صالحٍ فيكون غير معيب
ولقلَّما تجدي إصابةُ صائب أعمالُه أعمالُ غير مصيب

(وقال) الإمام الزاهد أبو إسحاق (إبراهيم بن أدهم) بن منصور العِجْلي، وقيل: التميمي البَلْخي، صدوق، مات سنة اثنتين وستين ومائة[٢] **(مررت بحجر بمكة مكتوب عليه: اقلبني تعتبرْ، فقلبتُه فإذا عليه مكتوب: أنت بما تعلم لا تعمل، فكيف تطلب علم ما لم تعلم)**؟ والذي في كتاب الاقتضاء للخطيب[٣]: أنبأنا القاضي أبو العلاء الواسطي، أخبرنا أبو الفتح الموصلي، أنبأنا عبد الله بن علي العُمَري، أنبأنا الفتح بن شخرف، حدثنا عبد الله بن خُبَيق قال: أنبأنا عبد الله ابن السندي، عن إبراهيم بن أدهم قال: خرج رجل يطلب العلم، فاستقبله حجرٌ في الطريق، فإذا فيه منقوش: اقلبني ترَ العجب وتعتبر. قال: فأقلبت الحجر، فإذا فيه مكتوب: أنت بما تعلم لا تعمل، كيف تطلب ما لا تعلم؟ قال: فرجع الرجل. انتهىٰ.

وأخرج أبو نعيم في الحلية[٤] بسنده إلىٰ إبراهيم بن بشَّار خادم إبراهيم بن أدهم قال: وحدثني إبراهيم بن أدهم قال: مررت في بعض بلاد الشام، فإذا حجر مكتوب عليه نقش بيِّنٌ بالعربية، والحجر عظيم:

كل حيٍّ وإن بقي فمن العيش يستقي
فاعمل اليومَ واجتهد واحذر الموت يا شقي

---

(١) اقتضاء العلم العمل ص ٦٢.

(٢) تقريب التهذيب لابن حجر ص ١٠٤.

(٣) اقتضاء العلم العمل ص ٥٩.

(٤) حلية الأولياء ٨/ ١٢. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

قال: فبينا أنا واقف أقرؤه وأبكي فإذا أنا برجل أشعث أغبر، عليه مَدْرَعة من شعر، فسلَّم عليَّ، فرددت عليه السلام، ورأىٰ بكائي، فقال: ما يبكيك؟ فقلت: قرأت هذا النقش فأبكاني. قال: وأنت لا تتعظ وتبكي حتىٰ توعَظ؟ ثم قال: سِرْ معي حتىٰ أقرئك غيره. فمضيت معه غير بعيد، فإذا [أنا] بصخرة عظيمة شبيهة بالمحراب، فقال: اقرأ وابكِ ولا تعصِ. ثم قام يصلي وتركني، وإذا في أعلاه نقش بيِّنٌ عربي:

لا تبغينَّ جاهًا وجاهُك ساقط عند المليك وكنْ لجاهك مصلحا

وفي الجانب الآخَر [نقش بيِّنٌ عربي:

مَن لم يثق بالقضاء والقَدَر لاقىٰ همومًا كثيرة الضرر

وفي الجانب الأيسر منه نقش بيِّنٌ عربي]:

ما أزين التقىٰ وما أقبح الخنا
وكلٌّ مأخوذ بما جنىٰ وعند الله الجزاء

وفي أسفل المحراب فوق الأرض بذراع أو أكثر:

إنما العز والغنىٰ في تقَىٰ الله والعمل

فلما تدبَّرتُه وفهمته التفت إلىٰ صاحبي فلم أرَه، فلا أدري مضىٰ أو حُجب عني.

(وقال) أبو العباس محمد بن صبيح، مولىٰ بني عِجْل **(ابن السَّمَّاك)** المذكِّر، زاهد، حَسَن الكلام، روىٰ عن إسماعيل بن أبي خالد وهشام والأعمش، وعنه أحمد وحسين بن علي الحنفي، مات سنة ثلاث وثمانين ومائة **(كم من مذكِّر بالله ناسٍ لله، وكم من مخوِّف بالله جريء علىٰ الله، وكم من مقرِّب إلىٰ الله بعيد من الله، وكم من داعٍ إلىٰ الله فارٌّ من الله، وكم من تالٍ لكتاب الله منسلخ عن آيات الله)**[1] أي

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ٢٠٦ في رسالة طويلة كتبها ابن السماك إلىٰ بعض إخوانه.

فلا ينفع التذكير والتخويف والتقريب والدعاء إلا بالتحلِّي بالأعمال الصالحة، كما أن تلاوة الكتاب لا تصلح للمنسلخ من آيات الله تعالىٰ وحججه، فيكون مثل بلعام بن باعوراء.

وأخرج ابن النجار[1] في تاريخه في ترجمة عمر بن الحسن المناطقي بسنده إليه قال: حدثنا جعفر بن محمد الخلدي، حدثنا الحارث بن أبي أسامة، حدثنا داود، حدثنا عَبَّاد، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر رفعه: «كم من عاقل عقل عن أمر الله وهو حقير عند الناس دميم المنظر ينجو غدًا، وكم من ظريف [اللسان] جميل المنظر عند الناس يهلك غدًا في القيامة».

(**وقال إبراهيم بن أدهم**) فيما أخرجه الخطيب في الاقتضاء[2] فقال: حدثنا أبو القاسم الأزهري، حدثنا محمد بن العباس الخزاز، حدثنا ابن أبي داود، حدثنا عبد الله بن خُبَيق قال: سمعت شيخًا من أهل دمشق يقول: قال إبراهيم بن أدهم: (**لقد**) هكذا هو في القوت[3]، وليس هو عند الخطيب (**أعربنا في كلامنا فلم نلحن**) وعند الخطيب: في الكلام فما نلحنُ (**ولحنًا في أعمالنا فلم نعرب**) وعند الخطيب: في الأعمال فما نُعرِب.

وأخرجه أبو نعيم في الحلية[4] فقال: حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، حدثنا أحمد بن الحسين، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا الحكم بن موسىٰ، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا بعض إخواننا قال: دخلنا علىٰ إبراهيم بن أدهم، فسلَّمنا عليه، فرفع رأسه إلينا فقال: اللهم لا تمقتنا. فأطرق رأسه ساعةً، ثم رفع رأسه

---

(١) في المطبوعة: البخاري، وهو خطأ. والحديث في ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ٥/ ٤٥ (ط - دار الكتب العلمية). والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٢) اقتضاء العلم العمل ص ٩٢.

(٣) قوت القلوب ١/ ٢٨٢.

(٤) حلية الأولياء ٨/ ١٧.

فقال: إنه إذا لم يمقتنا أحبَّنا. ثم قال: تكلمنا - أو نطقنا - بالعربية فما نكاد نلحن، ولحنَّا بالعمل فما نكاد نُعرِب.

وسياق المصنف أخرجه الخطيب بعينه لبعض الزهَّاد فقال بسنده إلىٰ المَرْزُباني قال: أخبرني الصولي قال: قال بعض الزهاد: أعربنا[1] في كلامنا فما نلحن، ولحنَّا في أعمالنا فما نعرب.

وأخرج[2] أيضًا من طريق سلمة بن كلثوم قال: سمعت إبراهيم بن أدهم عن مالك بن دينار قال: تلقَىٰ الرجلَ وما يلحن حرفًا، وعمله لحنٌ كله.

وأنشد الخطيب:

لم نؤتَ من جهل ولكننا نستر وجه العلم بالجهل
نكره أن نلحن في قولنا ولا نبالي اللحنَ في الفعل

وأنشد لهلال بن العلاء الباهلي:

سيبلَىٰ لسانٌ كان يعرب لفظةً فيا ليته في وقفة العَرْض يَسْلَمُ
وما ينفع الإعرابُ إن لم يكن تُقىٰ وما ضرَّ ذا تقوىٰ لسانٌ معجَّم

وأخرج أبو نعيم في الحلية[3] بسنده إلىٰ أحمد بن أبي الحواري قال: حدثنا مروان بن محمد قال: قيل لإبراهيم بن أدهم: إن فلانًا يتعلم النحو. فقال: هو إلىٰ أن يتعلم الصمت أحوجُ.

---

(١) الذي في اقتضاء العلم العمل ص ٩٢: أخبرني أبو الحسن علي بن أيوب القمي قال: أنبأنا أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني قال: أخبرني الصولي قال: قال بعض الزهاد: لم نؤت من جهل ولكننا .... الخ البيتين اللذين سيذكرهما الشارح نقلًا عن الخطيب. ولم يذكر القول المذكور أعلاه، وهذا القول أورده الصولي في كتابه أدب الكتاب ص ١٣٣ (ط - المطبعة السلفية بالقاهرة) ونصه: وما أحسن ما قال بعض الزهاد: أعربنا ... الخ.

(٢) اقتضاء العلم العمل ص ٩١ - ٩٣.

(٣) حلية الأولياء ٨/ ١٦.

وأخرج الخطيب[١] بسنده إلىٰ الضحاك بن أبي حوشب قال: سمعت القاسم ابن مخيمرة يقول: تعلُّمُ النحو أوله شغل، وآخره بغي.

(وقال) أبو عمرو **(الأوزاعي)** رحمه الله تعالىٰ: **(إذا جاء الإعراب ذهب الخشوعُ)** نقله صاحب القوت[٢].

(وروىٰ) أبو عبد الله **(مكحول)** الشامي، فقيه، ثقة، كثير الإرسال، مات سنة بضع عشرة ومائة[٣] **(عن عبد الرحمن بن غَنْم)** بن كُرَيب بن هانئ بن ربيعة الأشعري، ذكره ابن سعد[٤] في الطبقة الأولىٰ من تابعي أهل الشام، وذكره ابن حبان في ثقات التابعين[٥]، قيل: له صحبة ولم تثبُت. وقال ابن عبد البر[٦]: كان مسلمًا علىٰ عهد رسول الله ﷺ ولم يرَه، ولازَمَ معاذَ بن جبل إلىٰ أن مات، وكان أفقه أهل الشام، مات سنة ثمان وسبعين. روىٰ عن جماعة من الصحابة يأتي ذِكرُهم قريبًا، وروىٰ عنه ابنه، وعطية بن قيس، ومالك بن أبي مريم، وأبو سلاَّم الأسود، ومكحول، وشهر بن حوشب، ورجاء بن حَيْوَة، وعُبادة بن نُسَيٍّ، وصفوان بن سُلَيم، وجماعة **(أنه قال: حدثني عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ)** الذين سمع منهم من الصحابة: عمر، وعثمان، وعلي، وأبو ذر، ومعاذ، وأبو عُبَيدة بن الجرَّاح، وأنس بن مالك، وأبو موسىٰ الأشعري، وأبو هريرة، وعمرو ابن خارجة، وشداد بن أوس، وعُبادة بن الصامت، وثَوْبان، ومعاوية[٧]، جملتهم أربعة عشر نفسًا.

---

(١) اقتضاء العلم العمل ص ٩١.

(٢) الذي في قوت القلوب ١/ ٢٨٢: «وقال بعض السلف: النحو يذهب الخشوع من القلب».

(٣) تقريب التهذيب لابن حجر ص ٩٦٩.

(٤) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد ٩/ ٤٤٤.

(٥) الثقات لابن حبان ٥/ ٧٨.

(٦) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ١/ ٥١١.

(٧) وفي تهذيب الكمال ١٧/ ٣٣٩ أنه روىٰ عن صحابة آخرين غير هؤلاء، وهم: الحارث بن عميرة الحارثي، وشرحبيل بن حسنة، وأبو الدرداء، وأبو مالك الأشعري، وأبو عامر الأشعري.

(قالوا): إنَّا **(كنا ندرس العلم في مسجد قُباء إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: تعلَّموا ما شئتم أن تعلموا، فلن يأجركم الله عَزَّوَجَلَّ حتىٰ تعملوا)** قال العراقي: ذكره ابن عبد البر في بيان العلم[1] هكذا من غير أن يَصِل إسنادَه، وقد رُوي من حديث معاذ وابن عمر وأنس؛ أما حديث معاذ فرواه الخطيب في كتاب الاقتضاء[2] من رواية عثمان بن عبد الرحمن الجُمَحي عن يزيد بن يزيد بن جابر عن أبيه عن معاذ عن النبي ﷺ ... فذكر مثله، وأخرجه أيضًا من رواية بكر بن خُنَيس عن حمزة النصيبي عن يزيد بن يزيد بلفظ: فلن ينفعكم، مكان: يأجركم. وهكذا رواه ابن عدي في الكامل[3] وأبو نعيم في الحلية. ثم قال: وقد رواه الدارمي في مسنده[4] وابن المبارك في الزهد والرقائق[5] موقوفًا علىٰ معاذ بإسناد صحيح.

قلت: الذي في الحلية[6]: حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا الحسين بن الحسن، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا سعيد ابن عبد العزيز، عن يزيد بن يزيد بن جابر قال: قال معاذ: اعلموا ما شئتم أن تعلموا، فلن يأجركم الله بعلم حتىٰ تعملوا. قال الشيخ[7]: رفعه حمزة النصيبي عن ابن جابر عن أبيه عن معاذ. ثم ساق سنده إليه كسياق الخطيب.

ثم قال العراقي: وأما حديث ابن عمر فرواه الدارقطني في «غرائب مالك» ومن طريقه الخطيب في «أسماء الرواة عن مالك»[8] بسند فيه محمد بن روح، وهو

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٦٩٤.

(٢) اقتضاء العلم العمل ص ٢١.

(٣) الكامل في الضعفاء ٢/ ٤٥٩.

(٤) سنن الدارمي ١/ ٩٣.

(٥) الزهد والرقائق ص ٦٤.

(٦) حلية الأولياء ١/ ٢٣٦.

(٧) يعني أبا نعيم الأصفهاني.

(٨) ورواه الخطيب أيضـًا في كتابه تلخيص المتشابه في الرسم ١/ ٥٨٧ (ط - دار طلاس بدمشق).

ضعيف، ولا يصح هذا عن مالك.

وأما حديث أنس فرُوي عنه مرفوعًا وموقوفًا، رواه ابن عبد البر في العلم[١] من رواية عبَّاد بن عبد الصمد عن أنس موقوفًا. قال: وهو أولىٰ من رواية مَن رواه مرفوعًا. قال: وعباد متفَق علىٰ تركه.

قلت: وقد أخرجه ابن عساكر في التاريخ[٢] عن أبي الدرداء، أشار له السيوطي[٣]، وسياقه كسياق الخطيب، ورواه أبو الحسن بن الأخرم المديني في أماليه عن أنس، أشار له السيوطي[٤]، وسياقه كسياق الخطيب.

وأخرج الخطيب في الاقتضاء[٥] من طريق وكيع عن جعفر بن برقان عن فرات ابن سلمان عن أبي الدرداء قال: إنك لن تكون عالمًا حتىٰ تكون متعلمًا، ولن تكون متعلمًا حتىٰ تكون بما علمتَ عاملاً.

وأخرج من طريق هشام الدستوائي عن برد عن سليمان قاضي عمر بن عبد العزيز قال: قال أبو الدرداء: لا تكون عالمًا حتىٰ تكون متعلمًا، ولا تكون بالعلم عالمًا حتىٰ تكون به عاملاً.

(وقال عيسىٰ عليه السلام: مَثَل الذي يتعلَّم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت في السر فحملت فظهر حملُها فافتضحت، فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تبارك وتعالىٰ يوم القيامة علىٰ رؤوس الأشهاد) نقله صاحب القوت.

(وقال معاذ رضي الله عنه: احذروا زلَّة العالِم) بكسر اللام **(لأن قَدْره عند الخَلْق**

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٦٩٥

(٢) تاريخ دمشق ٥٢/ ٣٤٢.

(٣) انظر: كنز العمال ١٠/ ٢١٠.

(٤) السابق ١٠/ ١٤٢.

(٥) اقتضاء العلم العمل ص ٢٦.

عظيم) أي يهابونه إجلالاً **(فيتَّبعونه علىٰ زلته)** لمهابته عندهم. وذكر له الطبراني في الأوسط[١] مرفوعًا: «إني أخاف عليكم ثلاثًا وهنَّ كائنات: زَلَّة عالِم ...» الحديث، كما سيأتي.

ومن كلامه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أيضًا[٢]: وأحذِّركم زيغة الحكيم؛ فإن الشيطان قد يقول علىٰ في الحكيم كلمة الضلالة، وقد يقول المنافق كلمة الحق، فاقبلوا الحق؛ فإن علىٰ الحق نورًا.

(وقال عمر) بن الخطاب (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **إذا زلَّ العالِم زل بزلَّته عالَمٌ من الخَلْق)**[٣] وبين العالِم والعالَم جِناسٌ.

(وقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) أيضًا: **(ثلاث)** خصال **(بهنَّ يُهدَم الإسلام)** فذكرهن وقال: **(إحداهن: زلَّة العالِم)** وهي أشدهنَّ؛ لأنه يُقتدَىٰ به في الحلال والحرام، وقد جاء ذِكرُ هذه الثلاثة في حديث معاذ: «زلَّة عالم، وجدال منافق بالقرآن، ودنيا تُفتَح عليكم» كما سيأتي قريبًا، ومثله في حديث أبي الدرداء، ولكن فيه الثالث: التكذيب بالقَدَر، وسيأتي أيضًا.

(وقال) أبو عبد الرحمن عبد الله **(ابن مسعود)** بن غافل بن حبيب الهُذَلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، من السابقين الأوَّلين، صاحب علوم، وأمَّره عمر علىٰ الكوفة[٤]، ومات سنة

---

(١) المعجم الأوسط ٦/ ٣٤٢.

(٢) رواه أبو داود في سننه ٥/ ١٨٧ وزاد: فقال له يزيد بن عميرة: ما يدريني أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة وأن المنافق يقول كلمة الحق؟ فقال معاذ: اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التي يقال ما هذه، ولا يثنيك ذلك عنه؛ فإنه لعله أن يرجع ويتبع الحق إذا سمعه؛ فإن علىٰ الحق نورًا.

(٣) يروىٰ هذا الكلام من قول عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كذا رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٧/ ٤٦٠، وابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٤٠٨، والخطيب في الفقيه والمتفقه ٢/ ٢٧، والهروي في ذم الكلام ٤/ ٣٤، ولفظه: «قال عبيد الله بن جعفر: قيل لعيسىٰ ابن مريم: يا روح الله وكلمته، من أشد الناس فتنة؟ قال: زلة عالم، إذا زل العالم زل بزلته عالم كثير».

(٤) ولاه عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بيت المال بها، وليس إمارتها.

اثنتين وثلاثين أو في التي بعدها بالمدينة (**سيأتي علىٰ الناس زمان تُملَح فيه عذوبة القلوب**) أي تنقلب حلاوة القلوب التي هي ثمرة الإيمان الكامل مرارةً وملوحة (**فلا ينتفع بالعلم يومئذٍ عالِمه ولا متعلِّمه**) وإذا لم ينتفع (**فتكون قلوب علمائهم**) إذ ذاك (**مثل السِّباخ**) جمع سبخة، وهي الأرض المالحة (**من ذوات الملح ينزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها عذوبة**) وفي نسخة له: فكذلك إذا صادف القلوبَ التي نُزعت منها حلاوة الإيمان. ثم بيَّن ذلك بقوله: (**وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلىٰ حب الدنيا**) أي والجاه والرياسة (**وإيثارها علىٰ الآخرة، فعند ذلك يسلبها الله تعالىٰ ينابيع الحكمة، ويطفئ مصابيح الهُدَىٰ من قلوبهم**) أي فلا يكاد يصدر منهم الإرشادُ حينئذٍ (**فيخبرك عالمُهم حين تلقاه أنه يخشىٰ الله**) يقول ذلك (**بلسانه، والفجورُ**) هو خرق ستر الديانة (**بيِّنٌ**) أي ظاهر (**في عمله، فما أخصب الألسن يومئذٍ**) وأرطبها بالفصاحة وكثرة الكلام (**وما أجدب القلوب**) وأيبسها (**فواللهِ الذي لا إله إلا هو ما ذلك إلا لأن المعلِّمين علَّموا**) العلم (**لغير الله تعالىٰ، والمتعلمين تعلَّموا لغير الله تعالىٰ**) فحل بهم ما حل. وكأنه ﷺ نطق بما هو واقع الآن، بل وقبلنا بكثير، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وأخرج أبو نعيم في الحلية[1] من رواية إبراهيم النخعي عن علقمة عن عبد الله بن مسعود رفعه: «كيف أنتم إذا التبستكم فتنةٌ فتتخذ سنة يربو فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير، وإذا تُرك منها شيء قيل: تُركت سنَّة». قالوا: متىٰ ذلك يا رسول الله؟ قال: «إذا كثر قرَّاؤكم، وقلَّت علماؤكم، وكثرت أمراؤكم، وقلَّت أمناؤكم، والتُمست الدنيا بعمل الآخرة، وتُفُقِّهَ لغير الله». قال عبد الله: فأصبحتم فيها.

قال الشيخ: كذا رُوي مرفوعًا[2]، والمشهور من قول عبد الله موقوف.

---

(١) حلية الأولياء ١/ ١٣٦.

(٢) في الحلية: كذا رواه محمد بن نبهان مرفوعاً.

(وفي التوراة والإنجيل مكتوب: لا تطلبوا علم ما لم تعلموا حتىٰ تعملوا بما علمتم) هكذا أورده صاحب القوت[1].

وأخرج أبو نعيم[2] في ترجمة محمد بن كعب القُرَظي عن ابن عباس قال: رقىٰ رسول الله ﷺ المنبر فقال: «قال موسىٰ عليه السلام: يا بني إسرائيل - ورآهم يبكون - فقال: كم تعلمون ولا تعملون، وأنتم تعلمون ولا تعملون».

وأخرج[3] في ترجمة مالك بن دينار بسنده إليه قال: كنت مولعًا بالكتب أنظر فيها، فدخلت ديرًا من الديارات لبالي الحجاج، فأخرجوا كتابًا من كتبهم، فنظرت فيه، فإذا فيه: يا ابن آدم، لِمَ تطلب علم ما لم تعلم وأنت لا تعمل بما تعلم؟

(وقال حذيفة رضي الله عنه**)** ولفظ القوت[4]: وروينا عن حذيفة بن اليمان: **(إنكم)** اليوم **(في زمان مَن ترك فيه عُشْر ما يعلم هلك، وسيأتي زمان)** ولفظ القوت: ويأتي بعدكم زمان **(مَن عمل فيه)** ولفظ القوت: مَن عمل منهم **(بعُشْر ما يعلم نجا)** وقال صاحب القوت في موضع آخَر[5]: وفي حديث أبي هريرة: «يأتي علىٰ الناس زمان من عمل منهم بعُشْر ما أُمِرَ به نجا. وفي بعضها: بعُشْر ما يعلم. وفي حديث عليٍّ: «يأتي علىٰ الناس زمان ينكر الحق تسعة أعشار أعشارهم، لا ينجو منهم يومئذٍ إلا كل مؤمن نؤمة - يعني صموتًا - متغافلا»[6].

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٣٨.

(٢) حلية الأولياء ٣/ ٢١٩.

(٣) السابق ٢/ ٣٧٥.

(٤) قوت القلوب ١/ ٢٣٨.

(٥) السابق ١/ ٢٧٦.

(٦) زاد في القوت: «أولئك مصابيح العلم وأئمة الهدىٰ، وليسوا بالمذاييع البذر. يعني المتكلمين كثيرا، المتظاهرين بالكلام افتخارا».

وذكر في موضع آخر[١]: قال بعض التابعين: مَن عمل بعُشْر ما يعلم علَّمه الله تعالىٰ ما يجهل، ووفَّقه فيما يعمل حتىٰ يستوجب الجنة، ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم، ولم يوفَّق فيما يعمل حتىٰ يستوجب النار.

وأخرج أبو نعيم[٢] في ترجمة العلاء بن زياد بسنده إليه قال: إنكم في زمان أقلكم الذي ذهب عُشْر دينه، وسيأتي عليكم زمان أقلكم الذي يبقىٰ [عليه] عُشْر دينه.

(**وذلك لكثرة البَطَّالين**) هكذا في النسخ. ولفظ القوت عقيب كلام حذيفة: هذا لقلة العاملين وكثرة البطالين. وقال في موضع آخر[٣]: وقال بعض الخلف: أفضل العلم في آخر الزمان الصمت[٤]، وأفضل العمل النوم. يعني لكثرة الناطقين بالشبهات، فصار الصمت للجاهل علمًا، ولكثرة الغافلين بالشهوات، فصار النوم عبادة البَطَّال، ولعَمْري إن الصمت والنوم أدنىٰ أحوال العالِم، وهما أعلىٰ أحوال الجاهل.

(**واعلم أن مَثَل العالِم مثل القاضي**) وهذا مثل قوله فيما سبق قريبًا: وفي معنىٰ القضاةِ كلُّ فقيه قصدُه طلب الدنيا. فاللام في «العالِم» للعهد، وقد أخذ هذه

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٠٨ وفيه: «وفي الخبر: من عمل بما يعلم أورثه الله تعالىٰ علم ما لم يعلم، ووفقه فيما يعمل حتىٰ يستوجب الجنة، ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتىٰ يستوجب النار. فمعنىٰ أورثه علم ما لم يعلم: أي من علوم المعارف التي هي مواريث أعمال القلوب، مثل الفرق بين الاختبار والاختيار، والابتلاء والاجتباء، والمثوبة والعقوبة، ومعرفة النقص من المزيد، والقبض والبسط، والحل والعقد، والجمع والتفرقة ... إلىٰ غير ذلك من علوم العارفين بعد حسن التفقه والأدب عن مشاهدة الرقيب، والقرب لصحة المواجيد والقلوب. وقال بعض التابعين: من عمل بعشر ما يعلم علَّمه الله تعالىٰ ما يجهل».

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٢٤٦. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٣) قوت القلوب ١/ ٢٧٦.

(٤) عبارة القوت: يأتي عليكم زمان يكون أفضل العلم الصمت.

العبارة من القوت[1]، ونصُّه: ومَثَل العالِم مثل الحاكم (وقد) قُسِّم الحكَّام على ثلاثة أقسام (**قال ﷺ: القضاة ثلاثة: قاضٍ قضىٰ بالحق وهو يعلم فذاك في الجنة، وقاضٍ قضىٰ بالجَوْر وهو يعلم أو لا يعلم فهو في النار، وقاضٍ قضىٰ بغير ما أمر الله به فهو في النار**) قال المناوي[2]: قال في المطامح[3]: هذا التقسيم بحسب الوجود لا بحسب الحكم، ومعروف أن مرتبة القضاء شريفة، ومنزلته رفيعة منيفة لمن اتَّبع الحق وحكم علىٰ علم بغير هوىً، وقليل ما هم. وقيل: معناه: من كان الغالب علىٰ أقضيته العدل والتسوية بين الخصمين فله الجنة، ومَن غلب علىٰ أحكامه الجَوْرُ والميل إلىٰ أحدهما فله النار، والحاصل أنه فيه إنذار عظيم للقضاة التاركين للعدل والأعمال، والمقصِّرين في تحصيل رُتَب الكمال. قالوا: والمفتي أقرب إلىٰ السلامة من القاضي؛ لأنه لا يُلزِم بفتواه، والقاضي يُلزِم بقوله، فخطره أشد، فيتعيَّن علىٰ كل من ابتُلي بالقضاء أن يتمسَّك من أسباب التقوىٰ بما يكون له جُنَّة.

قال العراقي: رواه بريدة بن الحصيب وعبد الله بن عمر؛ أما حديث بريدة فرواه أبو داود[4] والترمذي[5] والنسائي في الكبرىٰ[6] وابن ماجه[7] من رواية ابن بُرَيدة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «القضاة ثلاثة، قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة، رجل قضىٰ بغير الحق فعلم ذاك فذلك في النار، وقاضٍ لا يعلم فأهلك حقوق الناس فهو في النار، وقاضٍ قضىٰ بالحق فذلك في الجنة». لفظ رواية الترمذي، ورجالها رجال الصحيح، وإسناد النسائي وابن ماجه أيضًا صحيح.

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٣٨.

(٢) فيض القدير ٤/ ٥٣٨.

(٣) كتاب (مطامح الإفهام في شرح كتاب الأحكام) للقاضي عياض.

(٤) سنن أبي داود ٤/ ٢٠٨.

(٥) سنن الترمذي ٣/ ٦.

(٦) السنن الكبرىٰ للنسائي ٥/ ٣٩٧.

(٧) سنن ابن ماجه ٤/ ٨.

قلت: ورواه الحاكم[١] كذلك وصحَّحه، قال الذهبي[٢]: والعهدة عليه، ولفظ الحاكم: «القضاة ثلاثة، اثنان في النار، وواحد في الجنة: رجل علم الحق فقضىٰ به فهو في الجنة، ورجل قضىٰ للناس علىٰ جهل فهو في النار، ورجل عرف الحق فجار في الحكم [متعمدًا] فهو في النار».

قال العراقي: وابن بريدة الذي لم يُسَمَّ في روايتهم هو عبد الله بن بريدة، كما ذكره ابن عساكر والمِزِّي[٣] كلاهما في الأطراف.

ثم قال: وأما حديث ابن عمر فرواه الطبراني في الكبير[٤] من رواية محارب بن دِثار عن ابن عمر رفعه: «القضاة ثلاثة، قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة، قاضٍ قضىٰ بالهوىٰ فهو في النار، وقاضٍ قضىٰ بغير علم فهو في النار، وقاضٍ قضىٰ بالحق فهو في الجنة». وإسناده جيد، رجاله رجال الصحيح.

قلت: وكذا رواه أبو يعلىٰ في معجمه، وقال الهيثمي[٥]: رجاله ثقات. وقد أفرد الحافظ ابن حجر فيه جزءًا.

(**وقال كعب**) بن ماتع الحِمْيَري، ولقبه: الأحبار، علىٰ المشهور، كنيته أبو إسحاق، ثقة مخضرم، كان من أهل اليمن، وسكن الشام، مات في آخر خلافة عثمان وقد زاد علىٰ المائة. قال الحافظ ابن حجر[٦]: وليس له في البخاري رواية ولا في مسلم إلا حكاية، ويروي كذلك عن علي وابن عباس (**يكون في آخر الزمان**

---

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ١٨٨. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٢) الكبائر وتبيين المحارم للذهبي ص ٩٨ (ط - دار ابن كثير).

(٣) تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف للمزي ٢/ ٨٤.

(٤) المعجم الكبير ١٣/ ١٣١.

(٥) مجمع الزوائد ٤/ ٣٤٩.

(٦) تقريب التهذيب لابن حجر ص ٨١٢ ونصه: «وليس له في البخاري رواية إلا حكاية لمعاوية عنه، وفي مسلم رواية لأبي هريرة فيه من طريق الأعمش عن أبي صالح».

علماء يزهِّدون الناس في الدنيا ولا يزهدون، ويخوِّفون الناس ولا يخافون، وينهون عن غشيان الولاة ويأتونهم) ونص القوت[1]: ولا ينتهون **(ويؤثِرون الدنيا علىٰ الآخرة، يأكلون)** وفي القوت: ويأكلون الدنيا **(بألسنتهم)** أكلاً **(يقرِّبون الأغنياء دون الفقراء)** ونص القوت: يقرِّبون الأغنياء، ويباعدون الفقراء **(يتغايرون علىٰ العلم كما تتغاير النساءُ علىٰ الرجال، يغضب أحدهم علىٰ جليسه إذا جالس غيره)** ذلك حظُّهم من العلم؛ هكذا أورده صاحب القوت، ثم قال: وفي حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: علماؤهم شر الخليقة، منهم بدت الفتنةُ، وفيهم تعود. وفي حديث ابن عباس: **(أولئك الجبَّارون أعداء الرحمن)** فعُلم من سياق القوت أن هذه الجملة الأخيرة ليست من كلام كعب.

وأخرج أبو نعيم في الحلية[2] من رواية ابن عبد الحكم أن ابن وهب أخبرهم عن عبد الله بن عيَّاش عن يزيد بن قودر قال: قال كعب: يوشك أن تروا جُهَّال الناس يتباهون بالعلم ويتغايرون عليه كما تتغاير النساء علىٰ الرجال، فذلك حظُّهم من العلم.

وأخرج الخطيب في الاقتضاء[3] من رواية سفيان الثوري عن ثُوَير بن أبي فاختة عن يحيىٰ بن جعدة عن علي قال: يا حَمَلة العلم، اعملوا به؛ فإنما العالِم مَن عمل، وسيكون قوم يحملون العلم يباهي بعضُهم بعضًا، حتىٰ إن الرجل لَيغضبُ علىٰ جليسه أن يجلس إلىٰ غيره، أولئك لا تصعد أعمالهم إلىٰ السماء.

(وقد رُوي عنه ﷺ أنه قال: إن الشيطان ربما يسبقكم بالعلم) هكذا في نُسَخ الكتاب التي بأيدينا، وفي نسخة بخط الكمال الدميري: ربما سبقكم، بلفظ

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٤٣.

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٣٧٧.

(٣) اقتضاء العلم العمل ص ٢٢.

الماضي، وهو هكذا نص القوت[١] وعوارف المعارف[٢]، ووجدت في نسخة «المغني» للحافظ العراقي التي قُرئت عليه وعليها خطُّه: ربما يسبعكم، بالعين المهملة مكان القاف، وعليه التصحيح، ولم أجد له معنىٰ (**فقيل: يا رسول الله، وكيف ذلك؟ قال** ﷺ: **يقول: اطلب العلم ولا تعمل حتىٰ تعلم، فلا يزال للعلم قائلاً وللعمل مسوِّفًا حتىٰ يموت وما عمل**) من شيء. أورده صاحب القوت، ولفظه: وقد روينا في خبر ... وفيه: قلنا: يا رسول الله، كيف يسبقنا بالعلم؟ والباقي سواء.

وقال العراقي: أخرجه الخطيب في كتاب «الجامع لأخلاق الراوي [وآداب] السامع»[٣] من رواية عمرو بن عبد الجبار بن حسان السِّنْجاري عن ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان عن أنس رفعه، ولفظه: «إن الشيطان ليسبقكم بالعلم». قالوا: كيف يسبقنا به يا رسول الله؟ قال: «لا يزال العبد للعلم طالبًا وللعمل تاركًا حتىٰ يأتيه الموت». قال: وإسناده غريب، وعمرو بن عبد الجبار ذكره ابن عدي في الكامل[٤]، وأورد له أحاديث وقال: كلها غير محفوظة. والراوي [عنه] محمد بن المغيرة أورده الذهبي في الميزان[٥] وقال: روىٰ خبرًا باطلاً متنُه: «في الجنة نهر يقال له رجب».

قلت: الذي ذكره الذهبي في الديوان[٦] في عمرو بن عبد الجبار: قال ابن عدي: روىٰ عن عمِّه مناكير، وعنه علي بن حرب. فمقتضَىٰ سياقه أن النكرة مقيَّدة فيما إذا روىٰ عن عمه، وهنا ليس كذلك.

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٢٨.

(٢) عوارف المعارف للسهروردي ص ٣١.

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ١٣٢.

(٤) الكامل في الضعفاء ٥/ ١٧٩٠ - ١٧٩١.

(٥) ميزان الاعتدال ٤/ ٤٦.

(٦) ديوان الضعفاء والمتروكين ص ٣٠٤.

وقال في ذيل الديوان: محمد بن المغيرة بن بسَّام، عن منصور بن يزيد، وعنه البخاري صاحب الصحيح حديث «في الجنة نهر يقال له رجب» وسكت عنه(١).

(**وقال سرىٰ السقطي**) ابن المغلس، تقدمت ترجمته (**اعتزل رجل للتعبُّد كان حريصًا علىٰ طلب علم الظاهر، فسألته**) ولفظ القوت(٢): وحدَّثونا عن سري السقطي قال: كان شاب يطلب علم الظاهر ويواظب عليه، ثم ترك ذلك وانفرد واشتغل بالعبادة، فسألت عنه، فإذا هو قد اعتزل الناس وقعد في بيته يتعبَّد، فقلت [له: قد] كنتَ حريصًا علىٰ طلب العلم الظاهر، فما بالك انقطعتَ؟ (**فقال**) لي: (**رأيتُ في المنام قائلاً يقول: إلىٰ كم**) وفي القوت: يقول لي: كم (**تضيع العلم ضيَّعك الله. فقلت: إني لأحفظه. فقال: حفظ العلم العمل به. فتركت الطلب وأقبلت علىٰ العمل**) ولفظ القوت: وأقبلت علىٰ النظر فيه للعمل.

(**وقال ابن مسعود**) ولفظ القوت: وقد كان ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: (**ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم الخشية**) أخرجه أبو نعيم في الحلية من رواية قُرَّة بن خالد عن عون بن عبد الله قال: قال عبد الله ... فذكره، إلا أنه قال: لكن، مكان: إنما. وهذا القول قد تقدم للمصنف في أثناء الوظيفة الأولىٰ من وظائف المتعلم.

(**وقال الحسن**) البصري رحمه الله تعالىٰ فيما رواه صاحب القوت قال: كان يقول: (**اعلموا ما شئتم أن تعلموا، فواللهِ لا يأجركم الله حتىٰ تعملوا**) وهذا قد رُوي مرفوعًا إلىٰ رسول الله ﷺ من حديث معاذ، أخرجه أبو نعيم والخطيب، كما تقدم

---

(١) الذي في ذيل ديوان الضعفاء والمتروكين ص ٦٩: «محمد بن المغيرة بن بسام: في الجنة نهر يقال له رجب. رواه جعفر بن محمد بن فارس - وهو صدوق - عن أبي عبد الله البخاري صاحب الصحيح عنه، وهذا منكر».

وفي ميزان الاعتدال ما نصه: «محمد بن المغيرة بن بسام، روىٰ عن منصور بن يزيد، وعنه البخاري بإسناد نظيف إلىٰ البخاري حديث: في الجنة نهر يقال له رجب ... وذكر الحديث، وهذا باطل».

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٣٠.

(فإن السفهاء همَّتهم الرواية، والعلماء همَّتهم الدراية) وهذه الجملة أخرجها الخطيب في الاقتضاء[١] من رواية لُوَيْن قال: حدثني أبو محمد الأطرابُلُسي، عن أبي معمر، عن الحسن قال: همة العلماء الرعاية، وهمة السفهاء الرواية.

وأخرج من طريق صالح بن رستم قال: قال أبو قلابة لأيوب: يا أيوب، لا تكونن[٢] إنما همُّك أن تحدِّث به الناس.

وفي القوت[٣]: وقد كان الحسن يقول: إن الله لا يعبأ بصاحب رواية، إنما يعبأ بصاحب فهم ودراية. وقال أيضًا: مَن لم يكن له عقل يسوسه لم تنفعه كثرة رواية الحديث.

(وقال مالك) بن أنس رحمه الله تعالىٰ حين سُئل عن حديث «طلبُ العلم فريضة علىٰ كل مسلم»، فقال في الجواب: **(إن طلب العلم لَحَسنٌ، وإن نشره لَحسنٌ، إذا صحَّت فيه النية، ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلىٰ حين تمسي)** ومن حين تمسي إلىٰ حين تصبح **(فلا تؤثِرنَّ عليه شيئًا)** وقد رُوي عنه هذا الكلام من ثلاثة طرق بألفاظ مختلفة والمعنىٰ واحد من رواية ابن وهب وابن الماجشون ومحمد بن معاوية الحضرمي، وقد تقدم في أول الكتاب[٤]، أورده صاحب القوت[٥] في الفصل الثاني من كتاب العلم من رواية ابن وهب قال: ذُكر طلب العلم عند مالك فقال ... فذكره.

(وقال) أبو عبد الرحمن عبد الله **(ابن مسعود** رضي الله عنه: **أُنزِلَ القرآن ليُعمَل به، فاتخذتم دراسته عملاً، وسيأتي قوم يثقفونه)** أي يعدلونه بإخراج الحروف من

---

(١) اقتضاء العلم العمل ص ٣٥.

(٢) في الاقتضاء: يا أيوب، إذا أحدث الله لك علماً فأحدث لله عبادة، ولا تكونن ... الخ.

(٣) قوت القلوب ١/ ٢٧٢.

(٤) في أوائل الباب الثاني.

(٥) قوت القلوب ١/ ٢٣٣.

مخارجها **(مثل القناة)** أي الرمح حين يثقفه الرَّمَّاح، أولئك **(ليسوا بخياركم)** هكذا أورده صاحب القوت[1]، قال: وفي لفظ آخَر: يقيمونه إقامةَ القدح، يتعجَّلونه ولا يتأجَّلونه.

وأخرج الخطيب في كتاب الاقتضاء[2] من رواية عبد الصمد بن يزيد قال: سمعت الفضيل يقول: إنما نزل القرآن ليُعمَل به، فاتخذ الناس قراءته عملاً. قال: قيل: كيف العمل به؟ قال: أي ليحلوا حلاله، ويحرِّموا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبه.

(و) مَثَل **(العالِم الذي)** يعلم و **(لا يعمل)** بعلمه **(كالمريض الذي يصف الدواء)** بلسانه عن علم فيه ولا يستعمله **(وكالجائع الذي يصف لذائذ الأطعمة)** بأنواعها، ويصف كيفية صنعتها وتركيبها **(ولا يجدها)** وقال صاحب القوت[3]: فمَثَل العالِم يعلِّم غيره مثل الواصف لأحوال الصالحين، العارف بمقامات الصِّدِّيقين، ولا حال له ولا مقام، فليس يعود عليه من وصفه إلا الحُجَّة بالعلم والكلام وسبق العلماء بالله في الحجَّة بالأعمال والمقام **(وفي مثله قال تعالىٰ: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ١٨﴾)** [الأنبياء: ١٨] وقال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ [البقرة: ٢٠] لا يرجع إلىٰ بصيرة في طريقه بما اشتبه عليه من ظلمات الشُّبَه مما اختلف العلماء فيه، ولا يتحقق بوجد منه فيه يجده عن حال ألبسها بوجده، وإنما هو واجد بتواجيد غيره، فغيره هو الواجد، وشاهد علىٰ شهادة سواه، فالسُّوَىٰ هو الشاهد.

(وفي الخبر: إنما أخاف علىٰ أمَّتي زَلَّة عالِم وجدال منافق في القرآن) قال العراقي: فيه عن أبي الدرداء ومعاذ وعمر وعلي وعمران بن الحصين؛ أما حديث

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٥٠.

(٢) اقتضاء العلم العمل ص ٧٦.

(٣) قوت القلوب ١/ ٢٧٢.

أبي الدرداء فرواه الطبراني[١] من رواية أبي إدريس الخَوْلاني عنه رفعه: «أخاف علىٰ أمتي ثلاثًا: زَلَّة عالِم، وجدال منافق بالقرآن، والتكذيب بالقَدَر».

وأما حديث معاذ فرواه الطبراني في معجمَيْه الصغير[٢] والأوسط[٣] من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ عنه رفعه: «إني أخاف عليكم ثلاثًا وهن كائنات: زَلَّة عالِم، وجدال منافق بالقرآن، ودنيا تُفتَح عليكم». ورواه في الأوسط[٤] من رواية عمرو بن مُرَّة عن معاذ رفعه: «إياكم وثلاثة: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن ...» الحديث، ثم فسَّرها[٥]، وعمرو بن مرة لم يسمع من معاذ، وذكره الدارقطني في العلل[٦] من رواية عبد الله بن سَلِمة - بكسر اللام - عن معاذ رفعه قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم ثلاث: جدال منافق بالقرآن، وزلة عالم، ودنيا تقطع أعناقكم». وأعلَّه ابن الجوزي في «العلل المتناهية»[٧] براويه المذكور. قال الدارقطني: وقد وقفه شعبة [وغيره][٨] عن عمرو بن مرة. يعني علىٰ معاذ. قال: والوقف هو الصحيح.

وأما حديث عمر فرواه أحمد[٩] من رواية أبي عثمان النهدي عنه بلفظ: «إن أخوف ما أخاف علىٰ هذه الأمَّة كل منافق عليم اللسان». وقد ذكره المصنف فيما

(١) مسند الشاميين ٣/ ٢٦٤.
(٢) المعجم الصغير ٢/ ١٨٦.
(٣) المعجم الأوسط ٦/ ٣٤٢.
(٤) المعجم الأوسط ٨/ ٣٠٧.
(٥) بقوله: «فأما زلة عالم فإن اهتدىٰ فلا تقلدوه دينكم، وإن زل فلا تقطعوا عنه آمالكم، وأما جدال منافق بالقرآن فإن للقرآن منارا كمنار الطريق، فما عرفتم فخذوه، وما أنكرتم فردوه إلىٰ عالمه، وأما دنيا تقطع أعناقكم فمن جعل الله في قلبه غنىٰ فهو الغني».
(٦) العلل للدارقطني ٦/ ٨١.
(٧) العلل المتناهية ١/ ١٣٩.
(٨) زيادة من علل الدارقطني.
(٩) مسند أحمد ١/ ٢٨٩، ٣٩٩.

تقدم موقوفًا علىٰ عمر. قال الدارقطني[١]: والموقوف أشبه بالصواب.

قلت: حديث عمر هذا رواه عبد بن حميد[٢] وأبو يعلىٰ مرفوعًا بلفظ: «إنما أخاف عليكم كل منافق عليم يتكلم بالحكمة ويعمل بالجور». ورواه[٣] إسحاق بن راهويه والحارث بن أبي أسامة ومسدَّد بسند صحيح عن عبد الله بن بُرَيدة أن وفدًا قَدِموا علىٰ عمر، فقال لآذِنه ... فساق الحديث، وهو طويل، وفي آخره: ثم قال عمر: عهد إلينا رسولُ الله ﷺ: «إن أخوف ما أخشىٰ عليكم منافق عليم اللسان». واللفظ لمسدَّد، ثم رواه مسدد موقوفًا من طريق أبي عثمان النهدي: سمعت عمر بن الخطاب يقول وهو علىٰ المنبر منبر رسول الله ﷺ أكثر من أصابعي هذه: إن أخوف ما أخاف علىٰ هذه الأمة المنافق العليم. قيل: وكيف يكون منافقًا عليمًا يا أمير المؤمنين؟ قال: عالم اللسان، جاهل القلب [والعمل][٤]. وقال حمَّاد: وقال ميمون الكردي عن أبي عثمان عن عمر نحوه.

وروىٰ إسحاق في مسنده من رواية حماد عن أبي سُوَيد عن الحسن قال: لمَّا قدم أهل البصرة علىٰ عمر فيهم الأحنف بن قيس سرَّحهم وحبسه عنده، ثم قال: أتدري لِمَ حبستك؟ إن رسول الله ﷺ حذَّرنا كل منافق عالم اللسان، وإني أتخوَّف أن تكون منهم، وأرجو أن لا تكون منهم [فافزع من صعبك][٥] والحق بأهلك.

ثم قال العراقي: وأما حديث عليّ فرواه الطبراني في الصغير[٦] والأوسط[٧]

---

(١) العلل ٢/ ٢٤٧.

(٢) المنتخب من مسند عبد بن حميد ١/ ٦٢.

(٣) إتحاف الخيرة المهرة للبوصيري ١/ ٣٢٤، ٩/ ٤٨٤ - ٤٨٥.

(٤) زيادة من إتحاف الخيرة.

(٥) زيادة من إتحاف الخيرة.

(٦) المعجم الصغير ٢/ ٢٠٠.

(٧) المعجم الأوسط ٧/ ١٢٨.

من رواية الحارث الأعور عنه رفعه: «إني لا أتخوَّف علىٰ أمتي مؤمنًا ولا مشركًا، أما المؤمن فيحجزه إيمانُه، وأما المشرك فيقمعه كفره، ولكني أتخوَّف عليهم منافقًا عالِم اللسان، يقول ما تعرفون، ويعمل ما تنكرون». وقال: لا يُروَىٰ عن علي إلا بهذا الإسناد، والحارث الأعور ضعيف.

قلت: لكن وثَّقه ابن حبان[1].

وكذلك رواه[2] إسحاق بن راهويه في مسنده بسند ضعيف؛ لجهالة التابعي، ورواه أيضًا من طريق إسحاق الفَرَوي - وهو ضعيف - عن سعيد بن المسيَّب قال: قال رجل بالمدينة في حلقة: أيُّكم يحدِّثني عن رسول الله ﷺ حديثًا؟ فقال علي: أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول ... فذكره، وفيه: ولكن رجلاً بينهما يقرأ القرآن، حتىٰ إذا ذلق به يتأوَّله علىٰ غير تأويله، فقال ما تعملون، وعمل ما تنكرون، فضلَّ وأَضَلَّ.

ثم قال العراقي: وأما حديث عمران بن حُصَين فرواه أحمد[3] وابن حبان[4] من رواية عبد الله بن بُرَيدة عنه رفعه بلفظ: «أخوف ما أخاف علىٰ أمتي كل منافق عليم اللسان». اللفظ لأحمد، وقال ابن حبان: جدال المنافق عليم اللسان. وذكر الدارقطني في العلل[5] أنه رواه عن معاذ بن معاذ عن حسين المعلِّم عن ابن بُرَيدة عن عمران رفعه، قال: ووهم فيه. قال: ورواه عبد الوهاب بن عطاء وروح بن عُبادة وغيرهما عن حسين عن ابن بريدة عن عمر، وهو الصواب في قصة طويلة.

---

(١) الثقات لابن حبان ٤/ ١٢٧.

(٢) إتحاف الخيرة المهرة ١/ ٣٢٥.

(٣) لم أقف عليه في مسند أحمد. وقد رواه من هذا الطريق أيضـًا الطبراني في المعجم الكبير ١٨/ ٢٣٧، والبيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٢٧٢.

(٤) صحيح ابن حبان ١/ ٢٨١.

(٥) العلل للدارقطني ٢/ ١٧٠.

قال العراقي: وهو عند ابن حبان من رواية خالد بن الحارث عن حسين المعلِّم مثل رواية معاذ.

قلت: تقدمت رواية ابن بُرَيدة عن عمر، وهكذا رواه إسحاق بن راهويه والحارث ومسدَّد.

(**ومنها**) أي ومن العلامات المميِّزة بين علماء الدنيا والآخرة: (**أن تكون عنايته**) وهمَّته (**بتحصيل العلم النافع في الآخرة**) لا غير، وكذلك العلم (**المرغِّب في الطاعات**) حالةَ كونه (**مجتنبًا للعلوم التي يقل نفعُها**) ولا يُحتاج إليها في أكثر الحالات (**و**) هي العلوم التي (**يكثر فيها الجدالُ**) والخصومات (**والقيل والقال**) حتىٰ يؤدي إلىٰ تمزيق الثياب والمسافهة والمصافعة بالأكُفِّ والنعال (**فمثال مَن يُعرِض عن علم الأعمال ويشتغل**) عنها (**بالجدال**) وعلم القيل والقال (**مثل رجل مريض به عللٌ كثيرة وقد صادف**) أي وجد (**طبيبًا حاذقًا**) أي ماهرًا بفنِّه (**في وقت ضيق يخشىٰ فواته**) بسفر أو غيره (**فاشتغل بالسؤال عن**) مسائل، مثل (**خاصية العقاقير والأدوية**) أي مفرداتها (**وغرائب الطب**) ونوادره التي لا يحتاج إليها (**وترك مهمه الذي هو**) مقصود له و(**مؤاخَذ به**) لدفع علله (**وذلك محض السفه**) وعين الحماقة، وقلة الإدراك في تصوُّره (**وقد رُوي أن رجلاً جاء إلىٰ رسول الله ﷺ فقال له: علِّمْني من غرائب العلم. فقال له: ما صنعتَ في رأس العلم؟ فقال: وما رأس العلم؟ فقال له ﷺ: هل عرفتَ الرب سبحانه؟ قال: نعم. قال: فما صنعتَ في معرفته؟ قال: ما شاء الله. فقال ﷺ: هل عرفتَ الموت؟ قال: نعم. قال: فما أعددت له؟ قال: ما شاء الله. قال ﷺ: اذهب فأحكِمْ ما هناك ثم تعالَ نعلِّمك من غرائب العلم**) قال العراقي: رواه أبو بكر ابن السنِّي وأبو نعيم كلٌّ واحد في كتابه «رياضة المتعلمين»، وابن عبد البر في بيان العلم[1] من رواية خالد بن أبي كريمة عن عبد الله بن المسور قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله،

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٦٩١.

أتيتك لتعلِّمني من غرائب العلم ... فذكره، وهو مرسَل ضعيف جدًّا، قال ابن أبي حاتم[١]: عبد الله بن مسور بن عبد الله بن عون بن جعفر بن أبي طالب الهاشمي المدائني، سألت أبي عنه فقال: الهاشميون لا يعرفونه، وهو ضعيف الحديث، يحدِّث بمراسيل لا يوجد لها أصل في أحاديث الثقات. وقال أحمد بن حنبل: أحاديثه موضوعة، كان يضع الحديث ويكذب.

قلت: وفي الديوان للذهبي[٢]: عبد الله بن مساور تابعي مجهول. وأما الراوي عنه خالد بن أبي كريمة فمن رجال النسائي وابن ماجه، وُثِّق[٣]، وقال أبو حاتم[٤]: ليس بالقوي.

ثم إنه قد يكون المراد بغرائب العلم: الأحاديث الغرائب التي لا خير في روايتها، وقد ورد عن جماعة من العلماء كراهية الاشتغال بها، وذهاب الأوقات في طلبها، فقد أخرج الخطيب في «مناقب شرف أصحاب الحديث»[٥] له من طريق محمد بن جابر عن الأعمش عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون غريب الكلام وغريب الحديث.

وأخرج من طريق بشر بن الوليد قال: سمعت أبا يوسف يقول: لا تكثروا من الحديث الغريب الذي لا يجيء به الفقهاء، وآخر أمر صاحبه أن يقال له كذَّاب.

وأخرج من طريق المروزي قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: تركوا

---

(١) الجرح والتعديل ٥/ ١٦٩.

(٢) ديوان الضعفاء والمتروكين ص ٢٢٨.

(٣) ذكره ابن حبان في الثقات ٦/ ٢٦٢.

وقال الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٦٣٩: «خالد بن أبي كريمة، أصبهاني نزل الكوفة، وثقه أحمد وأبو داود، وقال النسائي: ليس به بأس، وقال ابن معين: ضعيف الحديث».

(٤) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣/ ٣٤٩.

(٥) شرف أصحاب الحديث ص ١٢٥ - ١٢٦.

الحديث وأقبلوا علىٰ الغرائب، ما أقل الفقه فيهم!

فعُلم من ذلك أن السؤال في غرائب الكلام والحديث مذموم، والمَدار علىٰ معرفة رأس العلم الذي هو معرفة الله سبحانه ثم ثم.

(**بل ينبغي أن يكون المتعلم**) في العلم (**من جنس ما رُوي عن حاتم**) بن علوان (**الأصم تلميذ شقيق**) بن إبراهيم (**البلخي**) الزاهد، رحمهما الله تعالىٰ (**أنه قال له شقيق: منذ كم صحبتني**)؟ أي في السلوك (**قال حاتم: منذ ثلاث وثلاثين سنة. قال: فما تعلَّمتَ مني في هذه المدة؟ قال: ثمان مسائل. قال شقيق: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، ذهب عمري معك ولم تتعلم إلا ثمان مسائل! قال: يا أستاذ، لم أتعلم غيرها، وإني لا أحب أن أكذب**) في قولي (**فقال**) شقيق: (**هاتِ هذه الثمان مسائل حتىٰ أسمعها. قال حاتم: نظرت إلىٰ هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوبًا**) له (**فهو مع محبوبه إلىٰ القبر، فإذا وصل إلىٰ القبر فارقه**) ورجع إلىٰ ما فيه (**فجعلتُ الحسنات محبوبي**) وهي الأعمال الصالحة (**فإذا دخلت القبر دخل محبوبي معي**) فهي لا تفارقني دنيا وأخرىٰ (**فقال: أحسنت يا حاتم، فما الثانية؟ فقال: نظرت في قول الله** عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١] **فعلمت أن قوله سبحانه وتعالىٰ هو الحق، فأجهدت نفسي**) وكلَّفتها (**في دفع الهوىٰ**) المذكور في الآية (**حتىٰ استقرَّت**) وثبتت (**علىٰ طاعة الله تعالىٰ**) واطمأنَّت بها (**الثالثة: أنِّي نظرت إلىٰ هذا الخلق فرأيت كل مَن معه شيء له قيمة ومقدار**) عنده (**رفعه**) في أحسن المحل (**وحفظه**) وصانه عن وصول اليد إليه (**ثم نظرت إلىٰ قول الله تعالىٰ**: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾) أي يفرغ (﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]) أي لا يفنىٰ ولا ينفد (**فكلما وقع معي شيء له**) عندي (**قيمة ومقدار وجَّهتُه إلىٰ الله**) ذخيرةً (**ليبقَىٰ عنده محفوظًا. الرابعة: أني نظرت إلىٰ هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع**) في الكرم (**إلىٰ المال**) فيقتنيه ويضنُّ به (**وإلىٰ الحسب**) فيفتخر به. وفي نسخة: والنسب والشرف

(فنظرت فيها فإذا هي لا شيء، ثم نظرت إلىٰ قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]) وعرفت سرَّه (فعملت في التقوىٰ حتىٰ أكون عند الله كريمًا) وفي نسخة: شريفًا كريمًا (الخامسة: أني نظرت إلىٰ هذا الخلق وهم يطعن بعضهم في بعض) بذكر المعايب والمخازي (ويلعن بعضهم بعضًا، وأصل هذا كله الحسد، ثم نظرت إلىٰ قول الله عز وجل: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢] فتركت) ما هو سبب لذلك وهو (الحسد، واجتنبت الخلق، وعلمت أن القسمة من عند الله سبحانه وتعالىٰ، فتركت عداوة الخلق عني، السادسة: نظرت إلىٰ هذا الخلق يبغي بعضهم علىٰ بعض) بالتعدِّي (ويقاتل بعضهم بعضًا) علىٰ حب المال والجاه والرياسة (فرجعت إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] فعاديته وحده) إذ هو رأس الأعداء، وأصل كل بلاء (واجتهدت في أخذ حذري منه) واتَّقيته (لأن الله تعالىٰ شهد عليه) في كتابه العزيز (أنه عدوٌّ لي، فتركت عداوة الخلق غيره) وسلمت من شره (السابعة: نظرت إلىٰ هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكِسْرة) من الخبز (فيذل نفسه) في تحصيلها (ويدخل فيما لا يحل له) الدخولُ فيه (ثم نظرت إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] فعلمت) أن الله قد تكفَّل بالرزق، و(أني واحد من هذه الدواب التي علىٰ الله رزقُها، فاشتغلت بما لله تعالىٰ عليَّ) من الائتمار بأوامره، والانتهاء عن مَناهيه (وتركت ما لي عنده) فاسترحت (الثامنة: نظرت إلىٰ هذا الخلق فرأيت كل واحد) منهم (متوكلًا) ومستندًا (علىٰ مخلوق، هذا علىٰ ضيعته) أي قريته التي يستغل منها الرزق (وهذا علىٰ تجارته، وهذا علىٰ صناعته، وهذا علىٰ صحة بدنه) فيشتغل بالأجرة (وكل مخلوق متوكل علىٰ مخلوق مثله) معتمد عليه في حوائجه ومهمَّاته (فرجعت إلىٰ قوله عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]) أي كافيه عن غيره (فتوكلت علىٰ الله عز وجل فهو حسبي) وتركت التوكل علىٰ المخلوق (قال شقيق: يا حاتم، وفَّقك الله تعالىٰ، فإني نظرت في علوم التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم فوجدت جميع أنواع

الخير والديانة، وهم يدورون) وفي نسخة: فهي تدور **(علىٰ هذه الثمان مسائل، فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة)** هكذا أورده المصنف بهذا السياق، وساقها أبو نعيم في الحلية(١) في ترجمة حاتم الأصم بما يخالفه، قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، حدثنا عبد الله ابن محمد بن زكريا، حدثنا أبو تراب قال: قال شقيق لحاتم الأصم: مذ أنت صحبتني، أيَّ شيء تعلمتَ؟ قال: ست كلمات. قال: ما أولهن؟ قال: رأيت كل الناس في شك من أمر الرزق، وإني توكلت علىٰ الله تعالىٰ، قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فعلمت أني من هذه الدواب واحد، فلم أشغل نفسي بشيء قد تكفَّل لي به ربي. قال: أحسنت، فما الثانية؟ قال: رأيت لكل إنسان صديقًا يفشي إليه سره، ويشكو إليه أمره، فقلت: أنظر مَن صديقي، فكل صديق راح رأيته قبل الموت، فأردت أن أعد(٢) صديقًا يكون لي بعد الموت، فصادقت الخير ليكون معي إلىٰ الحساب، ويكون معي علىٰ الصراط(٣)، ويثبِّتني بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ. قال: أصبت، فما الثالثة؟ قال: رأيت كل الناس لهم عدوٌّ، فقلت: أنظر مَن عدوِّي، فأما مَن اغتابني فليس هو عدوي، وأما مَن أخذ مني شيئًا فليس هو عدوي، ولكن عدوي الذي إذا كنت في طاعة الله أمرني بمعصية الله، فرأيت ذلك إبليس وجنوده، فاتخذتهم عدوًّا، فوضعتُ الحرب بيني وبينهم، ووترت قوسي، ووصلت سهمي، فلا أدعه يقربني. قال: أحسنت، فما الرابعة؟ قال: رأيت كل الناس لهم طالب، كل واحد منهم [يومًا] واحدًا، فرأيت ذلك مَلَك الموت، ففرَّغت له نفسي، حتىٰ إذا جاء لا ينبغي أن أمسكه فأمضي معه. قال: أحسنت، فما الخامسة؟ قال: نظرت في هذا الخلق فأحببت واحدًا وأبغضت واحدًا، فالذي أحببته لم يعطني، والذي أبغضته لم يأخذ مني شيئًا، فقلت: من أين أتيت هذا؟ فرأيت أني أتيت هذا من قِبَل الحسد، فطرحت الحسد من قلبي،

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ٧٩ - ٨٠.

(٢) في الحلية: أتخذ.

(٣) في الحلية: ويجوز معي إلىٰ الصراط.

فأحببت الناس كلهم، فكل شيء لم أرضَه لنفسي لم أرضه لهم. قال: أحسنت، فما السادسة؟ قال: رأيت الناس كلهم لهم بيت ومأوىٰ، ورأيت مأواي القبر، فكل شيء قدرت عليه من الخير قدَّمته لنفسي حتىٰ أعمِّر قبري؛ فإن القبر إذا لم يكن عامرًا لم يستطع القيام فيه. فقال شقيق: عليك بهذه الخصال الستة فإنك لا تحتاج إلىٰ علم غيره. انتهىٰ.

(**فهذا الفن**) والنوع (**من العلم**) إنما (**لا يهتم بإدراكه**) ويقوم بأَوَد تحصيله (**والتفطُّن له**) والانصباغ به (**إلا علماء الآخرة**) كحاتم وأضرابه (**فأما علماء الدنيا فيشتغلون بما يتيسَّر به اكتساب المال والجاه**) والرياسة (**ويُهمِلون**) أي يتركون (**أمثال هذه العلوم**) النفيسة (**التي بعث الله بها الأنبياء**) والرسل (**كلَّهم عليهم**) الصلاة و(**السلام**).

وقال الضحَّاك بن مُزاحِم) الهلالي، أبو القاسم - ويقال: أبو محمد - الخراساني، صدوق، كثير الإرسال، مات بعد المائة[1] (**أدركتُهم وما يتعلم بعضهم من بعض إلا الورع**) المراد عصر الصحابة؛ فإن الضحاك تابعي (**وهم اليوم ما يتعلمون إلا الكلام**) ويتركون السؤال عن الورع. وهذا القول أورده صاحب القوت[2].

(**ومنها**) أي ومن علامات علماء الآخرة: (**أن يكون غير مائل إلىٰ الترفُّه في المطعم والمشرب**) فيعطي للنفس منه مُناها (**و**) لا (**التنعُّم في الملبس**) بأن يلبس رقاق الثياب ورفيعها وما يُشار إليها بالبنان (**و**) لا (**التجمُّل في الأثاث**): فرش البيت (**والمسكن**) بسعته ورفعة بنائه، وكذا التجمُّل في المركب، وقد نُهي عن كلِّ من ذلك (**بل يؤثِر**): يختار (**الاقتصاد**) أي التوسط (**في جميع ذلك، ويتشبَّه**

(١) تقريب التهذيب ص ٤٥٩.

(٢) قوت القلوب ١/ ١٧٢، ٢٣٩.

فيه بالسلف) الصالحين (رحمهم الله تعالىٰ، ويميل) فيه (إلىٰ الاكتفاء بالأقل في جميع ذلك) فهذه علامة علماء الآخرة، وقد أشار لذلك القطب سيدي علي وفا في بعض مؤلَّفاته، وبيَّن الاقتصاد في كل ذلك، وزاد فأفاد، قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: يكفيك من الغذاء ما تَهُن لتركه القُوَىٰ، ومن الملبس ما لا يسفِّهك به العاقل ولا يزدريك به الغافل[٢]، ومن المركب ما حمل رحلك وأراح رِجْلك ولا يُزدرَىٰ بركوبه مثلك، ومن المسكن ما واراك عمَّن لا تريده أن يراك، ومن الحلائل الودود الولود، ومن الخدم الأمين المطيع، ومن الأصحاب من يعينك علىٰ كمالك في جميع أحوالك، ومن الأدب ما يقيك غضب الكريم والعالِم وجراءة اللئيم والظالم، ومن العلم ما طابق الذوقَ الصحيح، ومن الاعتقاد ما يعينك[٣] علىٰ طاعة المعتقد من غير اعتراض[٤]، ومن معرفة الحق ما أسقط اختيارك لغيره، ومن معرفة الباطل ما يمنعك من اختياره، ومن المحبة ما حقَّقك بإيثار محبوبك علىٰ من سواه، ومن حُسن الظن بالخَلْق ما لا يُقبَل معه سوء التأويل ولا قول العائب بغير دليل، ومن الحذر ما يمنع من مراكنة تجرُّ إلىٰ مباينة، ومن الظن بالله ما لا يجرُّ إلىٰ معصيته[٥] ولا يؤيِّس من رحمته، ومن اليقين ما يُعصَم به من صرف وجه الطلب عن حيرة، ومن التوحيد ما لا يبقَىٰ معه أثرٌ لغيره، ومن الفكر ما وصل إلىٰ فهم مراده [ومن النظر في آلائه ما تتسع به روح وداده][٦] ومن الخواطر ما بعث علىٰ تعظيم ما عظَّم وهضم ما هضم،

---

(١) أورده الشعراني في ترجمته من الطبقات الكبرىٰ ٢/ ٣١ وأوله: «وكان يقول: فضل العقول في ترك الفضول، وهي كل ما فضل عن الكفاية، وهي محسوس ومعقول، وكل مقصود غير ضروري فهو من الفضول، وكل وسيلة لا يحصل مقصودها الضروري بدونها فليس من الفضول في شيء، ويكفيك من الغذاء ما يقوِّيك علىٰ ما أمرك الله به. وكان يقول: يكفيك من الملبس ...» الخ.

(٢) في الطبقات: الجاهل.

(٣) في الطبقات: ما بعثك.

(٤) في الطبقات: إعراض.

(٥) في الطبقات: ما لا يجرئ علىٰ معصيته.

(٦) زيادة من الطبقات.

وقد وضَّحتُ لك الأنوار، فإن شئتَ فاقتبِسْ، وقد بيَّنت[1] الأصول فافهم الجامع، واتقِ[2] المانع، ثم قِسْ. انتهىٰ.

أوردته بتمامه تبرُّكًا به، وإن كانت الأنفاس متفاوتة، لكن المآل إلىٰ واحد.

(**وكلما ازداد إلىٰ طرف القلة**) من جميع ذلك (**منزلةً**) وفي نسخة: ميله (**ازداد من الله سبحانه قُرْبةً**) ومرتبة (**وارتفع في علماء الآخرة درجة**) وفضيلة (**ويشهد لذلك ما حُكي عن أبي عبد الله الخَوَّاص**) فيما أخرجه أبو نعيم في الحلية[3] في ترجمة حاتم، ومن طريقه أخرجه الشهاب السهروردي بطوله في «عوارف المعارف»[4]، قال أبو نعيم: حدثنا محمد بن أحمد بن محمد، حدثنا العباس ابن أحمد الشاشي، حدثنا أبو عقيل الرَّصافي، حدثنا أبو عبد الله الخَوَّاص (**وكان من أصحاب حاتم الأصم**) وتلامذته (**قال: دخلت مع**) أبي عبد الرحمن (**حاتم إلىٰ الري**) وهي من أكبر مدن خراسان[5] (**ومعنا ثلثمائة وعشرون رجلاً نريد الحج**) إلىٰ بيت الله الحرام (**وعليهم**) الصوف و(**الزُّرَنْبانِقات**) بضم الزاي وفتح الراء وسكون النون وبعد الموحدة المفتوحة ألف ثم نون مكسورة ثم قاف، هي الجُبَب من الصوف[6] (**وليس معهم شراب ولا طعام**) أي علىٰ قدم التوكل (**فدخلنا**) الري، فدخلنا (**علىٰ رجل من التجار متقشِّف يحب المساكين**) ونص الحلية:

---

(١) في الطبقات: ثبتت.

(٢) في الطبقات: وانفِ.

(٣) حلية الأولياء ٨/ ٨٠ - ٨٣. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٤) عوارف المعارف ص ٢٨.

(٥) وهي الآن مدينة صغيرة تقع علىٰ بعد ٦ كم جنوب شرق طهران عاصمة إيران، وتعد من أشهر الأماكن الأثرية والسياحية في إيران.

(٦) في تاج العروس ٢٥/ ٤٠٢ ما نصه: «الزرمانقة، بالضم: جبة من صوف؛ نقله الجوهري، ومنه الحديث: أن موسىٰ ﷺ لما أتىٰ فرعون أتاه وعليه زرمانقة. يعني جبة صوف. قال أبو عبيد: أراها عبرانية، والتفسير هو في الحديث، ويقال: هو فارسي معرب: أشتر بانه، أي متاع الجمَّال، كما في الصحاح، وفي النهاية: أي متاع الجمل».

متنسِّك يحب المتقشِّفين (**فأضافنا تلك الليلة، فلما كان من الغد قال لحاتم**): يا أبا عبد الرحمن (**ألك حاجة؟ فإني أريد أن أعود فقيهًا**) أي عالمًا (**لنا**) أي في بلدنا (**هو عليل**) أي مريض (**فقال حاتم: عيادة المريض فيها فضل**) ونص الحلية: فقال حاتم: إن كان لكم فقيه عليل فعيادة الفقيه لها فضل (**والنظر إلىٰ الفقيه عبادةٌ**) أما عيادة المريض فقد ورد في فضلها أحاديث تدل علىٰ فضلها، وكون النظر إلىٰ الفقيه عبادة لأنه يذكر الله عَزَّوَجَلَّ (**وأنا أيضًا أجيء معك. وكان**) ذلك (**العليل محمد بن مقاتل**) الرازي (**قاضي الري**) حدَّث عن وكيع ومحمد ابن الحسن وجرير وأبي معاوية وغيرهم، روىٰ عنه عيسىٰ بن محمد المروزي وأحمد بن عيسىٰ الأشعري ومحمد بن علي الحكيم الترمذي وغيرهم، وهو ضعيف، سمع منه البخاري ولم يحدِّث عنه، فروىٰ الخليلي في الإرشاد[1] من طريق صهيب بن سُلَيم: سمعت البخاري يقول: حدثنا محمد بن مقاتل. فقيل له: الرازي؟ فقال: [ويحك] لأنْ أخرَّ من السماء إلىٰ الأرض أحب إليَّ من أن أحدِّث عن محمد بن مقاتل الرازي. ذكره الخطيب في «المتفق والمفترق»[2]، وأورده الحافظ في التقريب[3] لأجل التمييز بينه وبين محمد بن مقاتل المروزي. فقال التاجر: سِرْ بنا يا أبا عبد الرحمن (**فلما جئنا إلىٰ الباب**) أي باب محمد بن مقاتل (**فإذا هو يشرق حسنه**) وفي نسخة: فإذا هو مشرق حسن. وهكذا هو نص الحلية (**فبقي حاتم متفكِّرًا يقول: يا رب، باب عالِم علىٰ هذه الحال. ثم أذن لهم فدخلوا، فإذا دار حسناء قوراء**) أي واسعة (**نَزِهة، وإذا بَزَّة**) حسنة (**وأمتعة**) وفي الحلية: ومنعة (**وستور**) وجمع (**فبقي حاتم متفكِّرًا**) من هذه الحالة (**ثم دخلوا إلىٰ المجلس الذي هو فيه، وإذا بفُرُش وطيئة**) أي ليِّنة (**و**) إذا (**هو راقد عليها**) أي علىٰ تلك الفُرُش (**وعند رأسه غلام**) أي وضيء الوجه

---

(١) الإرشاد في معرفة علماء الحديث ٣/ ٩٠٥. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٢) المتفق والمفترق ٣/ ١٨٧٤.

(٣) تقريب التهذيب لابن حجر ص ٨٩٨.

(وبيده مِذَبَّة) بكسر الميم، وهي المروحة (فقعد الزائر) وهو التاجر (عند رأسه) وسلَّم (وسأل عن حاله، وحاتم) الأصم (قائم) لم يقعد (فأومأ إليه ابن مقاتل أن اجلس) وفي الحلية: اقعد (فقال: لا أجلس) وفي الحلية: لا أقعد (فقال) ابن مقاتل: (لعل لك حاجة. فقال: نعم. قال: وما هي؟ قال: مسألة أسألك عنها. قال: سَلْ) وفي الحلية: سَلْني (قال: نعم، فاستوِ جالسًا) وفي الحلية: فأمر غلمانه فأسندوه (حتىٰ أسألك. فاستوىٰ جالسًا. قال) وفي الحلية: فقال له (حاتم: علمُك هذا من أين أخذته)؟ وفي الحلية: من أين جئت به؟ (فقال: من الثقات) وفي الحلية: قال: الثقات (حدَّثوني به. قال: عمَّن؟ قال: عن أصحاب رسول الله ﷺ. قال: وأصحاب رسول الله ﷺ أخذوه عمَّن؟ قال: عن رسول الله ﷺ. قال: ورسول الله ﷺ عمَّن؟ قال: عن جبريل عليه السلام عن الله سبحانه وتعالىٰ) وفي الحلية: ورسول الله ﷺ من أين جاء به؟ قال: عن جبريل (قال حاتم: ففيما أدَّاه جبريل عن الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ، وأداه رسول الله ﷺ إلىٰ أصحابه، وأداه أصحابه إلىٰ الثقات، وأداه الثقات إليك؟ هل سمعت فيه) وفي الحلية: في العلم (من كان في داره أميرًا) وفي نسخة: من كانت داره دار أمير (وكانت سعتها أكثر كانت له عند الله عز وجل المنزلة أكبر؟ قال: لا. قال: فكيف سمعتَ؟ قال: سمعت أنه مَن زهد في الدنيا ورغب في الآخرة وأحب المساكين وقدَّم لآخرته كانت له عند الله المنزلة أكبر. قال له حاتم: فأنت بمن اقتديت أبالنبي ﷺ وأصحابه والصالحين أمْ بفرعون ونمروذ أول مَن بنىٰ بالجِصِّ والآجُرِّ) إذ قال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾ [غافر: ٣٦] (يا علماء السوء، مَثَلكم يراه الجاهل المكبُّ) وفي نسخة: المتكالب (علىٰ الدنيا) وفي نسخة: الطالب للدنيا (الراغب فيها، فيقول العالِم: علىٰ هذه الحالة أفلا أكون أنا شرًّا منه) قال هذا الكلام (وخرج من عنده، فازداد ابن مقاتل مرضًا) علىٰ مرضه (وبلغ أهل الري ما جرىٰ بينه وبين ابن مقاتل، فقالوا له): يا أبا عبد الرحمن (إن الطَّنَافِسِيَّ) بفتح الطاء والنون وكسر الفاء والسين، نسبةً إلىٰ بيع الطَّنْفُسة (بقزوين) بينها وبين الري سبعة

وعشرون فرسخًا[١]، والمنسوب هكذا عبيد بن أبي أمية الكوفي الحَنَفي مولاهم، حدَّث، وأولاده أبو حفص عمر المتوفى سنة سبع وثمانين ومائة وأبو عبد الله محمد الأحدب ويَعْلَىٰ وإبراهيم وإدريس حدَّثوا، قال الدارقطني[٢]: كلهم ثقات. ولعل المراد من النسبة المذكورة أحد أولاد عبيد ممَّن تولَّىٰ قضاء قزوين، وأكبر ظني أنه محمد الأحدب، فقد كان بقزوين، وروىٰ عنه من أهلها عمرو بن رافع[٣] وغيره (**أكثر شأنًا منه**) أي من قاضي الري. قال: (**فسار حاتم**) إليه (**متعمِّدًا**) أي قاصدًا لنصحه (**فدخل عليه فقال: رحمك الله، أنا رجل أعجمي، أحب أن تعلمني مبتدأ ديني ومفتاح صلاتي وكيف أتوضأ للصلاة. قال: نعم وكرامة**) لعينيك (**يا غلام، هاتِ إناء فيه ماء. فأتىٰ به**) فأتاه فيه ماء (**فقعد الطنافسي، فتوضأ ثلاثًا ثلاثًا، ثم قال**): يا هذا (**هكذا فتوضأ. فقال حاتم: مكانك**) يرحمك الله (**حتىٰ أتوضأ بين يديك فيكون أوكد لما أريد. فقام الطنافسي**) من موضعه (**وقعد حاتم، فتوضأ**) ثلاثًا ثلاثًا (**ثم غسل**) وفي الحلية: حتىٰ إذا بلغ غسل (**الذراعين**) غسل (**أربعًا أربعًا، فقال**) له: (**الطنافسي: يا هذا، أسرفت. قال له حاتم: في ماذا؟ قال: غسلت ذراعيك أربعًا. فقال حاتم: يا سبحان الله العظيم! أنا في كف من ماء أسرفت وأنت في جميع هذا كله لم تسرف**)؟! وفي الحلية: وأنت في هذا الجمع كله لم تسرف. وهكذا هو في نسخة أيضًا (**فعلم الطنافسي أنه قصد ذلك دون التعلُّم**) وفي الحلية: أنه أراده بذلك لم يُرِد أن يتعلم منه شيئًا (**فدخل**) إلىٰ (**البيت فلم يخرج إلىٰ الناس أربعين يومًا**) كأنه وجد لقوله تأثيرًا عظيمًا في قلبه فرجع إلىٰ حال نفسه. قال أبو نعيم: فكتب [إلىٰ] تجار الري وقزوين بما جرىٰ بينه وبين ابن مقاتل والطنافسي

---

(١) وهي الآن عاصمة محافظة قزوين في إيران، وتبعد حوالي ١٣٥ كم غرب مدينة طهران، وتقع بين سلسلة جبال ألبرز، وبها العديد من الآثار التاريخية. أسسها شابور ذو الأكتاف تاسع ملوك الساسانيين، وفتحها المسلمون بقيادة البراء بن عازب في سنة ٢٢ هـ.

(٢) تاريخ بغداد ٣/ ٦٣٨.

(٣) في المطبوعة: محمد بن رافع. والتصويب من تهذيب الكمال ٢٦/ ٥٥.

(فلما دخل حاتم بغداد اجتمع عليه) وفي نسخة: إليه (أهل بغداد فقالوا: يا أبا عبد الرحمن، أنت رجل ألكن أعجمي، وليس يكلمك أحد إلا قطعتَه) أي أسكته (قال: معي ثلاث خصال بهنَّ أظهر) أي أغلب (علىٰ خصمي) قالوا: أيُّ شيء هي؟ قال: (أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ نفسي أن لا أجهل) وفي الحلية: أن لا أتجهَّل (عليه. فبلغ ذلك الإمام أحمد بن حنبل) رحمه الله (فقال: يا سبحان الله! ما أعقله)! ثم قال لأصحابه: (قوموا بنا) حتىٰ نسير (إليه. فلما دخلوا عليه قال له: يا أبا عبد الرحمن، ما السلامة من الدنيا؟ قال) حاتم: (يا أبا عبد الله) يعني به الإمام أحمد (لا تَسْلَم من الدنيا حتىٰ يكون معك أربع خصال) قال: أيُّ شيء هي يا أبا عبد الرحمن؟ قال: (تغفر للقوم من جهلهم) ولفظ الحلية: للقوم جهلهم. وهكذا في نسخة أيضًا (وتمنع جهلك عنهم) ومنه قول عنترة[1]:

ألا لا يجهلنَّ أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

(وتبذل لهم شيئك) أي تعطيهم ممَّا ملكت يداك من المال وغيره (وتكون من شيئهم) مما في أيديهم (آيسًا) غير طامع فيه (فإذا كنت هكذا سَلِمت) وفي نسخة: فإذا كان هكذا سلمت. ومثله في الحلية. إلىٰ هنا سياق «عوارف المعارف».

قال أبو نعيم: (ثم سار) حاتم من بغداد (إلىٰ المدينة) المشرَّفة علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والسلام (فاستقبله أهل المدينة، فقال) لمَّا نظر إلىٰ أبنيتها وقصورها: (يا قوم، أيَّة مدينة هذه)؟ وفي الحلية: أيُّ مدينة هذه؟ (قالوا: مدينة رسول الله ﷺ. قال: فأين قصر رسول الله ﷺ حتىٰ أصلي فيه)؟ وفي الحلية: فأصلي فيه ركعتين (قالوا: ما كان له قصر، إنما كان له بيت لاطئ بالأرض) أي لاصق بها (قال: فأين قصور أصحابه) بعده؟ (قالوا: ما كان لهم قصور، إنما كان لهم بيوت لاطئة

(١) كذا نسب الشارح هذا البيت لعنترة بن شداد، وهو خطأ، فالمعروف أن قائل هذا البيت هو عمرو ابن كلثوم التغلبي، وهو في ديوانه ص ٧٨ (ط - دار الكتاب العربي ببيروت) من قصيدة طويلة هي إحدىٰ المعلقات السبع المشهورة في الأدب العربي.

بالأرض. فقال حاتم: يا قوم، فهذه مدينة فرعون) وجنوده؛ لكون فرعون أول من طبخ الطين وعمل الآجُرَّ وبنىٰ الصرح. وأخرج أبو نعيم[1] في ترجمة ابن عيينة قال: بلغ عمر أن رجلاً بنىٰ بالآجُرِّ، فقال: ما كنت أحسب أن في هذه الأمة مثل فرعون. قال: يريد قوله: ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ [غافر: ٣٦] و﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ [القصص: ٣٨]. وأخرج أيضًا في ترجمته من رواية إسحاق بن إبراهيم قال: سمعت سفيان يقول: بلغني أن الدجَّال يسأل [عن] بناء الآجُرِّ هل ظهر بعد؟ **(فأخذوه وذهبوا به إلىٰ السلطان)** أي الأمير الذي يتولاَّها من طرف الخليفة **(وقالوا: هذا الأعجمي يقول: هذه مدينة فرعون)** وجنوده **(قال الوالي)** المذكور لحاتم: **(ولِمَ ذاك؟ قال حاتم: لا تعجل عليَّ، أنا رجل أعجمي غريب، دخلت البلد)** وفي الحلية: المدينة **(فقلت: مدينة مَن هذه؟ فقالوا: مدينة رسول الله ﷺ، فقلت: أين)** وفي الحلية: قلت فأين **(قصره)** حتىٰ أصلي فيه؟ فقالوا: ما كان له قصر **(وقصَّ القصة)** أي أوردها بتمامها **(ثم قال)** حاتم: **(ولقد قال الله تعالىٰ:** ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] **فأنتم بمَن تأسَّيتم)**؟ أي اقتديتم **(أبرسول الله ﷺ)** وأصحابه **(أمْ بفرعون)**؟ وفرعون **(أول مَن بنىٰ بالجِص والآجُرِّ)** فأسكتهم **(فخلَّوا عنه وتركوه)** وفي الحلية: وعرفوه، بدل: وتركوه.

(فهذه حكاية حاتم الأصم) وزاد أبو نعيم بعد قوله «وعرفوه» ما نصه: فكان حاتم كلما دخل المدينة يجلس عند قبر النبي ﷺ يحدِّث ويدعو، فاجتمع علماء المدينة فقالوا: تعالوا حتىٰ نخجله في مجلسه، فجاءوه ومجلسه غاصٌّ بأهله، فقالوا: يا أبا عبد الرحمن، مسألة نسألك. قال: سلوا. قالوا: ما تقول في رجل يقول اللهم ارزقني؟ قال حاتم: متىٰ طلب هذا العبد الرزق في الوقت أمْ قبل الوقت؟ قالوا: ليس نفهم هذا يا أبا عبد الرحمن. قال: إن كان هذا العبد طلب الرزق من ربه في وقت الحاجة فنعم وإلا فأنتم عندكم حرث ودراهم في أكياسكم، وطعام في

---

(١) حلية الأولياء ٧/ ٣٠٤ - ٣٠٥.

منازلكم، وأنتم تقولون: اللهم ارزقنا، قد رزقكم الله، فكلوا، وأطعِموا إخوانكم، حتىٰ إذا بقيتم ثلاثًا[١] فاسألوا الله حتىٰ يعطيكم، أنت عسىٰ تموت غدًا وتخلف هذا علىٰ الأعداء، وأنت تسأله أن يرزقك زيادة. فقال [علماء] أهل المدينة: نستغفر الله يا أبا عبد الرحمن، إنما أردنا بالمسألة تعنُّتًا.

قال القشيري في الرسالة[٢]: لم يكن حاتم أصم، وإنما تصامَمَ مرةً فسُمِّي به، سمعت الأستاذ أبا علي الدقَّاق يقول: جاءت امرأة فسألت حاتمًا عن مسألة، فاتفق أنه خرج منها في تلك الحالة صوت، فخجلت، فقال حاتم: ارفعي صوتك، فأرىٰ من نفسه أنه أصم، فسُرَّت المرأة بذلك وقالت: إنه لم يسمع الصوت، فغلب عليه اسم الأصم.

(**وسيأتي من سيرة السلف**) الصالحين وطريقتهم التي سلكوها (**في البذاذة**) هي رثاثة الهيئة (**وترك التجمُّل**) في سائر الأسباب الضرورية (**ما يشهد لذلك**) أي لِما ذكرناه (**في مواضعه**) من هذا الكتاب علىٰ حسب المناسبات (**والتحقيق فيه أن التزيُّن بالمباح ليس بحرام**) وذلك عامٌّ في كل المأكل والملبس والمسكن، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ الآية [الأعراف: ٣٢] (**ولكن الخوض فيه يوجب الأُنس به**) والميل إليه (**حتىٰ يشق تركُه**) ويصعب هجرُه؛ لتمرُّن النفس عليه حتىٰ تصير عادة غير منفكَّة، وتركُ العادة صعب، وأصل الزينة: تحسين الشيء بغيره من لبسته أو حليته أو هيئته[٣]. وقال الراغب[٤]: الزينة الحقيقية ما لا يشين الإنسانَ في شيء من أحواله، لا في الدنيا ولا في الآخرة، أما ما يَزِينه في حالة دون حالة فهو من وجهٍ شينٌ، وهي علىٰ ثلاثة أقسام: نفسية وبدنية وخارجية، الأولىٰ كالعلم

(١) في الحلية: حتىٰ قالها ثلاثا.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٦٨.

(٣) نظم الدرر للبقاعي ٩/ ٢٥٢.

(٤) المفردات في غريب القرآن ص ٢١٨.
وانظر: عمدة الحفاظ للسمين الحلبي ٢/ ١٥٨.

والاعتقادات الحسنة، والثانية كالقوة وطول القامة وحُسن الوسامة، والثالثة كالمال والجاه، والآية محمولة على القِسم الأخير **(واستدامة الزينة)** على الوجه الذي يرومها المزين **(لا تمكن)** ولا تُتصوَّر **(إلا بمباشرة أسباب)** وأمور خارجية **(في الغالب يلزم من مراعاتها)** والالتفات إليها **(ارتكابُ)** أنواع **(المعاصي من)** أكبرها **(المداهنة)** في الحق **(و)** منها **(مراعاة الخَلْق)** في أحوالهم اجتماعًا وافتراقًا **(ومُراءاتهم)** في أحواله؛ ليكون معظَّمًا عندهم **(وأمور أُخَر هي محظورة)** شرعًا **(والحزم)** كلَّ الحزم **(اجتناب ذلك)** التزيُّن الذي يؤدي إلى ما ذُكر، والعَوْد إلى الاقتصاد، فبه يملك رأس الأمر **(لأن مَن خاض في الدنيا)** وآثَرَ أسبابَها واشتغل بها **(لا يَسْلَم منها ألبتة)** فلا بد لوازن العسل من لعق الأصابع **(و)** اعلم أنه **(لو كانت السلامة)** منها **(مبذولة)** أي حاصلة **(مع الخوض فيها لكان النبي ﷺ أَولى بذلك، وكان لا يبالغ في ترك الدنيا)** ورفض أسبابها **(حتى نزع القميص المطرَّز بالعَلَم)** أي المعلَّم بعَلَم. قال العراقي: المعروف نزعُه للخميصة المعلَّمة.

قلت: إطلاق القميص على الخميصة مجاز؛ فإن القميص هو الثوب المَخِيط بكُمَّينِ غير مفرَّج يُلبَس تحت الثياب، ولا يكون من الصوف غالبًا، والخميصة: كساء أسود مربَّع له عَلَمانِ؛ فإن لم يكن معلمًا فليس بخميصة، كما قاله الجوهري[١]، وكانت من لباس الناس قديمًا.

قال العراقي: حديث الخميصة أخرجه البخاري[٢] ومسلم[٣] وأبو داود[٤]

---

(١) الصحاح للجوهري ٣/ ١٠٣٨.

زاد الزبيدي في تاج العروس ١٧/ ٥٦٦: «وقيل: الخمائص: ثياب من خز ثخان سود وحمر، ولها أعلام ثخان أيضا».

(٢) صحيح البخاري ١/ ١٤١، ٤/ ٥٩.

(٣) صحيح مسلم ١/ ٢٥٠.

(٤) سنن أبي داود ٢/ ٢٤.

والنسائي في الكبرىٰ[(١)] وابن ماجه[(٢)] من رواية الزهري [عن عروة][(٣)] عن عائشة ﷺ قالت: صلىٰ رسول الله ﷺ في خميصة لها أعلام، فنظر إلىٰ أعلامها نظرةً، فلما سلَّم قال: «اذهبوا بخميصتي هذه إلىٰ أبي جَهْم؛ فإنها ألهتني آنفًا عن صلاتي، وائتوني بأنبجانية أبي جهم بن حذيفة». لفظ البخاري.

قلت: رويناه في أول الحربيات من حديث سفيان بن عيينة عن الزهري وهشام بن عروة، كلاهما عن عروة به.

(ونزع خاتم الذهب) ونبذه (في أثناء الخطبة) قال العراقي: رواه ابن عمر وابن عباس؛ أما حديث ابن عمر فأخرجه الأئمة الستة إلا ابن ماجه[(٤)]، فاتفق عليه الشيخان والنسائي من رواية الليث، ورواه البخاري من رواية جويرية، ومسلم والترمذي من رواية موسىٰ بن عقبة، ثلاثتهم عن نافع أن عبد الله بن عمر حدَّثه أن النبي ﷺ اصطنع خاتمًا من ذهب، وجعل فَصَّه في بطن كفِّه إذا لبسه، فاصطنع الناس خواتيم من ذهب، فرقىٰ المنبر فحمد الله وأثنىٰ عليه فقال: «إني كنت اصطنعته، وإني لا ألبسه». فنبذه فنبذ الناسُ. لفظ رواية البخاري من رواية جويرية عن نافع، واتفقا عليه وأبو داود والنسائي من رواية عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر دون ذِكر المنبر، وكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي من رواية أيوب بن موسىٰ عن نافع، والبخاري من طريق مالك، والنسائي من رواية إسماعيل بن جعفر، كلاهما عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر دون ذكر المنبر.

وأما حديث ابن عباس فرواه النسائي[(٥)] من رواية سليمان الشيباني عن سعيد

---

(١) السنن الكبرىٰ للنسائي ١/ ٢٩٦، ٤١٥. وهو أيضاً في السنن الصغرىٰ ص ١٢٨.

(٢) سنن ابن ماجه ٥/ ١٨٧.

(٣) زيادة من مصادر التخريج السابقة.

(٤) صحيح البخاري ٤/ ٦٨، ٧٠، ٢١٩، ٣٦٣. صحيح مسلم ٢/ ١٠٠٥. سنن أبي داود ٤/ ٤٦٦. سنن الترمذي ٣/ ٣٥٢. سنن النسائي ص ٧٨١، ٧٩٤.

(٥) سنن النسائي ص ٧٩٦.

ابن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ اتخذ خاتمًا فلبسه، قال: «شغلني هذا عنكم منذ اليوم، إليه نظرةٌ، وإليكم نظرة» ثم ألقاه.

(إلىٰ غير ذلك مما سيأتي بيانه) في أثناء هذا الكتاب **(وقد حُكي أن يحيىٰ بن يزيد)** بن عبد الملك بن المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم **(النوفلي)** المدني، روىٰ عن أبيه، أورده الحافظ الذهبي في الميزان[1] وقال: قال أبو حاتم[2]: منكَر الحديث. وقال ابن عدي[3]: الضعف علىٰ أحاديثه [بيِّنٌ]. وأورد أباه كذلك وقال[4]: روىٰ عن المقبري ويزيد بن رومان، وعنه ابنه يحيىٰ وعبد العزيز الأويسي وخالد بن مخلد، ضعَّفه أحمد وغيره، وقال أبو زُرْعة[5]: ضعيف. وقال ابن عدي[6]: عامَّة ما يرويه غير محفوظ. وقال النسائي[7]: متروك الحديث. مات سنة خمس وستين ومائة **(كتب إلىٰ)** الإمام **(مالك بن أنس)** رحمه الله تعالىٰ، تقدمت ترجمته، والمكتوب ما نصه: **(بسم الله الرحمن الرحيم، وصلىٰ الله علىٰ رسوله سيدنا محمد سيد الأوَّلين والآخِرين. من يحيىٰ بن يزيد ابن عبد الملك إلىٰ مالك بن أنس، أما بعد: فقد بلغني)** عنك **(أنك تلبس الدِّقاق)** أي الثياب الرفيعة، وهي دق الثياب من كتَّان وقطن، ولو رُوي بالراء لكان له معنًىٰ **(وتأكل الرُّقاق)** بالضم، أي

---

(١) ميزان الاعتدال ٤/ ٤١٤.

(٢) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٩/ ١٩٨ ونصه: «سألت أبي عنه فقال: منكر الحديث، لا أدري منه أو من أبيه، لا ترىٰ في حديثه حديثًا مستقيمًا، وسئل عنه أبو زرعة فقال: لا بأس به، إنما الشأن في أبيه، بلغني عن أحمد بن حنبل أنه قال: يحيىٰ بن يزيد لا بأس به، ولم يكن عنده إلا حديث أبيه، ولو كان عنده غير حديث أبيه لتبين أمره».

(٣) الكامل في الضعفاء ٧/ ٢٧٠٣. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٤) ميزان الاعتدال ٤/ ٤٣٣.

(٥) في كتاب الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٩/ ٢٧٩: «سئل أبو زرعة عن يزيد بن عبد الملك النوفلي فقال: منكر الحديث».

(٦) الكامل في الضعفاء ٧/ ٢٧١٧.

(٧) الضعفاء والمتروكون للنسائي ص ٢٥٤.

الخبز المرقَّق الذي عُجن من دقيق منخول (وتجلس علىٰ الوطيء) أي الفرش الليِّن (وتجعل علىٰ بابك حاجبًا) لا يَدَع الناسَ من الدخول عليك إلا بإذن (و) الحال أنك (قد جلست مجلس العلم) تنشره للناس وتفيده (وقد ضُربت إليك المطيُّ) أي بأكبادها (وارتحل إليك الناس) لأخذِ العلم (واتخذوك إمامًا) وقدوة في دينهم (ورضوا بقولك) الذي تذهب إليه (فاتقِ الله) في نفسك (يا مالك، وعليك بالتواضع) وقد (كتبت إليك بالنصيحة مني كتابًا) هو هذا الكتاب (ما اطَّلع عليه إلا الله تعالىٰ) وهكذا تكون النصائح إذا كانت لله تعالىٰ لا لغرض ولا علَّة (والسلام) عليك (فكتب إليه مالك) لأن من السنَّة رد جواب الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم، من مالك بن أنس إلىٰ يحيىٰ بن يزيد، سلام الله عليك، أما بعد، فقد وصل إليَّ كتابك) فقرأته (فوقع مني موقع النصيحة والإشفاق والأدب) أي مع الله تعالىٰ (أمتعك الله بالتقوىٰ) أي أطال إيناسك به (وجزاك بالنصيحة) في الله (خيرًا، وأسأل الله تعالىٰ التوفيق) أي لمرضاته (ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فأما ما ذكرتَ لي) أي في كتابك (أني آكل الرُّقاق وألبس) الثياب (الدقاق، وأحتجب) عن الناس (وأجلس علىٰ) الفرش (الوطيء، فنحن نفعل ذلك) أي يصدر منا ذلك أحيانًا من غير تصميم عليه (ونستغفر الله تعالىٰ) من ذلك كله (فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ) في كتابه العزيز: (﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾) [الأعراف: ٣٢] وقد استُدلَّ بهذه الآية علىٰ قول الأصوليين: إن الأصل في المنافعِ الإباحةُ، وفي المَضارِّ التحريمُ؛ فإنه يدل علىٰ الذم بسبب تحريم زينة الله المُخرَجة لعباده، وإذا ورد الذم علىٰ التحريم لم يكن حرامًا فيكون مباحًا، والمراد من الطيبات: ما يُستطاب طبعًا، وهو النافع، فيكون مباحًا، وليس المراد منها الحلال وإلا لزم التكرار[1] في قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة:

---

(١) قال الفخر الرازي في كتاب المحصول في علم الأصول ٦/ ١٠٢ - ١٠٣ (ط - مؤسسة الرسالة) ما نصه: «أنكر الله تعالىٰ علىٰ من حرم زينة الله، فوجب أن لا تثبت حرمة زينة الله، وإذا لم تثبت حرمة زينة الله امتنع ثبوت الحرمة في كل فرد من أفراد زينة الله؛ لأن المطلق جزء من المقيد، فلو ثبتت=

٥] قاله القزويني[١] في شرح المنهاج (**وإني لأعلم**) يقينًا (**أن ترك ذلك**) جملةً (**خيرٌ من الدخول فيه**) والركون إليه (**ولا تَدَعنا**) أي لا تهملنا (**من كتابك**) أي من إرساله إلينا (**فلسنا ندعك**): نتركك (**من كتابنا، والسلام**) هذا آخر الجواب.

(**فانظر**) وتأمل (**إلىٰ إنصاف**) الإمام (**مالك**) وأدبه مع الله تعالىٰ (**إذ اعترف**) بما نُسب إليه، ولو كُتب هذا إلىٰ أقل علماء زماننا بأقل من ذلك لاشمأزَّ واحتدَّ غضبًا ولم يردَّ الجواب، فقال من جملة اعترافه: (**أن ترك ذلك خير من الدخول فيه، وأفتىٰ بأنه مباح**) أي مما أباح الله به لعباده، وليس هو في حد المحرَّمات (**وقد صدق**) رحمه الله تعالىٰ (**فيهما جميعًا**) أي في الإباحة المفهومة من نص الآية الشريفة، وفي أولويَّة تركِ الخوض والدخول في العلائق الدنيوية وإن كانت مباحة (**ومثل مالك**) وناهيك به (**في منصبه إذا سمحت نفسُه بالإنصاف**) منها (**والاعتراف**) بالانكسار (**في مثل هذه النصيحة**) المفيدة (**فتقوىٰ أيضًا نفسُه علىٰ الوقوف علىٰ حدود المباح**) فلا يتجاوزها (**حتىٰ لا يحمله ذلك علىٰ المُراءاة**) مع الخَلْق (**والمداهنة**) في الحق (**و**) علىٰ (**التجاوز**) منها (**إلىٰ**) الوقوع في (**المكروهات**) لعلوِّ مقامه، واستغراقه في حضرة الحق سبحانه (**وأما غيره فلا يقدر عليه**) فإن مَن حامَ حول الحِمَىٰ يوشك أن يقع فيه (**فالتعريج**) أي الميل (**علىٰ التنعُّم في المباح**) والوقوف عليه (**خطر عظيم**) ووبال جسيم إلا مَن عصمه الله وأيَّده بالتوفيق، وكُحلت بصيرته بالتأييد (**وهو بعيد من**) مقامَي (**الخوف**) من الله (**والخشية**) له (**وخاصيَّة علماء الله تعالىٰ**) التي لا تنفكُّ عنهم في حال من الأحوال (**الخشية**) إذ هي ثمرة علمهم بالله تعالىٰ (**وخاصية الخشية التباعُد من مَظانِّ الخطر**) والاقتصار علىٰ أقل الضرورات، وهو

= الحرمة في فرد من أفراد زينة الله تعالىٰ لثبتت الحرمة في زينة الله تعالىٰ، وذلك علىٰ خلاف الأصل وإذا انتفت الحرمة بالكلية ثبتت الإباحة، وليس المراد من الطيب الحلال وإلا لزم التكرار، فوجب تفسيره بما يستطاب طبعا، وذلك يقتضي حل المنافع بأسرها».

(١) هو الإمام محمد بن طاهر القزويني، واسم شرحه: سراج العقول إلىٰ منهاج الأصول للبيضاوي، كما في كشف الظنون ٢/ ١٨٨٠.

مقام النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، ففي الحديث: «لا يكون العبد من المتَّقين حتىٰ يَدَع ما لا بأس به مخافةَ ما به بأس»[1].

وفي تاريخ الذهبي[2]: قال إسماعيل بن أبي أُوَيس: كتب عبد الله بن عبد العزيز العُمَري إلىٰ مالك وابن أبي ذئب وغيرهما بكتب أغلظ لهم فيها وقال: أنتم علماء تميلون إلىٰ الدنيا، وتلبسون الليِّن، وتدَّعون التقشُّف. فكتب له ابن أبي ذئب كتابًا أغلظ له، وجاوبه مالك جواب فقيه.

(**ومنها**) أي ومن العلامات اللازمة لعلماء الآخرة: (**أن يكون متقبضًا عن**) مخالطة (**السلاطين**) ومَن في معناهم من الأمراء والحكام (**بل لا يدخل عليهم ألبتة**) أي بوجه من الوجوه (**ما دام يجد إلىٰ الفرار عنهم سبيلاً**) ومَخْلَصًا ومَمْكنًا (**بل ينبغي أن يحترز عن مخالطتهم**) ومخاللتهم (**وإن جاءوا إليه**) أي لزيارته (**فإن الدنيا حلوة خضرة**) نضرة (**وزمامها**) في الحقيقة (**بأيدي السلاطين**) إذ هم حياتها، وإليهم مآلها (**والمخالط لهم لا يخلو عن تكلُّف في طلب مرضاتهم**) كما هو مشاهَد (**واستمالة قلوبهم**) إليه بما أمكن (**مع أنهم ظَلَمة**) علىٰ رقابهم مظالم العِباد، وظلموا نفوسهم بارتكاب المحظورات (**ويجب علىٰ كل متديِّن**) أي متقيِّد بالدين (**الإنكارُ عليهم**) بلسانه وقلبه (**وتضييق قلوبهم بإظهار ظلمهم وتقبيح فعلهم**) تصريحًا إن أمكن، كما فعله أبو حازم حين دخل علىٰ سليمان بن عبد الملك وعنده الزهري[3]، وكما فعله شقيق حين جاءه هارون الرشيد زائرًا[4]، فإن

---

(١) تقدم هذا الحديث في الباب الثاني.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي ١٢/ ٢١٤.

(٣) ستأتي حكاية أبي حازم مع سليمان قريبا.

(٤) ذكر الغزالي في كتابيه التبر المسبوك في نصيحة الملوك ص ١٩، والمستظهري في فضائح الباطنية ص ٢١٣ (ط - مؤسسة دار الكتب الثقافية بالكويت) أن شقيق بن إبراهيم البلخي دخل علىٰ هارون الرشيد، فقال له: أنت شقيق الزاهد؟ فقال: أنا شقيق ولست بزاهد. فقال له: أوصني. فقال: إن الله تعالىٰ قد أجلسك مكان الصديق، وإنه يطلب منك مثل صدقه، وإنه أعطاك موضع عمر بن =

لم يتمكَّن من التصريح فالتعريض (**فالداخل عليهم**) في مجالسهم لا يخلو (**إما أن يلتفت إلىٰ تجمُّلهم**) وتزيُّنهم في الملابس والفرش والستور فينخزل باطنًا، وتميل نفسه إلىٰ حصول مثل ذلك أو بعضه (**فيزدري**) أي يستحقر (**نعمة الله**) عَزَّوَجَلَّ التي أنعمها (**عليه، أو يسكت عن الإنكار عليهم**) مع وجوبه (**فيكون مداهنًا لهم**) بسكوته (**أو يتكلَّف في كلامه**) الذي يورده (**طلبًا لمرضاتهم وتحسين حالهم، وذلك هو البهت الصريح**) والافتراء الخالص (**أو أن يطمع في أن ينال**) ويصيب (**من دنياهم**) التي بأيديهم (**وذلك هو السحت**) أي الحرام الخالص، وقد يجتمع بعضَ الأحيان في بعض الأشخاص من الذين يداخلونهم من هذه الأوصاف خمسة اثنان وثلاثة وأكثر وأقل. وعلىٰ كل حال، تقرُّب السلاطين نار محرقة إن لم تحترق تكون تحت رقٍّ (**وسيأتي في كتاب الحلال والحرام**) في أثناء هذا الكتاب (**ما يجوز أن يؤخذ من أموال السلاطين وما لا يجوز من الأدرار**) أي الوظائف والجرايات (**والجوائز**) أي العطايا (**وغيرها**) كإلباس الخُلَع والتشاريف (**وعلىٰ الجملة**) مع قطع النظر عن التفصيل (**فمخالطتهم مفتاح للشرور**) وأصل أصيل للوقوع في النكد والغرور (**وعلماء الآخرة طريقتهم الاحتياط**) أي الأخذ بالأحوط في أمور دينهم ودنياهم، كيف (و) قد (**قال ﷺ: مَن بدا جفا - يعني من سكن البادية جفا - ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتىٰ السلطان افتتن**) لأنه إن وافقه علىٰ مَرامه فقد خاطَرَ بدينه، وإن

= الخطاب الفاروق، وإنه يطلب منك الفرق بين الحق والباطل مثله، وإنه أقعدك موضع عثمان بن عفان ذي النورين، وهو يطلب منك مثل حيائه وكرمه، وأعطاك موضع علي بن أبي طالب، وهو يطلب منك العلم والعدل كما يطلب منه. فقال له: زدني من وصيتك. فقال: نعم. اعلم أن الله تعالىٰ دارًا تعرف بجهنم، وأنه قد جعلك بواب تلك الدار، وأعطاك ثلاثة أشياء: بيت المال والسوط والسيف، وأمرك أن تمنع الخلق من دخول النار بهذه الثلاثة، فمن جاء محتاجـًا فلا تمنعه من بيت المال، ومن خالف أمر ربه فأدبه بالسوط، ومن قتل نفسًا بغير حق فاقتله بالسيف بإذن ولي المقتول، فإن لم تفعل ما أمرك فأنت الزعيم لأهل النار، والمتقدم إلىٰ دار البوار. فقال له: زدني. فقال: إنما مثلك كمثل معين الماء، وسائر العلماء في العالم كمثل السواقي، فإذا كان المعين صافيا لا يضر كدر السواقي، وإذا كان المعين كدرا لا ينفع صفاء السواقي.

خالفه فقد خاطر بروحه، وربما استخدمه فلا يَسْلَم من الإثم في الدنيا، والعقوبة في العقبىٰ. أخرجه الإمام أحمد(١) وأبو داود(٢) والترمذي(٣) والنسائي(٤) وابن ماجه(٥) والبيهقي في الشعب(٦) والطبراني في الكبير(٧) ومن طريقه أبو نعيم في الحلية(٨) وأبو قرة(٩)، كلهم من رواية سفيان عن أبي موسىٰ عن وهب بن منبه عن ابن عباس رفعه، ولفظهم كلهم ما عدا الترمذي: ومَن أتىٰ السلطانَ. والباقي سواء، ولفظ الترمذي: ومن أتىٰ أبواب السلطان، وقال: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث الثوري، وقال سفيان مرةً: لا أعلمه إلا عن النبي ﷺ.

وقال أبو نعيم في الحلية: أبو موسىٰ هو اليماني، لا نعرف له اسمًا.

وقال الذهبي في الميزان(١٠): شيخ يماني يُجهَل، ما روي عنه غير الثوري، ولعله إسرائيل بن موسىٰ، وإلا فهو مجهول.

ونقل المنذري في مختصر السنن: قال الكرابيسي: حديثه ليس بالقائم(١١).

---

(١) مسند أحمد ٥/ ٣٦١.

(٢) سنن أبي داود ٣/ ٣٩٠.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ١٠٧.

(٤) سنن النسائي ص ٦٦٣.

(٥) لم أقف عليه في سنن ابن ماجه.

(٦) شعب الإيمان ١٢/ ٢٧ من طريق إسماعيل بن أمية عن عطاء عن ابن عباس. وأخرجه في السنن الكبرىٰ ١٠/ ١٧٣ من طريق أبي موسىٰ عن وهب.

(٧) المعجم الكبير ١١/ ٥٧.

(٨) حلية الأولياء ٤/ ٧٢.

(٩) كذا في المطبوعة، ونص الحلية: رواه أبو نعيم - أي الفضل بن دكين الكوفي - وأبو قرة عن سفيان نحوه.

(١٠) ميزان الاعتدال ٤/ ٥٧٨.

(١١) انظر: عمدة القاري للعيني ٢١/ ١٣٨. فيض القدير للمناوي ٦/ ١٥٤. عون المعبود لشمس الحق العظيم آبادي ٨/ ٦١.

وفي الباب عن أبي هريرة والبراء بن عازب، ولفظ حديث أبي هريرة: مَن بدا فقد جفا. والباقي سواء، وزاد في آخره: وما ازداد أحد من السلطان قربًا إلا ازداد من الله بعدًا. رواه أبو يعلىٰ في مسنده وابن عدي في الكامل[١] وابن حبان في الضعفاء[٢]، كلهم من رواية الحسن بن الحكم النخعي عن عدي بن ثابت عن أبي حازم عن أبي هريرة، وضعَّفوه كالمنذري في مختصر السنن، ولكن حسَّنه العراقي، قال: وقد رواه أبو داود في رواية ابن داسة وابن العبد[٣] من طريق الحسن بن الحكم هذا، إلا أنه قال: عن عدي بن ثابت عن شيخ من الأنصار عن أبي هريرة بلفظ حديث وهب بن منبه عن ابن عباس، وقد رواه أيضًا أبو يعلىٰ في مسنده هكذا.

وأما حديث البراء فرواه أحمد[٤] مختصرًا من طريق شريك عن الحسن بن الحكم عن عدي بن ثابت عنه رفعه: مَن بدا جفا. وذكره الدارقطني في العلل[٥]

---

(١) الكامل في الضعفاء ١/ ٣١٢.

(٢) المجروحون لابن حبان ١/ ٢٧٨.

(٣) في هامش سنن أبي داود ٣/ ٣٩٠ قال المحقق محمد عوامة بعد تخريج حديث ابن عباس: «وبعد هذا الحديث حديث في (ب) وحاشية (ك) ولفظه: حدثنا محمد بن عيسىٰ، حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الحسن بن الحكم النخعي، عن عدي بن ثابت، عن شيخ من الأنصار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بمعنىٰ حديث مسدد، قال: ومن لزم السلطان افتتن. وزاد: وما ازداد عبد من السلطان دنوا إلا ازداد من الله بعدا. ونبه في حاشية (ك) إلىٰ أن المزي ذكره في التحفة وقال: هو في رواية أبي الحسن ابن العبد وأبي بكر ابن داسة، ولم يذكره أبو القاسم ابن عساكر».

(٤) مسند أحمد ٣٠/ ٥٨٤.

(٥) العلل للدارقطني ٨/ ٢٤٠ - ٢٤١ ونصه: «وسئل عن حديث روي عن أبي حازم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: من بدا جفا، ومن تبع الصيد غفل. فقال: يرويه الحسن بن الحكم النخعي، واختلف عنه فرواه إسماعيل بن زكريا عن الحسن بن الحكم النخعي عن عدي بن ثابت عن أبي حازم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، ورواه حاتم بن إسماعيل ويعلىٰ بن عبيد ويحيىٰ بن عيسىٰ الرملي عن الحسن ابن الحكم عن عدي بن ثابت عن شيخ من الأنصار عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ. وروي عن شريك عن الحسن بن الحكم عن عدي عن البراء، ثنا محمد بن القاسم بن زكريا ثنا عباد بن يعقوب ثنا شريك بذلك».

فقال: تفرَّد به شريك، واختُلف فيه علىٰ الحسن بن الحكم، فرواه شريك عنه هكذا، وخالفه إسماعيل بن زكريا فرواه عنه عن عدي بن ثابت عن أبي حازم عن أبي هريرة، كما تقدم، وخالفهما محمد بن عبيد الطنافسي فرواه عنه عن عدي بن ثابت عن شيخ من الأنصار لم يسمِّه.

قلت: وأخرجه العقيلي في الضعفاء والروياني[١] وسعيد بن منصور، كلهم عن البراء نحوه بزيادة: ومَن تبع الصيدَ غفل.

(وقال ﷺ: سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون، فمَن أنكر فقد برئ، ومَن كره فقد سَلِمَ، ولكن مَن رضي وتابَعَ أبعده الله تعالىٰ. قيل: أفلا نقاتلهم؟ قال ﷺ: لا، ما صلوا) قال العراقي: أخرجه مسلم[٢] وأبو داود[٣] والترمذي[٤] من رواية ضَبَّة بن محصن عن أم سلمة عن النبي ﷺ أنه قال ... واللفظ للترمذي، إلا أنه قال: أئمة، بدل: أمراء، ولم يقل: أبعده الله، وقال: حسن صحيح. وفي رواية لمسلم: «إنه يُستعمَل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمَن كره فقد برئ، ومَن أنكر فقد سَلِمَ». فذكره دون قوله: أبعده الله. وفيه: قالوا يا رسول الله، بدل: قيل. وفي رواية له: فمَن أنكر فقد برئ، ومَن كره فقد سَلِمَ. وفي رواية له: ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون، فمَن عرف برئ، ومَن أنكر سَلِمَ.

قلت: وأخرج ابن أبي شيبة[٥] عن عُبادة بن الصامت رفعه: «ستكون عليكم أمراء يأمرونكم بما تعرفون، ويعملون بما تنكرون، فليس لأولئك عليكم طاعة».

---

(١) مسند الروياني ١/ ٢٥٨ (ط - مؤسسة قرطبة بالقاهرة).

(٢) صحيح مسلم ٢/ ٨٩٩.

(٣) سنن أبي داود ٥/ ٢٥٣ - ٢٥٤.

(٤) سنن الترمذي ٤/ ١١٣.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٩٠.

وأخرجه ابن جرير والطبراني في الكبير[١] والحاكم[٢] عن عُبادة بن الصامت أيضًا، ولفظهم: «سيلي أمورَكم من بعدي رجال يعرِّفونكم ما تنكرون، وينكرون عليكم ما تعرفون، فمن أدرك ذلك منكم فلا طاعة لمن عصىٰ الله عَزَّوَجَلَّ».

وأخرج ابن ماجه[٣] وابن عساكر[٤] عن أبي هريرة رفعه: «سيكون بعدي خلفاء يعملون بما لا تعلمون، ويفعلون ما لا يؤمَرون، فمَن أنكر عليهم برئ، ومَن أمسك يده سَلِمَ، ولكن مَن رضي وتابَعَ».

(وقال سفيان) بن سعيد الثوري: **(في جهنم وادٍ لا يسكنه إلا القرَّاء الزَّوَّارون)** أي الكثيرو الزيارة **(للملوك)** أخرجه البيهقي[٥] عن بكر بن محمد العابد قال: سمعت سفيان الثوري يقول ... فذكره بلفظ: إن في جهنم لَجُبًّا تستعيذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة، أعدَّه الله للقرَّاء الزائرين للسلاطين.

وقد تقدَّم عن بكر بن خُنَيس ما يعضده.

وقال السيوطي في «ما رواه الأساطين من عدم المجيء إلىٰ السلاطين»[٦] ما نصه: وأخرج ابن عدي[٧] عن أبي هريرة رفعه: «إن في جهنم واديًا تستعيذ منه [النار] كل يوم سبعين مرة، أعدَّه الله للقرَّاء المُرائينَ بأعمالهم، وإن أبغض الخَلْق إلىٰ الله تعالىٰ عالِم السلطان».

---

(١) وأخرجه أيضًا في المعجم الأوسط ٣/ ١٩٠.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ٣/ ٤٣٦.

(٣) لم أقف عليه في سنن ابن ماجه. وقد أخرجه ابن حبان في صحيحه ١٥/ ٤١ - ٤٣.

(٤) تاريخ دمشق ٧/ ٢٢٣، ٣٦/ ٢١٤، ٦٣/ ٢٦٨.

(٥) شعب الإيمان ١٢/ ٦٣.

(٦) ما رواه الأساطين ص ٢٤. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٧) الكامل في الضعفاء ٢/ ٤٦٨. وفيه: تستعيذ منه جهنم. وفي آخره: عالم يزور السلطان أو العمال.
وفي رواية أخرىٰ له ٥/ ١٧٢٧: تعوذوا بالله من جب الحزن. قالوا: يا رسول الله، وما جب الحزن. قال: واد في جهنم يدخله القراء المراؤون، وأبغضهم إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ الزوار للأمراء.

(**وقال حذيفة**) بن اليمان رضي الله عنه فيما أخرجه أبو نعيم في الحلية[1] فقال: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي إسحاق، عن عمارة بن عبد، عن حذيفة قال: (**إيَّاكم ومواقف الفتن. قيل: وما هي**) يا أبا عبد الله؟ (**قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدهم**) ونص الحلية: أحدكم، ومثله في نسخة أخرىٰ (**علىٰ الأمير فيصدِّقه بالكذب ويقول ما ليس فيه**) وأخرجه كذلك البيهقي في الشعب[2] وابن أبي شيبة في المصنَّف[3].

(و) قد (**قال رسول الله ﷺ: العلماء أُمَناء الرسل علىٰ عباد الله تعالىٰ**) فإنهم[4] استودعوهم الشرائع التي جاءوا بها، وهي العلوم والأعمال، وكلَّفوا الخَلْق طلب العلم، فهم أمناء عليه وعلىٰ العمل به (**ما لم يخالطوا السلطان، فإن فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل**) في أماناتهم؛ لأن مخالطهم لا يَسْلَم من النفاق والمداهنة والإطراء في المدح، وفيه هلاك الدين (**فاحذروهم**) أي خافوا من شرِّهم (**واعتزلوهم**) أي تأهَّبوا لِما يبدو منهم من الشر (**رواه**) أبو جعفر العقيلي في الضعفاء في ترجمة حفص الآبري عن إسماعيل بن سميع الحنفي عن (**أنس**) عن النبي ﷺ، قال العقيلي: وحفص كوفي، حديثه غير محفوظ[5].

قال العراقي: وقد رواه الديلمي في مسند الفردوس[6] من طريق الحاكم ومن طريق أبي نعيم الأصبهاني من رواية إبراهيم بن رستم عن أبي حفص العبدي عن إسماعيل بن سميع عن أنس، وزاد بعد قوله «ما لم يخالطوا السلطان»: ويداخلوا الدنيا. وقال في آخره: فاحذروهم واخشوهم.

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٢٧٧.

(٢) شعب الإيمان ١٢/ ٣٣.

(٣) لم أقف عليه في مصنف ابن أبي شيبة، وقد رواه عبد الرزاق في مصنفه ١١/ ٣١٧.

(٤) فيض القدير ٤/ ٣٨٢.

(٥) لم أقف علىٰ علىٰ هذه الترجمة ولا علىٰ هذا الحديث في كتاب الضعفاء.

(٦) فردوس الأخبار ٣/ ١٠٠.

قلت: لفظ الحاكم: ويدخلوا في الدنيا، فإذا دخلوا في الدنيا وخالطوا السلطان. وفي آخره: فاعتزِلوهم.

وأخرجه الحسن بن سفيان في مسنده عن مخلد بن مالك عن إبراهيم بن رستم.

قال العراقي: ورواه ابن الجوزي في الموضوعات[١] من رواية إبراهيم بن رستم عن عمر بن حفص العبدي عن إسماعيل بن سميع، وقال: تابعه محمد ابن معاوية النيسابوري عن محمد بن يزيد عن إسماعيل. ثم قال: وأما عمر العبدي، [فقال أحمد بن حنبل: حرقنا حديثه. و] قال يحيىٰ: ليس بشيء، وقال النسائي: متروك[٢]. وأما إبراهيم بن رستم فقال ابن عدي[٣]: ليس بمعروف. ومحمد بن معاوية قال فيه أحمد: كذَّاب. إلىٰ هنا كلام ابن الجوزي.

قال العراقي: أما إبراهيم بن رستم فقال فيه عثمان بن سعيد الدارمي عن يحيىٰ بن معين أنه ثقة.

قال السيوطي[٤]: الحديث ليس بموضوع، وإبراهيم بن رستم معروف مروزي جليل، قال الحافظ ابن حجر في «لسان الميزان»[٥] عن أبي حاتم[٦]: [كان] يُذكَر بفقه[٧] وعبادة، ومحله الصدق. وذكره ابن حبان في الثقات[٨] وقال:

---

(١) الموضوعات ١/ ٢٦٣. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٢) في الضعفاء والمتروكين للنسائي ص ١٨٨: ليس بثقة.

(٣) الكامل في الضعفاء ١/ ٢٧٠.

(٤) اللآلئ المصنوعة ١/ ٢١٩.

(٥) لسان الميزان ١/ ٢٧٨ وفيه: «قال أبو حاتم: كان يرىٰ الإرجاء، ليس بذاك، محله الصدق. قال ابن أبي حاتم: قال أبي: كانت آفته الرأي، وكان يذكر بفقه وعبادة».

(٦) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢/ ٩٩.

(٧) في الجرح والتعديل: بستر.

(٨) الثقات ٨/ ٧٠.

يخطئ. وقال الدارقطني: مشهور، وليس بالقوي. وله طريق آخَر أخرجه الديلمي من رواية محمد بن النضر، حدثنا محمد بن يزيد بن سابق، حدثنا نوح بن أبي مريم، عن إسماعيل بن سميع. وقد ورد هذا الحديث بهذا اللفظ عن علي بن أبي طالب مرفوعًا، أخرجه العسكري، وورد موقوفًا علىٰ جعفر بن محمد، أخرجه أبو نعيم في الحلية، وله شاهد نحوه من حديث عمر بن الخطاب، أخرجه الديلمي في مسند الفردوس، وله شواهد بمعناه كثيرة صحيحة وحسنة فوق الأربعين حديثًا، وهذا الحديث الذي نحن في الكلام عليه يُحكَم له علىٰ مقتضىٰ صناعة الحديث بالحُسن. والله أعلم.

قلت: والموقوف الذي أخرجه أبو نعيم في الحلية[1] رواه من طريق هشام بن عَبَّاد قال: سمعت جعفر بن محمد يقول: الفقهاء أمناء الرسل، فإذا رأيتم الفقهاء قد ركنوا إلىٰ السلاطين فاتَّهموهم.

(**وقيل للأعمش**) وهو سليمان بن مِهْران الأسدي الكاهلي مولاهم، أبو محمد الكوفي، رأىٰ أنس بن مالك وأبا بكرة الثقفي وأخذ له بالرِّكاب فقال له: يا بنيَّ، إنما أكرمك ربك عَزَّوَجَلَّ. قال ابن معين: كل ما روىٰ الأعمشُ عن أنس فهو مرسَل. وقال عيسىٰ بن يونس: ما رأيت الأغنياء والسلاطين عند أحد أحقر منهم عند الأعمش مع فقره وحاجته. مات سنة ثمان وأربعين ومائة[2] (**لقد أحييتَ العلم لكثرة من يأخذه عنك**) أي: فيبقَىٰ في صدورهم فيُلقُونه إلىٰ من يأخذه عنهم (**فقال: لا تعجلوا، ثلث**) منهم (**يموتون قبل الإدراك**) أي قبل أن يدركوا ثمرة العلم التي هي العمل (**والثلث**) الثاني (**يلزمون أبوابَ السلاطين، فهم شرار الخلق، والثلث الباقي لا يفلح منه إلا القليل**) فأشار بقوله «فهم شرار الخلق» إلىٰ أن مخالطة السلاطين شر محض.

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ١٩٤.

(٢) تهذيب الكمال للمزي ١٢/ ٧٦ - ٩١.

وأخرج أبو نعيم في الحلية[١] من رواية أحمد بن شيبان قال: سمعت سفيان ابن عيينة يقول ونظر إلىٰ كثرة أصحاب الحديث: ثلث يتَّبعون السلطان، وثلث لا يفلحون، وثلث يموتون.

(**ولذلك قال**) أحد العلماء الأثبات (**سعيد بن المسيَّب**) بن حَزْن بن أبي وهب ابن عمرو بن عائذ بن عِمْران بن مخزوم القُرَشي المخزومي، قال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علمًا منه. مات بعد التسعين وقد ناهز الثمانين[٢] (**إذا رأيتم العالِم يغشىٰ**) أبواب (**الأمراء فاحترِزوا منه؛ فإنه لص**) بتثليث اللام، أي سارق محتال علىٰ اقتناء الدنيا وجذبها إليه من حرام وغيره كما يحاول السارق إخراج المتاع من الحرز. وهذا الذي ذكره المصنف عن سعيد بن المسيب قد ورد مرفوعًا عن أبي هريرة بلفظ: «إذا رأيتم العالِم يخالط السلطان مخالطة كثيرة فاعلمْ أنه لص». أخرجه الديلمي[٣]. أي قد سُلب وصف الأمانة، وكُسي ثوب الخيانة، فلا يؤتَمَن علىٰ أداء العلم الذي هو من أسرار الله تعالىٰ.

ويُروَىٰ عن سفيان الثوري: إذا رأيت القارئ يلوذ بالسلطان فاعلم أنه لص، وإذا رأيتَه يلوذ بالأغنياء فاعلم أنه مُراءٍ. أخرجه البيهقي[٤] عن يوسف بن أسباط قال: قال لي الثوري ... فذكره.

وأخرج أبو نعيم في الحلية[٥] من رواية محمد بن علي بن الحسين قال: قال عمر بن الخطاب: إذا رأيتم القارئ يحب الأغنياء فهو صاحب الدنيا، وإذا رأيتموه يلزم السلطان من غير ضرورة فهو لص.

---

(١) حلية الأولياء ٧/ ٢٨٨.

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر ٢/ ٤٣ - ٤٤.

(٣) فردوس الأخبار ١/ ٣٤٠.

(٤) شعب الإيمان ١٢/ ٣٦.

(٥) حلية الأولياء ٣/ ١٨٤ من قول محمد بن علي، ولعله سقط اسم عمر بن الخطاب من مطبوع الحلية.

(وقال) عبد الرحمن بن عمرو **(الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلىٰ الله تعالىٰ من عالِم يزور عاملاً)** أي من عمَّال الملوك، وشاهده من حديث أبي هريرة رفعه أخرجه ابن ماجه: «إن أبغض الخلق إلىٰ الله العالِم يزور العمَّال». وسيأتي في الذي بعده.

(وقال رسول الله ﷺ: شرار العلماء الذين يأتون الأمراء، وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء) قال العراقي: لم أرَه بهذا اللفظ، وروىٰ ابن ماجه[١] من رواية أبي معاذ البصري عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في أثناء حديث أوله: تعوَّذوا بالله من جُبِّ الحزن ... إلىٰ أن قال: وإن [من] أبغض القرَّاء إلىٰ الله الذين يأتون[٢] الأمراء. وأول الحديث عند الترمذي[٣] دون هذه الزيادة، إلا أنه قال: أبو مُعان، بالنون، وهو الصحيح. ثم قال: وروىٰ أبو بكر أحمد بن علي ابن لال الفقيه في كتاب «مكارم الأخلاق» من رواية عصام بن داود العسقلاني عن بُكَير بن شهاب الدامِغاني عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رفعه: «إن أبغض الخلق إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ العالِم يزور العمَّال».

قلت: وهكذا هو في مسند الفردوس للديلمي[٤] وتاريخ قزوين[٥] للرافعي، وأخرجه أبو الفتيان الحافظ في كتاب «التحذير من علماء السوء» بلفظ: «إن أهون الخَلْق علىٰ الله».

وفي هذا المعنىٰ قال حكيم من الحكماء - وسيأتي[٦] أنه محمد بن سلمة -:

---

(١) سنن ابن ماجه ١/ ٢٣٦.

(٢) في سنن ابن ماجه: يزورون.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ١٩١.

(٤) فردوس الأخبار ١/ ٢٦٤.

(٥) التدوين في أخبار قزوين ٣/ ٤٥١.

(٦) في كتاب الحلال والحرام.

الذباب علىٰ العَذِرة أحسن حالاً من العالِم علىٰ باب هؤلاء.

وقالوا: نعم الأمير علىٰ باب الفقير، وبئس الفقير علىٰ باب الأمير.

وقال أبو حازم فيما وعظ به سليمان بن عبد الملك[١]: إن بني إسرائيل لم يزالوا علىٰ الهدىٰ والتقىٰ حيث كان أمراؤهم يأتون إلىٰ علمائهم رغبةً في علمهم، فلما نكسوا وتعسوا وسقطوا من عين الله عَزَّوَجَلَّ وآمنوا بالجِبت والطاغوت كان علماؤهم يأتون إلىٰ أمرائهم فشاركوهم في دنياهم وشركوا [معهم] في فتنتهم. أورده أبو نعيم في الحلية[٢] في ترجمة أبي حازم.

وقال أيضًا بسنده إلىٰ يوسف بن أسباط[٣]: أخبرني مخبر أن بعض الأمراء أرسل إلىٰ أبي حازم فأتاه، وعنده الإفريقي والزهري وغيرهما، فقال له: تكلم يا أبا حازم. فقال أبو حازم: إن خير الأمراء مَن أحب العلماء، وإن شر العلماء مَن أحب الأمراء، وإنه كان فيما مضىٰ إذا بعث الأمراء إلىٰ العلماء لم يأتوهم، وإذا أعطوهم لم يقبلوا منهم، وإذا سألوهم لم يرخصوا لهم، وكان الأمراء يأتون العلماء في بيوتهم فيسألونهم، فكان في ذلك صلاح للعلماء وصلاح للأمراء، فلما رأىٰ ذلك ناس من الناس قالوا: ما لنا لا نطلب العلم حتىٰ نكون مثل هؤلاء؟ فطلبوا العلم، فأتوا الأمراء فحدَّثوهم فرخَّصوا لهم، وأعطوهم فقبلوا منهم، فخربت[٤] العلماء علىٰ الأمراء، وخربت الأمراء علىٰ العلماء.

(وقال) أبو عبد الله (مكحول الدمشقي) الفقيه: (**مَن تعلَّم القرآن وتفقَّه في الدين ثم صحب السلطان تملُّقًا إليه**) أي خضوعًا له (**وطمعًا لِما في يديه**) من المال وغيره (**خاض في بحر من نار جهنم بعدد خطاه**) جزاءً وِفاقًا.

---

(١) في المطبوعة: سليمان بن هشام، وهو خطأ.

(٢) حلية الأولياء ٣/ ٢٣٦.

(٣) السابق ٣/ ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٤) في الحلية: فجرثت، في الموضعين.

قلت: وهذا قد رُوي[1] مرفوعًا من حديث معاذ، أخرجه أبو الشيخ في كتاب «الثواب» له، وكذا الحاكم في تاريخه بلفظ: «إذا قرأ الرجل القرآن وتفقه في الدين ثم أتىٰ باب السلطان تملُّقًا إليه وطمعًا لِما في يديه خاض بقَدْر خطاه في نار جهنم». ولفظ الحاكم: ثم أتىٰ صاحبَ سلطان؛ كذا أفاده الجلال السيوطي.

(وقال) أبو الحسن، ويقال: أبو القاسم (سمنون) بن حمزة، تلميذ السري، ومات قبل الجنيد[2]، وفي كتاب السيوطي: وقال إسحاق، بدل: سمنون (**ما أسمج بالعالِم**) أي ما أقبح (**أن يؤتَىٰ إلىٰ مجلسه فلا يوجد**) فيه (**فيُسئل عنه فيقال: إنه عند الأمير. قال: وكنت أسمع أنه يقال: إذا رأيتم العالِم يحب الدنيا فاتهِموه علىٰ دينكم**) أي فإنه كالسارق المحتال علىٰ جمع الحُطام إلىٰ نفسه من حيث أمكن (**حتىٰ جرَّبت ذلك**) قال: (**وما دخلت قط علىٰ هذا السلطان إلا وحاسبت نفسي بعد الخروج**) من عنده في سائر أحوالها بالتدقيق (**فأرىٰ عليها الدرك**) أي في بعض أمرها (**وأنتم ترون ما ألقاه**) أي السلطان (**به من الغلظة**) في الكلام (**والفظاظة**) في الخُلُق (**وكثرة المخالفة لهواه**) أي لهوىٰ نفسه فيما يخالف ظاهر الشريعة (**ولوددت أن أنجو**) أي أخلُص (**من الدخول عليه كفافًا**) لا عليَّ ولا لي (**مع أني لا آخذ منه شيئًا**) من الأموال وغيرها (**ولا أشرب عنده شربة ماء**) فضلاً عن الأكل، أي فكيف حال الداخل إليه وهو يطمع في دنياه أو يتناول عنده شيئًا؟ وهكذا ساقه السيوطي، إلا أن في سياقه: حتىٰ جربَّت؛ إذ ما دخلت قط علىٰ هذا السلطان إلا وحاسبت. وفيه: مع ما أواجههم به من الغلظة والمخالفة لهواهم. والباقي سواء (**ثم قال: وعلماء زماننا شر من علماء بني إسرائيل**) فإنهم (**يخبرون السلاطين**) إذا سُئلوا في الواقعات (**بالرُّخَص**) والمساهلات (**وبما يوافق هواهم**) فيفتون لهم بذلك (**ولو أخبروهم بالذي عليهم وفيه نجاتهم**) من العذاب (**لاستثقلوهم وكرهوا دخولهم**

---

(١) ما رواه الأساطين للسيوطي ص ٣٠، ٣٨. كنز العمال ١٠/ ١٩٥، ٢٠٣.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٨٨ - ٨٩. طبقات الشعراني ١/ ٧٦.

عليهم، وكان ذلك نجاة لهم عند ربهم) حيث بلَّغوا ما أُمروا به.

وأخرج أبو نعيم في الحلية(١) في ترجمة أبي حازم ما نصه: قال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم: يا أبا حازم، ما تقول فيما نحن فيه؟ قال: أو تعفيني يا أمير المؤمنين. قال: بل نصيحة تلقيها إليَّ. قال: إن آباءك غصبوا الناس هذا الأمر فأخذوه عنوةً بالسيف من غير مشورة ولا اجتماع من الناس، وقد قتلوا فيه مقتلة عظيمة وارتحلوا، فلو شعرت ما قالوا وقيل لهم. فقال رجل من جلساء سليمان: بئسما قلتَ. قال أبو حازم: كذبتَ؛ فإن الله تعالىٰ أخذ علىٰ العلماء الميثاق ليبيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه.

وأخرج في ترجمة الفضيل(٢) من رواية إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: لأنْ يدنو الرجل من جيفة منتنة خير له من أن يدنو إلىٰ هؤلاء. يعني السلطان. وسمعته يقول: رجل لا يخالط هؤلاء ولا يزيد علىٰ المكتوبة أفضل عندنا من رجل يقوم بالليل ويصوم بالنهار ويحج ويعتمر ويجاهد في سبيل الله ويخالطهم.

(وقال الحسن) بن يسار البصري: **(كان فيمن كان قبلكم رجل له قدم في الإسلام)** أي سبق وتقدُّمٌ **(وصحبة لرسول الله ﷺ. قال عبد الله بن المبارك)** راوي هذا الأثر **(عنىٰ)** الحسنُ **(به)** أحدَ العشرة أبا إسحاق **(سعد بن أبي وقَّاص)** مالك بن أُهَيب الزُّهْري(٣)، أبهمه الحسن، وفسَّره ابن المبارك، فهو مدرَج **(قال: وكان لا يغشَىٰ السلاطينَ وينفر عنهم)** ولا يقعد عندهم. أراد بهم خلفاء زمانه كالصِّدِّيق والفاروق وذي النورينِ، ولعل هذا في آخر أمره، وإلا ففي أول أمره كان

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ٢٣٥.

(٢) السابق ٨/ ٩٨.

(٣) انظر ترجمته في: الاستيعاب لابن عبد البر ١/ ٣٦٤ - ٣٦٧. حلية الأولياء ١/ ٩٢ - ٩٥. تهذيب الكمال ١٠/ ٣٠٩ - ٣١٤.

ابتُلي بالإمارة والسياسة والحجابة والحراسة، ففتح الله علىٰ يديه السواد والبلدان، ومُنح عدَّة من الإناث والذُّكْران، ثم رغب عن ذلك كله، وآثَرَ العزلة والرعاية، وتلافَىٰ ما بقي من عمره بالعناية، وكان مجاب الدعوة، مشهورًا بذلك، وكان أميرًا علىٰ الكوفة، فعزله عمر وولَّىٰ عمَّارًا، ثم عزله وأعاد سعدًا فأبىٰ عليه، ورامه ابنُه عمرُ بن سعد أن يدعو إلىٰ نفسه بعد قتل عثمان فأبىٰ، وكذلك رامه ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص فأبىٰ، فلحق هاشمٌ بعليٍّ، وكان سعد ممَّن قعد ولزم بيته في الفتنة، وأمر أهله أن لا يخبروه بشيء من أخبار الناس حتىٰ تجتمع الأمَّة علىٰ إمام (**فقال له بنوه**) إبراهيم وعامر وعمر ومحمد ومصعب (**يأتي هؤلاء**) أي الملوك (**من ليس له مثلك**) أي مثل ما لك (**في الصحبة**) لرسول الله ﷺ (**والقدم في الإسلام، فلو أتيتَهم**) أي واستفدتَ منهم (**فقال: يا بنيَّ**) بفتح الموحَّدة وكسر النون (**إن الدنيا جيفة**) أي مآلها كذلك (**وقد أحاط بها قوم**) يتجاذبونها (**واللهِ لئن استطعت لا أشاركهم**) أي الداخلين علىٰ الأمراء (**فيها**) أي في تحصيلها (**قالوا: يا أبانا، إذًا تهلك هزالاً**) أي فقرًا وقلة (**قال: يا بَنِيَّ، لأنْ أموت مؤمنًا مهزولاً أحب إليَّ من أن أموت منافقًا سمينًا**) فلم يَزَل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حال التقشُّف والصبر حتىٰ لحق بربه معتزلاً في قصره بالعقيق في سنة خمس وخمسين علىٰ المشهور، وحُمل علىٰ الأعناق، ودُفن بالبقيع، وهو آخر العشرة موتًا، فهو قدوة مَن ابتُلي في حاله بالتلوين، وحُجَّة مَن تحصَّن بالوحدة والعزلة من التفتين (**قال الحسن**) راوي الأثر: (**خصمَهم واللهِ**) أي غلبهم في الخصومة (**إذ علم أن التراب يأكل اللحم والسِّمَن**) في القبر (**دون الإيمان**) فإنه محفوظ.

(**وفي هذا إشارة إلىٰ أن الداخل علىٰ السلطان لا يسلم من النفاق**) والمداهنة (**ألبتة، وهو**) أي النفاق (**مضادٌّ للإيمان**) الكامل، لا يجتمعان معًا.

(**وقال أبو ذر**) جندب بن جُنادة الغِفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من السابقين، أول مَن تكلم في علم البقاء والفناء، وثبت علىٰ المشقة والعناء، وحفظ العهود والوصايا، وصبر

علىٰ المحن والرزايا، واعتزل [مخالطة][1] البَرايا، إلىٰ أن حل بساحة المنايا، مات معتزلاً بالرَّبَذة سنة اثنتين وثلاثين، وصلىٰ عليه عبد الله بن مسعود، وكان يوازيه في العلم، وقدم ابن مسعود المدينة فمات بعده بعشرة أيام (**لسلمة**) بن عمرو بن الأكوع الأسلمي، أبي مسلم، ويقال: أبو إياس، ويقال: أبو عامر، له صحبة ورواية. قال أبو نعيم[2]: استوطن الرَّبَذة بعد قتل عثمان، وتوفي سنة أربع وسبعين[3] (**يا سلمة، لا تَغْشَ أبواب السلاطين؛ فإنك لا تصيب شيئًا من دنياهم إلا أصابوا من دينك أفضل منه**) أي مما أصبتَ من دنياهم، وهو كما قال الثوري[4]: وإياك أن تُخدَع فيقال [لك: تردُّ مظلمة] تدفع عن مظلوم؛ فإن هذه خدعة إبليس اتخذها القرَّاء سلمًا.

(**وهذه**) أي المخالطة للملوك (**فتنة عظيمة للعلماء**) طار شررها في الآفاق (**وذريعة**) أي وسيلة (**صعبة للشيطان عليهم**) يخدعهم بلطف احتياله بذلك (**لا سيما مَن له**) بهجة مرموقة و(**لهجة مقبولة**) أي فصاحة اللسان (**وكلام حلو**) يورده علىٰ ترتيب حسن ومناسبات قريبة مما يليق بمجالسهم (**إذ لا يزال الشيطان يُلقِي إليه**) في روعه (**أن في وعظك لهم**) بهذه الصفة (**ودخولك عليهم**) بالاستمالة (**ما يزحزحهم**) أي يخرجهم (**عن**) ارتكاب أنواع (**الظلم**) ويمنعهم من المحرَّمات (**ويقيم من شعائر الإسلام**) ويثبت حبه في قلوبهم (**إلىٰ أن يخيل إليه**) في تخيُّلاته (**أن الدخول عليهم من**) جملة أمور (**الدين**) فلا حول ولا قوة إلا بالله (**ثم إذا دخل**) بإغواء إبليس (**لم يلبث أن**) يُظهِر الفصاحة ورفعة شأنه في العلم، وفي أثنائه (**يتلطَّف في الكلام**) ويرقِّقه (**ويداهن**) ويستميل (**ويخوض في الثناء**) عليه (**والإطراء**) بمدحه

---

(١) زيادة من حلية الأولياء ١/ ١٥٦.

(٢) معرفة الصحابة ٣/ ١٣٣٩.

(٣) بعده في المعرفة: وله ثمانون سنة. وقيل: توفي سنة أربع وستين.

(٤) شعب الإيمان ١٢/ ٣٦. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(وفيه) أي من مجموع ما ذُكر **(هلاك الدين)** والخسران المبين **(وكان يقال: العلماء إذا عَلِموا عملوا، فإذا عملوا شُغلوا)** أي بالله تعالىٰ، وهو نتيجة العمل الصادق **(فإذا شُغلوا)** بالله **(فُقدوا)** عن الأوصاف البشرية، واتَّصفوا بالأوصاف المَلَكوتية **(فإذا فُقدوا)** وحصلت لهم هذه المرتبة أنزل الله حبهم في قلوب أهل السماء والأرض و**(طُلبوا، فإذا طُلبوا هربوا)** من الخَلْق سلامةً لدينهم، وجمعًا لخواطر قلوبهم. أورده صاحب القوت[1] عن سفيان الثوري، ولفظه: كان الناس إذا طلبوا العلم عملوا، فإذا عملوا أخلصوا، فإذا أخلصوا هربوا. وقال آخَر: العالِم إذا هرب من الناس فاطلبه، وإذا طلب الناس فاهرب منه.

وأخرج أبو نعيم في الحلية[2] وابن عساكر في التاريخ[3] من رواية الوليد بن مسلم عن الأوزاعي قال: قَدِم عطاء الخراساني علىٰ هشام، فنزل علىٰ مكحول، فقال لمكحول: ههنا أحد يحرِّكنا؟ قال: نعم، يزيد بن ميسرة. فأتوه، فقال عطاء: حرِّكْنا رحمك الله. قال: نعم، كانت العلماء إذا عَلِموا عملوا، فإذا عملوا شُغلوا، فإذا شُغلوا فُقدوا، فإذا فُقدوا طُلبوا، فإذا طُلبوا هربوا. قال: أَعِدْ عليَّ. فأعاد [عليه][4] فرجع عطاء ولم يلقَ هشامًا.

(وكتب) أمير المؤمنين أبو حفص **(عمر بن عبد العزيز)** بن مروان بن الحَكَم بن أبي العاص بن أمية القُرَشي الأموي المدني ثم الدمشقي، أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، ذكره ابن سعد[5] في الطبقة الثالثة من تابعي أهل المدينة، وصلىٰ أنس خلفه وقال: ما رأيت أحدًا أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من هذا

(١) قوت القلوب ١/ ٢٧١.
(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٣٤.
(٣) تاريخ دمشق ٤٠/ ٤١٩.
(٤) زيادة من الحلية وتاريخ دمشق.
(٥) الطبقات الكبرىٰ ٧/ ٣٢٤ - ٣٩٧.

الفتىٰ. وكان ثقة مأمونًا، له فقه وعلم وورع، وروىٰ حديثًا كثيرًا، وكان إمامًا عدلاً، رحمه الله ورضي عنه، مات سنة إحدىٰ ومائة بدير سَمْعان **(إلىٰ الحسن)** البصري، رحمهما الله تعالىٰ. قال صاحب القوت[1]: حدَّثونا عن زكريا بن يحييٰ الطائي قال: حدثني عمي زُحَر بن حُصَين أن عمر بن عبد العزيز كتب إلىٰ الحسن: **(أما بعد، فأَشِرْ عليَّ بقوم)** أي عرِّفْني بهم أصاحبهم و**(أستعين بهم علىٰ أمر الله تعالىٰ. فكتب إليه)** الحسن بعد الحمدلة والصلاة **(أما أهل الدين فلا يريدونك)** أي لِما أنت فيه من تحمُّل أعباء المُلْك **(وأما أهل الدنيا فلا تريدهم)** لميلهم إليها، فلا ينصحونك **(ولكن عليك بالأشراف)** ذوي الأنساب الصريحة **(فإنهم يصونون شرفهم)** أي يحفظونه من **(أن يدنِّسوه)** أي يوسِّخوه **(بالخيانة)** في النصح في أوامر الله تعالىٰ.

(هذا في عمر بن عبد العزيز، وكان أزهد أهل زمانه) وأعبدهم وأعلمهم. قال خصيف: ما رأيت رجلاً قط خيرًا منه. وقال مجاهد: أتيناه نعلِّمه، فما بَرِحْنا حتىٰ تعلَّمنا منه. وقال ميمون بن مهران: ما كانت العلماء عنده إلا تلامذة **(فإذا كان شرط أهل الدين)** والعلماء المتقين **(الهرب منه)** والفرار من مخالطته **(فكيف يستتبُّ)** أي يستقيم **(طلب غيره ومخالطته)** وليس فيه شيء من تلك الأوصاف **(ولم يزل السلف)** الصالحون **(العلماء مثل الحسن)** البصري **(و)** سفيان **(الثوري و)** عبد الله **(ابن المبارك والفضيل)** بن عياض **(وإبراهيم بن أدهم)** الزاهد **(ويوسف بن أسباط يتكلمون في علماء الدنيا من أهل مكة والشام وغيرهم)** ونص القوت بعد ذِكره جواب الحسن لعمر بن عبد العزيز ما نصه: وكان الحسن يتكلم في بعض علماء البصرة ويذمهم، وكان أبو حازم وربيعة المدنيان يذمان علماء بني مروان، وقد كان الثوري وابن المبارك وأيوب وابن عون يتكلمون في بعض علماء الدنيا من أهل الكوفة، وكان الفضيل وإبراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط يتكلمون في بعض علماء الدنيا من أهل مكة والشام، كرهنا أن نسمِّي المتكلَّم فيهم؛ لأن السكوت

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٣٣.

أقرب إلىٰ السلامة. إلىٰ هنا كلامه، وقد اختصره المصنِّف كما ترىٰ، وهو اختصار مضرٌّ؛ إذ الثوري وابن المبارك لم يتكلَّما في علماء مكة والشام، وتفصيل ذلك يظهر لمَن طالَعَ تراجمهم في الحلية وغيرها. ثم قال المصنف: (**إما لميلهم إلىٰ الدنيا**) وإيثارهم إياها علىٰ الآخرة (**أو لمخالطتهم السلاطين**) والأمراء، فكان كلامهم في هؤلاء نصيحةً لهم في دين الله تعالىٰ لا لغرض نفساني، حماهم الله تعالىٰ من ذلك.

(**ومنها**) أي ومن علامات علماء الآخرة: (**أن لا يكون متسارعًا إلىٰ الفتوىٰ**) إذا سُئل (**بل يكون متوقِّفًا**) عن الإقدام عليها (**ومتحرِّزًا**) أي صائنًا نفسه عنها (**ما وجد إلىٰ الخلاص**) منه (**سبيلاً**) ومَخْلصًا (**فإن سُئل عما يعلمه تحقيقًا بنص**) ظاهر من (**كتاب الله**) عَزَّوَجَلَّ (**أو بنص**) من (**حديث**) رسول الله ﷺ مما جاء عنه من طريق موثوق (**أو إجماع**) من فقهاء الأمصار (**أو قياس جلي**) دون الخفي (**أفتىٰ**) لأنه أقدم عليه ببصيرة وتمكين، وقطع بالأمر علىٰ علم وخبر، وهذا هو اليقين، وهذه صفة العلماء الموثوق بعلمهم (**وإن سُئل عمَّا يشك فيه**) ولم يتحققه (**قال: لا أدري**) إخبارًا عن صدق، وهو مأجور فيه (**وإن سُئل عما يظنه باجتهاد وتخمين**) وفي نسخة: اجتهادًا (**احتاط، ودفع عن نفسه، وأحال علىٰ غيره**) ولا يوقِع نفسه في حرج (**إن كان في غيره غُنْية**) أي كفاية لمثل هذا المهم (**هذا**) الذي ذكرناه في أمر الفتيا (**هو الحزم؛ لأن تقلُّد خطر الاجتهاد عظيم**) وله شروط وأركان ذكرناها بالتفصيل في باب بيان التلبيس في تشبيه هذه المناظرات من الكتاب، وكذلك ذكرنا هناك مراتب المفتين.

(**وفي الخبر: العلم ثلاثة: كتاب ناطق**) أي بيِّن واضح (**وسنَّة قائمة**) أي ثابتة، دائمة، محافَظ عليها، معمول بها عملاً متصلاً. وفي رواية: ماضية، أي جارية مستمرة (**ولا أدري**) أي قول المجيب لمَن سأله عن مسألة لا يعلم حكمها: لا أدري. هكذا أورده صاحب القوت[١].

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٣٦.

قال العراقي: أخرجه الدارقطني في «غرائب مالك»، والخطيب في «أسماء مَن روىٰ عن مالك» من رواية عمر بن عصام عن مالك عن نافع عن ابن عمر موقوفًا عليه، وقد رواه ابن عدي في الكامل[١] في ترجمة أبي حذافة السهمي عن مالك، قال: وهذا من منكرات أبي حذيفة، سرقه من عمر. قال العراقي: ولم يصرِّح المصنف بأنه مرفوع، وإنما قال: وفي الخبر، والظاهر أنه أراد هذا، فذكرتُه احتياطًا؛ لاحتمال أن يكون رُوي مرفوعًا.

قلت: المصنف تبع في ذلك صاحبَ القوت؛ فإنه هو الذي قال: وفي الخبر.

ثم إن الحديث المذكور رواه أيضًا الديلمي في الفردوس[٢] موقوفًا، وكذلك أبو نعيم والطبراني في الأوسط[٣]، قال الحافظ ابن حجر: والموقوف حسن الإسناد[٤].

ثم قال العراقي: وأول الحديث مرفوع من حديث عبد الله بن عمرو، رواه أبو داود[٥] وابن ماجه[٦] من رواية عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن عبد الرحمن ابن رافع عن عبد الله بن عمرو رفعه: «العلم ثلاثة، وما سوىٰ ذلك فهو فضل: آية محكمة، أو سنَّة قائمة، أو فريضة عادلة. ا.هـ. وسكت عليه، وقد أخرجه أيضًا الحاكم في الرقاق[٧]، وقد قال الذهبي في المهذَّب وتبعه الزركشي: فيه عبد الرحمن بن أنعم، ضعيف. وقال في المنار: فيه أيضًا عبد الرحمن بن رافع التنُّوخي

(١) الكامل في الضعفاء ١/ ١٨٠.

(٢) فردوس الأخبار ٣/ ٩٦.

(٣) المعجم الأوسط ١/ ٤٢٧.

(٤) فيض القدير ٤/ ٣٨٨.

(٥) سنن أبي داود ٣/ ٤٠٤.

(٦) سنن ابن ماجه ١/ ٨٠.

(٧) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٤٧٩.

[لم تثبت عدالته، بل][1] في أحاديثه مناكير. قال المناوي: وفي طريق ابن ماجه رشدين بن سعد، وهو ضعيف، ومن ثَم قال ابن رجب: فيه ضعفاء مشهورون[2].

(**قال الشعبي**) وهو عامر بن شراحيل، تقدم (**لا أدري نصف العلم**) هكذا أورده صاحب القوت عقب الحديث، وزاد: يعني أنه من الورع، والمرء إذا قال «لا أدري» فقد عمل بعلمه وقام بحاله، فله من الثواب بمنزلة مَن دریٰ فقام بحاله وعمل بعلمه فأظهر، فلذلك كان قول «لا أدري» نصف العلم.

وأخرج أبو نعيم في الحلية[3] في ترجمة الشعبي من رواية وهب بن إسماعيل الأسدي عن داود الأودي قال: قال الشعبي: ألا أحدِّثك بثلاثة أحاديث لها شأن؟ قلت: بلىٰ. قال: إذا سُئلت عن مسألة فأجبتَ فيها فلا تُتْبِع مسألتك «أرأيتَ، أرأيت»؛ فإن الله تعالىٰ قال في كتابه العزيز: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣] حتىٰ فرغ من الآية، وحديث آخر أحدِّثك به: إذا سُئلت عن شيء فلا تَقِسْ بشيء فتحرِّم حلالاً وتحل حرامًا، والثالثة لها شأن: إذا سُئلت عما لا علم لك به فقل: لا أعلم[4]، وأنا شريكك.

وأخرج أيضًا من رواية أبي عبيدة عن أبي سلمة الواسطي عن أبي زيد قال: سألت الشعبي عن شيء فغضب وحلف أن لا يحدِّثني، فذهبت فجلست علىٰ بابه، فقال: يا أبا زيد، إنما وقعت علىٰ نيتي، فرِّغْ لي قلبك، واحفظ عني ثلاثًا: لا تقولنَّ لشيء لا تعلمه إني أعلمه ... وذكر البقية، ثم قال: قمْ عني يا أبا زيد.

قال المناوي[5]: أُخذ من الحديث المتقدم أن علىٰ العالِم إذا سُئل عما لا

---

(١) زيادة من فيض القدير ٤/ ٣٨٧. والنص فيه.

(٢) عبارة الفيض: الحديث فيه ضعف مشهور.

(٣) حلية الأولياء ٤/ ٣١٩.

(٤) في الحلية: فقل لا علم لي.

(٥) فيض القدير ٤/ ٣٨٧.

يعلمه أن يقول: لا أدري، أو لا أتحققه، أو لا أعلمه، أو الله أعلم، وقول المسئول «لا أعلم» لا يضع من قَدْره كما يظنه بعض الجهلة؛ لأن العالِم المتمكِّن لا يضره جهلُه ببعض المسائل، بل يرفعه قوله «لا أدري»؛ لأنه دليل علىٰ عِظَم محله، وقوة دينه، وتقوىٰ ربه، وطهارة قلبه، وكمال معرفته، وحسن نيته، وإنما يأنف من ذلك مَن ضعفت ديانتُه وقلَّت معرفته؛ لأنه يخاف من سقوطه من أعين الحاضرين، ولا يخاف من سقوطه من عين[1] رب العالمين، وهذه جهالة ورقَّة دين.

وقال الزمخشري[2] في قوله تعالىٰ: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩] كفىٰ بهذه الآية زاجرة زجرًا بليغًا عن التجوُّز فيما يُسأل عنه من الأحكام، وباعثة علىٰ وجوب الاحتياط فيها، وأن لا يقول أحد في شيء [جائز أو غير جائز] إلا بعد إتقان وإيقان، فمَن لم يتقن ولم يوقن فليتقِ الله وليصمت، وإلا فهو مفترٍ علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

(ومَن سكت) إذا سُئل في مسألة (حيث لا يدري) ولا يتحققه تعظيمًا (لله سبحانه) وإيكالاً للعلم إليه (فليس بأقل أجرًا ممَّن نطق) بل هو مساوٍ له في الأجر (لأن الاعتراف بالجهل أشد علىٰ النفس) لأنها مجبولة علىٰ الاغترار والفخر، فمتىٰ مقتها في الله تعالىٰ فإنه مأجور. وفي القوت[3]: ولأن حُسْنَ مَن سكت لأجل الله تعالىٰ تورُّعًا كحسن مَن نطق لأجله بالعلم تبرُّعًا.

وقال ابن عطاء الله[4]: من علامة جهل السالك بطريق علم الظاهر أو الباطن أن يجيب عن كل ما يُسئل عنه، ويعبِّر عن كل ما شهد، ويذكر كل ما علم؛ لدلالته علىٰ أنه لم يكن بالله ولا لله، بل كان لنفسه؛ إذ النفس مع العقل والتمييز، ومَن طلب

---

(١) في الفيض: من نظر.

(٢) الكشاف ٣/ ١٥٢. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٣) قوت القلوب ١/ ٢٣٦.

(٤) فيض القدير ٤/ ٣٨٧.

الحق بالعقل ضل، وكان دليلاً علىٰ جهله.

وقال أبو الحسن الماوردي[١]: ليس متناهٍ في العلم إلا ويجد مَن هو أعلم منه بشيء؛ إذ العلم أكثر من أن يحيط به بشر. وقال الشعبي: ما رأيتُ ولا آمر رجلاً أعلم مني إلا اتبعته[٢]. وهذا لم يقله تفضيلاً لنفسه، بل تعظيمًا للعلم أن يُحاط به، وقلَّما تجد بالعلم معجبًا وبما أدركه منه مفتخرًا إلا مَن كان فيه مقلاً مقصِّرًا؛ لأنه يجهل قَدْره، ويظن أنه نال بالدخول فيه أكثره، وأما مَن كان فيه متوجِّهًا ومنه مستكثرًا فهو يعلم من بعد غايته والعجز عن إدراك نهايته ما يصدُّه عن العُجْب به، وقالوا[٣]: العلم ثلاثة أشبار، فمَن نال منه شبرًا شمخ بأنفه وحلف أنه هو[٤]، ومَن نال منه الثاني صغرت إليه نفسه وعلم أنه ما ناله، وأما الثالث فهيهات أن يناله أحد. ثم قال: فليس لمَن تكلَّف ما لا يحسِن غاية ينتهي إليها، ولا له حد يقف عنده، ومَن كان تكلُّفه غير محدود فأخلِقْ به أن يَضِلَّ ويُضِلَّ، وإذا لم يكن إلىٰ الإحاطة بالعلم من سبيل فلا عارَ أن يجهل بعضه، وإذا لم يكن في جهل بعضه عارٌ فلا يستحي أن يقول «لا أعلم» فيما لا يعلم. إلىٰ هنا كلام الماوردي.

(فهكذا كانت عادة الصحابة والسلف) الصالحين (ﷺ) ثم بيَّن ذلك بقوله: (كان) عبد الله (ابن عمر) بن الخطاب ﷺ (إذا سُئل عن الفتوىٰ قال: اذهب إلىٰ هذا الأمير الذي تقلَّد أمور الناس فضَعْها في عنقه) لأن الولاة هم الذين يقومون به، وإليهم ترجع العامةُ. هكذا نقله صاحب القوت[٥]. زاد: ورُوي ذلك عن أنس بن مالك ثم عن جماعة من الصحابة والتابعين.

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٨٣ - ٨٥ باختصار.

(٢) كذا في المطبوعة، والعبارة مضطربة، ونص الماوردي: «ما رأيت مثلي، وما أشاء أن ألقىٰ رجلا أعلم مني إلا لقيته».

(٣) القائل هو الشعبي، كما في أدب الدنيا والدين.

(٤) عبارة الماوردي: وظن أنه ناله.

(٥) قوت القلوب ١/ ٢٢٨.

وأخرج الدارمي في مسنده[1] أن رجلاً سأل ابن عمر عن مسألة، فقال: لا علم لي بها. فولّىٰ الرجل، فقال ابن عمر: نِعم ما قال ابن عمر.

وأخرج[2] أبو داود في «الناسخ والمنسوخ» وابن مردويه عن خالد بن أسلم قال: خرجنا نمشي مع ابن عمر، فلحقنا أعرابيٌّ، فسأله عن إرث العَمَّة، فقال: لا أدري. قال: أنت ابن عمر ولا تدري! قال: نعم، اذهب إلىٰ العلماء. فلما أدبر قبَّل ابنُ عمر يديه وقال: نِعم ما قلت.

(**وقال ابن مسعود**) ونص القوت[3]: وكان ابن مسعود يقول: (**إن الذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه لَمجنونٌ**) أخرجه أبو خيثمة[4] فقال: حدثنا محمد بن خازم، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله قال: واللهِ، إن الذي يفتي الناس في كل ما يسألونه لَمجنونٌ. قال الأعمش: قال لي الحَكَم: لو كنتُ سمعت منك هذا الحديث قبل اليوم ما كنت أفتي في كثير مما كنت أفتي[5]. ا.هـ.

إذ العلم أكثر من أن يحيط به بشرٌ، فالنطق في كل مسألة لا يخلو عن جنون فيه، ومثله قول مالك بن أنس: من إزالة العلم أن يجيب عن كل ما يُسئل عنه.

(**وقال**) أيضًا: (**جُنَّة العالِم**) التي يستتر بها قوله: (**لا أدري**)[6] وأخرج

(١) مسند الدارمي ١/ ٧٤، ٧٥ من طريقين:
الأول: طريق هشام بن عروة عن أبيه أن رجلا سأل ابن عمر عن مسألة، فقال: لا علم لي بها. فلما أدبر الرجل قال ابن عمر: نعم ما قال ابن عمر، سئل عما لا يعلم فقال: لا علم لي به.
الثاني: طريق عبد الله العمري عن نافع أن رجلًا أتىٰ ابن عمر يسأله عن شيء، فقال: لا علم لي. ثم التفت بعد أن قفا الرجل فقال: نعم ما قال ابن عمر، يسئل عما لا يعلم فيقول: لا علم لي. يعني ابن عمر نفسه.

(٢) فيض القدير ٤/ ٣٨٨. وقد أخرجه أيضـًا البيهقي في السنن الكبرىٰ ٤/ ١٣٩.

(٣) قوت القلوب ١/ ٢٢٨.

(٤) العلم لأبي خيثمة ص ٨.

(٥) في المطبوعة: ما أفتي. والتصويب من كتاب العلم.

(٦) رواه ابن عبد البر في كتاب الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء ص ٧٤.

الهروي[١] عن ابن مسعود: وإذا سُئل أحدكم عما لا يدري فليقل: لا أدري؛ فإنه ثلث العلم. وأخرج البخاري[٢] عنه: مَن علم شيئًا فليقل به، ومَن لم يعلم فليقل: الله أعلم. ورواه الدارمي[٣] بلفظ: إذا سُئل العالِم عما لا يعلم قال: الله أعلم **(فإن أخطأها)** ونص القوت[٤] في موضع آخَر: وقال علي بن الحسين ومحمد بن عجلان: إذا أخطأ العالِم قول «لا أدري» **(فقد أصيبت مقاتله)** قلت: وهذا القول قد أخرجه الحازمي في «سلسلة الذهب» عن أحمد عن الشافعي عن مالك عن ابن عجلان.

وقال أبو نعيم في الحلية[٥]: حدثنا إبراهيم، حدثنا محمد قال: سمعت محمد بن الصباح يقول: أخبرنا سفيان بن عيينة قال: إذا ترك العالِم «لا أدري» أصيبت مقاتله.

وأخرج الدارمي[٦] في مسنده من طرق عن عليٍّ ﷺ أنه سُئل عن مسألة فقال: لا علم لي بها. ثم قال: وا بردها علىٰ كبدي إذا سُئلت عما لا علم لي به فقلت: لا أعلم.

(وقال إبراهيم بن أدهم) الزاهد المشهور: **(ليس شيء أشد علىٰ الشيطان من عالم يتكلم بعلم ويسكت بعلم، يقول: انظروا إلىٰ هذا، سكوته أشد عليَّ من كلامه)** والذي في القوت[٧]: وقد قال إبراهيم بن أدهم وغيره: سكوت العالم أشد

---

(١) ذم الكلام للهروي ٢/ ٢١٩ وفيه: فليقل لا أعلم.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ٢٨٤ وزاد: فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

(٣) سنن الدارمي ١/ ٧٣.

(٤) قوت القلوب ١/ ٢٣٦.

(٥) حلية الأولياء ٧/ ٢٧٤.

(٦) سنن الدارمي ١/ ٧٤.

(٧) قوت القلوب ١/ ٢٦٥.

علىٰ الشيطان من كلامه؛ لأنه يسكت بحلم، وينطق بعلم، فيقول الشيطان: انظروا إلىٰ هذا، سكوته أشد عليَّ من كلامه.

وأخرجه أبو نعيم في الحلية[1] في ترجمته فقال: حدثنا القاضي أبو أحمد محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا أحمد بن محمد بن السكن، حدثنا عبد الرحمن بن يونس، حدثنا بقية بن الوليد، عن إبراهيم بن أدهم قال: كان يقال: ليس شيء أشد علىٰ إبليس من العالم الحليم، إن تكلم تكلم بعلم، وإن سكت سكت بحِلم.

ثم قال: حدثنا أبو محمد ابن حيَّان، حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن، حدثنا محمد بن عمرو بن حبان، حدثنا بقية، حدثنا إبراهيم بن أدهم، عن ابن عجلان قال: ليس شيء أشد علىٰ إبليس من عالم حليم، إن تكلم تكلم بعلم، وإن سكت سكت بحلم، وقال إبليس: لَسكوتُه أشد عليَّ من كلامه.

ثم قال: حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد، حدثنا عبد الرحمن بن داود، حدثنا سلمة بن شبيب النيسابوري[2]، حدثنا جدي، حدثنا بقية، حدثني إبراهيم بن أدهم، عن ابن عجلان مثله.

(**ووصف بعضُهم**[3] **الأبدالَ**) وهم طائفة من الأولياء، قال أبو البقاء: كأنهم أرادوا أنهم أبدال الأنبياء وخلفاؤهم، وهم عند القوم سبعة لا يزيدون ولا ينقصون[4]، وفي تحقيق ذلك اختلاف كثير (**فقال: أكلُهم فاقة**) أي لا يأكلون إلا عن

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ٢٦.

(٢) في المطبوعة: سلمة بن أحمد. والمثبت من الحلية.

(٣) في قوت القلوب ١/ ٧٤: وسئل فزارة الشامي عن وصف الأبدال، وكانوا يظهرون له، فقال: أكلهم ... الخ. وأورده في ١/ ٢٦٥ بإبهام القائل، وسياقه نحو سياق المصنف هنا، كما سيذكره الشارح.

(٤) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف للمناوي ص ٣٦ وزاد: يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة، لكل بلد إقليم فيه ولايته، منهم واحد علىٰ قدم الخليل وله الإقليم الأول، والثاني علىٰ قدم الكليم، =

شدة الحاجة (**ونومهم غلبة، وكلامهم ضرورة**) أي لا يتكلمون إلا فيما اضطروا فيه، وقال المصنف في تفسيره: (**أي لا يتكلمون حتىٰ يُسئلوا**) أي فلا يبتدئون بالكلام (**وإذا سُئلوا ووجدوا مَن يكفيهم**) مؤنة ذلك السؤال (**سكتوا**) وأحالوا عليه (**فإن اضطروا أجابوا**) هكذا أورده صاحب القوت، إلا أنه قال بعد الجملة الثانية: وكانوا لا يتكلمون حتىٰ يُسئلوا عن شيء فيجيبوا. ولم يقل: وإذا سُئلوا ... الخ. ثم قال: ومَن لم يتكلم حتىٰ يُسئل فليس يُعَدُّ لاغيًا ولا متكلمًا فيما لا يعنيه؛ لأن الجواب بعد السؤال كالفرض بمنزلة ردِّ السلام، وكما قال ابن عباس: إني لأرىٰ رد الجواب واجبًا كردِّ السلام. وقال أبو موسىٰ وابن مسعود: مَن سُئل عن علم فليقلْ به، ومَن لا فليسكت وإلا كتُب من المتكلِّفين، ومرق من الدين. ورويناه عن ابن عباس أيضًا.

(**وكانوا يعدُّون الابتداء قبل السؤال من الشهوة الخفيَّة للكلام**) وفي القوت: وقد يكون الابتداء بالشيء من خفايا الشهوات، والشهوات من الدنيا. وقال مالك بن أنس: من إزالة العلم أن ينطق به قبل أن يُسئل عنه. وكان يقال: إذا تكلم بالعلم قبل أن يُسئل عنه ذهب ثلثا نوره. وعن القاسم بن محمد قال: من إكرام المرء نفسه أن يسكت علىٰ ما عنده حتىٰ يُسئل عنه. وكذلك هو لعَمْري؛ لأنه إذا تكلم بعد السؤال فهو صاحبها، وربما كان فرضًا، وليست الحاجة إلىٰ القيام بالفرض من الشهوات.

قال: (**ومرَّ علي وعبد الله**) بن عباس (ﷺ **برجل يتكلم علىٰ الناس**) أي يقصُّ عليهم (**فقالا**) أي قال كل واحد منهما: (**هذا يقول**) أي بلسان حاله (**اعرفوني**)

= والثالث علىٰ قدم هارون، والرابع علىٰ قدم إدريس، والخامس علىٰ قدم يوسف، والسادس علىٰ قدم عيسىٰ، علىٰ ترتيب الأقاليم. وهم عارفون بما أودع الله تعالىٰ في الكواكب السيارة من الأسرار والحركات والمنازل وغيرها، ولهم من الأسماء أسماء الصفات، وكل واحد بحسب ما يعطيه حقيقة ذلك الاسم الإلهي من الشمول والإحاطة، ومنه يكون تلقيه.

هكذا أورده صاحب القوت[١]. وفي بعض الروايات: أوسِعوا لي.

(وقال بعضهم: إنما العالم الذي إذا سُئل عن المسألة فكأنما يُقلع ضرسه) أي من شدة ما يجده في أداء الجواب. والذي في القوت[٢]: وقال بعضهم: إنما العالم الذي إذا سُئل عن العلم كأنما يُسعط الخردل. ثم قال: وقد رويناه عن الأعمش، وقد كان محمد بن سوقة يسأله عن الحديث فيُعرِض عنه ولا يجيبه، فالتفت الأعمش إلىٰ رقبة فقال له: هو إذًا أحمق مثلك إن كان يدع فائدته لسوء خُلُقي. فقال محمد بن سوقة: ويحك! إنما أجعله بمنزلة الدواء، أصبر علىٰ مرارته لِما أرجو من منفعته.

قلت: وهذا الذي ذكره صاحب القوت عن بعضهم فقد أخرج الخطيب في كتاب «شرف أصحاب الحديث»[٣]: أخبرنا أبو الحسن الأهوازي، أخبرنا محمد ابن مخلد، حدثنا علي بن سهل، حدثنا عفان، حدثنا أبو عَوانة قال: جاء رقبة ابن مَصْقَلة إلىٰ الأعمش، فسأله عن شيء فكلح وجهه، فقال له رقبة: أما واللهِ ما علمتك لَدائمُ القطوب، سريع الملال، مستخف بحق الزوار، لَكأنما تسعط الخردل إذا سُئلت الكلمة[٤].

وفي القوت: **(وكان ابن عمر)** ﷺ **(يقول: تريدون أن تجعلونا جسرًا تعبرون عليه)** وفي نسخة: علينا **(إلىٰ)** ونص القوت: في **(جهنم)** تقولون: أفتىٰ لنا ابن عمر بهذا.

(وقال أبو حفص) عمر بن مسلمة[٥] الحدَّاد **(النيسابوري)** من قرية يقال لها:

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٦٦، وفيه: ابن مسعود، بدل: ابن عباس.

(٢) السابق نفسه، ونصه: وقال رقبة بن مصقلة وغيره: ليس العالم الذي يجمع الناس فيقص عليهم، إنما العالم ... الخ.

(٣) شرف أصحاب الحديث ص ١٣٢.

(٤) في شرف أصحاب الحديث: الحكمة.

(٥) في المطبوعة: سالم. والتصويب من الرسالة القشيرية ص ٧٣.

كورداباذ علىٰ باب مدينة نيسابور علىٰ طريق بُخارَىٰ[١]، أحد الأئمة والسادة، مات سنة نيِّف وستين ومائتين؛ كذا في الرسالة للقشيري. ونص القوت: وحدثني بعض علماء خراسان عن شيخ له عن أبي حفص النيسابوري الكبير، وكان هذا هناك نظير الجُنَيد هنا أنه قال: (**العالم هو الذي**) ونص القوت: إنما العالم الذي (**يخاف عند السؤال أن يقال له يوم القيامة: من أين أجبتَ**)؟ ونص القوت: الذي يُسئل عن مسألة في الدين فيغتم، حتىٰ لو جُرح لم يخرج منه دمٌ من الفزع، ويخاف أن يُسئل في الآخرة عما سُئل عنه في الدنيا، ويفزع أن لا يتخلَّص من السؤال، إلا أن يرىٰ أنه قد افتُرض عليه الجواب لفقد العلماء. إلىٰ هنا كلامه، وكأنَّ المصنف اختصره ورواه بالمعنىٰ.

(**وكان إبراهيم**) بن يزيد بن شريك (**التيمي**) تَيْم الرَّباب، أبو أسماء الكوفي، وكان من العُبَّاد، روىٰ عنه الأعمش ويونس بن عبيد. قال ابن معين: ثقة، وكان يقول: إني لأمكث ثلاثين يومًا لا آكل. مات ولم يبلغ أربعين سنة، وذلك سنة اثنتين وتسعين ومائة[٢] (**إذا سُئل عن مسألة يبكي ويقول: لم تجدوا غيري حتىٰ احتجتم إليَّ**)؟ ونص القوت[٣]: لم تجد من تسأله غيري؟ أوَ احتجتم إليَّ؟ قال: وجهدنا بإبراهيم النخعي أن نسنده إلىٰ سارية فأبىٰ، وكان إذا سُئل عن شيء بكىٰ وقال: قد احتاج الناس إليَّ.

(**وكان أبو العالية**) رُفَيع (**الرياحي**) من بني رياح بن يربوع، روىٰ عن ابن عباس وغيره، وعنه قتادة وغيره (**وإبراهيم بن أدهم**) الزاهد (**و**) سفيان (**الثوري يتكلمون علىٰ الاثنين والثلاثة والنفر اليسير، فإذا كثروا انصرفوا**) ونص القوت: وأما أبو العالية الرياحي فكان يتكلم علىٰ الاثنين والثلاثة، فإذا صاروا أربعة قام،

---

(١) معجم البلدان ٤/ ٤٨٩.

(٢) تهذيب الكمال للمزي ٢/ ٢٣٢ - ٢٣٣.

(٣) قوت القلوب ١/ ٢٦٦.

وكذلك كان إبراهيم والثوري وابن أدهم رحمهم الله تعالىٰ يتكلمون علىٰ النفر، فإذا كثر الناس انصرفوا، وكان أبو محمد سهل يجلس إلىٰ خمسة أو ستة إلىٰ العشرة، وقال لي بعض الشيوخ: كان الجنيد يتكلم علىٰ بضع عشرة، قال: وما تم لأهل مجلسه عشرون.

(و) قول المسئول «لا أدري» أو «لا أعلم» لا يضع من قَدْره، بل دليل علىٰ كمال معرفته، ومن ثَم (**قال** ﷺ) في مسائل سُئل عنها فقال: لا أدري، وناهيك بهذا مستنَدًا، فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: (**ما أدري أعُزَير نبي أمْ لا، وما أدري أتُبَّع ملعون أم لا، وما أدري ذو القرنين نبي أم لا**) أخرجه أبو داود[1] والحاكم[2] من رواية ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رفعه، إلا أن فيه تقديم تُبَّع علىٰ عُزَير، ولم يذكر أبو داود الجملة الأخيرة، إنما ذكرها الحاكم فقال: وما أدري ذا القرنين أنبيًّا كان أمْ لا. ولم يذكر عزيرًا، وزاد: وما أدري الحدود كفَّارات لأهلها أم لا. وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولا أعلم له علة، ولم يخرجاه؛ نقله العراقي.

قلت: وبمثل رواية الحاكم رواه البيهقي[3] وابن عساكر[4]، وبمثل رواية أبي داود مع ذكر الجملة الأخيرة رواه ابن عساكر أيضًا، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، إلا أن في روايتهم: لعينًا كان أم لا، بدل: ملعون.

وتُبَّع الحِمْيَري أول مَن كسا الكعبة، وذو القرنين اختُلف في اسمه، وأخبارهما مشهورة في كتب السِّيَر والتواريخ.

(و) من ذلك: (**لمَّا سُئل رسول الله ﷺ عن خير البقاع في الأرض وشرِّها،**

---

(١) سنن أبي داود ٥/ ٢١٥.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٨٥، ٢/ ١٨، ٥٢٩.

(٣) السنن الكبرىٰ للبيهقي ٨/ ٥٧٠.

(٤) تاريخ دمشق ١١/ ٤، ١٧/ ٣٣٧، ٤٠/ ٣١٨، ٥٦/ ٢٨٦.

فقال) ﷺ: **(لا أدري، حتىٰ نزل عليه جبريل** ﷺ **فسأله، فقال: لا أدري، إلىٰ أن أعلمه اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **أن خير البقاع المساجد)** لأنها[١] محل فيوض الرحمة وأمداد[٢] النعمة **(وشرها السوق)** ولفظ الحديث: الأسواق. وإنما قرن المساجد بالأسواق مع أن غيرها قد يكون شرًّا منها ليبيِّن أن الديني يدفعه الأمر الدنيوي، فكأنه قال: خير البقاع مخلصة لذكر الله، مسلَّمة من الشوائب الدنيوية، فالجواب من أسلوب الحكيم، فإنه سُئل: أيُّ البقاع خير؟ فأجاب به وبضده.

قال العراقي: وهذا الحديث رواه ابن عمر وجُبَير بن مطعِم وأنس؛ أما حديث ابن عمر فرواه ابن حبان في صحيحه[٣] من رواية جرير بن عبد الحميد عن عطاء ابن السائب عن محارب بن دِثار عن ابن عمر أن رجلاً سأل النبي ﷺ: أيُّ البقاع شر؟ قال: «لا أدري حتىٰ أسأل جبريل». فسأل جبريلَ، فقال: لا أدري حتىٰ أسأل ميكائيل. فجاء فقال: خير البقاع المساجد، وشرها الأسواق.

وأما حديث جبير بن مطعم فرواه أحمد[٤] وأبو يعلىٰ[٥] والبزار[٦] والطبراني[٧] من رواية زهير بن محمد عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن محمد بن جبير ابن مطعم عن أبيه أن رجلاً أتىٰ النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، أيُّ البلدان شر؟ قال: «لا أدري». فلما أتاه جبريل قال: «يا جبريل، أيُّ البلدان شر»؟ قال: لا أدري حتىٰ أسأل ربي عَزَّوَجَلَّ. فانطلق جبريل فمكث ما شاء الله أن يمكث، ثم جاء فقال: يا محمد، إنك سألتني أيُّ البلدان شر، فقلت: لا أدري، وإني سألت ربي عَزَّوَجَلَّ: أي

---

(١) فيض القدير ٣/ ٤٧٠.

(٢) في الفيض: وإدرار.

(٣) صحيح ابن حبان ٤/ ٤٧٦.

(٤) مسند أحمد ٢٧/ ٣٠٨.

(٥) مسند أبي يعلىٰ ١٣/ ٤٠٠.

(٦) كشف الأستار عن زوائد البزار للهيثمي ٢/ ٨١.

(٧) المعجم الكبير ٢/ ١٢٨.

البلدان شر؟ فقال: أسواقها. لفظ أحمد، وقال أبو يعلىٰ: فلما جاءه جبريل. ولم يقل: أن يمكث. وقال البزار: أن رجلاً قال: يا رسول الله، أيُّ البلدان أحب إلىٰ الله تعالىٰ، وأي البلدان أبغض إلىٰ الله تعالىٰ؟ فقال: «لا أدري حتىٰ أسأل جبريل». فأتاه جبريل فأخبره أن أحب البقاع إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ المساجد، وأبغض البقاع إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ الأسواق.

ورواه الطبراني أيضًا من رواية قيس بن الربيع عن عبد الله بن محمد بن عقيل باللفظ الأول، إلا أنه قال: أي البلاد. في المواضع الأربعة، ولم يقل: يا رسول الله، وقال: فلما أتىٰ جبريلُ رسولَ الله ﷺ، ولم يقل: يا جبريل، ولم يقل: أن يمكث.

وأما حديث أنس فرواه الطبراني في الأوسط[1] من رواية عمار بن عُمارة الأزدي قال: حدثني محمد بن عبد الله عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «أيُّ البقاع خير»؟ قال: لا أدري. قال: «فسَلْ عن ذلك ربَّك عَزَّوَجَلَّ». قال: فبكىٰ جبريل وقال: يا محمد، ولنا أن نسأله؟ هو الذي يخبرنا بما شاء. فعرج إلىٰ السماء، ثم أتاه فقال له: خير البقاع بيوت الله عَزَّوَجَلَّ في الأرض. قال: «فأيُّ البقاع شر»؟ فعرج إلىٰ السماء، ثم أتاه فقال: شر البقاع الأسواق.

وقد رُوي الحديث أيضًا عن أبي هريرة، رواه مسلم في صحيحه[2] من رواية عبد الرحمن بن مِهْران عنه، وليس فيه موضع الاستدلال به من قوله: لا أدري.

(**وكان ابن عمر** رضي الله عنهما **يُسئل عن عشر مسائل، فيجيب عن واحدة، ويسكت عن تسع**) هكذا أورده صاحب القوت[3]. وذلك لشدة الاحتياط (**وكان ابن عباس** رضي الله عنهما) بخلاف ذلك (**يجيب عن تسع، ويسكت عن واحدة**) وكلٌّ منهما علىٰ هدىً،

---

(١) المعجم الأوسط ٧/ ١٥٤.

(٢) صحيح مسلم ١/ ٣٠١ ولفظه: «أحب البلاد إلىٰ الله مساجدها، وأبغض البلاد إلىٰ الله أسواقها».

(٣) قوت القلوب ١/ ٢٢٨.

والأغراض تختلف باختلاف المسائل والسائلين وأوقات الاحتياج وعدمها (وكان في الفقهاء من يقول «لا أدري» أكثر من أن يقول: أدري) تأدُّبًا مع الله تعالىٰ، وصيانةً لجانب العلم؛ إذ يخاف علىٰ نفسه الوقوع في الخطأ، فيَكِل أمره إلىٰ الله تعالىٰ (منهم سفيان الثوري) وأبو حنيفة (ومالك بن أنس) والشافعي (وأحمد بن حنبل) والشعبي (والفضيل بن عياض) وعلي بن الحسين، ومحمد ابن عجلان (وبشر بن الحارث) الحافي، وغير هؤلاء من أئمة الدين. زاد صاحب القوت: وكانوا في مجالسهم يجيبون عن بعض ويسكتون عن بعض، ولم يكونوا يجيبون في كل ما يُسئلون عنه.

(وقال عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ)[١] واسمه: يسار، وقيل: بلال، الأنصاري المدني ثم الكوفي، من ثِقات التابعين، وُلد لستٍّ بقين من خلافة عمر، ومات بوقعة الجماجم[٢] غريقا بدُجَيل[٣] سنة ثلاث وثمانين ومائة (أدركت في هذا المسجد) أي بالمدينة (مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ) منهم: أبوه، وعمر، وعثمان، وعلي، وسعد، وحذيفة، ومعاذ، والمِقْداد، وابن مسعود، وأبو ذر، وأُبَي بن كعب، وبلال بن رباح، وسهل بن حنيف، وابن عمر، وعبد الرحمن ابن أبي بكر،

---

(١) تهذيب الكمال ١٧/ ٣٧٢ - ٣٧٧.

(٢) وقعة دير الجماجم كانت بين جيش الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق من قبل الأمويين وبين جيش عبد الرحمن بن الأشعث الذي أعلن عصيانه وخروجه علىٰ الحجاج بسبب ظلمه، وانضم إلىٰ ابن الأشعث الكثير من أهل العراق من بينهم العديد من العلماء كالشعبي وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن أبي ليلىٰ وكميل بن زياد، والتقىٰ الجيشان في منطقة دير الجماجم بين البصرة والكوفة، وكان الظفر في أول لأهل العراق، غير أن الحجاج وجنوده ثابروا وثبتوا، وبعد معارك ضارية استمرت مدة طويلة هزم ابن الأشعث وقتل في نهاية الأمر، وتتبع رجال الحجاج أصحاب ابن الأشعث بالأسر والقتل، حتىٰ قيل: إنه قتل منهم أكثر من ١٣٠ ألفا، وغرق الكثير في نهري دجلة ودجيل. انظر: البداية والنهاية (١٢/ ٣١٩) باختصار وتصرف.

(٣) دجيل: تصغير دجلة، سمي بذلك لأنه متفرع من نهر دجلة، وهو يمتد من شمال مدينة بلد وحتىٰ مدينة دجيل.

وقيس بن سعد، وأبو أيوب، وكعب بن عُجْرة، وعبد الله بن زيد ابن عبد ربِّه، وأبو سعيد، وأبو موسىٰ، وأنس، والبراء، وزيد بن أرقم، وسَمُرة بن جندب، وصهيب، وعبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عُكَيم. هؤلاء الذين روىٰ عنهم، وأما الذين رآهم ولم يروِ عنهم فكثيرون، وفي سماعه من عمر وعبد الله بن زيد خلافٌ. وهذا القول الذي ذكره المصنف تبعًا لصاحب القوت رواه الخطيب في التاريخ(١) فقال: أخبرنا محمد بن عيسىٰ بن عبد العزيز ... ثم ساق سنده إلىٰ سفيان بن عيينة قال: أخبرني عطاء بن السائب عن ابن أبي ليلىٰ قال: أدركتُ عشرين ومائة من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار. ففي هذا القول تخصيص بالأنصار. وقال عبد الملك بن عُمَير: لقد رأيتُ عبد الرحمن في حلقة فيها نفر من الصحابة - منهم البراء - يستمعون لحديثه وينصتون إليه **(ما فيهم أحد)** ونص القوت: ما منهم من أحد **(يُسئل عن حديث أو فتوىٰ إلا وَدَّ أن أخاه كفاه ذلك)** زاد صاحب القوت: **(وفي لفظ آخَر: كانت المسألة تُعرَض علىٰ أحدهم فيردها إلىٰ الآخر، ويردها الآخر إلىٰ الآخر، حتىٰ تعود إلىٰ الأول)** ونص القوت: حتىٰ ترجع إلىٰ الذي سُئل عنها أول مرة. وقال في موضع آخر(٢): وقال مرةً: أدركت ثلاثمائة يُسئل أحدهم عن الفتيا أو الحديث فيرد ذلك إلىٰ الآخَر، ويحيل الآخر علىٰ صاحبه.

وعند الخطيب بالسند المتقدم: إنْ كان أحدهم يُسئل عن المسألة فيردُّها إلىٰ غيره، فيردها هذا إلىٰ هذا، وهذا إلىٰ هذا، حتىٰ ترجع إلىٰ الأول، وإن كان أحدهم لَيقولُ في شيء وإنه ليرتعد.

(ورُوي أن أصحاب الصُّفَّة) وهم جماعة من فقراء الصحابة كانوا يلازمون صُفَّة المسجد علىٰ قدم التجريد والتوكُّل، وكانوا يزيدون تارةً وينقصون تارةً،

---

(١) تاريخ بغداد ١٥/ ٥٤٢.

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٣١.

وقد ذكرهم أبو نعيم في الحلية[1] علىٰ التفصيل، وحقَّق الخلاف في عددهم. وروىٰ مجاهد عن أبي هريرة قال: أهل الصُّفَّة أضياف الإسلام، لا يأوون علىٰ أهل ولا مال، إذا أتت النبيَّ ﷺ صدقةٌ بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها. صحيح متفق عليه[2]. فممَّا ذُكر من إيثارهم: (**أُهدي إلىٰ واحد منهم رأس مشوي**) أي رأس كبش قد شُوي أو عِجْل (**وهو في غاية الضرّ**) والجهد والفاقة، فلم يأكله (**فأهداه إلىٰ الآخر**) من أصحابه إيثارًا (**وأهداه الآخر إلىٰ الآخر ... هكذا دار بينهم حتىٰ رجع إلىٰ الأول**) فهذا هو مقام الإيثار، ولقد كانوا ﷺ مع ضيق عن الحُطام الزائل البائد معتصمين بما حماهم به الواقي الذائد، فاجتزأوا من الدنيا بالفِلَق، ومن ملبوسها بالخِرَق، لم يعدلوا إلىٰ أحد سواه، ولم يعوِّلوا إلا علىٰ محبته ورضاه، رغبت الملائكة في زيارتهم وخلَّتهم، وأمر الرسول ﷺ بالصبر علىٰ محادثتهم ومجالستهم[3].

وإنما أورد المصنف هذه القصة هنا ليُقاس عليه أمر الفتوىٰ حتىٰ يعيدها إلىٰ الآخر.

(**فانظر الآن كيف انعكس أمر العلماء**) اليوم (**فصار المهروب منه مطلوبًا، والمطلوب**) الحقيقي (**مهروبًا عنه**) وذلك في زمان المصنف، وأما الآن فالله المستعان، وعليه التكلان.

(**ويشهد لحسن الاحتراز من تقلُّد الفتوىٰ**) والاجتناب عن الإقدام عليها (**ما رُوي مسندًا**) عن رسول الله ﷺ (**أنه قال**) وعبارة القوت: ورُوي عن ابن مسعود وابن عمر وغيرهما من التابعين، وقد روينا مسندًا: (**لا يفتي الناسَ إلا ثلاثة: أمير أو**

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٣٣٧ - ٣٤٧، وذكر تراجمهم فبلغت ٨٥ ترجمة، منهم: بلال بن رباح، وأبو ذر الغفاري، وحذيفة بن اليمان، وخباب بن الأرت، وأبو أيوب الأنصاري، وعبد الله بن مسعود.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٨٣. ولم أقف عليه في صحيح مسلم.

(٣) حلية الأولياء ١/ ٣٤٤.

مأمور أو متكلِّف) تفصيل ذلك: أن الأمير هو الذي يتكلم في علم الفتيا والأحكام، وكذلك كان الأمراء يُسئلون ويفتون، والمأمور الذي يأمره الأمير بذلك فيقيمه مقامه ويستعين به؛ لشغله بالرعية، والمتكلف هو القاصُّ الذي يتكلم في القصص السالفة ويقص أخبار مَن مضىٰ؛ لأن ذلك لا يُحتاج إليه في الحال، ولم يُندَب إليه المتكلم، وقد تدخله الزيادة والنقصان والاختلاف، فلذلك كُره القصص، فصار القاصُّ من المتكلفين، وقد جاء في لفظ الحديث الآخَر بتأويل معناه: لا يتكلم علىٰ الناس إلا ثلاثة: أمير أو مأمور أو مُراءٍ. هذا كله كلام صاحب القوت، وأما تخريج الحديث وتحقيقه فقد تقدم مبسوطًا في الباب الثاني.

(وقال بعضهم) ونص القوت[١]: وقال بعض العلماء: **(كان الصحابة)** والتابعون بإحسان **(يتدافعون أربعة أشياء)** أي يدافعون أنفسهم عن ارتكابها: **(الإمامة)** وهو التقدُّم علىٰ المصلِّين **(والوديعة)** من المال وغيره **(والوصية)** عن الأموات **(والفتوىٰ)** هكذا هو نص القوت.

(وقال بعضهم: كان أسرعهم إلىٰ الفتيا أقلهم علمًا، وأشدهم دفعًا لها) وتوقُّفًا عنها **(أورعهم)** هكذا نص القوت.

وأخرج الدارمي في مسنده[٢] من طريق عبيد الله بن أبي جعفر المصري مرسَلاً: «أجرؤكم علىٰ الفتيا أجرؤكم علىٰ النار».

قال المناوي[٣]: أي أقدمكم علىٰ دخولها؛ لأن المفتي يبيِّن عن الله حكمه، فإذا أفتىٰ علىٰ جهل أو بغير ما علمه أو تهاون في تحريره أو استنباطه فقد تسبَّب في إدخال نفسه النار؛ لجراءته علىٰ المجازفة في أحكام الجبَّار. وقال ابن المنكدر:

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٢٩.

(٢) سنن الدارمي ١/ ٦٩.

(٣) فيض القدير ١/ ١٥٨.

المفتي يدخل بين الله وبين عباده، فلينظر كيف يفعل، فعليه التوقُّف والتحرُّز؛ لعِظَم الخطر.

وقال الحكماء[1]: من العلم أن لا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من لا يعلم، فحسبك خجلاً من نفسك وعقلك أن تنطق بما لا تفهم.

(وكان شغل الصحابة والتابعين) لهم بإحسان **(في خمسة أشياء: قراءة القرآن)** دراسةً وتعليمًا **(وعمارة المساجد)** بالصلوات في الجماعات **(وذِكر الله تعالىٰ)** سرًّا وجهرًا في كل الأحيان **(والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر)** شرعًا؛ نقله صاحب القوت عن بعض السلف.

قلت: أخرج اللالكائي في كتاب السنة[2] من رواية صبيح بن عبد الله الفرغاني قال: حدثنا أبو إسحاق الفَزاري عن الأوزاعي قال: كان يقال: خمس كان عليها أصحاب محمد ﷺ والتابعون بإحسان: لزوم الجماعة، واتِّباع السنَّة، وعمارة المساجد، وتلاوة القرآن، والجهاد في سبيل الله.

(وذلك لما سمعوا من قوله ﷺ: كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ثلاثة: أمر بمعروف، أو نهيٌ عن منكر، أو ذِكر الله تعالىٰ) هكذا أورده صاحب القوت بلا سند. وقال العراقي: رواه الترمذي[3] وابن ماجه[4] من رواية صفية بنت شيبة عن أم حبيبة ﷺ رفعته فذكرته دون قوله: ثلاث، وقال ابن ماجه: إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالتعريف. قال الترمذي: حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن يزيد بن خُنَيس. قال العراقي: وهو ثقة، وذكره ابن حبان في كتاب

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٨٥.

(٢) شرح أصول اعتقادات أهل السنة والجماعة ١/ ٦٤.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٢١٢.

(٤) سنن ابن ماجه ٥/ ٤٦٠.

الثقات[١].

قلت: وأخرجه ابن السني[٢] والطبراني في الكبير[٣] وابن شاهين في «الترغيب في الذكر» والعسكري في الأمثال والحاكم[٤] والبيهقي[٥] من هذا الطريق، ولفظهم: «كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا أمرًا بمعروف، أو نهيًا عن منكر، أو ذكرًا لله عز وجل».

(**وقال تعالىٰ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ الآية**) وتمامها: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] هكذا أورد صاحب القوت هذه الآيةَ هنا بعد الحديث.

(**ورأىٰ بعضُ العلماء بعضَ أصحاب الرأي من أهل الكوفة**) ونص القوت[٦]: ورأىٰ بعض أهل الحديث بعض فقهاء أهل الكوفة من أهل الرأي بعد موته (**في المنام، فقال: ما رأيتَ فيما كنتَ عليه**) ونص القوت: قال: فقلت له: ما فعلت فيما كنت عليه (**من الفتيا والرأي**) قال: (**فكره وجهه، وأعرض عنه**) ونص القوت: عني (**وقال: ما وجدنا شيئًا**) ونص القوت: ما وجدناه شيئًا (**وما حمدنا عاقبته**) ثم ذكر صاحب القوت هنا منام نصر بن علي الجهضمي في حق الخليل بن أحمد، وقد تقدم ذِكرُه للمصنف، وشرحناه هناك، ثم قال: وحدَّثونا عن بعض الأشياخ قال: رأيت بعض العلماء في المنام، فقلت له: ما فعلت تلك العلومُ التي كنا نجادل فيها ونناظر عليها؟ قال: فبسط يده ونفخ فيها وقال: طاحت كلها هباءً منثورًا، ما

---

(١) الثقات ٩/ ٦١ ونصه: «محمد بن يزيد بن خنيس المخزومي، أبو عبد الله المكي، كان من خيار الناس، ربما أخطأ، يجب أن يعتبر حديثه إذا بين السماع في خبره ولم يرو عنه إلا ثقة، فأما عبد الله بن المسيب فعنده عنه عجائب كثيرة لا اعتبار بها».

(٢) عمل اليوم والليلة ص ٢٠.

(٣) المعجم الكبير ٢٣/ ٢٤٣.

(٤) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٦٠٣.

(٥) شعب الإيمان ٢/ ٥٦، ٧/ ٣٠.

(٦) قوت القلوب ١/ ٢٢٩.

انتفعت إلا بركعتين خلصتا لي في جوف الليل.

ثم قال: وحدَّثونا عن أبي داود السجستاني قال: كان بعض أصحابنا كثير الطلب للحديث، حسن المعرفة به، فمات، فرأيته في النوم، فقلت: ما فعل الله بك؟ فسكت، فأعدت عليه، فسكت، فقلت: غفر الله لك؟ قال: لا. قلت: لِمَ؟ قال: الذنوب كثيرة، والمناقشة دقيقة، ولكن قد وُعدت بخير، وأنا أرجو خيرًا. قلت: أيُّ الأعمال وجدتَها فيما هناك أفضل؟ قال: قراءة القرآن والصلاة في جوف الليل. قلت: فأيُّما أفضل ما كنت تقرأ أو تقرئ؟ فقال: ما كنت أقرأ. قلت: وكيف وجدتَ قولنا: فلان ثقة وفلان ضعيف؟ فقال: إن خلصت فيه النية لم يكن لك ولا عليك.

ثم ذكر بعد ذلك منامًا آخر عن أحمد بن عمر الخلقاني، أعرضت عن ذِكره هنا لطوله[1].

(**وقال أبو حَصِين**) كأمير؛ هكذا هو في القوت، وهكذا ضبطه ابن حبيب عن الكلبي[2]، وهو عثمان بن عاصم بن حَصين الأسدي الذي روىٰ عنه سفيان الثوري. وأخرج أبو نعيم في الحلية[3] في ترجمة الشعبي من رواية مالك بن مغول:

---

(١) قال أبو طالب المكي: «وحدثت عن بعض الشيوخ قال: حدثني أحمد بن عمر الخلقاني قال: أريت في منامي كأني في طريق أمضي إذ صادفني رجل فأقبل علي وهو يقول: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] فقلت له: لي تعني؟ فقال: لك ولذاك الذي خلفك. فالتفت فإذا سري ﷺ، فأعرضت عن الرجل وأقبلت علىٰ السري وقلت: هذا أستاذنا ومؤدبنا الذي كان يؤدبنا في الدني. ثم قلت له: يا أبا الحسن، إنك قد صرت إلىٰ الله تعالىٰ، فأخبرنا بأي عمل تقبله الله تعالىٰ. فأخذ بيدي ثم قال: تعال. فجئت أنا وهو إلىٰ بنية مثل الكعبة، فوقفنا إلىٰ جانبها، إذ أشرف علينا من البنية شخص فأضاء ذلك الموضع منه، فأومأ سري إليه وأشالني نحوه، وكان سري قصيرًا، وأنا أيضًا قصير، فمد ذلك الشخص الذي كان فوق البنية يده فأخذني فشالني إليه، فلم أقدر أفتح عيني من أنوار كانت في ذلك المكان، ثم قال لي: قد سمعت كلامك مع الشيخ، كل خلق في القرآن محمود تفعله، وكل خلق في القرآن مذموم تنتهي عنه، وحسبك هذا».

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٨/ ٤٠٣.

(٣) حلية الأولياء ٤/ ٣١١.

قيل للشعبي: أيها العالِم. فقال: ما أنا بعالم، وما أرىٰ عالمًا، وإن أبا حصين رجل صالح. وفي بعض نسخ الكتاب: وقال ابن حصين، وفي بعضها: وقال أبو حفص، وكل ذلك خطأ، والصواب الأول . قال الواقدي[1] : عداده في مُرَّة بن الحارث، وهو من بني جُشَم بن الحارث، توفي سنة ثمان وعشرين ومائة. قال البخاري[2]: سمع [ابن عباس و] سعيد بن جبير والشعبي وشريحًا، وسمع منه الثوري وشعبة وابن عيينة. أثنىٰ عليه أحمد وابن معين[3] **(إن أحدهم لَيفتي في المسألة)** ونص القوت[4]: في مسألة **(لو وردت علىٰ عمر بن الخطاب** رضي الله عنه **لجمع لها أهل بدر)** هكذا أورده صاحب القوت. أي: يتسارعون في الفتيا من غير مشورة، ومن غير إتقان، ومن غير إيقان.

قلت: وهذا القول أورده الإمام أبو بكر البيهقي[5] عن الحاكم أبي عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا عباس بن محمد، حدثنا منصور بن سلمة، أخبرنا ابن شهاب قال: سمعت أبا حصين يقول: إن أحدهم لَيفتي في المسألة ولو وردت ... ثم ساقه كسياق المصنف، هكذا أخرجه ابن عساكر في التاريخ[6] عن أبي المعالي محمد بن إسماعيل عن البيهقي بالإسناد السابق. وأخرج أيضًا من طريق الحُمَيدي عن سفيان قال: كان أبو حصين إذا سُئل عن مسألة قال: ليس لي بها علم، والله أعلم. وفي رواية: ليس لي علم، والله بها أعلم.

---

(١) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد ٨/ ٤٣٩ ونصه: «وهو من بني جشم بن الحارث بن سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة، وعداده في بني كثير بن زيد بن مرة بن الحارث بن سعد».

(٢) التاريخ الكبير ٦/ ٢٤٠. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٣) في تهذيب التهذيب لابن حجر ٣/ ٦٦: «قال أحمد: كان صحيح الحديث. قيل له: أيما أصح حديثًا هو أو أبو إسحاق؟ قال: أبو حصين أصح حديثًا بقلة حديثه. وقال ابن معين: ثقة».

(٤) قوت القلوب ١/ ٢٣٠.

(٥) المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ ٢/ ٢٦٨.

(٦) تاريخ دمشق ٣٨/ ٤١٠.

زاد صاحب القوت: وقال غيره: يُسئل أحدهم عن الشيء فيسرع للفتيا، ولو سُئل عنها أهل بدر لأعضلتهم.

وأخرج أبو نعيم في الحلية[١] من رواية أحمد بن حنبل عن سفيان عن الشعبي أنه إذا سألوا عن الملتبس قال: زباء ذات وبر[٢] لا تنقاد ولا تنساق، ولو سُئل عنها أصحاب محمد ﷺ لعضلت بهم.

(**فلم يزل السكوت دأب أهل العلم**) والمعرفة (**إلا عند الضرورة**) الداعية، فيحل لهم الكلامُ، بل يجب في بعض المقام، كما تقدم (**وفي الخبر: إذا رأيتم الرجل قد أوتي صمتًا وزهدًا فاقتربوا منه؛ فإنه يلقّن الحكمة**) كذا في نسخ الكتاب، والرواية: يُلقَّىٰ الحكمة؛ هكذا أورده صاحب القوت بلا إسناد. وقال العراقي: رواه ابن ماجه[٣] من رواية أبي فروة عن أبي خَلاَّد - وكانت له صحبة - قال: قال رسول الله ﷺ .. فذكره بلفظ: قد أُعطي زهدًا في الدنيا وقلة منطق. وأبو فروة تُكُلِّم في سماعه من أبي خلاد، وأشار إليه البخاري في «التاريخ الكبير»[٤] فقال: أبو فروة عن أبي مريم عن أبي خلاد عن النبي ﷺ. قال: وهذا أصح.

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ٣١٩.

(٢) كذا في المطبوعة، وفي الحلية: زياد ذات وقر.

(٣) سنن ابن ماجه ٥/ ٥٥٢.

(٤) التاريخ الكبير ٩/ ٢٨ ونصه: «قال عبد الله بن يوسف: حدثنا الحكم بن هشام، عن يحيىٰ بن سعيد ابن أبان، عن أبي فروة، عن أبي خلاد - وكانت له صحبة - عن النبي ﷺ قال: إذا رأيتم أعطي زهدًا في الدنيا وله منطق فإنه يلقن الحكمة. وقال القاسم بن أبي شيبة: حدثنا كثير بن هشام، أراه عن الحكم بن هشام، عن يحيىٰ بن سعيد الأنصاري نحوه. وقال أحمد بن إبراهيم: حدثنا يحيىٰ بن سعيد بن أبان بن سعيد بن العاص عن عنبسة، سمع أبا فروة الجزري عن أبي مريم عن أبي خلاد عن النبي ﷺ مثله، والأول أصح».

قلت: وأخرجه كذلك أبو نعيم في الحلية[1] والبيهقي[2]، إلا أن في رواية أبي نعيم: إذا رأيتم العبد يُعطَىٰ .. والباقي مثل سياق ابن ماجه.

والمعنىٰ[3]: مَن اتَّصف بذلك فأعماله منقحة، وأفعاله محكمة [فإنه يرىٰ الأشياء كما هي؛ لأنه] ينظر بنور الله، ومَن كان هذا وصفه أصاب في منطقه.

(وقيل: **العالم إما عالم عامة**) ونص القوت[4]: وقال بعض العلماء: كان أهل العلم علىٰ ضربين: عالم عامة، وعالم خاصة؛ فأما عالم العامة (**وهو**) ونص القوت: فهو (**المفتي**) في الحلال والحرام (**وهم**) ونص القوت: فهؤلاء (**أصحاب الأساطين**) جمع أسطوانة، وهي سواري المسجد (**أو عالم خاصة وهم العلماء**) ونص القوت: وأما عالم الخاصة فهو العالم (**بالتوحيد وأعمال القلوب**) ونص القوت: بعلم المعرفة والتوحيد (**وهم أرباب**) ونص القوت: وهؤلاء أهل (**الزوايا**) جمع زاوية، وهم (**المتفرقون المنفردون**) أي عن الناس (**وكان يقال**) ونص القوت: وقد كانوا يقولون: (**مَثَل**) الإمام (**أحمد بن حنبل**) رحمه الله (**مثل دَجْلة**) بفتح الدال، النهر المعروف (**كل واحد يغرف منها**) ونص القوت: كل أحد يغرفها (**ومثل بشر بن الحارث**) الحافي (**مثل بئر عذبة**) الماء في فلاة (**مغطاة**) بالحجارة ونحوها (**لا يقصدها إلا واحد بعد واحد**) وهذا لأن الإمام أحمد كان يفتي للعامة والخاصة، وأما بشر فإنه كان بعيد الغور، لا يستفيد منه إلا كل عارف (**و**) قد (**كانوا يقولون: فلان عالم، وفلان متكلم، وفلان أكثر كلامًا**) إلىٰ هنا نص القوت. زاد المصنف: (**وفلان أكثر علمًا**) زاد صاحب القوت: وقال حماد بن زيد: قيل لأيوب: العلم اليوم أكثر أو فيما مضىٰ؟ فقال: العلم فيما مضىٰ كان أكثر، والكلام

---

(١) حلية الأولياء ١٠/ ٤٠٥.

(٢) شعب الإيمان ١٣/ ١٢٢.

(٣) فيض القدير للمناوي ١/ ٣٥٨. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٤) قوت القلوب ١/ ٢٤٥.

اليوم أكثر. ففرَّق بين العلم والكلام.

(وقال **أبو سليمان**) عبد الرحمن بن عطية الداراني. ونص القوت: وكان أبو سليمان يقول: (**المعرفة إلىٰ السكوت أقرب منها إلىٰ الكلام**) وقال بعض العارفين: هذا العلم علىٰ قسمين، نصفه صمتٌ، ونصفه تدري أين تضعه. وزاد آخر: نصفه وجد ونصفه نظر، يعني تفكُّرًا واعتبارًا. وسُئل سفيان عن العالِم مَن هو؟ فقال: من يضع العلم في مواضعه، ويوفي كلَّ شيء حقه.

(وقيل) ونص القوت: وقال بعض الحكماء: (**إذا كثر العلم قل الكلام، وإذا كثر الكلام قل العلم**) ومن ذلك قول بعض العارفين: مَن عرف الله قل كلامُه. وكان إبراهيم الخَوَّاص يقول: الصوفي كلما زاد علمه نقصت طينته. كذا.

(وكتب) أبو عبد الله (**سلمان**) الفارسي الملقَّب بالخير، أصله من أصفهان(١)، له صحبة، وأول مشاهده الخندق، توفي سنة أربع وثلاثين، يقال: بلغ ثلاثمائة سنة. وفي الحديث: «اشتاقت الجنة إلىٰ أربعة: علي، والمقداد، وعمار، وسلمان»(٢). وكان أميرًا بالمدائن علىٰ زهاء ثلاثين ألفًا من المسلمين، ولا يأكل إلا من كدِّ يده،

---

(١) روىٰ البخاري في صحيحه ٣/ ٨٠ عن سلمان قال: أنا من رامهرمز. زاد ابن عبد البر في الاستيعاب ١/ ٣٨١: من قرية يقال لها: جي. ونقل ابن حجر في تهذيب التهذيب ١/ ٦٩ عن ابن منده أن اسمه: مابه بن بوذخشان بن مورسلا بن بهبوذان، وأنه أدرك وصي عيسىٰ ﷺ، وأنه عاش مائتين وخمسين سنة أو أكثر. وقال العباس بن يزيد: أهل العلم يقولون: عاش سلمان ثلاثمائة وخمسين سنة، فأما مائتين وخمسين فلا يشكون فيه. قال ابن حجر: قال أبو عبيد وغيره: مات سنة ٣٦، وقال خليفة بن خياط: مات سنة ٣٧، وقيل: مات سنة ٣٣، وهو أشبه؛ لما روىٰ عبد الرزاق عن أنس قال: دخل ابن مسعود علىٰ سلمان عند الموت. وقد مات ابن مسعود قبل سنة ٣٤ باتفاق.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ: الطبراني في المعجم الكبير ٦/ ٢١٥، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ١٤٢، ١٩٠، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٠/ ١٧٧، كلهم من حديث أنس بن مالك. وأخرجه الترمذي في سننه ٦/ ١٣١ بلفظ: إن الجنة لتشتاق إلىٰ ثلاثة: علي وعمار وسلمان. ولم يذكر المقداد، وقال: حديث حسن غريب.

وكان يخطب الناس في عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها[١] **(إلىٰ أبي الدرداء ﷺ، وكان قد آخىٰ بينهما رسولُ الله ﷺ)** فيمَن آخَىٰ. أخرجه البخاري[٢] من رواية عون بن أبي جُحَيفة عن أبيه، وفيه: فزار سلمانُ أبا الدرداء، فرأىٰ أم الدرداء متبذِّلة ... الحديث. ورواه الترمذي[٣] وقال: حسن صحيح؛ قاله العراقي.

قلت: وأخرجه أبو نعيم في الحلية[٤] من هذا الطريق، إلا أنه ليس فيها ذكر المؤاخاة.

وقد أنكر المؤاخاة الحافظُ ابن تيمية في كتابه الذي أَلَّفه في الرد علىٰ [ابن] المطهَّر الرافضي، ونسبه إلىٰ وضع الروافض، وهذا رده عليه الحافظُ ابن حجر في «فتح الباري»، وأوسع فيه الكلام، فراجِعْه[٥].

---

(١) الزهد للإمام أحمد ص ١٢٤.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٥٠، ٤/ ١١٦.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٢١٢.

(٤) حلية الأولياء ١/ ١٨٨.

(٥) المقصود أن ابن تيمية أنكر المؤاخاة في المهاجرين. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٢١٦ - ٢١٧): (وأنكر ابن تيمية في كتاب الرد علىٰ المطهر الرافضي المؤاخاة بين ....

«ذكر أصحاب المغازي أن المؤاخاة بين الصحابة وقعت مرتين، الأولىٰ قبل الهجرة بين المهاجرين خاصة علىٰ المواساة والنصرة، فكان من ذلك أخوة زيد بن حارثة وحمزة بن عبد المطلب، ثم آخىٰ النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار بعد أن هاجر، وذلك بعد قدومه المدينة، وذكر الواقدي أن ذلك كان بعد قدومه ﷺ بخمسة أشهر والمسجد يبنىٰ، وقد سمىٰ ابن إسحاق منهم جماعة منهم أبو ذر والمنذر بن عمرو، فأبو ذر مهاجري، والمنذر أنصاري، وأنكره الواقدي؛ لأن أبا ذر ما كان قدم المدينة بعد، وإنما قدمها بعد سنة ثلاث، وذكر ابن إسحاق أيضاً الإخوة بين سلمان وأبي الدرداء، وتعقبه الواقدي فيما حكاه ابن سعد أن سلمان إنما أسلم بعد وقعة أحد، وأول مشاهده الخندق. والجواب عن ذلك كله أن التاريخ المذكور للهجرة الثانية هو ابتداء الأخوة، ثم كان النبي ﷺ يؤاخي بين من يأتي بعد ذلك وهلم جرا، وليس باللازم أن تكون المؤاخاة وقعت دفعة واحدة حتىٰ يردها هذا التعقب، فصح ما قاله ابن إسحاق، وأيده هذا الخبر الصحيح، وارتفع الإشكال بهذا التقرير. واعترض الواقدي من جهة أخرىٰ فروىٰ عن الزهري أنه كان ينكر كل مؤاخاة =

(يا أخي، بلغني أنك قعدت) كذا في النسخ، ونص القوت[1]: أقعدت **(طبيبًا تداوي المرضىٰ، فانظر فإن كنت طبيبًا فتكلم؛ فإن كلامك شفاء، وإن كنت متطبّبًا فالله الله لا تقتل مسلمًا. فكان أبو الدرداء يتوقف بعد ذلك إذا سُئل)** عن شيء؛ هكذا أورده صاحب القوت، وقال: كتب سلمان من المدائن إلىٰ أبي الدرداء ... الخ، زاد: وسأله إنسان [عن شيء] فأجابه، ثم قال: رُدُّوه، فقال [له]: أَعِدْ عليَّ. فأعاد، فقال: متطبِّب واللهِ. فرجع في جوابه. ثم قال صاحب القوت: ولعَمْري إنه قد جاء عن رسول الله ﷺ: «مَن تطبَّب ولم يُعلَم منه طب فقتل فهو ضامن»[2].

قلت: وهذا الذي ذكره المصنف تبعًا لصاحب القوت فقد أخرجه أبو نعيم في الحلية[3] في ترجمة سلمان فقال: حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني مصعب بن عبد الله، حدثني مالك بن أنس، عن يحيىٰ بن سعيد أن أبا الدرداء كتب إلىٰ سلمان: هلمَّ إلىٰ الأرض المقدَّسة. فكتب إليه سلمان: إن الأرض المقدَّسة لا تقدِّس أحدًا، وإنما يقدس الإنسان عمله، وقد بلغني أنك جُعلت طبيبًا، فإن كنت تُبرِئ فنعما لك، وإن كنت متطببًا فاحذر أن تقتل إنسانًا فتدخل النار. فكان أبو الدرداء إذا قضىٰ بين اثنين فأدبرا عنه نظر إليهما

= وقعت بعد بدر ويقول: قطعت بدر المواريث. قلت: وهذا لا يدفع المؤاخاة من أصلها، وإنما يدفع المؤاخاة المخصوصة التي كانت عقدت بينهم ليتوارثوا بها، فلا يلزم من نسخ التوارث المذكور أن لا تقع المؤاخاة بعد ذلك علىٰ المواساة ونحو ذلك، وقد جاء ذكر المؤاخاة بين سلمان وأبي الدرداء من طرق صحيحة غير هذه، وذكر البغوي في معجم الصحابة من طريق جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال: آخىٰ النبي ﷺ بين أبي الدرداء وسلمان ... فذكر قصة لهما غير المذكورة هنا، وروىٰ ابن سعد من طريق حميد بن هلال قال: آخىٰ بين سلمان وأبي الدرداء، فنزل سلمان الكوفة، ونزل أبو الدرداء الشام. ورجاله ثقات».

(١) قوت القلوب ١/ ٢٥٤. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ٥/ ١٧٦ والنسائي في سننه ص ٧٣٧ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٣) حلية الأولياء ١/ ٢٠٥.

وقال: متطبب واللهِ، ارجعا إليَّ، أعيدا قصَّتكما.

رواه جرير عن يحيىٰ بن سعيد عن عبد الله بن هبيرة أن سلمان كتب إليه ... فذكره.

ثم قال: حدثنا أبو بكر ابن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عبد الصمد بن حسان، حدثنا السري بن يحيىٰ، عن مالك بن دينار أن سلمان كتب إلىٰ أبي الدرداء: إنه بلغني أنك أُجلست طبيبًا تداوي الناس، فانظر أن تقتل مسلمًا فتجب لك النار.

(وكان أنس) بن مالك (رضي الله عنه **يقول إذا سُئل)** عن مسألة: **(سَلُوا مولانا الحسن)** يعني البصري؛ فإنه قد حفظ ونسينا. هكذا أورده صاحب القوت. زاد غيره[١]: قالوا: يا أبا حمزة، نسألك فتقول: سلوا الحسن مولانا. قال: سلوا مولانا الحسن؛ فإنه سمع وسمعنا، فحفظ ونسينا.

وإنما قال «مولانا» لكون ولائه للأنصار، قيل: لزيد بن ثابت، وقيل: لجابر ابن عبد الله، وقيل: لجميل بن قُطْبة، وقيل: لأبي اليَسَر، ويقال: إنه من سبي مَيْسان، فاشترته الرُّبَيِّع بنت النضر عمَّة أنس فأعتقته[٢]، فلذلك قال: مولانا.

(وكان ابن عباس ﷺ إذا سُئل يقول: سلوا جابر بن زيد) فلو نزل أهل البصرة علىٰ فتياه لوسعهم. وكان من صالحي التابعين. هكذا أورده صاحب القوت.

قلت: وجابر بن زيد هو الأزدي ثم الجَوْفي البصري، أبو الشعثاء، مشهور بكنيته، ثقة، فقيه، مات سنة ثلاث وتسعين[٣].

---

(١) هذه الزيادة ذكرها أبو الوليد الباجي في كتابه التعديل والتجريح لمن روىٰ عنه البخاري في الصحيح ١/ ٤٨٩ (ط - وزارة الشؤون الإسلامية بالمغرب).

(٢) تهذيب الكمال ٦/ ٩٦. طبقات ابن سعد ٩/ ١٥٧.

(٣) تقريب التهذيب لابن حجر ص ١٩١ وزاد: «ويقال: ثلاث ومائة».

وهذا الذي أورده صاحب القوت وتبعه المصنف فقد أخرج أبو نعيم في الحلية[1] من رواية سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال: سمعت عطاء قال: قال ابن عباس: لو نزل أهل البصرة بجابر بن زيد لأوسعهم علمًا من كتاب الله تعالىٰ. وقال عمرو بن دينار: ما رأيت أحدًا أعلم بالفتيا من جابر بن زيد.

وأخرج من رواية عرعرة بن البرند، حدثني تميم بن حُدَير السُّلَمي، عن الرباب قال: سألت ابن عباس عن شيء، فقال: تسألوني وفيكم جابر بن زيد؟

وأخرج من طريق زياد بن جُبَير قال: سألت جابر بن عبد الله الأنصاري عن مسألة، فقال فيها، ثم قال: تسألوني[2] وفيكم أبو الشعثاء؟

(**وكان ابن عمر ﷺ يقول: سلوا سعيد بن المسيَّب**) هكذا أورده صاحب القوت، وهو من فقهاء التابعين.

(**ويُحكَىٰ أنه روىٰ صحابي في مجلس فيه الحسن عشرين حديثًا، فسُئل عن تفسيرها**) ونص القوت: وقال بعض البصريين: قدم علينا رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، فأتينا الحسن فقلنا: ألا نذهب إلىٰ هذا الصحابي فنسأله عن حديث رسول الله ﷺ وتجيء معنا؟ قال: نعم، فاذهبوا. قال: فجعلنا نسأله عن حديث رسول الله ﷺ، وجعل يحدثنا، حتىٰ حدثنا عشرين حديثًا. قال: والحسن ينصت يستمع إليه، ثم جثا الحسن علىٰ ركبتيه فقال: يا صاحب رسول الله، أخبِرْنا بتفسير ما رويت عن رسول الله ﷺ حتىٰ نفقه فيه. فسكت الصحابي (**فقال: ما عندي إلا ما رأيت**) ونص القوت: وقال: ما سمعت، بدل: ما رأيت (**فأخذ الحسن في تفسيرها حديثًا حديثًا**) وفي القوت: فابتدأ الحسن يفسر ما رواه فقال: أما الحديث [الأول] الذي حدثتنا به فإن تفسيره كيت وكيت، والحديث الثاني تفسيره كذا وكذا ... حتىٰ

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ٨٥ - ٨٦.

(٢) في الحلية: كيف تسألوننا.

سرد عليه الأحاديث كلها كما حدثنا بها وأخبرنا بتفسيرها **(فتعجَّبوا من حسن تفسيره وحفظه)** ونص القوت: قال: فلا ندري نعجب من حسن حفظه إياه وأدائه للحديث أو من علمه وتفسيره. قال: **(فأخذ الصحابي كفًّا من حصىٰ ورماهم به)** ونص القوت: وحصبنا به ثم **(قال: تسألوني عن العلم وهذا الحبر بين أظهركم)** زاد صاحب القوت: فهؤلاء أصحاب النبي ﷺ يردُّون الأمور في الفتيا وعلم اللسان إلىٰ مَن هو دونهم في القَدْر والمنزلة، وهم في علم التوحيد والمعرفة والإيمان فوقهم درجات، ولا يرجعون إليهم في الشبهات، ولا يردُّون إليهم في علم المعرفة واليقين، فهذا كما قيل: العلم نور يقذفه الله تعالىٰ في قلوب أوليائه، فقد يكون ذلك تفضيلاً للنُّظَراء بعضهم علىٰ بعض، وقد يكون تخصيصًا للشباب علىٰ الشيوخ ولمَن جاء بعد السلف من التابعين، وربما كان تكرمة للخاملين المتواضعين لينبه عليهم ويُعرَفوا ليُرفَعوا[1]، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ [القصص: ٥].

وأخرج أبو نعيم في الحلية[2] من رواية علي بن المديني قال: كان سفيان بن عيينة إذا سُئل عن شيء يقول: لا أحسِن، فيقال: مَن نسأل؟ فيقول: سَلِ العلماءَ، وسَلِ اللهَ التوفيقَ.

(ومنها) أي ومن علامات علماء الآخرة: **(أن يكون أكثر اهتمامه)** واعتنائه **(بعلم الباطن)** وهو[3] العلم بالله عَزَّوَجَلَّ الدال علىٰ الله [الرادُّ إليه] الشاهد بالتوحيد له من علم الإيمان واليقين وعلم المعرفة والمعاملة دون سائر علوم الفتيا والأحكام، وبذلك فُضِّل علىٰ العمل، وفُضِّل صاحبه علىٰ غيره في قولهم: ذَرَّة من علم أفضل من كذا وكذا من العمل، وركعتان من عالِم أفضل من ألف ركعة من عابد، وغير

---

(١) في القوت: ويعرفون شأنهم ليعظموا ويرفعوا.

(٢) حلية الأولياء ٧/ ٢٧٥.

(٣) قوت القلوب ١/ ٢٤٠.

ذلك من الأحاديث والآثار التي تقدم ذِكرُها في أول الكتاب (و) من علاماته: أن يكون مهتمًّا في (**مراقبة القلب**) ومحافظته من مداخلة الوساوس، ومخالطة النفثات الشيطانية (و) أن يكون مهتمًّا في (**معرفة طريق الآخرة و**) كيفية (**سلوكه**) بواسطة مرشد كامل أو عارف حاذق يستفيد ذلك بمجالسته (**وصِدق الرجاء**) وتحقيق الأمنية (**في انكشاف ذلك**) وتحصيله (**من المجاهدة**) الباطنية بالرياضات الشرعية (**والمراقبة**) مع الله تعالىٰ بذكره دائمًا (**فإن المجاهدة**) أساس هذا السلوك، ولا يتم الأمرُ إلا بها، وهي (**تفضي**) وتوصل (**إلىٰ**) مقام (**المشاهدة ودقائق**) أسرار (**علم القلب، وتنفجر بها**) أي بالمجاهدة (**ينابيعُ الحكمة من القلب**) وإليه الإشارة بما ورد: «مَن أخلص لله أربعين يومًا تفجَّرت ينابيع الحكمة من قلبه علىٰ لسانه»(١)؛ لأن إخلاص العبودية للربوبية وإخلاص الأعمال من الهوىٰ الدنيوي هو عين المجاهدة، والنور(٢) إذا جُعل في الصدر انشرح القلب بالعلم، ونظر باليقين فنطق اللسان بحقيقة البيان وهو الحكمة التي أودعها الله عَزَّوَجَلَّ في قلوب أوليائه (**وأما كتب**

---

(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب ١/ ٢٨٥ من حديث ابن عباس، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ١٨٩ من حديث أبي أيوب الأنصاري، وابن عدي في الكامل ٤/ ١٩٤٥ من حديث أبي موسىٰ الأشعري. قال ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ١٤٥ بعد أن أخرجه من حديث الثلاثة: «هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، أما حديث أبي أيوب ففيه يزيد بن عبد الرحمن الواسطي، قال ابن حبان: كان كثير الخطأ، فاحش الوهم، خالف الثقات في الروايات، لا يجوز الاحتجاج به. وحجاج مجروح، ومحمد بن إسماعيل مجهول، ولا يصح لقاء مكحول لأبي أيوب، وقد ذكر محمد بن سعد أن العلماء قدحوا في رواية مكحول وقالوا: هو ضعيف في الحديث. وأما حديث أبي موسىٰ فقال ابن عدي: هو منكر، وعبد الملك مجهول. وأما حديث ابن عباس فقال أحمد ويحيىٰ والنسائي: سوار ابن مصعب متروك الحديث، وقال يحيىٰ: ليس بثقة ولا يكتب حديثه. قلت: وقد عمل جماعة من المتصوفة والمتزهدين علىٰ هذا الحديث الذي لا يثبت، وانفردوا في بيت الخلوة أربعين يوما، وامتنعوا عن أكل الخبز، وكان بعضهم يأكل الفواكه، ويتناول الأشياء التي تتضاعف قيمتها علىٰ قيمة الخبز، ثم يخرج بعد الأربعين يهذي ويخيل إليه أنه يتكلم بالحكمة، ولو كان الحديث صحيحا فإن الإخلاص يتعلق بقصد القلب لا بفعل البدن، فلله در العلم».

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٥٥.

التعليم) وما[1] استُودع فيها مما سمعه من غيره عمَّن تقدم طريقه السمع، ومفتاحه الاستدلال، وخزائنه العقل، يتلقَّاها الصغير عن الكبير، باقية ببقاء الإسلام، وهي مَحَجَّة العموم من خَلْق الله تعالىٰ (**فلا تفي بذلك**) ولا ترشد السالكَ (**بل الحكمة**) الإلهية (**الخارجة عن الحصر والعدِّ إنما تنفتح**) وتنكشف (**بالمجاهدة والمراقبة**) في القلب (**ومباشرة الأعمال الظاهرة**) علىٰ قوانين الشريعة (**والباطنة**) علىٰ ميزان الطريقة (**والجلوس مع الله تعالىٰ**) بغاية الخشوع والخشية (**في الخلوة، مع حضور القلب**) لكونه خزانة الملكوت، وهو باب علم الباطن، ويكون ذلك (**بصافي الفكر**) وخالصه عن المكدِّرات الظاهرية والباطنية (**والانقطاع إلىٰ الله تعالىٰ**) في جميع أحواله (**عما سواه، فذلك مفتاح الإلهام**) الرباني (**ومنبع الكشف**) الصَّمَداني، يرشدك إليه قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩] (**فكم من متعلم**) في العلوم الظاهرة (**طال تعلمُه**) وامتد طلبه حتىٰ أضاع لياليه وأيامه (**ولم يقدر علىٰ مجاوزة مسموعه**) الذي تلقَّفه عن الشيوخ والكتب (**بكلمة**) واحدة، كما هو مشاهَد في كثير من علماء العصر، فتراهم يقفون فيما سمعوه، ويتردَّدون بأنواع المحاورات، ولا يكادون أن يتجاوزوا (**وكم من مقتصر علىٰ**) تحصيل (**المهم في**) قوانين (**التعلُّم، ومتوفِّر علىٰ العمل**) أي مباشرته (**و**) مقبل علىٰ (**مراقبة القلب**) بخالص فكره (**فتح الله**) عَزَّوَجَلَّ (**عليه**) في أدنىٰ زمان وأقرب أوان (**من لطائف الحِكَم**) ودقائقها (**ما تحار فيه عقول ذوي الألباب**) موهبة من الله تعالىٰ، كما اتفق ذلك لكثير من الأولياء العارفين ممن علومهم مأخوذة عن الله تعالىٰ.

---

(١) السابق ١/ ٢٥١ ونصه: «فأما العلم المأثور الذي نقله خلف عن سلف والخبر المرسوم في الكتب المستودع في الصحف الذي يسمعه من غبر عمن قدم فهذا علم الأحكام والفتيا وعلم الإسلام والقضايا، طريقه السمع، ومفتاحه الاستدلال، وخزانته العقل، وهو مدون في الكتب، ومحبر في الورق، يتلقاه الصغير عن الكبير بالألسنة، وهو باق ببقاء الإسلام، وموجود بوجود المسلمين؛ لأنه حجة الله تعالىٰ علىٰ عباده، ومحجة العموم من خلقه».

وفي القوت[١]: أهل الذكر لله تعالىٰ وأهل التوحيد والعمل لله تعالىٰ لم يكونوا يتلقَّون هذا العلم دراسةً من الكتب، ولا يتلقَّاه بعضهم عن بعض بالألسنة، إنما كانوا أهل عمل وحسن معاملات، فكان أحدهم إذا انقطع إلىٰ الله تعالىٰ واشتغل به واستعمله المولىٰ بخدمته بأعمال القلوب وكانوا عنده في الخلوة بين يديه لا يذكرون سواه، ولا يشتغلون بغيره، فإذا ظهروا للناس فسألوهم ألهمهم الله تعالىٰ رشدهم، ووفَّقهم لسديد قولهم، وآتاهم الحكمة ميراثًا لأعمالهم الباطنة عن قلوبهم الصافية وعقولهم الزاكية وهممهم العالية، فآثرهم بحسن توفيقه؛ إذ ألهمهم حقيقة العلم، وأطلعهم علىٰ مكنون السر حين آثروه بالخدمة، وانقطعوا إليه بحسن المعاملة، فكانوا يجيبون عما عنه يُسئلون بحسن أثرة الله تعالىٰ لهم وبجميل أثره عندهم، فتكلموا بعين القدرة، وأظهروا وصف الحكمة، ونشروا علوم الإيمان[٢]، وكشفوا بواطن القرآن، وهذا هو العلم النافع الذي يقرِّبه إلىٰ ربه ويكون من الموقنين[٣].

(**ولذلك قال ﷺ: مَن عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لم يعلم**) رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وضعَّفه؛ قاله العراقي[٤]. وأورده صاحب القوت[٥] بلا سند، إلا أنه قال: بما يعلم، بدل: بما علم.

وأخرج أبو نعيم في الحلية[٦] في ترجمة أحمد بن أبي الحواري بسنده إليه

---

(١) السابق ١/ ٢٣٢.

(٢) في القوت: ونطقوا بعلوم الإيمان.

(٣) عبارة القوت: «وهذا هو العلم النافع بين العبد وبين الله تعالىٰ، وهو الذي يلقاه به ويسأله عنه ويثيبه عليه، وهو ميزان جميع الأعمال». هذا، وسيعيد الشارح هذا النص بعينه مع زيادات قريبا.

(٤) المغني ١/ ٤٣.

(٥) قوت القلوب ١/ ٢٣٨.

(٦) حلية الأولياء ١٠/ ١٤.

قال[١]: التقىٰ أحمد بن حنبل وأحمد بن أبي الحواري بمكة، فقال أحمد: حدِّثْنا بحكاية سمعتَها من أستاذك أبي سليمان الداراني. فقال: يا أحمد، قل سبحان الله بلا عجب. فقال ابن حنبل: سبحان الله - وطوَّلها - بلا عجب. فقال ابن أبي الحواري: سمعتُ أبا سليمان يقول: إذا اعتقدت النفوس علىٰ ترك الآثام جالت في الملكوت، وعادت إلىٰ ذلك العبد بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالمٌ علمًا. قال: فقام أحمد بن حنبل ثلاثًا وجلس ثلاثًا وقال: ما سمعتُ في الإسلام حكاية أعجب من هذه إليَّ. ثم قال أحمد بن حنبل: حدثني يزيد بن هارون عن حميد الطويل عن أنس رفعه: «مَن عمل بما يعلم ورَّثه الله علم ما لم يعلم». ثم قال لابن أبي الحواري: صدقتَ يا أحمد، وصدق شيخك.

قال أبو نعيم: ذكر أحمد هذا الحديث عن بعض التابعين عن عيسىٰ ابن مريم، فظن بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ[٢].

ومن شواهده ما أخرج أبو نعيم[٣] من رواية نصير بن حمزة عن أبيه عن جعفر بن محمد عن محمد بن علي بن الحسين عن الحسين بن علي عن علي رفعه: «مَن زهد في الدنيا علَّمه الله بلا تعلُّمٍ، وهداه بلا هداية، وجعله بصيرًا، وكشف عنه العمىٰ».

(**وفي بعض الكتب السالفة**) ونص القوت[٤]: وروينا في بعض الأخبار أن في بعض الكتب المنزَّلة: (**يا بني إسرائيل، لا تقولوا: العلم في السماء من ينزل به إلىٰ الأرض، ولا في تخوم الأرض من يصعد به، ولا من وراء البحار من يعبره يأتي**

---

(١) القائل هو يحيىٰ بن معين.

(٢) بعده في الحلية: فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل.

(٣) حلية الأولياء ١/ ٧٢.

(٤) قوت القلوب ١/ ٢٣٨.

به، **العلم مجعول في قلوبكم، تأدَّبوا بين يديَّ بآداب الروحانيين**) أي الملائكة (**وتخلَّقوا لي بأخلاق الصِّدِّيقين، أُظهِرُ العلمَ في قلوبكم حتىٰ يغطيكم ويغمركم**) كذا في النسخ، ونص القوت: حتىٰ يغطيكم ويستركم.

(**وقال**) أبو محمد (**سهل بن عبد الله التستري: خرج العلماء والعُبَّاد والزهاد من الدنيا وقلوبهم مقفلة**) أي عليها أقفال الغفلة (**ولم تُفتَح إلا قلوب الصِّدِّيقين والشهداء. ثم تلا قوله تعالىٰ:** ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] **الآية**) أورده صاحب القوت[١]، وزاد: يعني مقفلة عن مفاتيح المعرفة و[شهادة] عين التوحيد، واعلم أن الفقه صفة القلب، والخوف موجِب الفقه، وعلم العقل داخل في علم الظاهر، والعلم بالله داخل في علم اليقين.

(**ولولا أن إدراك قلب مَن له قلب بالنور الباطن حاكم علىٰ علم الظاهر لَما قال ﷺ: استفتِ قلبك**) وإن أفتاك المفتون. فردَّه إلىٰ فقه القلب، وصرفه عن فتيا المفتين، فلولا أن القلب فقيه لم يجُز أن يدلَّه ﷺ علىٰ غير فقيه، ولولا أن علم الباطن حاكم علىٰ علم الظاهر ما ردَّه إليه، ولا يجوز أن يرده من فقيه إلىٰ فقيه دونه، كيف وقد جاء في بعض الروايات بلفظة مؤكَّدة بالتكرير والمبالغة فقال: (**وإن أفتوك وأفتوك وأفتوك**) وهذا مخصوص لمن كان له قلب وألقىٰ سمعه وشهد قيام شاهده، وعري عن شهواته ومعهوده؛ لأن الفقه ليس من وصف اللسان. حقَّقه صاحب القوت. وتخريج الحديث قد تقدم في الباب الثاني.

(**وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: لا يزال العبد يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببتُه كنت له سمعًا وبصرًا ... الحديث**) أي إلىٰ آخر الحديث، وهو قوله: ويدًا ومؤيِّدًا. أخرجه أبو نعيم بهذا اللفظ في الحلية[٢] من حديث أنس،

---

(١) السابق ١/ ٢٦٢. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٣١٨.

وإسناده ضعيف، وأخرجه البخاري في صحيحه[١] وأبو نعيم في أول الحلية[٢]، وهو أول أحاديث الكتاب، كلاهما من رواية محمد بن عثمان بن كرامة، حدثنا خالد بن مخلد، عن سليمان بن بلال، عن شريك بن أبي نَمِر، عن عطاء، عن أبي هريرة رفعه: «إن الله عَزَّوَجَلَّ قال: مَن عادَىٰ لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذ بي لأعيذنَّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله تردُّدي عن نفس المؤمن، يكره الموت، و[أنا] أكره مساءته، ولا بد له منه».

قال الحافظ الذهبي في الميزان[٣] في ترجمة خالد بن مخلد الراوي عن ابن كرامة: هذا حديث غريب جدًّا، لولا هيبة الجامع الصحيح لعُدَّ من منكَرات خالد بن مخلد، وذلك لغرابة لفظه، ولأنه مما تفرَّد به شريك، وليس بالحافظ[٤].

وروىٰ البيهقي في الزهد[٥] من رواية ابن زحر عن علي بن زيد عن القاسم عن أبي أُمامة رفعه قال: «إن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه، فأكون سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به،

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٩٢.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٤.

(٣) ميزان الاعتدال ١/ ٦٤١.

(٤) بعده في الميزان: ولم يرو هذا المتن إلا بهذا الإسناد، ولا خرجه من عدا البخاري، ولا أظنه في مسند أحمد.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١١/ ٣٤٩ بعد أن نقل كلام الذهبي: «ليس هو في مسند أحمد جزما، وإطلاق أنه لم يرو هذا المتن إلا بهذا الإسناد مردود، ومع ذلك فشريك شيخ شيخ خالد فيه مقال أيضا، وهو راوي حديث المعراج الذي زاد فيه ونقص وقدم وأخر، وتفرد فيه بأشياء لم يتابع عليها، ولكن للحديث طرق أخرىٰ يدل مجموعها علىٰ أن له أصلا».

(٥) الزهد ص ٢٧٣.

وقلبه الذي يعقل به، فإذا دعاني أجبته، وإذا سألني أعطيته، وإذا استنصرني نصرته، وأحب ما تعبَّد به عبدي النصح لي».

وفي الباب عن عائشة وميمونة ﵄، فحديث عائشة عند البزار[١]، وحديث ميمونة عند أبي يعلىٰ[٢].

(فكم من معانٍ دقيقة من أسرار القرآن) وخواصِّه **(تخطر علىٰ قلب المتجرِّدين للذكر والفكر تخلو عنها كتب التفاسير، ولا يطَّلع عليها أفاضل المفسِّرين)** قال سيدي علي وفا قُدِّس سره: مَن داوَمَ إخلاص الذِّكر بفؤاده صار ما بين العرش والفرش طوع مراده. وقال أيضًا: الوسائل مدد مصابيح المقاصد، فبحسب صفاء المدد يكون ضياء المصباح **(وإذا انكشف ذلك للمريد المراقب وعُرِض علىٰ المفسرين)** المنصفين المحفوظين من علائق الشهوة **(استحسنوه)** وقَبِلوه **(وعلموا أن ذلك من تنبيهات القلوب الزكية)** وارداتها الإلهية **(وألطاف الله تعالىٰ)** ومواهبه المُفاضة **(بالهمم العالية المتوجهة إليه)** عما سواه. هذه العبارة بتمامها منتزَعة من القوت بتغيير يسير، ونص القوت[٣]: ولم يكونوا إذا سُئل أحدهم عن مسألة من علم القرآن أو علم اليقين والإيمان يحيل علىٰ صاحبه، ولا يسكت عن الجواب، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧] فهم أهل الذكر لله وأهل التوحيد والعمل لله ﷿، ولم يكونوا يتلقَّون هذا العلم دراسةً من الكتب، ولا يتلقَّاه بعضهم عن بعض بالألسنة، إنما كانوا أهل عمل وحسن معاملات، وكان أحدهم إذا انقطع إلىٰ الله تعالىٰ واشتغل به واستعمله المولىٰ لخدمته بأعمال القلوب وكانوا عنده في الخلوة بين يديه لا يذكرون سواه، ولا يشتغلون بغيره، فإذا ظهروا للناس فسألوهم ألهمهم الله

---

(١) مسند البزار ١٨/ ١٣٧.

(٢) مسند أبي يعلىٰ ١٢/ ٥٢٠.

(٣) قوت القلوب ١/ ٢٣١ - ٢٣٢.

رشدهم، ووفَّقهم لسديد قولهم، وآتاهم الحكمة ميراثًا لأعمالهم الباطنة عن قلوبهم الصافية وعقولهم الزاكية وهممهم العالية، فآثرهم[1] بحسن توفيقه؛ إذ ألهمهم حقيقة العلم، وأطلعهم علىٰ مكنون السر حين آثروه بالخدمة، وانقطعوا إليه بحسن المعاملة، فكانوا يجيبون عما عنه يُسئلون بحسن أثرة الله سبحانه [لهم] وبجميل أثره عندهم، فتكلموا بعين القدرة، وأظهروا وصف الحكمة، ونطقوا بعلوم الإيمان[2]، وكشفوا بواطن القرآن، وهذا هو العلم النافع الذي بين العبد وربه، وهو الذي يلقاه به ويسأله عنه، ويثيبه عليه، وهو ميزان جميع الأعمال[3]، وعلىٰ قَدْر علم العبد بربه تُرجَّح أعماله وتُضاعَف حسناته، وبه يكون عند الله من المقرَّبين؛ لأنه لربه من الموقنين. ا.هـ.

فمن ذلك كلام القطب سيدي علي وفا علىٰ قصة سيدنا موسىٰ في سورة القصص[4]، وشرحه لحديث أم زرع بلسان القوم، فكل مَن طالعهما بعين الإنصاف قضىٰ عجبًا، وفي المتأخرين القطب أبو الحسن البكري، أملىٰ بالجامع الأزهر علىٰ سورة الفاتحة نحو ثلاثمائة مجلس، كل ذلك مشحون بالأسرار والمعارف، ومثل هذا الفيض لا ينكره إلا مَن حُرِمَه.

(وكذلك) الحال (في علوم المكاشفة) بتجلِّي الذات، وإظهار الأفعال الدالة علىٰ معاني الأوصاف الباطنة (وأسرار علوم المعاملة) وعلوم الورع والإخلاص (ودقائق خواطر القلوب) وتلوينات الشواهد علىٰ المريدين، وتفاوت مشاهدات العارفين (فإن كل علم من هذه العلوم بحر) واسع (لا يُدرَك عمقه) ولا يُنتهَىٰ إلىٰ غوره (وإنما يخوضه كل طالب بقَدْر ما رُزق منه) من سعة همَّته وقوة اجتهاده

---

(١) في المطبوعة: فأمدهم. والمثبت من القوت.

(٢) في المطبوعة: الأعمال. والمثبت من القوت.

(٣) في المطبوعة: الإيمان. والمثبت من القوت.

(٤) انظر: طبقات الشعراني ٢/ ٣٣ - ٣٥.

(وبحسب ما وُفِّق له من حسن العمل) بتأييد من ربه وعصمة منه **(وفي وصف هؤلاء العلماء)** أي علماء الآخرة **(قال)** أمير المؤمنين **(علي)** بن أبي طالب (رضي الله عنه) **في حديث طويل)** أورده ابن القيم في «مفتاح دار السعادة»[١]، وأبو طالب المكي في القوت[٢]، والراغب في الذريعة مفرَّقًا، كلهم من غير سند، وأخرجه أبو نعيم في الحلية[٣] في ترجمة علي فقال: حدثنا حبيب بن الحسن، حدثنا موسىٰ بن إسحاق. وحدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، قالا: حدثنا أبو نعيم ضِرار بن صُرَد. ح. وحدثنا أبو أحمد محمد بن محمد بن أحمد الحافظ، حدثنا محمد بن الحسين الخثعمي، حدثنا إسماعيل ابن موسىٰ الفزاري، قالا: حدثنا عاصم بن حميد الخياط، حدثنا ثابت بن أبي صفية أبو حمزة الثمالي، عن عبد الرحمن بن جندب، عن كميل بن زياد قال: أخذ علي بن أبي طالب بيدي فأخرجني إلىٰ ناحية الجَبَّان، فلما أصحرنا جلس، ثم تنفَّس، ثم قال: يا كميل بن زياد **(القلوب أوعية، وخيرها)** كذا في النسخ، والرواية: فخيرها **(أوعاها للخير، و)** احفظ ما أقول لك **(الناس ثلاثة)** وليس في نص الحلية الواو بعد «أوعاها» **(عالم ربَّاني)** ونص الحلية: فعالم رباني **(ومتعلم علىٰ سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلىٰ ركن وثيق، العلم خير من المال، العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، العلم يزكِّيه العمل)** ونص الحلية: يزكو علىٰ الإنفاق، وفي رواية: علىٰ العمل **(والمال تنقصه النفقة، محبة)** ونص الحلية: ومحبة **(العلم دين يُدان به)** ونص الحلية: بها **(تُكتسَب به الطاعة)** ونص الحلية: العلم يُكسِب العالِمَ الطاعة **(في حياته، وجميل الأحدوثة بعد موته، العلم حاكم، والمال محكوم عليه)** وُجدت هذه الجملة في بعض الروايات **(ومنفعة)** هكذا في النسخ، والرواية: وصنيعة **(المال تزول بزواله، مات خُزَّان**

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٤٠٣ - ٤٦٣.

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٣٢.

(٣) حلية الأولياء ١/ ٧٩ - ٨٠.

الأموال وهم أحياء، والعلماء أحياء باقون ما بقي الدهر) أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة **(ثم تنفَّس الصعداء وقال)** ليست هذه في رواية الحلية، ولا عند ابن القيم، ووُجدت في كتاب الذريعة والقوت، والذي عند الأوَّلينِ بعد قوله «ما بقي الدهر»: **(هاه)** مرة واحدة، وعند ابن القيم مرتين **(إن ههنا)** وأشار بيده إلىٰ صدره **(علمًا جَمًّا)** وليس في الحلية «جمًّا»، ولا عند ابن القيم **(لو وجدتُ)** وعند أبي نعيم وابن القيم: لو أصبتُ **(له حَمَلَةً، بل أجد طالبًا)** كذا في النسخ، وعند أبي نعيم وابن القيم: بلىٰ أصبته لَقِنًا **(غير مأمون)** عليه. وفي بعض نسخ الحلية: لفتًا، من اللفت، بدل: لقنًا **(يستعمل آلة الدين في طلب الدنيا)** وفي الحلية: للدنيا **(ويستطيل بنِعَم الله)** عَزَّوَجَلَّ **(علىٰ أوليائه)** هذه الجملة هكذا في القوت، وليست عند أبي نعيم ولا ابن القيم **(ويستظهر بحججه علىٰ خلقه)** هكذا في القوت، والذي عند أبي نعيم وابن القيم: يستظهر بحجج الله علىٰ كتابه، وبنعمه علىٰ عباده **(أو منقادًا لأهل الحق)** لا بصيرة له في أحنائه **(لكن ينقدح)** كذا في نسخة، ومثله عند ابن القيم، وفي القوت: ينزرع، وفي الحلية: يقتدح **(الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، لا بصيرة له، لا ذا ولا ذاك)** وفي القوت بعد قوله «لا بصيرة له»: وليسا من دعاة الدين في شيء، لا ذا ولا ذاك. ونص الحلية بعد قوله «من شبهة»: لا ذا ولا ذاك، كما عند المصنف **(فمنهوم باللذة، سَلِس القِياد في طلب الشهوات، أو مغرم)** وفي القوت: أو جريء **(بجمع الأموال والادخار، منقاد لهواه)** ونص الحلية بعد قوله «لا ذا ولا ذاك»: أو منهومًا باللذات، سلس القياد للشهوات، أو مغرىٰ بجمع الأموال والادخار، وليسا من دعاة الدين في شيء **(أقرب شبهًا بهم)** كذا عند ابن القيم، وفي الحلية والقوت: بهما **(الأنعام السائمة)** ثم قال: **(اللهم هكذا)** وليس في القوت: ثم قال، وفي الحلية بعد قوله «السائمة»: كذلك **(يموت العلم إذا مات حاملوه)** وفي الحلية: بموت حامليه **(بل لا تخلو)** كذا في القوت، وفي الحلية: اللهم بلىٰ، لن تخلو **(الأرض من قائم لله بحُجَّة، إما ظاهر مكشوف، وإما خائف مقهور)** كذا في القوت، وهذه الجملة ليست في الحلية، بل قال ابن القيم: هذه زيادة الكذَّابين من

الروافض في الحديث، ونصه: إما ظاهرا مشهورًا وإما خفيًّا مستورًا. قال: وظنوا أن ذلك دليل لهم علىٰ القول بالمنتظر، والحديث مشهور عن علي، لم ينقل أحد عنه هذه المقالة إلا كذَّاب، وحجج الله لا تقوم بخفيٍّ مستور لا يُرَىٰ له شخص ولا تُسمَع منه كلمة ولا يُعلَم له مكان، ولقد أحسن القائل[١]:

ما آنَ للسِّرْداب أن يلد الذي ... حمَّلتموه بزعمكم ما آنا
فعلىٰ عقولكم العَفاء فإنكم ... ثَلَّثتم العَنْقاء والغِيلانا

ونص الحلية بعد قوله «بحجة»: **(لكيلا تبطل حججُ الله تعالىٰ وبيِّناته وكم وأين)** كذا في النسخ، وفي القوت: من غير «وكم» **(أولئك هم الأقلون عددًا، الأعظمون)** عند الله **(قَدْرًا، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة)** هذه الجملة هكذا وقعت هنا في القوت، وهي في رواية الحلية في أول الحديث، وقد أشرنا لذلك **(يحفظ الله تعالىٰ بهم حججه حتىٰ يودعوها نُظَراءهم)** كذا في القوت، ونص الحلية بعد قوله «قَدْرا»: بهم يدفع الله عن حججه حتىٰ يؤدُّوها إلىٰ نظرائهم **(ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم علىٰ حقيقة الأمر)** كذا في الحلية، وفي القوت: علىٰ حقائق الأمر **(فباشروا روح اليقين)** هكذا هذه الجملة في القوت، وليست في الحلية **(فاستلانوا ما استوعر منه المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الغافلون)** كذا في القوت، وفي الحلية: الجاهلون **(صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلَّقة بالمحل الأعلىٰ)** كذا في القوت، وفي الحلية: بالمنظر الأعلىٰ، وعند ابن القيم: بالملأ الأعلىٰ **(أولئك أولياء الله عَزَّوَجَلَّ من خلقه، وأمناؤه وعمَّاله في أرضه، والدعاة إلىٰ دينه)** كذا في القوت، ونص الحلية: أولئك خلفاء الله في بلاده، ودعاته إلىٰ دينه **(ثم بكىٰ وقال: وا شوقاه إلىٰ رؤيتهم)** كذا في القوت، وفي الحلية بعد قوله «إلىٰ دينه»: هاه هاه شوقًا إلىٰ رؤيتهم، وأستغفر الله لي ولكم، إذا شئتَ فقم. هذا آخر الحديث علىٰ ما في الحلية وعند ابن القيم.

---

(١) لم أقف علىٰ قائل هذين البيتين.

(**فهذا الذي ذكره أخيرًا هو وصف علماء الآخرة**) الذين هم أهل الحقائق، وفضلُهم عليٌّ على الخلائق (**وهو العلم الذي يُستفاد أكثره من العمل**) المقرون بالإخلاص (**والمواظبة على المجاهدة**) ولنتكلم على الحديث الماضي ذِكره:

قال ابن القيم في «مفتاح دار السعادة»: قال أبو بكر الخطيب[1]: هذا حديث حسن، من أحسن الأحاديث معنًى، وأشرفها لفظًا، وتقسيم أمير المؤمنين للناس في أوله تقسيم حسن في غاية الصحة ونهاية السداد؛ لأن الإنسان لا يخلو من أحد الأقسام [الثلاثة][2] التي ذكرها مع كمال العقل وإزاحة العلل: إما أن يكون عالمًا، أو متعلمًا، أو مهملاً للعلم وطلبه ليس بعالم ولا طالب له، فالعالم الرباني هو الذي لا زيادة على فضله لفاضل، وأما المتعلم على سبيل النجاة فهو الطالب بتعلُّمه والقاصد به نجاته من التفريط في تضييع الواجبات، وأما القسم الثالث فهم المهملون لأنفسهم، الراضون بالمنزلة الدنيَّة، وما أحسن ما شبَّههم بالهَمَج الرعاع، والرعاع: المتبدِّد المتفرِّق، والناعق: الصائح، وهو في هذا الموضع الراعي.

ثم قال ابن القيم: ونحن نشير إلى بعض ما في الحديث من الفوائد.

وأنا أذكر ذلك اختصارًا.

قال: فقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: القلوب أوعية، القلب يُشبَّه بالوعاء والإناء والوادي؛ لأنه وعاء للخير والشر.

وقوله: خيرها أوعاها، أي أكثرها وأسرعها وأثبتها وأحسنها وعيًا، أي حفظًا، ويوصَف بالوعي القلب والأذن، كقوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝﴾ [الحاقة: ١٢] لِما بين القلب والأذن من الارتباط، فالعلم يدخل من الأذن إلى القلب، فهي بابه، وإنما توصَف بذلك لأنها إذا وعت وعى القلبُ.

---

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب ١/ ١٨٤ - ١٨٦ باختصار.

(٢) زيادة من الفقيه والمتفقه.

وقوله: الناس ثلاثة، اعلم أن العبد إما أن يكمل في العلم والعمل أو لا، فالأول العالم الرباني، والثاني إما أن تكون نفسه متحركة في طلب ذلك الكمال أو لا، والثاني هو المتعلم علىٰ سبيل النجاة، والثالث هو الهمج الرعاع، فالأول هو الواصل، والثاني هو الطالب، والثالث هو المحروم، ولا يكون العالم ربانيًا حتىٰ يكون عاملاً بعلمه، والثاني متعلم علىٰ سبيل نجاة، أي علىٰ الطريق التي تنجيه، وليس حرف «علىٰ» وما عمل فيه متعلقًا بـ «متعلم» إلا علىٰ وجه التضمين، أي مفتّش متطلّع علىٰ سبيل نجاته ليسلكه، فبعلمه يفتّش علىٰ سبيل نجاته لا للمباراة أو غيره؛ فإنه علىٰ سبيل هَلَكة، والقسم الثالث: المحروم المُعرِض، فلا عالم ولا متعلم، بل همج رعاع، والهمج من الناس: حمقاؤهم وجَهَلتهم، والرعاع: الذين لا يُعتَدُّ بهم، أتباع كل ناعق، أي صائح بهم، سواء دعاهم إلىٰ هدىً أو ضلال؛ فإنهم لا علم [لهم] بالذي يُدعَون إليه أحق هو أم باطل، فهم مستجيبون لدعوته، وهؤلاء من أضرِّ الخلق علىٰ الأديان، وسُمِّي داعيهم ناعقًا تشبيهًا [لهم] بالأنعام التي ينعق بها الراعي فتذهب معه أينما ذهب.

قوله: يميلون مع كل ريح، وفي رواية: مع كل صائح، شبَّه عقولهم الضعيفة بالغصن الضعيف، وشبَّه الأهوية والآراء بالرياح، فعقولهم تذهب مع كل ذاهب، ولو كانت كاملة كانت كالشجرة الكبيرة التي لا تلاعبها الرياح لثباتها.

قوله: لم يستضيئوا ... الخ، بيَّن السبب الذي جعلهم بتلك المثابة وهو أنه لم يحصل لهم من العلم نورٌ يفرِّقون به بين الحق والباطل، ويمتنعون من دعاة الباطل؛ فإن الحق متىٰ استقر في القلب قوي به، وامتنع مما يضره، والعلم والقوة قطبا السعادة، وفيه معنىً أحسن من هذا، وهو الأشبه بمراد علي ﷺ، وهو أن هؤلاء ليسوا من أهل البصائر الذين استضاؤوا بنور العلم، ولا لجأوا إلىٰ عالم مستبصر فقلَّدوه، ولا متَّبعين لمستبصر؛ فإن الرجل إما أن يكون بصيرًا أو أعمىٰ متمسكًا ببصير يقوده، أو أعمىٰ يسير بلا قائد.

قوله: العلم خير من المال، تقدم شرحه في أول الكتاب، وكذا قوله: العلم يزكو علىٰ الإنفاق والمال تنقصه النفقةُ، وكذا قوله: العلم حاكم والمال محكوم عليه.

قوله: محبة العلم [دين] يدان بها، أي لأنه ميراث الأنبياء، والعلماء وُرَّاثهم، فمحبة العلم وأهله من علامات السعادة، وهذا في علم الرسل الذي جاؤوا به وورَّثوه للأمَّة لا في كل ما يسمَّىٰ علمًا. وأيضًا، فإن محبة العلم تحمل علىٰ تعلُّمه واتِّباعه، وذلك هو الدين.

قوله: العلم يُكسِب العالم الطاعة في حياته، يقال: كسبه وأكسبه لغتان، أي يجعله مطاعًا، فكل أحد محتاج إلىٰ طاعته؛ لكونه يدعو إلىٰ طاعة الله ورسوله، فالعالم العامل أطوع في أهل الأرض من كل أحد.

قوله: وجميل الأحدوثة، أي إذا مات العالم أحيا الله ذكره، ونشر له في العالَمين أحسن الثناء، فالعالم بعد وفاته ميت وهو حي بين الناس، والجاهل في حياته حي وهو ميت بين الناس، كما قيل[1]:

---

(١) البيتان منسوبان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهما في ديوانه ص ٤٨ (جمع: عبد العزيز الكرم) ولكن الرواية فيه:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... وأجسادهم قبل القبور قبور
وإن امرءا لم يحي بالعلم ميت ... وليس له حتىٰ النشور نشور

وقد أبدل الشارح عجز البيت الأول بعجز البيت الثاني، وبالعكس، وأوردتهما كما هما في مفتاح دار السعادة. وهذان البيتان ينسبان أيضًا لأبي الحسن الماوردي الشافعي، كما ذكره الصفدي في الوافي بالوفيات ٢١/ ٢٩٩ وياقوت الحموي في معجم الأدباء ٥/ ١٩٥٦ نقلا عن كتاب «سر السرور» لمحمود النيسابوري. لكن في كتاب أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٣٧ ما نصه: وأنشدت لبعض أهل هذا العصر: وفي الجهل ... الخ البيتين. وعبارة الماوردي تقطع بأن البيتين ليسا له.

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهله وأجسامهم قبل القبور قبورُ
وأرواحهم في وحشة من جسومهم[١] وليس لهم حتىٰ النشورِ نشورُ

وقال الآخر[٢]:

قد مات قوم وما ماتت مكارمُهم وعاش قوم وهم في الناس أموات

وقال آخر[٣]:

وما دام ذِكرُ العبد بالفضل باقيًا فذلك حيٌّ وهو في التُّرْب هالك

ومَن تأمل أحوال أئمة الإسلام تحقق أنه لم يُفقَد إلا صورهم وإلا فذِكرُهم والثناء عليهم غير منقطع، وهذه هي الحياة حقًّا حتىٰ عُدَّ ذلك حياة ثانية، كما قال المتنبي[٤]:

ذِكرُ الفتىٰ عيشُه الثاني وحاجتُه ما قاته وفضولُ العيش أشغالُ

قوله: وصنيعة المال تزول بزواله، أي كل صنيعة صُنعت للرجل من أجل ماله من إكرام وتقديم واحترام وغير ذلك فإنما هي مراعاة لماله، فإذا زال زالت وهُجر حتىٰ ممَّن كان يختصُّ به، وفيه قال بعض العرب[٥]:

---

(١) في المطبوعة: من قبورهم. والمثبت من المفتاح.

(٢) هو الإمام الشافعي، والبيت في ديوانه ص ٤٩ (ط - دار القلم بدمشق).

(٣) لم أقف علىٰ قائله.

(٤) البيت في ديوانه ص ٤٩٠ من قصيدة يمدح بها أبا فاتك شجاع المعروف بالمجنون لما قدم من الفيوم إلىٰ القاهرة فوصل المتنبي وحمل إليه هدية قيمتها ألف دينار. والرواية فيه: ذكر الفتىٰ عمره.

(٥) روىٰ ابن أبي الدنيا في كتاب إصلاح المال ص ١٣١ (ط - مؤسسة الكتب الثقافية ببيروت) عن أبي عبيدة معمر بن المثنىٰ قال: كان رجل يكنىٰ أبا كثير، وكان يختلف إلىٰ ابن عم له بالبادية فيسألهم فيعطونه، فلما كثر ذلك عليهم منعوه وأمسكوا عنه، وكان طريقه علىٰ امرأة يقال لها عرفجة، فقالت: يا أبا كثير، رأيت بني عمك قد أمسكوا أيديهم، وتنكروا لك بعد العطية، فقال: =

وكانوا بنو عمِّي يقولون مرحبًا فلما رأوني معسرًا مات مرحبُ

وهذا أمر لا يُنكَر في الناس، حتىٰ إنهم لَيُكرَمون لثيابهم فإذا نُزعت لم يُكرَموا، وهذا بخلاف صنيعة العلم.

قوله: مات خُزَّان المال، تقدم شرحه في أول الكتاب.

قوله: وأمثالهم في القلوب موجودة، المراد بأمثالهم: صورهم العلمية، فهي لا تفارق القلوبَ، وهذا هو الوجود الذهني العلمي؛ لأن محبة الناس لهم وانتفاعهم بعلومهم يوجب أن لا يزالوا نُصْبَ عيونهم وقِبلة قلوبهم.

وقوله: هاه إن ههنا علمًا وأشار إلىٰ صدره، فيه جواز إخبار الرجل بما عنده من الخير والعلم ليُقتبَس منه ويُنتفَع به لا للمباهاة فإنه مذموم، وإذا أثنىٰ الرجل علىٰ نفسه لِيخلص بذلك من مَظلمة أو يستوفي بذلك حقًّا له يحتاج فيه إلىٰ التعريف بحاله أو عند خِطبته إلىٰ مَن لا يعرفه فلا بأس فيه، والأحسن أن يوكِّل في مثله إلىٰ غيره؛ فإن لسان [ثناء][(١)] المرء علىٰ نفسه قصيرٌ، وهو في الغالب مذموم.

ثم ذكر أصناف حَمَلة العلم الذين لا يصلحون لحمله، وهم أربعة:

أحدهم: مَن ليس هو بمأمون عليه، وهو الذي أُوتيَ ذكاء وحفظًا لكن جعل العلم آلةً للدنيا يستجلبها به، وهذا غير أمين علىٰ ما حمله من العلم فقد خان الله وخان عباده؛ فإن الأمين المأمون هو الذي لا غرض له ولا إرادة لنفسه إلا اتباع الحق وموافقته، فلهذا قال: غير مأمون عليه.

دعي عنك عذلي ما من الهزل أعجب ولا بعد إلا بعد حال يقلب
وكان بنو عمي يقولون مرحبا فلما رأوني معدما مات مرحب
فكل مقل حين يغدو لحاجة إلىٰ كل من يلقىٰ من الناس مذنب
فقد طاب ورد الموت إذ ليس واحد يشير إليه الناس أو فيه مرغب

(١) زيادة من المفتاح.

قوله: يستظهر بحجج الله ... الخ، هذه صفة هذا الخائن، ومعنىٰ استظهاره بالعلم علىٰ كتاب الله: تحكيمه عليه وتقديمه وإقامته دونه واشتغاله بغيره، وهذه حال كثير من العلماء الذي يجعل كتاب الله وراء ظهره، فالمستظهِر به علىٰ كل ما سواه موفَّق سعيد، والمستظهر عليه مخذول شقي.

الصنف الثاني من حَمَلة العلم: المنقاد له الذي لم يثلج له صدرَه، ولم يطمئن به قلبه، بل هو ضعيف البصيرة فيه، لكنه منقاد لأهله، وهذا حال أتباع الحق من مقلِّديهم، وهؤلاء وإن كانوا علىٰ سبيل نجاة فليسوا من دعاة الدين.

قوله: لا بصيرة له في أحنائه، جمع حِنْو، بالكسر، وهي الجوانب والنواحي، يقولون: ازجُرْ أحناء طيرك، أي أمسِكْ جوانب خفَّتك وطيشك.

قلت: الأَولىٰ أن تفسَّر الأحناء هنا بالمتشابهات، والمعنىٰ الذي ذكره هو الذي في الصحاح[١]، والذي ذكرته من كتاب العباب[٢].

قوله: ينقدح الشكُّ ... الخ، هذا لضعف علمه وقلة بصيرته، إذا وردت علىٰ قلبه أدنىٰ شبهة قدحت فيه الشكَّ والرِّيَب، بخلاف الراسخ في العلم لو وردت عليه أمواج البحار ما أزالت يقينَه، ولا قدحت فيه شكًّا، بل يردُّها بقوة يقينه، وضعيف اليقين إن تداركها وإلا تتابعت علىٰ قلبه أمثالُها حتىٰ يصير مرتابًا.

الصنف الثالث: رجل نهمتُه في نيل لذته، فهو منقاد لداعي الشهوة أين كان،

---

(١) الصحاح للجوهري ٦/ ٢٣٢١ ونصه: الحنو واحد الأحناء، وهي الجوانب، مثل الأعناء، وقولهم: ازجر أحناء طيرك، أي نواحيه يمينا وشمالا وأماما وخلفا، ويراد بالطير: الخفة والطيش، قال لبيد:

فقلت ازدجر أحناء طيرك واعلمن ... بأنك إن قدمت رجلك عاثر

(٢) في تاج العروس ٣٧/ ٤٩٠ ما نصه: أحناء الأمور: متشابهاتها، قال النابغة:

يقسم أحناء الأمور فهارب ... وشاصٍ عن الحرب العوان ودائن

وقيل: أطرافها ونواحيها، قال الكميت:

فآلوا الأمور وأحنائها ... فلم يهبلوا ولم يهملوا

ولا ينال درجة وراثة النبوة مع ذلك، فمَن آثَرَ الراحة فاتته الراحةُ، وقال إبراهيم الحربي: أجمع عقلاء كل أمة أن النعيم لا يُدرَك بالنعيم، فمَن لم تغلب لذةُ إدراكه للعلم علىٰ شهوة نفسه لم يَنَلْ درجة العلم أبدًا.

الصنف الرابع: مَن حرصُه وهمته في جمع الأموال وتثميرها وادخارها، فلا يرىٰ شيئًا أطيب له مما هو فيه، فمن أين له درجة العلم؟

فهؤلاء الأصناف الأربعة ليسوا من دعاة الدين، ولا من طلبة العلم الصادقين، ومن تعلق منهم بشيء فهو من المتسلقين عليه، المتشبِّهين بحَمَلته، المدَّعين لوصاله، المبتوتين من حباله، وفتنة هؤلاء فتنة لكل مفتون.

قوله: أقرب شبهًا بهم الأنعام السائمة، هو كقوله تعالىٰ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝﴾ [الفرقان: ٤٤] والسائمة: الراعية، شُبِّهوا بها في رعي الدنيا وحُطامها.

قوله: كذلك يموت العلم بموت حامليه، أي ذهاب العلم إنما هو بذهاب العلماء، وهو مأخوذ من حديث قبض العلم في البخاري.

قوله: اللهم بلىٰ لن تخلو الأرض ... الخ، يدل عليه حديث «لا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق لا يضرُّهم مَن خذلهم ولا مَن ناوأهم حتىٰ يأتي أمرُ الله وهم علىٰ ذلك».

واعلمْ أن هذه الأمَّة أكمل الأمم، جعل الله العلماء فيها خلفاء الأنبياء؛ لئلا تُطمَس أعلام الهدىٰ كما كان بنو إسرائيل كلما هلك نبي خلفهم نبي، فكانت تسوسهم الأنبياء، والعلماء لهذه الأمة كأنبياء بني إسرائيل.

والفرق بين الحجج والبيِّنات أن الحجج هي الأدلة العلمية التي يعقلها القلب وتُسمَع بالأذن، والبيِّنات: الآيات التي أقامها الله تعالىٰ دلالةً علىٰ صدقهم من المعجزات.

قوله: أولئك الأقلُّون عددًا ... الخ، وهذا سبب غربتهم؛ فإنهم قليلون في الناس، والناس علىٰ خلاف طريقتهم، وإياك أن تغترَّ بأنهم لو كانوا علىٰ حق لم يكونوا أقل الناس عددًا، فاعلم أن هؤلاء هم الناس، ومَن سواهم فمتشبِّهون بهم وليسوا بناس.

قوله: حتىٰ يؤدُّوها إلىٰ نُظَرائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم، أي ما أقام الله لهذا الدين من يحفظه ثم قبضه إليه إلا وقد زرع ما علَّمه من العلم والحكمة إما في قلوب أمثاله وإما في كتب ينتفع بها الناس بعده، وبهذا وبغيره فُضِّلوا علىٰ غيرهم.

قوله: هجم بهم العلم ... الخ، الهجوم علىٰ الرجل: الدخول عليه بلا إذن، أي إنهم لكمال علمهم وقوته نفذ بهم إلىٰ حقيقة الأمر، فعاينوه ببصائرهم، واطمأنت قلوبهم به، وعملوا علىٰ الوصول إليه لِما باشَرَها من روح اليقين ورُفع لهم عَلَم السعادة، فشمَّروا إليه، وزهدوا فيما سواه، واستيقنت قلوبهم ما أعدَّ لأوليائه من كرامة الله، ومَن وصل إلىٰ هذا استلان له ما يستوعره المترَفون، وأَنِس بما يستوحش منه الجاهلون، وهذا هو العلم التام والحب الخالص.

فهذا تفسير الحديث، وقد اختصرت في العبارة كثيرًا، وحذفت ما رأيت الاستغناء عنه.

(ومنها) أي ومن علامات علماء الآخرة: **(أن يكون شديد العناية)** كثير الاهتمام **(بتقوية اليقين؛ فإن اليقين هو رأس مال الدين)** وهو من جملة علوم الإيمان، متضمِّن له بكل ما يجب الإيمان به، ومن ثَم قال جمعٌ: اليقين قوة الإيمان بالقَدَر والسكون إليه[١]، وإذا باشر القلبَ اليقينُ امتلأ نورًا، وانتفىٰ عنه كل ريب، فالعلم أول درجات اليقين، ولهذا قيل: العلم يستعملك، واليقين يحملك، فاليقين أفضل مواهب الرب لعبده، ولا تثبت قدمُ الرضا إلا علىٰ درجة اليقين[٢]

(١) فيض القدير ٤/ ٢٣٣.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ٤٧٧ - ٤٨٧.

(**قال رسول الله ﷺ: اليقين الإيمان كله**) قال العراقي: رواه أبو نعيم في الحلية[١] والبيهقي في الزهد[٢] وأبو القاسم اللالكائي في كتاب السنة[٣] من رواية يعقوب بن حُمَيد بن كاسب قال: أخبرنا محمد بن خالد المخزومي، عن سفيان بن سعيد، عن زبيد، عن أبي وائل، عن عبد الله، عن النبي ﷺ، وزادوا في أوله: الصبر نصف الإيمان. هكذا قال أبو نعيم والبيهقي في إسناده، وقال اللالكائي: عن زبيد عن مُرَّة عن عبد الله. قال البيهقي: تفرَّد به يعقوب بن حميد عن محمد ابن خالد. وقد أعلَّه ابنُ الجوزي في «العلل المتناهية»[٤] بهما فقال: محمد بن خالد مجروح، ويعقوب بن حميد ليس بشيء.

قال العراقي: أما محمد بن خالد المخزومي فلم أجد أحدًا من الأئمة جرَّحه، وأما يعقوب فأورده ابن حبان في الثقات[٥]. ثم قال: والصحيح المعروف أن هذا من قول ابن مسعود، وهكذا ذكره البخاري في صحيحه[٦] تعليقًا موقوفًا عليه، ووصله الطبراني[٧] والبيهقي في الزهد من رواية الأعمش عن أبي ظبيان عن علقمة عن عبد الله قوله، قال البيهقي: هذا هو الصحيح موقوف. ا.هـ.

قال [المناوي][٨]: المراد بالصبر: العمل بمقتضىٰ اليقين؛ إذ اليقين معرفة

(١) حلية الأولياء ٥/ ٣٤.

(٢) الزهد ص ٣٦١.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣/ ٩٣١.

(٤) العلل المتناهية ٢/ ٨١٥.

(٥) الثقات ٩/ ٢٨٥ وفيه: «كان ممن يحفظ من جمع وصنف واعتمد علىٰ حفظه، فربما أخطأ في الشيء بعد الشيء، وليس خطأ الإنسان في شيء يهم فيه ما لم يفحش ذلك منه بمخرجه عن الثقات إذا تقدمت عدالته».

(٦) صحيح البخاري ١/ ٩١.

(٧) المعجم الكبير ٩/ ١٠٧.

(٨) ما بين المعقوفين ساقط من المطبوعة، والنص في فيض القدير ٤/ ٢٣٣ نقلاً عن الغزالي.

أن المعصية ضارَّة والطاعة نافعة، ولا يمكن تركُ المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل، فكان الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار.

(**فلا بد من تعلُّم علم اليقين، أعني أوائله**) وذلك في حق المبتدئ (**ثم ينفتح للعبد طريقه**) بالإمداد الباطني مع المجاهدة ومخالطة الكُمَّل من العارفين (**ولذلك قال ﷺ: تعلَّموا اليقين**) قال صاحب القوت[١]: (**ومعناه: جالِسوا الموقنين**) أي المتصفين بعلم اليقين (**واسمعوا منهم علم اليقين**) لأنهم علماؤه. إلى هنا نص القوت، زاد المصنف: (**وواظِبوا على الاقتداء بهم**) أي بأفعالهم في حركاتهم وعند سكونهم (**ليقوى يقينُكم كما قوي يقينُهم**) قال العراقي: رواه أبو نعيم[٢] عن ثور بن يزيد مرسلاً، وهو معضَل، وهو مرويٌّ من قول خالد بن معدان، رويناه في كتاب اليقين[٣] لابن أبي الدنيا من رواية بقية عن العباس بن الأخنس عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان قال: تعلَّموا اليقين كما تعلَّمون القرآن حتى تعرفوه؛ فإني أتعلمه. والعباس بن الأخنس مجهول؛ قاله الذهبي في الميزان[٤].

(**وقليل من اليقين خير من كثير من العمل**) لأن اليقين هو رأس المال، وهو يصحِّح الأعمال، وما قل عمل برز من قلب مؤمن، ولا كثر عملٌ برز من قلب غافل، وحسن الأعمال حسن نتائج الأحوال.

وأخرج ابن عساكر في تاريخه[٥] عن أبي الدرداء رفعه: «قليل من التوفيق خير من كثير العمل». وهو قريب إلى سياق المصنف.

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٣٤.

(٢) حلية الأولياء ٦/ ٩٥.

(٣) اليقين ص ٢٠ (ط - مؤسسة الكتب الثقافية ببيروت).

(٤) ميزان الاعتدال ٢/ ٣٨٢.

(٥) تاريخ دمشق ٦٠/ ٣٤٩.

(وقال) رسول الله (ﷺ لمَّا قيل له) ونص القوت[١]: وقد روينا مسندًا: قيل: يا رسول الله (رجل حسن اليقين كثير الذنوب، ورجل مجتهد في العبادة قليل اليقين. فقال ﷺ: ما من آدمي إلا وله ذنوب، ولكن من كانت) وفي نسخة: من كان (غريزته العقل وسجيَّته اليقين لم تضرَّه الذنوب؛ لأنه كلما أذنب تاب واستغفر وندم، فتكفَّر ذنوبه، ويبقىٰ له فضلٌ يدخل به الجنة) هكذا أخرجه صاحب القوت بلا إسناد، وقال العراقي: رواه الحكيم الترمذي في الأصل السادس بعد المائتين من «نوادر الأصول»[٢] قال: حدثنا مهدي - هو ابن عباس - حدثنا الحسن - هو ابن حازم - عن منصور، عن الربذي [عن الزهري] عن أنس قال: قيل: يا رسول الله، رجل يكون قليل العمل، كثير الذنوب. قال: «كل بني آدم خطَّاء، فمن كانت له سجية عقل وغريزة يقين لم تضره ذنوبه شيئًا». قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «كلما أخطأ لم يلبث أن يتوب فتُمحَىٰ ذنوبه، ويبقىٰ فضلٌ يدخل به الجنة». وإسناده مجهول.

•قلت: وأخرج الإمام أحمد[٣] وعبد بن حميد[٤] والترمذي[٥] والدارمي[٦] والحاكم[٧] والبيهقي[٨] كلهم عن أنس رفعه: «كل ابن آدم خَطَّاء، وخير الخَطَّائين التَّوابون». وهذا يصلُح أن يكون شاهدًا لبعض الحديث المذكور.

وفي القوت[٩]: جاء رجل إلىٰ معاذ بن جبل فقال: أخبِرْني عن رجلين أحدهما

(١) قوت القلوب ١/ ٢٣٥.

(٢) نوادر الأصول ٢/ ٧٧٠. والزيادة التي بين حاصرتين منه. وفيه: كل آدمي يخطئ.

(٣) مسند أحمد ٢٠/ ٣٤٤.

(٤) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٢/ ٢٣٠.

(٥) سنن الترمذي ٤/ ٢٧٣.

(٦) سنن الدارمي ٢/ ٣٩٣.

(٧) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٣٧٤.

(٨) شعب الإيمان ٩/ ٣٣٢.

(٩) قوت القلوب ١/ ٢٣٤.

مجتهد في العبادة كثير العمل قليل الذنوب إلا أنه ضعيف اليقين يعتريه الشك في أموره. فقال معاذ: ليحبطنَّ شكُّه أعمالَه. قال: فأخبِرْني عن رجل قليل العمل إلا أنه قوي اليقين وهو في ذلك كثير الذنوب. فسكت معاذ، فقال الرجل: واللهِ لئن أحبط شك الأول أعمال بره ليحبطنَّ يقينُ هذا ذنوبَه كلَّها. قال: فأخذ معاذ بيده وقام قائمًا ثم قال: ما رأيت الذي هو أفقه من هذا. ا.هـ.

فهذا وإن كان موقوفًا علىٰ معاذ شاهد جيد بمعناه لما أورده المصنف.

(ولذلك قال ﷺ: من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أُعطي حظه منهما لم يبالِ ما فاته من قيام الليل وصيام النهار) قال العراقي: لم أجد له أصلاً في الأحاديث المرفوعة هكذا.

قلت: أورده صاحب القوت[1] فقال: وروينا في حديث أبي أمامة عن رسول الله ﷺ: ومن أقل ما أوتيتم ... الخ. هكذا بزيادة الواو، وهو يدل علىٰ أن هذا ليس بأول الحديث، ثم رأيته بعدُ أورده في شرح مقام الصبر فقال[2]: روىٰ شهر بن حوشب الأشعري عن أبي أمامة الباهلي عن النبي ﷺ قال: «من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أُعطي حظه منهما لم يبالِ ما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولأنْ تصبروا علىٰ مثل ما أنتم عليه أحب إليَّ من أن يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم، ولكني أخاف أن تُفتَح عليكم الدنيا بعدي فينكر بعضكم بعضًا، وينكركم أهل السماء عند ذلك، فمَن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه» ثم قرأ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [النحل: ٩٦].

---

(١) السابق ١/ ٢٣٥.

(٢) السابق ١/ ٣٢٦.

قال العراقي: وروىٰ ابن عبد البر في كتاب العلم[١] من حديث معاذ رفعه قال: «ما أُنزل شيء أقل من اليقين، ولا قُسم شيء أقل من الحِلم». ولا يصح إسناده، وقد رُوي نحوه مختصرًا من قول بعض الأشياخ، رويناه في كتاب اليقين[٢] لابن أبي الدنيا قال: أخبرنا إبراهيم بن سعيد، أخبرنا خالد بن خِداش، أخبرنا بشر ابن بكر، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن [بعض] الأشياخ قال: ما نزل في الأرض شيء أقل من اليقين، ولا قُسم بين الناس [شيء] أقل من الحِلم.

هذا حديث مقطوع ضعيف.

(**وفي وصية لقمان لابنه: يا بني، لا يُستطاع العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقَدْر يقينه، ولا يفتر عامل حتىٰ ينقص يقينه**) هكذا أورده صاحب القوت[٣]، إلا أنه قال: ولا يقصر عامل، بدل: ولا يفتر، والباقي سواء، وزاد: وقد يكون يعمل العمل الضعيف إذا كان مستيقنًا أفضل من العمل القوي الضعيف في يقينه، ومن يضعف يقينه تغلبه المحقَّرات من الإثم.

(**وقال يحيىٰ بن معاذ**) الرازي: (**إن للتوحيد نورًا، وللشرك نارًا، وإن نور التوحيد أحرقُ لسيئات الموحِّدين من نار الشرك لحسنات المشركين**) أورده صاحب القوت هكذا بلفظ: وكان يحيىٰ بن معاذ يقول ... فساقه، زاد المصنف فقال: (**وأراد به**) أي يحيىٰ بن معاذ بنور التوحيد: (**اليقين**) دل علىٰ ذلك سياقُ صاحب القوت هذا القول في هذا المبحث (**وقد أشار الله تعالىٰ في القرآن**) المجيد (**إلىٰ ذكر الموقنين في**) عدة (**مواضع دل بها علىٰ أن اليقين هو الرابطة**) والواسطة (**للخيرات**) العالية (**والسعادات**) الباقية، فمن ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٥٠٤ ولفظه: «ما أنزل الله شيئًا أقل من اليقين، ولا قسم بين الناس شيئًا أقل من الحلم، وما أووي شيء إلىٰ شيء أزين من حلم إلىٰ علم».

(٢) اليقين ص ١٩.

(٣) قوت القلوب ١/ ٢٣٥.

لِّلْمُوقِنِينَ ۝﴾ [الذاريات: ٢٠] وقوله تعالىٰ: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝﴾ [الجاثية: ٤] وكذلك في السنَّة وردت عدة أحاديث في رفع شأن أهل الإيقان، فنبَّهت علىٰ أنهم خلاصة أهل الإيمان.

(**فإن قلتَ**) أيها السائل: قد ذكرتَ اليقين ورفعت من شأنه، وذكرت أنه يقوىٰ ويضعف (**فما معنىٰ اليقين**) لغةً واصطلاحًا (**وما معنىٰ قوته وضعفه؟ فلا بد من فهمه أولاً**) كما ينبغي (**ثم الاشتغال بطلبه وتعلُّمه؛ فإن ما لا تُفهَم صورته**) بمدرَك الحس (**لا يمكن طلبه**) فالجواب ما تراه وهو قوله: (**فاعلم أن اليقين لفظ مشترَك**) أي وُضع لمعنىٰ كثير بوضع كثير، ومعنىٰ الكثرة هنا ما يقابل الوحدة لا ما يقابل القلة (**يطلقه فريقان لمعنيين مختلفين، أما النُّظَّار**) وهم أهل النظر في المعقولات (**والمتكلمون**) هم أهل الكلام (**فيعنون به عدمَ الشكِّ**) فالشك نقيضه، وهذا هو مذهب أهل اللغة، قال الجوهري[١]: اليقين: العلم وزوال الشك، يقال: يَقِنْتُ الأمرَ - بالكسر - يَقْنًا، واستيقنت وأيقنت وتيقَّنت، كله بمعنًىٰ واحد.

وفي القاموس[٢]: يَقِنَ كفرح يَقْنًا ويُحرَّك، وأيقنه [وأيقن به] وتيقَّنه واستيقنه، و[استيقن] به: عَلِمَه وتحقَّقه، واليقين: إزاحة الشك.

وفي عبارات بعض اللغويين[٣]: اليقين: العلم الذي لا شك معه.

وهذا الذي ذكرناه هو المشهور عند أصحابنا من أئمة اللغة، وعباراتهم وإن اختلفت فمآلُها إلىٰ ما ذُكر، بقي أن الجوهري وجماعته من المتقدمين قالوا: وربما عبَّروا عن الظن باليقين، وباليقين عن الظن، واستدلوا بآيات وقول الشعراء، وهذا قد نورده لك إن شاء الله تعالىٰ عند ذكر المصنف القسم الثاني منه قريبًا المسمَّىٰ بالظن.

---

(١) الصحاح ٦/ ٢٢١٩.

(٢) تاج العروس ٣٦/ ٣٠٠. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٣) التعريفات للشريف الجرجاني ص ٢٨٠.

ثم قال: (إذ ميل النفس إلىٰ التصديق بالشيء له) في الحقيقة (أربع مقامات) لا يتعدىٰ العقلُ إلىٰ غيرها:

(الأول: أن يعتدل التصديق والتكذيب) سواء (ويُعبَّر عنه بالشك) ثم أتىٰ له بمثال ليتَّضح فقال: (كما إذا سُئلت عن شخص معيَّن أن الله تعالىٰ يعاقبه أمْ لا، وهو مجهول الحال عندك) غير معلومه (فإن نفسك لا تميل فيه إلىٰ الحكم بإثبات ولا نفي، بل يستوي عندك إمكانُ الأمرين، فهذا يسمَّىٰ) عندهم (شكًّا) وفي اللُّمع لأبي إسحاق الشيرازي[1]: الشك: تجويز أمرين لا مزية لأحدهما علىٰ الآخَر، كشكِّ الإنسان في الغيم غير المشفِّ أنه يكون منه المطر أمْ لا. ا.هـ.

وقيل[2]: هو الوقوف بين النقيضين من شكِّ العَوْد فيما ينفذ فيه؛ لأنه يقف بذلك الشك بين جهتيه.

وقيل[3]: هو وقوف بين المعنىٰ ونقيضه.

وقيل[4]: هو التردُّد بين النقيضين، لا ترجيح لأحدهما [علىٰ الآخر] عند الشاكِّ.

وقال الراغب في مفرداته[5]: هو اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما [وذلك] قد يكون لوجود أمارتين متساويتين عنده في النقيضين، أو لعدم الأمارة [فيهما] والشك ربما كان في الشيء هل هو موجود أم لا[6]، وربما كان في جنسه من

---

(١) اللمع ص ٣١.

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٩/ ٢٠٧.

(٣) السابق ٩/ ٢١٦.

(٤) التعريفات للجرجاني ص ١٣٤. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٥) المفردات في غريب القرآن ص ٢٦٥. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٦) في المفردات: أو غير موجود.

أيِّ جنس هو، وربما كان في صفة من صفاته[١]، وربما كان في الغرض الذي لأجله أُوجد. ثم قال: والشك ضرب من الجهل، وهو أخص منه؛ لأن الجهل قد يكون عدم العلم بالنقيضين رأسًا، فكل شكٍّ جهلٌ، ولا عكس[٢]، والشك: خرق الشيء، وكأنه[٣] بحيث لا يجد الرأي مستقرًّا يثبُت فيه ويعتمد عليه، ولذلك يُعدَّىٰ بـ «في»، ويجوز كونه[٤] مستعارًا من الشك وهو لصوق العَضُد بالجنب، وذلك أن يتلاصق النقيضان، فلا مدخل للرأي والفهم؛ لتخلُّل ما بينهما، ويشهد له قولُهم: التبس الأمرُ واختلط وأشكل، ونحو ذلك من الاستعارات.

(**الثاني: أن تميل نفسُك إلىٰ أحد الأمرين**) إما التصديق وإما التكذيب (**مع الشعور**) أي العلم (**بإمكان**) وجود (**نقيضه**) أي رافعه (**ولكنه إمكان لا يمنع ترجيح**) الأمر (**الأول**) ومثاله (**كما إذا سُئلتَ عن**) حال (**رجل**) معيَّن (**تعرفه بالصلاح والتقوىٰ**) وغير ذلك من أعمال البر (**أنه بعينه لو مات علىٰ هذه الحالة**) التي أنت تعرفها فيه (**هل يعاقَب**) أمْ لا (**فإن نفسك تميل إلىٰ أنه لا يعاقَب أكثر من ميلها إلىٰ العقاب، وذلك لظهور علامات الصلاح**) وأماراته (**ومع هذا، فأنت تجوِّز اختفاءَ أمرٍ يوجب العقاب في باطنه وسريرته**) أي تجعل ذلك جائزًا في نفسك؛ لأن الأمارات إنما يُستدَل بها علىٰ الظواهر (**فهذا التجويز مساوٍ لذلك الميل**) أي قد سِيقَ له (**ولكنه غير دافع رجحانه**) علىٰ الطرف الثاني (**فهذه الحالة تسمىٰ ظنًّا**) ومثَّله صاحبُ اللُّمَع بقوله[٥]: كظن الإنسان في الغيم المُسِفِّ الثخين أنه سيجيء

---

(١) في المفردات: في بعض صفاته.

(٢) في المفردات: وليس كل جهل شكًّا، واشتقاقه إما من شككت الشيء، أي خرقته، قال:

وشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم علىٰ القنا بمحرم

فكأن الشك الخرق في الشيء.

(٣) في المفردات: وكونه.

(٤) في المفردات: ويصح أن يكون.

(٥) اللمع ص ٣١.

منه المطر وإن جوَّز أن ينقشع من غير مطر، وكاعتقاد المجتهدين فيما يفتون به من مسائل الخلاف، وإن جوَّزوا أن يكون الأمر بخلاف ذلك، وغير ذلك مما لا يُقطَع به.

وقال السمين(١): الظن: ترجُّح أحد الطرفين [على الآخر] نفيًا وإثباتًا، وقد يعبَّر به عن اليقين والعلم كما يعبَّر بالعلم عنه مجازًا.

وقال غيره(٢): الظن: الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، ويُستعمل في اليقين والشك.

وقال الراغب(٣): الظن: ما يحصل عن أمارة، فإذا قويت أدَّت إلى العلم، ومتى ضعُفت لم تتجاوز حد التوهُّم.

وقال بعضهم(٤): إنما جاز استعمال كل من الظن والعلم في موضع الآخر لعلاقة أن كلاًّ منهما فيه رجحان أحد الطرفين إما جزمًا وهو العلم أو ترددًا(٥) وهو الظن، فمن استعمال العلم بمعنى الظن قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠] [إذ] ليس الوقوف على الاعتقادات يقينًا. ومن استعمال العكس قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] أي يتيقَّنون؛ إذ لا يناسب حالهم وصفُهم بظن ذلك حقيقةً، ولو شكُّوا في ذلك لم يكونوا موقنين فضلاً عن أن يُمدَحوا بهذا المدح، وكذا قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٤٩] وكذا قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣] واستدل الجوهري بقول أبي سدرة الهُجَيمي:

---

(١) عمدة الحفاظ ٣/ ١٤. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٢) التعريفات للجرجاني ص ١٤٩ وزاد: «وقيل: الظن أحد طرفي الشك بصفة الرجحان».

(٣) المفردات في غريب القرآن ص ٣١٧.

(٤) عمدة الحفاظ للسمين ٣/ ١٦. مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/ ٤٧٨ - ٤٨٠.

(٥) في المطبوعة: وهما. والمثبت من عمدة الحفاظ.

تحسَّبَ هَوَّاسٌ وأيقن أنني بها مفتدٍ من واحد لا أغامِرُهْ

يقول: تشمَّمَ الأسدُ ناقتي يظن أنني أفتدي بها منه وأستحمي نفسي فأتركها له ولا أقتحم المهالك بمقاتلته. واستدل غيره بقول دُرَيد بن الصِّمَّة[1]:

فقلت لهم ظنوا بألفَي مدجَّج سَراتُهم في الفارسي المسرَّد

أي أيقنوا بهذا العدد؛ فإن المقام يقتضي ذلك، وأبىٰ ذلك طائفةٌ وقالوا: لا يكون اليقين إلا للعلم، وأما الظن فمنهم من وافق علىٰ أنه يكون بمعنىٰ العلم، ومنهم من قال: لا يكون الظن في موضع اليقين، وأجابوا عما احتجَّ به مَن جوَّز ذلك بأن قالوا: هذه المواضع التي زعمتم أن الظن وقع فيها موضع اليقين كلُّها علىٰ بابها؛ فإنَّا لم نجد ذلك إلا في علم بمغيَّب، ولم نجدهم يقولون لمن رأىٰ الشيء ولا لمن ذاقه: أظنُّه، وإنما يقال لغائب قد عُرِف بالسمع[2] والعلم، فإذا صار إلىٰ المشاهدة امتنع إطلاق الظن عليه. قالوا: وبين العيان والخبر مرتبة متوسطة باعتبارها أوقع علىٰ العلم بالغائب الظنَّ لفقد الحال التي تحصل لمدرِكه بالمشاهدة، وعلىٰ هذا خرجت سائر الأدلة التي ذُكرت.

وفي إبداء الجواب عن كل آية تقدمت وتقريراتها طولٌ يُخرِجنا عن المقصود، ولذا وقع الاكتفاء بما ذكرتُ.

(**الثالث: أن تميل النفس إلىٰ التصديق بشيء بحيث يغلب عليها**) أي ذلك التصديقُ علىٰ النفس ويغمرها (**ولا يخطر بالبال غيره**) أي غير ذلك المعنىٰ الذي حصل للنفس. وفي نسخة: نقيضه، بدل: غيره (**ولو**) فُرض أنه (**خطر بالبال**) نقيضُه (**تأبىٰ**) أي تمتنع (**النفس عن قبوله، ولكن ليس ذلك مع معرفة تحقيق**) وفي نسخة: عن معرفة محقَّقة (**إذ لو أحسن صاحب هذا المقامِ التأملَ و**) أعار أذن فهمه إلىٰ

---

(١) البيت في ديوانه ص ٦٠ (ط - دار المعارف بالقاهرة) والرواية فيه: علانية ظنوا ... الخ.

(٢) في المطبوعة: بالظن. والمثبت من مفتاح دار السعادة.

(الإصغاء إلىٰ التشكيك والتجويز) وهما المقامان الأوَّلان (اتسعت نفسه للتجويز) أي مالت إليه، وانشرحت له (وهذا يسمىٰ اعتقادًا مقاربًا لليقين) لأنه قد عقد قلبه عليه، وأثبته في نفسه (وهو اعتقاد العوامّ) من الأمَّة (في الشرعيات كلها إذا رسخ في نفوسهم بمجرد السماع) من أفواه الشيوخ (حتىٰ إن كل فرقة) من فرق المذاهب علىٰ كثرتها (تثق بصحة مذهبها) وتعتمد عليه (وإصابة إمامها) الذي قلَّدته (و) إصابة (متبوعها، وإذا ذُكر له) وفي نسخة: لأحدهم (إمكان خطأ إمامه نفر عن قبوله) واستبعده إلىٰ الغاية.

(الرابع: المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان) والاستدلال (الذي لا شك فيه) في حد ذاته (ولا يُتصوَّر الشك فيه) وفي نسخة: التشكيك، بدل: الشك (فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمىٰ يقينًا عند هؤلاء) أي النُّظَّار والمتكلمين (ومثاله أنه إذا قيل للعاقل: هل في الوجود شيء هو قديم؟ فلا يمكنه) إذًا (التصديق به) أي بهذا القول (بالبديهة) والارتجال (لأن القديم غير محسوس) بالأبصار (لا كالشمس والقمر) وغيرهما من الكواكب (فإنه يصدِّق بوجودهما بالحس) والمشاهدة (وليس العلم بوجود شيء قديم أوليًّا ضروريًّا) وفي نسخة: أزليًّا ضروريًّا، أي ليس العلم به يُدرَك بأول وهلة من غير برهان (مثل العلم بأن الاثنين أكثر من الواحد) فإنه ضروري لا محالة (بل مثل العلم بأن حدوث حادث بلا سبب محالٌ فإن هذا أيضًا ضروري) لا يحتاج إلىٰ النظر فيه. وفي نسخة: ومثل العلم، بدل: بل مثل العلم (فمن غريزة العقل أن يتوقف عن) قبول (التصديق بوجود القديم علىٰ الارتجال والبديهة) ويتطلع إلىٰ النظر في البرهان (ثم من الناس من يسمع ذلك) من الأفواه والكتب (ويصدق بالسماع تصديقًا جزمًا) قاطعًا عن الشبهات (ويستمر عليه، وذلك هو الاعتقاد) كأنه عقد قلبه عليه ولم يَمِلْ إلىٰ سواه (وهو حال جميع العوام) من الأمة (ومن الناس من يصدق به بالبرهان) والنظر فيه (وهو أن يقال له: إن لم يكن في الوجود قديمٌ فالموجودات كلها حادثة) لا محالة

(**فإن كانت كلها حادثة فهي**) كلها (**حادثة بلا سبب أو فيها حادث بلا سبب، وذلك**) أي حدوث الكل أو البعض بلا سبب (**محال، فالمؤدِّي إلىٰ المحال محال، فيلزم في العقل التصديقُ بوجود شيء قديم بالضرورة**) نظرًا إلىٰ ما ذُكر (**لأن الأقسام ثلاثة، وهي**) إما (**أن تكون الموجودات كلها قديمة، أو**) تكون (**كلها حادثة، أو بعضها قديمة وبعضها حادثة، فإن كانت كلها قديمة فقد حصل المطلوب؛ إذ ثبت علىٰ الجملة قديمٌ**) لأن السؤال إنما كان عن شيء هو قديم في الوجود (**وإن كان الكل حادثًا**) وهو الشق الثاني (**فهو محال؛ إذ يؤدي إلىٰ حدوث بغير سبب**) وما يؤدي إلىٰ المحال محال (**فثبت القسم الثالث**) وهو أن بعضها قديمة وبعضها حادثة (**أو**) القسم (**الأول**) الذي يُفهَم منه ثبوت القديم في الجملة (**وكل علم حصل علىٰ هذا الوجه يسمىٰ يقينًا عند هؤلاء، سواء حصل**) ذلك العلم (**بنظر**) واستدلال (**مثل ما ذكرناه، أو حصل بحس**) كالعلم بالشمس والقمر مثلاً (**أو بغريزة العقل**) وسجيَّته (**كالعلم باستحالة حادث بلا سبب، أو**) حصل (**بتواتُر**) وتتابُع (**كالعلم بوجود مكة**) مثلاً (**أو**) حصل (**بتجربة**) صحيحة (**كالعلم بأن السقمونيا[١] المطبوخ**) هو كل دواء طُبِخ لقصد الإسهال (**مسهِّل**) ولو قال: السقمونيا، بدل: المطبوخ، كان أظهر (**أو**) صح (**بدليل**) وبرهان (**كما ذكرنا**) آنفًا (**فشرطُ إطلاق هذا الاسم عندهم عدمُ**) وجود (**الشك**) فيه بأيِّ وجه كان (**فكل علم لا شك فيه يسمىٰ يقينًا عند هؤلاء**) ولذا عرَّفوه بأنه[٢]: اعتقاد الشيء بأنه كذا، مع اعتقاد أنه لا يمكن إلا كذا

---

(١) السقمونيا: ويسمىٰ أيضا: لاف القمح، والبقلة المحمودة. وهو نوع من جنس اللبلاب Convolulus الذي ينتمي للفصيلة المحمودية التي تندرج تحت رتبة الباذنجانيات. اسمه العلمي C.scammonia وينمو في المنطقة الواقعة من سوريا وحتىٰ شبه جزيرة القرم، وكذلك اليونان والجزر التابعة لها مثل ساموس ورودس. وهو نبات متسلق، جذوره مستطيلة لحمية غليظة تخرج منها سيقان كثيرة دقيقة تلتف علىٰ ما حولها، وتحتوىٰ هذه الجذور علىٰ مادة لبنية تستخدم كمسهل، والأوراق بسيطة سهمية الشكل أعناقها طويلة وخالية من الزغب، والأزهار مفردة ذات لون أحمر أو أبيض أو أزرق.

(٢) التعريفات للجرجاني ص ٢٨٠.

مطابقًا للواقع، غير ممكن الزوال. فالقيد الأول جنس يشمل الظن، والثاني يخرجه، والثالث يُخرِج الجهلَ المركَّب، والرابع يُخرِج اعتقادَ المقلِّد المصيب **(وعلىٰ هذا لا يوصَف اليقين بالضعف)** والنقص والفتور والقلة **(إذ لا تفاوُت في نفي الشك)** وقسَّم صاحب القوت مقامات اليقين إلىٰ ثلاثة، فقال بعد أن ذكر المقامين[1]: والمقام الثالث من اليقين هو يقين ظن يقوىٰ بدلائل العلم والخبر وأقوال العلماء، ويجد هؤلاء المزيد من الله عَزَّوَجَلَّ والنصيب منه لهم، ويضعُف بفقد الأدلة وصمت القائلين، وهذا يقين الاستدلال، وعلوم هذا في المعقول، وهو يقين المتكلمين من عموم المسلمين من أهل الرأي وعلوم القياس والعقل والنظر. ا.هـ.

وهذا السياق ظاهره دالٌّ علىٰ قبوله الضعف والقوة علىٰ رأي المتكلمين أيضًا، ولكن ما حرَّره المصنف هو الأقوىٰ، فتأملْ.

(الاصطلاح الثاني) في اليقين **(اصطلاح الفقهاء)** عامةً **(والمتصوفة وأكثر العلماء)** رحمهم الله تعالىٰ **(وهو)** أي اليقين **(أن لا يُلتفت فيه إلىٰ اعتبار التجويز والشك)** المتقدم ذكرهما **(بل إلىٰ استيلائه وغلبته علىٰ القلب)** حتىٰ يغمره علىٰ سائر جهاته **(حتىٰ يقال: فلان ضعيف اليقين بالموت، مع أنه لا يشك فيه)** بأنه واقع لا محالة **(ويقال: فلان قوي اليقين)** مع الله **(في إتيان الرزق)** وحصوله **(مع أنه قد يجوِّز)** في نفسه **(أنه لا يأتيه، فمهما مالت النفس إلىٰ التصديق بشيء وغلب ذلك علىٰ القلب واستولىٰ)** عليه **(حتىٰ صار هو المتحكم والمتصرف في النفس بالتجويز والمنع)** كما هو شأن المستولي **(سُمِّيَ ذلك يقينًا)** وقد أشارت إلىٰ ذلك المعنىٰ عباراتُهم، فقال سيد الطائفة الجنيدُ[2]: هو استقرار العلم الذي لا يتقلب ولا يتحول ولا يتغير في القلب.

وقال سهل: حرام علىٰ قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلىٰ غير الله.

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٣٥.

(٢) انظر هذه الأقوال عن اليقين في الرسالة القشيرية ص ٣١٨ - ٣٢٣.

وقال غيره: من علامات اليقين: الالتفات إلىٰ الله في كل نازلة، والرجوع إليه في كل أمر، والاستعانة به في كل حال، وإرادة وجهه بكل حركة وسكون[١].

وقال القشيري[٢]: قال الجنيد: سُئل بعض العلماء عن التوحيد فقال: هو اليقين. فقال السائل: بيِّنْ لي ما هو. فقال: هو معرفتك أن حركات الخلق وسكونهم فعلُ الله تعالىٰ وحده لا شريك له، فإذا عرفت ذلك فقد وحَّدتَه.

قال شارح الرسالة[٣]: أجاب أولاً بأنه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله، لا شريك له، فلما لم يفهم نزل له قليلاً، نزل إلىٰ الأفعال خاصةً، وكلَّمه علىٰ حسب فهمه، وخاطبه بالأفعال دون الذات والصفات.

وقال السري: اليقين سكونك عند جولان الموارد في صدرك؛ لتيقُّنك أن حركتك فيها لا تنفعك، ولا ترد عنك مقضيًّا.

قال ابن القيم[٤] عند ذكره لقول السري: هذا إذا لم تكن الحركة مأمورًا بها، فإذا كانت مأمورًا بها فاليقين في بذل الجهد فيها واستفراغ الوسع.

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٤٧٧. وفي الرسالة القشيرية ص ٣٢٠ ما نصه: «سمعت محمد بن الحسين يقول: سمعت أبا العباس البغدادي يقول: سمعت ذا النون المصري يقول: ثلاثة من أعلام اليقين: قلة مخالطة الناس في العشرة، وترك المدح لهم في العطية، والتنزه عن ذمهم عند المنع، وثلاثة من أعلام يقين اليقين: النظر إلىٰ الله تعالىٰ في كل شيء، والرجوع إليه في كل أمر، والاستعانة به في كل حال».

(٢) الرسالة القشيرية ص ٣١.

(٣) قال حاجي خليفة في كشف الظنون ١/ ٨٨٢: «وشرحها - أي الرسالة القشيرية - القاضي زكريا ابن محمد الأنصاري في مجلد مع المتن سماه: أحكام الدلالة علىٰ تحرير الرسالة. ومن شروحها: الدلالة علىٰ فوائد الرسالة لسديد الدين أبي محمد عبد المعطي بن محمود بن علي اللخمي. وشرحها المولىٰ علي القاري في مجلدين».

(٤) مفتاح دار السعادة ١/ ٤٧٨.

وقال بعضهم[١]: هو رؤية العيان بقوة الإيمان لا بالحُجَّة والبرهان.

وقيل: مشاهدة الغيوب بصفاء القلوب، وملاحظة الأسرار بمخالطة الأذكار[٢].

وقيل[٣]: إذا استكمل المرء حقيقة اليقين صار البلاء عنده نعمة، والمحنة منحة، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] قال ابن مسعود[٤]: هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من الله فيرضىٰ ويسلِّم.

فهذا لم تحصل له هداية القلب والرضا والتسليم إلا بيقينه.

(ولا شك في أن الناس مشتركون في القطع بالموت) بأنه حق وواقع (والانفكاك عن الشك فيه، ولكن فيهم من لا يُلتفت إليه ولا إلىٰ الاستعداد له) أي لنزوله (وكأنه غير موقن به) أي غير مصدِّق به، وهم المنهمكون علىٰ لذات الدنيا، والمؤثرون شهواتها علىٰ لذات الآخرة (ومنهم مَن استولىٰ ذلك) أي ذِكره (علىٰ قلبه حتىٰ استغرق جميع همِّه) وتوجَّهت عنايته (بالاستعداد له) بأنواع الطاعات (ولم يغادر) أي لم يترك (فيه متسَّعًا لغيره) كما هو معلوم من سيرة فضلاء الصحابة وأكابر التابعين ومن بعدهم طبقة بعد طبقة، وجيلاً بعد جيل، يعلم ذلك مَن شاهد سيرتهم وسِيرَ مناقبهم المسطَّرة في الكتب (فيعبَّر عن مثل هذه الحالة بقوة اليقين) ومَن عداهم متَّصف بضعف اليقين (ولذلك قال بعضهم) أي من العلماء العارفين:

---

(١) هذا القول والذي بعده ذكرهما الجرجاني في التعريفات ص ٢٨٠.

(٢) في التعريفات: بمحافظة الأفكار.

(٣) مفتاح دار السعادة ١/ ٤٧٨. ونقله القشيري في رسالته عن أبي يعقوب إسحاق بن محمد النهرجوري، ولفظه: إذا استكمل العبد حقائق اليقين صار البلاء عنده نعمة، والرخاء مصيبة.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٤/ ٥١٦ وعزاه لسعيد بن منصور، ولفظه: هي المصيبات تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضىٰ.

(ما رأيت يقينًا لا شك فيه أشبه بشكٍّ لا يقين فيه من الموت) وهذا القول مشهور عن المصنف، نسبه إليه غير واحد من العلماء، قال ملاّ علي في شرحه على الشمائل[(١)]: قال الغزالي: ما رأيت يقينًا أشبه بالشك من الموت. والصحيح أن المصنِّف ناقل لهذا القول، وليس أبا عذرته. وقد فسَّر غالب المفسرين قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝﴾ [الحجر: ٩٩] بالموت[(٢)]، وهو معنى صحيح ذكره أئمَّة اللغة، ومال كثيرون إلى أنه إطلاق حقيقي، وصوَّب بعضهم أنه مجازي من تسمية الشيء بما يتعلق به؛ حقَّقه شيخنا في حاشية القاموس[(٣)]، وهذا التفسير الذي ذكرناه متفَّق عليه عند المفسِّرين، خلافًا للزنادقة؛ فإنهم قالوا: إن العبد إذا وصل إلى مقام حقيقته ارتفعت عنه العبادة. وهذا تلبيس وافتراء منهم على أهل الله العارفين. ثم إن المراد بمَفاد الآية الكريمة: أن دُمْ على طاعة ربِّك، كما حقَّقه غير واحد (وعلى هذا الاصطلاح يوصَف اليقين بالضعف والقوة) وقال صاحب القوت[(٤)]: واليقين على ثلاث مقامات: يقين معاينة، وهذا لا يختلف خبره، والعالِم به خبير، وهو للصِّدِّيقين والشهداء. ويقين تصديق واستسلام، وهذا في الخبر، والعالِم به مخبر مستسلم، وهذا يقين المؤمنين وهم الأبرار منهم الصالحون، ومنهم دون ذلك؛ لقوله ﷻ: ﴿وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ۝﴾ [الأحزاب: ٢٢] وقد يضعُف هؤلاء بعدم الأسباب ونقصان المعتاد، ويقرون بوجودها وجريان العادة، ويحجبون بنظرهم إلى الوسائط، ويكاشفون بها، ويجعلون مزيدهم وأُنسهم بالخلق، ويكون

---

(١) جمع الوسائل في شرح الشمائل ٢/ ٦٢ ونصه: «إنما سمي الموت يقينًا لأنه متيقن لكل أحد، وقال الغزالي: هو يقين يشبه الشك في نظر العامة».

(٢) وممن فسره بذلك: سالم بن عبد الله، ومجاهد، وقتادة، والحسن البصري، وعبد الرحمن بن زيد. انظر: تفسير الطبري ١٤/ ١٥٤ = ١٥٦. الدر المنثور ٨/ ٦٦٧. وقال الواحدي في التفسير البسيط ١٢/ ٦٧٦ (ط = جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض): «سمي الموت اليقين لأنه موقن به جميع العقلاء، فاليقين بمعنى الموقن به».

(٣) انظر: تاج العروس ٣٦/ ٣٠١.

(٤) قوت القلوب ١/ ٢٣٥. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

نقصهم ووحشتهم بفقدهم، ويكون من هؤلاء الاختلاف [ويتلوَّنون بالخلاف] لتلوين الأشياء وتغييرها عليهم.

ثم ذكر المقام الثالث الذي قدَّمنا ذِكره آنفًا، ثم قال بعد ذلك: وكل موقن بالله عَزَّوَجَلَّ فهو علىٰ علم من التوحيد والمعرفة به، ولكن علمه ومعرفته علىٰ قَدْر يقينه، ويقينه من نحو صفاء إيمانه وقوته، وإيمانه علىٰ معنىٰ معاملته ورعايته، فأعلىٰ العلوم علم المشاهدة عن عين اليقين، وهذا مخصوص بالمقرَّبين في مقامات قربهم ومحادثات مجالستهم ومأوىٰ أنسهم ولطيف تملُّقهم، وأدنىٰ العلوم علم التسليم والقبول بعدم الإنكار وفقد الشكوك، وهذا لعموم المؤمنين، وهو من علم الإيمان ومزيد التصديق، وهذا لأصحاب اليمين، وبين هذين مقامات لطيفات من أعلىٰ طبقات المقرَّبين إلىٰ أوسط المقامات، ومن أدنىٰ طبقات أصحاب اليمين إلىٰ أعالىٰ أواسط الأعلين. ا.هـ. سياق القوت.

وهنا فوائد يُحتاج إلىٰ التنبيه عليها، وهو الفرق بين علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، وما للقوم فيه من العبارات.

قال القشيري في رسالته(١): هذه عبارات عن علوم جليَّة، فاليقين هو العلم الذي لا يتداخل صاحبَه ريبٌ علىٰ مطلق العرف(٢)، فعلم اليقين هو اليقين، وكذلك عين اليقين نفس اليقين، وحق اليقين نفس اليقين، فعلم اليقين علىٰ موجِب اصطلاحهم ما كان بشرط البرهان، وعين اليقين ما كان بحكم البيان، وحق اليقين ما كان بنعت العيان، فعلم اليقين لأرباب العقول، وعين اليقين لأصحاب العلوم، وحق اليقين لأصحاب المعارف.

قال شارحها: اليقين عند أهل اللغة: توالي العلم بالمعلوم حتىٰ لا يكاد يغفل

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٧١.

(٢) بعده في الرسالة: ولا يطلق في وصف الحق سبحانه لعدم التوقيف.

عنه، يقال: أيقن الماءُ: إذا صفا من كدورته وما يخالطه ممَّا ينجرُّ مع الماء، فإذا استقر في مفيضه واستقر قراره وصفا يقال: أيقن الماءُ، فتبيَّن من هذا أن العلم في الاصطلاح يباين اليقينَ، وذلك أن الشخص قد يعلم مرة واحدة فلا يسمونه موقنًا إلا إذا توالىٰ ولم تتخلله غفلةٌ، فإذا تقرر ذلك قلنا: فعلم اليقين ما كان العلم به ثابتًا عن البرهان، فسُمِّي علم يقين؛ لتحقيق كونه علمًا؛ لأنه قد يسمَّىٰ الظن علمًا للسكون إلىٰ أحد المحتملين، فإذا قالوا: علم اليقين، أرادوا العلم المتيقَّن الذي لا يقبل الاحتمال، ولذلك كان بشرط البرهان، وعين اليقين حصول العلم وتوالي أمثاله من غير نظر في دليل، بل صار العلم مذكورًا، وقلَّت الغفلات في تواليه علىٰ القلب، فلم يحتَجْ صاحبه إلىٰ تأمل برهان، وحق اليقين هو حصول اليقين بالمعلوم الذي صار غالبًا علىٰ القلب حتىٰ لا يبقىٰ لغيره ذِكرٌ منه، وبهذا الاعتبار سموه حق اليقين؛ لثبوت الحقيقة لمن تحقق به، فحاصل ما ذُكر أن علم اليقين إشارة للعلم الحق الذي لا يقبل الاحتمال وإن لم يتوالَ علىٰ القلب، وعين اليقين هو المتوالي علىٰ القلب ذِكرُه حتىٰ قلَّت غفلات المتَّصف به عنه وإن كان قد يذكر غيره، وحق اليقين هو الذي غلب ذكر معلومه علىٰ القلب حتىٰ شُغل عن غيره، وثبتت حقيقته فيمن تحقق به، وهذه الاصطلاحات الثلاثة في مراتب العلم الحق، وإنما اختلفت في دوامها وعدم دوامها، وفي غلبتها علىٰ القلب حتىٰ شغلته عن ذكر غيره. ا.هـ.

وفي عبارات بعضهم[1]: علم اليقين ما أعطاه الدليل بتصوُّر الأمر علىٰ ما هو عليه، وعين اليقين ما أعطته المشاهدة والكشف، وحق اليقين ما حصل [في القلب][2] من العلم بما أريدَ له ذلك الشهود.

---

(١) التعريفات للجرجاني ص ١٦٢، ١٦٦. الفتوحات المكية لابن عربي ٢/ ٦٣٤. التوقيف علىٰ مهمات التعاريف للمناوي ص ٢٤٦. وعبارة ابن عربي: علم اليقين هو ما أعطاه الدليل الذي لا يقبل الدخل.

(٢) زيادة من الفتوحات المكية.

وقال غيره[(١)]: حق اليقين فناء العبد في الحق والبقاء به علمًا وشهودًا فعلم كل عاقل بالموت علم يقين، فإذا عاين الملائكةَ فعين يقين، فإذا فارق الروح فهو حق اليقين.

وقال صاحب القوت[(٢)]: المعرفة على مقامين: معرفة سمع ومعرفة عيان، فمعرفة السمع في الإسلام وهو أنهم سمعوا به فعرفوه، وهذا هو التصديق من الإيمان، ومعرفة العيان في المشاهدة وهو عين اليقين، والمشاهدة أيضًا على مقامين: مشاهدة الاستدلال ومشاهدة الدليل [عنها] فمشاهدة الاستدلال قبل المعرفة، وهذه معرفة الخبر، وهو في السمع، لسانها القول، والواجد بها واجد يعلم علم اليقين من قوله تعالى: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝ إِنِّي وَجَدتُّ﴾ [النمل: ٢٢ - ٢٣] فهذا العلم قبل الوجد وهو علم السمع، وقد يكون سببه التعليم، ومنه الحديث: «تعلَّموا اليقين» أي جالسوا الموقنين[(٣)] فاسمعوا منهم [علم اليقين؛ لأنهم علماؤه] وأما مشاهدة الدليل فهي بعد المعرفة التي هي العيان وهو اليقين، لسانه الوجد، والواجد بها واجد قربٍ، وبعد هذا الوجد علم من عين اليقين، وهذا يتولاَّه الله تعالى بنوره عن يده بقدرته، ومنه الحديث: «فوجدت بردها فعلمت»، فهذا التعليم بعد الوجد من عين اليقين باليقين، وهذا من أعمال القلوب، وهؤلاء علماء الآخرة وأهل الملكوت وأرباب القلوب، وهم المقرَّبون من أصحاب اليمين، وعلم الظاهر من علم المُلْك، وهو من أعمال اللسان، والعلماء به موصولون بالدنيا، وصالحوهم أصحاب اليمين. ا.هـ.

---

(١) التعريفات ص ٩٥ ونصه: «حق اليقين عبارة عن فناء العبد في الحق والبقاء به علما وشهودًا وحالاً لا علمًا فقط، فعلم كل عاقل بالموت علم اليقين، فإذا عاين الملائكة فهو عين اليقين، فإذا ذاق الموت فهو حق اليقين. وقيل: علم اليقين ظاهر الشريعة، وعين اليقين الإخلاص فيها، وحق اليقين المشاهدة فيها».

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٣٤. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٣) في المطبوعة: أي جالسوهم. والمثبت من القوت.

وهذا كله الذي ذكرناه لك كالمقدمة لِما سيأتي في سياق المصنف بعدُ، قال: (ونحن إنما أردنا بقولنا: إن من شأن علماء الآخرة صرف العناية إلىٰ تقوية اليقين بـ) أقسام في (المعنيين جميعًا، وهو نفي الشك) والريب والتردد عن القلب أولاً، وهو أول المعنيين (ثم تسليط اليقين علىٰ النفس حتىٰ يكون هو الغالب) المستولي عليها، وهو (المتصرف والمتحكم فيها) دون غيره، فلا يصدر منه إلا بشاهد منه، ولا يَعرِض له شيء إلا وهو دافعُه عنه (فإذا فهمتَ هذا) القَدْر (علمتَ أن المراد من قولنا: إن اليقين ينقسم) باعتبار ما يعتريه إلىٰ (ثلاثة أقسام بالقوة والضعف) هذا هو القسم الأول (والكثرة والقلة) وهو القسم الثاني (والخفاء والجلاء) وهو القسم الثالث (فأما بالقوة والضعف فعلىٰ الاصطلاح الثاني) وهو اصطلاح الفقهاء والصوفية (وذلك في الغلبة والاستيلاء علىٰ القلب) حتىٰ يغمره (ودرجات معاني اليقين في القوة والضعف لا تتناهَىٰ) باختلاف الأسباب والمعتاد (وتفاوت الخلق في استعدادهم للموت) بالقوة والضعف (بحسب تفاوت اليقين بهذه المعاني) علىٰ ما تقدم ذِكرُه.

(وأما التفاوت) فيه (بالخفاء والجلاء في الاصطلاح الأول فلا يُنكَر أيضًا) فقد يكون خفيًّا بحجاب صاحبه والالتفات إلىٰ الأنس بالخلق، وقد يكون جليًّا بزوال ذلك عنه (أما فيما يتطرق إليه التجويز) وهو المقام الثاني من الاصطلاح الأول (فلا يُنكَر، أعني الاصطلاح الثاني) للصوفية (وفيما انتفىٰ الشك عنه) وهو المقام الثالث من الاصطلاح الأول (أيضًا لا سبيل إلىٰ إنكاره، فإنك تدرك) في نفسك (تفرقةً بين تصديقك بوجود مكة) شرَّفها الله تعالىٰ (ووجود فَدَك مثلاً) وهي قرية من قرىٰ خيبر[1] (وبين تصديقك بوجود موسىٰ) صلىٰ الله علىٰ نبينا

(١) فدك: واحة كبيرة تقع قرب مدينة خيبر جنوب غرب منطقة حائل في المملكة العربية السعودية. وأول من سكنها هم العمالق، ثم جاء بعدهم اليهود واستوطنوها حتىٰ صالحهم رسول الله ﷺ عليها. ونقل ياقوت الحموي في معجم البلدان ٤/ ٢٤٠ عن الزجاجي أنها سميت بفدك بن حام بن نوح عليه السلام، وكان أول من نزلها.

وعليه وسلم (ووجود يوشع) فتاه عليه السلام (مع أنك لا تشك في الأمرين جميعًا) أي في مكة وفَدَك وموسىٰ ويوشع عليهما السلام (إذ مستندهما جميعًا) واحد وهو (التواتر) أي تتابع الأخبار (ولكن ترىٰ أحدهما أجلىٰ وأوضح في قلبك من الثاني) ضرورةً (لأن السبب في أحدهما أقوىٰ) من الثاني (وهو كثرة المخبرينَ) عن مكة وموسىٰ (وكذلك يدرك الناظر هذا في النظريات) التي هي (المعلومة بالأدلة) أي بالنظر فيها (فإنه ليس وضوح ما لاح له بدليل واحد) فقط (كوضوح ما لاح له بالأدلة الكثيرة مع تساويهما في نفي الشك، وهذا) ظاهر لا غبار عليه ولكن (قد ينكره المتكلم الذي يأخذ العلم من الكتب والسماع) ويدفعه في تقريره (ولا يراجع نفسه فيما يدركه من تفاوت الأحوال) ولو راجع نفسه لسلَّم.

(وأما القلة والكثرة فذلك) لا يُنكَر أيضًا؛ لأنه يكون (بكثرة متعلقات اليقين) وبقلتها، ومتعلقاته يأتي بيانها قريبًا، فقد يَعرِض لصاحبه التلون بالاختلاف، فيكون سببًا لقلته، وقد يقوَىٰ في المتعلقات فيكون أكثر (كما يقال: فلان) أعلم، أي (أكثر علمًا من فلان، أي معلوماته أكثر) فكذلك متعلقات اليقين كلما زادت اتصف صاحبه بالأكثرية (ولذلك قد يكون العالِم قوي اليقين في جميع ما ورد الشرع به) من الأوامر والمنهيَّات، وقد يكون ضعيف اليقين في جميعه (وقد يكون قوي اليقين في بعضه) ضعيفه في بعضه.

(فإن قلتَ: قد فهمتُ اليقين) وأقسامه الثلاثة (و) هي (قوته وضعفه، وكثرته وقلته، وجلاؤه وخفاؤه) وما اصطلحوا عليه في إطلاقاتهم (بمعنىٰ نفي الشك) والتردد (أو بمعنىٰ الاستيلاء علىٰ القلب) وقد ذكرتَ في بيان قسمه الثالث أن قلته وكثرته بالنظر إلىٰ المتعلقات (فما معنىٰ متعلقات اليقين ومجاريه؟ وفي ماذا يُطلَب اليقين؟ فإني ما لم أعرف) وفي نسخة: متىٰ لم أعرف (ما يُطلَب فيه اليقين لم أقدر علىٰ طلبه) والجهد في تحصيله (فاعلمْ أن جميع ما ورد به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم) في شرائعهم (من أوله إلىٰ آخره) من الأوامر والنواهي (هو من مجاري

اليقين) ومتعلقاته (**فإن اليقين عبارة عن معرفة مخصوصة**) وهو الذي لا يتداخل صاحبه ريبٌ، ولا يقبل الاحتمال (**ومتعلقه المعلومات التي وردت بها الشرائع**) علىٰ كثرتها (**فلا مَطمع في إحصائها**) في الصحائف علىٰ حسب الاستقراء (**ولكني أشير إلىٰ بعضها وهي أمّهاتها**) أي أصولها (**فمن ذلك: التوحيد**) وهو من أمهات الشرائع التي اتفقت فيها الملل (**وهو**) أي اليقين فيه (**أن يرىٰ الأشياء كلها من**) الله تعالىٰ وحده لا شريك له (**مسبِّب الأسباب**) أي جاعل الأسباب سببًا (**و**) من علامة هذه الرؤية أن (**لا يلتفت إلىٰ الوسائط**) الظاهرة (**بل يرىٰ الوسائط مسخَّرة**) مذلَّلة (**لا حكم لها**) في الحقيقة، وإليه يشير كلام الجنيد وغيره من العارفين فيما تقدم (**فالمصدِّق بهذا موقن**) أي متصف بصفة اليقين (**فإن انتفىٰ عن قلبه مع الإيمان إمكانُ الشك**) والتردد (**فهو موقن بأحد المعنيين**) المتقدم ذِكرهما (**فإن غلب**) ذلك (**علىٰ قلبه مع الإيمان غلبةً**) قوية بحيث (**أزال عنه الغضب علىٰ الوسائط**) إذا تأخرت عن التسخير (**والرضا عنهم والشكر لهم**) إذا جرت علىٰ خدمته (**ونزلت الوسائط في قلبه منزلة القلم**) للكاتب (**و**) منزلة (**اليد في حق المنعم بالتوقيع**) وهو أثر الكتابة في الكتاب (**فإنه لا يشكر القلم ولا اليد**) إن أُحسِنَ إليه بسببهما (**ولا يغضب عليهما**) إن لم يُحسَن إليه (**بل يراهما آلتين مسخَّرتين وواسطتين**) فإذا انصبغ بهذا المقام (**فقد صار موقنًا بالمعنىٰ الثاني**) من المعنيين (**و**) هذا المقام (**هو الأشرف**) في مقامات اليقين (**وهو ثمرة اليقين الأول**) وخلاصته (**وروحه وفائدته**) وقوامه (**ومهما تحقق أن الشمس والقمر والنجوم و**) كذلك (**الجمادات والنبات والحيوان وكل مخلوق**) لله تعالىٰ (**فهي مسخَّرات**) مذلَّلات (**بأمره حسب تسخير القلم في يد الكاتب، وأن القدرة الأزلية هي المصدر للكل**) منها بدأت، وإليها تعود (**استولىٰ علىٰ قلبه غلبة**) نور مقامات اليقين: (**التوكل والرضا والتسليم**) وهذه الثلاثة من مقامات اليقين التسعة، علىٰ ما يأتي بيانها في مواضعها (**وصار يأمن الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق**) وغيرها من الأخلاق المذمومة (**فهذا أحد أبواب اليقين**.

ومن ذلك: الثقة) أي الوثوق (بضمان الله سبحانه وتعالىٰ بالرزق) أي أنه ضامن وكفيل بإيصال الرزق إليه (في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾) [هود: ٦] فيتحقق أنه دابة من جملة الدواب بالمعنىٰ اللغوي (واليقين) فيه (بأن ذلك يأتيه) ألبتة (وأن ما قُدِّرَ له) في الأزل (سيساق إليه، ومهما غلب ذلك علىٰ قلبه) واستولاه (كان مجمِلاً في الطلب) أي كان طلبه في الرزق بطريق جميل، ومنه الحديث: «فأجمِلوا في الطلب» (ولم يشتد حرصه وشَرَهُه) وهو أشد الطمع (وتأسُّفه) أي تحزُّنه (علىٰ ما فاته) من رزق معلوم (وأثمر هذا اليقين أيضًا جملةً من الطاعات) والعبادات (والأخلاق الحميدة) والأوصاف الزكية.

(ومن ذلك) أي من ثمرات اليقين: (أن يغلب علىٰ قلبه أن من يعمل مِثقال ذرَّة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره، وهو اليقين بالثواب والعقاب، حتىٰ يرىٰ نسبة الطاعات إلىٰ الثواب كنسبة الخبز إلىٰ الشبع، ونسبة المعاصي إلىٰ العقاب كنسبة السموم والأفاعي إلىٰ الهلاك) فإنه يتسبب منها ذلك (فكما يحرص) ويدأب (علىٰ تحصيل الخبز طلبًا للشبع فيحفظ قليله وكثيره) بمباشرة أنواع الأسباب (فكذلك) ينبغي أن (يحرص علىٰ الطاعات كلها قليلها وكثيرها) فإنها متسببة له إلىٰ حصول الثواب (وكما يتجنب قليلَ السم وكثيره فكذلك يتجنب قليل المعاصي وكثيرها، وصغيرها وكبيرها) فإنها سُمِّيات (فاليقين بالمعنىٰ الأول قد يوجد لعموم المؤمنين) وهم الأبرار منهم الصالحون، ومنهم دون ذلك (أما بالمعنىٰ الثاني فيختص به المقرَّبون) من أصحاب اليمين، وهؤلاء هم علماء الآخرة وأهل الملكوت وأرباب القلوب (وثمرة هذا اليقين صدقُ المراقبة) أي الصدق في المراقبة مع الله تعالىٰ (في) كل من (الحركات والسكنات والخَطَرات) مما يخطر علىٰ القلب، وهي الواردات (والمبالغة في) تحصيل (التقوىٰ) بتوثيق عُرَىٰ أسبابها (و) كمال (الاحتراز) والامتناع (عن) التحوُّم حول حِمَىٰ (كل السيئات) والبعد عما يقرِّب إليها (وكلما كان اليقين) في ذلك (أغلب كان الاحتراز) مما ذُكر (أشد)

وأعظم (والتشمُّر) والتهيئة (أبلغ) وبين «أغلب» و«أبلغ» جناس.

(ومن ذلك: اليقين بأن الله ﷻ مطَّلع عليك في كل حال) ومراقب (ومشاهد لهواجس ضميرك) أي مما يخطر به من الواردات (وخفايا خواطرك وفكرك) مما ينتقش فيها من خير وشر (فهذا متيقَّن عند كل مؤمن بالمعنىٰ الأول وهو عدم الشك) والتردد في ذلك (وأما بالمعنىٰ الثاني وهو المقصود) بالذات (فهو عزيز) الوجود، وإليه الإشارة في الحديث: «أقل ما أوتيتم اليقين» (يختص به الصِّدِّيقون) والشهداء، ويسمَّىٰ: يقين معاينة، والعالِم به خبير، كما تقدمت الإشارة إليه عن القوت (وثمرته أن يكون الإنسان في) حال (خلوته) أي اختلائه عن أعين الناس (متأدِّبًا في جميع أحواله) بالآداب الشرعية (كالجالس بمشهد) أي بمحضر من (ملك عظيم ينظر إليه) ويرمق أحوالَه في حركاته وسكناته (فإنه لا يزال مطرقًا) خافضًا بصره إلىٰ الأرض (متأدبًا في جميع أعماله، متمسِّكًا) كذا في النسخ، أي لبعضه، ولو كان بزيادة النون بعد الكاف ناسب السياقَ، وربما يؤيد ما في النسخ قولُه بعدُ: (متحرِّزًا عن كل حركة تخالف هيئة الأدب) ومن جملة الحركات التي تخالف هيئات الأدب: إدارة البصر وتكريره إلىٰ نحو السقف والحيطان، والتلاعب بثيابه أو بملبوسه أو بشيء موضوع عنده، والجلوس متربِّعًا وإلىٰ غير القبلة، وتمديد الرِّجل لغير علة، والاتِّكاء لغير حاجة، والتغنِّي بأبيات، وهذه وغيرها هيئات تخالف الأدب في الظاهر، وأما باطنًا فاستعمال الفكر، وتسريحه من موضع إلىٰ موضع، ووقوفه علىٰ محل الشهوة، والتأمل في محاسن ما تميل نفسُه إليه، ونسيان الذِّكر والموت والقبر وما يؤول الحال إليه في الحشر والنشر، فهذه كلها مما يتعلق بالباطن، ولذلك قال: (ويكون في فكرته الباطنة كهو في أعماله الظاهرة) أي تكون أعماله الظاهرة مساوية لأعماله الباطنة في صِدق الإخلاص والخضوع للمولىٰ بحيث لا يميِّز أحدَهما عن الآخَر (إذا تحقق) وفي نسخة: إذ يتحقق (أن الله تعالىٰ مطَّلع علىٰ سريرته) وباطنه (كما يطَّلع الخلق علىٰ ظاهره)

فإذا علم ذلك (**فتكون مبالغته في عمارة باطنه وتطهيره**) من الأرجاس والأدناس (**والتزيُّن لعين الله سبحانه الكالئة**) أي الحافظة له (**أشد من مبالغته في تزيين ظاهره لسائر الناس**) ومتىٰ وصل هذا المقامَ ذاق ثمرة مقام الإحسان الذي ورد فيه: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وللسادة الصوفية في هذا المقام تقريرات شريفة، كل منهم فيه قال وجال في المجال بحسب ما أفاض عليه المولىٰ المتعال (**وهذا المقام في اليقين يورِث الحياءَ والخوف والانكسار والذل والاستكانة والخضوع وجملة من الأخلاق الحميدة**) والأوصاف الجميلة (**وهذه الأخلاق**) إذا ثبت فيها وتمكَّن (**تورِث أنواعًا من الطاعات رفيعة**) المقدار، جليلة الاعتبار (**فاليقين في كل باب من هذه الأبواب**) المذكورة مثله (**مثل الشجرة**) العظيمة الكثيرة الغصون، وهي المرتبة الأولىٰ (**وهذه الأخلاق في القلب مثل الأغصان المتفرِّعة منها**) وهي المرتبة الثانية (**وهذه الأعمال**) الصالحة (**والطاعات**) المقبولة (**الصادرة من الأخلاق كالثمار وكالأنوار المتفرعة من الأغصان**) وهي المرتبة الثالثة (**فاليقين هو الأصل والأساس**) والأعمال والأخلاق والأوصاف كلها من لواحقه ومنشآته، وقد تقدم عن القوت بيان مقامات اليقين الثلاثة، وأنه قال بعد ذلك: إذ كل موقن بالله فهو علىٰ علم من التوحيد والمعرفة به، ولكن علمه ومعرفته علىٰ قدر يقينه، ويقينه من نحو صفاء إيمانه وقوته، وإيمانه علىٰ معنىٰ معاملته ورعايته، فأعلىٰ العلوم علم المشاهدة عن عين اليقين.

وقال أيضًا: ومثل المشاهدة من المعرفة من اليقين من الإيمان كمثل النشا من الدقيق من السَّويق من الحنطة، والحنطة تجمع ذلك كله، كذلك الإيمان أصل ذلك، والمشاهدة أعلىٰ فروعه، كالحنطة أصل هذه المعاني، والنشا أعلىٰ فروعها، فهذه المقامات موجودة في أنوار الإيمان يمدُّها علم اليقين.

(**وله مَجارٍ وأبواب أكثر مما عددناه**) هنا (**وسيأتي ذلك في ربع المنجيات إن شاء الله تعالىٰ**) ونلمُّ هناك علىٰ تحقيقات بحول الله وقوته، اللهم لا سهل إلا

ما جعلتَه سهلاً، فسَهِّل يا كريم (**وهذا القدر**) الذي ذكرناه (**كافٍ في**) تفهيم (**معنىٰ اللفظ الآن**) لأنه إنما ذكره استطرادًا.

(**ومنها**) أي ومن علامات علماء الآخرة: (**أن يكون**) في نفسه في أكثر أحواله (**حزينًا**) فقد أخرج أبو نعيم في الحلية[1] من رواية جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار قال: إذا لم يكن في القلب حزنٌ خرب، كما إذا لم يكن في البيت ساكن يخرب (**منكسرًا**) والانكسار من علامة الحزن (**مطرِقًا**) أي جاعلاً رأسه ونظره إلىٰ الأرض (**صامتًا**) أي ساكتًا سكوت تفكُّر في عظمة الله وجلاله، ولا يضره الكلام إذا احتاج إليه أو لضرورة خاصة. وأخرج أبو نعيم[2] من رواية عمرو بن محمد بن أبي رزين قال: سمعت وهيبًا يقول: إن العبد لَيصمتُ فيجتمع له لُبُّه (**يظهر أثر الخشية**) والخوف (**علىٰ هيئته**) الظاهرة (**وكسوته**) بأن لا تكون من ثياب الشهرة، ولا رفيعة الأثمان، ولا من دقِّ الثياب؛ فإن كل ذلك ليس من ثياب علماء الآخرة (**وسيرته**) الباطنة، أي طريقته، بل (**و**) في جميع (**حركته وسكونه ونطقه وسكوته**) وسائر شئونه (**لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره**) له (**مذِّكرًا بالله تعالىٰ**) فإنه إذا كان متَّصفًا بما ذُكر من الأوصاف فكل مَن وقع نظرُه عليه فإنه يميل له ويحبه، فإذا رآه ذكر الله الذي أعطاه هذه الأوصاف وجمَّله بها ويتوجه بكليته إلىٰ الله تعالىٰ في أن يكون مثل هذا وأشباه ذلك؛ فإنه ذكر الله تعالىٰ، وهذا شأن الأولياء العارفين إذا رأوا ذِكر الله وهم علماء الآخرة. وأخرج أبو نعيم[3] من رواية زهير بن محمد عن هدبة عن حزم، سمعت مالك بن دينار يقول: يا عالم، أنت عالم [تأكل بعلملك و] تفخر بعلمك، لو كان هذا العلم طلبتَه لله عَزَّوَجَلَّ لرُؤي فيك وفي عملك (**وكانت صورته دليلاً علىٰ عمله**) أي صورته الظاهرة تكون كالمرآة يرىٰ فيها ما أبطن من

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٣٦٠.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ١٥٣.

(٣) السابق ٢/ ٣٧٨. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

أعماله، فالعمل إذا كان حسنًا يظهر ذلك في صورته وهيئته، فلذا تكون الصورة دلائل على الأعمال حُسنًا وقبحًا (فالجَوَاد عينُه فِراره) وهو مَثَلٌ يُضرَب لمن يدل ظاهرُه على باطنه.

وفي الصحاح[١]: إن الجواد عينه فُرارُه، أي يغنيك شخصُه ومنظره عن أن تختبره وأن تَفُرَّ أسنانَه.

وفي الأساس[٢]: فُرُّ الجوادِ عينُه، أي علامات الجود فيه ظاهرة، فلا يحتاج إلى أن تَفِرَّه. ا.هـ.

ويقال أيضًا: الخبيث عينه فراره، أي تعرف الخبث في عينه إذا أبصرتَه[٣].

(وعلماء الآخرة يُعرَفون بسيماهم) ويتميَّزون تميُّزَ الورد من السَّلَم[٤] (في السكينة والذلة والتواضع) فهذه الأوصاف الثلاثة من لوازمهم لا تفارقهم في الأحيان كلها، وهي من ثمرات اليقين (وقد قيل: ما ألبس الله تعالى عبدًا لبسة أحسن من خشوع في سكينة) أي مع سكينة. هذه العبارة منتزَعة من القوت، قال[٥]: ومما يدلك على الفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة أن كل عالم بعلم إذا رآه من لا يعرفه لم يتبيَّن عليه أثر علمه، ولا عرف أنه عالم، إلا العلماء بالله عز وجل؛ فإنهم يُعرَفون بسيماهم للخشوع والسكينة والتواضع والذلة، فهذه صبغة الله تعالى لأوليائه، ولبسته للعلماء به، ومَن أحسن من الله صبغة، كما قيل: ما ألبس الله عز وجل عبدًا ... الخ. ثم قال: (فهي لبسة الأنبياء وسيما الصالحين والصِّدِّيقين والعلماء) فمَثَلُهم في ذلك كمَثَل الصُّنَّاع؛ إذ كل صانع لو ظهر لمن لا يعرفه لا يعرف صنعته

---

(١) الصحاح للجوهري ٢/ ٧٨٠.

(٢) أساس البلاغة للزمخشري ٢/ ١٥.

(٣) تاج العروس ١٣/ ٣١٣.

(٤) السلم: جنس أشجار يتبع الفصيلة القرنية.

(٥) قوت القلوب ١/ ٢٤٢.

دون سائر الصنائع، ولم يفرّق بينه وبين الصناع إلا الصناع؛ فإنه يُعرَف بصنعته؛ لأنها ظاهرة عليه؛ إذ صارت له لبسة وصفة لالتباسها بمعاملته، فكانت سيماه (وأما التهافت في الكلام) أي التساقط فيه والتزاحم عليه (والتشدُّق) أي إدارة الشّدقين فيه بالفصاحة (والاستغراق في الضحك) أي الامتلاء منه (والحدَّة) أي العَجَلة (في الحركة والنطق) بأن يبتدئ في الكلام قبل صاحبه ويبادره به (فكل ذلك من آثار البَطَر) أي سوء احتمال النعمة، وقلة القيام بحقها (والأمن) أي ومن آثار الأمنية كأنه أُزيلَ عنه الخوف، وصار مأمونًا في نفسه (والغفلة عن عظيم عقاب الله تعالىٰ وشديد سخطه) فإن من تيقَّن ذلك لم يطع نفسَه في غفلاتها (وهذا دأب أبناء الدنيا) وطريقتهم (الغافلين عن الله تعالىٰ) المنسحبين تحت إمارة النفس الأمَّارة (دون العلماء به) ﷺ (وهذا لأن العلماء ثلاثة) أقسام (كما قال) أبو محمد (سهل التستري) فيما نقله عنه صاحب القوت فقال: عالم بالله تعالىٰ، وعالم لله تعالىٰ، وعالم بحكم الله تعالىٰ. معنىٰ العالم بالله تعالىٰ: العارف الموقِن، والعالم لله هو العالم بعلم الإخلاص والأحوال والمعاملات، والعالم بحكم الله هو العالم بتفصيل الحلال والحرام، فسَّرنا ذلك علىٰ معاني قوله ومعرفة مذهبه، وقد قال مرةً في كلام أبسط من هذا: (عالم بأمر الله تعالىٰ لا بأيام الله تعالىٰ، وهم المفتون في الحلال والحرام) وهذه الجملة متأخِّرة في نص القوت. زاد المصنف: (وهذا العلم لا يورث الخشيةَ) هذه الزيادة ليست في القوت. ثم قال سهل: (وعالم بالله تعالىٰ لا بأمر الله ولا بأيام الله، وهم عموم المؤمنين) هذه الجملة أول الأقسام، ونص القوت: وهم المؤمنون (وعالم بالله تعالىٰ وبأمر الله تعالىٰ وبأيام الله تعالىٰ، وهم الصِّدِّيقون) زاد المصنف: (والخشية والخشوع إنما تغلب عليهم) لا علىٰ غيرهم. قال صاحب القوت: (وأراد) سهل بقوله: (بأيام الله: أنواع عقوباته الغامضة ونِعَمه الباطنة) ونص القوت: بنعمه الباطنة وبعقوباته الغامضة. زاد المصنف: (التي أفاضها علىٰ القرون السالفة): الماضية (واللاحقة، فمَن أحاط علمُه بذلك عظم خوفُه وظهر خشوعه) قلت: وأصل ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ ٱللَّهِ﴾

[إبراهيم: ٥] أي بنعمائه وشدائده، والأيام يُعبَّر بها عن الشدائد والوقائع، ومنه: أيام العرب. وقال بعضهم: إضافة الأيام إلىٰ الله للتشريف طالما أفاض عليهم من نعمه فيها[١].

وأخرج أبو نعيم في الحلية[٢] من رواية علي بن خشرم قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: قال بعض الفقهاء: كان يقال: العلماء ثلاثة: عالم بالله، وعالم بأمر الله، وعالم بالله وبأمر الله؛ فأما العالم بأمر الله فهو الذي يعلم السنَّة ولا يخاف الله، وأما العالم بالله فهو الذي يخاف الله ولا يعلم السنَّة، وأما العالم بالله وبأمر دينه فهو الذي يعلم السنَّة ويخاف الله، فذاك يُدعَىٰ عظيمًا في ملكوت السموات.

وأخرج أيضًا[٣] من رواية محمد بن جهضم قال: أخبرنا سفيان بن عيينة قال: أفضل العلم العلم بالله والعلم بأمر الله، فإذا كان العبد عالمًا بالله وعالمًا بأمر الله فقد بلغ، ولم يصل إلىٰ العِباد نعمة أفضل من العلم بالله والعلم بأمر الله، ولم تصل إليهم عقوبة أشد من الجهل بالله والجهل بأمر الله.

وأورد صاحب القوت[٤] هذا القول عن سفيان ولم يصرح أنه الثوري أو ابن عيينة فقال: وفرَّقوا بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة، فقال سفيان: العلماء ثلاثة: عالم بالله تعالىٰ وبأمر الله تعالىٰ، فذاك العالم الكامل، وعالم بالله تعالىٰ غير عالم بأمر الله تعالىٰ، فذاك التقي الخائف، وعالم بأمر الله تعالىٰ غير عالم بالله تعالىٰ، فذاك العالم الفاجر. وقيل أيضًا: عالم لله تعالىٰ وهو العامل بعلمه، وعالم بأيام الله

---

(١) انظر تفسير هذه الآية في: معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٨. تفسير الطبري ١٣/ ٥٩٤ - ٥٩٨. معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٥. بحر العلوم للسمرقندي ٢/ ٢٠٠.

(٢) حلية الأولياء ٧/ ٢٨٠.

(٣) السابق ٧/ ٢٨١.

(٤) قوت القلوب ١/ ٢٤٢ وفيه: وقد فرقت العلماء بين العلم بالله تعالىٰ وبين العلم بأمر الله تعالىٰ، وفرقوا بين علماء ... الخ.

تعالىٰ وهو الخائف الراجي. وكان سهل يقول: طلاَّب العلم ثلاثة: واحد يطلبه للعمل به، وآخَر يطلبه ليعرف الاختلاف فيتورَّع ويأخذ بالاحتياط، وآخر يطلبه ليعرف التأويل فيتأوَّل الحرام فيجعله حلالاً، فهذا يكون هلاك الخلق علىٰ يديه.

(وقال عمر) بن الخطاب (رضي الله عنه): **تعلَّموا العلم، وتعلموا للعلم السكينةَ والوقار والحِلم، وتواضعوا لمن تعلَّمون منه، وليتواضعْ لكم من يتعلم منكم، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم**) هكذا أورده صاحب القوت بلا سند قال: وروينا عن عمر أيضًا ... فساقه، قال العراقي: ورد هذا مرفوعًا، رواه ابن عدي[1] في ترجمة عَبَّاد بن كثير البصري عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، ورُوي من حديث عمر أيضًا مرفوعًا مختصرًا، رواه أبو نعيم[2] من رواية عبد المنعم بن بشير عن مالك [وعبد الرحمن بن زيد كلاهما] عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا العلم، وتعلموا للعلم الوقارَ». وعباد بن كثير متروك الحديث، وعبد المنعم بن بشير المصري يكنَّىٰ أبا الخير، منكر الحديث.

قلت: أخرجه أبو نعيم من حديث حَبُّوش بن رزق الله عن عبد المنعم بن بشير، وقال في آخره: غريب من حديث مالك [عن زيد] لم نكتبه إلا من حديث حبوش عن عبد المنعم. والسياق الأول قد أخرجه أيضًا الطبراني في الأوسط[3] من حديث أبي هريرة، إلا أنه إلىٰ قوله: لمن تَعَلَّمون منه. ولم يذكر شيئًا بعد ذلك.

و«تعلَّمون»[4] بحذف إحدىٰ التاءين. والسكينة: الطمأنينة. والوقار: الحِلم والرَّزانة، أي: ينبغي للعالِم أن يلزم هذه الأوصافَ في مراقبته مع الله تعالىٰ في سائر

(١) الكامل في الضعفاء ٤/ ١٦٤٢.

(٢) حلية الأولياء ٦/ ٣٤٢. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٣) المعجم الأوسط ٦/ ٢٠٠.

(٤) فيض القدير ٣/ ٢٥٣.

حركاته وسَكَناته؛ فإنه أمين على ما استُودع من العلوم، قال ابن المبارك[1]: كنت عند مالك، فلدغته عقرب ست عشرة مرةً، فتغيَّر لونه وتصبَّر ولم يقطع الحديث، فلما فرغ سألته، فقال: صبرتُ إجلالاً لحديثه ﷺ. وليتواضعْ لمن يتعلم منه؛ لأنه رفعة له وزيادة عز؛ لكونه من ورثة الأنبياء.

(ويقال: ما آتى الله ﷻ عبدًا علمًا إلا آتاه معه حلمًا وتواضعًا وحُسن خلق ورفقًا) هكذا أورده صاحب القوت[2]، ثم قال: (فذلك هو) ونص القوت: فذلك علامة (العلم النافع.

وفي الخبر) ونص القوت: وقد روينا في الأثر: (من آتاه الله علمًا وزهدًا وتواضعًا وحسن خلق فهو إمام المتقين) هكذا أورده صاحب القوت، وتبعه المصنف، ولم يتعرَّض له العراقي، ولا وجدته في غير كتاب القوت.

(وفي الخبر: إن من خيار أمتي قومًا يضحكون جهرًا من سعة رحمة الله ﷻ، ويبكون سرًّا من خوف عذاب الله، أبدانهم في الأرض وقلوبهم في السماء، أرواحهم في الدنيا وعقولهم في الآخرة) لأنه[3] لا راحة للمؤمن دون لقائه ربه، والدنيا سجنه حقًّا، فلذا تجد المؤمن بدنه في الدنيا وروحه في السماء[4]. وفي الحديث المرفوع: «إذا نام العبد وهو ساجد باهى الله به الملائكة، فيقول: انظروا إلى عبدي، بدنه

---

(١) رواه القاضي عياض في كتاب الشفا ٢/ ٤٦ ونصه: «كنت عند مالك وهو يحدثنا، فلدغته عقرب ست عشرة مرة وهو يتغير لونه ويصفر ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ، فلما فرغ من المجلس وتفرق عنه الناس قلت له: يا أبا عبد الله، لقد رأيت منك اليوم عجبًا. قال: نعم، إنما صبرت إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ».

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٤٤.

(٣) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/ ٤٦٦.

(٤) في المفتاح: وروحه في المحل الأعلى.

في الأرض وروحه عندي». رواه تمّام[1] وغيره. وهذا معنى قول بعض السلف: القلوب جوّالة، فقلب حول الحشر، وقلب يطوف مع الملائكة حول العرش.

قال ابن القيم[2]: ولا تبادر إلى إنكار كون البدن في الدنيا والروح في الملأ الأعلى، فللروح شأن، وللبدن شأن، والنبي ﷺ كان بين أظهر أصحابه وهو عند ربه يطعمه ويسقيه، فبدنه بينهم، وروحه وقلبه عند ربه، وقال أبو الدرداء[3]: إذا نام العبد عُرج بروحه إلى تحت العرش، فإن كان طاهرًا أُذن لها بالسجود، وإن لم يكن طاهرًا لم يؤذَن لها بالسجود. فهذه - والله أعلم - هي العلة التي أُمر الجُنُب لأجلها أن يتوضأ إذا أراد النوم، وهذا الصعود إنما كان لتجرُّد الروح عن البدن بالنوم، فإذا تجردت بسبب آخر حصل لها من الترقّي والصعود بحسب ذلك التجرد، وقد يقوى الحبُّ بالمحب حتى لا يشاهَد منه بين الناس إلا جسمه، وروحه في موضع آخر عند محبوبه.

(**يمشون بالسكينة**) وهو السكون والاطمئنان (**ويتقرّبون بالوسيلة**) قال العراقي: رواه الحاكم في المستدرك[4] والبيهقي في شعب الإيمان[5] بزيادة فيه واللفظ له من رواية حماد بن أبي حميد عن مكحول عن عياض بن سليمان - وكانت له صحبة - قال: قال رسول الله ﷺ: «خيار أمتي فيما أنبأني الملأ[6] الأعلى

---

(١) فوائد تمام ١/ ٣٥٢ من حديث أنس بن مالك، ولفظه: «إذا نام العبد في سجوده باهى الله عَزَّوَجَلَّ به ملائكته قال: انظروا إلى عبدي، روحه عندي، وجسده في طاعتي». وفي سنده داود بن الزبرقان، وهو ضعيف جدا.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ١٦٨.

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٣٥٤ بلفظ: إذا نام الإنسان عرج بروحه حتى يؤتى بها إلى العرش، فإن كان طاهرا أذن لها بالسجود، وإن كان جنبًا لم يؤذن لها بالسجود.

(٤) المستدرك على الصحيحين ٣/ ٢٠.

(٥) شعب الإيمان ٢/ ٢١٥.

(٦) في المطبوعة: العلي. والتصويب من المستدرك والشعب.

قوم يضحكون جهرًا من سعة رحمة الله، ويبكون سرًّا من خوف شدة عذاب ربهم، يذكرون ربهم في الغَداة والعشي في البيوت الطيبة المساجد، ويدعونه بألسنتهم رغبًا ورهبًا، ويسألونه بأيديهم خفضًا ورفعًا، ويُقبِلون بقلوبهم عَودًا وبدءًا، فمؤنتهم على الناس خفيفة، وعلى أنفسهم ثقيلة، يدِبُّون في الأرض حفاةً على أقدامهم كدبيب النمل بلا مرح ولا بذخ، يمشون بالسكينة، ويتقربون بالوسيلة، ويقرأون القرآن، ويقرِّبون القربان، ويلبسون الخلقان [عليهم][1] من الله شهود حاضرة وعين حافظة، يتوسَّمون العبادَ، وينقلبون[2] في البلاد، أرواحهم في الدنيا، وقلوبهم في الآخرة، ليس لهم همٌّ إلا أمامهم، أعدُّوا الجهاز لقبورهم، والجواز لسبيلهم، والاستعداد لمقامهم». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾ [إبراهيم: ١٤].

قال البيهقي: تفرَّد بهذا حماد بن أبي حميد، وليس بالقوي عند أهل العلم.

قال العراقي: ولم يتفرد به حماد كما قال البيهقي، بل رُوي أيضًا من رواية خالد بن المغيرة بن قيس عن مكحول، رواه أبو نعيم في الحلية[3]، وخالد بن المغيرة لم أرَ له ذكرًا في مَظانِّ وجوده، وكذلك راويه عنه شيبان بن مهران. والله أعلم.

قلت: أورده الحافظ السيوطي في الجامع الكبير[4] وعزاه لأبي نعيم والحاكم، قال: وتعقب، والبيهقي وضعَّفه، وابن النجار، كلهم عن عياض بن سليمان، وكانت له صحبة. قال الذهبي: هذا حديث عجيب منكَر، وعياض لا يُدرَى من هو، قال ابن النجار: ذكره أبو موسى المديني في الصحابة.

---

(١) زيادة من المستدرك والشعب.

(٢) في المستدرك والشعب: ويتفكرون.

(٣) حلية الأولياء ١/ ١٦.

(٤) كنز العمال ٢/ ٢٨.

(وقال الحسن) البصري: **(الحِلم وزير العلم، والرفق أبوه، والتواضع سرباله)** هكذا أورده صاحب القوت[1] بلفظ: وكان الحسن يقول ... فساقه. والسِّرْبال بالكسر: القميص أو كل ما لُبس.

(وقال بشر بن الحارث) الحافي: **(مَن طلب الرياسة بالعلم فتقرَّب إلىٰ الله تعالىٰ ببغضه فهو مقيت في السماء والأرض)** أورده صاحب القوت، ولفظه: من العلماء، بدل: بالعلم، وفيه: فإنه مقيت، بدل: فهو، والمقيت: الممقوت، وهو المبغوض أشدَّ البغض.

وأخرج أبو نعيم[2] من رواية محمد بن السَّمَّاك عن سفيان عن مالك بن دينار أنه قال: مَن طلب العلم للعمل وفَّقه الله تعالىٰ، ومن طلب العلم لغير العمل يزداد بالعلم فخرًا.

(ورُوي في الإسرائيليات) وفي القوت: وروينا في الإسرائيليات **(أن حكيمًا)** من الحكماء **(صنَّف ثلثمائة وستين مصنَّفًا)** كذا في النسخ، ونص القوت: مصحفًا **(في الحكمة حتىٰ وُصف بالحكيم، فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ نبيهم: قل لفلان: قد ملأتَ الأرض بَقاقًا)** هو بقافين كسحاب: كثرة الكلام، وقيل: الهَذَيان **(ولم تُرِدني بشيء من ذلك)** أي لم تُرِد وجهي **(وإني لم أقبل من بقاقك شيئًا. فندم الرجل، وترك ذلك)** ونص القوت: قال: فأسقط في يديه وحزن وترك ذلك **(وخالط العامَّةَ)** من الناس، ومشىٰ **(في الأسواق، وواكَلَ بني إسرائيل، وتواضع في نفسه، فأوحىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ نبيهم)** ونص القوت: إلىٰ النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ **(قل له: الآن)** ونص القوت: قل لفلان الآن **(وُفِّقتَ لرضاي)** وأخرج أبو نعيم في الحلية[3] في ترجمة أبي يوسف يزيد بن ميسرة فقال: حدثنا أبو علي محمد بن أحمد بن الحسن، حدثنا بشر بن موسىٰ، حدثنا

(١) قوت القلوب ١/ ٢٤٤.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٣٧٨.

(٣) السابق ٥/ ٢٣٧.

سعيد بن منصور، حدثنا إسماعيل بن عيَّاش، عن سليمان بن سليم الكناني، عن يحيىٰ بن جابر الطائي، عن يزيد بن ميسرة أن حكيمًا من الحكماء صنَّف ثلاثمائة وستين مصحفًا حِكَمًا، فبثَّها في الناس، فأوحىٰ الله إليه: إنك ملأت الأرض بقاقًا، وإن الله لم يقبل من بقاقك شيئًا.

(وحكىٰ الأوزاعي) عبد الرحمن بن عمرو، فقيه أهل الشام (عن بلال بن سعد) بن تميم الأشعري أو الكِنْدي، أبو عمرو أو أبو زُرعة الدمشقي، ثقة فاضل، مات في خلافة هشام[1] (أنه كان يقول: ينظر أحدكم إلىٰ الشرطي) قال في المصباح[2]: الشُّرَط علىٰ لفظ الجمع: أعوان السلطان؛ لأنهم جعلوا لأنفسهم علامات يُعرَفون بها للأعداء، الواحد: شُرْطة، مثل غُرْفة وغُرَف، فإذا نُسب إلىٰ هذا قيل: شُرْطي، بالسكون ردًّا إلىٰ الواحد (فيستعيذ بالله منه، وينظر إلىٰ علماء الدنيا المتصنِّعين) أي المتكلِّفين في صنعهم (إلىٰ الخلق، المتشوِّفين) أي المتطلِّعين (إلىٰ الرياسة فلا يمقتهم، وهم أحق بالمقت من ذلك الشرطي) أورده صاحب القوت، ولفظه: وكان الأوزاعي يروي عن بلال بن سعد أنه كان يقول: ينظر أحدكم إلىٰ الشرطي والعون فيستعيذ بالله من حاله ويمقته، وينظر إلىٰ عالِم الدنيا قد تصنَّعَ للخلقِ وتشوَّف للطمع والرياسة فلا يمقته، هذا العالم أحق بالمقت من ذلك الشرطي.

(ورُوي أنه قيل: يا رسول الله، أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: اجتناب المحارم، ولا يزال فُوك رطبًا من ذكر الله تعالىٰ. قيل: فأيُّ الأصحاب خير؟ قال ﷺ: صاحبٌ إن ذكرتَ الله أعانك، وإن نسيتَه ذكَّرك. قيل: فأي الأصحاب شر؟ قال ﷺ: صاحب إن نسيتَ لم يذكِّرك، وإن ذكرت لم يُعِنْك. قيل: فأي الناس أعلم؟ قال: أشدهم لله خشيةً. قيل: فأخبِرْنا بخيارنا نجالسهم. قال ﷺ: الذين إذا رُؤوا ذُكر اللهُ

---

(١) تقريب التهذيب لابن حجر ص ١٧٩.

(٢) المصباح المنير ص ١١٨.

تعالىٰ. قالوا: فأي الناس شر؟ قال: اللهم غفرًا. قالوا: أخبِرْنا يا رسول الله. قال: العلماء إذا فسدوا) قال العراقي: لم أجده هكذا مجموعًا بطوله، وهو ملفَّق بعضه من أحاديث، فروينا في كتاب الزهد والرقائق لابن المبارك[١] من رواية محمد بن أبي عدي عن يونس عن الحسن قال: سُئل النبي ﷺ: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «أن تموت يومَ تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالىٰ». ورُوي ذلك أيضًا من حديث عبد الله بن بُسْر المازني مرفوعًا، أخرجه الديلمي في مسند الفردوس[٢]، وإسناده جيد، ورُوي أيضًا من حديث معاذ بن جبل[٣].

وذكر المصنف في آداب الصحبة حديثًا متنُه: «إذا أراد الله بعبد خيرًا جعل له أخًا صالحًا إن نسي ذكَّره، وإن ذكَر أعانه» وسيأتي ذلك في بابه.

وروىٰ الثعلبي بإسناده عن الشعبي[٤]: إنما العالم من يخشىٰ الله.

وروىٰ البزار[٥] من رواية جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رجل: يا رسول الله، مَن أولياء الله؟ قال: «الذين إذا رُؤوا ذُكر الله ﷻ».

وروىٰ البزار أيضًا من حديث معاذ قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الناس شر؟ فقال: «اللهم غفرًا، سَلْ عن الخير، ولا تسأل عن الشر، شرار الناس شرار

---

(١) الزهد والرقائق ص ٣٢٨.

(٢) وأخرجه أيضًا الترمذي في سننه ٥/ ٣٨٨ وابن ماجه في سننه ٥/ ٣٣٢ وابن حبان في صحيحه ٣/ ٩٦، ولفظه: أن رجلا قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأخبرني بشيء أتشبث به. قال: «لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله». وقال الترمذي: حسن غريب.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٣/ ١٠٠ ولفظه: سألت رسول الله ﷺ: أي الأعمال أحب إلىٰ الله؟ قال: «أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله».

(٤) تفسير الثعلبي المعروف بالكشف والبيان ٨/ ١٠٦، ولفظه: عن صالح بن مسلم الليثي قال: أتىٰ رجل الشعبي فقال: أفتني أيها العالم. فقال: العالم من خشي الله ﷻ.

(٥) مسند البزار ١١/ ٢٥١.

العلماء»[١]. وإسناده ضعيف.

ورواه الدارمي في مسنده من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلاً، وقد تقدم في الباب الثالث.

قلت: هذا الحديث بطوله أورده صاحب القوت[٢]، وإياه تبع المصنفُ، ولفظه: وقد روينا حديثًا حسنًا مقطوعًا عن سفيان عن مالك بن مغول قال: قيل: يا رسول الله ... فساقه، وفيه: وصاحب إن سكتَّ، بدل: نسيتَ، والباقي سواء.

(وقال ﷺ: إن أكثر الناس أمانًا) وفي نسخة: أمنًا **(يومَ القيامة أكثرهم فكرًا في الدنيا، وأكثر الناس ضحكًا في الآخرة أكثرهم بكاءً في الدنيا، وأشد الناس فرحًا في الآخرة أطولهم حزنًا في الدنيا)** أورده صاحب القوت[٣] عن عامر بن عبد الله العنبري - وكان من أقران الحسن - سمعت مشيختنا فيما يروون عن نبينا ﷺ أنه كان يقول: «إن أصفىٰ الناس إيمانًا يوم القيامة أكثرهم فكرةً في الدنيا، وأكثر الناس ضحكًا في الجنة ...» والباقي سواء.

قال العراقي: لم أجد له أصلاً بجملته في الأحاديث المرفوعة، ولأول الجملة شاهدٌ في صحيح ابن حبان[٤] من حديث أبي هريرة رفعه فيما يروي عن

---

(١) تقدم هذا الحديث في الباب الثالث.

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٤٦.

(٣) السابق ١/ ٢٦١ ونصه: «وحدث يوسف بن عطية عن محمد بن عبد الرحمن الخراز قال: فقد الحسن عامر بن عبد الله العنبري فقال: اذهبوا بنا إلىٰ أبي عبد الله. فأتاه الحسن، فإذا عامر في بيت قد لف رأسه، وليس إلا رمل، فقال له الحسن: يا أبا عبد الله، لم نرك منذ أيام. فقال: إني كنت أجلس هذه المجالس فأسمع تخليطًا وتغليطًا، وإني كنت أسمع مشيختنا فيما يروون عن نبينا ﷺ أنه كان يقول: إن أصفىٰ الناس إيمانًا يوم القيامة أكثرهم فكرة في الدنيا، وأكثر الناس ضحكا في الجنة أكثرهم بكاء في الدنيا، وأشد الناس فرحا في الآخرة أطولهم حزنا في الدنيا. فوجدت البيت أخلىٰ لقلبي وأقدر لي من نفسي علىٰ ما أريد منها. قال الحسن: أما إنه لم يعن مجالسنا هذه، إنما عنىٰ مجالس القصاص في الطرق الذين يخلطون ويغلطون ويقدمون ويؤخرون».

(٤) صحيح ابن حبان ٢/ ٤٠٦.

ربه جل وعلا: «وعزَّتي، لا أجمع علىٰ عبدي خوفينِ وأمنينِ، إذا خافني في الدنيا أمَّنتُه يوم القيامة، وإذا أمِنني في الدنيا أخفتُه يوم القيامة». وللجملة الأخيرة من رواية مالك بن دينار قال: رأيت الحسن في منامي مشرق اللون ... وفي آخره: أطول الناس حزنًا في الدنيا أطولهم فرحًا في الآخرة. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الهم والحزن[١].

(**وقال علي كرَّم الله وجهه في خطبته: ذمتي رهينة، وأنا به زعيم**) هكذا في القوت[٢]، وفي رواية: وأنا به زعيم لمن صرَّحت له العبرات (**إنه لا يهيج**) أي لا يَذْوَىٰ وييبس (**علىٰ التقوىٰ زرعُ قوم، ولا يظمأ**) أي لا يعطش (**علىٰ الهدىٰ سِنْخ**) بكسر السين المهملة، وسكون النون، وآخره خاء معجمة، هو الأصل[٣] (**أصل، وإن أجهل الناس من لا يُعرَف قَدْره**) هكذا في القوت، وزاد: وكفىٰ بالمرء جهلاً أن لا يُعرَف قدره. وفي رواية أخرىٰ بعد قوله «سنخ»: أصل ألا (**وإن أبغض الخلق إلىٰ الله تعالىٰ**) وفي أخرىٰ: أبغض خلق الله إلىٰ الله (**رجل قمش علمًا**) التقميش: جمعُ الشيء من هنا وهنا (**أغار به في أغباش الفتنة**) هكذا في القوت، والأغباش جمع غَبَش، وهي الظُّلمة، وفي رواية: غارًّا في أغباش الفتنة، زاد في القوت: عميٌّ

---

(١) الهم والحزن ص ٤٨ (ط - دار السلام بالقاهرة) ونصه: «رأيت الحسن في منامي مشرق اللون، شديد بياض الوجه، تبرق مجاري دموعه من شدة بياضها علىٰ سائر وجهه، فقلت: يا أبا سعيد، ألست عندنا من الموتىٰ؟ قال: بلىٰ. قلت: فماذا صرت إليه بعد الموت في الآخرة، فوالله لقد كان طال حزنك وبكاؤك في أيام الدنيا؟ فقال مبتسما: رفع واللهِ لنا ذلك الحزن، والبكاء علم الهداية إلىٰ طريق منازل الأبرار، فحللنا بثوابه مساكن المتقين، وأيم الله إن ذلك الأمر من فضل الله علينا. فقلت: فماذا تأمرني به؟ قال: ما آمرك به، أطول الناس حزناً في الدنيا أطولهم فرحاً في الآخرة».

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٤٦.

(٣) قال الزبيدي في تاج العروس ٧/ ٢٧٤: «السنخ بالكسر: الأصل من كل شيء، والجمع: أسناخ وسنوخ، والحاء لغة فيه. ورجع فلان إلىٰ سنخ الكرم وإلىٰ سنخه الخبيث، وفي حديث الزهري: أصل الجهاد وسنخه الرباط في سبيل الله. والسنخ من السن: منبته، وأسناخ الثنايا والأسنان: أصولها».

عمًّا في غيب الهدنة، وفي رواية: عميًا بما في غيب الهدنة (**سمَّاه أشباه له من الناس وأراذلهم عالمًا**) وفي القوت: ورُذّالهم، وفي رواية: سمَّاه أشباهه من الناس عالمًا (**ولم يَعِش**) كذا في النسخ، والصواب: ولم يعن، أي لم يهتم (**في العلم يومًا سالمًا، بكَّرَ**) أي غدا في تحصيله. وفي بعض النسخ: تكثَّر، وهو غلطٌ (**واستكثر**) أي أخذ بالكثرة (**فما قلَّ منه وكفىٰ خير مما كثُر وألهىٰ**) هكذا في النسخ، والرواية: فما قل منه فهو خير مما كثر (**حتىٰ إذا ارتوىٰ من ماء آجِن**) أي متغيِّر، شبَّه به العلمَ الذي لا يُنتفَع به (**وأكثر من غير طائل جلس**) وفي رواية: قعد (**للناس مفتيًا ليخلِّص**) كذا في النسخ، والرواية: لتخليص (**ما التبس علىٰ غيره**) أي اشتبه (**فإن نزلت به إحدىٰ المهمَّات**) كذا في النسخ، والرواية: المبهمات، أي المشكلات (**هيَّأ لها حشو الرأي من رأيه**) وفي رواية: هيأ حشوًا من رأيه (**فهو من قطع الشبهات في مثل غزل العنكبوت**) أي في غاية الضعف والوهَىٰ، وإذا أرادوا فساد أمر وعدم انتظامه شبَّهوه بحُقِّ الكَهْدَل وهي العنكبوت، يقولون: هي أضعف من حُقِّ الكهدل، أي بيت العنكبوت (**لا يدري أخطأ أمْ أصاب**) وفي رواية: لا يعلم إذا أخطأ؛ لأنه لا يعلم أخطأ أم أصاب (**رَكَّاب جهالات، خبَّاط عشوات**) وفي بعض الروايات بالتقديم والتأخير، أي كثير الركوب علىٰ متن عمياء، وكثير الخبط للعشواء، وكلاهما مَثَلٌ[1] (**لا يعتذر مما لا يعلم فيَسْلَم**) أي لا يَكِل علم ما لا يعلمه إلىٰ الله تعالىٰ فيسلم من الورطة استنكافًا عن نسبة الجهل إليه، فيُقدِم في جواب كل مسألة (**ولا يعضُّ علىٰ**) وفي رواية: في (**العلم بضرس قاطع فيغنم**) أي لم يأخذ من العلم بحظه الوافر واجتهاده القوي فينال غنيمة، وزاد في رواية: ذَرَّاء الرواية ذرو الريح الهشيم، أي ليس عنده إلا الرواية من غير العمل بما علمه، فهو يذرها علىٰ الأسماع كما ذرت الريحُ العاصفُ اليابسَ من الكلأ (**تبكي منه الدماء**) أي لأنه يفتي فيها بغير

---

(١) قال الميداني في مجمع الأمثال ٢/ ٤١٣: «يخبط خبط عشواء، يضرب للذي يعرض عن الأمر كأنه لم يشعر به، ويضرب للمتهافت في الشيء».

وجه شرعي، بل بجهل منه (وتُستحل بقضائه) أي بحكمه (الفروج الحرام) أي لجهله في مسائل النكاح، وفي رواية قبل هذه الجملة: وتصرخ منه المواريث (لا مُليء والله بإصدار ما ورد عليه) وهو مثّل في تنزيل الشيء غير موضعه، وأنشدوا:

أوردها سعدٌ وسعد مشتمل   ما هكذا يا سعد تورَد الإبل[1]

(ولا هو أهلٌ لِما فُوِّض إليه) وفي رواية: ولا أهل لما فرط به، زاد في القوت: (أولئك الذين حلَّت عليهم المَثُلات، وحقَّت عليهم النياحة والبكاء أيام حياة الدنيا) قال السيوطي في القسم الثاني من الجامع الكبير[2]: رواه المُعافىٰ بن زكريا[3] ووكيع[4] وابن عساكر في التاريخ[5].

قلت: وأورده صاحب القوت فقال: وقد وصف علي كرَّم الله وجهه علماء الدنيا الناطقين عن الرأي والهوىٰ بوصف غريب رواه خالد بن طليق عن أبيه عن جده = وجده عمران بن الحصين رضي الله عنه = قال: خطبنا علي رضي الله عنه فقال ... فساقه.

(وقال علي رضي الله عنه: إذا سمعتم العلم فاكظموا عليه، ولا تخلطوه بهزل فتمجه القلوب) هكذا أورده صاحب القوت[6]، وعزاه السيوطي في الجامع الكبير[7] في القسم الثاني منه إلىٰ عبد الله بن الإمام أحمد والخطيب في الجامع الكبير[8]، ولفظه: تعلَّموا العلم، فإذا علمتموه فاكظموا عليه، ولا تخلطوه بضحك وباطل فتمجه القلوب.

---

(١) تقدم هذا البيت وقصته في الباب الثاني.

(٢) كنز العمال ١٦/ ١٩٧ - ١٩٩.

(٣) الجليس الصالح الكافي للمعافىٰ بن زكريا ٣/ ٣٨٠ = ٣٨١ (ط = عالم الكتب ببيروت).

(٤) أخبار القضاة لمحمد بن خلف حيان الضبي المعروف بوكيع ص ٣٣ (ط = عالم الكتب).

(٥) تاريخ دمشق ٤٢/ ٥٠٥.

(٦) قوت القلوب ١/ ٢٥١.

(٧) كنز العمال ١٠/ ٣٠٤.

(٨) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ٢٣٢.

(**وقال بعض السلف: العالِم إذا ضحك ضحكة مج من العلم مَجَّة**) هكذا أورده صاحب القوت، وأخرجه أبو نعيم من قول علي[(١)] رضي الله عنه.

(**وقيل: إذا جمع المعلِّم ثلاثًا**) أي ثلاثة أوصاف فقد (**تمت النعمة بها**) وفي نسخة: به (**علىٰ المتعلم: الصبر**) علىٰ تعليمه (**والتواضع**) لمن يتعلم (**وحُسن الخلق**) معه (**وإذا جمع المتعلم ثلاثًا**) فقد (**تمت النعمة بها**) وفي نسخة: به (**علىٰ المعلم: العقل**) الكامل لِما يتعلمه (**والأدب**) مع علمه (**وحسن الفهم**) لِما يتلقَّاه؛ هكذا أورده صاحب القوت.

(**وعلىٰ الجملة، فالأخلاق التي ورد بها القرآن لا ينفكُّ عنها علماء الآخرة**) أي عن العمل بها (**لأنهم يتعلمون القرآن للعمل**) بما فيه (**لا للرياسة**) والافتخار والمباهاة.

(**وقال ابن عمر** رضي الله عنهما: **لقد عشنا بُرْهة**) أي زمانًا (**من الدهر، وإن أحدنا يؤتَىٰ الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة فيُعلَم حلالها وحرامها وأوامرها وزواجرها وما ينبغي أن يُتوقف عنده منها، ولقد رأيتُ رجالاً يؤتَىٰ أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلىٰ خاتمته لايدرىٰ ما آمره ولا زاجره وما ينبغي أن يقف عنده وينثره نثر الدَّقَل**) هكذا أورده صاحب القوت[(٢)]، ولفظه: وروينا عن ابن عمر وغيره: لقد عشنا برهة من دهرنا. وفيه: فيُتعلَّم، بدل: فيُعلَم. وفيه بعد قوله «يتوقف عنده منها»: كما تتعلمون أنتم اليوم القرآن. والباقي سواء.

---

(١) ظاهر عبارة الشارح أنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وليس كذلك بل هو حفيده علي بن الحسين المعروف بزين العابدين، ونص الحلية ٣/ ١٣٤: «حدثنا أحمد بن جعفر قال: ثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبو معمر قال: ثنا جرير، عن فضيل بن غزوان قال: قال لي علي بن الحسين: من ضحك ضحكة مج مجة من العلم».

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٥٠.

قال العراقي: أخرجه الطبراني في الأوسط[(١)] والحاكم في المستدرك[(٢)] من رواية قاسم بن عوف الشيباني قال: سمعت ابن عمر يقول ... فساقه كسياق القوت، وقال الحاكم: صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولا أعرف له علة، ولم يخرجاه.

قلت: وأخرج ابن جرير في تفسيره[(٣)] عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ ذكر أن في أمته قومًا يقرأون القرآن، ينثرونه نثر الدَّقَل، يتأوَّلونه علىٰ غير تأويله، لا يجاوز تراقيهم، تسبق قراءتُهم إيمانَهم.

والدَّقَل محرَّكة: أردأ التمر. وقال السَّرَقُسْطي: هو تمر الروم.

(وفي خبر آخَر بمثل معناه) ونص القوت[(٤)]: بمعناه **(كنا أصحاب رسول الله ﷺ أوتينا الإيمان قبل القرآن، وسيأتي بعدكم قوم يؤتَون القرآن قبل الإيمان، يقيمون حروفه، ويضيعون حدوده وحقوقه، يقولون: قرأنا القرآن، فمَن أقرأ منا؟ وعلمنا فمَن أعلم منا؟ فذلك حظُّهم)** منه **(وفي لفظ آخر: أولئك شِرار هذه الأمَّة)** هكذا أورده صاحب القوت بعد إيراده حديث جندب البجلي. وقال العراقي: رُوي ذلك من حديث جندب بن عبد الله البجلي، رواه ابن ماجه[(٥)] مختصرًا مقتصرًا علىٰ القدر المرفوع منه من رواية أبي عمران الجَوْني عن جندب قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حَزاوِرة، فتعلَّمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٤٠٥ وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفي الكبير بتمامه، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٨٣.

(٣) لم أقف عليه في تفسير الطبري، وقد ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٤٥٥ وابن كثير في تفسيره ٢/ ١٠ والبوصيري في إتحاف الخيرة المهرة ٨/ ٢٥٩ وعزوه لأبي يعلىٰ. وقد رواه أيضًا البخاري في التاريخ الكبير ٤/ ٣٠١. وليس في رواية البخاري وأبي يعلىٰ قوله: لا يجاوز ... الخ.

(٤) قوت القلوب ١/ ٢٥٠.

(٥) سنن ابن ماجه ١/ ٨٦.

فازددنا به إيمانًا. وإسناده صحيح، زاد الطبراني فيه[1]: وإنكم اليوم تعلَّمون القرآن قبل الإيمان. وهو صحيح أيضًا.

وروىٰ مسلم[2] وابن ماجه[3] من رواية عبد الله بن الصامت عن أبي ذر ورافع ابن عمرو الغفاري مرفوعًا: «إن بعدي من أمتي [قوم] يقرأون القرآن لا يجاوز حلاقيمهم، يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية ثم لا يعودون فيه، هم شر الخلق والخليقة».

وروىٰ البيهقي في سننه[4] في أبواب الإمامة من حديث حذيفة نحو حديث جندب.

وأورد صاحب القوت حديث جندب المتقدم ثم قال: وعن ابن مسعود قال: أُنزل القرآن ليُعمَل به، فاتخذتم دراسته عملاً، وسيأتي قوم يثقفونه تثقيف الغناء، ليسوا بخياركم. وفي لفظ آخر: يقيمونه إقامة القدح، يتعجَّلونه ولا يتأجَّلونه.

وهذا قد تقدم للمصنف.

(وقيل: خمس من الأخلاق هنَّ من علامات علماء الآخرة مفهومة من) سياق **(خمس آيات من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ)** ونص القوت: لا بد للعالم بالله تعالىٰ من خمس هنَّ علامة علماء الآخرة: **(الخشية، والخشوع، والتواضع، وحسن الخلق، وإيثار الآخرة علىٰ الدنيا وهو الزهد)** وهو الأصل الذي تتفرَّع منه الأخلاق الطيبة **(فأما الخشية فمن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨])** أي العلماء بالله هم الذين يخشون الله حق خشيته، فهي مقصورة عليهم **(وأما الخشوع**

---

(١) المعجم الكبير ٢/ ١٦٥.

(٢) صحيح مسلم ١/ ٤٧٦.

(٣) سنن ابن ماجه ١/ ١٧٥.

(٤) السنن الكبرىٰ للبيهقي ٣/ ١٧١ ولفظه: إنا قوم أوتينا الإيمان قبل أن نؤتىٰ القرآن، وإنكم قوم أوتيتم القرآن قبل أن تؤتوا الإيمان.

فمن قوله تعالىٰ: ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ [آل عمران: ١٩٩] وأما التواضع فمن قوله تعالىٰ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ۝﴾ [الحجر: ٨٨ - ٨٩]) أي تواضعْ لهم، وهذا مما أُمر به ﷺ، فما كان له فلورثته من بعده (وأما حسن الخلق فمن قوله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]) فهو دالٌّ علىٰ لين جانبه ﷺ، وهو نشأ من حسن الخلق (وأما الزهد) في الدنيا (فمن قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ﴾ [القصص: ٨٠]) فمَن وُجدت فيه هذه الأخلاق فهو من العالمين بالله ﷻ؛ هكذا أورده صاحب القوت، والمصنف أخذه بالمعنىٰ بتغيير يسير (ولما تلا رسول الله ﷺ قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ [الأنعام: ١٢٥] فقيل له): يا رسول الله (ما هذا الشرح؟ فقال: إن النور إذا قُذف في القلب انشرح له الصدر وانفسح. قيل: فهل لذلك من علامة؟ قال ﷺ: نعم، التجافي) أي التباعد (عن دار الغرور، والإنابة) أي الرجوع (إلىٰ دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله) أورده صاحب القوت(١) هكذا، وزاد: فذكر سببه: الزهد في الدنيا، والإقبال علىٰ خدمة المولىٰ، وحسن التواضع والإصابة في العلم مواهب من الله ﷻ، وأَثَرة يختص بها مَن يشاء.

وقال العراقي: رواه الحاكم في المستدرك(٢) من رواية عدي بن الفضل عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن مسعود قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: «إن النور إذا دخل الصدر انفسح». فقيل: يا رسول الله، هل لذلك من علم يُعرَف؟ قال: «نعم ...» فذكره. قال: وقد سكت عليه الحاكم، وهو ضعيف. ورواه البيهقي في

(١) قوت القلوب ١/ ٢٥٥.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٤٥٣.

الزهد[١] من رواية عمرو بن مرة عن عبد الله بن الحارث عن ابن مسعود، ورواه ابن المبارك في الزهد والرقائق[٢] قال: أخبرنا عبد الرحمن المسعودي عن عمرو بن مرة عن أبي جعفر – رجل من بني هاشم، وليس بمحمد بن علي – قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ... فذكر مثل رواية الحاكم، إلا أنه قال: قيل: هل لذلك من آية يُعرَف بها؟ وقال في آخره: قبل الموت. وهذا مرسل ضعيف، وهو الصواب في رواية هذا الحديث، وما قبله ضعيف، كما بيَّنه الدارقطني في العلل[٣]، وسُئل عنه فقال: يرويه عمرو بن مرة، واختُلف فيه عنه، فرواه مالك ابن مغول عن عمرو بن مرة عن عبيدة عن عبد الله، قاله عبد الله بن محمد بن المغيرة، وتفرَّد بذلك، ورواه زيد بن أبي أنيسة عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله، قاله أبو عبد الرحيم عن زيد، وخالفه يزيد بن سِنان فرواه عن زيد عن عمرو بن مرة [عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود، وقال وكيع: عن المسعودي عن عمرو بن مرة] عن أبي عبيدة عن عبد الله، وكلها وهم، والصواب عن عمرو بن مرة عن أبي جعفر عبد الله بن المسور مرسلاً عن النبي ﷺ؛ كذلك قاله الثوري. قال: وعبد الله بن المسور [بن عون بن جعفر بن أبي طالب] هذا متروك.

(**ومنها**) أي ومن علامات علماء الآخرة: (**أن يكون أكثر بحثه**) وسؤاله وطلبه (**في علوم الأعمال**) أي العلوم المتعلقة بها أصلاً وفرعًا (**وعما يفسد الأعمالَ**) ويصحِّحها علىٰ قانون الشرع (و) عما (**يشوش القلوبَ**) ويزيلها عن مواضعها بطروء الخواطر (و) عما (**يهيج الوسواس**) الشيطاني فيها (**ويثير الشر**) ويحركه (**فإن أصل الدين**) وأساسه (**التوقِّي**) أي التحفُّظ (**من الشر**) فإن الخير كل أحد يسأل عنه ويطلبه، وسيأتي من قول حذيفة ما يؤكِّده (**ولذلك قيل**[٤]:

---

(١) الزهد ص ٣٥٦.

(٢) الزهد والرقائق ص ١٢٥.

(٣) العلل ٥/ ١٨٨ – ١٩٠. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٤) البيتان لأبي فراس الحمداني، وهما في ديوانه ص ٣٥٢ (ط – دار الكتاب العربي ببيروت).

عرفتُ الشر لا للشر لكـــــن لتوقّيـــــه)

أي عرفتُ الشر لأتجنّبه وأتحفّظ من سلوك منهاجه لا لأتلبّس به

(ومَن لا يعرف الشر من الناس يقعْ فيه)

أي مَن لا يعرف الشر الحاصل من اختلاط الناس فيوشك أن يقع فيه ولا يدري، ولا يمكنه التخلص منه؛ لعدم معرفته بأصله **(ولأن الأعمال الفعلية)** أي التي متعلقها الأفعال **(قريبة)** المأخذ **(وأقصاها - بل أعلاها - المواظبة)** أي المداومة **(على ذكر الله تعالى)** لِما تقدم أنه ﷺ سُئل عن أفضل الأعمال فقال: «أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله». **(وذكر)** الله تعالى إما **(بالقلب و)** إما بـ **(اللســان)** وكلٌّ منهما مطلوب، وأحدهما أفضل من الآخر؛ فأما ذِكر اللسان فله آداب وشروط مذكورة في رسائل السادة الصوفية، وأما ذكر القلب فاختصَّت به السادة النقشبندية، وكان شيخ المصنف أبو علي الرُّوذباري أحد أركان هذه الطريقة، وله آداب تختص به، وشروط غريبة يقطع بها السالك سفر سنين في ليلة واحدة، والحاصل أن هذه الأعمال أمرها سهل، والسالكون يتلقَّون ذلك عن أفواه شيوخهم **(وإنما الشأن)** كلّ الشأن **(في معرفة ما يفسدها ويشوشها)** وهو أهم ما يكون عند أهل المعرفة في الطريق، ويشيرون إلىٰ ذلك في نُبَذ من الكلام، ولا يحوم حوله إلا الأفراد **(وهذا)** الذي أشرنا إليه **(مما تكثر شُعَبُه ويطول تفريعه)** لأنه يستدعي إلىٰ ذكر المقدمات وإبراز فصول مهمات **(وكل ذلك مما يغلب)** ويكثر **(مسيس الحاجة إليه، وتعم به البلوىٰ في سلوك طريق الآخرة)** إذ هو حقيقة العلم النافع المقرِّب إلىٰ ربه، لا يعتني به إلا علماء الآخرة **(وأما علماء الدنيا فإنهم)** لا يحومون حوله، إنما **(يتَّبعون غرائب التفريعات)** ونوادرها **(في)** مسائل **(الحكومات والأقضية)** ويحفظونها في صدورهم للإفتاء بها **(ويتعبون)** بسهر الليالي وإبداع البصر والفكر **(في وضع صور)** مجهولة الأثر **(تنقضي الدهور)** وتمضي الأعصار **(ولا تقع)** منها واحدة **(أبدًا، وإن وقعت)** فرضًا **(فإنما تقع لغيرهم)** في عصر آخر **(لا لهم)** فقد بذلوا نفيس أعمارهم

مجانًا لعمارة الغير، إنما مَثَلُهم مثل الذي يثرد ويأكله الغير، ومن يبني بيتًا فيسكنه الغير ويتمتع به وخرج بنفسه صفر اليدين، فيا ضلالة سعي هؤلاء! **(وإذا وقعت)** تقديرًا **(كان في القائمين بها كثرة)** وبركة (و) من العجب أنهم **(يتركون ما يلزمهم)** لزومًا كليًا **(ويتكرر عليهم آناء الليل وأطراف النهار في خواطرهم)** وهواجسهم **(ووساوسهم وأعمالهم)** في حركاتهم وسَكَناتهم **(وما أبعد عن السعادة)** الأبدية **(مَن باع مهم نفسه اللازم بمهم غيره النادر)** كلا، تلك صفقة غير رابحة، ونتيجة غير صالحة، إنما هو **(إيثارًا للقبول)** لدى العامة **(والتقرب من الخلق)** بصفة ذلك **(على القرب من الله تعالى، وشَرَهًا)** أي طمعًا **(في أن يسميه البطّالون من أبناء الدنيا فاضلاً محقِّقًا)** للعلوم العقلية **(عالمًا بالدقائق)** من العبارات والمسائل **(وجزاؤه من الله تعالى أن لا ينتفع في الدنيا)** بعلمه، ولا يُمتَّع **(بقبول الخلق)** الذي جعله نصب عينه **(بل يتكدَّر عليه صفوُه)** وأنسه **(بنوائب الزمان)** ومكدِّراته وشدائده بتسليط من يعينه في أموره عليه أحيانًا، وتنغيص عيشه بعدم وجدان مطلوبه أحيانًا؛ فإن الذي يرجو القبول معه إما صاحب جاه أو صاحب مال، وصاحب الجاه لا يمكن استعارة جاهه في كل الأمور، وصاحب المال إما أن يفيده أو يمنعه، فإن أفاده مرةً تطلَّعت نفسه لمثلها، وصارت عادة ثابتة، ولا يمكنه بذل ماله له في كل مرة؛ لأن المال حبيب نفسه، فينغص عليه بالعداوة، وإن منعه فهو مبغوض عنده على كل حال. وبالجملة، فالمراعي لهم أحواله لا يخلص من أنواع الأكدار **(ثم يَرِد القيامة)** مع مَن ورد **(مفلسًا)** من الأعمال الصالحة، يقال: أفلس الرجل: إذا عدم فلوسه **(فيتحسَّر)** غايةَ التحسُّر، ويندم غاية التندُّم **(على ما يشاهده من ربح)** العلماء **(العاملين)** لله تعالى (و) من **(فوز المقرَّبين)** لديه في أصحاب اليمين **(وذلك)** في الحقيقة **(هو الخسران المبين)** وقد انتزع المصنف رحمه الله تعالى هذه العبارة من القوت، ورواها بالمعنى، وسياق القوت أتم وأجلَى، فلا بأس أن نلمَّ بذكره؛ ليُكشَف ما عسى التبس في سياق المصنف ويزيده وضوحًا، قال[1]:

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٥٢ - ٢٥٤ باختصار. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

واعلم أنه إنما يستبين العالم عند المشكلات في الدين، ويُحتاج إلىٰ العارف عند حك الشبهات في الصدر، وقد حصلنا في زماننا هذا لو وردت في معاني التوحيد مشكلة واختلجت [شبهة] في صدر مؤمن من معاني صفات الوحدة وأردت كشف ذلك علىٰ حقيقة الأمره بما يشهده القلب الموقن ويثلج له الصدر المشروح بالهدىٰ لكان ذلك عزيزًا في وقتك هذا، ولكنت في استكشاف ذلك بين خمسة نفر: مبتدع ضال يخبرك برأيه عن هواه فيزيدك حيرة، أو متكلم يفتيك بقياس معقوله علىٰ ظاهر الدين أو صوفي شاطح يجيبك بالحدس والتخمين ويُسقِط العلمَ والأحكام ويُذهِب الأسماء والرسوم، وهؤلاء تائهون ليسوا علىٰ المَحَجَّة، أو مفتٍ عالِم عند نفسه مرسوم بالفقه عند أصحابه يقول لك: هذا من أحكام الآخرة، ومن علم الغيب لا نتكلم فيه؛ لأنَّا لم نُكلَّفه، وهو في أكثر مناظرته يتكلم فيما لم يُكلَّف، ويجادل فيما لم ينطق به السلف، ويتعلَّم ويعلِّم ما عُلِّمَه بتكلف، ولا يعلم المسكين أنه كُلِّف علم يقين الإيمان وحقيقة التوحيد ومعرفة إخلاص المعاملة وعلم ما يقدح في الإخلاص ويُخرِج من جملته قبل ما هو فيه؛ لأنه متكلف لبعض ما هو يبتغيه؛ لأن علم الإيمان وصحة التوحيد وإخلاص العبودية للربوبية، وإخلاص الأعمال من الهوىٰ الدنيوية وما يتعلق بها من أعمال القلوب [هو] من الفقه في الدين، ونعت أوصاف المؤمنين، ولا يشعر أن حسن الأدب في المعاملة بمعرفة ويقين هو من صفات الموقنين، وذلك هو حال العبد في مقامه بينه وبين ربه عَزَّوَجَلَّ، ونصيبه من ربه، وحظه من مزيد آخرته، وهو معقود بشهادة التوحيد الخالصة المقترنة بالإيمان من خفايا الشرك وشُعَب النفاق [وهو مقترن] بالفرائض، وفرضُ فرضِها الإخلاص بالمعاملة، وإن علم ما سوىٰ هذا مما قد أُشرب قلبه وحُبِّب إليه من فضول العلوم وغرائب الفهوم، إنما هو حوائج الناس ونوازلهم، فهو حجاب عن هذا واشتغال عنه، فآثَرَ هذا الغافلُ لقلة معرفته بحقيقة العلم النافع ما زين له طلبه وحبب إليه قصده، آثر حوائجَ الناس وأحوالهم علىٰ حاجته وحاله، وعمل في أنصبتهم منه في عاجل دنياهم من نوازل طوارقهم وفتياهم، ولم يعمل

في نصيبه الأوفر من ربه عَزَّوَجَلَّ لأجل آخرته التي هي خير وأبقىٰ؛ إذ مرجعه إليها، ومثواه المؤبَّد فيها، فآثر التقرُّب منهم علىٰ القرب من ربه عَزَّوَجَلَّ، وترك - للشغل بهم - حظه من الله تعالىٰ الأجزل، وقدَّم التفرغ لهم علىٰ فراغ قلبه لما قدَّم لغده من تقواه بالشغل لخدمة مولاه وطلب رضاه، واشتغل بصلاح ألسنتهم عن صلاح قلبه، وظواهر أحوالهم عن باطن حاله، وكان سبب ما بُلي به حب الرياسة وطلب الجاه عند الناس والمنزلة بموجِب السياسة، والرغبة في عاجل الدنيا وعزها بقلة الهمة وضعف النية في آجل الآخرة وذخرها، فأفنىٰ أيامه لأيامهم، وأذهب عمرَه في شهواتهم؛ ليسمِّيه الجاهلون بالعلم عالمًا، وليكون في قلوب البطَّالين عندهم فاضلاً، فورد القيامة مفلسًا، وعند ما يراه من أنصبة المقرَّبين مبلسًا؛ إذ فاز بالقرب العاملون، وربح الرضا العالِمون، ولكن أنَّىٰ له وكيف بنصيب غيره وقد جعل الله تعالىٰ لكل عمل عاملاً، ولكل علم عالمًا، أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب، كلٌّ ميسَّر لِما خُلِقَ له، هذا فصل الخطاب [بينهما] والرجل الخامس من العلماء هو صاحب حديث وآثار وناقل رواية الأخبار، يقول لك إذا سألتَه: اعتقِدِ التسليمَ وأَمِرَّ الحديثَ كما جاء ولا تفتِّش، وهذا يتلو المفتي في السلامة، وهو أحسنهم طريقةً، وأشبههم بسلف العامة خليقة، ليس عنده شهادة يقين، ولا معرفة بحقيقة ما رواه، ولا هو مشاهد واصف لمعنىٰ ما نقله، إنما هو للعلم راوية، وللخبر والأثر ناقلة، فهو علىٰ بيِّنة من ربه، وليس يتلوه شاهد منه.

(**ولقد كان الحسن**) هو ابن أبي الحسن واسمه يَسار (**البصري**) أبو سعيد (**رحمه الله تعالىٰ**)[١] مولىٰ الأنصار، وأمه خَيْرة مولاة أم سلمة زوج النبي ﷺ، وُلد لسنتين بقيتا من خلافة عمر، فيذكرون أن أمه كانت ربما غابت فيبكي، فتعطيه أم سَلَمة ثديها تعلِّله به إلىٰ أن تجيء أمه، فدَرَّ عليه ثديها فشربه، فلذا كان (**أشبه الناس**

---

(١) انظر ترجمته في: الطبقات الكبرىٰ لابن سعد ٩/ ١٥٧ - ١٧٨. تهذيب الكمال للمزي ٦/ ٩٥ - ١٢٦.

كلامًا بكلام الأنبياء) في الحكمة والفصاحة، ويرون أن ذلك من بركة تلك الشربة، ونشأ الحسن بوادي القرىٰ، ورأىٰ عليًّا وطلحة وعائشة، ولا يصح له سماع من أحد منهم **(و)** كان **(أقربهم هديًا من الصحابة)** يُروَىٰ أن أم سلمة كانت تخرجه إلىٰ أصحاب رسول الله ﷺ وهو صغير، وكانوا يدعون له، فأخرجته إلىٰ عمر، فدعا له فقال: اللهم فقِّهْه في الدين، وحَبِّبه إلىٰ الناس **(اتفقت الكلمة في حقه علىٰ ذلك)** فقال بلال بن أبي بُرْدة: سمعت أبي يقول: واللهِ، لقد أدركتُ أصحاب محمد ﷺ، فما رأيت أحدًا أشبه بأصحاب محمد من هذا الشيخ. يعني الحسن.

وعن أبي قتادة: الزموه، فما رأيت أحدًا أشبه رأيًا بعمر بن الخطاب منه.

وسُئل أنس بن مالك عن مسألة، فقال: سلوا مولانا الحسن. وهذا قد تقدَّم للمصنف.

وعن العَوَّام بن حوشب: ما أشبَّه الحسنَ إلا بنبي أقام في قومه ستين عامًا يدعوهم إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

قال ابن سعد: قالوا: كان الحسن جامعًا، عالمًا، رفيعًا، فقيهًا، ثقة، مأمونًا، عابدًا، ناسكًا، كثير العلم، فصيحًا، جميلاً، وسيمًا.

(وكان)(١) الحسن أحد المذكِّرين، وكانت مجالسه مجالس الذِّكر، يخلو فيها مع أصحابه وأتباعه من النُّسَّاك والعُبَّاد في بيته مثل: مالك بن دينار، وثابت البُناني، وأيوب السختياني، ومحمد بن واسع، وفرقد السبخي، وعبد الواحد بن زيد، فيقول: هاتوا انشروا النور، فيتكلم عليهم، وكان **(أكثر كلامه)** في هذه المجالس والخلوات **(في)** علم اليقين والقدرة، وفي **(خواطر القلوب، وفساد الأعمال، ووساوس النفوس و)** في **(الشهوات الخفية الغامضة من شهوات النفس)** فربما قنع بعض أصحاب الحديث رأسه فاختفىٰ من ورائهم ليسمع ذلك، فإذا رآه

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٥٧ - ٢٥٨.

الحسن قال له: يا لُكَع، وأنت ما تصنع ههنا؟ إنما خلونا مع أصحابنا نتذاكر.

قال صاحب القوت: والحسن رحمه الله تعالىٰ [هو] إمامنا في هذا العلم الذي نتكلم به، أثره نقفو، وسبيله نتَّبع، ومن مشكاته نستضيء، أخذنا ذلك بإذن الله تعالىٰ إمامًا عن إمام، إلىٰ أن ينتهي ذلك إليه، وكان من خيار التابعين بإحسان، قيل: ما زال يعي الحكمةَ أربعين سنة حتىٰ نطق بها، ولقد لقي سبعين بدريًّا، ولقي ثلاثمائة صحابي، وكانوا يقولون: كنا نشبِّهه بهدي إبراهيم الخليل صلوات الله عليه في حِلمه وخشوعه وشمائله (و) كان أول مَن أنهج سبيل هذا العلم، وفتق الألسنة به، ونطق بمعانيه، وأظهر أنواره، وكشف به قناعه، وكان يتكلم فيه بكلام لم يسمعوه من أحد من إخوانه، فـ (**قيل له: يا أبا سعيد، إنك تتكلم**) في هذا الفن (**بكلام لا يُسمَع من**) أحد (**غيرك**) من أقرانك (**فمن أين أخذتَه**)؟ ونص القوت: فممَّن أخذتَ هذا؟ (**فقال: من حذيفة بن اليمان**) بن جابر بن عمرو ابن ربيعة[١]، ويقال: حذيفة بن حِسْل بن جابر بن أُسَيد بن عمرو العَبْسي، أبو عبد الله، حليف بني عبد الأشهل، واليمان لقب جده جروة؛ لأنه أصاب دمًا في الجاهلية، فهرب إلىٰ المدينة وحالف الأنصار[٢]، وقيل: هو لقب والده حِسْل، توفي سنة ست وثلاثين بعد[٣] قتل عثمان بأربعين ليلةً.

(**وقيل**) [ونص القوت][٤]: وقالوا (**لحذيفة: نراك تتكلم بكلام لا يُسمَع من غيرك من الصحابة**) رضوان الله عليهم (**فمن أين**) ونص القوت: فممن (**أخذتَه؟**

---

(١) في المطبوعة: جابر بن ربيعة بن عمرو، وكذا هو في طبقات ابن سعد ٤/ ٢٤٩. والمثبت من تهذيب الكمال ٥/ ٤٩٦ والاستيعاب ١/ ٢٠٠.

(٢) في الاستيعاب وتهذيب الكمال وطبقات ابن سعد: «فسماه قومه: اليمان؛ لأنه حالف اليمانية».

(٣) في المطبوعة: قبل. والتصويب من المصادر السابقة. قال ابن عبد البر: مات حذيفة سنة ست وثلاثين بعد قتل عثمان في أول خلافة علي، وقيل: توفي سنة خمس وثلاثين، والأول أصح، وكان موته بعد أن أتىٰ نعي عثمان إلىٰ الكوفة، ولم يدرك الجمل.

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من المطبوعة.

فقال: خصَّني به رسول الله ﷺ، كان الناس يسألونه عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافةَ أن أقع فيه) رواه البخاري[١] ومسلم[٢] هكذا مختصرًا، وفي آخره زيادة من رواية أبي إدريس الخولاني أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافةَ أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنَّا كنا في جاهلية وشرٍّ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: فهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دَخَنٌ ... الحديث بطوله؛ قاله العراقي.

قلت: أخرجه أبو نعيم في الحلية[٣] فقال: حدثنا محمد بن أحمد بن حَمْدان، حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا محمد بن المثنىٰ، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثني بشر بن عبيد الله الحضرمي أنه سمع أبا إدريس الخولاني يقول: سمعت حذيفة يقول ... فساقه بطوله.

(وعلمتُ أن الخير لا يسبقني علمُه) هكذا هو في القوت.

وأخرج أبو نعيم في الحلية[٤] من رواية أبي داود الطيالسي قال: حدثنا سليمان ابن المغيرة، حدثني حميد بن هلال، حدثنا نصر بن عاصم الليثي قال: أتيت اليَشْكُري في رهط من بني ليث، فقال: قَدِمت الكوفة، فدخلت المسجد، فإذا فيه حلقة كأنما قُطعت رؤوسهم، يستمعون إلىٰ حديث رجل، فقمت عليهم، فقلت: من هذا؟ فقيل: حذيفة بن اليمان. فدنوت منه، فسمعته يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، فعرفت أن الخير لم يسبقني ... ثم ساق الحديث بطوله، قال أبو نعيم: ورواه قتادة عن نصر بن عاصم،

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٥٢٩، ٤/ ٣١٧.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ٨٩٦.

(٣) حلية الأولياء ١/ ٢٧٢.

(٤) السابق ١/ ٢٧١.

وسمَّىٰ اليشكريَّ خالدًا.

وقال العراقي: ورواه أبو داود[١] من رواية سُبَيع بن خالد قال: أتيت الكوفة زمن فُتحت تُستَر[٢] ... الحديث، وفيه بعد ذكر الشر الأول: قلت: فما العصمة من ذلك؟ ... فساقه إلىٰ آخره، وسمَّىٰ التابعي في رواية أخرىٰ: خالد بن خالد اليشكُري. وروىٰ مسلم[٣] من رواية أبي سلاَّم قال: قال حذيفة: قلت: يا رسول الله، إنَّا كنا بشرٍّ، فجاء الله بخير، فنحن فيه، فهل وراء ذلك الخير شرٌّ؟ قال: نعم [قلت: هل وراء ذلك الشر خير؟ قال: نعم. قلت: فهل وراء ذلك الخير شر؟ قال: نعم] قلت: كيف؟ قال: تكون بعدي أئمَّة ... الحديث بطوله. وروىٰ البخاري[٤] من رواية قيس بن أبي حازم عن حذيفة قال: تعلَّم أصحابي الخير، وتعلمتُ الشر. ا.هـ.

وأخرج أبو نعيم في الحلية[٥] من رواية خلاد بن عبد الرحمن أن أبا الطفيل حدثه أنه سمع حذيفة يقول: يا أيها الناس، ألا تسألوني؟ فإن الناس كانوا يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، أفلا تسألوني عن ميت الأحياء؟ ... فساق الحديث بطوله.

(وقال مرَّةً: فعلمتُ أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير) هكذا أورده صاحب القوت.

---

(١) سنن أبي داود ٥/ ٨.

(٢) تستر، وينطقها الإيرانيون: شوشتر، وهي مدينة صغيرة تقع شمال مدينة الأهواز في محافظة خوزستان غرب إيران، وتبعد عنها حوالي ٩٥ كم، ويخترقها نهر كارون، وتشتهر بالزراعة نظرًا لخصوبة أرضها وكثرة مياهها.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ٨٩٧. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٤) صحيح البخاري ٢/ ٥٣٠.

(٥) حلية الأولياء ١/ ٢٧٤.

وأخرج ابن عساكر في تاريخه[١] من رواية أبي البَخْتَري: قال حذيفة: لو حدثتُكم بحديث لكذَّبني ثلاثة أثلاثكم [ففطن إليه شابٌّ فقال: من يصدِّقك إذا كذَّبك ثلاثة أثلاثنا؟ فقال]: إن أصحاب محمد ﷺ كانوا يسألونه عن الخير، وكنت أسأله عن الشر. فقيل له: ما حملك علىٰ ذلك؟ قال: إن من اعترف بالشر وقع في الخير.

وأخرج ابن ماجه في الزهد[٢] وابن عساكر في التاريخ[٣] عن حذيفة قال: كنتم تسألونه عن الرخاء، وكنت أسأله عن الشدة لأتَّقيها.

قال الدارقطني في الأفراد[٤]: تفرَّد به عيسىٰ الحَنَّاط عن الشعبي عن حذيفة، وتفرَّد به عبد الله بن سيف عنه.

وأخرج ابن أبي شيبة في مسنده[٥] ونعيم بن حماد في الفتن[٦] عن حذيفة قال: هذه فتن قد أظلَّت كجِباه البقر، يهلك فيها أكثر الناس إلا مَن كان يعرفها قبل ذلك.

(وفي لفظ آخَر: كان الناس يقولون: يا رسول الله، ما لمَن يعمل كذا وكذا؟ يسألونه عن) الأعمال و**(فضائل الأعمال، وكنت أقول: يا رسول الله، ما يفسد كذا وكذا؟ فلما رآني أسأله عن آفات الأعمال خصَّني بهذا العلم)** هكذا أورده صاحب القوت، ولم أرَ هذا السياق عند غيره.

---

(١) تاريخ دمشق ١٢/ ٢٨٩. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٢) كذا في المطبوعة، ولم أقف عليه في سنن ابن ماجه، وقد أورده المتقي الهندي في كنز العمال ١٣/ ٣٤٤ وعزاه للبيهقي في الزهد، ولم أقف عليه فيه، ولكن رواه البيهقي في شعب الإيمان ١٢/ ٣٩٣.

(٣) تاريخ دمشق ١٢/ ٢٦٨.

(٤) أطراف الغرائب والأفراد لابن القيسراني ١/ ٣٦٧.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٥١ من قول أبي إدريس الخولاني، ولعله سقط ذكر حذيفة من الإسناد، بدليل رواية نعيم بن حماد.

(٦) الفتن ١/ ٢٨ (ط - مكتبة التوحيد بالقاهرة).

(وكان حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا قد خُصَّ بعلم المنافقين، وأُفرد بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن) ونص القوت: وكان حذيفة قد خُصَّ بعلم المنافقين، وأُفرد بمعرفة علم النفاق وسرائر العلم ودقائق الفهم وخفايا اليقين من بين الصحابة.

فإن كان لفظ «الفتن» في سياق المصنف تصحيفًا من الكاتب لمناسبة اليقين بالمقام أو قصد بذلك المصنف، وهو صحيح أيضًا؛ فإنه كان أُعطي علم الفتن كلها كما أُعطي علم اليقين، روى مسلم[١] من رواية قيس بن أبي حازم عن عمار، أخبرني حذيفة قال: قال النبي ﷺ: «في أصحابي اثنا عشر منافقًا، منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يَلِج الجمل في سمِّ الخِياط».

وروى البخاري[٢] من رواية زيد بن وهب عن حذيفة قال: ما بقي من أصحاب هذه الآية [إلا ثلاثة] ولا من المنافقين إلا أربعة ... الحديث.

وروى أبو داود[٣] من رواية [ابن لـ] قُبَيصة بن ذُؤَيب عن أبيه قال: قال

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ١٢٨٢ ونصه: عن قيس قال: قلت لعمار: أرأيتم صنيعكم هذا الذي صنعتم في أمر علي، أرأيا رأيتموه أو شيئا عهده إليكم رسول الله ﷺ؟ فقال: ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئًا لم يعهده إلى الناس كافة، ولكن حذيفة أخبرني ... ثم ساق الحديث، وفي آخره: ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة. ثم ذكر رواية أخرى عن قيس قال: قلنا لعمار: أرأيت قتالكم أرأيًا رأيتموه، فإن الرأي يخطئ ويصيب أو عهدًا ... ثم ساق الحديث، وفيه: إن في أمتي اثنا عشر منافقًا لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط، ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة سراج من النار يظهر في أكتافهم حتى ينجم من صدورهم.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ٢٣٥ ونصه: عن زيد بن وهب قال: كنا عند حذيفة، فقال: ما بقي من أصحاب هذه الآية: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ إلا ثلاثة، ولا من المنافقين إلا أربعة. فقال أعرابي: إنكم أصحاب محمد ﷺ تخبروننا فلا ندري، فما بال هؤلاء الذين يبقرون بيوتنا ويسرقون أعلاقنا؟ قال: أولئك الفساق، أجل، لم يبق منهم إلا أربعة، أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده.

(٣) سنن أبي داود ٥/ ٧. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

حذيفة: [واللهِ] ما أدري أنسي أصحابي أمْ تناسَوا، واللهِ ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة إلىٰ أن تنقضي الدنيا يبلغ مَن معه ثلاثمائة فصاعدًا إلا قد سمَّاه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته.

وروىٰ مسلم[١] من رواية أبي إدريس الخَوْلاني كان يقول: قال حذيفة: واللهِ، إني لأعلمُ الناس بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة.

وروىٰ البخاري[٢] ومسلم[٣] وأبو داود[٤] من رواية شقيق عن حذيفة قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا ما ترك فيه شيئًا يكون في مقامه [ذلك] إلىٰ قيام الساعة إلا حدَّثه، حفظه مَن حفظه، ونسيه مَن نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء ... الحديث؛ قاله العراقي.

قلت: وأخرج الإمام أحمد في المسند[٥] ونعيم بن حماد في الفتن[٦] والروياني بسند حسن عن حذيفة قال: أنا أعلم الناس بكل فتنة هي كائنة إلىٰ يوم القيامة، وما بي أن يكون رسول الله ﷺ أَسَرَّ إليَّ في ذلك شيئًا لم يحدِّث به غيري، ولكن رسول الله ﷺ حدَّث مجلسًا أنبأهم فيه عن الفتن [التي تكون] منها صغار، ومنها كبار، فذهب أولئك الرهط كلُّهم غيري.

وأخرج الدارقطني من رواية هُبَيرة[٧] قال: شهدتُ عليًّا وسُئل عن حذيفة،

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ١٣٢١.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ٢١٠.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ١٣٢٢.

(٤) سنن أبي داود ٥/ ٥.

(٥) مسند أحمد ٣٨/ ٣٢٧، ٤٤٦.

(٦) الفتن ص ٢٨. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٧) وأخرجه أيضًا من رواية هبيرة: أبو داود الطيالسي في مسنده ١/ ١٤٩، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢/ ٢٧٦، وزادا في آخره: «وسئل عن نفسه فقال: إياي عرفت، كنت إذا سألت أجبت، وإذا سكت ابتُديت».

فقال: سأل عن أسماء المنافقين فأُخبِرَ بهم.

وأخرج الطبراني في الكبير[١] من رواية صلة بن زُفَر قال: قلنا لحذيفة: كيف عرفتَ أمر المنافقين ولم يعرفه أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر؟ قال: إني كنت أسير خلف رسول الله ﷺ، فنام على راحلته، فسمعت ناسًا منهم يقولون: لو طرحناه عن راحلته فاندقَّت عنقه فاسترحنا منه. فسرتُ بينهم وبينه، وجعلت أقرأ وأرفع صوتي، فانتبه النبي ﷺ، فقال: «من هذا»؟ قلت: حذيفة. قال: «من هؤلاء»؟ قلت: فلان وفلان، حتىٰ عددتُهم. قال: «أوَ سمعتَ ما قالوا»؟ قلت: نعم، ولذلك سرتُ بينك وبينهم. فقال: «أما إنهم منافقون فلان وفلان[٢]، لا تخبرنَّ أحدًا».

قلت: وعن[٣] نافع عن جُبَير بن مطعِم قال[٤]: لم يخبر رسولَ الله ﷺ بأسماء المنافقين الذين نخسوا به ليلة العَقَبة بتبوك غير حذيفة، وهم اثنا عشر رجلاً، ليس فيهم قرشي، وكلهم من الأنصار أو من حُلَفائهم.

وقد ذكرهم الزبير بن بكّار في كتاب النسب فقال[٥]: معتِّب بن قُشَير بن مُلَيل،

---

(١) المعجم الكبير ٣/ ١٨٢.

(٢) في المعجم الكبير: إن هؤلاء فلانا وفلانا حتىٰ عد أسماءهم منافقون.

(٣) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد ٤/ ٢٥٣.

(٤) في المطبوعة: وعن نافع بن جبير قال. والتصويب من طبقات ابن سعد.

(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير ٣/ ١٨٤ عن الزبير بن بكار، ونصه: «حدثنا علي بن عبد العزيز قال: حدثنا الزبير بن بكار قال: تسمية أصحاب العقبة: معتب بن قشير بن مليل، من بني عمرو بن عوف، قد شهد بدرًا، وهو الذي قال: يعدنا محمد كنوز كسرىٰ وقيصر وأحدنا لا يأمن علىٰ خلائه، وهو الذي قال: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا، وهو الذي شهد عليه الزبير بهذا الكلام. ووديعة ابن ثابت من بني عمرو بن عوف، وهو الذي قال: إنما كنا نخوض ونلعب، وهو الذي قال: ما لي أرىٰ قراءنا هؤلاء أرغبنا بطونا وأجبننا عند اللقاء. والجد بن عبد الله بن نبتل بن الحارث من بني عمرو بن عوف، وهو الذي قال جبريل عليه السلام: يا محمد، من هذا الأسود كثير شعر عيناه =

وهو الذي قال: لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قُتلنا ههنا. ووديعة بن ثابت، وهو الذي قال: إنما كنا نخوض ونلعب. وجد بن عبد الله بن نبتل. والحارث بن يزيد الطائي، وهو الذي سبق [إلىٰ] الوَشَل بتبوك. وأوس بن قيظي. وهو الذي قال: إن بيوتنا عورة. والجُلاس بن سُوَيد بن الصامت. قال: وبلغنا أنه تاب بعد ذلك. وسعد بن زُرارة، وكان أصغرهم سنًّا وأخبثهم. وقيس بن قهد، وسُوَيد، وداعس، وقيس بن عمرو بن سهل، وزيد بن اللَّصِيت، وكان من يهود قينقاع. وسلالة بن الحُمام.

(فكان عمر وعثمان وأكابر الصحابة ﷺ يسألونه عن الفتن العامة والخاصة) ويرجعون إليه في العلم الذي خُصَّ به، فروىٰ الأئمة الستة[1] خلا أبا داود من رواية شقيق عن حذيفة قال: كنا عند عمر، فقال: أيُّكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ في الفتنة؟ قلت: أنا ... الحديث؛ قاله العراقي.

وأخرج أبو نعيم[2] من رواية رِبْعي بن حِراش عن حذيفة أنه قَدِم من عند عمر، فقال لما جلسنا إليه: سأل أصحابَ محمد ﷺ: أيكم سمع قول رسول الله

= كأنهما قدران من صفر ينظر بعيني شيطان، وكبده كبد حمار يخبر المنافقين بخبرك، وهو المجتز نحره. والحارث ابن يزيد الطائي حليف لبني عمرو بن عوف، وهو الذي سبق إلىٰ الوشل - يعني البئر - الذي نهىٰ رسول الله ﷺ أن يمسه أحد، فاستقىٰ منه. وأوس بن قيظي، وهو من بني حارثة، وهو الذي قال: إن بيوتنا عورة، وهو جد يحيىٰ بن سعيد بن قيس. والجلاس بن سويد بن الصامت، وهو من بني عمرو بن عوف، وبلغنا أنه تاب بعد ذلك. وسعد بن زرارة، من بني مالك بن النجار، وهو المدخن علىٰ رسول الله ﷺ، وكان أصغرهم سناً وأخبثهم. وقيس بن قهد من بني مالك بن النجار، وسويد، وداعس، وهما من بني بلحبلىٰ، وهما من جهز ابن أبي في تبوك بخذلان الناس، وقيس بن عمرو بن سهل، وزيد بن اللصيت، وكان من يهود قينقاع، فأظهر الإسلام وفيه غش اليهود ونفاق من نافق، وسلالة بن الحمام من بني قينقاع فأظهر الإسلام».

وقد رواه المزي في تهذيب الكمال ٥/ ٥٠٣ من طريق الطبراني.

(١) صحيح البخاري ١/ ١٨٣، ٤٤٣، ٢/ ٢٩، ٥٢٦، ٤/ ٣٢٠. صحيح مسلم ٢/ ١٣٢٢. سنن الترمذي ٤/ ١٠٨. سنن ابن ماجه ٥/ ٤٤٤. السنن الكبرىٰ للنسائي ١/ ٢٠٧.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٢٧٠.

ﷺ في الفتن التي تموج موجَ البحر؟ فأُسكت القوم، وظننت أنه إياي يريد، قال: فقلت: أنا. قال: أنت لله أبوك؟ قلت: تُعرَض الفتن على القلوب عرض الحصير ... فساق الحديث، وفي آخره: وحدثتُه أن بينك وبينها بابًا مغلقًا يوشك أن يُكسَر كسرًا. فقال عمر: كسرًا لا أبا لك.

قال الدارقطني في الأفراد[١]: غريب من حديث الشعبي عن ربعي، تفرَّد به مجالد عنه.

(وكان يُسئل عن المنافقين فيخبر بأعداد مَن بقي منهم، ولا يخبر بأسمائهم) ولفظ القوت: ويسألونه عن المنافقين وهل بقي ممن ذكر اللهُ سبحانه وأخبر عنهم أحدٌ، فكان يخبر بأعدادهم، ولا يذكر أسماءهم ا.هـ. وذلك لما سبق في حديث الطبراني: لا تخبرنَّ أحدًا.

(وكان عمر رضي الله عنه يسأله) ونص القوت: يستكشفه **(عن نفسه هل يعلم فيه شيئًا من النفاق، فيبرِّئه من ذلك)** ثم يسأله عن علامات النفاق وآية المنافق، فيخبر من ذلك بما يصلُح مما أُذن له فيه، ويستعفي عما لا يجوز له أن يخبر به فيُعذَر في ذلك.

(وكان عمر رضي الله عنه إذا دُعي إلى جنازة ليصلي عليها نظر، فإن رأى حذيفة صلى عليها وإلا ترك) هكذا أورده صاحب القوت، إلا أن فيه: فإن حضر حذيفة. وفيه: وإن لم يرَ حذيفة لم يصلِّ عليها.

وأخرج ابن عساكر في تاريخه[٢] عن حذيفة قال: مر بي عمر بن الخطاب وأنا جالس في المسجد، فقال لي: يا حذيفة، إن فلانًا قد مات فاشهده. ثم مضى، حتى إذا كاد أن يخرج من المسجد التفت إليَّ فرآني وأنا جالس فعرف فرجع [إليَّ]

---

(١) أطراف الغرائب والأفراد لابن القيسراني ١/ ٣٦١.

(٢) تاريخ دمشق ١٢/ ٢٧٦.

فقال: يا حذيفة، أنشدك الله، أمن القوم أنا؟ قلت: اللهم لا، ولن أبرئ أحدًا بعدك. فرأيت عينَي عمر جادتا.

(**وكان**) حذيفة (**يسمَّىٰ: صاحب السر**) وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سُئلوا عن علم يقول أحدهم: تسألوني عن هذا وصاحب السر فيكم؟! يعني حذيفة؛ كذا في القوت.

وروىٰ البخاري[1] أن أبا الدرداء قال لعلقمة: أليس فيكم - أو منكم - صاحب السر الذي لا يعلمه غيره؟ يعني حذيفة.

(**فالعناية**) أي صرفُ الهمة (**بمقامات القلب وأحواله**) التي تعرضه هو (**دأب علماء الآخرة**) وطريقتهم (**لأن القلب هو الساعي إلىٰ قرب الرب عَزَّوَجَلَّ**) والبدن مطيَّته، كما سبق ذلك للمصنف أولاً (**و**) لعَمْري (**قد صار هذا الفن غريبًا**) وطلابه غرباء (**مندرسًا**) عفت آثارُه وطُمست (**وإذا تعرَّض العالِم لشيء منه**) يحصِّله لنفسه (**استُبعد واستُغرب**) أي عُدَّ بعيدًا عن الأفهام، وطالبَه غريبًا (**وقيل**) له: (**هذا تزويق المذكِّرين**) أي الواعظين والقُصَّاص (**فأين التحقيق؟ ويرون أن التحقيق في دقائق المجادلات**) ورقائق المخاصمات (**ولقد صدق القائل**) هو عبد الواحد بن زيد، قال صاحب القوت[2]: وقد قال عبد الواحد بن زيد إمام الزاهدين كلامًا في هذا المعنىٰ يفرد به العلماء بالله تعالىٰ ويرفع طريقهم فوق كل طريق، أنشدونا عنه:

(الطرق شتىٰ وطرق الحق مفردة والسالكون طريقَ الحق أفراد

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ٣٠ ونصه: عن إبراهيم النخعي قال: ذهب علقمة إلىٰ الشام، فلما دخل المسجد قال: اللهم يسر لي جليساً صالحاً، فجلس إلىٰ أبي الدرداء، فقال أبو الدرداء: ممن أنت؟ قال: من أهل الكوفة. قال: أليس فيكم - أو منكم - صاحب السر الذي لا يعلمه غيره؟ يعني حذيفة، قلت: بلىٰ ... الخ الحديث.

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٦٣.

لا يُعرَفــون ولا تُـدرَىٰ مقاصدهم)

ونص القوت: ولا تُسلَك، بدل: تُدرَ **(فهـم علىٰ مهل يمشـون قُصَّـاد**
والناس في غفلة عما يُراد بهم فجُلُّهم عن سبيل الحق رُقَّاد)

وإلىٰ البيت الأخير أشار الطُّغْرائي في لاميَّته[1]:

قد رشَّحوك لأمرٍ لو فطنتَ له فاربأْ بنفسك أن ترعىٰ مع الهملِ

(وعلىٰ الجملة، فلا يميل أكثر الخلق) في تحصيلاتهم **(إلا إلىٰ الأسهل)** والأرفق **(والأوفق إلىٰ طباعهم)** وهم إذا مُنعوا مما هم فيه لأبوا [إلا] قبوله **(فإن الحق مر)** الطعم **(والوقوف عليه صعب)** المَرام **(وإدراكه شديد)** أي يُنال بالشدة **(وطريقه مستوعر)** لا سبيل إلىٰ سلوكه لكل أحد، وهي علوم الإيمان **(ولا سيَّما معرفة صفات القلب)** الحميدة **(وتطهيره عن الأخلاق الذميمة)** حتىٰ يستقر فيه نور الإيمان وضياء المعرفة **(فإن ذلك نزوع للروح علىٰ الدوام)** وتنزُّل عن الفخر والاحتشام **(وصاحبه يُنزَّل منزلةَ شارب الدواء)** المر **(يصبر علىٰ مرارته)** ويعض علىٰ مثل الجمر من حرارته **(رجاءَ الشفاء)** من أمراضه الباطنة **(وينزَّل منزلة مَن جعل مدة العمر صومه)** وينقطع عن لذائذ المأكولات **(فهو يقاسي الشدائد)** ويعانيها **(ليكون فطره عند الموت)** بتلقِّي الملائكة له إلىٰ الجنة **(ومتىٰ تكثر الرغبة في)** تحصيل **(هذا الطريق)** مع ما ذُكر **(ولذلك قيل)** ونص القوت[2]: وقال بعض علمائنا: **(إنه كان في البصرة مائة وعشرون متكلمًا في الوعظ والتذكير)** ولفظ القوت: في الذكر والوعظ **(ولم يكن)** منهم **(من يتكلم في علم)** المعرفة و**(اليقين)** والمقامات **(وأحوال القلوب وصفات الباطن إلا ثلاثة)** ولفظ القوت: إلا ستة

---

(١) ديوان الحسين بن علي الطغرائي ص ٥٦ (ط - مطبعة الجوائب بالقسطنطينية) من قصيدة يذكر فيها حاله ويصف نفسه وهو ببغداد سنة ٥٠٥.

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٦٨.

(منهم) أبو محمد (سهل) بن عبد الله (التستري، والقُبيحي) [illegible]
إلىٰ جده صُبَيح (وعبد الرحيم) بن يحيىٰ الأسود (وكان يجلس [illegible] هؤلاء [illegible]
أهل الوعظ والتذكير (الخلق الكثير الذي لا يُحصَىٰ) ولفظ القوت [illegible]
في مجالس القُصَّاص والمذكِّرين والواعظين مِئُون من عهد [illegible]
(و) يجلس (إلىٰ هؤلاء) يعني أهل علم صفات القلب (عدد يسير [illegible]
العشرةَ) فكان سهل يجلس عنده خمسة أو ستة إلىٰ العشرة، و[illegible]
علىٰ بضع عشرة، وما تم أهل مجلسه عشرون، ولم يُرَ في مجلس [illegible]
فيما سلف ثلاثون رجلاً ولا عشرون إلا نادرًا غير لزام [illegible]
الأربعة والعشرة وبضعة عشر، وقال الأوزاعي[1]: مات عطاء [illegible]
مات وهو أرضىٰ أهل الأرض عند الناس، وما كان يشهد مجلسه [illegible]
ثمانية. قال صاحب القوت: فهذا أيضًا من الفرق بينهم (لأن [illegible]
يصلُح إلا لأهل الخصوص) مَن اختصَّهم الله لقُرْبه (وما يُبْذَل للعموم [illegible]
وفي القوت: إن العلم مخصوص لقليل، وإن القصص عامٌّ لكثير. [illegible]
آخر: ولعَمْري إن المذاكرة بين النظراء، والمحادثة بين الإخوان [illegible]
يكون للإخوان، والجواب في المسائل نصيب العموم. وكان [illegible]
أن علمهم مخصوص لا يصلُح إلا للخصوص، والخصوص قليل [illegible]
ينطقون به إلا عند أهله، ويرون أن ذلك من حقه، وأنه واجب عليهم

(ومنها) أي ومن العلامات الفارقة بين علماء الدنيا والآخرة [illegible]
اعتماده في) أخذ (العلوم) وتلقِّيها (علىٰ بصيرته) التي ترىٰ حقائق [illegible]
وبواطنها (وإدراكه) أي معرفته وتحقُّقه (بصفاء قلبه) المنوَّر [illegible]
علىٰ الصحف) جمع صحيفة (والكتب) جمع كتاب، أي لا يكون [illegible]
العلوم من الأوراق المكتتبة، وإنما يكون اعتماده علىٰ ما أدركه بقوة قلبه [illegible]

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ٣١١، وابن عساكر في تاريخ دمشق [illegible]

قَبِله بصفائه وظهر في مرآته؛ فإن هذا هو النافع له في علوم الأعمال الموصلة إلىٰ درجات الآخرة (**ولا**) يكون اعتماده أيضًا (**علىٰ تقليد ما يسمعه من غيره**) ويروونه (**وإنما المقلَّد**) الذي أُمرنا باتِّباعه (**صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه**) **لا** غير (**فيما أمر به وقاله**) أي في الأوامر والنواهي (**وإنما يقلَّد الصحابة** ﷺ **من حيث إن فعلهم يدل علىٰ سماعهم من النبي** ﷺ) أي تلقَّوا ذلك الفعل بمشاهدة منه ﷺ، فهم وسائط في إيصال التلقِّي إلينا في المأمورات والمنهيَّات (**ثم إذا قلد صاحبَ الشرع** ﷺ **في تلقِّي أقواله وأفعاله بالقبول**) وأجمع نفسه علىٰ ذلك فليبحثْ عن الأخبار الصحيحة الدالة علىٰ تلك الأقوال والأفعال من طرق صحيحة أَمِنت من الكذَّابين والوضَّاعين، ثم عن معرفة الناسخ من ذلك من منسوخه، فإذا تمَّت له هذه النعمة (**فينبغي أن يكون حريصًا**) متشوِّفًا (**علىٰ فهم أسراره**) ولطائفه ونِكاته ودقائقه (**فإن المقلِّد**) بكسر اللام (**إنما يفعل الفعل لأن النبي** ﷺ **فعله**) وإنما ينتهي عن منهيٍّ لأنه ﷺ نهىٰ عنه (و) كل ما كان الرسول ﷺ (**فعله لا بد وأن يكون لسرٍّ فيه**) خفيٍّ عن المَدْرَك (**فينبغي أن يكون شديد البحث**) والتطلُّب (**عن أسرار الأعمال والأقوال**) ليكون اتِّباعه كاملاً، ولتحصيل الأجور كافلاً (**فإنه إن اكتفىٰ بحفظ ما يقال**) ويُكتَب في الصحف (**كان وعاء للعلم**) أي ظرفًا حافظًا له (**ولم يكن عالمًا**) حقيقةً (**ولذلك كان يقال: فلان من أوعية العلم، ولا يسمَّىٰ عالمًا**) هذا قول الزهري، كما سيأتي قريبًا (**إذا كان**) من (**شأنه الحفظ**) والجمع فقط (**من غير اطِّلاع علىٰ الأسرار والحِكَم**) قال صاحب القوت[1]: ولم يكن العالم عند العلماء من كان عالمًا بعلمِ غيرِه، ولا حافظًا لفقهِ سواه، هذا كان اسمه واعيًا وراوية وناقلاً [وحاملا] وكان أبو حازم الزاهد يقول: ذهب العلماء وبقيت علوم في أوعية سوء. وكان الزهري يقول: كان فلان وعاء للعلم، وحدثني فلان وكان من أوعية العلم، ولا يقول: وكان عالمًا، وكذلك جاء الخبر: «رُبَّ حامل فقه غير فقيه، ورُبَّ حامل

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٧٢. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

فقه إلىٰ من هو أفقه منه»، وكانوا يقولون: حماد الراوية، يعنون أنه كان راويًا.

قلت: أبو حازم هو سَلَمة بن دينار الأعرج، من كبار التابعين، أخرج أبو نعيم[١] من رواية يحيىٰ بن عبد الملك بن أبي غنية قال: حدثنا زمعة بن صالح قال: قال الزهري لسليمان بن هشام: ألا تسأل أبا حازم ما قال في العلماء؟ قال: وما عسيت أن أقول في العلماء إلا خيرًا، إني أدركت العلماء وقد استغنوا بعلمهم عن أهل الدنيا، ولم يستغنِ أهل الدنيا بدنياهم عن علمهم، فلما رأىٰ ذلك هذا وأصحابه تعلَّموا العلم فلم يستغنوا به، واستغنىٰ أهل الدنيا بدنياهم عن علمهم، فلما رأوا ذلك قذفوا[٢] بعلمهم إلىٰ أهل الدنيا، ولم يُنِلْهم أهلُ الدنيا من دنياهم شيئًا، إن هذا وأصحابه ليسوا علماء، إنما هم رواة.

وأما قول الزهري، فأخرج أبو نعيم[٣] أيضًا من رواية إبراهيم بن سعيد قال: سمعت سفيان يقول: كنت أسمع الزهري يقول: حدثني فلان وكان من أوعية العلم، ولا يقول: كان عالمًا.

(ومَن) تأدَّب بآداب الله وخالط أهلَ المعرفة (**كُشف عن قلبه الغطاء**) أي الحجاب (**واستنار بنور الهداية**) واليقين، و(**صار في نفسه متبوعًا مقلَّدًا، فلا ينبغي أن يقلد غيرَه**) لأن[٤] الفقيه في العلماء هو الفقيه بفقه علمه وقلبه لا بحديثِ سواه، ومَثَلُ العالم بعلمِ غيرِه مثل الواصف لأحوال الصالحين، العارف بمقامات الصِّدِّيقين، ولا حال له ولا مقام، فليس يعود عليه من وصفه إلا الحُجَّة بالعلم والكلام، وسبق العلماء بالله في الحجة بالأعمال والمقام، فمثله كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [الأنبياء: ١٨] وكقوله: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ٢٣٣.

(٢) كذا في المطبوعة، وفي الحلية: قدموا.

(٣) حلية الأولياء ٣/ ٣٦٣.

(٤) قوت القلوب ١/ ٢٧٢.

[البقرة: ٢٠] لا يرجع إلىٰ بصيرة في طريقه بما اشتبه عليه من ظلمات الشُّبَه مما اختلف العلماء فيه، ولا يتحقق بوجد منه [فيه] يجده عن حال أُلبسها بوجده، وإنما هو متواجد بتواجُد غيره، فغيره هو الواجد، وشاهد علىٰ شهادة سواه، فالسويُّ هو الشاهد، وقد كان الحسن يقول: إن الله لا يعبأ بصاحب رواية، إنما يعبأ بذي فهم ودراية. وقال أيضًا: مَن لم يكن له عقل يسوسه لم تنفعه كثرة رواية الحديث **(ولذلك قال ابن عباس ﷺ: ما من أحد إلا ويؤخذ من علمه ويُترَك إلا رسول الله ﷺ)** أورده صاحب القوت بلفظ: ليس أحد إلا ويؤخذ من قوله ويُترَك، والباقي سواء. وقال العراقي: رواه الطبراني في الكبير[1] من رواية مالك بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس رفعه ... فساقه بلفظ القوت، وإسناده حسن **(وقد كان تعلم من زيد بن ثابت الفقه)** هو[2] زيد بن ثابت بن الضحَّاك بن زيد بن لُوذان الأنصاري النَّجَّاري، أبو سعيد - ويقال: أبو خارجة - المدني، أحد كُتَّاب رسول الله ﷺ، قال الشعبي وابن سيرين: غلب زيدٌ [الناسَ] علىٰ اثنين: الفرائض والقرآن. وكان من أصحاب الفتوىٰ من الصحابة، وإليه انتهىٰ علمُهم. وقال سعيد بن المسيَّب: لما دُلِّي زيد في قبره قال ابن عباس: مَن سرَّه أن يعلم كيف ذهاب العلم فهكذا ذهاب العلم، واللهِ لقد دُفن اليومَ علمٌ كثير. ووفاته سنة خمس وأربعين وهو ابن ستٍّ وخمسين، وقيل غير ذلك **(وقرأ علىٰ أُبَيِّ بن كعب)** القرآنَ. هو[3] أبي بن كعب بن قيس بن عُبَيد بن زيد الأنصاري النَّجَّاري المدني، أبو المنذر، ويقال: أبو الطفيل، سيد القُرَّاء[4]، وأحد مَن جمع القرآن، توفِّي في خلافة عثمان علىٰ الصحيح **(ثم خالفهما)** فخالف زيدًا **(في الفقه)** أي أفتىٰ في بعض المسائل بخلاف ما أفتىٰ به زيد **(و)** خالف أبيًّا في **(القراءة)** أي في بعض الوجوه **(جميعًا.**

---

(١) المعجم الكبير ١١/ ٣٣٩ بلفظ: ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع غير النبي ﷺ.

(٢) انظر ترجمته في تهذيب الكمال للمزي ١٠/ ٢٤ - ٣٢.

(٣) انظر ترجمته والاختلاف في وقت وفاته في تهذيب الكمال ٢/ ٢٦٢ - ٢٧٢.

(٤) في المطبوعة: الأقران. والتصويب من تهذيب الكمال.

وقال بعض) الفقهاء من (**السلف: ما جاءنا عن رسول الله ﷺ قَبِلناه علىٰ الرأس والعين، وما جاءنا عن الصحابة فنأخذ منه ونترك، وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال**) قالوا ونقول؛ هكذا أورده صاحب القوت، وهذا القول قد عُزي إلىٰ الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالىٰ.

قال صاحب القوت: واعلمْ أن العبد إذا كاشفه الله تعالىٰ بالمعرفة وعلم اليقين لم يسعه تقليد أحد من العلماء، وكذلك كان المتقدمون إذا أقيموا هذا المقام خالفوا مَن حملوا عنه العلم لمزيد اليقين والإفهام.

ثم أورد قول ابن عباس وقول بعض السلف المتقدم ذِكرهما، قال: ولأجل ذلك كان الفقهاء يكرهون التقليد، ويقولون: لا ينبغي للرجل أن يفتي حتىٰ يعرف اختلاف العلماء، أي فيختار منها علىٰ علمه الأحوطَ للدين والأقوىٰ باليقين، فلو كانوا يستحسنون أن يفتي العالم بمذهب غيره لم يحتَجْ أن يعرف الاختلاف، ولكان إذا عرف مذهب صاحبه كفاه، ومن ثَمَّ قيل: إن العبد يُسئل غدًا فيقال: ما عملتَ فيما علمت؟ ولا يقال له: فيما علم غيرك، وهذا العالم الذي هو من أهل الاستنباط والاستدلال من الكتاب والسنَّة، فأما الجاهل والعامِّي الغافل فله أن يقلد العلماء، ولعالم عموم أيضًا أن يقلد عالم خصوص، وللعالم بالعلم الظاهر أن يقلد مَن فوقه ممَّن حمل عن علم باطن من [أهل] القلوب.

(**وإنما فُضِّل الصحابة**) ﷺ بخصوص التقليد (**لمشاهدتهم**) معاينةً (**قرائن أحوال رسول الله ﷺ**) لملازمتهم له في أكثر الأوقات (**واعتلاق قلوبهم أمورًا أُدركت بالقرائن**) مع البصيرة النافذة (**فسدَّدهم ذلك إلىٰ الصواب**) ومعرفة الحق (**من حيث لا يدخل في الرواية والعبارة؛ إذ فاض عليهم من نور النبوة**) بإشراقه في صدورهم (**ما يحرسهم**) ويمنعهم (**في الأكثر**) من أحوالهم (**عن**) الوقوع في (**الخطأ**) فلأجل هذه الخصوصية خُصُّوا بالتقليد لهم دون غيرهم ممَّن بعدهم؛ لأنهم بعدوا قليلاً من تلك الأنوار فلم ينالوا مقامَ أولئك الأبرار (**وإذا كان الاعتماد**

على المسموع من الغير تقليدًا غير مَرْضيٍّ) كما قُرِّر (فالاعتماد على الكتب والتصانيف أبعد) من أن يكون مَرضيًّا (بل الكتب والتصانيف محدَثة) أي أُحدثت فيما بعدُ (لم يكن شيء منها في زمن الصحابة وصدر التابعين، وإنما حدثت بعدُ) ولفظ القوت: لأن الكتب المجموعات محدَثة، والقول بمقالات الناس والفتيا بمذهب الواحد من الناس وانتحاء قوله والحكاية له في كل شيء والتفقُّه على مذهبه محدَثٌ، لم يكن الناس قديمًا على ذلك في القرن الأول والثاني، وهذه المصنَّفات من الكتب حادثة بعد (سنة مائة وعشرين من الهجرة) الشريفة (وبعد وفاة جميع الصحابة وعلية التابعين) وآخر من مات من أصحاب رسول الله ﷺ: أنس بن مالك بالبصرة، وسهل بن سعد الساعدي بالمدينة، وأبو الطُّفَيل بمكة، وعبد الله بن أبي أوفىٰ بالكوفة، وأبيض بن حَمَّال المأربي[1] باليمن، وأبو قرصافة[2] بالشام، وبُرَيدة الأسلمي بخراسان، وعبد الله بن الحارث الزُّبَيدي بمصر (و) إنما وُضعت الكتب (بعد وفاة سعيد[3] بن المسيب) بن حَزْن ابن أبي وهب المخزومي القرشي، أبو محمد المدني، سيد التابعين وأفقههم وأعلمهم، وكان يسمَّىٰ: راوية عمر؛ لأنه كان أحفظ الناس لأحكامه وأقضيته. مات سنة أربع وتسعين، وهي سنة الفقهاء؛ لكثرة من مات منهم فيها (و) بعد وفاة (الحسن) بن أبي الحسن البصري، مات سنة عشر ومائة في خلافة هشام (وخيار التابعين) من أقرانهما، كعمرو بن دينار وأبي حازم الأعرج وغيرهما، وفيهم كثرة. زاد صاحب القوت بعد قوله «وخيار التابعين»: وبعد سنة عشرين أو ثلاثين ومائة من تاريخ الهجرة (بل كان الأوَّلون) الذين هم أئمة هؤلاء العلماء من طبقات الصحابة الأربعة ومن بعد موت الطبقة الأولىٰ من خيار التابعين الذين انقرضوا قبل وضع الكتب كانوا (يكرهون كَتْبَ الأحاديث وتصنيف الكتب؛ لئلاً يشتغل الناس بها عن الحفظ) في الصدور (وعن القرآن

---

(١) في المطبوعة: أبيض بن حمان المازني. والتصويب من الاستيعاب ١/ ٨٩.

(٢) هو واثلة بن الأسقع الليثي.

(٣) انظر ترجمته في تهذيب الكمال ١١/ ٦٦ - ٧٥.

وعن التدُّبر) في معانيه وأسراره **(والتذكُّر)** والتفكُّر **(وقالوا: احفظوا)** ما تسمعون منا **(كما كنا نحفظ)** وأخرج أبو نعيم(١) من رواية داود بن رشيد قال: حدثنا أبو المليح قال: كنا لا نطمع أن نكتب عند الزهري حتىٰ أكره هشامٌ الزهريَّ فكتب لبنيه، فكتب الناس. يعني الحديث.

وأخرج أيضًا من رواية إبراهيم بن سعيد قال: سمعت سفيان يقول: قال الزهري: كنا نكره الكتاب حتىٰ أكرهنا هشام عليه(٢)، فكرهنا أن نمنعه الناس.

قال صاحب القوت: **(و)** لئلاَّ يشتغلوا عن الله تعالىٰ برسم ولا وسم **(لذلك)** ونص القوت: كما **(كره أبو بكر)** عبد الله بن عثمان الصِّدِّيق رضي الله عنه **(وجماعة من الصحابة)** ونص القوت: وعلية الصحابة **(شكل القرآن في المصحف)** وفي نسخة: تصحيف القرآن في مصحف. وهو بعينه نص القوت **(وقالوا: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ وخشوا اشتغال الناس بالصحف واتكالهم علىٰ المصاحف، وقالوا: نترك القرآن يتلقَّاه بعضهم عن بعض)** تلقُّنًا **(بالتلقين والإقراء؛ ليكون هذا شغلهم وهمهم)** وفكرهم **(حتىٰ أشار)** عليه **(عمر** رضي الله عنه **وبقية الصحابة بكَتْب القرآن)** في المصاحف **(خوفًا من تخاذل الناس وتكاسلهم)** في جمعه وحفظه **(وحذرًا من أن يقع نزاع فلا يوجد أصل يُرجَع إليه في كلمة أو قراءة من المتشابهات)** ولفظ القوت: حتىٰ أشار عليه عمر وبقية الصحابة أن يجمع القرآن في المصاحف؛ لأنه أحفظ له، وليرجع الناس إلىٰ المصحف؛ لِما لا يؤمَن من الاشتغال بأسباب الدنيا عنه **(فانشرح)** وفي القوت: فشرح الله **(صدر أبي بكر لذلك، فجمع القرآن)** من الصحف المتفرقة **(في مصحف واحد)** وكذلك كانوا يتلقَّون العلم بعضهم من بعض ويحفظونه حفظًا، هذا لطهارة القلوب من الرِّيَب، وفراغها من أسباب الدنيا، وقوة الإيمان، وصفاء اليقين، وعلو الهمَّة، وحسن النية، وقوة العزيمة.

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ٣٦٣.

(٢) في الحلية: حتىٰ أكرهنا عليه السلطان.

(وكان أحمد بن حنبل) الإمام **(ينكر علىٰ مالك)** الإمام **(في تصنيفه الموطأ، ويقول: ابتدع ما لم تفعله الصحابة)** ولعل هذا الإنكار كان في مبادئ أمره، وإلا فقد جمع حديثه بنفسه علىٰ المسانيد، وذلك لمَّا رأىٰ احتياج الناس إلىٰ ذلك.

(وقيل: أول كتاب صُنِّف في الإسلام كتاب) عبد الملك بن عبد العزيز **(ابن جُرَيج)** القرشي الأموي مولاهم، مات سنة تسع وأربعين ومائة **(في الآثار)** سُئل[١] أحمد بن حنبل: مَن أول مَن صنف الكتب؟ قال: ابن جريج وابن أبي عروبة. وعن[٢] ابن جريج قال: ما دوَّن العلم تدويني أحدٌ. وقال[٣] يحيىٰ بن سعيد: كنا نسمِّي كتب ابن جريج: كتب الأمانة، وإن لم يحدِّثك ابن جريج من كتابه لم تنتفع به. وأخرج أبو نعيم[٤] من رواية الزبير بن بكَّار قال: حدثني محمد ابن الحسن بن زبالة عن مالك بن أنس قال: أول مَن دوَّن العلمَ ابنُ شهاب **(وحروف التفاسير عن عطاء ومجاهد وأصحاب ابن عباس بمكة)** هكذا أورده صاحب القوت؛ أما عطاء[٥] فهو ابن أبي رباح، أبو محمد المكي، كان أسود أعور أفطس أشل أعرج ثم عمي، وكان ثقة، فقيهًا، عالمًا، كثير الحديث، إليه انتهت الفتيا بمكة في زمانه، أدرك مائتين من أصحاب رسول الله ﷺ، وقدم ابن عمر مكة فسألوه فقال: أتسألوني وفيكم ابن أبي رباح[٦]؟ مات سنة أربع عشرة ومائة.

وأما مجاهد[٧] فهو ابن جَبْر المكي، أبو الحجاج، مولىٰ بني مخزوم، قال

(١) تهذيب الكمال ١٨/ ٣٤٦. والسائل هو عبد الله ابن الإمام أحمد.

(٢) المعرفة والتاريخ للفسوي ٢/ ٢٥.

(٣) تاريخ بغداد ١٢/ ١٤٩.

(٤) حلية الأولياء ٣/ ٣٦٣.

(٥) انظر ترجمته في تهذيب الكمال ٢٠/ ٦٩ - ٨٥.

(٦) في تهذيب الكمال: أتجمعون لي يا أهل مكة المسائل وفيكم ابن أبي رباح؟ وكذا هو في كتاب المعرفة والتاريخ للفسوي ١/ ٧٠٣.

(٧) انظر ترجمته في تهذيب الكمال ٢٧/ ٢٢٨ - ٢٣٥.

الفضل بن ميمون: سمعت مجاهدًا يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرةً. وقال خُصَيف: كان أعلمهم بالتفسير مجاهد، وبالحج عطاء. مات سنة اثنتين ومائة بمكة.

(ثم كتاب مَعْمَر بن راشد الصنعاني باليمن، جمع فيه سننًا منثورة مبوَّبة) هكذا أورده صاحب القوت. ومعمر[١] بن راشد هو أبو عروة بن أبي عمرو الأزدي مولاهم الحُدَّاني البصري، سكن اليمن، وكان شهد جنازة الحسن. وقال أبو حاتم: انتهىٰ الإسناد إلىٰ ستة نفر أدركهم معمر وكتب عنهم، لا أعلم اجتمع لأحد غيره، من الحجاز الزهري وعمرو بن دينار، ومن الكوفة أبو إسحاق والأعمش، ومن البصرة قتادة، ومن اليمامة يحيىٰ بن أبي كثير. وقال ابن معين: أثبت الناس في الزهري مالك ومعمر ويونس وعُقَيل وشعيب وابن عيينة. وقال ابن جريج: عليكم بهذا الرجل؛ فإنه لم يبقَ أحد من أهل زمانه أعلم منه. وذكره ابن حبان في كتاب الثقات[٢] وقال: كان فقيهًا، متقنًا، حافظًا، ورعًا. مات سنة أربع وخمسين ومائة.

(ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك بن أنس) الأصبحي الإمام، تقدمت ترجمته، توفي سنة تسع وسبعين ومائة، وشأن كتابه الموطأ مشهور، وفيه قال الشافعي[٣]: ما تحت أديم السماء كتاب أصح من الموطأ (ثم جامع سفيان) بن سعيد (الثوري) في الفقه والأحاديث، ثم جمع ابن عيينة كتاب الجامع في السنن والأبواب وكتاب التفسير في أحرُف من علم القرآن. فهذه أول ما صُنِّف ووُضع من الكتب بعد وفاة ابن المسيب والحسن.

وقال الحافظ ابن حجر في أول مقدمة «فتح الباري»[٤]: واعلم أن آثار النبي

---

(١) انظر ترجمته في تهذيب الكمال ٢٨/ ٣٠٣ - ٣١١.

(٢) الثقات ٧/ ٤٨٤.

(٣) رواه ابن عبد البر في الاستذكار ١/ ١٦٦ (ط - دار الوعي) من طرق بألفاظ مختلفة.

(٤) هدي الساري ص ٨.

ﷺ لم تكن في عصر أصحابه وكبار تبعهم مدوَّنة في الجوامع ولا مرتَّبة لأمرين:

أحدهما: أنهم كانوا في ابتداء الحال قد نُهوا عن ذلك - كما ثبت في صحيح مسلم[١] - خشيةَ أن يختلط بعض ذلك بالقرآن العظيم.

وثانيهما: لسعة حفظهم وسيلان أذهانهم، ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة، حتىٰ حدث في أواخر عصر التابعين تدوين الآثار وتبويب الأخبار لمَّا انتشر العلماء في الأمصار وكثر الابتداعُ من الخوارج والروافض ومنكري الأقدار، فأول مَن جمع ذلك الربيع بن صبيح وسعيد بن أبي عروبة وغيرهما، وكانوا يصنفون كل باب علىٰ حِدَة، إلىٰ أن قام كبار أهل الطبقة الثالثة فدوَّنوا الأحكام، فصنف مالك الموطأ، وتوخَّىٰ فيه القوي من حديث أهل الحجاز، ومزجه بأقوال الصحابة وفتاوىٰ التابعين ومَن بعدهم، وصنف ابن جريج بمكة، والأوزاعي بالشام، والثوري بالكوفة، وحماد بن سَلَمة بالبصرة، ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم في النسج علىٰ منوالهم، إلىٰ أن رأىٰ بعض الأئمة منهم أن يفرد حديث النبي ﷺ خاصة، وذلك علىٰ رأس المائتين، فصنف عبيد الله بن موسىٰ العبسي الكوفي مسندًا، وصنف مسدَّد بن مُسرهَد البصري مسندًا، وصنف أسد ابن موسىٰ الأموي مسندًا، وصنف نعيم بن حماد الخُزاعي نزيل مصر مسندًا، ثم اقتفىٰ الأئمة بعد ذلك أثرهم، فقلَّ إمامٌ من الحفاظ إلا وصنف حديثه علىٰ المسانيد كالإمام أحمد وإسحاق بن راهويه وعثمان بن أبي شيبة وغيرهم من النبلاء، ومنهم مَن صنَّف علىٰ الأبواب والمسانيد معًا كأبي بكر بن أبي شيبة.

(**ثم**) بعد سنة مائتين وبعد تقضِّي ثلاثة قرون (**في القرن الرابع**) المرفوض (**حدثت**) وظهرت (**مصنفات الكلام**) وكتب المتكلمين بالرأي والمعقول والقياس

---

(١) روىٰ مسلم في صحيحه ٢/ ١٣٦٦ عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار».

(**وكثر الخوضُ في الجدال**) مع القَدَرية والجَهْمية والروافض (**والغوصُ في إبطال المقالات**) بالبراهين والأدلة (**ثم مال الناس إليه**) أخذًا وتحصيلاً (**وإلىٰ القصص والوعظ بها**) علىٰ الكراسي (**فأخذ علمُ اليقين**) والمعرفة. وفي نسخة: علم التيقُّن (**في الاندراس**) والاضمحلال، وغابت معرفة الموقنين من علم التقوىٰ وإلهام الرشد، فخلف من بعدهم خلفٌ، فلم نَزَلْ في الخلوف إلىٰ هذا الوقت (**من ذلك الزمان، فصار بعد ذلك يُستغرب علم القلوب والتفتيش عن صفات النفس**) الأمَّارة (**ومكائد الشيطان**) وحِيَله (**وأعرض عن ذلك إلا الأقلُّون**) من القليل، ثم اختلط الأمر بعد ذلك في زمانك هذا (**فصار يسمَّىٰ المجادِل والمتكلم عالمًا، والقاصُّ المزخرِف كلامه بالعبارات المسجعة**) الرائقة (**عالمًا**) عارفًا، والراوي للحديث والناقل له يسمىٰ عالمًا، من غير فقه في دين، ولا بصيرة من يقين.

قال صاحب القوت(١): وروينا عن ابن أبي عبلة قال: كنا نجلس إلىٰ عطاء الخُراساني بعد الصبح، فيتكلم علينا، فاحتبس ذات غَداة، فتكلم رجل من المؤذنين لا بأس به بمثل ما كان يتكلم به عطاء، فأنكر صوته رجاءُ بن حيوة فقال: من هذا المتكلم؟ فقال: أنا فلان. فقال: اسكت؛ فإنه يُكره أن يُسمع العلم إلا من أهله [وكذلك كانوا يقولون: أبىٰ أهل العلم بالله تعالىٰ أن يسمعوا هذا العلم إلا من أهله] الزاهدين في الدنيا، وكرهوا أن يسمعوه من أبناء الدنيا، وزعموا أنه لا يليق بهم.

(**وهذا لأن العوامَّ**) من الناس (**هم المستمعون إليهم**) في حِلَق دروسهم (**فكان لا يتميَّز لهم حقيقة العلم عن غيره**) لقصور مرتبتهم (**ولم تكن سيرة الصحابة**) وطريقتهم (**وعلومهم**) وما كانوا عليه (**ظاهرة عندهم حتىٰ كانوا يُعرَفون بها**) أي بتلك السيرة. وفي نسخة: به (**مباينة هؤلاء لهم**) في الأقوال والأحوال (**فاستمر عليهم اسم العلماء، وتُوارَث اللقب خلف عن سلف، وأصبح علم الآخرة مطويًّا**)

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٧٣. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

وفي القوت: ثم درست معرفة هذا أيضًا، فصار كل مَن نطق بكلام وصفه غريب على السامعين لا يُعرَف حقه من باطله يسمَّىٰ عالمًا، وكل كلام مستحسَن مزخرَف رونقه لا أصل له يسمَّىٰ علمًا؛ لجهل العامة بالعلم أيّ شيء هو، ولقلة معرفة السامع بوصف مَن سلف من العلماء كيف كانوا، فصار كثير من متكلمي الزمان فتنة المفتون، وصار كثير من [الكلام و] الرأي والمعقول الذي حقيقته جهلٌ كأنه علم عند الجاهلين **(وغاب عنهم الفرق بين العلم والكلام)** وبين المتكلم والعالم **(إلا علىٰ الخواصِّ منهم، كانوا إذا قيل لهم: فلان أعلم من فلان)** وفي نسخة: أمْ فلان **(يقولون: فلان أكثر علمًا، وفلان أكثر كلامًا. فكان الخواص)** منهم **(يدركون الفرق)** والتميز **(بين العلم وبين القدرة علىٰ الكلام)** وبين العالم والمتكلم، وخصوص الجُهَّال يشبَّهون بالعلماء فيشتبهون علىٰ مُجالسيهم في الحال. فأعلمُ الناسِ في زمانك أعرفهم بسيرة المتقدمين وأعلمهم بطرائق السالفين، ثم أعلمهم بالعلم أيّ شيء هو وبالعالم من هو وبالمتعلم من هو، وهذا كالفرض علىٰ طالبي العلم أن يعرفوه حتىٰ يطلبوه؛ إذ لا يصح طلبُ ما لا يُعرَف، ثم معرفة العالم من هو؛ ليطلبوا عنده العلم؛ إذ العلم عَرَضٌ لا يقوم إلا بجسم، فلا يوجد إلا عند أهله **(هكذا ضعف الدينُ في قرون سالفة، فكيف الظن بزمانك هذا)** في القرن الخامس؟ **(وقد انتهىٰ الأمر إلىٰ أن مُظهِر الإنكار)** في شيء من ذلك **(يُستهدف)** ويُرمَىٰ **(بنسبته إلىٰ الجنون)** وقلة العقل، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم **(فالأولىٰ أن يشتغل الإنسان بنفسه)** في توجُّهه إلىٰ المولىٰ جل وعز **(ويسكت)** فإنه لا فائدة في نصيحته، ولا سامع لها، ولا حامل لحديثه، ولا ناقل له، ويفوِّض أمره إلىٰ الله تعالىٰ، فهو المطَّلع علىٰ سرائر عباده، وهو المُجازي لهم.

(ومنها) أي ومن العلامات الفارقة بين علماء الدنيا والآخرة: **(أن يكون شديد التوقِّي)** أي التحرُّز **(من محدثات الأمور)** التي أحدثها الناس فيما بعد **(وإن اتفق عليها الجمهور)**: جميع الناس ومعظمهم **(فلا يغرَّنَّه إطباق الخلق)**

وإجماعهم (**علىٰ ما أُحدث**) وابتُدع (**بعد**) عصر (**الصحابة**) والقرون الأولىٰ، فأخرج اللالكائي في السنَّة[1] من رواية شبابة قال: حدثنا هشام بن الغاز عن نافع عن ابن عمر قال: كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة (**وليكن حريصًا علىٰ التفتيش**) والبحث (**عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم**) وما كانوا عليه من إيثار الآخرة علىٰ الدنيا (**وما كان فيه أكثر همِّهم**) ورغباتهم (**أكان**) ذلك (**في التصنيف والتدريس والمناظرة**) مع الأقران (**و**) تولية (**القضاء والولاية**) للأعمال (**وتولِّي الأوقاف**) بالنظر والتحدث فيها (**والوصايا و**) تولية (**مال الأيتام ومخالطة السلاطين**) والأمراء والتجار (**ومجاملتهم في العِشرة**) ومؤانستهم إياهم فيها (**أمْ كان في الخوف**) من الله تعالىٰ (**والحزن**) في أنفسهم (**والتفكر**) في نعم الله تعالىٰ (**والمجاهدة**) مع النفس (**ومراقبة الباطن والظاهر، واجتناب دقيق الإثم وجليله، والحرص علىٰ إدراك خفايا شهوات النفس و**) معرفة (**مكائد الشيطان**) ومدافعته (**إلىٰ غير ذلك من علوم الباطن**) كعلم الورع في المكاسب والمعاملات، والفرق بين نفاق العلم والعمل، والفرق بين خواطر الروح والنفس وبين خاطر الإيمان واليقين والعقل، وتفاوت مشاهدات العارفين، وعلم القبض والبسط، وغير ذلك مما يأتي كل ذلك مصرَّحًا مبسوطًا في كلام المصنف.

(**واعلمْ تحقيقًا أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلىٰ الحق**) والتوفيق والرشد (**أشبههم بالصحابة**) أي بطرائقهم (**وأعرفهم بطرائق السلف، فمنهم أُخذ الدين**) ونص القوت[2]: فأعلمُ الناسِ في هذا الوقت وأقربهم من التوفيق والرشد أتبعُهم لمَن سلف، وأشبههم بشمائل صالحي الخلف، كيف وقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه سُئل: مَن أعلم الناس؟ قال: «أعرفهم بالحق إذا اشتبهت الأمور». وقال بعض السلف: أعلم الناس أعرفهم باختلاف الناس (**ولذلك قال عليٌّ كرَّم الله وجهه:**

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ٩٢.

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٧٥.

خيرُنا أتبعُنا لهذا الدين، لمَّا قيل له): إنك **(خالفت فلانًا)** في كذا؛ هكذا أورده صاحب القوت، زاد: وكما قيل لسعد: إن ابن المسيب يقرأ: «ما ننسخ من آية أو نَنْسأها»، فقال: إن القرآن لم ينزل علىٰ المسيب ولا علىٰ ابنه. ثم قرأ «أو ننسها»[(١)] **(فلا ينبغي أن يكترث بمخالفة أهل العصر في موافقة أهل عصر رسول الله ﷺ؛ فإن الناس رأوا رأيًا فيما هم فيه)** كذا في أكثر النسخ، وفي بعضها: رأوا الفضل فيما هم فيه **(لميل طباعهم إليه)** بمجرد حظ **(ولم تسمح طباعهم)** وفي نسخة: نفوسهم **(بالاعتراف)** والتسليم لطريقة السلف **(بأن ذلك سبب الحرمان من الجنة، فادَّعوا أنه لا سبيل إلىٰ الجنة سواه)** أي سوىٰ طريقه الذي سلكه، وأخرج اللالكائي في السنَّة[(٢)] من رواية إبراهيم بن أبي حفصة قال: قلت لعلي بن الحسين: ناس يقولون: لا نُنكِح إلا من كان علىٰ رأينا، ولا نصلي إلا خلف من كان علىٰ رأينا. قال علي بن الحسين: نُنكِحهم بالسنَّة، ونصلي خلفهم بالسنَّة **(ولذلك قال الحسن)** البصري رحمه الله تعالىٰ، ولفظ القوت[(٣)]: وكان الحسن البصري يقول: **(محدثان أُحدِثا في الإسلام: رجل ذو رأي سوء زعم أن الجنة لمن رأىٰ مثل رأيه)** وفي بعض النسخ: برأيه **(ومترَف)** أي متنعِّم **(يعبد الدنيا)** حيث جعلها أكبر همِّه **(لها يغضب، ولها يرضىٰ، وإياها يطلب، فارفضوهما إلىٰ النار)** أي اتركوهما؛ فإن مصيرهما إلىٰ النار. زاد في القوت: اعرفوا إنكارهم لربهم بأعمالهم **(وإن رجلاً أصبح في هذه الدنيا بين مترف يدعوه إلىٰ دنياه وصاحب هوىٰ يدعوه إلىٰ هواه وقد عصمه الله**

---

(١) قال القرطبي في تفسيره ٢/ ٣٠٩ - ٣١٠: «قرأ أبو عمرو وابن كثير بفتح النون والسين والهمز، وبه قرأ عمر وابن عباس وعطاء ومجاهد وأبي بن كعب وعبيد بن عمير والنخعي وابن محيصن، من التأخير، أي يؤخر نسخ لفظها، أي نتركه في أم الكتاب فلا يكون، وهذا قول عطاء، وقال غير عطاء: معنىٰ (أو ننسأها): نؤخرها عن النسخ إلىٰ وقت معلوم، وقيل: نذهبها عنكم حتىٰ لا تقرأ ولا تذكر. وقرأ الباقون: ننسها، بضم النون، من النسيان الذي بمعنىٰ الترك، أي نتركها فلا نبدلها ولا ننسخها؛ قاله ابن عباس والسدي».

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ٦٦.

(٣) قوت القلوب ١/ ٢٧٥.

تعالىٰ منهما) أي من اتِّباعهما **(يحن إلىٰ)** طريقة **(السلف الصالح)** ويميل إلىٰ شمائلهم **(يسأل عن أفعالهم)** وفي القوت: عن فِعالهم **(ويقتص)** أي يتتبع **(آثارهم متعرِّض لأجر)** وفي القوت: لتعرض لأجر **(عظيم، فكذلك)** وفي القوت: وكذلك **(فكونوا)** وأخرج اللالكائي في السنة[١] من رواية سعيد بن عامر قال: أخبرنا حزم عن غالب القطان قال: رأيت مالك بن دينار في النوم وهو قاعد في مقعده الذي كان يقعد فيه وهو يشير بأصبعه، وهو يقول: صنفان في الناس لا تجالسوهما؛ فإن مجالستهما فاسدة لقلب كل مسلم: صاحب بدعة قد غلا فيها، وصاحب دنيا مترف فيها. قال: ثم قال: حدثني بهذا حكيم، وكان رجلاً من جلسائه. قال: وكان معنا في الحلقة. قال: قلت: يا حكيم، أنت حدَّثتَ مالكًا بهذا الحديث؟ قال: نعم. قلت: عمَّن؟ قال: عن المقامع[٢] من المسلمين.

(وقد رُوي عن ابن مسعود) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **(موقوفًا)** عليه **(و)** رُوي أيضًا **(مسندًا)** إلىٰ رسول الله ﷺ **(أنه قال: إنما هما اثنان: الكلام والهدىٰ)** أي السيرة والطريقة **(فأحسن الكلام كلام الله** عَزَّوَجَلَّ**)** المنزَّل علىٰ رسله في الكتب، وأعظمها الكتب الأربعة[٣] **(وأحسن الهدي هديُ محمد** ﷺ**، ألا وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن شر الأمور محدثاتها، وإن كل محدثة بدعة)** أي خصلة محدثة **(وإن كل بدعة ضلالة، ألا لا يطولنَّ عليكم الأَمَدُ)** بالدال محرَّكة: الزمان، ومَن رواه بالراء فقد صحَّفَ **(فتقسو قلوبُكم)** وهو من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦] **(ألا كل ما هو آتٍ قريب، ألا إن البعيد ما ليس بآتٍ)** هكذا أورده صاحب القوت، وقال العراقي: رواه ابن ماجه[٤] من رواية

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ١٤٣.

(٢) في المطبوعة: المتقانع. والمثبت من شرح الأصول، قال محققه: المقامع تطلق علىٰ أعمدة الحديد، وأراد هنا توثيقهم.

(٣) وهي القرآن العظيم والإنجيل والتوراة والزبور.

(٤) سنن ابن ماجه ١/ ٧٤.

أبي إسحاق السبيعي عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال ... فذكره، إلا أنه قال: وكل محدَثة بدعة، وكل بدعة ضلالة. وقال: ألا إن ما هو آتٍ قريب، وإنما البعيد ما ليس بآتٍ. وزاد: ألا إنما الشقي مَن شقي في بطن أمه، والسعيد مَن وُعظ بغيره ... الحديث. وإسناده جيد. وزاد الطبراني[1] بعد قوله «وكل بدعة ضلالة»: وكل ضلالة في النار. ا.هـ.

والحديث طويل، وفي آخره بعد قوله «مَن وُعظ بغيره»: «ألا إن قتال المؤمن كفر، وسِبابه فسوق، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، ألا وإياكم والكذبَ؛ فإن الكذب لا يصلُح لا بالجِد ولا بالهزل، ألا لا يَعِد الرجل صبيَّه ثم لا يَفِي له، وإن الكذب يهدي إلىٰ الفجور، وإن الفجور يهدي إلىٰ النار، وإن الصدق يهدي إلىٰ البر، وإن البر يهدي إلىٰ الجنة، وإنه يقال للصادق: صدق وبَرَّ، ويقال للكاذب: كذب وفجر، ألا وإن العبد يكذب حتىٰ يُكتب عند الله كذابًا». هكذا عند ابن ماجه بطوله، وأخرجه اللالكائي في السنة[2] من هذا الطريق إلىٰ قوله: فتقسو قلوبكم، وفيه: إن كل محدثة، بلا واو، وفيه: ألا لا يطول، من غير نون ثقيلة. وأخرج أيضًا من رواية الأعمش عن جامع بن شداد عن الأسود بن هلال قال: قال عبد الله: إن أحسن الهَدْي هدي محمد ﷺ، وإن أحسن الكلام كلام الله، وإنكم ستحدثون ويحدث لكم، فكل محدَث ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وأخرج أبو نعيم في الحلية[3] من رواية عمرو بن ثابت عن عبد الرحمن بن عابس قال: قال عبد الله بن مسعود: إن أصدق الحديث كتاب الله تعالىٰ، وأوثق العُرَىٰ كلمة التقوىٰ، وخير الملل ملة إبراهيم، وأحسن السنن سنة محمد ﷺ، وخير الهَدْي هدي الأنبياء، وأشرف الحديث ذِكر الله، وخير القصص القرآن،

---

(١) المعجم الكبير ٩/ ٩٩.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ٧٧.

(٣) حلية الأولياء ١/ ١٣٨.

وخير الأمور عواقبها، وشر الأمور محدثاتها ... الحديث بطوله.

قال العراقي: وفي الباب عن جابر بن عبد الله، رواه مسلم[١] والنسائي[٢] وابن ماجه[٣] من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه ... الحديث، وفيه: ويقول: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهَدْي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة».

قلت: وأخرج أبو داود[٤] والترمذي[٥] واللالكائي[٦] وأبو بكر الآجُرِّي[٧] وعياض في الشفا[٨] من طريقه، كلهم من حديث العِرْباض بن سارية رضي الله عنه: صلىٰ بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا بوجهه، فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووَجِلت منها القلوب ... فساقوا الحديث، وفيه: «وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

وأخرج اللالكائي في السنة[٩] من رواية سفيان بن عيينة عن هلال الوَزَّان، حدثنا عبد الله بن عكيم - وكان قد أدرك الجاهلية - قال: أرسل إليه الحجاج يدعوه، فلما أتاه قال: كيف كان عمر يقول؟ قال: كان عمر يقول: إن أصدق القيل قيل الله، ألا وإن أحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة ضلالة، ألا وإن الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، ولم يقُم الصغير

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٣٨٥.

(٢) سنن النسائي ص ٢٦٠.

(٣) سنن ابن ماجه ١/ ٧٤.

(٤) سنن أبي داود ٥/ ١٩٣.

(٥) سنن الترمذي ٤/ ٤٠٨.

(٦) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ٧٥.

(٧) الشريعة ١/ ٤٠٠.

(٨) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ ٢/ ١٠.

(٩) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ٨٤.

علىٰ الكبير، فإذا قام الصغير علىٰ الكبير فقد[١].

وأخرج[٢] أيضًا من رواية واصل الأحدب عن عاتكة بنت جزء قالت: أتينا ابن مسعود، فسألناه عن الدجال، فقال: أنا لغير الدجال أخوف عليكم من الدجال، أمور تكون من كبرائكم، فأيما مُرَيَّة أو رُجَيل أدرك ذلك الزمان فالسمت الأول، السمت الأول، فأما اليوم علىٰ السنَّة.

وأخرج[٣] أيضًا من حديث معاذ: ستكون فتنة ... الحديث، وفيه: فإياكم وما ابتُدع؛ فإن ما ابتُدع ضلالة.

(وفي خطبة رسول الله ﷺ: طوبىٰ لمَن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية، وخالط أهل الفقه والحكمة، طوبىٰ لمن ذل في نفسه، وحسنت خليقتُه، وصلحت سريرته، وعزل عن الناس شرَّه، طوبىٰ لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السنَّةُ ولم يعدها إلىٰ بدعة) هكذا أورده صاحب القوت[٤] بلفظ: وفي خطبة النبي ﷺ التي رويناها [عن أبان عن أنس] وفيه بعد قوله «وخالط أهل الفقه والحكمة» زيادة: وجانَبَ أهلَ الذلة والمعصية.

وقال العراقي: فيه عن الحسين بن علي وأبي هريرة ورَكْب المصري؛ أما حديث الحسين بن علي فرواه أبو نعيم في الحلية[٥] من رواية القاسم بن محمد ابن جعفر عن آبائه من أهل البيت إلىٰ الحسين بن علي قال: رأيت رسول الله ﷺ [قام] خطيبًا علىٰ أصحابه ... فذكره بزيادة في أوله وهي: كأنَّ الموت في هذه الدنيا

---

(١) أي: فقد هلكوا.

(٢) السابق ١/ ٨٦.

(٣) السابق ١/ ٨٩.

(٤) قوت القلوب ١/ ٢٧٥. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٥) حلية الأولياء ٣/ ٢٠٢. والزيادات التي بين حاصرتين منه. وفيه: ولم يعدل عنها إلىٰ بدعة.

علىٰ غيرنا كُتب ... الحديث، وفيه: طوبىٰ لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ... و[طوبىٰ لمن] أنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السنَّةُ ولم يعدها إلىٰ البدعة.

وأما حديث أبي هريرة فرواه ابن لال في «مكارم الأخلاق»[١] من رواية عصمة ابن محمد الخزرجي عن يحيىٰ بن سعيد عن سليمان بن يسار عن أبي هريرة رفعه ... فساقه بمثل حديث الحسين بن علي.

وأما حديث ركب المصري فرواه الطبراني[٢] والبيهقي[٣] من رواية إسماعيل ابن عيَّاش عن [مطعم بن المقدام الصنعاني و] عنبسة بن سعيد الكلاعي عن نصيح العنسي عن ركب المصري رفعه: «طوبىٰ لمن تواضع في غير مَنقصة، وذل في نفسه من غير مسكنة، وأنفق مالاً جمعه في غير معصية، ورحم المساكين، وخالط أهل الفقه والحكمة، طوبىٰ لمن ذل في نفسه، وطاب كسبُه، وصلحت سريرته، وكرمت علانيتُه، وعزل عن الناس شره، طوبىٰ لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله».

وأما حديث أنس فرواه البزار في مسنده[٤] مختصرًا بإسناد ضعيف، ولفظه:

---

(١) وأخرجه أيضاً تمام الرازي في فوائده ٥/ ٨٥.

(٢) المعجم الكبير ٥/ ٧١ - ٧٢.

(٣) شعب الإيمان ٥/ ٧٦.

(٤) مسند البزار ١٢/ ٣٤٨، وليس فيه اللفظ الذي ذكره الشارح، بل لفظه: «يا أيها الناس، كأن الموت فيها علىٰ غيرنا كتب، وكأن الحق فيها علىٰ غيرنا وجب، وكأنما نشيع من الموتىٰ سفر عما قليل إلينا راجعون، نبوئهم أجداثهم، ونأكل تراثهم، كأنكم مخلدون بعدهم، قد نسيتم كل واعظة، وأمنتم كل جائحة، طوبىٰ لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وتواضع لله في غير منقصة، وأنفق من مال جمعه في غير معصية، وخالط أهل الفقه، وجانب أهل الشك والبدعة، وصلحت علانيته، وعزل الناس من شره». وذكره الهيثمي أيضاً بهذا اللفظ في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٩٥ وقال: فيه النضر بن محرز وغيره من الضعفاء.

«طوبىٰ لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السنَّة ولم يعدها إلىٰ بدعة».

قلت: وحديث ركب أخرجه أيضًا البخاري في التاريخ(١) والبغوي في معجم الصحابة(٢) والبارودي وابن قانع(٣).

وأخرج أبو نعيم في الحلية(٤) من رواية كثير بن هشام عن جعفر بن برقان قال: بلغنا أن وهب بن منبه كان يقول: طوبىٰ لمن فكَّر(٥) في عيبه عن عيب غيره، وطوبىٰ لمن تواضع لله عَزَّوَجَلَّ من غير [مسكنة، ورحم أهل الذل والمسكنة، وتصدق من مال جمع من غير] معصية، وجالَسَ أهلَ العلم والحِلم وأهل الحكمة، ووسعته السنَّة ولم يتعدَّها إلىٰ البدعة.

وقال صاحب القوت بعد أن أورد الخطبة المذكورة ما نصه: وقال بعض العلماء الأدباء(٦) كلامًا منظومًا في وصف زماننا هذا كأنه شاهده:

---

(١) التاريخ الكبير ٣/ ٣٣٨ مقتصرًا علىٰ قوله: طوبىٰ لمن تواضع من غير منقصة.

(٢) معجم الصحابة ٢/ ٤١٧.

(٣) لم أقف عليه في معجم ابن قانع، وقد ذكر محققه أنه سقط من الأصل بعض حرف الحاء، وحروف الخاء والدال والذال بتمامها، وأوائل حرف الراء، فلعل ترجمة ركب المصري سقطت فيما سقط من تراجم.

(٤) حلية الأولياء ٤/ ٦٧. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٥) في الحلية: نظر.

(٦) اختلف في نسبة هذه الأبيات اختلافًا كثيرًا: أورد البهاء العاملي في الكشكول ص ٩٦ البيت الأول والثاني والرابع ونسبها لأبي الأسود الدؤلي. وأورد ابن حمدون في التذكرة الحمدونية ٥/ ٧٢ الأبيات الخمسة ونسبها أيضاً لأبي الأسود الدؤلي. وفي ديوان أبي الأسود ص ٣٩٧ البيت الأول والثاني والرابع فقط. وأورد الصفدي في الوافي بالوفيات ١٢/ ٥٥ البيت الأول والثاني وبعدهما بيتين آخرين وهما:

الجد أنهض بالفتىٰ من كده ... فانهض بجد في الحوادث أو ذر

وإذا تعسرت الأمور فارجها ... وعليك بالأمر الذي لم يعسر

ونسبها للحسن بن عبد الله الأصبهاني المعروف بلغدة أو لكذة. =

ذهب الرجال المقتدَىٰ بفِعالهم والمنكِرون لكل أمر منكَرِ
وبقيتُ في خَلَف يزكِّي بعضُهم بعضًا ليدفع معور عن معور
أبنيَّ إن من الرجال بهيمة في صورة الرجل السميع المبصر
فطن لكل مصيبة في ماله فإذا أصيبَ بدينه لم يشعر
فسَلِ اللبيب تكن لبيبًا مثله مَن يَسْعَ في علمٍ بلُبٍّ يظفر

(وكان ابن مسعود يقول: حسن الهدي في آخر الزمان خير من كثير من العمل) هكذا أورده صاحب القوت، أي حسن السيرة والطريقة بمجانبة أهل البدع.

وأخرج اللالكائي في السنة[1] من رواية الأعمش عن عمارة عن عبد الرحمن ابن يزيد عن عبد الله قال: الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة.

(وقال) أيضًا في وصف زمانه باليقين وفي وصف زماننا بالشك: **(أنتم في زمان**

= ونسبها كذلك ياقوت الحموي في معجم الأدباء ٢/ ٨٧٥ للغدة، ولكنه زاد بعد البيت الثاني بيتا آخر وهو قوله:

ما أقرب الأشياء حين يسوقها قدر وأبعدها إذا لم تقدر

وذكر المرزباني في معجم الشعراء ص ٣٨٣ (ط - مكتبة القدسي) البيت الأول والثاني ونسبهما لمرة ابن عمرو الخزاعي، لكن صدر البيت الأول: ذهب الرجال الأكرمون ذوو الحجىٰ. وأورد الآمدي في المؤتلف والمختلف ص ٢٠٩ (ط - دار الجيل ببيروت) البيت الأول والثاني مع بيت ثالث وهو:

سلكوا بنيات الطريق فأصبحوا متنكبين عن الطريق الأكبر

ونسبها للحكم بن عبدل الأسدي. وأورد الرافعي في التدوين في أخبار قزوين ٤/ ٨٣ البيت الأول والثاني والثالث والرابع - غير أنه قدم البيت الرابع - ونسبها للمرار بن حمويه الهمداني نقلًا عن الكيا شهرويه بن شهردار. وأورد ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٠/ ٢١٥ والخطيب في تاريخ بغداد ٧/ ٥٥٧ وأبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ٣٤٤ البيت الأول والثاني ونسبوهما لبشر بن الحارث الحافي.

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ٥٥.

خيركم فيه المسارع في الأمور، وسيأتي بعدكم زمان يكون خيرهم فيه المتثبِّت المتوقِّف لكثرة الشبهات) هكذا أورده صاحب القوت، ولم يقل: في الأمور.

(**وقد صدق**) ابن مسعود (**فمن لم يتثبَّت في هذا الزمان**) علىٰ دينه (**ووافق الجماهيرَ**) في آرائهم (**فيما هم عليه وخاض فيما خاضوا فيه هلك كما هلكوا**.

وقال حذيفة) بن اليمان (رضي الله عنه): **أعجب من هذا أن معروفكم اليوم منكَر زمانٍ قد مضىٰ، وأن منكركم اليوم معروف زمان قد يأتي، وإنكم لن تزالوا بخير ما عرفتم الحق وكان العالم فيكم غير مستخفٍ به**) هكذا أورده صاحب القوت من غير لفظة «به» في آخره، وأراد من قوله «غير مستخفٍ» من الخفاء لا من الخفَّة كما يقتضيه سياق المصنف، وزاد: وكان يقول أيضًا: يأتي علىٰ الناس زمان يكون العالم بينهم بمنزلة الحمار الميت، لا يلتفتون إليه، يستخفي المؤمن فيهم كما يستخفي المنافق فينا اليوم، المؤمن فيهم أذل من الأمَة. وفي حديث عليٍّ: يأتي علىٰ الناس زمان ينكر الحقَّ تسعةُ أعشارهم، لا ينجو منهم يومئذٍ إلا كل مؤمن نَوُمة. يعني صَمُوتًا متغافلاً. وفي الخبر: يأتي علىٰ الناس زمان مَن عرف فيه الحق نجا. قيل: فأين العمل؟ قال: لا عمل يومئذٍ، لا ينجو فيه إلا مَن هرب [بدينه] من شاهق إلىٰ شاهق. وفي حديث أبي هريرة: يأتي علىٰ الناس زمان مَن عمل منهم بعُشْر ما أُمر به نجا. وفي بعضها: بعُشْر ما يعلم. وقال بعض الخلف: أفضل العلم في آخر الزمان الصمت، وأفضل العمل النوم. يعني لكثرة الناطقين بالشبهات، فصار الصمت للجاهل علمًا، ولكثرة العاملين بالشهوات[1]، فصار النوم عبادة البَطَّال، ولعَمْري إن الصمت والنوم أدنىٰ أحوال العالِم، وهما أعلىٰ أحوال الجاهل، وكان يونس بن عبيد يقول: أصبح اليومَ من يعرف السنَّة غريبًا، وأغرب منه من يعرفه. يعني طريقة السلف، يقول: فمَن عرف طريق مَن مضىٰ فهو غريب أيضًا؛ لأنه قد عرف غريبًا. وقال حذيفة المرعشي: كتب إليَّ يوسف بن أسباط: ذهبت الطاعة ومن يعرفها.

---

(١) في المطبوعة: ولكثرة الناطقين بالشبهات. والتصويب من القوت.

وكان أيضًا يقول: ما بقي من يؤنَس به. وقال: ما ظنُّك بزمان مذاكرةُ العلم فيه معصية؟ قيل: ولِمَ ذلك؟ قال: لأنه لا يجد أهله. وقد كان أبو الدرداء يقول: إنكم لن تزالوا بخير ما أحببتم خياركم، وقيل فيكم الحق فعُرف، ويل لكم إذا كان العالم فيكم كالشاة النطيح.

وأخرج اللالكائي في السنة[١] من رواية حميد بن هلال قال: حدثني مولىٰ لابن مسعود قال: دخل ابن مسعود علىٰ حذيفة فقال: اعهد إليَّ. [فقال:] ألم يأتِكَ اليقين؟ قال: بلىٰ وعزَّة ربي. قال: فاعلمْ أن الضلالة حقَّ الضلالة أن تعرف ما كنت تنكر، وأن تنكر ما كنتَ تعرف، وإياك والتلوُّن في دين الله؛ فإن دين الله واحد.

(ولقد صدق) حذيفة **(فإن أكثر معروفات هذه الأعصار)** من الأقوال والأفعال كانت **(منكَرات في عصر الصحابة رضوان الله عليهم؛ إذ من غرر المعروفات في زماننا تزيين المساجد)** وفي نسخة: فرش المساجد **(وتجميرها)** أي تزويقها بأنواع الصباغات والفُسَيفساء والرخام الملوَّن **(وإنفاق الأموال العظيمة)** وصرفها **(في دقائق عمارتها وفرش البُسُط)** الرومية والأنماط **(الرفيعة)** الأثمان **(فيها)** وكذلك تلوين القِبلة بالزخرف؛ لأن ذلك يشغل القلبَ، ويلهي عن الخشوع والتدبر والحضور مع الله تعالىٰ.

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن المبارك في الزهد عن أبي الدرداء رفعه: «إذا زخرفتم مساجدكم وحلَّيتم مصاحفكم فالدبار عليكم»[٢].

قال المناوي[٣]: والذي عليه الشافعية أن تزويق المسجد ولو الكعبة بذهب أو فضة حرام مطلقًا، وبغيرهما مكروه [ويحرم مما وُقف عليه] وأن تحلية المصحف

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ٩٠.

(٢) سيأتي هذا الحديث في كتاب ذم الغرور.

(٣) فيض القدير ١/ ٣٦٦. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

بذهب يجوز للمرأة لا للرجل، وبالفضة يجوز مطلقًا.

(**ولقد كان يُعَدُّ**) إخراج الحصىٰ والرمل و(**فرش البواري**) جمع بورياء وهي الحصير، فارسية معرَّبة[١] (**في المسجد بدعة، وقيل: إنه من محدَثات الحجاج**) ابن يوسف الثقفي المشهور، كما رُوي[٢] أن قتادة سجد فدخلت في عينه قصبة، وكان ضريرًا، فقال: لعن الله الحجاج، ابتدع هذه البواري يؤذي بها المصلِّين (**وقد كان الأوَّلون**) من السلف (**قلَّما يجعلون بينهم وبين التراب حاجزًا**) ويستحبُّون السجود عليه تواضعًا لله تعالىٰ وتخشُّعًا وذلاًّ، وهذا الذي ذكره المصنف من بدع الأفعال، ويدخل[٣] في ذلك تشييد البناء بالجِصِّ والآجُرِّ، يقال: أول مَن طبخ الطين هامان، أمره به فرعون، ويقال: هو بناء الجبابرة، وكذلك النقوش والتزويق في السقوف والأبواب، سواء في المساجد أو البيوت، وكانوا يغضُّون عن النظر إلىٰ ذلك، غاب الأحنف بن قيس غيبة فرجع وقد خضَّروا سقف بيته وصفَّروه، فلما نظر إليه خرج من منزله، وحلف أن لا يدخله حتىٰ يقلعوا ذلك منه ويعيدوه كما كان.

وقال يحيىٰ بن يمان: كنت أمشي مع الثوري في طريق، فمررنا بباب منقوش مزوَّق، فنظرت إليه، فجذبني سفيان حتىٰ جُزْتُ، فقلت: ما تكره من النظر [إلىٰ هذا]؟ فقال: إنما بنوه ليُنظَر إليه، ولو كان كل مَن مر به لا ينظر إليه ما بنوه. فكأنه خشي أن يكون بنظره [إليه] معاونًا له علىٰ بنيانه.

(**وكذلك**) من محدَثات الأقوال (**الاشتغال بدقائق الجدل والمناظرة**) والتدقيق في القياس والتبحُّر فيها، وهذا (**من أجَلِّ علوم أهل الزمان**) وأرفعها قدرًا

---

(١) قال الزبيدي في تاج العروس ١٠/ ٢٥٤: «البوري والبورية والبورياء والباري والبارياء والبارية، كل ذلك: الحصير المنسوج، وفي الصحاح: التي من القصب، فارسي معرب، وقال الأصمعي: البورياء بالفارسية، وهو بالعربية باري وبوري».

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٩١.

(٣) السابق ١/ ٢٨٨ - ٢٨٩. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

لديهم (**ويظنون أنه**) أي الاشتغال به (**من أعظم القربات**) عند الله تعالىٰ (**وقد كان**) **ذلك عند الأوَّلين** (**من المنكَرات**) ويدخل في ذلك التبحُّرْ في علوم العربية والنحو، قال[1] بعض السلف: النحو يُذهِب الخشوع من القلب.

وقال بعضهم: من أراد أن يزدري الناس [كلهم] فليتعلم النحو.

وذُكِرت العربية عند القاسم بن مخيمرة، فقال: أولها كِبْر، وآخرها بغيٌ.

(**ومن ذلك**) أي من محدثات الأقوال: (**التلحين في**) قراءة (**القرآن**) حتىٰ لا تُفهَم التلاوة، وحتىٰ يتجاوز إعراب القرآن والكلمة بمدِّ المقصور وقصر الممدود وإدغام المُظهَر وإظهار المدغَم؛ ليستوي بذلك التلاحن، ولا يبالي باعوجاج الكَلِم وإحالته عن حقيقته، فهذا بدعة ومكروه استماعه. قال بشر بن الحارث: سألت عبد الله بن داود الخِرِّيبي: أمُرُّ بالرجل يقرأ فأجلس إليه؟ قال: يقول بطرب؟ قلت: نعم. قال: لا، هذا قد أظهر بدعته (و) من ذلك التلحين في (**الأذان**) وهو من البغي فيه والاعتداء، قال رجل من المؤذِّنين لابن عمر: إني لأحبك في الله تعالىٰ. فقال [له]: لكني أبغضك في الله تعالىٰ. قال: ولِمَ يا أبا عبد الرحمن؟ قال: لأنك تبغي في أذانك وتأخذ عليه أجرًا.

وكان أبو بكر الآجُرِّي يقول: خرجت من بغداد وما يحل لي المقام بها، قد ابتدعوا في كل شيء حتىٰ في قراءة القرآن وفي الأذان. يعني [قراءة] الإدارة والتلحين.

(**ومن ذلك**) أي من محدثات الأفعال: (**التعسُّف**) أي مجاوزة الحد (**في النظافة، والوسوسة في الطهارة، وتقدير الأسباب البعيدة في نجاسة الثياب**) والتشديد فيها بكثرة غسلها من عَرَق الجُنُب ولبس الحائض ومن أبوال ما يؤكل لحمه [وأرواثه] وغسل يسير الدم، ونحو ذلك، وكان السلف يرخِّصون في كل

(١) قوت القلوب ١/ ٢٨١ - ٢٨٣. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

هذا **(مع التساهل في حِلِّ الأطعمة وتحريمها)** وأمر المكاسب وترك التحرِّي فيها **(إلىٰ نظائر ذلك)** كالكلام فيما لا يعني، والخوض في الباطل، والغيبة، والنميمة، والاستماع إليهما، والنظر إلىٰ الزور، واللهو ومجالسة البطَّالين[1] والمشي في هوىٰ نفسه[2]، والتعصب، وشدة الحرص علىٰ الدنيا. فهذا كله تساهلوا فيه، وكان السلف والقدماء يشدِّدون فيه.

وقد اقتصر المصنف علىٰ هذا الذي أورده من ذِكر الحوادث والبدع، وهي كثيرة، ولم يذكر من بدع الحجاج إلا فرش البواري في المسجد، وهي كثيرة أيضًا، فلا بأس أن نلمَّ بما لم يذكره، فأقول:

من[3] جملة بدع الأقوال والأفعال قولهم: كيف أصبحتَ؟ وكيف أمسيتَ؟ هذا محدَث، إنما كانوا إذا التقوا قالوا: السلام عليكم ورحمة الله، وإنما حدث هذا زمان طاعون عَمْواس، كان الرجل يلقَىٰ أخاه غدوةً فيقول: كيف أصبحت من الطاعون؟ ويلقاه عشيةً فيقول: كيف أمسيت منه؟ لأن أحدهم كان إذا أصبح لم يَمْسِ، وإذا أمسىٰ لم يصبح، فبقي هذا إلىٰ اليوم ونُسي سببه، وكان مَن عرف حدوثه من المتقدمين يكره ذلك. قال رجل لأبي بكر بن عيَّاش: كيف أصبحت أو كيف أمسيت؟ فلم يكلمه، وقال: دَعُونا من هذه البدعة.

وروىٰ أبو معشر عن الحسن: إنما كانوا يقولون: السلام عليكم، سلمت واللهِ القلوبُ، فأما اليوم كيف أصبحتَ أصلحك الله؟ كيف أمسيت عافاك الله؟ فإن أخذنا بقولهم كانت بدعة ألا ولا كرامة، فإن شاءوا غضبوا علينا.

ومن هذا قولهم: الله معكم وقويت، وفي الخبر: «مَن بدأكم بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه».

---

(١) في المطبوعة: واللهو ومجالسه. والمثبت من القوت.

(٢) في القوت: والمشي في أسباب الهوىٰ.

(٣) قوت القلوب ١/ ٢٧٨ - ٢٩١ باختصار. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

ومن ذلك: الإشارة بالسلام باليد أو الرأس من غير نطقٍ به، فكل ذلك من المحدَثات.

ومن ذلك: ابتداء الرجل في عنوان الكتاب باسم المكتوب إليه، وإنما السنَّة أن يبتدئ بنفسه فيكتب: من فلان إلىٰ فلان، ويقال: أول مَن أحدثه زياد، فعابه العلماء عليه، وعدُّوه من إحداث بني أمية، وقد بقيت سنَّةُ هذا في كتب الأمراء والملوك [إلىٰ] اليوم.

ومنها: قول الرجل إذا جاء منزلَ أخيه: يا غلام أو يا جارية، فقد كان السلف يقرع أحدهم باب أخيه ثم يسلِّم ثلاثًا، يقف بعد كل تسليمة [هنيهةً] فإن أُذن له دخل، وقد لا يحب صاحب البيت أن يدخل عليه في ذلك الوقت لعذر أو سبب، فيقول: وعليكم السلام ورحمة الله، ارجع عافاك الله؛ فإني علىٰ شغل، فيرجع غير كارهٍ لرجوعه، غير مؤثِّر في قلبه من ذلك شيئًا، فربما رجع في اليوم مرتين أو ثلاثًا بعد ردِّه، وهذا لو فُعل ببعض الناس من أهل عصرنا لكرهه، ولعله لا يعود يومه ذلك، هؤلاء عامَّة الناس، وأما العلماء فكان من الناس مَن لا يستأذن عليهم إلا لمهمٍّ لا بدَّ منه، بل كانوا يقعدون علىٰ أبوابهم أو في مساجدهم ينتظرون خروجهم لأوقات الصلاة، إجلالاً للعلم وهيبةً للعلماء.

ومن ذلك: استقصاء أحدهم في المسألة عن حال الرجل وخبره، وقد كُره ذلك، وكان الأعمش يقول: يلقىٰ أحدُكم أخاه فيسأله عن كل شيء حتىٰ عن الدجاج في البيت، ولو سأله درهمًا ما أعطاه.

ومن ذلك قول الرجل لصاحبه إذا لقيه ذاهبًا في الطريق: إلىٰ أين تريد؟ أو من أين جئتَ؟ فقد كُره هذا، وليس من السنَّة و[لا] الأدب، وهو داخل في التجسس والتحسُّس.

ومن ذلك: بيع المصاحف وشراؤها، وكان بعضهم لبيعها أكره منه لشرائها.

ومن ذلك: أخذُ القرآن بالإدارة، وتنازُع الآيتين أو تنازع الرجلين الآيتين[1] في مكان واحد بمنزلة الاختلاس والنهبة من غير خشوع للقرآن ولا هيبة.

ومن ذلك: أخذُ المقرئ على الاثنين، وليته قام بقراءة الواحد لسهو القلب.

ومن ذلك: دخول النساء الحمَّام من غير ضرورة، ودخول الرجل بغير مِئْزَر، وهو فسوق، وقال بعض العلماء: يحتاج داخلُ الحمَّام إلىٰ مئزرينِ: مئزر لوجهه، ومئزر لعورته، وإلا لم يَسْلَم في دخوله.

ومنها: جلوس العلماء علىٰ الكراسي، وأول مَن قعد علىٰ كرسي يحيىٰ بن معاذ الرازي بمصر، وتبعه أبو حمزة ببغداد، فعاب الأشياخُ عليهما ذلك.

ومنها: جلوس العلماء متربِّعين في الدروس، إنما هي جلسة المتكبِّرين والنحويين وأبناء الدنيا، ومن التواضعِ الاجتماعُ في الجلسة.

ومن ذلك: طرحُ السنَّور والدابة علىٰ المزابل في الطرقات، فيتأذىٰ المسلمون بروائح ذلك، وكان شُرَيح وغيره إذا مات لهم سنور دفنوها في بيوتهم.

ومن ذلك: إخراج الميازيب [وصبُّها] إلىٰ الطرقات؛ فإنه بدعة، وكان أحمد ابن حنبل وأهل الورع يجعلون ميازيبهم إلىٰ داخل بيوتهم.

ومن ذلك: الصلاة في المقصورة، وهي أول بدعة أُحدثت في المساجد.

ومنها: كثرة المساجد في المحلة الواحدة، وقد كرهه أنس بن مالك وغيرُه من الصحابة.

ويقال: أول ما حدث من البدع أربع: الموائد، والمناخل، والأُشْنان، والشبع. وكانوا يكرهون أن تكون أواني البيت غير الخزف، ولا يتوضأون في آنية الصُّفْر.

---

(١) عبارة القوت: وتنازع الاثنين الآية أو تلقي الرجل للآيتين ... الخ.

ومن ذلك: لبسُ الثياب الرقاق، وكانوا يقولون: هي من لباس الفُسَّاق، ومَن رقَّ ثوبُه رق دينه، وهي من كتَّان مصر وقطن خراسان، وإنما كانت ثياب السلف السنبلاني والقطواني وعصب اليمن ومعافري مصر والقباطي مثل كسوة الكعبة والثياب السحولية [اليمانية] والكرابيس الحضرمية، وهذه غِلاظ كلها كثيفة، قليلة أثمانها(١).

ومن ذلك: البيع والشراء علىٰ الطريق، وكان الورعون لا يشترون شيئًا ممن قعد يبيعه علىٰ طريق، وكذلك إخراج الرواشن من البيوت، وتقديم العضائد بين يدي الحوانيت إلىٰ الطريق، وكذلك البيع والشراء من الصبيان؛ لأنهم لا يملكون، وكلامهم غير مقبول.

وأما منكَرات الحجاج ومحدَثاته التي صارت الآن معارف، فكان الشعبي يقول: يأتي علىٰ الناس زمان يصلُّون فيه علىٰ الحجاج. أي يترحَّمون عليه، وهذا قد أتىٰ منذ زمان؛ لأن الحجاج ابتدع أشياء أنكرها الناس عليه في زمانه، وهي اليوم سنن معروفة [وأعمال مستحسنة] يترحَّم الناس علىٰ مَن أحدثها، ويحسبون أنه مأجور عليها، ولأنه ظهرت بعده ولاة جور فابتدعوا بدعًا من الفسوق، فصارت سننًا بعدهم، فوجب بذلك الترحُّمُ علىٰ الحجاج إلىٰ جنب ما أظهروا [بعده] فمما أحدث: هذه المحامل والقباب التي خالف بها هدي السلف [بالتنعم والرفاهية] وإنما كان الناس يخرجون علىٰ الرواحل والزوامل لتكثر رفاهية إبلهم وينالوا أجر التعب، فصاروا يخرجون في بيوت ظليلة مع الحمل علىٰ الإبل ما لا تطيق فيكون سببًا لتلفها، وفيه يقول القائل(٢):

أول من اتخذ المحاملا عليه لعنة ربي عاجلاً وآجلا

---

(١) في القوت: وكانت الأثمان من خمسة دراهم إلىٰ ثلاثين درهما وما بين ذلك.

(٢) أورده الزبيدي في تاج العروس ٢٨/ ٣٤٦ ولم ينسبه، والرواية فيه: أخزاه ربي. قال محققه: عُزي في حواشي جمهرة اللغة لابن دريد إلىٰ حميد الأرقط.

وفي معناه الشقادف[١] والمسطحات.

وابتدع أيضًا الأخماس والعواشر ورؤوس الآي وحمر السواد وصفره وخضره، فأدخل في المصحف ما ليس فيه من الزخرف، وكان السلف يقولون: جَرِّدوا القرآن كما أنزله الله تعالىٰ، ولا تخلطوا به غيره. فأنكر العلماء عليه ذلك، حتىٰ قال أبو رزين: يأتي علىٰ الناس زمان ينشأ فيه نشءٌ يحسبون أن ما أحدث الحجاج في المصاحف هكذا أنزله الله تعالىٰ، يذمُّه بذلك. وكان ابن سيرين يكره النقط في القرآن. وقال فراس بن يحيىٰ: وجدت ورقًا منقوطًا بالنحو في سجن الحجاج، فعجبت منه، وكان أول نقط رأيته، فأتيت [به] الشعبي [فأخبرته] فقال لي: اقرأ عليه ولا تنقطه أنت بيدك.

ومنها: أنه جمع من القرَّاء ثلاثين رجلاً، فكانوا يعدُّون حروف المصحف وكَلِمَه شهرًا، ولو رآهم عمر أو عثمان أو علي يصنعون هذا لأوجعهم ضربًا، وهذا الذي كرهته الصحابة ووصفوا به قراء آخر الزمان أنهم يحفظون حروفه ويضيعون حدوده، وكان الحجاج أقرأ القراء وأحفظهم لحروف القرآن، كان يقرأ[٢] القرآن في كل ثلاث، وكان أضيع الناسِ لحدوده.

(**ولقد صدق ابن مسعود** رضي الله عنه**، حيث قال: أنتم اليوم في زمانٍ الهوىٰ فيه تابع للعلم، وسيأتي عليكم زمان يكون العلم فيه تابعًا للهوىٰ**) هكذا أورده صاحب القوت[٣]، قال: والمراد بالعلم هو نص القرآن والسنة أو ما دلاَّ عليه واستُنبط منهما أو وُجد فيهما اسمه ومعناه من قول وفعل، والتأويل إذا لم يخرج عن الإجماع داخلٌ في العلم، والاستنباط إذا كان مستودعًا في الكتاب يشهد له المجمل ولا ينافيه النصُّ فهو علم، والمراد من الهوىٰ ما عدا ذلك من العلوم.

---

(١) الشقادف جمع شقدف: وهو مركب أكبر من الهودج كان يستعمله العرب، وكان يركبه الحجاج إلىٰ بيت الله الحرام. المعجم الوسيط (مادة - شقدف).

(٢) في القوت: يختم.

(٣) قوت القلوب ١/ ٢٨٤.

(**وقد كان أحمد بن حنبل**) رحمه الله تعالىٰ (**يقول: تركوا العلم، وأقبلوا علىٰ الغرائب، ما أقل العلم فيهم، والله المستعان**) أورده صاحب القوت، إلا أنه قال: ما أقل الفقه فيهم.

وأخرج الخطيب في «شرف أصحاب الحديث»[١] فقال: حدثنا عبد العزيز بن [أبي] الحسن القرميسيني، حدثنا عبد الله بن موسىٰ الهاشمي، حدثنا ابن بدينا قال: سمعت المروزي يقول: سمعت أحمد بن حنبل يقول ... فساقه كسياق القوت، وليس في آخره: والله المستعان.

وأخرج أيضًا من رواية بشر بن الوليد قال: سمعت أبا يوسف يقول: لا تكثروا من الحديث الغريب الذي لا يجيء به الفقهاء وآخر أمر صاحبه أن يقال [له] كذَّاب.

(**وقال مالك بن أنس**) الإمام (**رحمه الله تعالىٰ: لم يكن الناس فيما مضىٰ يسألون عن هذه الأمور كما يسأل الناس اليوم، ولم يكن العلماء يقولون حلال ولا حرام**) في أكثر الأمور (**ولكن أدركتهم يقولون مكروه ومستحب**) وقد كان مالك كثير التوقُّف في الأجوبة إذا سُئل، ويُكثِر أن يقول: لا أدري، سَلْ غيري. وقال رجل لعبد الرحمن بن مهدي: ألا ترىٰ إلىٰ قول فلان في العلم حلال وحرام وقطعِه في الأمور بعلمه، يعني رجلاً من أهل الرأي، وإلىٰ قول مالك «أحسب، أحسب» إذا سُئل. فقال عبد الرحمن: ويحك! قول مالك «أحسب» أحب إليَّ من قول فلان: أشهد (**ومعناه أنهم كانوا ينظرون في دقائق الكراهة والاستحباب، فأما الحرام فكان تجنُّبه ظاهرًا**) بما كانوا يتكلمون فيه.

(**وكان هشام**[٢] **بن عروة**) بن الزبير بن العوام القرشي، أبو المنذر المدني، رأىٰ أنسًا وجابرًا وسهل بن سعد وعبد الله بن عمر بن الخطاب، ومسح رأسه ودعا

---

(١) شرف أصحاب الحديث ص ١٢٦ . والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٢) انظر ترجمته والاختلاف في وقت وفاته في تهذيب الكمال للمزي ٣٠/ ٢٣٢ - ٢٤١.

له، وكان صدوقًا، مات ببغداد عند أبي جعفر المنصور سنة سبع وأربعين ومائة (**يقول: لا تسألوهم اليوم عما أحدثوه بأنفسهم؛ فإنهم قد أعدُّوا له جوابًا، ولكن سَلُوهم عن السنَّة؛ فإنهم لا يعرفونها**) هكذا أورده صاحب القوت، إلا أنه ليس فيه: بأنفسهم، وفيه: سلوهم عن السنن.

وكان الشعبي إذا نظر [إلىٰ] ما أحدث الناس من الرأي والهوىٰ يقول: لقد كان القعود في هذا المسجد أحب إليَّ مما يعدل به، فمذ صار فيه هؤلاء المراؤون فقد بغَّضوا إليَّ الجلوس فيه، ولأنْ أقعد علىٰ مزبلة أحب إليَّ من أن أجلس فيه.

وكان يقول: ما حدثوك عن السنن والآثار فخذْ به، وما حدثوك بما أحدثوا من رأيهم فامخط عليه. وقال مرةً: فبُلْ عليه.

(**وكان أبو سليمان**) عبد الرحمن بن عطية (**الداراني** رحمه الله) تعالىٰ (**يقول: لا ينبغي لمَن أُلهم شيئًا من الخير أن يعمل به حتىٰ يسمع به في الأثر فيحمد الله تعالىٰ إذا وافق ما في نفسه**) هكذا أورده صاحب القوت، إلا أنه قال: إذا وافق، ولم يقل: ما في نفسه.

وقال بعض العارفين: ما قَبِلت خاطرًا من قلبي حتىٰ يقيم[1] لي شاهدَيْ عدلٍ من كتاب وسنَّة.

وقال سهل التستري: لا يبلغ العبدُ حقيقةَ الإيمان حتىٰ تكون فيه هذه الأربع: أداء الفرائض بالسنَّة، وأكل الحلال بالورع، واجتناب النهي من الظاهر والباطن، والصبر علىٰ ذلك إلىٰ الممات.

(**وإنما قال**) أبو سليمان (**هذا**) الذي ذكره (**لأن ما قد أُبدع**) وأُحدث (**من الآراء**) المختلفة (**قد قرع الأسماع، وعلق بالقلوب**) إلا مَن عصمه الله، كيف وقد

---

(١) في المطبوعة: يفتح. والمثبت من القوت.

قال ابن مسعود[(١)]: يظهر المنكَر والبدع، حتىٰ إذا غُيِّر منها [شيء] قيل: غُيِّرت السنَّة. وقال في آخر حديثه: أكيسُهم في ذلك الزمان الذي يروغ بدينه روغان الثعالب **(وربما يشوش صفاءَ القلوب فيتخيل بسببه الباطلَ حقًّا، فيحتاط فيه بالاستظهار بشهادة الآثار)** والسنن **(ولهذا لما أحدث مروان)** ولفظ القوت[(٢)]: وروينا أن مروان لمَّا أحدث **(المنبر في صلاة العيد عند المصلَّىٰ)** وهو مروان[(٣)] ابن الحكم بن أبي العاص الأموي، وُلد بعد الهجرة بسنتين، وليس يصح له سماع[(٤)]، وكان كاتبًا لعثمان، وولي إمرة المدينة لمعاوية والموسم، وبويع له بعد موت معاوية بن يزيد بن معاوية بالجابية[(٥)]، ومات بالشام[(٦)] سنة خمس وستين **(قام إليه أبو سعيد)** مالك بن سِنان **(الخدري** رضي الله عنه **فقال: يا مروان، ما هذه البدعة؟ فقال: إنها ليست ببدعة، هي خير مما تعلم، إن الناس قد كثروا، فأردتُ أن يبلغهم الصوتُ. فقال أبو سعيد: واللهِ، لا تأتوني)** ولفظ القوت: لا تأتون **(بخير مما أعلم أبدًا، وواللهِ لا صليت وراءك اليوم)** فانصرف ولم يصلِّ معه صلاة العيد، فالخطبة علىٰ منبرٍ في صلاة العيد وخطبة الاستسقاء بدعة.

(وإنما أنكر ذلك عليه) أبو سعيد علىٰ مروان **(لأن النبي ﷺ كان يتوكَّأ في خطبة العيد والاستسقاء علىٰ قوس أو عصا لا علىٰ المنبر)** روىٰ أبو داود[(٧)] من

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٩١.

(٢) السابق ١/ ٢٨٦.

(٣) انظر ترجمته في تهذيب الكمال ٢٧/ ٣٨٧ - ٣٨٩.

(٤) يعني من النبي ﷺ.

(٥) الجابية: موقع تاريخي يقع الآن علىٰ بعد ٥ كم غرب مدينة نوىٰ في سهل حوران بمحافظة درعا بجنوب سوريا علىٰ الطريق الواصل بين الجنوب السوري ودمشق.

(٦) في تهذيب الكمال: مات بدمشق في رمضان سنة خمس وستين وهو ابن ثلاث وستين، وقيل: ابن إحدىٰ وستين، وكانت خلافته تسعة أشهر، وقيل: عشرة إلا أياما.

(٧) سنن أبي داود ٢/ ١٠٤.

رواية شعيب بن رُزَيق الطائفي قال: جلست إلىٰ رجل له صحبة يقال له الحكم ابن حَزْن الكُلَفي[١]، فأنشأ يحدثنا ... فذكر حديثًا فيه: فأقمنا بها أيامًا شهدنا فيها الجمعة مع النبي ﷺ، فقام يتوكَّأ علىٰ عصا أو قوس، فحمد الله وأثنىٰ عليه.

وروىٰ الطبراني في الصغير[٢] من رواية عبد الرحمن بن سعد [بن] عمار بن [سعد] القرظ قال: حدثني أبي عن جدي عن أبيه سعد أن رسول الله ﷺ كان إذا خطب في العيدين خطب علىٰ قوس، وإذا خطب في الجمعة خطب علىٰ عصا.

ورواه ابن ماجه[٣] بلفظ: كان إذا خطب في الحرب خطب علىٰ قوس، وإذا خطب في الجمعة خطب علىٰ عصا.

ورواه الحاكم في المستدرك[٤] من رواية عبد الرحمن بن عمار بن سعد القرظ قال: حدثني أبي عن جدي أن رسول الله ﷺ ... فذكر حديثًا طويلاً فيه: وكان إذا خطب في الحرب خطب علىٰ قوس، وإذا خطب في الجمعة خطب علىٰ عصا.

وروىٰ الطبراني في الكبير[٥] من رواية أبي جناب الكلبي قال: حدثني يزيد بن البراء عن أبيه قال: كنا جلوسًا ننتظر النبي ﷺ يوم أضحىٰ ... إلىٰ أن قال: ثم أُعطي قوسًا أو عصا، فاتَّكأ عليها ... الحديث؛ قاله العراقي والحافظ ابن حجر.

قلت: وبمثل رواية الحاكم وأبي داود أخرجه البيهقي في السنن[٦].

---

(١) نسبة إلىٰ كلفة، وهو بطن من تميم. الأنساب للسمعاني ٥/ ٨٨. التاريخ الكبير للبخاري ٢/ ٣٣١.

(٢) المعجم الصغير ٢/ ٢٨٣.

(٣) سنن ابن ماجه ٢/ ٣٠٨.

(٤) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٧٢٠. ولم أقف فيه علىٰ اللفظ الذي ذكره الشارح، بل فيه: وكان يخرج إلىٰ العيدين ماشيًا ويرجع ماشيًا، وكان يكبر بين أضعاف الخطبة، ويكثر التكبير في الخطبة ويخطب علىٰ عصا.

(٥) المعجم الكبير ٢/ ٢٤.

(٦) السنن الكبرىٰ للبيهقي ٣/ ٢٩٢.

وأخرج الشافعي في مسنده[١] في باب إيجاب الجمعة عن عطاء مرسلاً: كان إذا خطب يعتمد علىٰ عَنَزة أو عصا.

قال ابن القيم[٢]: ولم يُحفَظ عنه ﷺ أنه توكَّأ علىٰ سيف، خلافًا لبعض الجهلة.

(وفي الحديث المشهور) علىٰ الألسنة: **(مَن أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رَدٌّ)** أخرجه البخاري[٣] ومسلم[٤] وأبو داود[٥] وابن ماجه[٦] من رواية سعد بن إبراهيم عن القاسم عن عائشة عن النبي ﷺ بلفظ: في أمرنا ما ليس منه. وقال أبو داود: ما ليس فيه[٧]. وفي رواية لمسلم: مَن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ؛ قاله العراقي.

قلت: الذي في روايتهم: في أمرنا هذا.

وقوله: ردٌّ، أي مردود.

وهذا الحديث معدود من أصول الإسلام، وقاعدة من قواعده، قال

---

(١) مسند الشافعي ص ٢٣ ونصه: «أخبرنا عبد المجيد بن عبد العزيز، عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: أكان النبي ﷺ يقوم علىٰ عصا إذا خطب؟ قال: نعم، كان يعتمد عليها اعتمادًا».

(٢) زاد المعاد ١/ ١٨٢ - ١٨٣ ونصه: «ولم يحفظ عنه أنه توكأ علىٰ سيف، وكثير من الجهلة يظن أنه كان يمسك السيف علىٰ المنبر إشارة إلىٰ أن الدين إنما قام بالسيف، وهذا جهل قبيح من وجهين، أحدهما: أن المحفوظ أنه ﷺ توكأ علىٰ العصا وعلىٰ القوس. الثاني: أن الدين إنما قام بالوحي، وأما السيف فلمحق أهل الضلال والشرك، ومدينة النبي ﷺ التي كان يخطب فيها إنما فتحت بالقرآن ولم تفتح بالسيف».

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٢٦٧.

(٤) صحيح مسلم ٢/ ٨٢١.

(٥) سنن أبي داود ٥/ ١٩٢.

(٦) سنن ابن ماجه ١/ ٥١.

(٧) وفي رواية أخرىٰ له: من صنع أمرا علىٰ غير أمرنا فهو رد.

النووي[1]: ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكَرات.

(وفي حديث آخر: مَن غشَّ أمتي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. قيل: يا رسول الله، وما غشُّ أمتك؟ قال: أن يبتدع بدعة يحمل الناسَ عليها) هكذا أورده صاحب القوت[2]، وقال العراقي والسيوطي[3]: أخرجه الدارقطني في الأفراد[4] من رواية المنكدر بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ ... فذكره، إلا أنه قال: قيل: يا رسول الله، وما الغش؟ قال: أن يبتدع لهم بدعة ضلالة فيعملوا بها. قال الدارقطني: غريب من حديث محمد بن المنكدر عن أنس، تفرَّد به ابنه المنكدر.

(وقال النبي ﷺ: إن لله ﷻ مَلَكًا ينادي كلَّ يوم: مَن خالف سنَّة محمد ﷺ لم يَنَلْ شفاعتَه) قال العراقي: لم أقف له على أصل[5].

قلت: أورده هكذا صاحب القوت[6] بلفظ: وروينا عن النبي ﷺ، وفيه: مَن خالف سنة رسول الله ﷺ لم تَنَلْه شفاعة رسول الله. وفي بعض النسخ: لم تنله شفاعتُه. ووجدت بخط بعض المحدِّثين ما نصه: رواه الخطيب في أثناء حديث بسند فيه مجهول، وقال الذهبي: هو خبر كذب.

(ومثال الجاني على الدين بإبداع) أي إحداث (ما يخالف السنَّة) الماضية (بالنسبة إلى من يذنب ذنبًا مثال) ولفظ القوت: ومثل من ابتدع في الملَّة[7] مخالفًا

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٢/ ٢٤ ونصه: «هذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به». وانظر: فيض القدير للمناوي ٦/ ٣٦.

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٩٥.

(٣) كنز العمال ١/ ٢٢١.

(٤) أطراف الغرائب والأفراد لابن القيسراني ١/ ٢٤٤.

(٥) في المغني ١/ ٤٦: لم أجد له أصلا.

(٦) قوت القلوب ١/ ٢٩٥.

(٧) في المطبوعة: الأمة. والمثبت من القوت.

لطريق الأئمَّة إلىٰ مَن أساء بالذنوب إلىٰ نفسه مثل (**مَن عصىٰ الملك في قلب دولته**) وتظاهَرَ عليه في مُلْكه بالإزالة (**بالنسبة إلىٰ من**) ولفظ القوت: إلىٰ جنب مَن (**خالف أمره في خدمة معيَّنة**) ولفظ القوت: من عصىٰ أمره وقصَّر في حقه من الرعية (**وذلك قد يُغفَر، فأما في قلب الدولة فلا**) وقد قال [بعض] الحكماء: ثلاث من الملك لا يحسن أن يغفرها: من قلب دولة من رعيته، أو عمل فيما يوهن المُلْك، أو أفسد حرمة من حرمه.

(**وقال بعض العلماء: ما تكلم فيه السلف فالسكوت عنه جفاء، وما سكت عنه السلف فالكلام فيه تكلُّف**) هكذا أورده صاحب القوت. والتكلف: أن يتأوَّل السنن بالرأي والمعقول، أو ينطق بما لم يسبق إليه السلفُ من القول أو بمعناه.

(**وقال آخَر: الحق ثقيل، مَن جاوزه ظلم، ومن قصَّر عنه عجز، ومَن وقف معه اكتفىٰ**) هكذا أورده صاحب القوت. والمراد بالوقوف معه: أن يدور معه حيث دار، ولا يتعدَّىٰ عن حدوده فيُفرِط، ولا يقصِّر عن قبوله فيفرِّط.

(**وقال ﷺ: عليكم بالنمط الأوسط الذي يرجع إليه العالي، ويرتفع إليه التالي**) قال العراقي: لم أجده مرفوعًا، وإنما هو موقوف علىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رواه أبو عبيد في غريب الحديث[1] بلفظ: خير هذه الأمَّة النمط الأوسط، يلحق بهم التالي، ويرجع إليهم الغالي. ورجال إسناده ثقات، إلا أن فيه انقطاعًا.

قلت: والمصنف أخذه من القوت، ولفظه: وقال علي كرَّم الله وجهه ... فساقه.

وأورده الجوهري في الصحاح[2] فقال: وفي الحديث ... فساقه كسياق أبي عبيد.

---

(١) غريب الحديث ٤/ ٣٧٥ (ط - مجمع اللغة العربية بالقاهرة).

(٢) الصحاح ٣/ ١١٦٥ وفسر النمط بقوله: الجماعة من الناس أمرهم واحد.

وقد جاء في حديث مرفوع: «خير الناس هذا النمط الأوسط»، وقد ذكرتُه في شرح القاموس[١].

وأخرج أبو نعيم في الحلية[٢] من رواية إسماعيل بن عبد الكريم قال: حدثني عبد الصمد، سمعت وهبًا يقول: إن لكل شيء طرفين ووسطًا، فإذا أمسكتَ بأحد الطرفين مال الآخَرُ، وإذا أمسكت بالوسط اعتدل الطرفان. ثم قال: عليكم بالأوسط من الأشياء.

والنَّمَط: الطريقة، يقال: الزمْ هذا النمطَ، أي هذا الطريق[٣].

والغالي، إن كان بالغين المعجمة فمن الغلوِّ وهو التجاوز والإفراط، وإن كان بالعين المهملة فمن العلو بمعنىٰ ارتفاع الشأن. والتالي: مَن تلاه. وقال أبو عبيد: معنىٰ قول عليٍّ أنه [كره] الغلو والتقصير في الدين إذا تبعه[٤].

(**وقال ابن عباس ﷺ: إن الضلالة لها حلاوة في قلوب أهلها، قال الله تعالىٰ:** ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [الأنعام: ٧٠] **وقال تعالىٰ:** ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]) هكذا أورده صاحب القوت[٥] بلفظ: إن للضلالة حلاوة. وزاد في آخره: كما قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ

---

(١) تاج العروس ٢٠/ ١٥٣.

وانظر: النهاية لابن الأثير ٥/ ١١٩.

(٢) حلية الأولياء ٤/ ٤٥.

(٣) بعده في غريب الحديث: «والنمط أيضا: الضرب من الضروب والنوع من الأنواع، يقال: ليس هذا من ذاك النمط، أي من ذلك النوع، يقال هذا في المتاع والعلم وغير ذلك».

(٤) عبارة أبي عبيد: «والمعنىٰ الذي أراد علي: أنه كره الغلو والتقصير، كالحديث الآخر حين ذكر حامل القرآن فقال: غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، فالغالي فيه هو المتعمق حتىٰ يخرجه ذلك إلىٰ إكفار الناس كنحو من مذهب الخوارج وأهل البدع، والجافي عنه: التاريك له وللعمل به، ولكن القصد من بين ذلك».

(٥) قوت القلوب ١/ ٢٩٧.

مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧] فالعلم - رحمك الله - هو الذي كان عليه السلف الصالح المقتفىٰ آثارهم، والخَلَف التابع المقتدَىٰ بهديهم، وهم الصحابة أهل السكينة والرضا ثم التابعون لهم بإحسان من أهل الزهد والنُّهَىٰ، والعالِم هو الذي يدعو الناس إلىٰ مثل حاله حتىٰ يكونوا مثله، فإذا نظروا إليه زهدوا في الدنيا لزهده فيها.

(فكل ما أُحدث) وابتُدع (بعد) عصر (**الصحابة**) والتابعين لهم بإحسان (**مما جاوز قَدْرَ الضرورة والحاجة فهو من اللعب واللهو**) داخل في منطوق الآية الكريمة.

(**وحُكي عن إبليس لعنه الله تعالىٰ أنه بثَّ جنودَه**) أي نشر أعوانه (**في وقت الصحابة رضوان الله عليهم**) ليغووهم (**فرجعوا إليه محسورين**) ممنوعين، لم يقدروا علىٰ فعل شيء من الإغواء. ولفظ القوت: محصورين، بالصاد المهملة (**فقال: ما شأنكم؟ فقالوا: ما رأينا مثل هؤلاء**) القوم (**ما نصيب منهم شيئًا، وقد أتعبونا. فقال**) إبليس: (**إنكم لا تقدرون عليهم**) إنهم (**قد صحبوا نبيَّهم، وشهدوا تنزيل الوحي**) ولفظ القوت: تنزيل ربهم (**ولكن سيأتىٰ بعدهم قومٌ تنالون منهم حاجتكم. فلما جاء التابعون**) أي عصرُهم (**بثَّ جنوده**) فيهم (**فرجعوا إليه**) منكسرين (**منكَّسين**) ولفظ القوت: منكوسين (**فقالوا**) ولفظ القوت: فقال: ما شأنكم؟ قالوا: (**ما رأينا أعجب من هؤلاء**) القوم (**نصيب منهم الشيءَ بعد الشيء من الذنوب، فإذا كان**) من (**آخر النهار أخذوا في الاستغفار، فيبدِّل الله سيئاتهم حسنات. فقال: إنكم لن تنالوا من هؤلاء شيئًا؛ لصحة توحيدهم، واتِّباعهم لسنَّة نبيهم، ولكن سيأتي بعد هؤلاء قوم تقرُّ أعينُكم بهم، تلعبون بهم لعبًا، وتقودونهم بأزِمَّة أهوائهم كيف شئتم، إن استغفروا لم يُغفَر لهم، ولا يتوبون فيبدِّل الله سيئاتهم حسنات. قال: فجاء قوم بعد القرون الأُوَل**) كذا لفظ القوت، وفي بعض النسخ: بعد القرن الأوَّل (**فبثَّ فيهم الأهواء**) وحسَّنها لهم (**وزيَّن لهم البدع فاستحلوها**) بتشديد اللام وبتخفيفها (**واتخذوها**) أي تلك البدع (**دينًا**) وطريقة (**لا يستغفرون الله**

منها، ولا يتوبون) إلىٰ الله تعالىٰ (عنها) قال: (فسلط) كذا في النسخ، ولفظ القوت: فتسلَّطت (عليهم الأعداء وقادوهم أين شاءوا) هكذا ساق هذه الحكايةَ بطولها صاحبُ القوت، وهي دالة علىٰ أن الإحداث والابتداع في الدين ضلالة وإضلال وفساد وإفساد، وقد ورد في ذلك أحاديث وآثار ما ساقها المصنف مما هو في الحلية لأبي نعيم والقوت لأبي طالب والسنَّة للالكائي وغيرها، ولو استوفينا الكلَّ لطال علينا الكتاب وامتلأ، ولكن اقتصرنا علىٰ تبيين ما أورده المصنف فقط.

(فإن قلتَ: من أين عرف قائل هذا ما قاله) أي هذه الحكاية التي أوردها عن (إبليس) من أين مأخذها (و) ذلك أنه معلوم قطعًا بأنه (لم يشاهد إبليس ولا حديثه بذلك) في نشر جنوده؟ (فاعلمْ أن) هذا وأمثاله يُعَدُّ في جملة مكاشَفات أرباب القلوب؛ لأن (أرباب القلوب) الصافية (يكاشَفون بأسرار الملكوت) ويشاهدونها. والملكوت: ما بطن من الكون، ولا تدركه الحواسُّ الخمس، ولا يقبل القسمةَ والتجزُّؤ، ويقابله المُلْك، ويعبَّران بالغيب والشهادة أيضًا (تارةً علىٰ سبيل الإلهام) الربَّاني (بأن يخطر لهم علىٰ سبيل الورود عليهم من حيث لا يعلمون) وهو صنف من أصناف الوحي الثلاثة (وتارةً علىٰ سبيل الرؤيا الصادقة) في النوم، وهو أيضًا صنف من أصناف الوحي التسعة (وتارةً في اليقظة علىٰ سبيل كشف المعاني بمشاهدة الأمثلة) وذلك[1] أن الإنسان إنما ارتقىٰ من قوة الحس إلىٰ قوة التخيُّل، ومنها إلىٰ قوة الفكر، ومنها إلىٰ إدراك حقائق الأمور التي في العقل، وهذه القوىٰ متصلة اتصالاً روحانيًّا، فربما عرض لها من قوة قبول بعضها من بعض الآثار أن تنعكس في بعض الأمزجة منحطة كما تصاعدت علىٰ سبيل الفيض، فيؤثِّر حينئذٍ العقلُ في القوة الفكرية، والقوةُ الفكرية في القوة المتخيِّلة، وتؤثر القوة المتخيلة في الحس، فيرىٰ الإنسان أمثلة الأمور المعقولة - أعني حقائق الأشياء ومبادئها وأسبابها - كأنها خارجة عنه، وكأنه يراها ببصره ويسمعها بأذنه (كما يكون في

---

(١) الفوز الأصغر لأبي علي ابن مسكويه ص ١٠١ (ط - مكتبة الحياة ببيروت) بتصرف. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

المنام) أي كما أن النائم يرىٰ أمثلة الأشياء المحسوسة في القوة المتخيلة ويظن أنه يراها من خارج، وربما كانت صحيحة مبشِّرة أو منذِرة في المستأنَف، وربما رأىٰ الأمور بأعيانها من غير تأويل، وربما رآها مرموزة تحتاج إلىٰ تأويل، كذلك حال هذا المستيقظ إذا استقرت فيه[1] هذه القوة الغالبة أخذته عن المحسوسات حتىٰ كأنه غائب عنها، فيشاهد في القوة المتخيلة ما انحدر إليها من علو الخفاء بإرادة الله إياه إلىٰ العقل، ومن العقل إلىٰ الفكر، ومن الفكر إلىٰ المتخيلة [فيرىٰ] ويسمع ما لا يشك فيه، و[لأن] تلك الأمور ليست في زمان، فمستقبلها وماضيها واحد؛ لأنها حاضرة معًا، فالأمور لائحة فيه له، فيشاهد مستقبلها كما يشاهد ماضيها، فإذا أخبر بها كانت صحيحة، وكانت وحيًا. والله أعلم **(وهذا أعلىٰ الدرجات)** لأنه من مقام الإنباء، وهو غاية شرف الإنسانية والأفق الأعلىٰ منه، فلم يبقَ له الارتقاء من هذا المقام بسعيه وجهده، بل تنحط إليه الأمور الإلهية والجذبات الربانية وحيًا وإلهامًا **(وهي من درجات النبوة العالية)** الشأن والقَدْر **(كما أن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة)** أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه عن ابن عمر، والإمام أحمد أيضًا عن ابن عباس، ولفظهم: الرؤيا الصالحة. وقد تقدم تخريج هذا الحديث في أول الكتاب.

واعلم[2] أن الإنسان إذا جعل أقصىٰ سعيه بما يستفيده من حواسه ترقية قواه إلىٰ ما يقرِّب من الرب عَزَّوَجَلَّ بطريق الرياضات النفسانية والمجاهدات الشرعية أيَّده الله تعالىٰ بحقيقة الضد، واستُكملت صورة الإنسانية فيه، وتصورت نفسه بحقائقها الأشياء، فيبلغ هذه المرتبة متصاعدًا فيها إلىٰ غاية أُفُقه التي إن تجاوزها لم يكن إنسانًا بل صار مَلَكًا كريمًا إلىٰ أن تدركه العناية الأزلية، وتهب نفحات ألطاف الحق، فتنخرق الحُجُب النورانية، ويشاهد الأنوار الربانية، ويتقوَّىٰ بقوة لم تكن

---

(١) في الفوز: إذا استغرقته.

(٢) منارات السائرين ومقامات الطائرين لنجم الدين دايه ص ٩٧ (ط - دار سعاد الصباح بالكويت).

في استعداد الإنسان مجبولة تسمَّىٰ خفيًّا؛ لأنها كانت متمكنة لم يخرجها من القوة إلىٰ الفعل إلا سطوات الأنوار الربَّانية، فبالارتقاء إلىٰ مقام الخفيِّ يستعد للترقِّي من أواخر الأفق الإنساني إلىٰ أوائل آفاق ما فوقها، فيستعد لقبول الفيض الرباني بلا واسطة، وهذا مقام الإنباء بأن ينبئه الحق تعالىٰ بإراءة آياته في آفاق نفسه عما يشاء كما يشاء، إما الأولياء بالإلهام، وإما الأنبياء بالوحي، بحسب استعداد كل واحد منهم، وقد ذكرنا آنفًا أن الإلهام صنف من أصناف الوحي الثلاثة، والرؤيا الصادقة صنف من أصناف الوحي التسعة، فربما تتشوَّف نفسك إلىٰ معرفة ذلك تفصيلاً، فاعلم[1] أن الله جل شأنه جعل أقسام كلامه مع عباده ثلاثة: وحيًا بلا واسطة، وكلامًا من وراء حجاب، وإرسال الرسول وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وغيره من الملائكة، ثم جعل أصناف الوحي ثلاثة: وحيًا للعجماء بالإجراء والتسخير، ووحيًا للأولياء بالإلهام، ووحيًا للأنبياء تارةً بواسطة وتارةً بغير واسطة، ولكل ذلك أمثلة وأدلة ليس هذا محل ذِكرها. وقال بعض الحكماء الإسلاميين[2]: إن أصناف الوحي يجب أن تكون بعدد أصناف قوىٰ النفس، وذلك أن الفيض الذي يأتي النفسَ إما أن تقبله بجميع قواها أو ببعضها، وقوىٰ النفس تنقسم إلىٰ قسمين وهما الحس والعقل، وكل واحد من هذين [القسمين] ينقسم إلىٰ أقسام كثيرة، وأقسامها إلىٰ أقسام كثيرة حتىٰ ينتهي إلىٰ الجزئيَّات التي لا نهاية لها، وإنما غرض هذا الانقسام بحسب الآلات والمدرَكات الكثيرة، فأما قواها التي هي الحواس فمنها ما هو في أفق [النبات، ومنها ما هو في أفق] الحيوان البهيمي، ومنها ما هو في أفق الإنسان، وأعلاها مرتبةً ما هو في أفق الإنسان، أعني حس البصر والسمع ... إلىٰ آخر ما ذكره وأيَّد به قوله، وأما ما جاء علىٰ لسان العلم من أصناف الوحي علىٰ نبيِّنا ﷺ فمنها الرؤيا الصالحة، ومنها ما يبدو في اليقظة فيسمع صوتًا أو يرىٰ ضوءًا، ومنها ما يرىٰ مَلَكًا فيكلِّمه، ومنها ما

---

(١) منارات السائرين ومقامات الطائرين ص ١٠٣ - ١١١ باختصار. والزيادات التي بين حاصرتين منه. وسيعيده الشارح ثانية بأبسط من هذا السياق في الباب السابع.

(٢) هو ابن مسكويه في كتابه سابق الذكر الفوز الأصغر ص ١١٦.

يظهر المَلَكُ في أفق الفلكية، ومنها ما ينفث المَلَكُ في الروع، ومنها ما نزل به جبريل علىٰ قلبه، ومنها ما يلقيه الله في القلب من غير واسطة، ومنها ما يأتي المَلَك متمثِّلاً في صورة إنسان، ومنها ما كان سرًّا بينه وبين ربه فلم يحدِّث به أحدًا، ومنها ما يحدِّث به الناسَ، وذلك علىٰ صنفين، فمنه ما كان مأمورا بكَتْبه قرآنًا، ومنه ما لم يكن مأمورًا بكَتْبه قرآنًا فلم يكن قرآنًا. والله أعلم.

(**فإياك**) أيها السامع لِما أوردناه (**أن يكون حظك**) ونصيبك (**من هذا العلم**) الذي حملتَه في باطنك (**إنكار**) كل (**ما جاوز حدَّ قصورك**) وتعدَّىٰ عن طَوْر فهمك (**ففيه هلك المتحذلقون من العلماء**) أي المتكيِّسون، والحذلقة والتحذلُق: التصرُّف بالظَّرْف، وقيل: المتحذلِق: هو الذي يريد أن يزداد علىٰ قَدْره، وإنه ليتحذلق في كلامه ويتبلتع، أي يتظرَّف ويتكيَّس[1] (**الزاعمون أنهم أحاطوا**) علىٰ المعلومات بأسرها (**بعلم المعقول**) ولو وكل ما لا يحيط به إدراكُه إلىٰ علم الله تعالىٰ لكان أحسن الحالين له (**فالجهل خير من عقل يدعو**) ويتسبَّب (**إلىٰ إنكار مثل هذه الأمور لأولياء الله تعالىٰ**) لأن أشرف أقوال الجاهلين التسليم والتفويض لِما لا يعلمون، وهو أقل أحوال العالِمينَ، فبالنظر إلىٰ ذلك كان بعض الجهل خيرًا من العلم (**ومَن أنكر ذلك لأولياء الله تعالىٰ**) ولم يُثبِت لهم ذلك (**لزمه إنكارُ الأنبياء**) لأن طريق الفيض واحد، وإنما يختلف تلقِّيه بحسب الاستعدادات، فما كان للأنبياء فهو للأولياء مع مباينة الاستعداد، ما عدا مرتبة النبوة التي لا يلحقها لاحقٌ، ولا يشق غبارها سابقٌ، فإنكار ما للأولياء يورثه الإنكارَ لما للأنبياء (**و**) متىٰ ارتسم ذلك في صورته الطبيعية رُدَّ إلىٰ أرذل الأحوال و(**كان خارجًا عن**) ربقة (**الدين بالكلية**) وهذا يسقط معه الكلام.

(**قال بعض العارفين: إنما انقطع الأبدال في أطراف الأرض واستتروا عن أعين الجمهور**) ولفظ القوت[2]: ويقال: إن الإبدال إنما انقطعوا في أطراف

---

(١) تاج العروس ٢٥/ ١٤٨.

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٩٨.

الأرض، واستتروا عن أعيُن الجمهور (**لأنهم لا يطيقون النظر إلىٰ علماء الوقت**) ولا يصبرون علىٰ استماع كلامهم (**لأنهم عندهم جُهَّال بالله تعالىٰ**) أي العلماء عند الأبدال (**وهم**) أي العلماء (**عند أنفسهم وعند الجاهلين**) والعامَّة (**علماء**) وقد ذكر السادة الصوفية أن الأبدال في كل زمن سبعة لا يزيدون، كل واحد في إقليم، والأوتاد أربعة لا يزيدون، والنجباء ثمانية لا يزيدون، والنقباء اثنا عشر لا يزيدون، ولكل هؤلاء أحوال ليس هذا محل ذِكرها(١). قال صاحب القوت: وقد صاروا من أهل الجهل [وأهل الجهل] بالجهل علىٰ الوصف الذي (**قال**) أبو محمد (**سهل التستري رحمه الله تعالىٰ: إن من أعظم المعاصي الجهل بالجهل**) أي أن يجهل أنه

(١) ذكرهم المناوي في كتابه التوقيف علىٰ مهمات التعاريف ص ٣٦، ٦٦، ٣٢٢، ٣٢٩ وذكر أحوالهم تفصيلا فقال: **الأبدال**: جمع بدل، وهم طائفة من الأولياء. قال أبو البقاء: كأنهم أرادوا أنهم أبدال الأنبياء وخلفاؤهم، وهم عند القوم سبعة لا يزيدون ولا ينقصون، يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة، لكل بدل إقليم فيه ولايته، منهم واحد علىٰ قدم الخليل عليه السلام وله الإقليم الأول، والثاني علىٰ قدم الكليم عليه السلام، والثالث علىٰ قدم هارون عليه السلام، والرابع علىٰ قدم إدريس عليه السلام، والخامس علىٰ قدم يوسف عليه السلام، والسادس علىٰ قدم عيسىٰ عليه السلام، علىٰ ترتيب الأقاليم، وهم عارفون بما أودع الله تعالىٰ في الكواكب السيارة من الأسرار والحركات والمنازل وغيرها، ولهم من الأسماء أسماء الصفات، ولكل واحد بحسب ما تعطيه حقيقة ذلك الاسم الإلهي من الشمول والإحاطة، ومنه يكون تلقيه. **الأوتاد**: أربعة كل زمن، لا يزيدون ولا ينقصون. قال ابن عربي: رأيت رجلا منهم بمدينة فاس بنخل الحناء بالأجرة اسمه ابن جعد، وأن أحدهم يحفظ الله به المشرق وولايته فيه، والآخر المغرب، والآخر الجنوب، والآخر الشمال، ويعبر عنهم بالجبال، فحكمهم في العالم حكم الجبال في الأرض، وألقابهم في كل زمن: عبد الحي، وعبد الحليم، وعبد القادر، وعبد المريد. **النجباء**: ثمانية في كل زمن لا يزيدون ولا ينقصون، عليهم أعلام القبول في أحوالهم، ويغلب عليهم الحال بغير اختيارهم، أهل علم الصفات الثمانية، ومقامهم الكرسي لا يتعدونه ما داموا نجباء، ولهم القدم في علم تسيير الكواكب كشفاً واطلاعاً لا من جهة طريقة علماء هذا الشأن، والنقباء هم الذين جازوا علم الفلك التاسع. **النقباء في الأرض**: اثنا عشر نقيباً في زمن، لا يزيدون ولا ينقصون بعدد بروج الفلك، كل نقيب عالم بخاصية برج وبما أودع فيه من الأسرار والتأثيرات وما يعطىٰ للنزلاء فيه من الكواكب السيارة والثابتة، ولهم علوم الشرائع المنزلة، واستخراج خبايا النفوس وغوائلها، ومعرفة مكرها وخدعها، ويعرفون من إبليس ما لا يعرفه من نفسه، وإذا رأىٰ أحدهم أثر وطأة شخص بالأرض علم أهو سعيد أم شقي.

يجهل، فجهله بسيط. وقد تم كلام سهل، ثم ابتدأ صاحبُ القوت فقال: **(والنظر إلىٰ)** أحوال **(العامَّة، واستماع كلام أهل الغفلة)** أيسر عندهم، أي عند الأبدال؛ لأنهم لا يعدمون ذلك، حيث كانوا من أطراف الأرض. وقد ظهر لك مما تقدم أن كلام سهل التستري «من أعظم المعاصي الجهل بالجهل» هو هذا القَدْر، وأما ما بعده فإنه من إيراد صاحب القوت، وظن المصنفُ كلَّه من كلام سهل، فأورد الجُمَل الثلاث معًا، وحذف الخبر الذي هو قوله «أيسر عندهم»، فليُتفطَّن لذلك، وهذا لا يعرفه إلا مَن أطلعه الله تعالىٰ علىٰ مآخذ عبارات المصنف **(وكل[1] عالم)** ناطق بظواهر العلوم **(خاض في)** أمور **(الدنيا)** محب لها فإنه آكل للمال بالباطل، وكل مَن أكل أموال الناس بالباطل فإنه يصد عن سبيل الله لا محالة وإن لم يظهر ذلك في مقاله، ولكنَّا نعرفه في لحن معناه بدقائق الصد عن مجالسة غيره، وبلطائف المنع من طرقات الآخرة **(فلا ينبغي أن يُصغَىٰ)** أي تُمال الأذن **(إلىٰ)** استماع **(قوله، بل ينبغي أن يُتهَم في كل ما يقول؛ لأن كل إنسان)** إنما **(يخوض فيما أحب)** ومالت إليه نفسه **(ويدفع ما لا يوافق محبوبه)** فحب الدنيا وغلبة الهوىٰ يحكمان عليه بالصد عن سبيل الحق، شاء أمْ أبىٰ **(ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝﴾** [الكهف: ٢٨]) أي مضيَّعًا متهاونًا به. وقال أبو عبيدة: أي ندمًا، وقيل: سَرَفًا[2] **(والعوام)** من الناس **(العصاة أسعد**

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٤٤.

(٢) الذي في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٩٨ (ط - مكتبة الخانجي بالقاهرة): «أي سرفا وتضييعا». وقال القرطبي في تفسيره ١٣/ ٢٥٩: «قيل: هو من التفريط الذي هو التقصير وتقديم العجز بترك الإيمان. وقيل: من الإفراط ومجاوزة الحد، وكان القوم قالوا: نحن أشراف مضر، إن أسلمنا أسلم الناس. وكان هذا من التكبر والإفراط في القول. وقيل: فرطًا، أي قُدُمًا في الشر، من قولهم: فرط منه أمر، أي سبق». وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ص ١١٨٩: «الفرط يحتمل أن يكون بمعنىٰ التفريط والتضييع، أي أمره الذي يجب أن يلتزم، ويحتمل أن يكون بمعنىٰ الإفراط والإسراف، أي أمره وهواه الذي هو بسبيله، وقد فسر المتأولون بالعبارتين - أعني التضييع والإسراف - وعبر عنه خباب بالهلاك، وداود بالندامة، وابن زيد بالخلاف للحق، وهذا كله تفسير بالمعنىٰ».

حالاً) وأقرب إلىٰ الرحمة (**من**) خواصِّ العلماء (**الجُهَّال بطريق الدين**) والصراط المستقيم (**المعتقدين**) في أنفسهم وعند العامَّة (**أنهم من العلماء؛ لأن العامِّي العاصي**) لا يموِّه في الدين، ولا يغرُّ المؤمنين، ولا يدَّعي أنه عالم؛ لأنه يتعلَّم، و(**معترف**) بالجهالة و(**بتقصيره**) مقرٌّ (**فيستغفر ويتوب**) فهو [إلىٰ] الرحمة أقرب، ومن المقت أبعد (**وهذا الجاهل الظانُّ**) في نفسه (**أنه عالم وأن ما هو مشتغل به من العلوم التي هي وسائل إلىٰ الدنيا**) ووسائط وأسباب لتحصيلها (**عن سلوك طريق الدين فلا يتوب**) إلىٰ الله تعالىٰ (**ولا يستغفر، بل**) هو (**لا يزال مستمرًّا عليه**) علىٰ حاله (**إلىٰ الموت**) وكان[1] سهل التستري يقول: قسوة القلب بالجهل [بالعلم] أشد من القسوة بالمعاصي؛ لأن الجاهل بالعلم تارك ومدَّعٍ، والعاصي بالفعل معترف بالعلم. وكان يقول أيضًا: العلم دواء يُصلِح الأدواءَ، فهو يزيل فساد الأعمال بالتدارك، والجهل داء يفسد الأعمالَ بعد صلاحها، فهو يزيل الحسنات ويجعلها سيئات، فكم بين ما يُصلِح الفساد وبين ما يفسد الصالحات! وقد قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس: ٨١] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف: ١٧٠] (**وإذا غلب هذا**) الوصف (**علىٰ أكثر الناس**) من المتَّسمينَ بسِمَة العلم (**إلا مَن عصمه الله تعالىٰ**) وهم أقل من القليل (**وانقطع**) الرجاء من إرشادهم، وخاب (**الطمع من إصلاحهم**) لأنه داء نحيس لا يُرجَىٰ بُرْؤه (**فالأسلم**) الأحوط (**لذي الدين المحتاط**) الوَجِل المشفق علىٰ حاله (**العزلة والانفراد عنهم**) كيلا يراهم ولا يروه (**كما سيأتي في كتاب العزلة**) من هذا الكتاب (**بيانه إن شاء الله تعالىٰ، ولذلك كتب**) أبو محمد (**يوسف بن أسباط**) المتوفىٰ سنة نيِّف وتسعين ومائة (**إلىٰ حُذَيفة المرعشي**) المتوفىٰ سنة سبع ومائتين، وكلاهما من أكابر العارفين[2] (**ما ظنُّك بمَن بقي لا يجد أحدًا يذكر الله تعالىٰ معه إلا كان آثمًا**

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٩٨.

(٢) طبقات الشعراني ١/ ٥٢ - ٥٣.

أو كانت مذاكرته معصية؟ وذلك أنه لا يجد أهله) هكذا أورده صاحب القوت(١)، وزاد: قلت ليوسف: يا أبا محمد، وتعرفهم؟ قال: [لا] يخفون علينا.

وقوله: قلت ... الخ، إنما هو حكاية صاحب القوت عمَّن روىٰ ذلك عن يوسف بن أسباط، لا أنه أدركه وسأله، وذلك لأن صاحب القوت وفاته سنة ست وثمانين وثلاثمائة، ويوسف بن أسباط متقدم عنه بكثير. وقال في موضع آخر(٢): وقال حذيفة المرعشي: كتب إليَّ يوسف بن أسباط: ذهبت الطاعة ومن يعرفها. وكان أيضًا يقول: ما بقي من يؤنَس به. وقال: ما ظنُّك بزمانٍ مذاكرةُ العلم فيه معصية. قيل: ولِمَ ذاك؟ قال: لأنه لا يجد أهله.

(ولقد صدق) يوسف بن أسباط في قوله **(فإن مخالطة الناس)** ومجالستهم **(لا تنفكُّ عن)** كثير من الغوائل من نحو **(غِيبة أو سماع غيبة أو سكوت علىٰ منكَر)** وكلٌّ من الثلاثة مهلِكات **(وإنَّ أحسن أحواله أن يفيد علمًا)** للغير **(أو يستفيده، ولو تأمل هذا المسكينُ)** حقَّ التأمل **(وعلم أن إفادته لا تخلو عن شوائب الرياء وطلبِ الجمع والرياسة علم أن المستفيد)** من ذلك العلم **(إنما يريد أن يجعل ذلك آلة إلىٰ طلب الدنيا ووسيلة إلىٰ الشر، فيكون هو مُعينًا له علىٰ ذلك)** في سائر أحواله **(ورِدْءًا وظهيرًا)** وناصرًا **(ومهيِّئًا)** حاضرًا **(لأسبابه)** المنوطة به، وهذا في الحقيقة **(كالذي يبيع السيف)** وما في معناه من آلات الحرب **(من قُطَّاع الطريق)** علىٰ المسلمين واللصوص **(فالعلم كالسيف)** بجامع كل منهما في كونه آلة للحرب، فالعلم آلة لحرب أعداء الباطن، والسيف آلة لحرب أعداء الظاهر **(وصلاحه للخير)** ببذله لأهله **(كصلاح السيف للغزو)** والجهاد **(ولذلك لا يرخَّص)** أي لا يجوَّز **(له في البيع ممن يعلم بقرائن أحواله)** القائمة الدالة علىٰ **(أنه يريد به الاستعانة علىٰ قطع الطريق)** والضرر بالمسلمين.

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٩٧ - ٢٩٨.

(٢) السابق ١/ ٢٧٦.

(فهذه اثنتا عشرة علامة من علامات علماء الآخرة، تجمع كلُّ واحدة منها جملاً من أخلاق علماء السلف) وأحوالهم وسِيَرهم **(فكن)** أيها السامع لذلك **(أحد رجلين: إما متَّصفًا بهذه الصفات)** بعد التخلية عن الأوصاف المذمومة بالمجاهدات الشرعية، وهو أعلىٰ المقام **(أو معترفًا بالتقصير)** عن لحوق ذلك لموانع وقواطع **(مع الإقرار به)** والتسليم لِما فيه، وهو المقام الثاني **(وإياك أن تكون الثالث)** أي لا متصفًا ولا معترفًا، بل منكِرًا **(فتلبِّس علىٰ نفسك)** أي تشبِّه عليها **(بأن تبدل آلةَ الدنيا بالدين، وتشبِّه سيرة البَطَّالين)** عن الأعمال الصالحة **(بسيرة العلماء الراسخين)** الثابتين القدم في علومهم ومعارفهم وأذواقهم **(وتلتحق بجهلك)** في نفسك **(وإنكارك)** لمقاماتهم **(بجملة الهالكين)** في عذاب الله **(الآيسين)** من رحمة الله. قال القطب سيدي علي وفا قُدِّس سره[1]: سبقت كلمة الله التي لا تتبدل وجرت سنَّة الله التي لا تتحول أن لا ينفخ روح علمه في مخصوص إلا انقسم الخَلْق له بين مَلَكي ساجد وشيطاني حاسد، فاحرص علىٰ أن تكون لأهل النعم العلمية محبًّا خاضعًا لتَسْلَم أو تنعم[2] أو تُرحَم، وإياك أن تكون لهم مبغضًا أو حاسدًا فتُسلَب أو تُرجَم أو تُحرَم **(نعوذ بالله من خِدَع الشيطان، فبها هلك الجمهور)**: معظم الناس **(ونسأل الله تعالىٰ أن يجعلنا ممن لا تغرُّه الحياة الدنيا)** بزينتها وزهرتها **(ولا يغرُّه بالله الغَرُور)** وهو كما قال ابن عرفة: ما رأيت له[3] ظاهرًا تحبه وفيه باطن تكرهه أو تجهله.

وبه ختم المصنف الباب السادس من كتاب العلم.

---

(١) طبقات الشعراني ٢/ ٣٠.

(٢) في طبقات الشعراني: أو تعلم.

(٣) تفسير القرطبي ٥/ ٤٥٥ ونصه: «الغرور بفتح الغين: الشيطان، يغر الناس بالتمنية والمواعيد الكاذبة. قال ابن عرفة: الغرور: ما رأيت له ظاهرًا تحبه، وفيه باطن مكروه أو مجهول، والشيطان غرور؛ لأنه يحمل علىٰ محاب النفس، ووراء ذلك ما يسوءه، ومن هذا بيع الغرر، وهو ما كان له ظاهر بيع يغر وباطن مجهول».

الباب السابع:

في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه

بيان شرف العقل

قدَّم بيان شرفه علىٰ بيان حقيقته وأقسامه؛ لأن ما لا يُعرَف شرفه لا تُدرَك حقيقته وأقسامه، فقال: (**اعلمْ أن هذا**) يعني بيان شرفه (**مما لا يحتاج إلىٰ تكلُّف**) بجلب البراهين والأدلة (**في إظهاره**) إذ هو كالضروري (**لا سيما وقد ظهر**) واستبان (**شرف العلم من قبلُ**) بالشواهد النقلية والعقلية (**والعقل**) في الحقيقة (**منبع العلم**) الذي ينتشر منه (**ومَطلعه**) الذي من أُفُقِه يطلع (**وأساسه**) الذي تنبني عليه أركانه (**والعلم يجري فيه**) أي في العقل (**مَجرىٰ الثمرة من الشجرة، و**) مجرىٰ (**النور من الشمس، و**) مجرىٰ (**الرؤية من العين**) وإذا كان العلم نتيجة العقل وحال النتيجة في العلوِّ والشرف ما عُرف فالأصل كيف يكون؟ وتحقيق هذا المقام: أن[1] العقل هو الشرف في الإنسان، وهو المتهيِّئ لقبول الوحي والإيمان، به يحصل عنه العلم، والمعرفة، والدراية، والحكمة، والذكاء، والذهن، والفهم، والفطنة، وجودة الخاطر، وجودة التوهم والخيال، والبديهة، والرؤية، والكياسة، والخبرة، وإصابة الظن، والفراسة، والزكانة، والكهانة [والعرافة والإلهام] ودقة النظر والرأي والتدبير، وصحة الفكر، وسرعة الذكر، وجودة الحفظ، والبلاغة والفصاحة. فهذه سبع وعشرون من توابع العقل، والعقل أساس لكل واحد منها،

---

(١) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة للراغب ص ١٠٥. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

ومطلع لأسرار معارفها، واقتصر المصنف علىٰ واحد منها وهو العلم، ولكلٍّ منها حدود وتعاريف لا نطوِّل بها الكتاب، ولعلنا نلمُّ ببعض من ذلك في أثناء شرح كلام المصنف حيث اتفق الحال بحسب المناسبة.

فالعلم[1]: إدراك الشيء بحقيقته، وهو ضربان:

أحدهما: حصول صور المعلومات في النفس.

والثاني: حكم النفس علىٰ الشيء بوجود شيء له هو موجود أو نفي شيء عنه هو غير موجود له، نحو الحكم علىٰ زيد بأنه خارج أو ليس هو طائرًا.

فالأول هو الذي قد يسمَّىٰ في الشرع وفي كلام الحكماء: العقل المستفاد، وفي النحو: المعرفة، ويتعدَّىٰ إلىٰ مفعول واحد، والثاني [هو الذي] يسمَّىٰ العلم دون العقل، ويتعدَّىٰ إلىٰ مفعولين، ولا يجوز الاقتصار علىٰ أحدهما من حيث إن القصد إذا قيل «علمتُ زيدًا منطلقًا» إثبات العلم بانطلاق زيد دون العلم بزيد.

ثم إن العلم والعقل بقياس أحدهما علىٰ الآخر علىٰ ثلاثة أوجُه:

أحدها: عقل ليس بعلم، وهو العقل الغريزي.

والثاني: علم ليس بعقل، وهو المتعدِّي إلىٰ مفعولين.

والثالث: عقل هو علم، وعلم هو عقل، وهو العقل المستفاد والعلم الذي يقال له المعرفة، ولم يصح أن يعدَّىٰ العقل إلىٰ مفعولين فيقال: عقلتُ زيدًا منطلقًا، كما يقال في «علمت»؛ لكون العقل موضوعًا للعلم البسيط دون المركَّب، وسُمِّي عقلاً من حيث إنه مانع لصاحبه أن تقع أفعاله علىٰ غير نظام، ويسمىٰ علمًا من حيث إنه علامة علىٰ الشيء، وهذا إذا اعتُبرت حقيقته مما يتبيَّن به شرف اللغة العربية. حقَّقه الراغب في «الذريعة».

---

(١) السابق ص ١٠٢. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة)؟! أما[١] السعادة الدنيوية فمن أعظمها أن الإنسان به يصير خليفة الله في أرضه، وأما الأخروية فإنه به يحصل حرثُ الآخرة المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠] وثمرة حرث الآخرة علىٰ التفصيل سبعة أشياء: بقاء بلا فناء، وقدرة بلا عجز، وعلم بلا جهل، وغنىٰ بلا فقر، وأمن بلا خوف، وراحة بلا شغل، وعز بلا ذل **(أو كيف يُستراب)** ويُشَكُّ **(فيه؟ والبهيمة علىٰ قصور تمييزها تحتشم العقلَ)** قال الشيخ نجم الدين دايه[٢]: اعلمْ أن الله تعالىٰ خص العقل برتبة هي أعلىٰ مراتب المبدَعات، وأن جميعها محتاجة إليه، وهو الذي يمدُّها بفضائله وإن كان بعضها لأجل بُعْده عنه وقلة حظه منه يتمرَّد عليه، وعلىٰ ذلك فإنه لا محالة يخضع له إذا ظهر له أدنىٰ ظهور، فمثله كمثل الملك الذي يحتجب عن بعض عبيده ويطلع عليهم من حيث لا يرونه [فإذا خالفوا أمره واجترأوا علىٰ بعض ما نهىٰ عنه إنما ذلك لأنهم لا يرونه] ولا يعلمون أنه يراهم، فإن أحسُّوا به أدنىٰ إحساس انقبضوا ضرورةً، وهابوه طبعًا، ويظهر هذا المعنىٰ ظهورًا تامًّا في البهائم؛ فإنها تخدم الإنسان وتهابه بالطبع، وتتَّبع العدةُ الكثيرةُ الراعي الواحدَ، وربما كانت قوة واحد منها تزيد علىٰ قُوَىٰ عدةٍ كثيرة منهم **(حتىٰ إن أعظم البهائم بدنًا وأشدها ضراوة وأقواها سطوة)** نحو الجمل والفيل **(إذا رأىٰ صورة الإنسان احتشمه وهابه)** وخافه **(لشعوره)** وإدراكه **(باستيلائه عليه)** وغلبته **(لِما خُصَّ به من إدراك الحِيَل)** وقال الراغب في الذريعة[٣]: العقل حيثما وُجد يكون محتشمًا، حتىٰ إن الحيوان إذا رأىٰ إنسانًا احتشمه بعض الاحتشام، وانزجر بعض الانزجار، ولذلك تنقاد الإبل للراعي.

---

(١) السابق ص ٩٢ - ٩٣.

(٢) منارات السائرين ص ١١٣. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٣) الذريعة ص ١٠٠.

(**ولذلك قال ﷺ: الشيخ في قومه كالنبي في أمته**) قال السخاوي في المقاصد[١]: جزم شيخنا[٢] وغيره بأنه موضوع، وإنما هو من كلام بعض السلف، وربما أُورد بلفظ: الشيخ في جماعته كالنبي في قومه، يتعلمون من علمه، ويتأدَّبون من آدابه. وكله باطل.

وقال العراقي: وسُئل عنه الشيخ تقي الدين ابن تيمية في جملة أحاديث، فأجاب بأنه لا أصل له[٣].

ثم قال العراقي: وقد رُوي من حديث ابن عمر وأبي رافع؛ أما حديث ابن عمر فرواه ابن حبان في تاريخ الضعفاء[٤] من رواية عبد الله بن عمر بن غانم عن مالك عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال ... فذكره، أورده في ترجمة ابن غانم المذكور قاضي إفريقيَّة، وقال: روىٰ عن مالك ما لم يحدِّث به مالك قط، لا يحل ذكر حديثه ولا الرواية عنه في الكتب إلا علىٰ سبيل الاعتبار.

قال العراقي: روىٰ له أبو داود في سننه وقال: أحاديثه مستقيمة، وذكره ابن يونس في تاريخ مصر[٥] وقال: إنه أحد الثقات الأثبات. ومع ذلك فالحديث باطل، ولعل الآفة فيه من الراوي عن ابن غانم وهو عثمان بن محمد بن خُشَيش القيرواني؛ قاله الذهبي في الميزان[٦].

وأما حديث أبي رافع فرواه ابن عساكر في معجمه[٧] والديلمي في مسند

---

(١) المقاصد الحسنة ص ٢٥٧.

(٢) يعني الحافظ ابن حجر، انظر: تهذيب التهذيب ٢/ ٣٩١، لسان الميزان ٧/ ٣١٧.

(٣) مجموع الفتاوىٰ ١٨/ ٢٧٩ (ط - مجمع الملك فهد بالمدينة المنورة) ونصه: «ليس هذا من كلام النبي ﷺ، وإنما يقوله بعض الناس».

(٤) المجروحون من المحدثين ١/ ٥٣٣.

(٥) لم أقف عليه فيمن اسمه عبد الله في تاريخ مصر.

(٦) ميزان الاعتدال ٢/ ٤٦٤.

(٧) معجم الشيوخ لأبي القاسم ابن عساكر ٢/ ٧٠٣ (ط - دار البشائر بدمشق) وقال: هذا =

الفردوس[1] من رواية محمد بن عبد الملك الكوفي، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أبيه، عن رافع بن أبي رافع، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «الشيخ في أهله كالنبي في قومه». ومحمد بن عبد الملك يُعرَف بالقَناطري، كذَّاب. وفي الميزان[2]: حديث باطل.

قلت: وحديث أبي رافع هذا أخرجه أيضًا الخليلي في مشيخته وابن النجار في تاريخه، كلاهما من حديث أحمد بن يعقوب القرشي الجرجاني عن القناطري[3]، وقال ابن حبان: هو موضوع.

وقال الزركشي[4]: ليس هو من كلام النبي ﷺ.

وفي اللسان[5]: قال الخليلي: هو موضوع.

وأما حديث ابن عمر فأخرجه أيضًا الشيرازي في الألقاب[6]، ولفظه: «الشيخ في بيته كالنبي في قومه».

هذا حال الحديث من جهة رواته قد حُكم عليه بالوضع، ولكن معناه صحيح، يؤيده قولُه تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧] وقولُه ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء» وغير ذلك.

= حديث منكر، والقناطري كذاب، وإنما سمي بالقناطري لأنه كان يكذب قناطير.

(١) ورواه في فردوس الأخبار ٢/ ٥٢٥ من حديث ابن عباس.

(٢) ميزان الاعتدال ٣/ ٦٣٢.

(٣) فيض القدير للمناوي ٤/ ١٨٥.

(٤) اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة ص ١٩٠ ونصه: «هذا ليس من كلام النبي ﷺ، وإنما يقوله بعض أهل العلم».

(٥) لسان الميزان لابن حجر ٤/ ٣٠٩ ونصه: «قال الخليلي: حديث الطير وضعه كذاب علىٰ مالك يقال له صخر الحاجبي، وهو الذي وضع حديث: الشيخ في أهله كالنبي في أمته».

(٦) وأخرجه أيضـًا ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ١٨٣.

(وليس ذلك لكثرة ماله) ومتاعه **(ولا لكِبَر شخصه)** وجثته **(ولا لزيادة قوته)** وكثرة جراءته وبطشه **(بل لزيادة تجربته التي هي ثمرة عقله)** أي لتناهي عقله وكماله، فيتعلمون من علمه، ويتأدبون من آدابه، وقد وُجدت هذه الزيادة في بعض [الروايات][١] كما أشار له السخاوي، ومنهم مَن شرح الحديث بغير ما ذهب إليه المصنف فقال[٢]: أي يجب له من التوقير مثل ما للنبي في أمته. وهو وإن كان صحيحًا ولكن المعنىٰ الأول أنسب للمقام، وقد قال الشيخ الأكبر قُدِّس سره[٣]: الشيوخ نُوَّاب الحق كالرسل في زمانهم، فهم ورثوا الشريعة، وعليهم حفظها والقيام بما فيها لا التشريع، وحفظ القلوب ورعاية الآداب، فهم من العلماء بمنزلة الطبيب من العالِم بعلم الطبيعة، فالطبيب لا يعرف الطبيعة إلا بما هي مدبِّرة للبدن، والعالم بالطبيعة يعرفها مطلقًا وإن لم يكن طبيبًا، وقد يجمع الشيخ بينهما، ومهما نقص [شيء] مما يحتاجه المريد في تربيته فلا يحل له القعود علىٰ منصة الشيخوخة؛ فإنه يفسد أكثر مما يُصلِح، ويفتن، كالمتطبِّب يعلُّ الصحيحَ ويقتل المريض. ا.هـ. المقصود منه.

ونعود إلىٰ شرح كلام المصنف:

ولمَّا سبق أن العقل أشرف المبدَعات وأن جميعها محتاجة إليه حتىٰ إن البهائم ظهر فيها هذا المعنىٰ من الانقياد لصاحب العقل والاحتشام له، ذكر أن علىٰ هذا يجري أمر الناس بعضهم مع بعض؛ فإن عامَّتهم إذا وجدوا بينهم واحدًا أكثر حظًّا من العقل فإنهم يهابونه ويخضعون له ويتَّبعونه منقادين مستسلمين كشِبْه البهائم؛ إذ الطينة واحدة بعينها فقال: **(ولذلك ترىٰ الأتراك)** وهم جيل من الناس معروفون، الواحد: تركي **(والأكراد)** جيل من الناس معروفون، مساكنهم الجبال،

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) هو المناوي في فيض القدير ٤/ ١٨٥.

(٣) الفتوحات المكية ٢/ ٤٠٦ - ٤٠٧ باختصار.

وفي نسبتهم اختلاف كثير بيَّناه في شرحنا علىٰ القاموس[(١)] **(وأجلاف العرب)** وهم الجفاة منهم الذين لم يتزيَّوا بزِيِّ أهل الحضر في رفقهم ولين أخلاقهم، مأخوذ من جلف الشاة أو البعير، كأنَّ المعنىٰ: عربي بجلده، كما يقال: غلام بغباره، أي لم يتغير عن جهته **(وسائر الخلق)** أي من سائر الأجناس **(مع قرب رتبتهم من رتبة البهائم)** وتحقيق المقام[(٢)]: أن الإنسان وإن كان هو بكونه إنسانًا هو أفضل موجود فذلك بشرط أن يراعي ما به صار إنسانًا وهو العلم [الحق] والعمل المحكم، فبقَدْر وجود ذلك المعنىٰ فيه يفضل، فأما [الإنسان] من حيث ما يتغذىٰ وينسل فنبات، ومن حيث ما يتحرك ويحس فحيوان، ومن حيث الصورة التخطيطية فكصورة في جدار، وإنما فضيلته بالنطق وقواه ومقتضاه، ولهذا قيل: ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مهمَلة أو صورة ممثَّلة، فمَن صرف همته كلها إلىٰ تربية القوة الشهوية باتِّباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الأنعام فخليق بأن يلحق بأفق البهائم فيصير إما غمرًا كثور، أو شرهًا كخنزير، أو ضريًّا ككلب، أو حقودًا كجمل، أو متكبرًا كنمر، أو ذا روغان كثعلب، أو يجمع ذلك كله فيصير كشيطان مريد. فهذه الأوصاف غالبًا توجد في الأصناف التي ذكرها المصنف، إما علىٰ الانفراد، أو علىٰ الاشتراك، أو الجمعية **(يوقِّرون المشايخ بالطبع)** والجِبِلَّة، ويعظِّمونهم إجلالاً لمقامهم، ويتَّبعون آراءهم خاضعين منقادين.

وفي الذريعة[(٣)]: وكذلك جماعة الرعاة إذا رأوا منهم من كان أوفر عقلاً وأغزر فضلاً فيما هم بصدده انقادوا له طوعًا، فالعلماء إذا لم يعاندوا انقادوا ضرورةً لأكثرهم علمًا وأكبرهم وأفضلهم نفسًا وأوفرهم عقلاً، ولا ينكر فضله إلا متدنِّس بالمعايب، متطلِّب للرياسة، محافظ علىٰ غرض دنيوي، قد جعل عقله

(١) تاج العروس ٩/ ١٠٢ - ١٠٦.
(٢) الذريعة ص ٢٧ باختصار. والزيادات التي بين حاصرتين منه.
(٣) الذريعة ص ١٠٠.

خادمًا لشهوته، فلحفظه لرياسته ينكر فضل الفاضل.

وقال الشيخ نجم الدين دايه[١]: وكذلك يفعل العقلاء لمن فوقهم في العقل من الطاعة والانقياد وشدة التهيُّب، ولقوة هذا الأمر الطبيعي ربما ظن بواحد من الناس أكثر مما فيه من العقل فينقاد له، فقد بان بما ذكرنا أن العقل ملك مطاع بالطبع.

(ولذلك) أي لفضيلة العقل الوافر **(حين قصد كثير من المعاندين قتل النبي ﷺ)** لجفاء طباعهم وقسوة قلوبهم **(فلما وقعت أعينُهم عليه واكتحلوا بغرَّته)** أي غرة وجهه **(الكريمة هابوه)** واحتشموه **(وتراءىٰ لهم ما كان يتلألأ علىٰ ديباجة وجهه من نور النبوة)** المضيء **(وإن كان ذلك باطنًا في نفسه بطونَ العقل)** وسيأتي في ذلك المزيدُ في أخلاق النبوة من هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ.

ونص الذريعة[٢]: ولفضيلة العقل [الوافر] كان كثير ممن كانوا يعاندون النبي ﷺ قصدوه ليقتلوه، فما كان إلا أن وقع طرفهم عليه فتراءىٰ لهم نور الله تعالىٰ معربًا عنه، فأُلقي في قلوبهم منه روعة فهابوه، فمن مذعن له طائع، وخبيث لا ينكره بعد إلا جاحدًا، ولهذا قال الشاعر[٣]:

لو لم تكن فيه آيات منزَّلة   كانت بديهته تغنيك عن خبره

وبين السياقين تفاوتٌ لا يخفَىٰ للمنصفين.

(فشرف العقل) وجلالته **(مُدرَك بالضرورة)** فلا يحتاج إلىٰ التطويل في جلب الكلام فيه من هنا ومن هنا **(وإنما القصد أن نورد ما وردت به الأخبار)** الصحيحة

---

(١) منارات السائرين ص ١١٤.

(٢) الذريعة ص ١٠٠.

(٣) هو عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، والبيت في ديوانه ص ١٦٠ (ط - دار العلوم) والرواية فيه: آيات مبينة، و: تنبيك بالخبر. وبعده بيت آخر وهو:

فثبت الله ما آتاك من حسن   تثبيت عيسىٰ بإذن الله والقدر

(والآيات) الصريحة **(في ذكر شرفه، وقد سمَّاه الله تعالىٰ نورًا في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾)** [النور: ٣٥] وإنما سُمِّي بذلك لنورانيَّته. وهذا قد ذكره الراغب في كتابيه الذريعة والمفردات، ونصه في الذريعة[1]: وإلىٰ العقل أشار بقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي منوِّرهما، والنور هو العقل. ونقله في المفردات عن ابن عرفة[2].

وقال الشيخ نجم الدين دايه[3]: وقد سمَّاه الله تعالىٰ في القرآن نورًا في قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ [المائدة: ١٥] فالنور محمد ﷺ.

ونقل الراغب في أول الذريعة ما نصه[4]: جعل المصباح مثلاً للعقل، والمشكاة مثلاً لصدر المؤمن، والزجاجة لقلبه، والشجرة المباركة – وهي الزيتونة – للدين، وجعلها لا شرقية ولا غربية تنبيهًا علىٰ أنها مصونة عن التفريط والإفراط، والزيت للقرآن، وبيَّن أن القرآن يمد العقل مد الزيت المصباحَ، وأنه يكاد يكفي لوضوحه وإن لم يعضده العقلُ، ثم قال: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي نور القرآن ونور العقل، وبيَّن أنه يخص بذلك من يشاء. ا.هـ.

واعلم[5] أن الإنسان لم يتميَّز عن الحيوان والبهائم إلا بالعقل، ولم يشرف إلا بالعلم، ومن شرف العلم أن كل حياة انفكَّت عنه فهي غير معتدٍّ بها، بل ليست في

---

(١) الذريعة ص ٩٣.

(٢) كذا قال الشارح، ولم ينسب إليه هذا القول في المفردات، ونص المفردات ص ٥٠٨: «وسمىٰ الله تعالىٰ نفسه نورًا من حيث إنه هو المنور، قال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وتسميته تعالىٰ بذلك لمبالغة فعله». وكلام ابن عرفة نقله القرطبي في تفسيره ١٥/ ٢٥٦، والسمين الحلبي في عمدة الحفاظ ٤/ ٢٣٠.

(٣) منارات السائرين ص ١١٧.

(٤) الذريعة ص ١٦.

(٥) السابق ص ١٠١.

حكم الموجودة؛ فإن الحياة الحيوانية لا تحصل ما لم يقارنها الإحساس فيلتذ بما يوافقه ويطلبه، ويتألم مما يخالفه فيهرب منه، وذلك أخس المعارف (و) لأجل أن الحياة تقارب العلم (سمَّىٰ) الله تعالىٰ (**العلم المستفاد منه**) أي من العقل (**روحًا**) لأنه يحيا به الناسُ الحياةَ الأخروية (و) لما كان مقتضىٰ الحياة الإنسانية أنها إذا تعرَّت من المعارف المختصَّة بها أن لا يُعتدَّ بها لهذا سمَّىٰ الله ذلك العلم المستفاد (**وحيًا وحياة فقال تعالىٰ**: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا﴾) [الشورىٰ: ٥٢] ومن هنا سُمِّي القرآن أيضًا روحًا؛ لكونه أساس العلوم كلها، تحصل بها الحياة، ويتسبب إلىٰ الحياة الأخروية المشار لها بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وكذلك فُسِّر قوله تعالىٰ: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة: ٢٢] والضمير عائد إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ أحد الوجوه[١]، أو عائد إلىٰ الإيمان، أي قوَّاهم بعلم الإيمان، فعلمُ الإيمان هو روحه[٢] (**وقال تعالىٰ**: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾)[الأنعام: ١٢٢] فقد سمَّىٰ مَن لم يكن له روح القلب ميتًا، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠] (**وحيث ذكر النور والظلمة أراد به**) أي بالنور (**العلم**، و) بالظلمة (**الجهل**) أو أراد بهما الإيمان والشرك، وأصل الظُّلمة عدم النور، وهما متقابلان، وهما من أحسن الاستعارات لهذين الضدينِ[٣] (**كقوله**

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٢٣٧: «﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ تعالىٰ وهو الهدىٰ والنور واللطف، وقيل: الروح: القرآن، وقيل: جبريل يوم بدر. وقيل: الضمير في (منه) عائد علىٰ الإيمان، والإنسان في نفسه روح يحيا به المؤمن». وقال البيضاوي في تفسيره ٥/ ١٩٧: «﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ أي من عند الله، وهو نور القلب أو القرآن، أو بالنصر علىٰ العدو. وقيل: الضمير للإيمان؛ فإنه سبب لحياة القلب».

(٢) قوت القلوب ١/ ٢٧٤.

(٣) عمدة الحفاظ للسمين ٣/ ١٢ ونصه: «قوله تعالىٰ: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ عنىٰ بالظلمات هنا الكفر، وبالنور الإيمان، وهو من أحسن الاستعارات لهذين الضدين، وأصل الظلمة: عدم النور، وهما متقابلان، قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ ثم يعبر بالظلمة عن الشرك والجهل والفسق، كما عبر عن أضدادهما بالنور». ونحوه في المفردات للراغب ص ٣١٥.

تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقد يُعبَّر بالظُّلمة عن الفسق أيضًا كما يُعبَّر عن أضداد هؤلاء الثلاثة - أعني الشرك والجهل والفسق - بالنور **(وقد قال ﷺ: يا أيها الناس، اعقلوا عن ربكم)** أي اعلموه وافهموه منه، يقال: عقلتُ عنه كذا **(وتواصوا بالعقل)** أي بكماله **(تعرفوا به ما أُمرتم به وما نُهيتم عنه، واعلموا أنه)** أي العقل **(مجدكم عند ربكم)** هكذا في نسخة العراقي، وفي بعضها: ينجدكم عند ربكم **(واعلموا أن العاقل من أطاع الله وإن كان دميم)** بالدال المهملة، أي قبيح **(المنظر)** بالنسبة إلىٰ ما يظهر منه **(حقير الخطر)** أي القَدْر والقيمة **(دنيء المنزلة)** أي خسيسها **(رثَّ الهيئة)** بالنسبة إلىٰ ملبوسه وما يلحقه من العناء والمشقَّة، فيحصل له بذلك التشعيثُ **(وأن الجاهل)** أورده في مقابلة العاقل؛ لأن العلم والعقل يتواردان موردًا واحدًا، كما أشرنا إليه آنفًا **(مَن عصىٰ الله تعالىٰ وإن كان جميل المنظر، عظيم الخطر، شريف المنزلة، حسن الهيئة)** وهذه أربعة أوصاف في مقابلة أربعة أوصاف، وإن أول ما يروع الإنسان جمال منظره، فإذا عظم مع ذلك خطرُه فهي مرتبة عليا، وبها تكون منزلته شريفة وهيئته حسنة، ثم زاد في أوصافه وصفين فقال: **(فصيحًا، نطوقًا)** فما[1] أقبح بالمرء أن يكون حسن جسمه باعتبار قبح نفسه جنَّة يعمرها بوم، وصرمة يحرسها ذئب، كما قال حكيم لجاهل صبيح الوجه: أما البيت فحسن، وأما ساكنه فرديء. وما أقبح به أن يكون اعتباره بكثرة ماله وحسن أثاثه [ثورًا عليه حلي] فقد سمَّىٰ بعضُ الحكماء الأغنياءَ [الأغبياء] تيوسًا، صوفها دُرَر، وحمرًا جلالها حبر **(فالقردة والخنازير أعقل عند الله تعالىٰ ممن عصاه)** إذ قبيح بذي العقل أن يكون بهيمة وقد أمكنه أن يكون إنسانًا، أو إنسانًا وقد أمكنه أن يكون مَلَكًا[2]

---

(١) الذريعة ص ٦، ٧. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٢) بعده في الذريعة: وأن يرضىٰ بقنية مستعارة وحياة مستردة وله أن يتخذ قنية مخلدة وحياة مؤبدة.

فلم نَرَ في عيوب الناس نقصًا كنقص القادرين على التمام[1]

(ولا تغترُّوا بتعظيم أهل الدنيا إياهم؛ فإنهم من الخاسرين) قال العراقي: رويناه في كتاب «العقل» لداود بن المحبَّر من رواية أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال ... فذكره، إلا أنه قال: فإنهم غدًا من الخاسرين. ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده[2] عن داود بن المحبَّر، وداود بن المحبر اختُلف فيه[3]، فروى عباس الدُّوري عن يحيى بن معين أنه قال: ما زال معروفًا بالحديث ثم تركه وصحب قومًا من المعتزلة فأفسدوه، وهو ثقة. وقال أبو داود: ثقة شِبْه الضعيف. وقال أحمد: لا يدري ما الحديث. وقال الدارقطني[4]: متروك. وروى[5] عبد الغني بن سعيد الأزدي المصري عن الدارقطني قال: كتاب العقل وضعه أربعة، أولهم ميسرة بن عبد ربه، ثم سرقه منه داود بن المحبر فركَّبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة، وسرقه عبد العزيز بن أبي رجاء فركَّبه بأسانيد أُخَر، ثم سرقه سليمان بن عيسى السجزي فأتى بأسانيد أُخَر. أو كما قال. وعلى ما ذكره الدارقطني، فقد سرقه عن داود عبدُ العزيز بن أبي رجاء فاختصره وجعل له إسنادًا آخر فرواه عن مالك عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري قالا: قال رسول الله ﷺ: «ابن آدم، أطِعْ ربك تسمَّىٰ عاقلاً، ولا تعصه فتسمىٰ جاهلاً». ورواه أبو نعيم في الحلية[6] والخطيب في «أسماء مَن روىٰ عن مالك» من رواية ابن أبي رجاء

---

(١) البيت لأبي الطيب المتنبي، وهو في ديوانه ص ٤٨٣ من قصيدة أنشأها لما أصابته الحمىٰ بمصر سنة ٣٤٨.

(٢) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ٢/ ٨٠٦.

(٣) انظر: ميزان الاعتدال للذهبي ٢/ ٢٠.

(٤) الضعفاء والمتروكون للدارقطني ص ١٢٠ ونصه: «داود بن المحبر، يضع. بصري كان ببغداد، متروك».

(٥) تاريخ بغداد ٩/ ٣٢٨. الموضوعات لابن الجوزي ١/ ١٧٦.

(٦) حلية الأولياء ٦/ ٣٤٥.

المذكور، وقال الخطيب: منكَر من حديث مالك. وقال الدارقطني: عبد العزيز بن أبي رجاء متروك. وقال الذهبي في الميزان[1]: هذا باطل علىٰ مالك.

قلت: داود بن المحبَّر بن قحذم البكراوي، يكنّىٰ أبا سليمان البصري، نزيل بغداد، مات سنة ست ومائتين. والمحبر كمحدث، روىٰ أبوه عن هشام بن عروة، وروىٰ ابنه داود عن شعبة وهمَّام وجماعة وعن مقاتل بن سليمان، وعنه أبو أمية والحارث بن أبي أسامة وجماعة، وأورد الذهبي في الميزان من طريقه حديثًا في فضل قزوين، أخرجه ابن ماجه في سننه[2]، ثم قال: فلقد شان ابنُ ماجه سننَه بإدخاله هذا الحديث الموضوع فيها. ا.هـ. وكلٌّ من ميسرة وابن أبي رجاء وسليمان بن عيسىٰ متروكون.

(وقال) رسول الله (ﷺ: **أول ما خلق الله العقلَ، فقال له: أقبِلْ، فأقبَلَ، ثم قال له: أدبِرْ، فأدبَرَ، ثم قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقًا أكرم عليَّ منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أثيب، وبك أعاقب**) قال الشيخ نجم الدين دايه رحمه الله تعالىٰ[3]: استُدل به علىٰ أن العقل متهيئ لقبول الوحي والإيمان به، وفي رواية: وبك أعبد؛ إذ كان هو أول من اختُصَّ من الله بالوحي والخطاب والمحبة والمعرفة والعبادة والعبودية والنبوة بإنباء الحق تعالىٰ؛ إذ أنبأه عن معرفة نفسه ومعرفة ربه، وإذا أمعنت النظر وأُيِّدت بنور الله تحقق لك أن المعبَّر بالعقل والموصوف باختصاص الوحي والخطاب والمحبة والمعرفة والعبادة والعبودية

(١) ميزان الاعتدال ٢/ ٦٢٨. ونقل عن الدارقطني قوله: عبد العزيز بن أبي رجاء متروك، له مصنف موضوع كله. يعني كتاب العقل.

(٢) سنن ابن ماجه ٤/ ٣٢٢ ولفظه: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ستفتح عليكم الآفاق، وستفتح عليكم مدينة يقال لها قزوين، من رابط فيها أربعين يوماً أو أربعين ليلة كان له في الجنة عمود من ذهب عليه زبرجدة خضراء عليها قبة من ياقوت حمراء، لها سبعون ألف مصراع من ذهب، علىٰ كل مصراع زوجة من الحور العين».

(٣) منارات السائرين ص ١١٤ - ١١٨. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

والنبوة هو روح حبيب الله ونبيه محمد ﷺ؛ فإنه الذي قال: «أول ما خلق الله روحي». وفي رواية: نوري. فروحه جوهر نوراني، ونوره هو العقل، وهو عَرَضٌ قائم بجوهره، ومن هنا قال ﷺ: «كنت نبيًّا وآدم بين الروح والجسد» أي لم يكن بعدُ روحًا ولا جسدًا، ومن هنا قال: «مَن عرف نفسه فقد عرف ربه»؛ لأنه عرف نفسه بتعريف الله؛ إذ قال له: «ما خلقت خلقًا أحب إليَّ منك». وعُرف الله أيضًا بتعريف الله نفسه إياه؛ إذ قال: «وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقًا أحب إليَّ منك». فعُرف أنه الإله الذي من صفاته العزة والجلال والخالقية والمحبة، وهو المعرف لكل عارف، وله القدرة والحكم علىٰ الأخذ والإعطاء والثواب والعقاب، وهو المستحق للعبادة، وقد جاء عن بعض الكُبَراء من الأئمة أن أول المخلوقات مَلَك كروبيٌّ يسمىٰ العقل، وهو صاحب القلم، بدليل توجُّه الخطاب إليه في قوله: «أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر». ولمَّا سماه قلمًا قال له: اجْرِ بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة. وتسميته قلمًا كتسمية صاحب السيف سيفًا[(١)]، ولا يبعد أن يسمَّىٰ روح النبي ﷺ مَلَكًا؛ لغلبة صفات الملكية عليه، كما يسمىٰ جبريل عليه السلام روحًا؛ لغلبة الروحانية عليه، كقولهم: فلان شعلة نار؛ لحدَّة ذهنه، ويسمىٰ عقلاً؛ لوفور عقله، وقلمًا؛ لكتابة المكونات [به] ونورًا لنورانيته. وقد يكون العقل في اللغة بمعنىٰ العاقل، فعلىٰ هذا التقدير والتأويل يكون روح النبي ﷺ هو المخلوق الأول، ولكنه بهذه الاعتبارات مَلَك وعقل ونور وقلم، والقلم قريب المعنىٰ من العقل، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ [العلق: ٤] جاء في التفسير عن بعضهم: أي بالعقل؛ لأن الأشياء تُعلَم بالعقل، وفي قوله: أقبِلْ ... الخ إشارة إلىٰ أن للعقل إقبالاً وإدبارًا، فورث إقبالَه المُقبِلون، وهم [صنفان] السابقون المقرَّبون من الأنبياء والأولياء، وهم أصحاب الميمنة، وهم أهل الجنة، وورث إدبارَه المُدبِرون، وهم أصحاب المشأمة، وهم أهل النار، يدل عليه قولُه تعالىٰ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾

---

(١) بعده في المنارات: وقد سمىٰ النبي ﷺ خالد بن الوليد: سيف الله، وهذا أول لقب في الإسلام.

[الواقعة: ٧] الآية. والله أعلم. ا.هـ. كلامه. سقتُه بتمامه؛ لارتباط بعضه ببعض، ولِما فيه من الفوائد.

وأما الكلام علىٰ تخريج الحديث، فقال العراقي: رُوي من حديث أبي أمامة وعائشة وأبي هريرة وابن عباس والحسن عن عدَّة من الصحابة؛ فأما حديث أبي أمامة فرواه الطبراني في الأوسط[١] وأبو الشيخ في كتاب «فضائل الأعمال» من رواية سعيد بن الفضل القرشي، حدثنا عمر بن أبي صالح العَتَكي، عن أبي غالب، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا خلق الله العقل ...» الحديث، ولم يقل: وجلالي، وقال: أعجب إليَّ منك. وقال: وبك الثواب وعليك العقاب. وعمر بن أبي صالح ذكره العقيلي في الضعفاء[٢]، وأورد له هذا الحديث. وقال الذهبي في الميزان[٣]: لا يُعرَف. قال: ثم إن الراوي عنه مشهور بالمنكَرات. قال: والخبر باطل.

قلت: ونص العقيلي في الضعفاء: هذا حديث منكَر، عمر وسعيد الراوي عنه مجهولان جميعًا بالنقل، ولا يتابَع علىٰ حديثه، ولا يثبت [في هذا المتن شيء][٤].

ثم قال العراقي: وأما حديث عائشة فرواه أبو نعيم في الحلية[٥] قال: أخبرنا أبو بكر عبد الله بن يحيىٰ بن معاوية الطلحي بإفادة الدارقطني، عن سهل بن المرزبان بن محمد التميمي، عن عبد الله بن الزبير الحُمَيدي، عن ابن عيينة، عن منصور، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «أول ما خلق الله العقل ...» فذكر الحديث. هكذا أورده في ترجمة سفيان بن عيينة، ولم

---

(١) المعجم الأوسط ٧/ ١٩٠.

(٢) الضعفاء ٢/ ٩١٦.

(٣) ميزان الاعتدال ٣/ ٢٠٦.

(٤) زيادة من الضعفاء.

(٥) حلية الأولياء ٧/ ٣١٨.

أجد في إسناده أحدًا مذكورًا بالضعف، ولا شك أن هذا مركَّب علىٰ هذا الإسناد، ولا أدري ممن وقع ذلك، والحديث منكر.

قلت: ولفظ حديث عائشة - علىٰ ما في الحلية - قالت عائشة: حدثني رسول الله ﷺ: «إن أول ما خلق الله العقل، فقال: أقبِلْ، فأقبَلَ، ثم قال له: أدبِرْ، فأدبَرَ. ثم قال: ما خلقت شيئًا أحسن منك، بك آخذ، وبك أعطي». قال أبو نعيم: غريب من حديث سفيان ومنصور والزهري، لا أعلم له راويًا عن الحميدي إلا سهلاً، وأراه واهمًا فيه.

ثم قال العراقي: وأما حديث أبي هريرة فرواه الحكيم الترمذي في الأصل السادس بعد المائتين قال[١]: حدثنا الفضل بن محمد، حدثنا هشام بن خالد الدمشقي، حدثنا يحيىٰ - وهو عندي يحيىٰ الغسَّاني - حدثنا أبو عبد الله مولىٰ بني أمية، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، ثم خلق النون وهي الدواة ...» الحديث، وفيه: «ثم خلق الله العقل، فقال: وعزتي لأكمِّلنَّك فيمن أحببتُ، ولأنقصنَّك فيمن نقصت»[٢]. وأبو عبد الله هذا لا أدري من هو.

قلت: وأخرج ابن عساكر في تاريخه[٣] قال: أخبرنا أبو العز أحمد بن عبيد الله، أخبرنا محمد بن أحمد بن [محمد بن] حسنون، أخبرنا أبو الحسن الدارقطني، حدثنا القاضي أبو طاهر محمد بن أحمد بن نصر، حدثنا جعفر بن محمد الفريابي، حدثنا أبو مروان هشام بن خالد الأزرق، حدثنا الحسن بن يحيىٰ الخُشَني، عن أبي عبد الله مولىٰ بني أميَّة، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول شيء خلقه الله القلم، ثم خلق النون وهي الدواة، ثم

---

(١) نوادر الأصول ٢/ ٧٦٥.

(٢) في النوادر: ولأنقصنك ممن نقصك ممن أبغضت.

(٣) تاريخ دمشق ٦١/ ٣٨٥.

قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما يكون وما هو كائن من عمل أو أثر أو رزق أو أجل. فكتب ما يكون وما هو كائن إلىٰ يوم القيامة، فذلك قوله: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾ [القلم: ١] ثم ختم علىٰ القلم فلم ينطق، ولا ينطق إلىٰ يوم القيامة، ثم خلق العقل، فقال: وعزَّتي لأكمِّلنَّك فيمن أحببت، ولأنتصنَّك فيمن أبغضتُ». فهذه متابعة جيدة لشيخ الحكيم الترمذي، إلا أن في شيخ هشام اختلافًا، كما ترىٰ.

قلت: أبو عبد الله مولىٰ بني أمية اسمه ناصح؛ ذكره ابن عساكر، وقد رواه عن أبي صالح أيضًا سُمَيٌّ، قال ابن عدي[1]: حدثنا عيسىٰ بن أحمد الصدفي بمصر، حدثنا الربيع بن سليمان الجيزي، حدثنا محمد بن وهب الدمشقي، حدثنا الوليد ابن مسلم، حدثنا مالك بن أنس، عن سُمَيٍّ ... فساقه، إلا أن فيه: «مَن عمل أو أجل أو أثر، فجرىٰ القلم بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة». وفيه: «فقال الجبَّار: ما خلقت خلقًا أعجب إليَّ منك» والباقي سواء. قال ابن عدي: باطل منكر، آفته محمد بن وهب، له غير حديث منكر. وقال في الميزان[2]: صدق ابن عدي في أن هذا الحديث باطل. وقد أخرجه[3] الدارقطني في الغرائب عن علي بن أحمد الأزرق عن أحمد بن جعفر بن أحمد الفِهْري عن الربيع بن سليمان الجيزي به وقال: هذا الحديث غير محفوظ عن مالك ولا عن سُمَيٍّ، والوليد بن مسلم ثقة، ومحمد بن وهب ومَن دونه ليس بهم بأس، وأخاف أن يكون دخل علىٰ بعضهم حديثٌ في حديث.

وأخرجه ابن عدي[4] والبيهقي[5] كلاهما من رواية حفص بن عمر، حدثنا الفضل بن عيسىٰ الرقاشي، عن أبي عثمان النهدي، عن أبي هريرة رفعه ... فساقه

---

(١) الكامل في الضعفاء ٦/ ٢٢٧٢.

(٢) ميزان الاعتدال ٤/ ٦١.

(٣) انظر: لسان الميزان لابن حجر ٧/ ٥٧٣.

(٤) الكامل في الضعفاء ٦/ ٢٠٤٠.

(٥) شعب الإيمان ٦/ ٣٤٩.

بمثل سياق حديث أبي أمامة السابق. والفضل، قال فيه يحيىٰ: رجل سوء[١]. وحفص بن عمر قاضي حلب، قال ابن حبان[٢]: يروي الموضوعات عن الثقات، لا يحل الاحتجاج به. وأخرجه الدارقطني[٣] من رواية الحسن بن عرفة، حدثنا سيف بن محمد، عن سفيان الثوري، عن الفضل بن عثمان، عن أبي هريرة به. وسيف كذَّاب بالإجماع.

ثم قال العراقي: وأما حديث الحسن عن عدة فرواه الترمذي الحكيم[٤] أيضًا قال: حدثنا عبد الرحيم بن حبيب، حدثنا داود بن المحبَّر، حدثنا الحسن بن دينار قال: سمعت الحسن قال: حدثني عدة من أصحاب رسول الله ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه لمَّا خلق الله العقل ... الحديث، وزاد فيه: «ثم قال له: اقعد، فقعد، ثم قال له: انطق، فنطق[٥]، ثم قال له: اصمت، فصمت، فقال: وعزَّتي وجلالي وعظمتي وكبريائي وسلطاني وجبروتي، ما خلقت خلقًا أحب إليَّ منك، ولا أكرم عليَّ منك، بك أُعرَف، وبك أُحمَد، وبك أُطاع، وبك آخذ، وبك أعطي، وإياك أعاتب، ولك الثواب، وعليك العقاب». ورجاله كلهم هلكىٰ إلا الحسن البصري، وعبد الرحيم بن حبيب الفاريابي ليس بشيء؛ قاله يحيىٰ بن معين[٦]، وقال ابن حبان[٧]: لعله وضع أكثر من خمسمائة حديث. وداود تقدم، والحسن بن دينار ضعيف

---

(١) في ميزان الاعتدال ٣/ ٣٥٦: «قال أحمد بن زهير: سألت ابن معين عن الفضل الرقاشي، فقال: كان قاصا رجل سوء. قلت: فحديثه؟ قال: لا تسل عن القدري الخبيث».

(٢) المجروحون من المحدثين ١/ ٣١٦.

(٣) ومن طريقه أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ١٧٤.

(٤) نوادر الأصول ٢/ ٧٦٤.

(٥) في المطبوعة: انطلق فانطلق. وأثبت ما في نوادر الأصول ليناسب ما بعده.

(٦) ميزان الاعتدال ٢/ ٦٠٣.

(٧) المجروحون من المحدثين ٢/ ١٥٢ ونصه: «كان يضع الحديث علىٰ الثقات وضعًا، لا تحل الرواية عنه ولا كتابة حديثه إلا للمتبحر في هذه الصناعة، ولعل هذا الشيخ وضع أكثر من خمسمائة حديث علىٰ رسول الله ﷺ رواها عن الثقات».

أيضًا. وقد رواه داود بن المحبَّر في «العقل» مرسلاً فقال: حدثنا صالح المُرِّي، عن الحسن بن أبي الحسن ... فذكره أخصر من هذا. وبالجملة، فطرقه كلها ضعيفة.

قلت: وقال الترمذي الحكيم[١] أيضًا: وحدثنا الفضل بن محمد، حدثنا هشام ابن خالد، عن بقية، عن الأوزاعي، عن رسول الله ﷺ به.

وقوله: وقد رواه داود بن المحبَّر في العقل مرسلاً ... الخ، أخرجه البيهقي[٢] بعد أن ساق الحديث من رواية حفص بن عمر السابقة وقال: إسناده غير قوي، وهو مشهور من قول الحسن، أخبرنا أبو طاهر محمد بن [محمد بن] محمش، أخبرنا أبو طاهر المحمدآبادي، حدثنا الفضل بن محمد بن المسيب، حدثنا عبيد الله بن محمد العائشي، حدثنا صالح المُرِّي، عن الحسن قال: لما خلق الله تعالىٰ العقل ... فساقه.

وقال عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد[٣]: حدثنا علي بن مسلم، حدثنا سيَّار، حدثنا جعفر، حدثنا مالك بن دينار، عن الحسن يرفعه: «لمَّا خلق الله العقل قال له: أقبِلْ، فأقبَلَ، ثم قال له: أدبِرْ، فأدبَرَ، ثم قال: ما خلقت شيئًا أحسن منك، بك آخذ، وبك أعطي».

فهذا - كما ترىٰ - سند جيد، فقول الحافظ العراقي «وبالجملة فطرقه كلها ضعيفة» محل تأمُّلٍ، وكذا إيراد ابن الجوزي [له] في الموضوعات، وتبعه ابن تيمية والزركشي[٤] وغير هؤلاء[٥]، فغاية ما يقال فيه إنه ضعيف في بعض طرقه.

---

(١) نوادر الأصول ٢/ ٧٦٤.

(٢) شعب الإيمان ٦/ ٣٤٩.

(٣) الزهد ص ٢٥٩. وفيه: ما خلقت خلقا أحب إلي منك.

(٤) اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة ص ١٨٩.

(٥) كالسيوطي في اللآلئ المصنوعة ١/ ١٢٩ - ١٣٢، وابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٢٠٣، والسخاوي في المقاصد الحسنة ص ١١٨.

وقد رُوي الحديث أيضًا عن عليٍّ رضي الله عنه، قال الحافظ السيوطي في «اللآلئ المصنوعة»[١]: وقال الخطيب[٢]: أخبرني علي بن أحمد الرزَّار، أخبرنا أبو الفرج علي بن الحسين الكاتب، أخبرني أبو جعفر أحمد بن محمد بن نصر القاضي، حدثني محمد بن الحسن الزرقي[٣]، حدثني موسىٰ بن عبد الله بن [موسىٰ بن عبد الله بن][٤] الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، حدثتني فاطمة ابنة سعيد بن عقبة بن شداد بن أمية الجُهَني، عن أبيها، عن زيد بن علي، عن أبيه، عن جده، عن علي، عن النبي ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم، ثم خلق الدواة ...» فساقه، وفيه: «وخلق العقل، فاستنطقه فأجابه، ثم قال له: اذهب، فذهب، ثم قال له: أقبِلْ، فأقبَلَ، ثم استنطقه فأجابه، ثم قال: وعزَّتي وجلالي، ما خلقت من شيء أحب إليَّ منك ولا أحسن منك ...» إلىٰ آخر ما ذكره.

(**فإن قلتَ: فهذا العقل إن كان عَرَضًا فكيف خُلق قبل الأجسام**)؟ لأن الأعراض لا تقوم بأنفُسها (**وإن كان جوهرًا فكيف يكون جوهرًا قائمًا بنفسه ولا يتحيَّز؟ فاعلمْ أن هذا من**) مسائل (**علم المكاشفة، ولا ينبغي ذِكره**) وفي نسخة: ولا يليق ذِكرُه (**بعلم المعاملة، وغرضنا الآن**) هنا (**ذِكرُ علوم المعاملة**) وهذا البحث قد أورده الراغب في الذريعة مختصرًا فقال[٥]: العقل أول جوهر أوجده الله تعالىٰ وشرَّفه، بدليل الحديث المرفوع: «أول ما خلق الله العقل ...» الخ، ولو كان علىٰ ما توهَّمه قومٌ أنه عَرَضٌ لَما صح أن يكون أول مخلوق؛ لأنه محال وجود شيء من الأعراض قبل وجود جوهر يحمله. ا.هـ.

---

(١) اللآلئ المصنوعة ١/ ١٣١.

(٢) تاريخ بغداد ١٥/ ٣١.

(٣) في المطبوعة واللآلئ: الرقي. والمثبت من تاريخ بغداد.

(٤) زيادة من تاريخ بغداد.

(٥) الذريعة ص ٩٢.

وتحقيق المقام: أن الجوهر[١] ماهية إذا وُجدت في الأعيان كانت لا في موضوع، وهو منحصر في خمسة: هَيُولي، وصورة، وجسم، ونفْس، وعقل؛ لأنه إما أن يكون مجرَّدًا أو لا، والأول إما أن لا يتعلق بالبدن تعلق تدبير وتصريف أو يتعلق، والأول العقل، والثاني النفس. وغير المجرَّد إما أن يكون مركَّبًا أو لا، والأول الجسم، والثاني إما حال أو محل، الأول الصورة، والثاني الهيولي[٢]، وتسمىٰ: الحقيقة، فالجوهر ينقسم إلىٰ بسيط روحاني كالعقول والنفوس المجردَّة، وإلىٰ بسيط جسماني كالعناصر، وإلىٰ مركَّب في العقل دون الخارج كالماهيَّات الجوهرية المركَّبة من الجنس والفصل، وإلىٰ مركَّب منهما كالمولَّدات الثلاثة.

(و) قال داود بن المحبر في كتاب العقل[٣]: حدثنا سلاَّم أبو المنذر، عن موسىٰ ابن جابان (عن أنس) بن مالك (رضي الله عنه قال: **أثنىٰ قوم علىٰ رجل عند رسول الله ﷺ حتىٰ بالغوا**) ولفظ داود: حتىٰ أبلغوا في الثناء في خصال الخير (**فقال**) النبي (ﷺ: **كيف عقلُ الرجل؟ فقالوا: نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله؟! فقال**) رسول الله (ﷺ: **إن الأحمق يصيب بجهله**) كذا في النسخ، وعند العراقي: بحمقه (**أعظم من فجور الفاجر، وإنما يرتفع العباد غدًا في الدرجات الزلفىٰ**) كذا في النسخ، وعند العراقي: زلفىٰ (**من ربهم علىٰ قَدْر عقولهم**) ولفظ داود: وينالون الزلفىٰ من ربهم. قال العراقي: سلاَّم هو ابن أبي الصهباء، ضعَّفه ابن معين[٤]، وقال البخاري[٥]:

---

(١) التعريفات للجرجاني ص ٨٣.

(٢) بعده في التعريفات: «وتسمىٰ هذه الحقيقة الجوهرية في اصطلاح أهل الله بالنفس الروحاني والهيولي الكلية وما يتعين منها، وصار موجودا من الموجودات بالكلمات الإلهية، قال الله تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ۝﴾».

(٣) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ٢/ ٨٠٢.

(٤) ميزان الاعتدال ٢/ ١٨٠.

(٥) التاريخ الكبير ٤/ ١٣٥.

منكَر الحديث. وقال ابن حبان[١]: لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد. وأما أحمد فقال: إنه حسن الحديث. ورواه الحكيم الترمذي في نوادره[٢] مختصرًا قال: حدثنا مهدي، حدثنا الحسن، عن عبد ربه، عن موسىٰ بن جابان، عن أنس بن مالك رفعه: «إن الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر، وإنما يقرب الناس الزُّلَف علىٰ قدر عقولهم». وفي إسناده جهالة.

(و) قال داود بن المحبر أيضًا في كتابه المذكور: حدثنا عَبَّاد عن زيد بن أسلم عن أبيه (**عن عمر**) بن الخطاب (رضي الله عنه) **أن رسول الله ﷺ قال: ما اكتسب رجل مثل فضل عقل**) ولفظ داود: ما اكتسب أحد مكتسَبًا مثل فضل العقل (**يهدي صاحبه إلىٰ هدىٰ، ويردُّه عن ردىٰ، وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتىٰ يكمُل عقلُه**) قال العراقي: ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده[٣] عن داود بن المحبر.

قلت: وأخرجه البيهقي[٤] عن عمر، ولفظه: «ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه إلىٰ هدىٰ، أو يرده عن ردىٰ».

وأخرجه الطبراني في الأوسط[٥] عنه أيضًا، ولفظه: «ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدي صاحبه إلىٰ هدىٰ، أو يرده عن ردًىٰ، ولا استقام دينه حتىٰ يستقيم عقله».

(**وقال**) داود بن المحبر أيضًا في كتابه المذكور[٦]: حدثنا مقاتل بن سليمان،

---

(١) المجروحون من المحدثين ١/ ٤٣١ ونصه: «ممن فحش خطؤه وكثر وهمه، لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد».

(٢) نوادر الأصول ٢/ ٧٦٩.

(٣) بغية الباحث ٢/ ٨٠٢.

(٤) شعب الإيمان ٦/ ٣٦٧.

(٥) المعجم الأوسط ٥/ ٧٩.

(٦) بغية الباحث ٢/ ٨١١.

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي (ﷺ) قال: (**إن الرجل لَيدركُ بحسن خلقه درجة الصائم القائم، ولا يتم لرجل حسن خلقه حتىٰ يتم عقلُه، فعند ذلك يتم إيمانه**) كذا في النسخ، وعند العراقي: تم إيمانه (**وأطاع ربه، وعصىٰ عدوه إبليس**) ولفظ داود: يعني إبليس. قال العراقي: ومقاتل بن سليمان المفسِّر ليس بشيء؛ قاله يحيىٰ بن معين[١]. وقال الجوزجاني[٢]: كان دجَّالاً جسورًا. وقال البخاري: سكتوا عنه[٣]. وقال النسائي وابن حبان[٤]: كان يكذب. وقال ابن عيينة: سمعت مقاتلاً يقول: إن لم يخرج الدجال [الأكبر] في سنة خمسين ومائة فاعلموا أنِّي كذَّاب. فيقال له: قد علمنا ذلك. وأول الحديث صحيح، رواه أبو داود[٥] من رواية المطَّلب بن عبد الله بن حنطب عن عائشة دون قوله: ولا يتم ... الخ، وإسناده صحيح.

قلت: وأخرجه الطبراني في الكبير[٦] عن أبي أمامة بلفظ: «إن الرجل لَيدركُ بحسن خلقه درجة القائم الليل الظامئ بالهواجر». وفيه عُفَير بن مَعْدان، وهو ضعيف.

ورواه الحاكم[٧] من حديث أبي هريرة وقال: هو علىٰ شرطهما. وأقرَّه

---

(١) ميزان الاعتدال ٤/ ١٧٣.

(٢) أحوال الرجال للجوزجاني ص ٢٠٢ (ط - مؤسسة الرسالة).

(٣) التاريخ الأوسط للبخاري ٤/ ٧٦٤ (ط - مكتبة الرشد بالرياض). والزيادة التي بين حاصرتين منه. وفيه أيضًا قول ابن عيينة الآتي. وفي التاريخ الكبير له ٨/ ١٤ ما نصه: «مقاتل بن سليمان الأزدي، لا شيء ألبتة».

(٤) المجروحون من المحدثين ٢/ ٣٤٨ ونصه: «كان يأخذ عن اليهود والنصارىٰ علم القرآن الذي يوافق كتبهم، وكان مشبها يشبه الرب بالمخلوقين، وكان يكذب مع ذلك في الحديث».

(٥) سنن أبي داود ٥/ ٢٧٥.

(٦) المعجم الكبير ٨/ ١٩٨.

(٧) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ١١٨ ولفظه: «إن الله ليبلغ العبد بحسن خلقه درجة الصوم والصلاة». ثم قال: صحيح علىٰ شرط مسلم.

الذهبي في التلخيص.

(و) قال داود بن المحبر أيضًا في كتابه المذكور: حدثنا عَبَّاد، حدثنا سهيل، عن أبيه (**عن أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه **أنه** ﷺ **قال: لكل شيء دِعامة، ودعامة المؤمن عقلُه، فبقَدْر عقله تكون عبادته**) لربه عز وجل (**أما سمعتم قول الفاجر**) عند ندامته (**في النار**: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝﴾) [الملك: ١٠] قال البيضاوي[١]: لو كنا نسمع كلام الرسل فنقبله جملةً من غير بحث وتفتيش اعتمادًا على ما لاح من صدقهم بالمعجزات، أو نعقل فنتفكَّر في حِكَمه ومعانيه تفكُّر المستبصرين ما كنا في عِداد أصحاب السعير ومن جملتهم.

قال العراقي: ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده[٢] عن داود.

(و) قال داود بن المحبر أيضًا في كتابه المذكور: حدثنا عَبَّاد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه (**عن عمر**) بن الخطاب (رضي الله عنه **أنه قال لتميم**) بن أوس بن خارجة (**الداري**) أبي رقية، صحابي مشهور، مات سنة أربعين (**ما السؤدد فيكم**)؟ السؤدد كقنفذ بغير همز، ومهموزًا في لغة طَيِّء، وكجندَب: السيادة والشرف (**قال: العقل. قال**) عمر: (**صدقتَ، سألتُ رسول الله** ﷺ **كما سألتك فقال كما قلتَ ثم قال: سألت جبريل** عليه السلام: **ما السؤدد؟ فقال: العقل**) ولفظ داود: سألت جبريل عن السؤدد في الناس. قال العراقي: ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده[٣] عن داود، ورواه أبو بكر ابن لال في «مكارم الأخلاق» عن عبد الرحمن ابن حَمْدان الجَلاَّب عن الحارث.

(و) قال داود بن المحبر أيضًا في كتابه المذكور: حدثنا غياث بن إبراهيم، عن الربيع بن لوط الأنصاري، عن أبيه، عن جده (**عن البراء بن عازب**) بن الحارث

(١) تفسير البيضاوي ٥/ ٢٢٩.

(٢) بغية الباحث ٢/ ٨١٣.

(٣) السابق ٢/ ٨١٢.

ابن عدي الأوسي[١]، صحابي ابن صحابي، نزل الكوفة، مات سنة اثنتين وسبعين (**قال: كثرت المسائل يومًا علىٰ رسول الله ﷺ**) ولفظ داود: كثرت المسائل علىٰ رسول الله ﷺ ذات يوم (**فقال: يا أيها الناس، إن لكل شيء مطية، ومطية المرء العقل، وأحسنكم دلالة ومعرفة بالحُجَّة أفضلكم عقلاً**) وعند العراقي: أحسنهم وأفضلهم، بضمير الغائب في الموضعين. ولفظ داود: «إن لكل سبيل مطية وثيقة وحُجَّة واضحة، وأوثق الناس مطية وأحسنهم دلالة ومعرفة بالحجة الواضحة أفضلهم عقلاً».

قال العراقي: ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده[٢] عن داود. وغياث بن إبراهيم النخعي أحد الوضَّاعين.

(و) قال داود بن المحبر أيضًا في كتابه المذكور[٣]: حدثنا عبَّاد عن عبد الله ابن طاووس (**عن أبي هريرة** رضي الله عنه **قال: لما رجع رسول الله** ﷺ **من غزوة أُحُد**) وكانت في شوَّال سنة ثلاث من الهجرة (**سمع الناس يقولون**) كان (**فلان أشجع من فلان**) زاد داود هنا: وكان فلان أجرأ من فلان (**وفلان أُبلِيَ**) أي امتُحن في ذات الله (**ما لم يُبْلَ غيره، ونحو هذا**) زاد داود: يطرونهم (**فقال النبي** ﷺ: **أما هذا فلا علم لكم به**) ولفظ داود: لا علم لكم به (**قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ فقال**) رسول الله (ﷺ: **إنهم قاتلوا علىٰ قَدْر ما قسم الله لهم من العقل، وكانت نصرتهم ونيَّتهم علىٰ قدر عقولهم، فأصيبَ منهم مَن أصيب علىٰ منازل شتَّىٰ، فإذا كان يوم القيامة اقتسموا المنازل علىٰ قَدْر نيَّاتهم وقدر عقولهم**) ولفظ داود: علىٰ قدر حسن نياتهم. قال العراقي: ولعله سقط منه ذِكرُ طاووس، وإلا فعبد الله بن طاووس إنما روىٰ عن التابعين.

---

(١) كذا هنا، وهو خطأ، فالبراء بن عازب خزرجي. انظر: الاستيعاب لابن عبد البر ١/ ٩٩.

(٢) بغية الباحث ٢/ ٨٠١.

(٣) السابق ٢/ ٨٠٢.

(و) قال داود بن المحبر أيضًا في كتابه المذكور: حدثنا ميسرة، عن حنظلة بن وداعة الدؤلي، عن أبيه **(عن البراء بن عازب)** ﷺ **(أنه قال)** ولفظ داود: سمعت النبي (ﷺ) يقول: (**جدَّ الملائكةُ واجتهدوا في طاعة الله سبحانه وتعالىٰ بالعقل، وجد المؤمنون من بني آدم**) زاد داود هنا: واجتهدوا في طاعة ربهم (**علىٰ قدر عقولهم، فأعملهم بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ أوفرهم عقلاً**) قال العراقي: ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده[1] عن داود، وهكذا غيَّر داودُ عمَّا حدَّث به ميسرة بن عبد ربه فجعله داودُ عن البراء بن عازب، وإنما هو أبو عازب، رجل آخر ذُكر في الصحابة، هكذا رواه أبو القاسم البغوي في «معجم الصحابة» قال: حدثني محمد ابن علي الجوزجاني، حدثنا حسين بن محمد أبو أحمد، حدثنا ميسرة بن عبد ربه. وحسين بن [محمد] المروزُّوذي البغدادي، ما علمنا فيه جرحًا، وقد أتاه أبو حاتم الرازي يسمع منه تفسير شيبان فلم يتفق[2]، فهو أَولىٰ من داود بن المحبر. والله أعلم.

قلت: وقد تقدَّم شيء من حال ميسرة، وهو ميسرة بن عبد ربه الفارسي ثم البصري التَّراس الأكَّال. وفي الميزان[3]: قال ابن حبان[4]: كان يروي الموضوعات عن الأثبات، وهو واضع حديث فضائل القرآن. وقال أبو داود: أقرَّ بوضع الحديث. وقال أبو زُرعة[5]: وضع في فضل قزوين أربعين حديثًا، وكان يقول: أحتسب في ذلك.

---

(١) السابق ٢/ ٨٠٤.

(٢) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣/ ٦٤ ونصه: «سمعت أبي يقول: أتيته - أي حسين - مرارا بعد فراغه من تفسير شيبان وسألته أن يعيد عليَّ بعض المجلس، فقال: بكِّرْ بكر، ولم أسمع منه شيئا».

(٣) ميزان الاعتدال ٤/ ٢٣٠.

(٤) المجروحون من المحدثين ٢/ ٣٤٤ - ٣٤٥ ونصه: «كان يروي الموضوعات عن الأثبات، ويضع المعضلات علىٰ الثقات في الحث علىٰ الخير والزجر عن الشر، لا تحل كتابة حديثه إلا علىٰ سبيل الاعتبار، وهو صاحب حديث فضائل القرآن الطويل: من قرأ كذا فله كذا».

(٥) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٤.

(و) قال داود في كتابه المذكور أيضًا[1]: حدثنا ميسرة، عن محمد بن زيد، عن عمرة (**عن عائشة** ﵂ **قالت: قلت: يا رسول الله، بِمَ**) وفي نسخة العراقي: بأيِّ شيء (**يتفاضل الناس في الدنيا؟ قال: بالعقل. قلت: ففي الآخرة؟ قال: بالعقل. قلت: أليس إنما يُجزَون بأعمالهم**)؟ ولفظ داود: بقَدْر أعمالهم (**فقال** ﷺ: **يا عائشة، وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله من العقل، فبقدر ما أُعطوا من العقل كانت أعمالهم، وبقدر ما عملوا يُجزَون**) قال العراقي: رواه الحكيم الترمذي في نوادره[2] فقال: حدثنا محمد بن الحسن، حدثنا أبي، عن هاشم بن القاسم، عن ميسرة، عن عَبَّاد بن كثير، عن محمد بن زيد. فزاد في إسناده بين ميسرة ومحمد ابن زيد عبادَ بن كثير، ولفظه: بأي شيء يتفاضل الناس؟ قال: «بالعقل في الدنيا والآخرة». قلت: أليس يُجزَىٰ الناس بأعمالهم؟ قال: «يا عائشة، وهل يعمل بطاعة الله إلا مَن عقل؟ فبقدر عقولهم يعملون، وعلىٰ قدر ما يعملون يُجزَون».

قلت: وفي «اللآلئ المصنوعة» للحافظ السيوطي[3]: الحارث بن أبي أسامة: حدثنا داود بن المحبر، حدثنا عبَّاد بن كثير، عن ابن جُرَيج، عن عطاء، عن ابن عباس أنه دخل علىٰ عائشة فقال: يا أم المؤمنين، الرجل يقلُّ قيامه ويكثر رقادُه، وآخر يكثر قيامُه ويقل رقاده، أيُّهما أحب إليكِ؟ فقالت: سألتُ رسول الله ﷺ كما سألتَني، فقال: «أحسنهما عقلاً». فقلت: يا رسول الله، أسألك عن عبادتهما. فقال: «يا عائشة، إنما يُسألان عن عقولهما، فمن كان أعقل كان أفضل في الدنيا والآخرة». قال ابن الجوزي[4]: موضوع.

(و) قال داود بن المحبر أيضًا في كتابه المذكور: حدثنا ميسرة، عن غالب،

---

(١) بغية الباحث ٢/ ٨٠٥.

(٢) نوادر الأصول ٢/ ٧٦٨.

(٣) اللآلئ المصنوعة ١/ ١٢٨.

(٤) الموضوعات ١/ ١٧٦ ونصه: «هذا حديث لا يصح».

عن ابن حنين (**عن ابن عباس** رضي الله عنهما **قال: قال رسول الله** ﷺ: **لكل شيء آلة وعُدَّة، وإن آلة المؤمن العقل**) ولفظ داود: وإن آلة المؤمن وعُدَّته العقل (**ولكل شيء مطية، ومطية المرء العقل**) وفي نسخة العراقي: ومطية المؤمن العقل (**ولكل شيء دعامة، ودعامة الدين العقل، ولكل قوة**) وفي بعض النسخ: قوم، بدل: قوة. وفي نسخة العراقي: ولكل شيء (**غاية، وغاية العِباد**) كذا في النسخ، وفي نسخة العراقي: العبادة (**العقل، ولكل قوم داعٍ، وداعي العابدين**) هكذا بالدال في سائر النسخ في الموضعين، وعند العراقي بالراء فيهما (**العقل، ولكل تاجر بضاعة، وبضاعة المجتهدين العقل، ولكل أهل بيت قيِّم**) كسيِّدٍ، وهو من يقوم بأمور البيت (**وقَيِّم بيوت الصِّدِّيقين العقل، ولكل خراب عمارة، وعمارة الآخرة العقل، ولكل امرئ عقب يُنسَب إليه**) ولفظ داود: عمل وعقب يُنسَب إليه (**ويُذكَر به، وعقب الصِّدِّيقين الذي يُنسَبون إليه ويُذكَرون به العقل، ولكل سفر فسطاط**) وهي الخيمة (**وفسطاط المؤمنين العقل**) ولفظ داود: ولكل سفر فسطاط يلجأون إليه. قال العراقي: ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده[1] عن داود.

(وقال) داود بن المحبر أيضًا في كتابه المذكور: حدثنا ميسرة، عن محمد، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه أن النبي (ﷺ) قال: (**إن أحب المؤمنين إلىٰ الله** عز وجل **مَن نصب في طاعة الله** عز وجل**، ونصح لعباده، وكمل عقلُه، ونصح نفسه**) وعند داود بعد قوله «عقله»: وتفقَّه وصح يقينُه (**فأبصر وعمل به أيام حياته فأفلح وأنجح**) ولفظ داود: وعمل لله، بدل: به. قال العراقي: رواه الديلمي في مسند الفردوس من رواية حبيب كاتب مالك عن محمد بن عبد السلام عن الزهري عن سالم عن أبيه، فجعله من حديث عبد الله بن عمر، وحبيب بن أبي حبيب كاتب مالك متفَق علىٰ ضعفه، وقال أبو داود: كان من أكذب الناس.

---

(١) بغية الباحث ٢/ ٨٠٦.

قلت: وزاد في الميزان[١]: قال ابن عدي[٢]: أحاديثه كلها موضوعة. وقال ابن حبان[٣]: كان يورق بالمدينة علىٰ الشيوخ، ويروي عن الثقات الموضوعات، كان يُدخِل عليهم ما ليس من حديثهم.

(وقال) داود بن المحبر أيضًا في كتابه المذكور[٤]: حدثنا ميسرة، عن محمد ابن زيد، عن أبي سلمة، عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت قول الله عز وجل: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧، الملك: ٢] [ما عني به؟ قال: «أيكم أحسن عقلاً». ثم] قال (ﷺ: **أتمُّكم عقلاً أشدكم لله تعالىٰ خوفًا، وأحسنكم فيما أمركم به ونهىٰ عنه نظرًا**) ولفظ داود: فيما أمر الله به ونهىٰ عنه **(وإن كان)** ولفظ داود: وإن كانوا **(أقلكم تطوعًا)** وأخرج ابن عدي[٥] من رواية محمد بن وهب الدمشقي، عن الوليد بن مسلم، عن مالك، عن سُمَيٍّ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رفعه: «أكمل الناس عقلاً أطوعهم لله وأعملُهم بطاعته، وأنقص الناس عقلاً أطوعهم للشيطان وأعملهم بطاعته». قال في الميزان[٦]: هو حديث باطل منكَر، آفته من محمد بن وهب. وقال الدارقطني[٧]: هو حديث غير محفوظ. والله أعلم.

(١) ميزان الاعتدال ١/ ٤٥٢.

(٢) الكامل في الضعفاء ٢/ ٤٥٢.

(٣) المجروحون من المحدثين ١/ ٣٢٣.

(٤) بغية الباحث ٢/ ٨٠٤. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٥) الكامل في الضعفاء ٦/ ٢٢٧٣.

(٦) ميزان الاعتدال ٤/ ٦١.

(٧) لسان الميزان لابن حجر ٧/ ٥٧٣. اللآلئ المصنوعة للسيوطي ١/ ١٣١.

بيان حقيقة العقل وأقسامه

حقيقة الشيء[١]: ما به الشيء هو هو، كالحيوان الناطق للإنسان، بخلاف نحو الضاحك والكاتب مما يُتصوَّر الإنسان بدونه، وقد يقال: إن ما به الشيء هو هو باعتبار تحقُّقه حقيقة، وباعتبار تشخُّصه هويَّة، ومع قطع النظر عن ذلك ماهية.

(اعلمْ أن الناس اختلفوا في حد العقل وحقيقته) علىٰ أقوال شتَّىٰ **(وذهل الأكثرون)** أي غفلوا **(عن علم هذا الاسم)** ومعرفته **(لكونه يطلق علىٰ معانٍ مختلفة، فصار ذلك سبب اختلافهم)** فيه، ولم يقتصروا علىٰ الخلاف في حقيقته فقط، بل اختلفوا فيه من جهات[٢]: هل له حقيقة تُدرَك أو لا؟ قولان، وعلىٰ أن له حقيقة هل هو جوهر أو عَرَضٌ؟ قولان، وهل محله الرأس أو القلب؟ قولان، وهل العقول متفاوتة أو متساوية؟ قولان، وهل هو اسم جنس أو جنس أو نوع؟ ثلاثة أقوال. فهي أحد عشر قولاً. ثم القائلون بالجوهرية أو العَرَضية اختلفوا في اسمه علىٰ أقوال، أعدلُها قولان، فعلىٰ أنه عَرَضٌ هو: مَلَكة للنفس تستعدُّ بها للعلوم والإدراكات، وعلىٰ أنه جوهر هو: جوهر لطيف تُدرَك به الغائبات بالوسائط، والمحسوسات بالمشاهدات، خلقه الله في الدماغ، وجعل نوره في القلب. نقله الأَبْشيطي.

وأما الاختلاف في حدِّه وحقيقته، فالعقل: العلم، وعليه اقتصر كثيرون، وفي الصحاح[٣] والعُباب: هو الحِجْر والنُّهْية. وفي المحكَم[٤]: ضد الحُمْق. أو هو علم

---

(١) التعريفات للجرجاني ص ٩٥.

(٢) تقريب البعيد إلىٰ جوهرة التوحيد لعلي بن محمد الصفاقسي ص ١٣٩ (ط - مؤسسة المعارف ببيروت).

(٣) الصحاح للجوهري ٥/ ١٧٦٩.

(٤) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ١/ ١١٨.

بصفات الأشياء من حُسنها وقبحها وكمالها ونقصانها، أو هو علم بخير الخيرينِ وشر الشرين، أو مطلق الأمور، أو لقوة يكون بها التمييزُ بين القبح والحسن، ولمعانٍ مجتمعة في الذهن يكون بمقدِّمات تستتبُّ بها الأغراضُ والمصالح، ولهيئة محمودة في الإنسان في حركاته وكلامه[١] ... إلىٰ غير ذلك من الحدود والتعاريف.

(**والحق الكاشف للغطاء**) أي الحجاب (**فيه**) أي في هذا البحث (**أن العقل اسم يطلق بالاشتراك علىٰ أربعة معانٍ**) مختلفة (**كما يطلق اسم العين**) بالوضع الكثير (**مثلاً علىٰ معانٍ عدة**) أي كثيرة، ومعنىٰ الكثرة ما يقابل الوحدة لا ما يقابل القلة (**وما يجري هذا المجرىٰ، فلا ينبغي أن يُطلَب لجميع أقسامه حد واحد**) يجمعه (**بل يُفرَد كل قسم**) من أقسامه (**بالكشف عنه**) والبحث فيه:

(**فالأول**) من معانيه هو (**الوصف الذي يفارق الإنسان**) ويتميز (**به**) عن (**سائر البهائم، وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفيَّة الفكرية**) أي الخفيَّة المَدْرَك، الدقيقة التي تحتاج إلىٰ إعمال الفكر (**وهو الذي أراده**) أي عني به الإمامُ أبو عبد الله (**الحارث بن أسد المحاسبي**) رحمه الله تعالىٰ، وقد تقدمت ترجمته في أول الكتاب (**حيث قال**) في كتابه الرعاية (**في حد العقل: إنه غريزة يتهيَّأ بها إدراك العلوم النظرية، وكأنه نور يُقذَف في القلب، به يستعد لإدراك الأشياء**) وأخرج ابن السبكي في طبقاته[٢] في ترجمة الحارث المذكور من رواية أبي سعد الماليني قال: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد النسائي، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله المَلَطي، أخبرنا محمد بن أحمد بن أبي شيخ قال: قال لي أحمد بن الحسن الأنصاري: سألت الحارث المحاسبي عن العقل، فقال: نور الغريزة مع التجارب يزيد ويقوَىٰ بالعلم والحِلم.

قال ابن السبكي: هذا الذي قاله الحارث في العقل قريب مما نُقل عنه أنه

---

(١) هذه التعاريف ذكرها الفيروزآبادي في القاموس المحيط. انظر: تاج العروس ٣٠/ ١٨.

(٢) طبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/ ٢٨١.

غريزة يتأتَّىٰ بها درك العلوم.

وقال إمام الحرمين في البرهان[١] عند الكلام في معرفة العقل: وما حوَّم عليه أحد من علمائنا غير الحارث المحاسبي؛ فإنه قال: العقل غريزة يتأتَّىٰ بها درك العلوم، وليست منها. ا.هـ.

وقد ارتضىٰ الإمام كلام الحارث هذا كما ترىٰ، وقال عقيبه: إنه صفة إذا ثبتت يتأتَّىٰ بها التوصل إلىٰ العلوم النظرية ومقدماتها من الضروريات التي هي مستنَد النظريات.

قال ابن السبكي: وهو منه بناء علىٰ أن العقل ليس بعلم، والمعزو إلىٰ الشيخ أبي الحسن الأشعري أنه العلم، وقال القاضي أبو بكر[٢] إنه بعض العلوم الضرورية، والإمام حكىٰ في «الشامل» مقالة الحارث هذه التي استحسنها وقال: إنَّا لا نرضاها، ونتَّهم فيها النَّقَلةَ عنه. ثم قال: ولو صح النقل عنه فمعناه أن العقل ليس بمعرفة الله تعالىٰ، وهو إذا أطلق المعرفة أراد بها معرفة الله تعالىٰ، فكأنَّه قال: ليس العقل بنفسه بمعرفة الله تعالىٰ، ولكنه غريزة، وعنىٰ بالغريزة أنه عالم لأمر جبل الله عليه العاقل، ويُتوصل به إلىٰ معرفة الله تعالىٰ. ا.هـ. كلامه في الشامل.

قال ابن السبكي: والمنقول عن الحارث ثابت عنه، وقد نص عليه في كتاب الرعاية، وكأنَّ إمام الحرمين نظر[٣] كلام الحارث بعد ذلك ثم لاحت له صحة ذلك بعد ما كان لا يرضاه. ا.هـ. سياق ابن السبكي.

قلت: واختلف كلام إمام الحرمين في كتابه «الإرشاد»، فنقل شيخنا[٤] عن

---

(١) البرهان في أصول الفقه ١/ ١١٢ - ١١٣.

(٢) انظر: المستصفىٰ من علم الأصول للغزالي ١/ ٧١. والمقصود بالقاضي أبي بكر هو الباقلاني.

(٣) في المطبوعة: نقل. والمثبت من طبقات السبكي.

(٤) تاج العروس ٣٠/ ١٩.

ابن مرزوق قال: قال الإمام في الإرشاد[1]: العقل هو علوم ضرورية، بها يتميز العاقل عن غيره إذا اتَّصف، وهي العلم بوجوب الواجبات، واستحالة المستحيلات، وجواز الجائزات. قال: وهو تفسير العقل الذي هو شرط في التكليف، ولسنا نذكر تفسيره بغير هذا، وهو عند غيره من الهيئات والكيفيات الراسخة من مقولة الكيف، فهو صفة راسخة توجب لمَن قامت به إدراكَ المدرَكات على ما هي عليه ما لم تتَّصف بضدها. ا.هـ.

وقال في موضع آخر من كتابه: العقل علوم ضرورية، والدليل على أنه من العلوم [الضرورية] استحالة الاتصاف به مع تقدير الخلوِّ عن جميع العلوم، وليس العقل من العلوم النظرية؛ إذ شرط [ابتداء] النظر تقدُّم[2] العقل، وليس العقل جميع العلوم الضرورية؛ فإن الضرير ومَن لا يدرك يتصف بالعقل مع انتفاء علوم ضرورية عنه، فبان بهذا أن العقل [بعض] من العلوم الضرورية، وليس كلها. ا.هـ.

وإلى هذا الكلام الأخير نظر المصنفُ فقال: (**ولم ينصف مَن أنكر هذا**) أي مقالة المحاسبي (**ورد العقلَ إلى مجرد العلوم الضرورية**) وقال ابن السبكي في الطبقات: واعلمْ أنه ليس في ارتضاء مذهب الحارث واعتقاده ما يُنتقَد، ولا يلزمه قوله بالطبائع ولا شيء من مقالات الفلاسفة كما ظنَّه بعض شُرَّاح «البرهان»، وقول إمام الحرمين «أنه أراد معرفة الله» ممنوع، فقد قدَّمنا عن الحارث بالإسناد قوله: نور الغريزة يقوَى ويزيد بالتقوى. نعم، الحارث لا يريد بكونه نورًا ما تدَّعيه الفلاسفةُ.

(**فإن الغافل عن العلوم والنائم يُسمَّيان عاقلينِ باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما**) واتصاف كلٍّ منهما بها (**مع فقدِ العلوم**) الضرورية (**وكما أن الحياة**) وهي

---

(١) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد لإمام الحرمين ص ١٥ - ١٦ (ط - مكتبة الخانجي بالقاهرة). والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٢) في المطبوعة والتاج: تعذر. والمثبت من الإرشاد.

صفة توجب للمتَّصف بها العلم والقدرة[1] (**غريزة بها يتهيَّأ**) ويستعد (**الجسمُ للحركات الاختيارية والإدراكات الحسية فكذلك العقل غريزة بها تتهيَّأ بعض الحيوانات للعلوم النظرية، ولو جاز أن يُسوَّىٰ بين الإنسان والحمار في الغريزة والإدراكات الحسية فيقال: لا فرق بينهما، إلا أن الله تعالىٰ بحكم إجراء العادة يخلق في الإنسان علومًا، وليس يخلقها في الحمار والبهائم - لجاز أن يُسوَّىٰ بين الحمار والجماد في الحياة**) نظرًا إلىٰ القوة النامية (**ويقال: لا فرق، إلا أن الله** عَزَّوَجَلَّ **يخلق في الحمار حركات مخصوصة بحكم إجراء العادة، فإنه لو قَدَّر الحمارَ جمادًا ميتًا لوجب القولُ بأن كل حركة تُشاهَد منه فالله سبحانه وتعالىٰ قادر علىٰ خلقها فيه علىٰ الترتيب المشاهَد، وكما وجب أن يقال: لم تكن مفارقته للجماد في الحركات إلا بغريزة اختُصَّت به عُبِّرَ عنها بالحياة، فكذا مفارقة الإنسان البهيمة في إدراك العلوم النظرية بغريزة يُعبَّر عنها بالعقل**) فثبت بما ذُكر تصحيحُ قول المحاسبي (**وهو**) أي العقل (**كالمرآة**) المجلوَّة (**التي تفارق غيرَها من الأجسام في حكاية الصور والألوان**) كما هي (**بصفة اختُصَّت بها وهي الصقالة**) والجلاء (**وكذلك العين تفارق الجبهة**) وهي ما بين الجبينينِ (**في صفات وهيئات بها استعدت**) وتهيأت (**للرؤية**) ترىٰ بها المرئيات علىٰ اختلاف أنواعها وأجناسها (**فنسبة هذه الغريزة إلىٰ العلوم كنسبة العين إلىٰ الرؤية، ونسبة القرآن والشرع إلىٰ هذه الغريزة في سياقها إلىٰ انكشاف العلوم لها**) بالظهور التام (**كنسبة نور الشمس إلىٰ البصر، فهكذا ينبغي أن تُفهَم هذه الغريزة**) ولا عليك ممَّن أنكرها.

وقال الراغب في الذريعة[2] والمصنف[3] والفخر في كتاب «أسرار التنزيل»: العقل عقلان: غريزي وهو القوة المتهيِّئة لقبول العلوم، ووجوده في الطفل كوجود

---

(١) التعريفات للجرجاني ص ١٠٠. ونقله المناوي في التوقيف ص ١٤٩ عن ابن الكمال.

(٢) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ص ٩٣.

(٣) ميزان العمل للغزالي ص ٣٣٧ (ط - دار المعارف بالقاهرة).

النخل في النواة، والسنبلة في الحبة.

وسيأتي ذِكر القسم الثاني قريبًا.

(الثاني) من معاني العقل **(هي العلوم التي تخرج إلىٰ الوجود في ذات الطفل)** وهو[١] الولد الصغير **(المميِّز)** يقال: يبقىٰ عليه هذا الاسم حتىٰ يميِّز، ثم لا يقال له بعد ذلك طفل بل صبي، ونوزعَ بما في التهذيب[٢] أنه يقال له طفل حتىٰ يحتلم **(بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات)** ووجوب الواجبات **(كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين)** مختلفين **(في وقت واحد، وهو الذي عناه بعض المتكلِّمين)** وكأنَّه أشار بذلك إلىٰ إمام الحرمين **(حيث قال في حد العقل: إنه بعض العلوم الضرورية)** لا كلها. قال: والدليل علىٰ أنه من العلوم [الضرورية] استحالة الاتصاف به مع تقدير الخلوِّ عن جميع العلوم، وليس العقل جميع العلوم الضرورية؛ فإن الضرير ومَن لا يدرك يتصف بالعقل مع انتفاء علوم ضرورية عنه، فبان بهذا أن العقل من العلوم الضرورية، وليس كلها. كما تقدم ذلك نقلاً عن الإرشاد، وقال فيه أيضًا: إن العقل علوم ضرورية، بها يتميَّز العاقل عن غيره إذا اتَّصف **(كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات)** ووجوب الواجبات **(وهو أيضًا صحيح في نفسه؛ لأن هذه العلوم موجودة، وتسميتها عقلاً ظاهرة، وإنما الفاسد أن تُنكَر تلك الغريزة ويقال: لا موجود إلا هذه العلوم.**

---

(١) المصباح المنير ص ١٤٢ ونصه: «الطفل: الولد الصغير من الإنسان والدواب. قال ابن الأنباري: ويكون الطفل بلفظ واحد للمذكر والمؤنث والجمع، قال تعالىٰ: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ وتجوز المطابقة في التثنية والجمع والتأنيث فيقال: طفلة وأطفال وطفلات. قال بعضهم: ويبقىٰ هذا الاسم للولد حتىٰ يميز، ثم لا يقال له بعد ذلك طفل بل صبي وحزور ويافع ومراهق وبالغ».

(٢) تهذيب اللغة للأزهري ١٣/ ٣٤٨ ونصه: «قال أبو الهيثم: الصبي يدعىٰ طفلاً حين يسقط من أمه إلىٰ أن يحتلم».

الثالث) من معاني العقل **(علوم تُستفاد)** وتُتحصَّل **(من التجارب بمجاري الأحوال)** وتصاريفها **(فإنَّ مَن حنَّكته التجارب)** أي فعلت به ما يُفعَل بالفرس إذا حُنِّك حتىٰ عاد مجرَّبًا مذلَّلًا[١] **(وهذَّبته المذاهبُ)** بالتقلُّب فيها **(يقال: إنه عاقل في العادة، ومن لا يتَّصف بهذه الصفة فيقال: إنه غبي)** من الغباوة وهي الغفلة **(غُمر)** بالضم هو الجاهل، فقوله: **(جاهل)** بعد ذكر الغمر من العطف المترادف **(فهذا نوع آخر من العلوم يسمىٰ عقلاً)** وهذا القسم الذي جعله المصنف ثالثًا جعله الراغب في «الذريعة» ثانيًا فقال[٢]: ومستفاد، وهو الذي تتقوَّىٰ به تلك القوة، وهذا المستفاد ضربان: ضرب يحصل للإنسان حالاً فحالاً بلا اختيار منه [فلا يعرف كيف حصله ومن أين حصله] وضرب باختيار منه، فيعرف كيف حصَّله، ومن أين حصَّله، وحصوله بقدر اجتهاده في تحصيله، ويقال له: العلم الضروري، والعقل الغريزي للنفس بمنزلة البصر للجسد، والمستفاد لها بمنزلة النور، فكما أن الجسد متىٰ لم يكن له بصر فهو أعمىٰ، كذلك النفس متىٰ لم يكن لها بصيرة - أي عقل غريزي - فهي عمياء، وكما أن البدن متىٰ لم يكن له نور من الجو لم يُحَدَّ بصره، كذلك النفس متىٰ لم يكن لها نور من العلم مستفاد لم تُحَدَّ بصيرتها.

(الرابع: أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلىٰ أن يعرف عواقب) تلك **(الأمور، ويقمع الشهوات الداعية إلىٰ)** تحصيل **(اللذة العاجلة)** وهي الدنيوية **(ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة)** في إنسان **(سُمِّي صاحبها عاقلاً من حيث إن إقدامه وإحجامه)** أي كفه **(بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب)** أي عواقب الأمور، وسُمِّي تدبيرًا، وهو من جملة توابع العقل، وقد سُمِّي به مجازًا، كما سيأتي قريبًا **(لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضًا من خواصِّ الإنسان التي يتميز بها عن سائر الحيوان)** وإليه

---

(١) أساس البلاغة للزمخشري ١/ ٢١٨.

(٢) الذريعة ص ٩٤. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

يشير قول الشاعر[١]:

ومَن ترك العواقبَ مهملات فأيسر[٢] سعيه أبدًا تَبارُ

فهذه أربعة أقسام في العقل، وقسَّمه بعضهم[٣] من وجه آخر فقال: العقل هيولاني وبالمَلَكة وبالفعل ومستفاد، فالعقل الهيولاني: الاستعداد المحض لإدراك المعقولات، وهو قوة محضة خالية عن الفعل كما في الأطفال، وإنما نُسب إلىٰ الهيولي لأن النفس في هذه المرتبة تشبه الهيولي الأولىٰ الخالية في حد ذاتها عن الصور كلها، والعقل بالمَلَكة: العلم بالضروريات واستعداد النفس بذلك لاكتساب النظريات، والعقل بالفعل: أن تصير النظريات مخزونة عند القوة العاقلة بتكرار الاكتساب بحيث تحصل لها مَلَكةُ الاستحضار متىٰ شاءت من غير تجشُّم كسبٍ جديد [لكنها لا تشاهدها بالفعل] والعقل المستفاد: أن تحضر عنده النظريات التي أدركها بحيث لا تغيب عنه. ا.هـ. وهو تفصيل حسن.

(فالأول) من الأقسام (**هو الأسُّ**) بتثليث الهمزة (**والسِّنْح**) بكسر السين المهملة وسكون النون وآخره حاء مهملة[٤]، وهو الأصل (**والمنبع**) لأنه بمنزلة البصر من الجسد (**والثاني**) من الأقسام (**هو الفرع الأقرب إليه**) إذ بقوة الغريزة تُدرَك العلوم الضرورية (**والثالث**) من الأقسام (**فرع الأول والثاني؛ إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تُستفاد علوم التجارب. والرابع**) من الأقسام (**هو الثمرة الأخيرة، وهو الغاية القصوىٰ**) ومن هنا قال من قال في حقيقته: الحق أنه نور روحاني يُقذَف

---

(١) البيت بلا نسبة في: نهاية الأرب للنويري ٦/ ٤٣، والبيان والتبيين للجاحظ ١/ ٢٤٤ (ط - مكتبة الخانجي بالقاهرة)، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ١/ ٢١ (ط - مكتبة الحياة ببيروت)، وفيض القدير للمناوي ١/ ٢٧٠.

(٢) في المطبوعة: فأكثر. والتصويب من المصادر السابقة.

(٣) هو الجرجاني في التعريفات ص ١٥٧ - ١٥٨. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٤) ضبطه الشارح في الباب السادس بالخاء المعجمة، ونقلنا عن تاج العروس أن الحاء المهملة لغة فيه.

في القلب أو الدماغ، به تدرك النفسُ العلومَ الضرورية والنظرية[١]. فاقتصاره على هذا إنما هو نظرًا إلى أنه الغاية **(فالأوليان)** أي الغريزة والعلوم الضرورية **(بالطبع)** والجبلَّة فهو مبدَع **(والأخريان)** أي التجارب ومعرفة عواقب الأمور **(بالاكتساب)** فهو مكتسَب. قال صاحب الذريعة[٢]: ولاختلاف النظرينِ قال قوم: هو مبدع، وقال قوم: هو مكتسب، وكلا القولين صحيح من وجه، وفاسد من وجه[٣] **(ولذلك)** أي لكون العقل غريزيًّا ومستفادًا **(قال عليٌّ كرَّم الله وجهه)** فيما أورده صاحب القوت[٤] والذريعة والفخر في «أسرار التنزيل»: **(رأيت العقل)**[٥] هكذا في نسخ الكتاب، وفي الذريعة: ثم العقل، وفي المفردات[٦] وأسرار التنزيل: العقل **(عقلين)** وفي القوت: العلم علمان، بدل: العقل عقلان **(فمطبوع ومسموع، فلا ينفع مسموعٌ إذا لم يَكُ مطبوع، كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع)** وفي الذريعة: إذا لم يَكُ مسموع كما لا ينفع ضوء الشمس **(والأول)** أي العقل الغريزي المطبوع **(هو المراد)** ولفظ الذريعة: وإلى الأول أشار **(بقوله ﷺ: ما خلق الله عز وجل خلقًا أكرم عليه من العقل)** قال العراقي: رواه الحكيم الترمذي في النوادر بإسناد ضعيف من رواية الحسن البصري قال: حدثني عدَّة من أصحاب رسول الله ﷺ عن رسول الله ﷺ ... فذكر حديثًا فيه: إن الله تعالى قال: ما خلقت خلقًا أحب إليَّ منك، ولا أكرم عليَّ منك ... الحديث، وقد تقدم في ثالث حديث الباب.

قلت: وأشار إلى أنه ضعيف؛ لكون الترمذي المذكور رواه عن عبد الرحيم ابن حبيب عن داود بن المحبر عن الحسن بن دينار قال: سمعت الحسن. ورجاله

---

(١) تاج العروس ٣٠/ ١٩.

(٢) الذريعة ص ٩٤.

(٣) في الذريعة: صحيح من وجه ووجه.

(٤) قوت القلوب ١/ ٢٧٢ ولم ينسبه لعلي رضي الله عنه، بل قال: وقد أنشدنا لبعض الحكماء.

(٥) ديوان الإمام علي ص ١٢١ (ط - دار الكتب العلمية).

(٦) المفردات في غريب القرآن ص ٣٤٢.

-ما عدا الحسن- هلكىٰ، وقد رواه داود أيضًا في كتابه مرسلاً فقال: حدثنا صالح المُرِّي عن الحسن ... فذكره.

(والأخير) أي العقل المستفاد (هو المراد بقوله) ولفظ الذريعة والمفردات: وإلىٰ الثاني أشار بقوله (ﷺ) لعليٍّ رضي الله عنه: (**إذا تقرَّب الناس بأبواب البر والأعمال الصالحة فتقرَّبْ أنت بعقلك**) ولفظ الذريعة: إذا تقرَّب الناس إلىٰ خالقهم بـ [أبواب] البر فتقرب إليه أنت بعقلك تسبقهم بالدرجات والزلفىٰ عند الله [والناس] في الدنيا والآخرة.

وأخرجه أبو نعيم[1] بإسناد ضعيف من رواية عاصم بن ضمرة عن عليٍّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقرَّبوا بها إلىٰ ربنا عز وجل فاكتسب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالزلفىٰ والقربة».

وفي الجزء الثالث من أمالي أبي القاسم ابن عليك النيسابوري قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن السُّلَمي، أخبرنا محمد بن منصور العتكي، حدثنا محمد بن أشرس السلمي، حدثنا سليمان بن عيسىٰ السجزي، عن سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن عاصم بن ضمرة، عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اكتسب الناس إلىٰ خالقهم بأنواع البر فاكتسبْ إليه بأنواع العقل تسبقهم بالقربة والراحة والدرجات في الدنيا [والآخرة]».

(**وهو المراد بقول رسول الله ﷺ لأبي الدرداء** رضي الله عنه) فيما أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر[2] فقال: حدثنا مهدي، حدثنا الحسن، عن منصور، عن موسىٰ،

---

(١) حلية الأولياء ١/ ١٨، وليس فيه اللفظ الذي ذكره الشارح، بل لفظه: «يا علي، إذا تقرب الناس إلىٰ خالقهم في أبواب البر فتقرب إليه بأنواع العقل تسبقهم بالدرجات والزلفىٰ عند الناس في الدنيا، وعند الله في الآخرة».

(٢) نوادر الأصول ٢/ ٧٧٠.

عن أبان، عن لقمان بن عامر، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: يا عويمر (ازدد عقلاً تزدد من ربك قربًا) ولفظ النوادر: حبًّا، بدل: قربًا (فقال: بأبي أنت وأمي، وكيف لي بذلك)؟ ولفظ النوادر: قلت: يا رسول الله، مَن لي بالعقل؟ (فقال) ﷺ: (اجتنبْ محارم الله تعالىٰ) ولفظ النوادر: مساخط الله (وأدِّ فرائض الله سبحانه تكن عاقلاً، واعمل بالصالحات من الأعمال تزدد في عاجل الدنيا رفعة وكرامة، وتَنَلْ في آجل العقبىٰ بها من ربك عَزَّوَجَلَّ القرب والعزة) ولفظ النوادر: ثم تنفَّلْ بالصالحات من الأعمال تزدد في الدنيا عقلاً، ومن ربك قربًا، وعليه عزًّا. قال العراقي: وأبان بن أبي عيَّاش ضعيف، وقد رواه بسياق المصنفِ داودُ بن المحبر في كتاب العقل، ومن طريقه رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده[1].

قلت: وأخرج البيهقي وابن عدي[2] من حديث ابن مسعود رفعه: «أدِّ ما افترض الله عليك تكن من أعبد الناس، واجتنبْ ما حرَّم الله عليك تكن من أورع الناس، وارضَ بما قسمه الله لك تكن من أغنىٰ الناس».

(و) روىٰ داود بن المحبر في كتاب العقل فقال[3]: حدثنا ميسرة، عن محمد بن زيد (عن سعيد بن المسيب) بن حَزْن المخزومي، من كبار التابعين (أن عمر) ابن الخطاب (وأبيَّ بن كعب وأبا هريرة ﷺ دخلوا علىٰ رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، مَن أعلم الناس؟ فقال ﷺ: العاقل) ولفظ داود: قال: العاقل (فقالوا) ولفظ داود: قالوا: (فمَن أعبد الناس؟ قال: العاقل. قالوا: فمَن أفضل الناس؟ قال: العاقل. قالوا: أليس العاقل مَن تمَّت مروءته، وظهرت فصاحته، وجادت كفُّه، وعظمت منزلته) إشارة إلىٰ الفضائل النفسية، وهذه الأربعة خيارها،

---

(١) بغية الباحث ٢/ ٨٠٩.

(٢) شعب الإيمان ١/ ٣٧٨، والكامل في الضعفاء ٥/ ١٨٦٢ موقوفا. قال الدارقطني في العلل ٥/ ٨٤: «هذا الحديث يرويه العلاء بن خالد عن أبي وائل، فرواه هناد عن قبيصة عن الثوري عن العلاء مرفوعًا، ورفعه وهم، والصحيح من قول ابن مسعود».

(٣) بغية الباحث ٢/ ٨١٠.

فتمام مروءة الإنسان جمال معنوي، وحسن النطق جمال ظاهري، والسخاء من المتمِّمات، ورفعة المنزلة عند الناس من الغايات (**فقال ﷺ**: ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٣٥ ﴾) [الزخرف: ٣٥] ولفظ داود بعد قوله «الحياة الدنيا»: إلىٰ آخر الآية (**إن العاقل هو المتَّقي وإن كان في الدنيا خسيسًا ذليلاً**) ولفظ داود: خسيسًا قصيًّا. قال العراقي: وقول المصنف «عن ابن المسيب» يريد أنه مرسَل، وهو كذلك.

(**وقال ﷺ في حديث آخر**) رواه ابن المحبر في العقل فقال[١]: حدثنا عدي، عن ابن أبي ذئب، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب قال: أشرف النبي ﷺ علىٰ خيبر ... فذكر زيادة في أوله[٢] ثم قال: (**إنما العاقل مَن آمن بالله، وصدَّق رسله، وعمل بطاعته**) ولفظ داود: بطاعة الله ﷻ. وهو مرسل أيضًا كالذي قبله. وفي الذريعة[٣]: قال رجل لمَن وصف نصرانيًّا بالعقل: مه! إنما العاقل مَن وحَّد الله وعمل بطاعته.

(**ويشبه أن يكون أصل الاسم**) أي اسم العقل (**في أصل اللغة لتلك الغريزة**) التي تقدم وصفُها (**وكذا في الاستعمال**) الخاص والعام (**وإنما أُطلق علىٰ العلوم**) الضرورية، كما ذهب إليه المتكلمون (**من حيث إنها ثمرتها**) ونتيجتها (**كما يُعرَف الشيء بثمرته فيقال**) مثلاً: (**العلم هو الخشية**) ومعلوم أنه ليس بحدٍّ له حقيقةً (**و**) إذا ثبت ذلك ثبت قولُهم: (**العالِم من يخشىٰ الله تعالىٰ؛ فإن الخشية**) وهو الخوف المشوب بتعظيم[٤] (**ثمرة العلم**) ونتيجته (**فتكون كالمجاز**) إذا أُطلق

---

(١) بغية الباحث ٢/ ٨١٤.

(٢) وهي أنه ﷺ قال: «خربت خيبر ورب الكعبة، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». فجاء رجل من عظماء أحبارهم له فصاحة وبلاغة وجمال وهيئة، فقال سعد: يا رسول الله، ما أخلق هذا أن يكون عاقلًا، فإني أرىٰ له هيئة وعقلًا.

(٣) الذريعة ص ٩٦.

(٤) المفردات للراغب ص ١٤٩.

(لغير تلك الغريزة) وإنما قال «كالمجاز» ولم يقل: مجازًا؛ لأنه أورده بحثًا، ولذا قال في أوله: ويشبه. وهذا بظاهره لا غبار عليه، إلا أنه خالف فيه سائر أئمة اللغة وغالب المتكلمين؛ فإنهم ما فسَّروه إلا بالعلم، ولا أحد منهم جعل الغريزة أصلاً في معناه حتىٰ يكون إطلاقه علىٰ العلوم مجازًا، ولذا أنكروا علىٰ المحاسبي مقالته المذكورة آنفًا **(ولكن ليس الغرض البحث عن اللغة)** أشار بهذا إلىٰ أنه خالفهم فيما أطبقوا عليه **(والمقصود أن هذه الأقسام الأربعة موجودة)** كما عرفتَ (و) هذا **(الاسم)** أي اسم العقل **(يطلق علىٰ جميعها)** إطلاقًا صحيحًا **(ولا خلاف في وجود جميعها إلا في القسم الأول)** أي الغريزة فمختلف فيه **(والصحيح وجودها)** أي الغريزة **(بل هي الأصل)** للأقسام الثلاثة **(وهذه العلوم كلها مضمَّنة في تلك الغريزة)** مركوزة فيها **(بالفطرة)** الأصلية **(ولكن تظهر في الوجود إذا جرىٰ سبب)** قوي **(يخرجها)** من أصل الفطرة **(إلىٰ الوجود حتىٰ كأنَّ هذه العلوم ليست بشيء وارد عليها من خارج، وكأنها كانت مستكنة)** أي مختفية **(فيها فظهرت)** وبرزت **(ومثاله)** في الظاهر **(الماء في الأرض؛ فإنه)** يختفي فيها، وإنما **(يظهر بحفر القُنِيِّ)** بضم القاف وكسر النون وتشديد التحتية، جمع قناة وهي الجدول الصغير **(ويجتمع)** مع بعضه **(ويتميز)** ذلك **(بالحس)** والمشاهدة **(لا بأن يُساق إليها شيء جديد)** من خارج **(وكذلك الدهن)** فإنه مستكن **(في)** قلب **(اللوز)** وهو ثمر شجر معروف **(وماء الورد)** فإنه مستكن **(في الورد)** وإنما يُخرجان منهما بسبب قوي في الإخراج **(ولذلك قال تعالىٰ)** في كتابه العزيز: (﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] **فالمراد به إقرار نفوسهم)** المجرَّدة عن الهياكل **(لا إقرار الألسنة؛ فإنهم انقسموا في إقرار الألسنة حيث وُجدت الألسنة والأشخاص)** إلىٰ قسمين **(إلىٰ مُقِرٍّ وإلىٰ جاحد)** فمنهم مَن بقي علىٰ إقراره الأصلي من أول وهلة، ومنهم مَن راجع إقراره فيما بعد بتوفيق من الله تعالىٰ، ومنهم من لم يقرَّ مطلقًا، فالإقرار ثابت بنص الآية، ولكن لا بالألسنة، وهذا الذي أورده المصنف أشار به إلىٰ ثمرة العقل من معرفة الله

الضرورية وغاية ما يبلغ إليه الإنسان من ذلك، فأشرف[١] ثمرة العقل معرفة الله سبحانه وتعالىٰ وحسن طاعته والكف عن معصيته، فمعرفة الله العامية[٢] مركوزة في النفس، وهي معرفة كل أحد أنه مفعول، وأن له فاعلاً فعله ونقله في الأحوال المختلفة، وإليه أشار بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ الآية، فهذا القَدْر من المعرفة في نفس كل أحد، ويتنبَّه الغافل عنه إذا نُبِّهَ عليه فيعرفه كما يعرف أن ما هو مساوٍ لغيره فذلك الغير مساوٍ له (**ولذلك**) أي من هذا الوجه (**قال تعالىٰ**: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾) [الزخرف: ٨٧] وكذا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩] وقال في مخاطبة المؤمنين والكافرين: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾ [النحل: ٥٣ - ٥٤] الآية (**معناه: إن اعتبرت أحوالهم**) المختلفة (**شهدت بذلك نفوسهم وبواطنهم**) وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: (﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾) [الروم: ٣٠] وقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨] (**أي كل آدمي فُطر**) وجُبل (**علىٰ الإيمان بالله** عَزَّوَجَلَّ) والانقياد لطاعته (**بل علىٰ معرفة الأشياء علىٰ ما هي عليها**) ولم يقل: بل علىٰ معرفة الله تعالىٰ، فإنه إنما عنىٰ بالإيمانِ معرفةَ الله الضرورية وهي معرفة كل أحد أنه مفعول وأن له فاعلاً فعله ونقله في الأحوال المختلفة، لا المعرفة المكتسبة؛ فإنه قد تقدم بيانُها في أول الكتاب (**أعني أنها كالمتضمَّنة فيها؛ لقرب استعدادها للإدراك**) وتهيُّؤها لقبوله (**ثم لمَّا كان الإيمان مركوزًا في النفوس**) مودَعًا فيها (**بالفطرة**) الأصلية (**انقسم الناس إلىٰ قسمين: إلىٰ مَن أعرض**) عنه (**فنسي**) لتمادي العهد (**وهم الكفار، وإلىٰ مَن أجال خاطره**) وأداره بحسن تفكُّره (**فتذكَّر**) ما كان منسيًّا (**فكان كمَن حُمِّلَ شهادة فنسيها بغفلة**) عنها (**ثم تذكَّرها**) فيما بعد؛ فإن أصل التذكُّر: محاولة القوة العقلية

---

(١) الذريعة ص ١١٦ - ١١٧.

(٢) في المطبوعة: الضرورية. والمثبت من الذريعة.

لاسترجاع ما فات بالنسيان[١] (ولذلك قال عز وجل: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾) [البقرة: ٢٢١] وقال تعالىٰ: (﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾) [ص: ٢٩] أي العقول، وقال تعالىٰ: (﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾) [المائدة: ٧] وقال تعالىٰ: (﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾) [القمر: ١٧] وغير ذلك من الآيات التي فيها الذِّكر والتذكُّر (وتسمية هذا النمط) أي النوع (تذكُّرًا ليس ببعيد) لغةً (فكأنَّ التذكُّر ضربان) وتحقيق المقام: أن التذكُّر فرع عن الذِّكر، والذكر[٢] هو وجود الشيء في القلب أو في اللسان، وذلك أن الشيء له أربع وجودات[٣]: وجوده في ذاته، ووجوده في قلب الإنسان، ووجوده في لفظه، ووجوده في كتابته؛ فوجوده في ذاته هو سبب لوجوده [في قلبه، ووجوده في قلبه سبب لوجوده] في لسانه[٤] ولوجوده في كتابته، ويقال للوجودينِ - أي الوجود في القلب والوجود في اللسان - الذِّكر، ولا اعتداد بذكر اللسان ما لم يكن ذلك عن ذكر في القلب، بل لا يكون ذلك ذكرًا. والذِّكر بالقلب ضربان: (أحدهما: أن يذكر صورة كانت حاضرة الوجود في قلبه) باستثباته لها (لكن غابت) عنه (بعد الوجود) وانمحت عنه بنسيان أو غفلة فيستعيدها، وهذا هو في الحقيقةِ التذكُّر (والآخَر: أن يذكر صورة كانت مضمَّنة فيه بالفطرة) المراد ثبات وجودها في القلب من غير نسيان أو غفلة، وذِكر الله تعالىٰ علىٰ نحو الأول غير مرتضَىٰ عند الأولياء، وإنما يُحمَد إذا كان علىٰ النوع الثاني.

ثم إن ذكر الله تارةً يكون لعظمته فيتولد منه الإجلال والهيبة، وتارةً يكون لقدرته فيتولد منه الخوف والحزن، وتارةً لفضله فيتولد منه الرجاء، وتارة لنِعَمه

---

(١) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف للمناوي ص ٩٤.

(٢) الذريعة ص ١١٢ - ١١٣. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٣) في المطبوعة: درجات. والتصويب من الذريعة.

(٤) في الذريعة: نطقه.

فيتولد منه الشكر، وتارةً لأفعاله الباهرة فتتولد منه العِبْرة، ومن القسم الرابع قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

(**وهذه حقائق**) جليلة (**ظاهرة للناظر بنور البصيرة**) لا يمتري فيها، ولا يتلعثم بدركها بأول وهلة (**ثقيلة علىٰ**) أفهام (**مَن يستروجه السماع والتقليد**) أي يكون التقليد والسماع من الأفواه والاقتصار عليه يكون رائجًا عنده، فمثله لا يدرك تلك الحقائقَ (**دون الكشف والعيان**) أي المشاهدة، وهو مقام اليقين (**ولذلك تراه**) أبدًا (**يتخبَّط في مثل هذه الآيات**) أي يختلف كلامه فيها؛ لعدم بصيرته (**ويتعسَّف**) أي يركب العسف والجور (**في تأويل التذكُّر**) والذِّكر (**وإقرار النفوس**) عند أخذ العهود (**أنواعًا**): ضروبًا (**من التعسُّفات**) الباطلة عند أهل الحق (**ويتخايل إليه في الأخبار**) النبوية (**والآيات**) الإلهية (**ضروبٌ**): أنواع (**من المناقضات**) الباطلة (**وربما يغلب ذلك عليه**) فيصير طبعًا مركوزًا فيه (**حتىٰ ينظر إليها بعين الاستحقار**) والمذلة (**ويعتقد فيها**) من عدم بصيرته (**التهافتَ**) والتناقض، فيُقدِم علىٰ الجمع بينهما بقوة علمه الظاهر، ولم يستضئ من نور المشاهدة والمعرفة عقلُه، فيقع في محظور عظيم ضرره علىٰ العامة أكثر من ضرر غيره (**ومثاله مثال الأعمىٰ**) فاقد البصر (**الذي يدخل دارًا**) عظيمة المبنىٰ، مصفوفة فيها صفوف الأمتعة في مواضعها (**فيعثر**) برجله (**فيها بالأواني المصفوفة**) من الخزف الصيني والزجاج وغيرها (**في الدار، فيقول**) بلسانه الذي يعبر عن عقله القاصر: (**ما لهذه الأواني لا تُرفَع من الطريق وتُرَدُّ إلىٰ مواضعها؟ فيقال له: هي موضوعة في مواضعها**) التي تليق بها (**وإنما الخلل في بصرك، فكذلك خلل البصيرة يجري مجراه**) أي مجرىٰ خلل البصر، بل (**وأطم منه**) أي أكثر (**وأعظم**) لأن بارتفاع البصيرة ارتفاع النفع بالبصر (**إذ النفس كالفارس، والبدن كالفرس**) يتبعه حيث يريد (**وعمىٰ الفارس**) بنفسه (**أضر**) أي أشد ضررًا (**من عمىٰ الفرس، ولمشابهة بصيرة الباطن لبصيرة الظاهر قال الله تعالىٰ**) في كتابه العزيز في حق حبيبه ﷺ: (﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾)

[النجم: ١١] قال البيضاوي[١]: أي ما رأىٰ ببصره من صورة جبريل أو الله تعالىٰ، أي ما كذب بصره بما حكاه له؛ فإن الأمور القدسية تُدرَك أولاً بالقلب ثم تنتقل منه إلىٰ البصر (**وقال تعالىٰ:** ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾) [الأنعام: ٧٥] واعلمْ أن النفوس القدسية إذا اطمأنت إلىٰ الله تعالىٰ تشعشعت بصيرتها كشعاع البصر، وعند تعطيل الحواس بالنوم أو بالمراقبة ترجع النفس إلىٰ عالَم الملكوت، ولها عروج في العلويات بحسب قوتها في الترقِّي والسير في عالم الملكوت، فيعلو شعاع بصيرتها إلىٰ عالم الروحانيات كشعاع البصر في السموات، وقد أثبت الله تعالىٰ للعقل رؤية في هاتين الآيتين، وكذا في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] وأثبت له إبصارًا في قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝١٩٨﴾ [الأعراف: ١٩٨] (**وسمَّىٰ ضده عمىٰ فقال تعالىٰ:** ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحج: ٤٦] **وقال تعالىٰ:** ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ۝٧٢﴾) [الإسراء: ٧٢] فذمَّهم[٢] بفقدان البصيرة تنبيهًا أن فقدانها اختياري؛ إذ هو بتركهم استفادة العلم، وأكثر فقدان البصر ضروري، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ [الكهف: ١٠١] فلولا أن العين أريدَ بها البصيرة لَما قال تعالىٰ «عن ذكري»؛ لأن الذِّكر لا يُدرَك بحاسة العين. وقال ابن عباس لمن عيَّره بفقدان البصر: إنَّا نُصاب في أبصارنا، وأنتم تصابون في بصائركم (**وهذه الأمور التي كُشفت للأنبياء**) عليهم السلام (**بعضها كان بالبصر، وبعضها كان بالبصيرة، وسُمِّي الكل رؤية**) كما في الآية المتقدمة، وكذا في قوله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [فصلت: ٥٣] لأن للنفوس القدسية في سيرهم وترقِّيهم إلىٰ عالم الملكوت معارج علىٰ قَدْر تبدُّل صفاتها بالسير عن خصائصها، وبحسب

---

(١) تفسير البيضاوي ٥/ ١٥٨.

(٢) الذريعة ص ٩٥.

تلطُّف ذاتها بالتزكية عن أوصافها.

(وبالجملة، من لم تكن بصيرته الباطنة ثاقبة) أي متوقِّدة مضيئة **(لم يعلق به من الدين إلا قشوره وأمثلته)** أي رسومه الظاهرة **(دون لُبابه وحقائقه)** ومحضه وخلاصته.

(فهذه أقسام ما ينطلق عليه اسم العقل) وفي أثناء ذلك الإشارة إلىٰ ثمراته وما يتولد منه.

بيان تفاوت الناس في العقل

اعلم أنه (قد اختلف الناس في تفاوت العقل) فمنهم مَن منعه مطلقًا، ومنهم من أثبته، والمثبتون اختلفوا كذلك على أنحاء شتَّىٰ هل يتطرَّق إلىٰ بعض أقسامها أو كلها؟ (ولا ينبغي الاشتغال بنقل كلام مَن قلَّ تحصيلُه) فرمىٰ عن قوس علم الظاهر من غير تأييد باطني، ولا مشاهدة أمر يقيني، فتحرير كلامِ مثلِه لا يجدي نفعًا، وإنما هو تسويد في بياض (بل الأَولىٰ والأهم المبادرة) أي المسارعة (إلىٰ التصريح بالحق) والتبيين له (والحق الصريح) أي الخالص (فيه أن يقال: إن التفاوت) فيه (يتطرَّق إلىٰ الأقسام الأربعة) منه (سوىٰ القسم الثاني) من أقسامه (وهو العلم الضروري بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات؛ فإنَّ مَن عرف) بعقله (أن الاثنين أكثر من الواحد عرف أيضًا استحالة كون الجسم) الواحد (في مكانين) مختلفين (و) استحالة (كون الشيء الواحد قديمًا حادثًا) لمضادَّتهما (وكذا سائر النظائر وكل ما يدركه) العاقل (إدراكًا محقَّقًا من غير شك) فهذا لا يتطرق إليه التفاوت (وأما الأقسام الثلاثة فالتفاوت يتطرق إليها) كما يأتي بيانه (أما القسم الرابع وهو استيلاء القوة علىٰ قمع الشهوات) وردعها (فلا يخفَىٰ تفاوتُ الناس فيه) بالقلة والكثرة، حتىٰ ترىٰ واحدًا كعشرة، بل واحدًا كمائة وعشرة أخرىٰ هدر دون واحد (بل لا يخفَىٰ تفاوتُ أحوال الشخص الواحد فيه) في نفسه (وهذا التفاوت تارةً يكون لتفاوت الشهوة) في حد ذاتها (إذ قد يقدر العاقل) بقوة عقله (علىٰ ترك بعض الشهوات دون بعض) كأنْ يترك الشهوة الظاهرة ولا يقدر علىٰ ترك الشهوة الخفية (ولكن غير مقصور عليه؛ فإن الشاب قد يعجز عن ترك الزنا) لشدة شبقه وثوران شهوته (وإذا كبر وتم عقله قدر عليه) وارتدع عنه بمقتضىٰ السن (وشهوة الرياء) والسمعة (والرياسة) وما أشبهها (تزداد قوة) وتنمو (بالكِبَر)

أي بالطعن في السن (**لا ضعفًا**) لِما ورد: «يشيب ابن آدم وتشبُّ فيه خصلتان: الحرص وطول الأمل» (**وقد يكون سببه التفاوت في العلم المعرِّف**) المبيِّن (**لغائلة تلك الشهوة**) ومضرَّاتها (**ولهذا يقدر الطبيب**) الماهر العارف (**علىٰ الاحتماء عن بعض الأطعمة**) والأشربة (**المضرَّة**) المؤدِّية إلىٰ الضرر (**وقد لا يقدر علىٰ ذلك من يساويه**) ويماثله (**في العقل إذا لم يكن طبيبًا**) لعدم معرفته بالخواص والطبائع (**وإن كان يعتقد علىٰ الجملة فيه مَضرَّة، ولكن إذا كان علم الطبيب أتم**) وأكثر (**كان خوفه أشد**) وأعظم (**فيكون الخوف جندًا للعقل وعدَّة له في قمع الشهوات وكسرها**) إذ لولا خوفه لَما منعه عنها (**وكذلك يكون العالم**) العامل بعلمه (**أقدر علىٰ ترك المعاصي**) وكسر شهوتها عنه (**من**) العامِّي (**الجاهل؛ لقوة علمه بضرر المعاصي**) وما يترتب عليه منها (**وأعني به العالم الحقيقي**) الذي علمُه لله ولأمر الله (**دون أرباب الطيالسة**) جمع طيلسان، وهو كساء أسود مربَّع، والمراد به علماء الدنيا والقضاة والمخالطون علىٰ الملوك والأمراء أصحاب السواري (**وأصحاب الهَذَيان**) محرَّكة: هو الكلام الكثير، والمراد به أرباب الجدال والمناظرات (**فإن كان التفاوت من جهة الشهوة**) وهو القسم الأول (**لم يرجع إلىٰ تفاوت العقل، وإن كان**) سبب التفاوت (**من جهة العلم**) المعرِّف لغائلة المَضرَّة، وهو القسم الثاني (**فقد سمَّينا هذا الضرب من العلم عقلاً أيضًا؛ فإنه يقوِّي غريزةَ العقل**) ويشدها (**فيكون التفاوت فيما رجعت التسمية إليه، وقد يكون بمجرد التفاوت في غريزة العقل؛ فإنها إذا قويت كان قمعُها للشهوة لا محالة أشد**) وأكثر (**وأما القسم الثالث وهو علوم التجارب فتفاوت الناس فيها لا يُنكَر؛ فإنهم**) أي أهل هذه العلوم المستفادة (**يتفاوتون**) تارةً (**بكثرة الإصابة و**) تارةً (**بسرعة الإدراك، ويكون سببه إما تفاوتًا في الغريزة، وإما تفاوتًا في**) نفس (**الممارسة**) والتجربة (**فأما الأول وهو الأصل**) أي أصل هذه الأقسام (**أعني الغريزة، فالتفاوت فيه لا سبيل إلىٰ جحده**) وإنكاره (**فإنه مثل نور يشرق علىٰ النفس، ويطلع صبحُه ومبادئ إشراقه عند**) بدوِّ (**سن التمييز**) أي البلوغ (**ثم لا يزال ينمو ويزداد نموًّا خفيَّ التدريجِ إلىٰ**

أن يتكامل بقرب الأربعين سنة) هذا هو المشهور، وقد ذكر صاحب القاموس[١] تبعًا لبعض الحكماء أن ابتداء وجوده عند اجتنان الولد، ثم لا يزال ينمو ويزيد إلىٰ أن يكمُل عند البلوغ، فظاهره أن كماله يكون عند سن البلوغ، وهو محل تأمُّل، وقد ورد في الحديث[٢]: «ما من نبيٍّ إلا نُبِّئَ بعد الأربعين»، وقول ابن الجوزي «إنه موضوع؛ لأن عيسىٰ عليه السلام رُفع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، كما في حديث آخر، فاشتراط الأربعين ليس بشيء»[٣] مردود؛ لكونه مستندًا إلىٰ زعم النصارىٰ[٤]، والصحيح أنه رُفع وهو ابن مائة وعشرين[٥]، وما ورد فيه غير ذلك فلا يصح؛ كذا في تذكرة المَجْدُولي.

(ومثاله نور الصبح؛ فإن أوائله تخفَىٰ) عن الأعين **(خفاءً يشق إدراكُه، ثم يتدرج إلىٰ الزيادة)** تدريجًا **(إلىٰ أن يكمُل بطلوع قرص الشمس، وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر)** في القلة والكثرة والزيادة والنقص **(والفرق مُدرَك بين الأعمش)** الذي بعينه عَمَشٌ وهو سيلان الدمع في أكثر الأوقات مع ضعف البصر[٦] **(وبين الحادِّ البصر)** السالم من العلل **(بل سنَّة الله عز وجل جارية في جميع**

---

(١) تاج العروس ٣٠/ ٢٠.

(٢) المقاصد الحسنة للسخاوي ص ٣٧٢.

(٣) في المطبوعة: ليس بشرط. والمثبت من المقاصد.

(٤) روىٰ الحاكم في المستدرك ٢/ ٧٠٠ عن وهب بن منبه في أثر طويل قال: زعمت النصارىٰ أن عيسىٰ عليه السلام عاش إلىٰ أن رفع ابن اثنتين وثلاثين سنة. وفي سنده عبد المنعم بن إدريس، قال الذهبي: ساقط.

(٥) ويؤيده ما رواه الطبراني في المعجم الكبير ٢٢/ ٤١٧ عن عائشة رضي الله عنها في حديث مرض النبي ﷺ، وفيه: «إن جبريل كان يعارضني بالقرآن في كل عام مرة، وإنه عارضني بالقرآن هذا العام مرتين، وأخبرني أنه لم يكن نبي إلا عاش نصف عمر الذي قبله، وأنه أخبرني أن عيسىٰ ابن مريم عاش عشرين ومائة سنة، ولا أراني إلا ذاهبًا علىٰ رأس الستين». لكن في إسناده ثلاثة من الضعفاء: محمد بن عثمان بن أبي شيبة متكلم فيه، وعبد الكريم بن يعقوب شيعي متهم، وجابر الجعفي ضعيف.

(٦) الصحاح للجوهري ٣/ ١٠١٢. تاج العروس ١٧/ ٢٧٧.

خلقه بالتدريج في الإيجاد) فمن ذلك: إيجاد الإنسان في المراتب السبعة المشار إليها بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] **(حتىٰ إن غريزة الشهوة لا تُركَّب في الصبي عند البلوغ دفعةً)** واحدة **(وبغتةً، بل تظهر شيئًا فشيئًا علىٰ التدريج، وكذلك جميع القوىٰ والصفات)** منها قوة الغذاء، وقوة الحس، وقوة التخيُّل، وقوة النزوع، وقوة التفكُّر. فهذه خمس قوىٰ ركَّبها الله تعالىٰ في الإنسان، وجعل المدرِكة خمسًا: الحواس، والخيال، والتفكُّر، والعقل، والحفظ. وجعل الحواس خمسًا ظاهرية وخمسًا باطنية، وجعل للبدن خمس قوىٰ وهي: الجاذبة، والممسكة، والهاضمة، والدافعة. وباعتدالها تكمل الصحة[١]، وأما الصفات فمحمودة ومذمومة، ولكلٍّ منهما أقسام **(ومَن أنكر تفاوت الناس في هذه الغريزة فكأنه منخلع عن ربقة العقل)** لم يَتَحَلَّ بها **(ومَن ظن أن عقل النبي ﷺ مثل عقل آحاد السوادية)** وهم أهل الأرياف **(أو أجلاف البوادي)** الذين يلازمون البادية **(فهو أخسُّ في نفسه من آحاد السوادية)** وأخرج أبو نعيم في الحلية[٢] من رواية الحارث بن أبي أسامة، عن داود بن المحبر، حدثنا عبَّاد بن كثير، عن أبي إدريس، عن وهب بن منبه قال: قرأت إحدىٰ وسبعين كتابًا، فوجدت في جميعها أن الله لم يعطِ جميع الناس من بدء الدنيا إلىٰ انقضائها من العقل في جنب عقل محمد ﷺ إلا كحبة رمل من [بين] جميع رمال الدنيا، وأن محمدًا ﷺ أرجح الناس عقلاً، وأفضلهم رأيًا **(وكيف يُنكَر تفاوت الغريزة ولولاه لَما اختلف الناس في فهم العلوم)** الخفية المَدْرَك **(ولَما انقسموا إلىٰ)** ثلاثة أقسام: **(بليد)** جامد الطبع، غير فَطِن **(لا يفهم)** ما يُلقَىٰ إليه **(بالتفهيم إلا بعد تعب طويل**

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب القانون لابن سينا ١/ ٦٦ - ٧٢.

(٢) حلية الأولياء ٤/ ٢٦.

من المعلم، وإلىٰ ذكي) يتوقَّد ذهنُه ذكاءً (يفهم بأدنىٰ رمز و) أقرب (إشارة) من غير تعب في مراجعته (وإلىٰ كامل) مهذَّب (تنبعث من نفسه حقائق الأمور) وتتفجَّر دقائقها (بدون التعليم، كما قال) الله (تعالىٰ) في مثله: (﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] وذلك مثل الأنبياء عليهم السلام؛ إذ يتَّضح لهم في بواطنهم) المقدَّسة (أمور غامضة من غير تعلُّم وسماع) من مَلَك وغيره، وقال ابن عرفة[١]: هذا مَثَلٌ ضربه الله لرسوله ﷺ، يقول: يكاد منظره [يدل علىٰ نبوته] وإن لم يَتْلُ قرآنًا. وأُنشد في المعنىٰ لعبد الله بن رواحة:

لو لم تكن فيه آيات مبيِّنة كانت بديهته تغنيك بالخبر[٢]

(ويُعبَّر عن ذلك بالإلهام) وهو[٣] إلقاء الشيء في الروع بطريق الفيض، ويختص بما كان من جهة الله تعالىٰ أو من جهة الملأ الأعلىٰ. وقيل: هو إيقاع شيء في القلب يطمئن له الصدر، يخصُّ الله به بعض أصفيائه (وعن مثله عبَّر رسولُ الله ﷺ حيث قال: إن روح القدس) المراد به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل: هو الله تعالىٰ (نفث) أي ألقىٰ، وهو مجاز عن النفخ، وقيل: معناه: أوحىٰ إليَّ ذلك (في رُوعي) أي نفسي، ويُعبَّر عن ذلك بلَمَّة المَلَك أيضًا، وبقية هذا الحديث: «أن نفسًا لن تموت حتىٰ تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها [فاتقوا الله] وأجمِلوا في الطلب، ولا يحملنَّ أحدَكم استبطاءُ الرزق أن يطلبه بمعصية [الله]؛ فإن الله تعالىٰ لا يُنال ما

---

(١) تاج العروس ١/ ٣١٩ نقلا عن العباب للصاغاني. الشفا في تعريف حقوق المصطفىٰ للقاضي عياض ١/ ٢٥٩. وابن عرفة هو إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي العتكي النحوي المعروف بنفطويه.

(٢) تقدم هذا البيت في أول الباب.

(٣) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف للمناوي ص ٦٠. وقال الجرجاني في التعريفات ص ٣٥: «الإلهام: ما يلقىٰ في الروع بطريق الفيض. وقيل: الإلهام ما وقع في القلب من علم، وهو يدعو إلىٰ العمل من غير استدلال بآية ولا نظر في حجة، وهو ليس بحجة عند العلماء إلا عند الصوفية».

عنده إلا بطاعته». هكذا أخرجه أبو نعيم في الحلية(١) عن أبي أمامة، ورواه ابن أبي الدنيا(٢) والحاكم(٣) عن ابن مسعود، وقال البيهقي في المدخل: إنه منقطع. وسيأتي بيان الحديث حيث ذكره المصنف في الباب الأول من آداب الكسب والمعاش.

وأخرج الطبراني في الصغير(٤) والأوسط(٥) من طريق أهل البيت من رواية الحسن بن الحسين بن زيد العَلَوي عن أبيه عن جعفر بن محمد عن أبيه محمد ابن علي عن علي بن الحسين عن الحسين بن علي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال لي جبريل عليه السلام: يا محمد **(أحبِبْ مَن أحببتَ فإنك مفارقه)** ورواية الطبراني: من شئت، بدل: من أحببت **(وعِشْ ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به)** وعند الطبراني: فإنك ملاقيه، وفيه تقديم هذه الجملة على الثانية، وفي آخره: وقال رسول الله ﷺ: «أوجز لي جبريل في الخُطبة». قال: ولا يُروَىٰ عن علي إلا بهذا الإسناد.

وقد رُوي هذا الحديث عن سهل بن سعد، وسياق المصنف أشبه به، إلا أن فيه تقديمًا وتأخيرًا وزيادة في الآخر، أخرجه الطبراني أيضًا في الأوسط(٦) من رواية زافر بن سليمان عن محمد بن عيينة عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: جاء جبريل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا محمد، عِشْ ما شئتَ فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به، وأحبِبْ من شئت فإنك مفارقه، واعلمْ أن شرف المؤمن قيام

---

(١) حلية الأولياء ١٠/ ٢٧.

(٢) القناعة والتعفف لابن أبي الدنيا ص ٣٨ (ط - مؤسسة الكتب الثقافية ببيروت) وأوله: «أيها الناس، إنه ليس من شيء يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أمرتكم به، وإنه ليس من شيء يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة إلا وقد نهيتكم عنه».

(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٦.

(٤) المعجم الصغير ٢/ ٢٠.

(٥) المعجم الأوسط ٥/ ١١٩. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٧٦: فيه جماعة لم أعرفهم.

(٦) المعجم الأوسط ٤/ ٣٠٦.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٣٧٦: وإسناده حسن.

الليل، وعزَّه استغناؤه عن الناس. ورواويه عن زافر تابعه محمد بن حميد الرازي، وتابعه عليه إسماعيل بن توبة فيما رواه الشيرازي في الألقاب، إلا أنه قال: واجمع ما شئت فإنك تاركه، بدل: واعمل ما شئت.

(**وهذا النمط من تعريف الملائكة للأنبياء**) عليهم السلام (**يخالف الوحي الصريح الذي هو سماع الصوت بحاسة الأذن، ومشاهدة المَلَك بحاسة البصر، ولذلك أخبر عن هذا بالنفث في الرُّوع**) وظاهره يؤذِن باختصاصه بالأنبياء؛ إذ جعله من أقسام الوحي، ولكن صرَّح الشيخ الأكبر قُدِّس سره بأنه يقع للأولياء أيضًا، وعبارته[1]: العلوم ثلاثة مراتب:

علم العقل، وهو كل علم يحصل ضرورةً أو عقيب نظر في دليل بشرط العثور علىٰ وجه ذلك الدليل.

الثاني: علم الأحوال، ولا سبيل إليه إلا بالذوق، فلا يمكن العاقل وجدانه ولا إقامة دليل علىٰ معرفته، كالعلم بحلاوة العسل ومرارة الصَّبِر ولذَّة الجماع والوجد والشوق، فهذه علوم لا يعلمها إلا مَن يتَّصف بها ويذوقها.

الثالث: علم الأسرار، وهو فوق طور العقل، وهو علم نفث روح القدس في الرُّوع، ويختص به النبي والوليُّ، وهو نوعان، والعالِم به يعلم العلوم كلَّها ويستغرقها، وليس أصحاب تلك العلوم كذلك.

(**ودرجات الوحي كثيرة، والخوض فيها لا يليق بعلم المعاملة، بل هو من علم المكاشفة**) اعلم[2] أن الله تعالىٰ جعل أقسام كلامه مع عباده ثلاثة: وحيًا بلا واسطة، كما أخبر عن حال النبي ﷺ بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ١٠] وكلامًا من وراء حجاب، كما أخبر عن حال موسىٰ عليه السلام بقوله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤] والذي يدل علىٰ أنه كلَّمه من وراء حجاب

---

(١) الفتوحات المكية ١/ ٣٣ باختصار.

(٢) منارات السائرين لنجم الدين دايه ص ١٠٣ - ١١١.

قوله تعالىٰ حكايةً عن موسىٰ عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي ارفع الحجاب عني لأنظر إليك. وإرسال الرسول وهو جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة، يرسلهم إلىٰ الرسل عليهم السلام، ثم جعل أصناف الوحي ثلاثة: وحيًا للعجماء وهو بالإجراء والتسخير، كما أخبر عن حال النحل بقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ الآية [النحل: ٦٨] ووحيًا للأولياء وهو بالإلهام، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: ١١١] ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧] ووحيًا للأنبياء، وذلك تارةً بواسطة [جبريل] وتارةً بغير واسطة في النوم، فمن الأول: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤] ومن الثاني: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢] وقال ﷺ: «رؤيا[(١)] الأنبياء وحي»، ومن أصناف هذا الوحي ما يبدو في اليقظة فيسمع صوتًا أو يرىٰ ضوءًا، ومنها ما يرىٰ مَلَكًا فيكلِّمه، كما وقع في غار حراء، ومنها ما يظهر [له] المَلَك في أفق الفلكية[(٢)]، ومنه حديث البخاري: «زمِّلوني، زمِّلوني». ومنها ما ينفث المَلَكُ في الرُّوع، وتقدم شاهدُه، ومنها ما نزل جبريل به علىٰ قلبه، ومنها ما يلقيه الله تعالىٰ في القلب من غير واسطة جبريل، كالذي ورد في الأحاديث القدسية، ومنها ما يأتي به جبريل متمثِّلاً في صورة إنسان كدحية والأعرابي، ومنها ما يأتي به غيره من الملائكة، كما جاء في بعض الأحاديث، ومنها ما كان سرًّا بين الله وبين رسوله فلم يحدِّث به أحدًا، ومنها ما يحدِّث [به] الناس، وذلك علىٰ صنفين: فمنه ما كان مأمورًا بكتابته قرآنًا، ومنه ما لم يكن مأمورًا بكتابته قرآنًا فلم يكن من القرآن.

وقال الرافعي[(٣)]: واحتجَّ بالحديث المتقدمِ الشافعيُّ علىٰ أن من الوحي ما يُتلىٰ قرآنًا، ومنه غيره كما هنا، وله نظائر.

---

(١) في المطبوعة: نوم. والمثبت من منارات السائرين.

(٢) في المطبوعة: الملائكة. والتصويب من منارات السائرين.

(٣) فيض القدير للمناوي ٢/ ٤٥١. وقال ابن عبد البر في كتاب التمهيد ٢٣/ ٢٤٠: «وفي قوله عليه السلام: كذلك قال لي جبريل - دليل علىٰ أن من الوحىٰ ما يتلىٰ وما لا يتلىٰ، وما هو قرآن وما ليس بقرآن».

فهذه درجات الوحي التي أشار المصنف إلىٰ أنه من علوم المكاشفة.

(ولا تظنَّ أن معرفة درجات الوحي تستدعي منصب الوحي) كلاًّ واللهِ (إذ لا يبعُد أن يعرِّف الطبيبُ المريضَ درجات الصحة) ومعرفة القُوَىٰ التي باعتدالها تُدرَك الصحة (ويعلِّم المعلِّمُ الفاسقَ درجات العدالة) والتزكية (وإن كان) الفاسق (خاليًا عنها) أي عن درجات العدالة لفسقه (فالعلم شيء، ووجود المعلوم شيء آخر) ولا يلزم من وجود العلم بشيء وجود ذلك المعلوم (فلا كل مَن عرف النبوة والولاية) بدرجاتهما ومراتبهما (كان نبيًّا ولا وليًّا) وأنَّىٰ له ذلك؟ (ولا كل مَن عرف التقوىٰ) وحقيقتها وشروطها وثمراتها (و) عرف (الورع ودقائقه كان تقيًّا) وَرِعًا (وانقسام الناس إلىٰ من يتنبَّه من نفسه ويفهم) بنور من الله تعالىٰ (وإلىٰ من لا يفهم إلا بتنبيه وتعليم) وإرشاد (وإلىٰ من لا ينفعه التعليم أيضًا ولا التنبيه، كانقسام الأرض إلىٰ ما يجتمع فيه الماء فيقوىٰ فيتفجر بنفسه عيونًا) تجري علىٰ الأرض فتنتفع بها المزارع والمنابت وسائر الحيوانات (وإلىٰ ما يحتاج إلىٰ الحفر) بالآلات (ليخرج إلىٰ القنوات) أي الجداول، لكنه بسبب قوي مُخرِج (وإلىٰ ما لا ينفع فيه الحفر وهو اليابس) المستحجر يكدي حافرَه، ويُتعِب نابطَه (وذلك لاختلاف جواهر الأرض في صفاتها) وكذلك الاختلاف في سائر الجواهر علىٰ هذه الصفة (فكذلك اختلاف النفوس في غريزة العقل) علىٰ ما عرفتَ (ويدل علىٰ تفاوت العقل من جهة النقل ما رُوي أن عبد الله بن سلام) هو[1] عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي، أبو يوسف، حليف القواقلة من الأنصار، أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة، وشهد له بالجنة، وشهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية، مات بالمدينة سنة ثلاث وأربعين (سأل رسولَ الله ﷺ في حديث طويل في آخره وصفُ عِظَمِ العرش، وأن الملائكة قالت: يا ربنا، هل خلقتَ شيئًا أعظم من العرش؟ قال: نعم، العقل. قالوا: وما بلغ من قَدْره؟ قال: هيهات! لا يُحاط بعلمه، هل لكم علمٌ بعدد الرمل؟ قالوا:

---

(١) انظر ترجمته في: الاستيعاب لابن عبد البر ١/ ٥٥١ - ٥٥٢. تهذيب الكمال ١٥/ ٧٤ - ٧٥.

لا. قال الله تعالىٰ: فإني خلقت العقل أصنافًا شتَّىٰ كعدد الرمل، فمن الناس من أُعطي حبة، ومنهم من أُعطي حبتين، ومنهم من أعطي الثلاث والأربع، ومنهم من أُعطي فَرَقًا، ومنهم من أُعطي وَسَقًا، ومنهم من أُعطي أكثر من ذلك) قال العراقي: رواه دواد بن المحبر[1] في كتاب العقل فقال: حدثنا ميسرة، عن موسىٰ بن جابان، عن أنس بن مالك ... فذكره مع اختلاف يسير، ورواه الترمذي الحكيم في النوادر[2] مختصرًا فقال: حدثنا مهدي، حدثنا الحسن، عن منصور، عن موسىٰ بن جابان، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق العقل أكثر من عدد الرمل، فمن الناس من أُعطي حبة من ذلك، ومنهم من أُعطي حبتين، ومنهم من أُعطي مُدًّا، ومنهم من أُعطي صاعًا، ومنهم من أُعطي فرقًا، وبعضهم وسقًا». فقال ابن سلام: من هم يا رسول الله؟ قال: «العمَّال بطاعة الله علىٰ قدر عقولهم ويقينهم وجدِّهم والنور الذي في قلوبهم».

(**فإن قلتَ: فما بال أقوام من المتصوفة**) والعُبَّاد (**يذمُّون العقل والمعقول**) ويتمسكون في ذلك بالنقول؟ فهل لذمِّهم إياه من سبب؟ (**فاعلمْ أن السبب**) الباعث لذمِّهم (**فيه أن الناس نقلوا اسم العقل والمعقول إلىٰ المجادلة والمناظرة بالمناقضات**) مع الخصوم (**والإلزامات**) عليهم (**وهو صنعة الكلام**) الذي يأتي بيان ذمِّه في الكتاب الذي يليه (**فلم يقدروا علىٰ أن يقرِّروا عندهم**) ويُثبِتوا (**أنكم أخطأتم في التسمية**) هذه (**إذ كان ذلك لا ينمحي عن قلوبهم**) ولا يزول بوجه من الوجوه (**بعد تداول الألسنة به**) وتلقِّي الخلف عن السلف (**ورسوخه في القلوب، فذمُّوا العقل والمعقول، وهو المسمَّىٰ به عندهم**) فهم يذمون غير مذمَّم (**فأما نور البصيرة**) الباطنة في القلب (**التي بها يُعرَف الله تعالىٰ ويُعرَف صِدق رسله**) عليهم السلام (**فكيف**) يكون مذمومًا أمْ كيف (**يُتصوَّر ذمه وقد أثنىٰ الله تعالىٰ عليه**) في عدة

---

(١) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ٢/ ٨٠٧.

(٢) نوادر الأصول ٢/ ٧٧٠.

مواضع في كتابه العزيز، فمن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣] **(وإن ذُمَّ)** أي أريدَ به إياه **(فما الذي بعده يُحمَد)** في الدنيا؟ **(فإن كان المحمود هو الشرع)** الذي جاء به النبي ﷺ **(فبِمَ عُلمت صحة الشرع؟ فإن)** قال: **(عُلمت بالعقل المذموم الذي لا يوثَق به)** ولا يُعبأ **(فيكون الشرع أيضًا مذمومًا)** فإنَّ ما توقفت عليه صحةُ شيء إذا كان واهيًا فالمتوقف عليه نفسه واهٍ كذلك، وقد عقد لذلك صاحب الذريعة بابًا فقال[١]: تعذُّر إدراك العلوم النبوية علىٰ من لم يتهذَّب في الأمور[٢] العقلية، اعلم أن المعقولات تجري مجرىٰ الأدوية الجالبة للصحة، والشرعيات تجري مجرىٰ الأغذية الحافظة [للصحة] وكما أن الجسم متىٰ كان مريضًا لم ينتفع بالأغذية بل يستضر بها، كذلك من كان مريض النفس لم ينتفع بسماع القرآن الذي هو موضوع الشرعيات، بل صار ذلك ضارًّا مَضرَّة الغذاء للمريض. وأيضًا، فالجهل بالمعقولات جارٍ مجرىٰ ستر مرخىٰ علىٰ البصر وغشاء علىٰ القلب ووقر في الأذن، والقرآن لا يدرك خفيَّاته[٣] إلا مَن كُشف غطاؤه ورُفع غشاؤه وأزيلَ وقره. وأيضًا، فالمعقولات كالحياة التي بها الأبصار والأسماع، والقرآن كالمُدرَك بالسمع والبصر، وكما أنه من المحال أن يسمع ويبصر الميت قبل أن يجعل الله فيه الروح ويجعل له السمع والبصر، كذلك من المُحال أن يدرك مَن لم يحصِّل المعقولات حقائقَ الشرعيات.

(ولا يُلتفت إلىٰ من يقول إنه) أي الشرع **(يُدرَك بعين اليقين ونور الإيمان)** وصفاته **(لا بالعقل)** كما ذهب إليه بعض الصوفية **(فإنَّا نريد بالعقل ما نريده بعين اليقين ونور الإيمان، وهي الصفة الباطنة التي يتميَّز بها الآدمي عن البهائم حتىٰ أدرك بها)** بتلك الصفة **(حقائق الأمور)** وشاهَدَ عرائس الستور، فقولهم «إنه يُدرَك

---

(١) الذريعة ص ١٢٤ - ١٢٥ باختصار.

(٢) في الذريعة: العلوم.

(٣) في الذريعة: حقائقه.

بعين اليقين ونور الإيمان» صحيح، وقولهم «لا بالعقل» غير صحيح، وهذا الذي أنكره عليهم الشيخ (**وأكثر هذه التخبيطات**) والتعسُّفات (**إنما ثارت**) وحصلت (**من جهل أقوام طلبوا الحقائق**) المعنوية (من) ظاهر (**الألفاظ، فتخبَّطوا**) تخبُّطًا واسعًا (**فيها؛ لتخبُّط اصطلاحات الناس في الألفاظ**) لكون كلهم تكلم في الحقائق علىٰ مَشربه وذوقه الذي أدركه فنزَّلها في قوالب الألفاظ، كابن عربي والقاشاني، تراهما يفسِّران الألفاظ بحسب ما عندهم، فقد يكون مطابقًا لِما عند غيرهما، وقد يكون مخالفًا، وهذا الحرالي وابن الكمال تكلما في حدود الألفاظ وحقائقها، فترىٰ هذا يشرِّق، وهذا يغرِّب، ومَن أحاط بكلامهم وجد ذلك فيه.

(**فهذا القَدْر**) الذي ذكرتُه (**كافٍ في بيان العقل**) وشرفه وجلالته وثمرته (**والله أعلم**) وبه (**تم كتاب العلم بحمد الله تعالىٰ ومَنِّه، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ كل عبد مصطفىٰ من أهل الأرض والسماء، يتلوه إن شاء الله تعالىٰ كتاب قواعد العقائد، والحمد لله وحده أولاً وآخرًا**).

وههنا مهمَّات هي للباب متمِّمات لم يُشِر إليها المصنف أردتُ أن أختم بها الباب:

الأولىٰ: بيان[1] منازل العقل واختلاف أسمائها بحسبها. اعلم أن العقل اسم عامٌّ لِما يكون بالقوة وبالفعل، ولِما يكون غريزيًّا ومكتسَبًا، كما تقدم ذلك، وهو في اللغة: قيدُ البعير لئلاَّ يندَّ، وسُمِّي هذا الجوهر به تشبيهًا علىٰ عادتهم في استعارة أسماء المحسوسات للمعقولات، ويُخَصُّ بناء المصدر به لما كان يُستعمل مرةً للحدث ومرة للفاعل، نحو: عدل وصوم وزور، ومرة للمفعول نحو: خلق وأمر. لكن يُتصوَّر منه كونه سببًا ليتقيَّد الإنسان [به] وكونه مقيِّدًا له عن تعاطي ما لا يجمُل، وكونه مقيَّدًا به من بين الحيوان. وأشار ابن الهمام في التحرير أنه مأخوذ

(١) الذريعة ص ٩٧ - ١٠٠. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

من المعقل، وهو الملجأ؛ لالتجاء صاحبه إليه.

والنُّهَىٰ في الأصل جمع نُهْية [أو] اسم مفرد، نحو: جُعَل وصُرَد، أو وصفٌ، نحو: دليل خُتَع وسائق حُطَم، وجُعل اسمًا للعقل الذي انتهىٰ من المحسوسات إلىٰ معرفة ما فيه من المعقولات، ولهذا أحيلَ أربابه علىٰ تدبُّر معاني المحسوسات في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ الآية [السجدة: ٢٦] وقال: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٣ - ٥٤].

والحِجْر أصله من الحَجْر، أي المنع، وهو اسم لِما يلزمه الإنسان من حظر الشرع والدخول في أحكامه، وعلىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾ [الفجر: ٥].

وسُمِّي العقل حِجا من حجاه، أي قطعه [فكأنه] سُمِّي بذلك لكونه للإنسان قاطعًا عمَّا يقبح.

وأما اللُّبُّ فهو الذي خلص من عوارض الشُّبَه وترشَّح لاستفادة الحقائق من دون الفزع إلىٰ الحواس، ولذلك علَّق اللهُ في كل موضع ذِكرَه بحقائق المعقولات دون الأمور المحسوسة.

ومن أسمائه: القلب؛ لأنه لمَّا كان [القلب] مبدأ تأثير الروحانيات والفضائل سُمِّي به، ولذلك عظَّم اللهُ أمره لاختصاصه بما قد أوجده الله لأجله فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: ٣٧] فنبَّه أن القلب إنما يكون في الحقيقة قلبًا إذا كان متخصصًا بما أُوجد لأجله، وما أُوجد لأجله هو المعارف الحقيقية، ولمَّا كان أشرف المعارف هو ما يتخصص به القلب قال تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤] فخصَّه بالذِّكر.

ومن أسمائه: النور، والروح، وقد تقدم ذِكرُهما، والماء في قوله تعالىٰ:

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ [طه: ٥٣] علىٰ قول بعض المفسِّرين.

الثانية: أشار المصنف إلىٰ فضائل العقل الكثيرة، فما يقول في حديث «أكثر أهل الجنة البُلْه». وهو جمع أبله: مَن لا عقل له، فكيف يكون مَن لا عقل له من أكثر أهل الجنة؟ والجواب عنه بوجوه:

الأول: أن المراد بالبُلْه: الجاهلون بأمر الدنيا، العالِمون بأمر الآخرة.

الثاني: أنَّ مَن عبد اللهَ للجنة فهو أبله في جنب من يعبده لكونه ربًّا مالكًا.

الثالث: المراد بهم أهل المعاصي الذين عفا الله عنهم، وأما العقلاء المطيعون فهم أهل الدرجات العلىٰ[(١)].

الثالثة: العقل[(٢)] المكتسَب ضربان، أحدهما: التجارب الدنيوية [والمعارف المكتسبة] والثاني: [العلوم الأخروية و] المعارف الإلهية، وطريقاهما متنافيان، ومَن تصوَّر اختلاف الطريقين لم تعرِض له الشبهةُ التي عرضت لقوم قالوا: لو أن ما هنا حقًّا لَما جهله الذين لا يُلحَق شأوهم في تدبير الدنيا ودقائق الصناعات ووضعوا الحُكْم والسياسات، وذلك كما أنه من المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما لا يوجد إلا في طريق المغرب أو يظفر سالك طريق المغرب بما لا يوجد إلا في طريق المشرق، كذلك من المُحال أن يظفر سالك طريق معارف الدنيا بمعارف طريق الآخرة، ولا يكاد يجمع بين معرفة طريق الدنيا والآخرة معًا علىٰ التحقيق والتصديق إلا مَن رشَّحهم الله لتهذيب الناس في أمور معاشهم ومعادهم

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية ١/ ١٥٥: «البله جمع الأبله، وهو الغافل عن الشر، المطبوع علىٰ الخير، وقيل: هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس؛ لأنهم أغفلوا أمر دنياهم فجهلوا حذق التصرف فيها وأقبلوا علىٰ آخرتهم فشغلوا أنفسهم بها فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهل الجنة، فأما الأبله - وهو الذي لا عقل له - فغير مراد في الحديث».

(٢) الذريعة ص ٩٦. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

جميعًا كالأنبياء وبعض الحكماء.

الرابعة: «المعقول»[١] اختُلف فيه هل هو مصدر أو صفة؟ فالأول ظاهر سياق اللغويين، يقولون: عَقَلَ الرجلُ عقلاً ومعقولاً، ويقولون: ذهب طولاً وعَدِمَ معقولاً، وما لفلان مقول ولا معقول[٢]، وأنشد ابن بَرِّي:

فقد أفادت لهم حِلمًا وموعظةً ... لمن يكون له إرْبٌ ومعقول[٣]

وأنكر سيبويه[٤] ذلك وقال: هو صفة، وكان يقول: إن المصدر لا يأتي علىٰ بناء مفعول ألبتَّة، ويتأوَّل المعقول فيقول: كأنه عُقل له شيءٌ، أي حُبس عليه عقلُه وأُيِّد وشُدِّد. قال: ويُستغنَىٰ بهذا عن المَفْعَل الذي يكون مصدرًا، كما في الصحاح[٥] والعُباب.

الخامسة: في[٦] بيان منازعة الهوىٰ للعقل. اعلمْ أن مَثَل الإنسان في بدنه

---

(١) تاج العروس ٣٠/ ٢١.

(٢) أساس البلاغة للزمخشري ١/ ٦٧٠.

(٣) البيت في كتاب العين للخليل بن أحمد ١/ ١٥٩ منسوب لدغفل بن حنظلة السدوسي النسابة.

(٤) كتاب سيبويه ٤/ ٩٥ - ٩٧ ونصه: «هذا باب نظائر ما ذكرنا مما جاوز بنات الثلاثة بزيادة أو بغير زيادة. فالمكان والمصدر يبنىٰ من جميع هذا بناء المفعول، وكان بناء المفعول أولىٰ به؛ لأن المصدر مفعول، والمكان مفعول فيه، فيضمون أوله كما يضمون المفعول؛ لأنه قد خرج من بنات الثلاثة، فيفعل بأوله ما يفعل بأول مفعوله، كما أن أول ما ذكرت لك من بنات الثلاثة كأوله مفعوله مفتوح، وإنما منعك أن تجعل قبل آخر حرف من مفعوله واو كواو (مضروب) أن ذلك ليس من كلامهم، ولا مما بنوا عليه، يقولون للمكان: هذا مُدخلنا ومُخرجنا، وكذلك إذا أردت المصدر، ويقولون للمكان: هذا متحاملنا، ويقولون: ما فيه متحامل. وأما قوله: دعه إلىٰ ميسوره ودع معسوره، فإنما يجيء هذا علىٰ المفعول، كأنه قال: دعه إلىٰ أمر يوسر فيه أو يعسر فيه، وكذلك: المرفوع والموضوع، كأنه يقول: له ما يرفعه وله ما يضعه. وكذلك (المعقول) كأنه قال: عُقل له شيء، أي حبس له لبه وشُدد، ويستغنىٰ بهذا عن المفعل الذي يكون مصدرا؛ لأن في هذا دليلا عليه».

(٥) الصحاح للجوهري ٥/ ١٧٦٩.

(٦) الذريعة ص ٤٠ - ٤٦. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

كمثل والٍ في بلدة، وقُواه وجوارحه بمنزلة صُنَّاع وعَمَلةٍ، والعقل له كمشير ناصح عالِم، والشهوة فيه كعبد سوء جالب للميرة، والحمية له كصاحب شرطة، والعبد الجالب للميرة خبيث ماكر يتمثَّل للوالي بصورة الناصح، وفي نصحه ذَنَبُ العقرب، ويعارض الوزيرَ في تدبيره، ولا يغفل ساعةً عن منازعته ومعارضته، وكما أن الوالي في مملكته متىٰ استشار في تدبيراته وزيرَه دون هذا العبد الخبيث وأدَّب صاحب شرطته وجعله مؤتمِرًا لوزيره وسلَّطه علىٰ هذا العبد وأتباعه حتىٰ يكون هذا العبد مسوسًا لا سائسًا ومدبَّرًا لا مدبِّرًا استقام أمرُ بلده، كذا النفس متىٰ استعانت بالعقل في التدبير وأدَّبت الحمية وسلَّطتها علىٰ الشهوة وقوَّتها استتبَّ أمرُها وإلا فسدت، ولهذا حذَّرنا اللهُ تعالىٰ غايةَ الحذر من اتِّباع الهوىٰ فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] وقال في ذم مَن اتبعه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] وقال تعالىٰ: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وقال في مدح مَن عصاه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١] والعقل وإن كان أشرف القُوَىٰ وبه صار الإنسان خليفة الله في العالَم فليس دأبه إلا الإشارة إلىٰ الصواب، كطبيب يشير علىٰ المريض بما يرىٰ فيه بُرْؤه، فإن قَبِلَ منه [المريض] وإلا سكت عنه، ولذلك جعل له الحمية لتكون نائبة عنه في المدافعة [والممانعة] ولهذا لا تُتبيَّن فضيلة العقل لمن لا حمية له، ولهذا النظر قيل: المهين مَن لا سفيه له، وقال الشاعر(١):

تعدو الذئابُ علىٰ مَن لا كلاب له ... وتتَّقي مِرْبَض المستأسد الحامي

وأيضًا، مَثَل النفس في البدن مثل مجاهد بُعث إلىٰ ثغر لكي يرعىٰ أحواله، وعقله خليفة مولاه ضُمَّ إليه ليسدده ويرشده ويشهد له وعليه فيما يفعله إذا عاد إلىٰ

(١) هو النابغة الذبياني، والبيت في ديوانه ص ١٦٢ (ط - دار الكتب العلمية).

حضرة الملك[1]، وبدنه بمنزلة فرس دُفع إليه ليركبه، وشهوته كسائس خبيث ضُمَّ إليه ليتفقَّد فرسه، ولا قدرة لهذا السائس عند المولىٰ، والقرآن بمنزلة كتاب أتاه من مولاه، وقد ضُمِّنَ كل ما يحتاج إليه عاجلاً وآجلاً، والنبي ﷺ [بمنزلة رسول] آتاه [الله] الكتاب، وبيَّن له ما يشكل عليه مما يقرؤه من الكتاب، وقبيح أن ينسىٰ هذا الوالي مولاه ويهمل خليفته فلا يراجعه فيما يبرمه وما ينقضه ويصرف همَّه كلَّه إلىٰ تفقُّد فرسه وسائسه ويقيم سائس فرسه مقام خليفة ربه.

ومن وجه آخر، فإن الإنسان من حيث ما جعله الله عالَمًا صغيرًا، و[جعل] بدنه كمدينة، والعقل كملك مدبِّر فيها، وقُواه من الفكر والخيال والحواس كجنده وأعوانه، والأعضاء كرعيَّته، والشهوة كعدوٍّ ينازعه في مملكته، ويسعىٰ في إهلاك رعيته، صار بدنه كرباط وثغر، ونفسه كمقيم فيه مرابط، فإن جاهد عدوَّه فهزمه وأسره وقهره علىٰ ما يجب وكما يجب حمد أثره إذا عاد إلىٰ حضرته، وإن ضيَّع ثغرَه وأهمل رعيته ذمَّ أثره إذا عاد إليه، كما جاء في الحديث: «إن الله تعالىٰ يقول للكافر يوم القيامة: يا راعي السوء، أكلتَ اللحم، وشربت اللبن، ولم تردَّ الضالة، ولم تجبر الكسير، اليوم أنتقم منك». وأيضًا، مَثَلُ العقل مثل فارس متصيِّد، وشهوته كفرسه، وغضبه ككلبه، فمتىٰ كان الفارس حاذقًا وفرسه مروَّضًا وكلبه معلَّمًا فقمن بإدراك حاجته من الصيد، ومتىٰ كان أخرق وفرسه جموحًا أو حرونًا وكلبه عقورًا فلا فرسه ينبعث تحته منقادًا، ولا كلبه يستلين معه مطيعًا، فهو قمن أن يعطب فضلاً عن أن يدرك ما طلب. وهذه الأمثلة - ما عدا الثاني - ستأتي للمصنف في شرح عجائب القلب.

وللإنسان مع هواه ثلاثة أحوال، **الأولىٰ**: أن يغلبه الهوىٰ فيملكه، **الثانية**: أن يغالبه فيقهره مرةً ويُقهَر مرة، **الثالثة**: أن يغلب هواه، ككثير من الأنبياء وبعض صفوة الأولياء، وهذا المعنىٰ قُصد بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى

---

(١) في الذريعة: مولاه.

ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ الآية، وقصد النبيُّ ﷺ بقوله: «ما من أحد إلا وله شيطان، وإن الله قد أعانني علىٰ شيطاني حتىٰ ملكتُه». فإن الشيطان يتسلَّط علىٰ الإنسان بحسب وجود الهوىٰ فيه.

السادسة: في الفرق بين ما يسومه العقل وما يسومه الهوىٰ. اعلم أن من شأن العقل أن يرىٰ ويختار أبدًا الأفضل والأصلح في العواقب، وإن كان علىٰ النفس في المبدأ مؤنة ومشقَّة، والهوىٰ علىٰ الضد من ذلك؛ فإنه يؤثِر ما يدفع به المؤذي في الوقت، وإن كان تعقبه مَضرَّةٌ من غير نظر منه في العواقب، كالصبي الرَّمِد الذي يؤثِر أكل الحلاوات واللعب في الشمس علىٰ أكل الإهليلج[1] والحجامة، ولهذا قال ﷺ: «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات». وأيضًا، فإن العقل يُرِي صاحبَه ما له وما عليه، والهوىٰ يريه ما له دون ما عليه، ويعمي عليه ما يعقبه من المكروه، ولهذا قال ﷺ: «حبُّك للشيء يُعمِي ويُصِمُّ». ولذلك ينبغي للعاقل أن يتهم رأيه أبدًا في الأشياء التي هي له لا عليه ويظن أنه هوىٰ لا عقل، ويلزمه أن يستقصي النظر فيه قبل إمضاء العزيمة، وحتىٰ قيل: إذا عرض لك أمران فلم تدرِ أيهما أصوب فعليك بما تكرهه لا بما تهواه، فأكثر الخير في الكراهة، قال الله تعالىٰ:

---

(١) الإهليلج: جنس أشجار Terminalia ينتمي للفصيلة القمبريطية التي تتبع رتبة الآسيات، ويبلغ عدد أنواعه حوالي ١٠٠ نوع تنتشر في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية، ويكثر في الهند والصين والبرازيل وأوروجواي وأستراليا وإثيوبيا ومعظم دول أمريكا الوسطىٰ وغرب أفريقيا وجنوب شرق آسيا وجزر المحيط الهادي القريبة من آسيا، ولا يوجد في أوروبا ولا أمريكا الشمالية. وأشهر أنواعه: الإهليلج الكابلي، والإهليلج الهندي، والإهليلج الأبيض، والإهليلج البرازيلي، والإهليلج الأمازوني، والإهليلج البربيري، والإهليلج البيضاوي، والإهليلج الفضي. وهي شجرة نفضية معمرة يصل طولها إلىٰ حوالي ٣٠ مترا، وقد يصل عرض جذعها إلىٰ متر. وأجود أنواعه هو الكابلي، وهو معروف في الطب منذ القدم، وتحتوي الثمرة علىٰ حمض الأهليلج أو حمض الشبوليك. وللإهليلج العديد من المنافع الطبية، حيث يطفئ المرارة، ويعالج الجذام والأورام والصداع والربو والسعال، ويقوي الحفظ والعقل والحواس، كما يساعد علىٰ هضم الطعام وتقوية المعدة، وغير ذلك من المنافع.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢١٦] وقال: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ [النساء: ١٩] وأيضًا، فإن ما يرىٰ العقل يتقوَّىٰ عليه إذا فزع فيه إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بالاستخارة، وتساعد عليه العقول السليمة إذا فزع إليها بالاستشارة، وتنشرح له الصدور إذا استُعين فيه بالعبادة، وما يشير به الهوىٰ فبالضد من ذلك. وأيضًا، فإن العقل يرىٰ ما يرىٰ بحُجَّة وعذر، والهوىٰ يرىٰ ما يرىٰ بشهوة وميل، وربما تشبَّه الهوىٰ بالعقل فيتعلق بشبهة مزخرفة ومعذرة مموَّهة، كالعاشق إذا سُئل عن عشقه، والمتناول لطعام رديء إذا سُئل عن فعله. قال بعض العلماء: إذا مال العقل نحو مؤلم جميل والهوىٰ نحو ملذٍّ قبيح فتنازعا بحسب غرضيهما وتحاكما إلىٰ القوة المدبِّرة بادر نورُ الله إلىٰ نصرة العقل، ووساوسُ الشيطان إلىٰ نصرة الهوىٰ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧] فمتىٰ كانت القوة المدبِّرة فيه من أولياء الشيطان ومحبِّيه لم ترَ نور الحق فعميت عن نفع الآجل واغترَّت بلذَّة العاجل فجنحت إلىٰ الهوىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ الآية، ومتىٰ كانت من حزب الله وأوليائه اهتدت بنوره، واستهانت بلذة العاجل، وطلبت [سعادة] الآجل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠٠ - ٢٠١] ومما نبَّه [به] علىٰ فساد الهوىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [المؤمنون: ٧١] أي لو أُعطي كل إنسان ما يهواه - مع أن كل واحد يهوىٰ أن يكون أغنىٰ الناس وأعلاهم منزلة، وأن ينال في الدنيا الخير الأبدي بلا مزاولة ولا تعلُّم - لكان في ذلك فساد العالَم. وقيل في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٤]: ضرب الله الشجرة الطيبة مثلاً للعقل، والخبيثة مثلاً للهوىٰ، ففرع الطيبة النور والإسلام، وفرع الخبيثة

الكفر والضلال. فإن قيل: ما الفرق بين الشهوة والهوىٰ؟ قيل: الشهوة ضربان: محمودة ومذمومة؛ فالمحمودة من فِعل الله تعالىٰ، وهي قوة جُعلت في الإنسان لتنبعث بها النفس لنيل ما يظن [أن] فيه صلاح البدن، والمذمومة من فِعل البشر، وهي استجابة النفس لما فيه لذتها البدنية، والهوىٰ هو هذه الشهوة الغالبة إذا استتبعت الفكرة، وذلك أن الفكرة بين العقل والشهوة، والعقل فوقها، والشهوة تحتها، فمتىٰ ارتفعت الفكرة ومالت نحو العقل صارت رفيعة فولدت المحاسن، وإذا اتَّضعت ومالت نحو الهوىٰ والشهوة صارت وضيعة فولدت القبائح، والنفس قد تريد ما تريد بمشورة العقل تارةً، وبمشورة الهوىٰ تارةً، ولهذا قد يسمَّىٰ الهوىٰ: إرادة.

السابعة: قال(١) بعض الحكماء: خير ما أُعطي الإنسان عقل يردعه، فإن لم يكن فحياء يمنعه، فإن لم يكن فخوف يقمعه، فإن لم يكن فمال يستره، فإن لم يكن فصاعقة تحرقه فتريح منه العِباد والبلاد.

وتحقيقه: أن البواعث علىٰ فعل الخيرات الدنيوية ثلاث، **أدناها**: الترغيب والترهيب ممن يُرجَىٰ نفعه ويُخشَىٰ ضره، **والثاني**: رجاء الحمد وخوف الذم ممَّن يُعتدُّ بحمده وذمه، **والثالث**: تحرِّي الخير وطلب الفضيلة(٢)، وكذلك البواعث علىٰ الخيرات الأخروية ثلاث، **الأولىٰ**: الرغبة في ثواب الله والمخافة من عقابه، وتلك منزلة العامة، **والثانية**: رجاء حمده ومخافة ذمِّه، وتلك منزلة الصالحين، **والثالثة**: طلب مرضاة الله في المتحرِّيات، وتلك منزلة النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وهي أعزُّها وجودًا، ولذلك قيل لرابعة: ألا تسألينَ [الله] في دعائك الجنةَ؟ فقالت: الجار قبل الدار. وبهذا النظر قال بعضهم: مَن عبد اللهَ بعوض فهو لئيم.

---

(١) الذريعة ص ٨١ – ٨٢.

(٢) بعده في الذريعة: «فالأولىٰ من مقتضىٰ الشهوة، وذلك من فعل العامة، والثانية من مقتضىٰ الحياء، وهي من فعل السلاطين وكبار أبناء الدنيا، والثالثة من مقتضىٰ العقل، وذلك من فعل الحكماء».

الثامنة: أورد المصنف في فضل العقل أحاديث، غالبها من كتاب داود بن المحبر، وقد تقدم ما يتعلق به وبكتابه، وبقيت عليه أحاديث من الكتاب المذكور ومن غيره لم يوردها، فمن ذلك: ما رواه المذكور في كتابه: حدثنا عبَّاد، عن ابن جريج، عن عطاء، عن أبي سعيد مرفوعًا: «قسَّم الله العقل ثلاثة أجزاء، فمَن كُنَّ فيه كمُل عقلُه، ومَن لم يكنَّ فيه فلا عقل له: حسن المعرفة بالله، وحسن الطاعة لله، وحسن الصبر علىٰ أمر الله». وهكذا أخرجه الحارث في مسنده[1] من طريقه، ورواه أبو نعيم[2] من طريقين، أحدهما: من رواية سليمان بن عيسىٰ عن ابن جريج به، والثاني: من رواية عبد العزيز بن أبي رجاء حدثنا ابن جريج به. وأخرجه الترمذي الحكيم في نوادره[3] عن مهدي بن ميمون حدثنا الحسن عن منصور عن ابن جريج به، وفي طرق الكل مقال.

وقال داود أيضًا[4]: حدثنا ميسرة، عن موسىٰ بن جابان، عن لقمان بن عامر، عن أبي الدرداء مرفوعًا: «إن الجاهل لا تكشفه إلا عن سوءة وإن كان حصيفًا ظريفًا عند الناس، و[إن] العاقل لا تكشفه إلا عن فضل وإن كان عييًّا مهينًا عند الناس». موضوع، آفته ميسرة، وقد تقدم التعريف بحاله.

وقال داود أيضًا[5]: حدثنا ميسرة، عن موسىٰ بن عُبَيدة، عن الزهري، عن أنس رفعه: «مَن كانت له سجيَّة من عقل وغريزة يقين لم تضرَّه ذنوبُه شيئًا». قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «لأنه كلما أخطأ لم يلبث أن يتوب توبة تمحو ذنوبه، ويبقىٰ له فضل يدخل به الجنة، فالعقل نجاة للعامل بطاعة الله، وحُجَّة علىٰ

(١) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ٢/ ٨٠٠.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٢١، ٣/ ٣٢٣.

(٣) نوادر الأصول ٢/ ٧٧١.

(٤) بغية الباحث ٢/ ٨١٤.

(٥) السابق ٢/ ٨٠٤.

أهل معصية الله». موضوع، آفته ميسرة. وأخرجه العقيلي في الضعفاء[١] من طريقه، وأخرجه الترمذي الحكيم في النوادر[٢] عن مهدي بن عامر، حدثنا الحسن بن حازم، عن منصور، عن الربذي وهو موسىٰ بن عبيدة به، وأخرجه أبو نعيم في الحلية[٣] من رواية سليمان بن عيسىٰ حدثنا مالك عن ابن شهاب عن أنس قال: قلت: يا رسول الله، ما تقول في القليل العمل، الكثير الذنوب؟ فقال: «كل ابن آدم خطَّاء، فمن كانت له سجية عقل وغريزة يقين لم تضرَّه ذنوبه شيئًا ...» وذكر بقية الحديث. قال أبو نعيم: تفرَّد به سليمان بن عيسىٰ، وهو السجزي، وفيه ضعفٌ.

قلت: وقد تقدم التعريف بحاله.

وقال داود أيضًا في كتابه[٤]: حدثنا عبَّاد بن كثير، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس أنه دخل علىٰ عائشة فقال: يا أم المؤمنين، الرجل يقل قيامه ويكثر رقادُه، وآخر يكثر قيامُه ويقلُّ رقاده، أيهما أحب إليكِ؟ فقالت: سألتُ رسول الله ﷺ كما سألتَني فقال: «أحسنهما عقلاً». فقلت: يا رسول الله، أسألك عن عبادتهما. فقال: «يا عائشة، إنما يُسئلان عن عقولهما، فمن كان أعقل كان أفضل في الدنيا والآخرة».

وقال داود أيضًا في كتابه: حدثنا عبَّاد بن كثير، عن أبي إدريس، عن وهب بن منبه: إني وجدت في بعض ما أنزل الله تعالىٰ علىٰ أنبيائه: إن الشيطان لم يكابد شيئًا أشد عليه من مؤمن عاقل، وإنه يكابد مائة ألف جاهل فيشدهم حتىٰ يركب رقابهم فينقادون له حيث شاء، ويكابد المؤمن العاقل فيصعب عليه حتىٰ [لا] ينال شيئًا من صاحبه.

---

(١) الضعفاء ٤/ ١٤٠٢.

(٢) نوادر الأصول ٢/ ٧٧٠.

(٣) حلية الأولياء ٦/ ٣٣٣.

(٤) تقدم هذا الحديث.

وبهذا الإسناد قال وهب أيضًا: لإزالةُ الجبل صخرة صخرة وحجرًا حجرًا أيسر علىٰ الشيطان من مكابدة المؤمن العاقل؛ لأنه إذا كان مؤمنًا عاقلاً ذا بصيرة فلهو أثقل علىٰ الشيطان من الجبال، وأصعب من الحديد، وإنه لَيزاوله بكل حيلة، فإذا لم يقدر علىٰ أن يستزلَّه قال: يا ويله! ما له ولهذا؟ لا حاجة لي بهذا، ولا طاقة لي بهذا، فيرفضه ويتحول إلىٰ الجاهل فيستأسره ويتمكَّن من قياده حتىٰ يُسلِمه إلىٰ الفضائح التي يتعجَّل بها في عاجل الدنيا [كالجلد والحلق وتسخيم الوجوه والقطع والرجم والصلب] وإن الرجلين لَيستويان في أعمال البر فيكون بينهما كما بين المشرق والمغرب أو أبعد إذا كان أحدهما أعقل من الآخر. أخرجه أبو نعيم في الحلية[1] هكذا من طريق الحارث بن أبي أسامة عن داود المذكور.

وأما من غير كتاب داود، فأخرج الخطيب[2] من رواية ابن سَمْعان عن الزهري، والطبراني[3] من رواية منبه بن عثمان حدثني عمر بن محمد بن زيد، كلاهما عن سالم عن أبيه عن عمر مرفوعًا: «إن لكل شيء معدنًا، ومعدن التقوىٰ قلوب العارفين».

وأخرج الخطيب[4] أيضًا من رواية عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر رفعه: «إن الرجل لَيكونُ من أهل الجهاد ومن أهل الصلاة والصيام وممَّن يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكَر وما يُجزَىٰ يوم القيامة إلا علىٰ قَدْر عقله».

وأخرج الخطيب[5] أيضًا من رواية إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة عن نافع عن ابن عمر رفعه: «لا تعجبوا بإسلام امرئ حتىٰ تعرفوا عُقدة عقله».

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ٢٧. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٢) تاريخ بغداد ٥/ ١٩. وفيه: قلوب العاملين.

(٣) المعجم الكبير ١٢/ ٣٠٣ من حديث ابن عمر، وليس عمر.

(٤) تاريخ بغداد ١٥/ ٩٠.

(٥) السابق ١٥/ ٩١.

وأخرج البيهقي في الشعب[١] من رواية خُلَيد بن دعلج عن معاوية بن قُرَّة رفعه: «الناس يعملون بالخير، وإنما يُعطَون أجورهم علىٰ قَدْر عقولهم». خُلَيد ضعيف.

وأخرج ابن عدي من رواية الربيع الجيزي، حدثنا محمد بن وهب الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا مالك بن أنس، عن سُمَيٍّ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رفعه: «أكمل الناس عقلاً أطوعهم لله وأعملهم بطاعته، وأنقص الناس عقلاً أطوعهم للشيطان وأعملهم بطاعته»[٢]. قال ابن عدي: هو باطل منكَر.

وأخرج البيهقي[٣] وابن عدي[٤] من رواية أحمد بن بشير، حدثنا الأعمش، عن سَلَمة بن كُهَيل، عن عطاء، عن جابر بن عبد الله رفعه: «تعبَّد رجلٌ في صومعته، فمطرت السماء، وأعشبت الأرض، فرأىٰ حمارًا له يرعىٰ، فقال: يا رب، لو كان لك حمار رعيته مع حماري؟ فبلغ ذلك نبيًّا من أنبياء بني إسرائيل، فأراد أن يدعو عليه، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: إنما أجازي العِباد علىٰ قَدْر عقولهم». قال البيهقي: تفرَّد به أحمد بن بشير، وقد رُوي من وجه آخر موقوفًا علىٰ جابر، وهو الأشبه.

وقد ورد في فضل العقل غير ما حديث، وهذا الذي ذكرتُ فيه كفاية.

التاسعة: قال الزين العراقي: وهذه الأحاديث التي ذكرها المصنف في العقل كلها ضعيفة، وتعبير المصنف في بعضها بصيغة الجزم مما يُنكَر عليه، وبالجملة، فقد قال غير واحد من الحفَّاظ: إنه لا يصح في العقل حديث؛ ذكره عمر بن بدر

---

(١) شعب الإيمان ٦/ ٣٥٢.

(٢) تقدم هذا الحديث في هذا الباب.

(٣) شعب الإيمان ٦/ ٣٥٣.

(٤) الكامل في الضعفاء ١/ ١٦٩.

الموصلي في كتاب له سمَّاه «المغني عن الحفظ والكتاب»[1] بقوله: لم يصح شيء في هذا الباب، وبعض ما ذكره فيه منتقَض، وقد ورد في العقل أحاديث صحَّحها بعض الأئمَّة. والله أعلم.

إلىٰ هنا انتهىٰ بنا الكلام علىٰ شرح كتاب العلم من إحياء علوم الدين للإمام حجة الإسلام الغزالي قدَّس الله سره ونفع به، وأرجو من فضل الله وحسن توفيقه ومعونته أن يعينني علىٰ إتمام شرح باقي الكتاب، إنه جواد مفضال وهَّاب.

والحمد لله رب العالمين علىٰ نعمائه، والصلاة والسلام علىٰ سيد أنبيائه، وعلىٰ آله وأصحابه وسائر أوليائه.

نجز ذلك في يوم الجمعة بعد الصلاة لخمس بقينَ من محرَّم الحرام افتتاح سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف علىٰ يد مؤلِّفه أبي الفيض محمد مرتضىٰ الحسيني، أفاض الله عليه، حامدًا لله ومصلِّيًا ومسلِّمًا ومستغفرًا.

---

(١) المغني عن الحفظ والكتاب لعمر بن بدر الموصلي ص ٢١ (ط - المطبعة السلفية بالقاهرة) ونصه: «باب في العقل، قال أبو جعفر العقيلي: لا يثبت في هذا المتن شيء. وقال أبو حاتم البستي: ليس عن النبي ﷺ خبر صحيح في العقل».

فهرس موضوعات كتاب العلم

١ - كتاب العلم